تاريخ
الأدب
العربى
٤

دكتور شوقى ضيف

العصر العبّاسىّ الثانى



دار المعارف بمصر

تاريخ
الأدب العربى
٤

العصر العباسى الثانى

تأليف
الدكتور شوقى ضيف

الطبعة الثانية



دار المعارف بمصر

الناشر : دار المعارف بمصر — ١١١٩ كورنيش النيل — القاهرة ج. م. ع.

العصر العبّاسى الثانى

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ

مقدمة

هذا الجزء الرابع من تاريخ الأدب العربى خاصٌ بالعصر العباسى الثانى ، وقد تناولتُ فيه الحياة السياسية وما حدث فيها من تحوُّل مقاليد الحكم من أيدى الفُرْس إلى أيدى الترْك . ولم يكونوا أصحاب ثقافة ولا حضارة ، ولا كان لهم معرفةٌ بإدارة ولا بنظم سياسية ، ففسدت الأداة الحكومية فساداً شديداً . وكانت هناك طبقةٌ تغرْق فى الترف والنعيم ، وكان جمهور الشعب يعيش فى الضَّنْك والبُؤْس . وظلت الحياة العقلية مزدهرةً بما نُقل — وما كان يُنْقَلُ — من الثقافات الأجنبية . مما هيَّأ لظهور فلاسفة عِظام وعلماء بارعين فى جميع العلوم اللغوية والبلاغية والنقدية والتاريخية والإسلامية والكلامية .

وصوَّرتُ نشاط الشعر حينئذ وكيف تمثَّل الشعراء خصائص العربية ودقائقها الجمالية والموسيقية تمثلا تامًّا ، وكيف أوْدعوا أشعارهم ذخائر فكرية غزيرة ، مما جعلهم يجدّدون فى الموضوعات القديمة والأخرى المُستحدَثة فى العصر العباسى الأول صُوَراً مختلفة من التجديد ، تَحفِلُ بما لا يكاد يُحصَى أو يُستَقْصَى من الأفكار المبتكرة والأخيلة المُبتَدعة . وظلوا يَنْمُونَ الشعر التعليمى ويَنْظمون فيه التاريخ وغير التاريخ من صنوف المعرفة .

وبحثتُ بحثًا تحليليًّا تاريخيًّا أعلام الشعراء فى العصر ، وهم على بن الجَهْم والبُحتُرِىّ وابن الرومى وابن المُعْتز والصَّنَوْبَرِىّ ، أما ابن الجَهْم فكان داعيةً للمتوكل يصيح مهللا مع كل عملٍ له ، وأروعُ أشعاره ما نظمه فى الاستعطاف وفى تصوير صلابة نفسه حين ادلهمَّت له الخطوب ونزلت به الكوارث . وكان البُحتُرِىُّ الشاعرَ الرسمىَّ فى بلاط الخلفاء من زمن المتوكل إلى زمن المعتمد ، وأشعاره تمثل النزعة المحافظة التى سادت حينئذ فى الشعر ونقده وتذوقه ، مع ما سُخِّر

له فيها من تلاوين الجمال الموسيقى الآسر وأنغامه وألحانه الرائعة ، ومع مهارته فى وصف المعارك البَحْرية ومظاهر الحضارة والعُمْران . وكان يقابله ابن الرومى ممثل النزعة التجديدية فى الشعر وموضوعاته وأساليبه ومعانيه ، وقد نفذ بعبقريته النادرة إلى لون جديد من شعر الطبيعة الرائع ولون جديد آخر من الهجاء الساخر ، غير أفكار وخواطر وتصويرات لم تخطر لمعاصريه ولا لسابقيه على بال . وتبرز حياة ابن المعتز وبيئته المترفة ومأساة أبيه وجده فى أشعاره ، وهى تزخر بالصور والأخيلة . وكان الصنوبرى يُعْنَى بصنعته الشعرية ، وهو من شعراء الطبيعة ، ويُعَدّ أول ناظم للثلجيات فى العربية .

وعرضتُ لكثيرين وراء هؤلاء الأعلام ، ووزّعتهم على طوائفَ متقابلة ، فشعراءُ للسياسة مع الخلفاء العباسيين أو مع الشيعة أو مع بعض الثوّار ، وشعراء لبعض الوزراء والولاة والقواد ، وشعراء هجاء عادىّ أو مرير ، وشعراء غزل عفيف أو مادّىّ صريح . وشعراء لهو ومجون ، وشعراء زهد وتصوف ، وشعراء شعبيون . وحاولتُ أن أتحدث فى كل طائفة عن خير من يمثّلونها ، مع تصوير موجز لشخصياتهم الأدبية .

ومضيتُ أبحث النثر والتحامَ الفلسفة فيه بالعبارة الأدبية مصوّراً كيف تعاونتْ بيئاتٌ مختلفة فى وَضْع مقاييسه البلاغية ، وكانت الخطابة قد ضعفت ، ولكن الوعظ نشط نشاطًا واسعًا ، وتحوّل من مواعظ زُهْدية إلى مواعظ صوفيّة ، وأخذ ينشأ نثر صوفىّ شَعْبِىّ يعتمد على القَصّ والحكاية بأسلوب بسيط تفهمه العامّة . وتكثر المناظرات فى جميع البيئات العلمية ، وتصبح من طوابع الكتابات الأدبية . وتُجْمَعُ أقاصيص كثيرة عربية وغير عربية فى صور متقابلة من القَدْح والمَدْح . وتظل الرسائل الديوانية مزدهرة بفضل كُتّابها النابهين . وتنشط الرسائل الإخوانية ، ويساعد ضيقُ رُقْعَتها على أن يتكاثر فيها التأنق والتنميق . ويكتب ابن المعتز رسالةً أدبية يملؤها بسجع كثير . ولا نصل إلى عصر الخليفة المقتدر حتى يصبح السجع اللغة العامة للنثر الأدبى جميعه .

وبحثتُ أعلام الكتّاب حينئذ ، وهم إبراهيم بن العباس الصُّولىّ ، والجاحظ ، وابن قتيبة ، وسعيد بن حُمَيْد ، وأبو العباس بن ثَوابة . وكان الصولى أول رئيس

لديوان الرسائل فى العصر، وعنه كانت تَصْدر الكتابات الديوانية من منشورات وغير منشورات، وهو يُعْنَى بدقة ألفاظه واصطفاء كلماته وحُسْن جَرْسها فى الأداء. والجاحظ أكبر كتّاب العصر غير منازع، وكتاباته مرآة صافيةٌ لعصره بجميع طبقاته، مع ما يَسْرى فيها من الاستطراد ومن روح الدعابة، ومع ما تموج به من أسلوب الازدواج الرائع. وقد عرضت خمسة ألوان من فنه النَّثْرى، هى المناظرة، والرسائل الإخوانية، والرسائل الأدبية، والقَصص، والنوادر. وابن قتيبة أكبر مؤلف أدبى بعده، وهو يمزج فى كتابه: «عيون الأخبار» بين الثقافات العربية والإسلامية والفارسية والهندية واليونانية وكذلك ثقافة أهل الكتاب. وبذلك ألغى الحواجز بين تلك الثقافات مثبتًا أنها أقواس وهمية، فقد استحالت جميعها فى كتابه ثقافة عربية، ولم يَعُدْ يرتفع صوت للشعوبية. ويتشبَّه ابن قتيبة كثيراً بالجاحظ فى تمسكه بالواقع ومَزْج الهزل بالجِدّ وفى استخدامه لأسلوب الازدواج من حين إلى حين. وما زال سعيد بن حُمَيْد يَرْقَى فى الدواوين، حتى أسْنِد له ديوان الرسائل، وكان يُعْنَى بالتدقيق فى ألفاظه ومعانيه، نافذاً من خلال حِيَل عقلية كثيرة إلى أفكار مبتكرة طريفة، مع تقطيعات صوتية تُضْفِى على أسلوبه جمالا. ويَلْمَعُ اسم أبى العباس بن ثَوابة، وكان بدوره من رؤساء ديوان الرسائل، وكان يكثر من التأنق والتكلف فى كتابته، مما جعله يَسْتخدم فيها أحياناً السجع، مع العناية بالتصوير، ومع وزن الكلام بمعيار بيانىٍّ دقيق. والله وَلِىُّ الهُدَى والتَّوْفيق.

القاهرة فى أول مايو سنة ١٩٧٣م.

شوقى ضيف

الفصل الأول

الحياة السياسية

١

استيلاء الترك على مقاليد الحكم

مرَّ بنا فى العصر العباسى الأول كيف هيَّأ العباسيون لقيام دولتهم عن طريق الدعوة السريَّة لإمام هاشمى يخلِّص الموالى فُرْسًا وغير فرس من حكم بنى أمية الجائر، محقِّقاً لهم المساواة المشروعة ــ بحكم الإسلام ــ بينهم وبين العرب فى جميع الحقوق الاقتصادية والسياسية والاجتماعية. وسرعان ما أقبلت الجيوش الخراسانية مكتسحة كل ما لقيها من مقاومة للدولة الأموية حتى قضت عليها قضاء مبرمًا. وأعلن العباسيون أنهم أصحاب الحق الشرعى فى الحكم والخلافة، وبذلك استأثروا بها من دون أبناء عمهم العلويين، مما جعل كثيرين منهم يثورون عليهم طوال العصر، كما جعل أنصارهم يدعون لبيتهم العلوى سرًّا كلما وجدوا إلى ذلك سبيلا، فى حين مضى العباسيون يعلنون أنهم أصحاب حق إلهى فى الحكم والسلطان وتمادوا فى حكم استبدادى أشد ما يكون الاستبداد محيطين أنفسهم بكثيرين من الحجَّاب، أما الشعب فلم يزد فى رأيهم عن أن يكون أدوات مسخرةً لجمع الخراج والضرائب الفادحة، مما دفع لقيام ثورات إيرانية مختلفة، على نحو ما صورنا ذلك فى كتاب العصر العباسى الأول. وحقًّا كانت أعلى المناصب وأكثرها فى أيدى الفرس، وكان منهم أكثر الوزراء والقواد، غير أن العباسيين نكبوهم نكبات متوالية، على نحو ما هو معروف عن نكبة البرامكة ونكبة بنى سهل. ونشب من جرَّاء ذلك عداء شديد بين الفرس والعرب، فالعرب يريدون استرداد مجدهم فى العصر الأموى والفرس لا يكتفون بما لهم من مجد حادث فى الدولة، وكأنهم يريدون أن يستعيدوا مجد دولتهم الساسانية القديمة ويمحقوا العرب محقًا، مما أعدَّ

لظهور تيار شعوبى بغيض رافقه تيار إلحاد وزندقة لا يقل عنه عُنْفًا ولا محاولة لهدم الإسلام والعروبة جميعًا . وفى أثناء ذلك كانت الثورات مضطرمة فى شرق الدولة ، وكلما خمدت ثورة اندلعت أخرى ، وكان آخرها اندلاعًا ثورة بابك الخُرَّمى فى آذربيجان التى ظلت نحو عشرين عامًا والتى كلفت الدولة كثيراً من الجيوش إلى أن سَحَقَها المعتصم وقواده سَحْقًا .

وقد أخذ المعتصم حينئذ يفكر فى عنصر جديد يعتمد عليه فى حروبه سوى الفرس ، فثوراتهم لا تنقطع ، وأمانيهم فى إحياء مجدهم القومى لا تخمد ، واستظهارهم للشعوبية والزندقة لا تهدأ فورته ، وهداه تفكيره إلى الاعتماد على عنصر من الرقيق اشتهر لعصره بالصبر تحت ظلال الرماح ، مع حذقه بالرمى يمنة ويسرة ومقبلا ومدبراً ، وهو الرقيق التركى الذى كثر توافده على بغداد والعراق ، فأخذ يستكثر من شرائه وطلبه من سمرقند وفَرْغانة وأشْروسنة إلى أن بلغت عدَّته ثمانية عشر ألفًا[1] ، وكل يوم يزيد ، حتى ضاقت به بغداد وشوارعها . وكان جمهور هذا الرقيق بدواً جُفاة فكانوا يركبون الخيل ويركضونها فى الشوارع فتطأ بعض الشيوخ والأطفال والنساء ، مما اضطر المعتصم أن يبنى لهم مدينة سامراء[2] شمالى بغداد ، وانتقل معهم إليها ، وظلت حاضرة للخلفاء حتى أواخر عهد المعتمد سنة ٢٧٦ للهجرة .

وكان ذلك تحولا خطيراً فى تاريخ الدولة العباسية ، فقد كانت تعتمد كل الاعتماد على الفرس وكانوا أصحاب مدنية وحضارة فبثوهما فى الحياة العربية ، وأعدّوا لنهضة حضارية واسعة تستقى منهم ومن موارد الإسلام والعروبة ومن الثقافات الأجنبية المختلفة ، وخاصة الثقافتين اليونانية والفارسية . أما الترك فلم يكونوا أصحاب ثقافة ولا مدنية ولا حضارة ، إذ كانوا بدواً لا يعرفون الصناعة ولا الزراعة ولا التجارة ولا الفنون ولا الآداب ولا قواعد الملك والسياسة ، إنما هم سكان صحار وقفار وحرب وجلاد وبأس ومراس ، وقد صورهم الجاحظ تصويراً دقيقًا فى رسالته التى

---

(١) النجوم الزاهرة ٢ /٢٣٣ .

(٢) انظر فى تخطيط سامراء والسبب فى بنائها كتاب البلدان لليعقوبى ومعجم البلدان لياقوت وسامراء فى دائرة المعارف الإسلامية وبلدان الخلافة الشرقية تاليف لسترانج وترجمة بشير فرنسيس وكوركيس عواد .

تحدث فيها عن مناقبهم قائلا : « الترك أصحاب عَمَد (خيام) وسكان فياف وأرباب مواشٍ ، وهم أعراب العجم . . . فحين لم تشغلهم الصناعات والتجارات والطب والفلاحة والهندسة ، ولا غَرْسٌ ولا بُنْيانٌ ولا شَقُّ أنهار ولا جباية غَلَّات ، ولم يكن همهم غير الغزو والغارة والصَّيْد وركوب الخَيْل ومقارعة الأبطال وطلب الغنائم وتدويخ البلدان ، وكانت هممهم إلى ذلك مصروفة ، وكانت لهذه المعانى والأسباب مسخَّرة ومقصورة عليها وموصولة بها ، أحكموا ذلك الأمر بأسْره وأتوا على آخره ، وصار ذلك هو صناعتَهم وتجارتهم ولذَّتهم وفخرهم وحديثهم وسمرهم ، فلما كانوا كذلك صاروا فى الحرب كاليونانيين فى الحكمة وأهل الصين فى الصناعات ... وكآل ساسانَ فى الملك والرياسة » .

وهؤلاء البدو الموغلون فى البداوة الذين لم يُعْرَفوا بحضارة ولا ثقافة ولا عُرِفوا بزراعة ولا صناعة ولا تجارة ولا بسلطان ولا بسياسة سرعان ما قبضوا على زمام الحكم ، والمعتصم هو الذى هيَّأ لهم ذلك لا بجعلهم جُنْدَ الخلافة العباسية فحسب ، بل أيضًا باتخاذه لهم مدينةً خاصة وجعلها عاصمة الدولة ، فأتاح لهم الفرصة كى يُخَلَّى بينهم فى المستقبل وبين الخلفاء، فيصبحوا مسخَّرين بأيديهم يصرِّفونهم كما يشاءون . وليس ذلك كل ما صنع فقد ولَّى كبيرهم « إشناس » مصر وجعل له الحق فى أن يولِّى عليها ولاة من قِبَله ، فكان يُدْعَى له فيها على المنابر[1] . وبذلك فتح المعتصم الباب لقواد الترك كى يمسكوا بزمام الشئون الإدارية بجانب ما أمسكوا به من زمام الشئون العسكرية . وخلفه ابنه الواثق فزاد الطين بِلَّةً إذ ولَّى إشناس من بابه فى بغداد إلى آخر أعمال المغرب ، جاعلا له أمر كل هذه البلدان يولِّى عليها من شاء بدون مراجعته ، واستخلفه على السلطنة وألبسه وشاحين بجوهر[2] . وليس ذلك فحسب ما أسبغه على الترك ، فقد ولَّى على الجانب الشرقى للدولة من كُوَر دجلة حتى خراسان والسند « إيتاخ »[3] حتى إذا توفِّى إشناس سنة ٢٣٠ منحه مرتبته وأكثر أعماله[4] . ولم يقف تجنِّى الواثق على الخلفاء من بعده عند هذا الحد ، فقد ارتكب خطأ خطيراً فى حقهم بانصرافه عن اتخاذ ولى عهد بعده للخلافة ، وسرعان

---

(١) النجوم الزاهرة ٢ /٢٢٩ .

(٢) اليعقوبى (طبعة النجف) ٣/٢٠٥ والنجوم الزاهرة ٢/٢٥٢ .

(٣) اليعقوبى ٣/٢٠٥ .

(٤) اليعقوبى ٣/٢٠٦ .

ما استغلّ قوادُ الترك : إيتاخُ وصاحباه وصيف وبُغا الكبير هذه الفرصةَ حين توفى سنة ٢٣٢ للهجرة ، إذ حملوا رجال الدولة على البيعة للمتوكل ، وكان ذلك نذير شؤم إذ أصبحت تولية الخلفاء فيما بعد بيد الترك ، وعما قليل سيصبح عزلهم — كما سنرى — بأيديهم ، وبذلك يتحول إليهم السلطان جميعه، ونصبح منذ خلافة المتوكل بإزاء عصر جديد هو العصر العباسى الثانى .

ويبدو أن المتوكل تنبّه — منذ استيلائه على الحكم — إلى خطورة ازدياد النفوذ التركى ، مما دفعه إلى التخلص سريعاً من إيتاخ ، وكان قد صار إليه أمر الجيش والأتراك والمغاربة والموالى وديوان الخبر أو البريد والحجابة والقيام على دار الخلافة ، وكأنه نائب للخليفة ، بل لكأنما أصبح الخليفةُ ولا سلطان له ، مما جعل المتوكل يوحى إلى بعض أوليائه أن يشيروا على إيتاخ بالاستئذان للحج ، وما إن خرج من سامراء وأبعد فى الطريق إلى مكة حتى عزله المتوكل عن الحجابة وولاها وصيفاً التركى [١] . وهى سياسة سيتّبعها الخلفاء بعد المتوكل أن يضربوا قواد الأتراك بعضهم ببعض . وعاد إيتاخ من الحج ودخل بغداد فقبض عليه حاكمها بأمر من المتوكل وأودعه غياهب السجون مقيداً بالحديد إلى أن توفى لسنة ٢٣٥ . ولكن المتوكل لم يسدّد للترك ضربة قاضية ، بل أخذ يراوغهم ، مما جعله يضيف بُغا الكبير إلى وصيف فى الحجابة . وتتوالى السنوات وهو ضيِّقٌ بقادة الترك ويفكر فى التخلص منهم جميعاً ويهديه تفكيره فى سنة ٢٤٣ أن يترك سامرّاء ويتخذ دمشق حاضرة له ، حتى يصبح بمنأى عن الترك وشرورهم ، ويَشْخَصُ إليها فى ذى القعدة ، ويبدو أن فكرته ذاعت فى الناس مما جعل يزيد بن محمد المهلبى ينشد من قصيدة طويلة [٢] :

أظنّ الشام تَشْمت بالعراقِ ... إذا عزم الإمامُ على انطــلاقِ

فإن تَدَعِ العراقَ وساكنيها ... فقد تُبْلَى المليحةُ بالطلاقِ

ودخل المتوكل دمشق فى صفر لسنة ٢٤٤ عازماً على المقام بها ونقل دواوين الخلافة إليها ، وأمر أن يُبْنَى له بها بعض القصور . غير أن الترك فطنوا لمآربه ، وأنه يريد الإطاحة بهم فطالبوا برواتبهم ، وهو سيف سيظلون يشهرونه على الخلفاء

---

(١) تاريخ الطبرى (طبع دار المعارف) ١٦٧/٩ وما بعدها .

(٢) الطبرى ٢٠٩/٩ .

كلما أرادوا منهم أمراً أو أرادوا لهم عزلا ، واضطر المتوكل أن ينزل على إرادتهم وأن يبرح دمشق بعد نحو شهرين[١]. وعاودته الفكرة ، ولكن لا بعيداً ، بل قريباً ، شمالى سامراء ، إذ فكر فى انتقاله إلى الماحوزة على بعد ثلاثة فراسخ منها وأقطع القواد وحواشيه فيها ، وسماها « الجعفرية » ، وبنى لنفسه فيها قصره « الجعفرى » وقصراً سماه « لؤلؤة » وقصوراً أخرى . وفى أثناء ذلك أخذ يجفو الترك ويجيل الآراء فى استئصالهم والاستبدال بهم ، وكان أول ما صنعه من ذلك أن ضمّ إلى وزيره عبيد الله بن يحيى بن خاقان اثنى عشر ألفاً من العرب[٢] ، وكأنه يريد أن يعيد العرب إلى الجيش وقيادته . وترامت شائعات بأنه يريد أن يفتك بحاجبيه وصيف وبُغا الكبير وغيرهما من قواد الترك ، فصمّموا على مبادرته ، وكانت الأمور قد ساءت بينه وبين ابنه المنتصر ولى عهده ، فوضع يده فى أيديهم ، وعزموا على قتله والتخلص منه ، وأعدّوا لذلك نفراً من أصاغر الترك . منهم بُغا الشرابى وباغر وموسى بن بُغا الكبير فدخلوا عليه هو ووزيره الفتح بن خاقان فى ليلة من ليالى شوال سنة ٢٤٧ للهجرة ، وقتلوهما غير مراعين فيهما عهداً ولا ذمّة[٣]. ومن حينئذ أصبح للترك كل شىء فى الدولة ولم يعد للخلفاء شىء ، وفى ذلك يقول ابن الطقطقى : « استولى الأتراك منذ قتل المتوكل على المملكة ، واستضعفوا الخلفاء ، فكان الخليفة فى يدهم كالأسير ، إن شاءوا أبقوه ، وإن شاءوا خلعوه ، وإن شاءوا قتلوه »[٤].

واعتلى المنتصر عرش الخلافة بأيدى قتلة أبيه من الترك ، بايعوه ثم أخذوا له البيعة من الناس ، ولم يلبثوا أن حضّوه على خَلْع أخويه المعتز والمؤيد من ولاية العهد بعده ، وكان المتوكل أبرمها لهما مع المنتصر ، فخشى الترك أن يخلفه أحدهما فيبطش بهم ثأراً لأبيه ، وتمّ خَلْعهما . وتوفّى المنتصر بعد ستة أشهر من خلافته لسنة ٢٤٨ فاجتمع بُغا الكبير وبُغا الصغير وأوتامش ابن أخت بغا الكبير ، وكانوا قد أخذوا المواثيق على مَنْ سواهم من قواد الترك والمغاربة والأشروسنيّة على

---

(١) مروج الذهب للمسعودى (طبعة دار الأندلس) ٤/٣٢ والطبرى ٩/٢١٠ .

(٢) التنبيه والإشراف للمسعودى (طبعة أوربا) ص ٣٦١ .

(٣) طبرى ٩/٢٢٥ .

(٤) الفخرى فى الآداب السلطانية (طبع المطبعة الرحمانية بمصر) ص ١٨١ .

أن يرتضوا من يرضونه للخلافة، واختاروا أحمد بن محمد بن المعتصم ولقبوه بالمستعين، وبايعوه وبايعه الناس . وتُوفِّى بُغا الكبير وأصبح أوتامش المتصرف الأول فى شئون الدولة ، وأخذ يختزن أموالها هو وشاهك وأم المستعين ، فكل ما يرد من الآفاق يصير إلى الثلاثة ، ووصيف وبُغا الشرابى الصغير بمعزل من ذلك مما أثار حفيظتهما على أوتامش وجعلهما يغريان به القواد الآخرين حتى ثاروا عليه وسفكوا دمه وانتهبوا داره[1]. واستدارا إلى باغر قاتل المتوكل، وكان شرُّه قد تعاظم فى قصر الخلافة فقتلوه بدوره . وسئم المستعين حركات الترك ودسائسهم ، فرأى النزول إلى بغداد والاستقرار بها ، وجزعوا لصنيعه ، فأرسلوا إليه وفداً يسترضيه سنة ٢٥١ ، ولكنه رفض العودة إلى سامراء ، فخلعوه ، وبايعوا المعتز بالله ولى العهد القديم للمتوكل بعد المنتصر ، فكان هناك خليفة مولًّى بسامراء وخليفة معزول ببغداد، هو المستعين ، ونشبت الحرب بينهم وبينه ، وحاصروا بغداد ، وما زالوا به حتى خلع نفسه من الخلافة وانحدروا به إلى « واسط » وهناك تم تدبير قتله[2]. وبذلك أصبحت الخلافة خالصة للمعتز سنة ٢٥٢ وسمع بأن نفراً من الترك يراودون أخاه المؤيد على تولى الخلافة وعزله ، فسجنه ثم فتك به . وأخذ يحاول الفتك بقواد الترك مستثيراً ضدهم المغاربة والفراغنة ، وفتك بوصيف وبُغا الشرابى الصغير قاتل أبيه ، يقول المسعودى : « ولما رأى الأتراك إقدام المعتز على قتل رؤسائهم وإعماله الحيلة فى إفنائهم وأنه قد اصطنع المغاربة والفراغنة صاروا إليه بأجمعهم لأربع بقين من رجب سنة خمس وخمسين ومائتين وجعلوا يقرّعونه بذنوبه ويوبّخونه على أفعاله وطالبوه بالأموال (رواتبهم) وكان المدبر لذلك صالح بن وصيف مع قواد الأتراك[3] . وأرسلوا تَوًّا إلى بغداد فى طلب محمد بن الواثق ، وأمروا المعتز بأن يخلع نفسه من الخلافة وصدع بأمرهم ، وبايعوا محمداً ولقبوه بالمهتدى ، وسجنوا المعتز ثم قتلوه سريعًا . وحاول المهتدى أن يسير سيرة عمر بن عبد العزيز فى العدل ورفع المظالم والاقتصاد فى النفقات ، ويقال إنه أمر بإخراج آنية الذهب والفضة من الخزائن فكُسرت وضُربت دنانير ودراهم ، وقرَّب العلماء ورفع منازل الفقهاء وحرَّم الشراب ونهى عن القيان فثقلت وطأته على الخاصة والعامة . وكان قد مضى مثل ابن عمه المعتز يفتك برؤساء الأتراك وقادتهم

---

(١) طبرى ٢٦٣/٩ .

(٢) طبرى ٣٤٨/٩ ومروج الذهب ٧٧/٤ .

(٣) مروج الذهب ٩٣/٤ .

وفى مقدمتهم صالح بن وصيف وبايكباك أحد زعمائهم ، فقتلوه فى رجب[١] سنة ٢٥٦ .

ويتولى الخلافة المعتمد أحمد بن المتوكل ، يبايعه الترك ثم تبايعه العامة، وكانت ثورة الزنج قد نشبت فى عصر المهتدى ، وعبثًا استطاع قواد الترك أن يُجْهزوا عليها ، إذ استفحل شرها وتفاقم ، فضعف شأنهم من جهة ، وشُغلوا من جهة ثانية عن لعبهم المعتاد بالخلفاء ، وخلْعهم وسَفْك دمائهم . ويُتاح للمعتمد ودولته قائد عظيم من أهل بيته هو أخوه أبو أحمد طلحة الملقب بالموفق فيقود بنفسه المعارك مع الزنج ومع مَنْ ثاروا بإيران ويُكْتَبُ له الظفر والقضاء على الزنج قضاء مبرمًا، وبذلك يردّ إلى الخلافة العباسية هيبتها ، ويَحْنى الترك رءوسهم لها ولا نعود نسمع بفتنة حُجّاب الخليفة عليه وتدبيرهم لخلعه، وكانوا حينئذ يارجوخ وكيغلغ وبكتمر بن طاشتمر ،وقد ظلوا جميعًا يصدعون لأوامره وأوامر أخيه الموفق حتى توفيا جميعًا، وبويع من بعده لسنة ٢٧٩ ابنُ أخيه الموفق أبو العباس أحمد ولُقّب بالمعتضد ، وكان قد أبلى مع أبيه فى حرب الزنج وغيرها من الحروب بلاء حسنًا فهابه الترك وقوادهم ، ونراه فى سنة ٢٨٢ يقبض على كبيرهم بكتمر بن طاشتمر ويسجنه ويصادر أمواله وضياعه ولا يحركون ساكنًا رهبة منه وهيبة له[٢] ، وظلوا من بعده خانعين لابنه المكتفى الذى ولى الخلافة سنة ٢٨٩ غير أنه اقترف خطأ فاحشًا إذ ارتضى أخاه المقتدر وهو صبي وليًّا للعهد من بعده، وكان حريًّا به أن يجعل ولاية العهد فى شخص حصيف من أهل بيته يستطيع أن يقف الترك وقادتهم عند حدّ من السلطان لا يتجاوزونه . وتوفى سنة ٢٩٥ فخلفه المقتدر وهو فى الثالثة عشرة من عمره ، وعظم كلام الناس فيه ، وقالوا كيف يلى الخلافة من لم يبلغ الحلم ، وأجمع أمرهم على أن يتولاها عبد الله بن المعتز ، وأخذ له البيعة على الناس محمد بن داود ابن الجراح الفقيه والأديب المشهور ، وبايعه القضاة والعدول ، وتلقب بالمنتصف وقيل بالراضى وقيل بالقائم بالحق وتقلد ابن الجراح الوزارة ولكن الأمر لم يدم له أكثر من يوم وليلة ، إذ ثار الترك عليه يتقدمهم كبيرهم مؤنس ، وأُخذ عنوةً وقُتل ، وتفجّع عليه كثير من الشعراء . أما ابن الجراح فاستتر مدة ثم انكشف أمره ،

(١) طبرى ٩/٤٥٦ ومروج الذهب ٤/٩٦ .
(٢) طبرى ١٠/٤٠ .

وقُتل بدوره ، وعادت الخلافة إلى المقتدر[١] ، وعاد الترك إلى نفوذهم القديم قبل المعتمد وأخيه الموفق . وزاد الأمور سوءاً أن أم المقتدر « شغب » وهى أم ولد رومية شركت مؤنساً فى تصريف شئون الحكم والسياسة ، فكانت الوزارة لا تُسْنَدُ إلى شخص فى عام حتى ينحّى عنها فى عام قابل ، ودارت الأيام ، فإذا مؤنس يسخط على المقتدر وتعود مع السخط قصة رواتب الجند . ويتفاقم الأمر بينهما فى سنة ٣١٧ ويُعْزَلُ الخليفة ويولّى أخوه محمد ويلقب بلقب القاهر بالله ، ويُرْتَقُ الفتق بين مؤنس والمقتدر فيعيده إلى الخلافة ويجدّد له البيعة [٢] . وما تلبث السماء أن تكفهرّ ، فيعود الصدام بين مؤنس والمقتدر ، ويُقْتل الخليفة سنة ٣٢٠ ويولّى مؤنس الخلافة بعده القاهر بالله ، وكان شجاعاً غير أنه كان أحمق أهوج شديد الإقدام على سفك الدماء ، وكان لا يكاد يصحو من سكر ، ومع ذلك حرّم على الناس الخمر والسماع ، واستطاع القضاء على مؤنس ونفر من القواد[٣] ففسد ما بينه وبين الترك وسرعان ما خلعوه سنة ٣٢٢ وسملوا عينيه[٤] ، وبايعوا بعده الراضى بالله أبا العباس أحمد بن المقتدر ، وظل يلى الخلافة حتى توفى سنة ٣٢٩ . وفى عهده تغلّب أصحاب السيوف ولم يعد للخليفة سوى الاسم . وكان شاعراً بليغاً سمحاً واسع العطاء مات وهو فى الثانية والثلاثين من عمره ، وخلفه أخوه المتقى بالله ، وكان تقياً صالحاً ، إلا أنه لم يكن على بصر بالحكم والسياسة ، فحدثت فى زمنه فتن وحروب كثيرة بين الجند ونُهبت دار الخلافة ، وقُبض عليه لسنة ٣٣٣ وخُلع وسُملت عيناه[٥] . وتولاها بعده المستكفى بالله ابن المكتفى ، ولم يكد يدور به عام فى خلافته حتى نزل معز الدولة البويهى بغداد ، فلقّبه المستكفى بأمير الأمراء وأعطاه الطوق والسوار وآلة السلطنة وعقد له لواء . غير أن معز الدولة لم يلبث أن أمر بالقبض عليه ، فخُلع من الخلافة ونُهبت داره وسُملت عيناه [٦] ، وبذلك ينتهى العصر العباسى الثانى بدخول البويهيين الفرس بغداد وزوال تسلط الترك وقوادهم على مقاليد الحكم دون مآب .

---

(١) طبرى ١٠/١٤٠ — ١٤١ .

(٢) تكملة تاريخ الطبرى للهمدانى (طبع المطبعة الكاثوليكية ببيروت) ص ٥٨ .

(٣) مروج الذهب ٤/٢٢١ والهمدانى ص ٧٨ .

(٤) مروج الذهب ٤/٢٢١ والفخرى ص ٢٠٥ . والهمدانى ص ٨٠ .

(٥) الفخرى ص ٢١٠ ومروج الذهب ٤/٢٤٧ والهمدانى ص ١٤٣ .

(٦) مروج الذهب ٤/٢٧٦ والفخرى ص ٢١٢ والهمدانى ص ١٤٩ .

٢

تدهور الخلافة

رأينا الترك يسيطرون على أداة الحكم بعد مقتل المتوكل فى السنوات الثمان التى تلته، ثم منذ عصر المقتدر ، إذ كانوا هم الحكام الحقيقيين للدولة ، ولم يكن للخلفاء حينئذ أى سلطان ، ومن أين يأتيهم السلطان والترك يولّونهم ويعزلونهم بل يسفكون دماءهم وكل ما يأتون من الأمر أو يدعون فإنما هو بتدبيرهم ؟ وصوّر ذلك بعض الشعراء لعهد الخليفة المستعين (٢٤٨ — ٢٥٢ ﻫ) ، فقال [١] :

خليفةٌ فى قَفَصٍ بين وصيفٍ وبُغا
يقول ما قالا له كما يقول البَبّغا

فالخليفة حينئذ كان أشبه ما يكون بببّغاء فى قفص يردّد ما يقوله مخاطبه ولا أمر يملكه ، فالأمر كله لحاجبيه : وصيف وبغا ، حتى إذا دارت فكرة خلعه بذهنيهما خلعاه ، وولّيا بعده المعتز بالله (٢٥٢ — ٢٥٥ ﻫ) ويُرْوَى أنه لما جلس على سرير الخلافة أحضر أصحابُه المنجمين وسألوهم كم يظل خليفة للمسلمين ؟ وكم يعيش ؟ وكان بالمجلس بعض الظرفاء فقال : أنا أعْرَفُ من هؤلاء المنجمين بمقدار خلافته وعمره ، فقالوا له : فكم تقول إنه يعيش ؟ وكم يملك ؟ فقال : طالما أراد الترك ذلك ، فلم يبق فى المجلس أحد إلا غلبه الضحك [٢] . ولم يمكث المعتز فى دست الخلافة سوى ثلاث سنوات إذ سرعان ما خلعه الترك وسفكوا دمه ، وولوا بعده المهتدى (٢٥٥ — ٢٥٦ ﻫ) وكان حسن السيرة ورعًا تقيًّا اطرح الملاهى وحرّم الشراب والغناء ، وكأنما آذت الترك سيرته الطاهرة فخلعوه ، وولوا المعتمد (٢٥٦ — ٢٧٩ ﻫ) ، وكان منهمكًا فى اللهو واللذات غير أن أخاه طلحة الذى لُقب بالموفق نهض بالأمر من دونه فثبّت الخلافة إلى أبعد حد ، وأعاد إليها بحزمه وعزمه وجِدّه هيبتها ومكانتها المهدرة ، وقد ترك

(١) مروج الذهب ٤/٦١ .

(٢) الفخرى ص ١٨١ .

أخاه عاكفًا على ملذاته ، واحتمل أعباء الخلافة فى البطولة والحرب والنفوذ من المشكلات الصعاب ، بحيث أصبح هو الخليفة الحقيقى ، أما أخوه المعتمد فلم يكن له من الخلافة سوى الاسم وصوّر ذلك بنفسه قائلا [١] :

أليس من العجائب أنَّ مثلى يرى ما قلَّ ممتنعاً علَيْهِ

وتُؤْخَذُ باسمه الدنيا جميعاً وما من ذاك شيءٌ فى يَدَيْهِ

وتصادف أن توفى الموفق قبل المعتمد بقليل وكان وليًّا للعهد ، فجعل المعتمد ولاية العهد لابنه المعتضد وكان مثل أبيه بطلا مغواراً ، فولى الخلافة بعد عمه المعتمد (٢٧٩ — ٢٨٩) ، فأكمل لها ما أحاطها به أبوه من العزة والمهابة ، فلم يرتفع للترك فى عهده صوت ، وكان اسمه — كما مرَّ بنا — أبا العباس أحمد فتلقب بالمعتضد بالله ، وفيه يقول ابن تغرى بردى : «كان المعتضد شجاعًا مهيبًا أسمر نحيفًا معتدل الخلق ظاهر الجبروت وافر العقل شديد الوطأة من أفراد رجالات بنى العباس وشجعانهم ، كان يتقدم إلى الأسد وحده » ، ويقول : « هو آخر خليفة عقد ناموس الخلافة ثم أخذ أمر الخلفاء بعده فى إدبار» [٢] . وخلفه ابنه المكتفى (٢٨٩ — ٢٩٥ هـ) وكان قصير النظر فاتخذ ولى عهده أخاه المقتدر وهو لا يزال صبيًّا ، فولى بعده الخلافة (٢٩٥ — ٣٢٠ هـ) ، وسنه ثلاث عشرة ، فكأن كل ما أحكمه جده الموفق وأبوه المعتضد قوَّضه فى لحظات ، فبمجرد أن تسلم مقاليد الحكم وهو غلام عاد للترك سلطانهم وطغيانهم وعاد معهما الخلع وسفك الدماء ، وزادوا سَمْل الأعين .

وإذا كان المكتفى أخطأ فى أواخر العصر بتولِّى أخيه المقتدر للعهد وهو صبى فإن المتوكل اقترف بدوره خطأ عظيمًا فى أوائل العصر ، إذ عقد ولاية العهد لثلاثة من أبنائه [٣] ، وكان حريًّا به أن يتعظ بجده الرشيد وتوليته العهد للأمين والمأمون والقاسم ، مما جرَّ بلاء كبيراً ذهب ضحيته الأمين وأحرقت بغداد على نحو ما مرَّ بنا فى كتاب العصر العباسى الأول ، فكان حريًّا بالمتوكل ألا يعرّض أبناءه

---

(١) الديارات للشابشتى (الطبعة الثانية — مطبعة المعارف ببغداد) ص١٠١ .

(٢) النجوم الزاهرة ١٢٧/٣ — ١٢٨ .

(٣) طبرى ١٧٥/٩ ومروج الذهب ٥/٤ والنجوم الزاهرة ٢٨٠/٢

للتنافس على الخلافة ، وكان المنتصر أولهم فى الولاية ، ويليه المعتز والمؤيد ، فأوغر المتوكل صدره حتى أصبح خصماً له . وإذا كانت حادثة الرشيد جرّت مقتل ابنه الأمين فإن صنيع المتوكل أدى إلى مقتله وسفك دمه . وكأن المتوكل هو الذى هيأ للترك أن يغلبوا على الخلافة وأن يصبحوا هم أصحاب السلطان الحقيقى يولّون ويعْزلون ويَسْجنون ويقتلون ، وتمادوا فى ذلك حتى ردّ الموفق إلى الخلافة مهابتها ، وتبعه فى صنيعه ابنه المعتضد ، ولكن لم يلبث المكتفى أن هوى بها من حالق ، فعاد إلى الترك كل سلطانهم وكل بغيهم وعدوانهم على الخلافة والخلفاء .

وكان من أهم الأسباب فى تدهور الخلافة العباسية أن كثرة الخلفاء انغمست فى اللهو والترف والإقبال على كل متاع مادى من بناء قصور باذخة ومعيشة كُفلت لها كل وسائل النعيم وأدواته ، وأولهم المتوكل ، ونراه لا يبنى لنفسه بسامراء قصراً واحداً ، بل قصوراً ينفق عليها أموالا طائلة ، منها الشاه والعروس والشبداز والبديع والغريب والبرج ، ويقال إنه أنفق على القصر الأخير مليونًا وسبعمائة ألف دينار . وبنى فى سنة ٢٤٦ بالماحوزة على بعد ثلاثة فراسخ من سامراء شمالا قصوراً عدة ، منها الجعفرى والهارونى واللؤلؤة ، كلفته ملايين الدنانير [١] . ويروى أنه سأل شخصًا حين أتمّ بناء الجعفرى كيف قولك فى دارنا هذه ؟ فأجابه بقوله : إن الناس بنوا الدور فى الدنيا وأنت بنيت الدنيا فى دارك [٢] ، وهو سَفَهٌ وخُرْق ، فالخليفة لا يفكر إلا فى نفسه وملذاته ، وكأن ليس هناك جيوش تُعَدّ للحرب بأسلحتها وعددها الكثيرة ، وكأن ليس هناك رعية يقوم الخليفة على مصالحها ، فيبنى لها المستشفيات ويوفر لها الغذاء والكساء ، بل الرعية تكدح وتشقى وتذوق مرارة الشقاء والكدح لينعم الخليفة ويلهو ويبنى القصور ويملأها بالجوارى من كل لون . وتبع الخلفاء المتوكل يقتدون بسيرته السيئة ، ما عدا المهتدى والمتقى وكانت مدة خلافتهما قصيرة ، وحتى المعتضد الفارس الحازم حزمًا لا يدانيه حزم يقول عنه المسعودى لم تكن له رغبة إلا فى النساء والبناء ، ويذكر أنه أنفق على قصره المعروف بالثريا أربعمائة ألف دينار ، وكان مجموعة من الدور والقصور تمتد ثلاثة فراسخ [٣] ، ثم تكون النكبة الكبرى بتولى المقتدر الخلافة وهو صبى ، ويقال إنه كان فى قصره أحد عشر

(١) معجم البلدان فى سامراء والطبرى ٢١٢/٩ ومروج الذهب ٤٠/٤ والنجوم الزاهرة ٣٢٠/٢ .

(٢) مروج الذهب ١٤٧/٤ .

(٣) مروج الذهب ١٤٥/٤ .

ألف غلام خصيّ من الروم والصقالبة والسودان ، ويقال أيضًا إنه أتلف من الأموال ثمانين مليونًا من الدنانير [١] غير ما بدّده من الجواهر الثمينة التي كانت تحتفظ بها خزائن الدولة منذ خلفائها الأولين .

وطبيعي أن يقضي هذا السفه على هيبة الخلافة وأن يستذلها الترك وخاصة حين يطلبون للجيش رواتبه فيجدون الخزينة خالية الوفاض . وقد فسد حينئذ الحكم فساداً شديداً، إذ كان الوزراء يرتشون ومثلهم الولاة على الأقاليم وكبار الكتاب ، بل إنهم جميعًا كانوا يختلسون أموال الخراج والضرائب وما كان يصير إلى الدولة من البلدان المختلفة ، وقد بدأ هذا الوباء بأخرة من العصر العباسي الأول في زمن الواثق إذ صادر في سنة ٢٢٩ للهجرة كتّاب الدواوين واستخلص منهم نحو مليوني دينار[٢] ، وكلما تقدمنا في العصر العباسي الثاني اتسع الخرق ولم يعد من الممكن رَتْقُه ، والمذلك مظهر واضح هو كثرة المصادرات لأموال الوزراء والكتّاب ، إذ نرى المتوكل يصادر أموال ابن الزيات وزير آبائه ، ويصادر أموال كاتبه عمر بن الفرج الرُّخَّجيّ . ويقال إنه أخذ من أمواله ما قيمته مائة وعشرون ألف دينار وأخذ من أخيه نحو مائة وخمسين ألفًا[٣] ، ونكب كاتبًا ثانيًا استوزره مدة قليلة يسمى أبا الوزير واستخلص منه مائتي ألف دينار[٤] ، ونكب كاتبًا ثالثًا من كتاب التوقيع يسمى نجاح بن سلمة وأخذ منه ومن ابنه مائة وأربعين ألف دينار[٥] ، ونكب القاضي أبا الوليد محمد بن أحمد بن أبي دؤاد واستخلص منه مائة وستين ألف دينار[٦] ، ونكب يحيى بن أكثم قاضي قضاته واستخلص منه خمسة وسبعين ألف دينار[٧] . وأثرى قواد الترك في السنوات التي تلته ثراء فاحشًا وأثرى كثير من الوزراء ، ونرى المعتمد يصادر أموال وزيره إسماعيل بن بلبل ويسفك دمه كما يصادر أموال وزيره سليمان بن وهب وابنه عبيد الله ويستخلص منهما تسعمائة ألف دينار [٨] .

ومعنى ذلك أن الوزراء ومثلهم الكتّاب والولاة كانوا يختلسون أموال الدولة والأمة ، ويخيَّل إلى الإنسان أنه لم يعد هناك موظف كبير في الدولة لا يقترف

---

(١) النجوم الزاهرة ٣/٢٣٤ .
(٢) طبرى ٩/١٢٥ .
(٣) طبرى ٩/١٥٨ ومروج الذهب ٤/١٩ .
(٤) الفخرى ص ١٧٧ .
(٥) طبرى ٩/٢١٥ .
(٦) مروج الذهب ٤/١٤ .
(٧) طبرى ٩/١٩٧ .
(٨) النجوم الزاهرة ٣/٤٠ .

هذه الجريمة النكراء . وكان الولاة يرشون الوزراء ليظلوا فى ولاياتهم ، وبلغت الرشوة أحيانًا مائتى ألف دينار غير ما يرافقها من التحف والهدايا[١] ، وحتى رجال الحِسْبة كانوا يرتشون ويختلسون الأموال ، فى أثناء مراقبتهم للتجار وحركة البيع والشراء فى الأسواق على نحو ما يروى عن أحمد بن الطيب بن مروان السرخسى الفيلسوف ، إذ خان الأمانة فى ولايته الحسبةَ ببغداد ، وكان جملة ما أخذه مائة وخمسين ألف دينار[٢] . ولا نبالغ إذا قلنا إنه كان يتورط فى هذا الاختلاس وما يطوى فيه من الرشوة أكثر موظفى الدولة ، وخاصة من كانوا منهم يقومون على جباية الضرائب وأموال الخراج ، وكثيراً ما كانوا يعذّبون أصحاب الضياع والأعيان وذوى الوجاهة بالضرب والسَّحب على الوجوه والرسف فى القيود وصَبّ الزيت على رءوسهم أو النفط وتعليقهم فى الجُدرِ من أيديهم وأرجلهم ، حتى يستخرجوا منهم كل ما يريدون من أموال ، ويصور ذلك ابن المعتز فى أرجوزته[٣] التى أرّخ فيها خلافة المعتضد وأعماله الجليلة مبينًا كيف كانت تجبى أموال الخراج قبله فى قسوة بل فى عنف بل فى أهوال من التعذيب والتنكيل ، يقول :

فكَمْ وكم من رجلٍ نبيلِ ... ذى هَيْبَةٍ ومَرْكَبٍ جليلِ
رأيتُه يُعْتَلُ بالأعوانِ ... إلى الحبُوسِ وإلى الديوان
وجعلوا فى يده حِبالا ... من قِنَّبٍ يقطِّع الأوصالا
وعلَّقــوه فى عُرَى الجدارِ ... كأنه بَرَّادةٌ فى الدارِ
وصفَّقوا قفاه صَفْقَ الطَّبْلِ ... نَصْباً بعينِ شامتٍ وخِلِّ
وصَبَّ سَجَّانٌ عليه الزَّيْتا ... فصار بعد بِزَّةٍ كُمَيْتا

ويمضى ابن المعتز فيذكر أنهم ما يزالون يعذّبون المرء بصنوف العذاب حتى لا تبقى فيه قدرة على المقاومة ، فيتوسل إليهم أن يعرضوه على التجار كى يقرضوه بعض أموالهم ، أو حتى يبيعهم بعض عقاره ، وأن يُؤجلوه لذلك خمسة أيام ، وبعد لأىٍ يجعلونها أربعة ، ويأتيه أصحاب الربا الفجرة ، فيقرضونه واحداً

---

(١) الفخرى ص ١٧٨ .

(٢) مروج الذهب ٤/١٧٠ .

(٣) انظر الديوان (طبعة دار صادر ببيروت) ص ٤٨١ .

بعشرة ، ويكتبون عليه صَكًّا بأنه باع ضيعته ، وينزل على إرادتهم ، حتى يخلص من هذا التعذيب الذى لا يطاق بدفع ما يريده أرباب الخراج . ويقول ابن المعتز إن المعتضد أزال هذا التعذيب وقمع هذا الظلم الصارخ ، ولكنه كان قمعًا إلى أجل محدود، إن كان حقًّا قمعه أو استطاع قمعه. ويصور لنا ابن المعتز كيف كان هؤلاء الجباة يبتزون أموال التجار أصحاب الجواهر والأموال العريضة ، وخاصة من كانت له معاملات منهم مع الدولة ، فقد كانوا يدّعون عليه أن للسلطان عنده ودائع يجب أن يردها ، وكانوا لا يزالون يتفننون فى تعذيبه :

حتى إذا مَلَّ الحياةَ وضَجِرْ وقال ليت المال جمعاً فى سَقَرْ

أَعطاهمُ ما طلبوا فأُطْلِقَا يستعمل المشىَ ويَمْشِى العَنَقا

والعَنَقُ مشية سريعة ، وكأنه يخشى أن يردوه إلى التعذيب ، فهو يطير طيرانًا . وويل لمن كان يرث عن أبيه ميراثًا ضخمًا ، فقد كانوا يحاولون الاستيلاء على ميراثه بطرق شتى ، إذ يسجنونه، ويطلبون إليه أن يثبت أنه ابن المتوفى ، وما يزالون يضربونه ويلكمونه ويصفعونه ، يقول ابن المعتز :

وأسرفوا فى لَكْمِهِ ودفعِهِ وانطلقتْ أكفُّهم فى صَفْعِهِ

ولم يزل فى أضيق الحُبوسِ حتى رمى إليهمُ بالكيسِ

وكأننا لم نعد بإزاء دولة تحكم بقوانين الشريعة الإسلامية ، وإنما أصبحنا بإزاء لصوص ومختلسين وقطاع طرق . وما إن يجثم عصر المقتدر على صدر الأمة حتى يفسد الحكم فساداً لا حد له ، وقد استوزر اثنى عشر وزيراً منهم من وزر له المرتين والثلاث، أولهم ابن الفرات، ويروى أنه حاسب كتّاب العطاء فوجد لهم خيانة بلغت نحو مائة ألف دينار [١] ، ولم يلبث المقتدر أن صادره فى سنة ٢٩٩ واستولى على أمواله وإقطاعاته ، فاجتمع له نحو سبعة ملايين من الدنانير [٢] ، ومع الشك فى أمانته على هذا النحو نراه يعود إلى الوزارة حتى إذا توفى فى سنة ٣١٢ وُجد له من الدنانير ما يزيد على عشرة ملايين [٣] . وولى الوزارة بعد إقالته الأولى منها

---

(١) صلة تاريخ الطبرى لعريب ص ٢٥ .
(٢) عريب ص ٢٦ .
(٣) النجوم الزاهرة ٣/٢١٢ .

الخاقانى ، وكان سيئ السيرة ، فأخذ يبيع الولايات غير مراعٍ للأمة عهداً ولا ذمة ، ويقال إنه ولّى على الكوفة فى يوم واحد تسعة عشر والياً آخذاً من كل واحد منهم رشوة حسبما تيسر ، وفيه يقول بعض معاصريه[1] :

وزيرٌ لا يملُّ من الرَّقاعَهْ يولِّى ثم يعزل بعد ساعَهْ
إذا أهلُ الرُّشَا صاروا إليهِ فأَحْظى القوم أوفرهم بِضاعه

ونعجب أن تُدِرّ إقطاعات الوزير فى عهد المقتدر مائة وسبعين ألف دينار سنوياً[2] ، ولا يكفيه هذا الراتب الضخم ويختلس ويسرق أموال الدولة والأمة حتى يصبح من ذوى الملايين . وبذلك نفهم كيف كان بعض الوزراء حينئذ يبذل فى سبيل حصوله على الوزارة خمسمائة[3] ألف دينار ، مؤملا أن يستردها فى أسرع وقت . ويُرْوَى أن حامد بن العباس حين وزر للمقتدر أهداه بستاناً أنفق عليه مائة ألف دينار وفرشه باللبود الخراسانية[4] . واستوزر المقتدر بعده ابن الفرات ثانية ، فاستخلص منه مليوناً وثلثمائة ألف ، ويقال إنه كان ينفق على موائده يومياً مائتى دينار[5] ، فى حين كان المستكفى ينفق بأخرة من العصر على مائدته كل يوم خمسين ألف درهم[6] . وكان الولاة يستنّون سنة الوزراء فى نهب الأموال واختلاسها[7] .

وبهذه الصورة كانت أموال الدولة تُختَلَس وتُنْهَب ، ينهبها ويختلسها الولاة والكتّاب والوزراء ، ينعمون ويترفون ، والشعب يتمرّغ فى البؤس والحرمان والشقاء ، وكأنما تعطلت أداة الحكم ، بل لقد فسد فساداً لا يقف عند حد . وكان مما زاد فى هذا الفساد غلبة النساء على الحكم ، فكن كثيراً ما يصرّفنه بحسب أهوائهن ، وكن يقتنين الجواهر الباهظة الأثمان والضياع والعقارات والأموال الطائلة ، حتى يقال إن المستعين مات وفى خزائن الدولة نحو نصف مليون دينار ، على حين كان فى خزائن أمه مليون دينار كاملة[8] ، وكانت أم المعتز أكثر منها جشعاً ، ويقال إن

---

(١) الفخرى ص ١٩٨ وعريب ص٢٩—٣٠.
(٢) الهمدانى ص ٥١ .
(٣) الفخرى ص ٢٠٢ .
(٤) الهمدانى ص ٢٢ .
(٥) الهمدانى ص ٣٦ .
(٦) الهمدانى ص ١٤٨ .
(٧) النجوم الزاهرة ١٨٣/٣ وعريب ص ٣١ والهمدانى ص ١٣ .
(٨) طبرى ٢٨٤/٩ .

قواد الترك طلبوا من ابنها قبل قتله خمسين ألف دينار ، فلم يجدها فى خزائن الدولة ، ففزع إليها يطلب منها أن تقرضه هذا المبلغ ، حتى يَفْتدى نفسه به من القتل ، فأنكرت أن يكون عندها مال ، وخُلع ابنها وقُتل بعد أيام ، وصادر أموالها حاجبه صالح بن وصيف ، وملأه العجب حين وجد فى خزانة لها مليونًا من الدنانير ، غير جواهر قُدّرت قيمتها بمليونى دينار . ولما رأى وصيف ذلك قال : قبّحها الله ، عرّضت ابنها للقتل فى خمسين ألف دينار يدفعها رواتب للجيش ، وعندها هذا كله فى خزانة واحدة من خزائنها [١]. وثالثة الدواهى الطامة شغب أم المقتدر ، وهى أم ولد رومية ، كانت تمسك بيديها زمام الأمر والنهى فى الدولة ، وكانت تستعين بقهرمانتها ثمل ، وأقعدتها فى الرُّصافة كل يوم جمعة للنظر فى المظالم ، فكانت تكتب بأحكامها على رقاع الناس بحضرة الفقهاء والقضاة [٢]. وأثْرَتْ شغب حتى كان دخلها فى العام من غلات ضياعها مليون دينار [٣]، ويقال إنها غضبت على إحدى وصيفاتها ، فاستخلصت ثمل منها مليونًا من الدنانير [٤]، كأن مليون دينار فى أيدى نساء القصر وجواريه شىء عادى تتملكه أى وصيفة . وكان المقتدر متلافًا فأنفق أموال الدولة على النساء وأهداهن جواهرها وتحفها النفيسة ، من ذلك إهداؤه الدرة اليتيمة — التى ظل آباؤه يحتفظون بها حقبًا طوالا — لبعض حظاياه ، وكانت زنتها ثلاثة مثاقيل . وأهدى حظية ثانية سُبْحَةَ جوهر لم يُرَ مثلها ، قيمتها ثلثمائة ألف دينار ، وأهدى حظية ثالثة فَصّ ياقوت اشتراه الرشيد بثلثمائة ألف دينار ، ويقال إنه أنفق على ختان أبنائه ستمائة ألف دينار [٥] وكأن كل ذلك وقع فى يد معتوه ، فهو ينثره يمينًا وشمالا . واستولى قواد الترك لعهده على كثير من الإقطاعات والضياع ، ويقال إن إقطاعات يانس الموفقى المتوفى سنة ٣١١ كانت تغلّ له سنويًّا ثلاثين ألف دينار [٦]. وكانت قهرمانة شريرة هى علم الشيرازية تستولى على كل أمور الدولة لعهد المستكفى [٧].

وعلى هذا النحو لم يعد الخلفاء يحكمون منذ عهد المقتدر المشئوم، فقد أصبح

---

(١) طبرى ٩/٣٩٥ والنجوم الزاهرة ٣/١٩٣ .
(٢) عريب ص ٥٠ والنجوم الزاهرة ٣/١٩٣ .
(٣) النجوم الزاهرة ٣/٢٣٩ .
(٤) الهمدانى ص ٣١ .
(٥) الهمدانى ص ٦٥ والفخرى ص ١٩٢ والنجوم الزاهرة ٣/٢٣٤ .
(٦) عريب ص ٨٠ .
(٧) الهمدانى ص ١٤٣ .

الترك والنساء والجند هم الذين يصرّفون أمور الدولة ، وعمّ الفساد وانتشرت الدسائس والمؤامرات ، وفسدت أداة الحكم فساداً شديداً ، حتى لنجد أبا جعفر بن شيرزاد حاكم بغداد نيابة عن توزون لعهد الخليفة المتقى يؤمّن لصًّا فاتكًا هو حمدى ، ويشترط عليه أن يدفع له شهريًّا خمسة عشر ألف دينار ، فى حين يكبس هو بيوت الناس بالمشاعل والشموع وينهب منها ما يريد من الأموال والجواهر . ويستظهر ابن تغرى بردى أن هذا اللص هو الذى سُمِّى عند العامة فى سالف الأعصار أحمد الدنف ، وقصته فى ألف ليلة وليلة مشهورة[1] .

وهيّأ ذلك منذ أوائل العصر لا إلى نهب الأموال والجواهر فحسب ، بل إلى نهب الأقاليم والولايات ، فإذا أسرة طاهر بن الحسين قائد المأمون تقيم انفسها فى خراسان إمارة تظل بها حتى سنة ٢٥٩ غير أن صلتهم بالدولة ظلت حسنة وظلوا يرسلون لها الضرائب ، وكان منهم نفر يتولون شرطة بغداد حتى بعد انتهاء حكمهم لخراسان وما وراء النهر . وفى سنة ٢٤٧ للهجرة استطاع يعقوب بن الليث الصفار أن يقيم الإمارة الصفارية فى إقليم بلوخستان شرقى إيران ، ومدّ حدودها حتى شملت كرمان إلى الجنوب من إيران كما شملت أفغانستان والسند ، واستولى على ما بيد محمد بن طاهر آخر الحكام الطاهريين فى خراسان . وتوفى يعقوب لسنة ٢٦٥ فخلفه أخوه عمرو حتى سنة ٢٨٧ إذ قضى عليه السامانيون حكام ما وراء النهر . وحدث فى سنة ٢٥٥ أن أهدى المعتز بايكباك حاجبه مصر فولّى عليها أحمد بن طولون فاستقلّ بها ومدّ حكمه إلى الشام ، وخلفه على الإقليمين ابنه خمارويه ، وزواجُ ابنته بوران من المعتضد مشهور . وظلت تلك الإمارة الطولونية فى أبناء أحمد بن طولون وأحفاده حتى سنة ٢٩٢ إذ عادت فى عهد المكتفى إلى حظيرة الدولة ، فولّى عليها عيسى النوشرى ، وتبعه ولاة مختلفون إلى أن وليها محمد ابن طُغْج الإخشيد ولايته الثانية سنة ٣٢٣ فأسس بها الإمارة الإخشيدية التى ظلت تلى شئون مصر حتى تسلّمها منها المعز الفاطمى سنة ٣٥٨ . وإمارة السامانيين فى خراسان وما وراء النهر أطول هذه الإمارات عمراً ، فقد بدأت حوالى سنة ٢٦١ وظلت إلى ما بعد هذا العصر حتى سنة ٣٨٩ وكانت العلاقة بينها وبين الخلافة

---

(١) النجوم الزاهرة ٢٨١/٣ .

العباسية حسنة ، فكان أمراؤها يتولونها بعهود من الخلفاء حتى تكون ولايتهم شرعية ، وأذن لهم الخلفاء فى أن تُذكَر أسماؤهم معهم فى خطبة الجمعة وأن يضربوا أسماءهم على الدنانير ، وكانوا سُنّيّين ، ودعم ذلك الصلة بينهم وبين الخلافة .

ولا نصل إلى أواخر العصر ، حتى يتغلب كثير من الحكام على ولاياتهم ، فتصبح فارس والرّىّ وأصبهان والجبل فى أيدى بنى بويه ، وخراسان فى يد نصر بن أحمد السامانى ، وطَبَرِستان وجُرْجان فى يد الديلم ، وكِرْمان فى يد محمد بن إلياس ، والموصل وديار ربيعة وبكر ومضر فى أيدى بنى حمدان ، والأهواز وواسط والبصرة فى يد البريدى ، واليمامة والبحرين فى يد أبى طاهر الجنّابى القرمطى ، ومصر والشام فى يد محمد بن طغج الإخشيد ، والمغرب وإفريقية فى يد القائم بأمر الله ابن المهدى الفاطمى المتلقب بأمير المؤمنين ، والأندلس فى يد عبد الرحمن الناصر الأموى . ولم يبق فى يد الخليفة سوى بغداد ، واستولى عليها منه — كما أسلفنا — البويهيون وخلعوه ، وولّوا المطيع لله ، وأصبحوا هم الذين يولّون الوزراء والقضاة والولاة وأصحاب الشرطة والحسبة ، ولم يعد للخليفة سوى سلطان اسمى وأن يُدْعَى له على المنابر ، وخفّضت نفقاته ، وقُرّرت له نفقة طفيفة .

وليست هذه الكوارث كل ما حاق بالخلافة العباسية فى العصر العباسى الثانى ، فقد نشبت ثورات كثيرة استنزفت موارد الدولة ، وخاصة ثورتى الزنج والقرامطة ، أما الزنج فقد استطاع الموفق لعهد أخيه المعتمد أن يقضى بعد جهاد عنيف عليهم وعلى ثورتهم قضاء مبرمًا ، وأما القرامطة فقد ظلوا حتى نهاية العصر ينازلون الدولة وينزلون بها خسائر فادحة فى الرجال والأموال ، ولعل من الخير أن نخص كلا من الثورتين بكلمة موجزة .

٣

ثورة الزنج

شغلت هذه الثورة الدولة أربع عشرة سنة ونحو أربعة أشهر لم تَضَعْ فيها الحرب أوزارها منذ رمضان سنة ٢٥٥ للهجرة حتى صفر سنة ٢٧٠ وكان الذى

أعدّ لها وأشعلها رجل فارسى من وَرْزَنين: قرية من قرى الرّىّ بإيران ، زعم فى أول الأمر أنه من بنى عبد القيس سكان البحرين ، وفيهم أخذ ينشر آراءه الثورية ضد الدولة لأوائل العقد السادس من القرن الثالث الهجرى ، فتبعه نفر قليل . وأحسّ كأن البحرين لن تتبعه ، فتركها إلى البصرة لسنة ٢٥٤ وأخذ ينشر فيها آراءه ، وارتفع أمره إلى الوالى فطلبه ، غير أنه أسرع بالخروج منها إلى بغداد ، حتّى إذا استدار العام عاد بفكرة جديدة هى أن يثير الزنج الذين كانوا يكسحون السباخ هناك، وكان يسخرّهم كبار الملاك الإقطاعيين فى هذا الكسح وفى زرع أرضهم لقاء أجرزهيد لايسدّ ما يحتاجون إليه من الغذاء البسيط والكساء الخشن . ومضى يثيرهم ويتجمعون إليه ، ورأى إحكامًا لدعوته أن يُسْبغ عليها صبغة دينية ، فزعم أنه يُوحَى إليه وأن العناية الإلهية بعثته واختارته لإنقاذ الزنج من جَوْر الملاك الظالمين ، وأشاع أن اسمه على بن محمد ووصل نسبه بإمام الزيدية : زيد بن على زين العابدين بن الحسين بن على بن أبى طالب ، حتّى يثبت حقه الشرعى فى الثورة ضد الخلافة العباسية[١] ، وهو نسب مكذوب إذ هو فارسى كما قدمنا ، وحقًّا نجد ابن المعتز ينعته فى الأرجوزة التى تمثلنا ببعض أبياتها فيما أسلفنا بأنه علوى إذ يقول عنه :

والعلوىّ قائدُ الفُسَّاقِ وبائعُ الأَحرارِ فى الأَسواقِ

ونؤمن بأن ابن المعتز تعمد ذلك حتى يلطّخ العلويين خصوم أسرته بعارِ هذا الرجل الذى لم يكن يرْعَى فى الأمة إلاّ ولا ذمة على نحو ما سيتضح عما قليل . وكان لا يزال يردّد بأن العباسيين انغمسوا فى إثم الخمر والمجون والمعاصى ، وأنه تجب حربهم حتى يتخلص الناس من شرورهم ، وحتى يُرَدّ الأمر إلى نصابه وإلى مستحقيه العلويين من أمثاله المنتسبين إليهم زوراً وبهتانًا .

وكان الزنج يبلغون ألوفًا ، وكلهم يعملون فى كَسْح السباخ والزراعة ، وكانوا يُجْلَبُون من شرق إفريقيا ، وسرعان ما التفوا حول هذا الثائر والتفّ معهم كثير من عَبيد الفرات بحيث غدت الثورة كأنها ثورة العبيد على السادة الجائرين ، وثبّت

---

(١) طبرى ٤١٠/٩ ومروج الذهب ١٠٨/٤ والفخرى ص ١٨٦ والنجوم الزاهرة ٢١/٣ ودراسات فى العصور العباسية المتأخرة لعبد العزيز الدورى (طبع بغداد) ص ٧٩ .

ذلك فى نفوسهم أن صاحبهم كان يدعو إلى تحريرهم ، وهى دعوة كريمة ، غير أنه لم يمض فيها إلى النهاية ، إذا استباح فى حروبه استرقاق الأحرار ، مما يؤكد أنه لم يكن يفكر جِدّيًّا فى إلغاء الرق . ويدل أكبر الدلالة على أنه لم يكن محرراً للعبيد حقًّا ولا كان علويًّا ما رواه المسعودى عنه من أنه «كان ينادى فى عسكره على المرأة من ولد الحسن والحسين والعباس بن عبد المطلب وغيرهم من ولد هاشم وقريش ومن سائر العرب وأبناء الناس ، فتُباع الجارية بالدرهمين والثلاثة ، وينادَى عليها بنسبها : هذه ابنة فلان ، ولكل زنجى منهن العشرة والعشرون والثلاثون . . . واستغاثت به امرأة هاشمية من ولد الحسن بن على بن أبى طالب كانت عند بعض الزنج ، وسألته أن ينقلها إلى غيره من الزنج أو يعتقها مما هى فيه، فقال لها : هو مولاكِ وأولى بكِ من غيره»[١]. ولو كان علويًّا ما استباح استرقاق العلويات، ولو كان ثائراً على الرق داعياً إلى تحرير العبيد بإخلاص ما أسقط العبودية عن الزنوج وردّها على الأحرار، بل كان يُبْقى لهم حريتهم . ويبدو أنه لم تدر بذهنه خطة واضحة لنمط من أنماط الاشتراكية يصحح به معيشة الناس عبيداً وأحراراً ويُصْلح به أوضاعهم المالية والاقتصادية. ولذلك حوّل ثورته سريعًا من ثورة ضد المُلاّك الإقطاعيين إلى ثورة ضد الدولة، فالدولة يجب أن تقاوَم ويقاوَم معها الخلفاء وولاتهم . ويذهب بعض المؤرخين إلى أنه كان يعتنق آراء الأزارقة من الخوارج إذ كان يستحلّ مثلهم قتل نساء المسلمين وأطفالهم ،وكان يرى رأيهم فى أن المسلمين جميعًا كافرون وينبغى قتالهم واستئصالهم حتى لا تبقى منهم باقية، ويحاول المسعودى أن يبرهن على أنه كان يؤمن بمبادئ الخوارج بشواهد مختلفة ، منها أنه كان يبدأ خطبه بعبارة الخوارج المشهورة التى رددوها حين ثاروا فى وجه على بن أبى طالب : «ألا لا حكمَ إلا لله » ، وأنه كان يردد أن الذنوب تفضى إلى الشرك على نحو ما كان يقول الخوارج من قديم بأن مرتكب الكبيرة كافر ، وأنه هو وأصحابه كانوا إذا خطبوا على المنابر ترحموا — مثل الخوارج الأولين — على أبى بكر وعمر ولم يذكروا عثمان وعليًّا غضبًا عليهما ولعنوا جبابرة الأمويين والعباسيين[٢] . وعلى نحو ما اعتزل الخوارج الأولون على بن أبى طالب إلى حروراء بقرب الكوفة مهاجرين عن الجماعة

---

(١) مروج الذهب ٤/١٢٠ .

(٢) انظر مروج الذهب ٤/١٠٨ ، ١١٩ . وراجع النجوم الزاهرة ٣/٤٨ .

الضالة ، كما هاجر الرسول عليه السلام عن أهل مكة إلى المدينة ، كذلك هاجر صاحب الزنج بأتباعه إلى سَبِخة بمآخير أنهار البصرة تسمى سبخة أبى قرّة ، فأقام فيها ، وأمر أصحابه باتخاذ الأكواخ بها ، وبثّ الزنج والسود يُغير بهم على القرى وينهب الأموال والدوابّ[1]، ثم تحوّل إلى الجانب الغربى من نهر أبى الخصيب واتخذ عليه مدينة[2] سماها « المختارة » بَنَى له فيها دوراً حصينة ، وأمر أصحابه بالبناء فيها .

وكثرت إغاراته على البصرة وقُراها ، فاستغاث أهلها بالخليفة المهتدى ، فأرسل إليهم فى سنة ٢٥٦ جيشًا أكثره من الفرسان فلم يستطع الوصول إلى مدينة صاحب الزنج لكثرة ما كان يقوم دونها من القنوات والنخيل والأدغال . ويشعر صاحب الزنج بقوته ، فيقتحم مدينة الأبُلّة مما يلى نهر دجلة ويقتل بها خلقًا كثيراً ، ويُشْعل بها ناراً تأتى على كثير من منازلها ، إذ كانت مبنيةً من خشب الساج ، ويُعْمل فيها النهب والسلب . ويهاجم بعدها مدينة عَبَّادان ، وكان أهلها قد سمعوا ما صنعه بمدينة الأبُلّة ، فألقوا له عن يد ، وانضمّ إليه من كان بها من العبيد ، ونهب كل ما كان بها من السلاح والمئونة . وولّى وجهه نحو مدينة الأهواز فدخلها بعد مناوشات قليلة ، واستولى على كل ما كان بها من الأسلاب والأمتعة[3] .

وتولى المعتمد الخلافة ، فأرسل إليه فى سنة ٢٥٧ هـ جيشاً كثيفًا انتصر على بعض كتائبه ، غير أن الزنج استتروا منه بالقنوات والأدغال ، فاضطر إلى الانسحاب ، ونازلهم منصور بن جعفر الخياط بجيش ثان لم يصنع شيئًا[4]. وما يلبث صاحبهم أن يهاجم البصرة . وكان يردّد على مسامع أصحابه أنه اجتهد فى الدعاء عليها أن يصيبها الخراب من جميع جهاتها ، وأنه خوطب فى أمرها ، فقيل له : إنما البصرة خُبْزَةٌ لك تأكلها من جوانبها . وانضمّ إليه حينئذ كثير من الأعراب ، هاجمها بهم وبأتباعه من الزنج والعبيد فى أثناء صلاة أهلها إحدى الجمعات ، وقد انقضّ عليها من ثلاث جهات ، معملاً فيها النهب والسلب والقتل وإشعال

---

(١) طبرى ٩/٤٣٧ .

(٢) طبرى ٩/٤٧٠ .

(٣) انظر الطبرى ٩/٤٧٠ وما بعدها .

(٤) طبرى ٩/٤٧٨ .

النار[١]، وتقول أقل الروايات مبالغة إن عدد القتلى بلغ ثلثمائة ألف بين ذكر وأنثى وشيخ وطفل وإنه أحرق المسجد الجامع وأحال البلدة أنقاضًا ، يقول المسعودى : « واختفى الناس ذعراً فى الدور والآبار ، وكانوا يظهرون بالليل فيأخذون الكلاب فيذبحونها ويأكلونها ، وكذلك الفئران والسنانير ، وأفنوها حتى لم يقدروا منها على شيء ، وكانوا إذا مات منهم الواحد أكلوه ، وعدموا مع ذلك الماء العذب »[٢] وتسامع الناس والشعراء فى بغداد وسامراء بهذه النكبة المروّعة التى حلّت بالبصرة ، فبكوها بدموع غزار ، وفى مقدمتهم ابن الرومى ، وقصيدته :

ذادَ عن مُقْلتى لذيذَ المنامِ شغلُها عنه بالدموع السِّجامِ

ندبٌ حارٌّ لها وتفجع وتوجع لما نزل بها من تلك الكارثة التى لا تكاد تتخيلها الأوهام ، وقد مضى يصور قتلى الزنج وصرعاهم وانتهاكهم الحرمات وسَبْيهم الحرائر المصونات ممزقات الثياب داميات الوجوه ، وكيف أشعلوا النيران فيها وحوّلوا قصورها تلالا ورماداً ، وكيف ملئوا شوارعها بالرءوس والجثث والأيدى والأرجل المبتورة ، وهو فى تضاعيف ذلك يستصرخ الأمة لنجدة البصرة والذّياد عن الحرمات والفتك بالزنج الذين ارتكبوا آثامًا يشيب لها الولدان فتكًا لا يُبْقِى ولا يَذَرُ .

وكأنما استجابت الدولة لصرخة ابن الرومى ، فجهّزت جيشًا ضخمًا بقيادة الموفق أخى الخليفة المعتمد ، وكان بطلا لا يبارى وصاحب رأى وحزم لا يدانيه حزم وتدبير لا يشبهه تدبير ، غير أن الزنج وصاحبهم استتروا منه بالقنوات وبالأدغال الملتفّة والنخيل الكثيف . فندب إليهم منصور بن جعفر بن دينار فاستباحوا عسكره وقتلوه . فتقدم الموفق إلى نهير يسمى نهير معقل ، ونازل الزنج وهزمهم مراراً وأسر قائداً من قوادهم هو يحيى البحرانى وأرسل به إلى سامراء حيث ذُبح وأحرق[٣]. وعاد الموفق إلى سامراء ، وخلّف على قتال الزنج موسى بن بغا ، ونشبت حروب متتابعة قُتل فيها كثير من الجانبين[٤] . ويولّى المعتمد فى سنة ٢٦١ على الأهواز قائداً من قواده يسمى أبا الساج ، وينازل الزنج وترجح كفتهم ، ويدخلون الأهواز وينهبونها ويحرقون دورها[٥].

---

(١) طبرى ٤٨١/٩ .
(٢) مروج الذهب ١١٩/٤ .
(٣) طبرى ٤٩١/٩ .
(٤) طبرى ٥٠٤/٩ .
(٥) طبرى ٥١٣/٩ .

وتُشْغَلُ الدولة وقائدها الموفق بيعقوب بن الليث الصفار ، وكان قد استولى على سجستان وكرمان وفارس وقضى على الطاهريين واستولى منهم على خراسان، وأقبل بجموعه فى سنة ٢٦٢ يريد الاستيلاء على بغداد ، ولم يكد يلمّ بدير العاقول على بعد اثنى عشر ميلا منها حتى تصدّى له الموفق وهزمه هزيمة ساحقة ، فرّ على أثرها إلى الأهواز ، وإلى ذلك يشير ابن المعتز فى أرجوزته آنفة الذكر إذ يقول عن الموفق :

وحاربَ الصّفّار بعد الزَّنْجِ فطار إلا أنه فى سَرْجِ
وفَرَّ من قُدَّامه فِرارًا وكان قِدْماً بطلا كرَّارًا

وظل الموفق مشغولا به بعد هزيمته إلى أن توفى سنة ٢٦٥ . وفى هذه الأثناء وجد صاحب الزنج الفرصة سانحة له ، فكان يُغير على بعض المدن ، يفتك بأهلها وينهبها من مثل الأهواز وواسط ودَسْت ميسان . وكانت أنباؤه لا تزال تصل إلى الموفق ، فصمم على منازلته ثانيًا ، وجهَّز لحربه جيشًا جراراً تسنده سفن حربية ، وأسند قيادته إلى ابنه أبى العباس .(الذى ولى الخلافة بعد عمه المعتمد وتلقَّب بالمعتضد) وكان شجاعًا حازمًا من أهل الرأى الصائب مثل أبيه ، نخفَّ إليه فى ربيع الآخر لسنة ٢٦٧ فواقع قائداً يسمى سليمان بن جامع ومزَّق جنوده واستولى على ماكان بيده من قرى دجلة [١]، ودخل مدينة واسط وردَّها على أهلها، وعسكر بجيشه فى جوارها ، وأخذ يقف بنفسه على القرى والمسالك المؤدية إلى صاحب الزنج ومدينته . وجمع له الزنج وحشدوا واتخذوا سفنًا تسمَّى بالسُّمَيْريَّات ، لكل منها أربعون مجدافًا والملاَّحون من فوقها يحملون السيوف والرماح والترس، ولكن أبا العباس عرف كيف يُنْزل بهم هزيمة نكراء ، استولى فى أثنائها على أكثر سُمَيْريَّاتهم [٢]، وأخذت هزائمهم تتلاحق . وبلغ الموفق نبأ بأن صاحب الزنج يعدُّ جيشًا كثيفًا لمساعدة قائديه: سليمان بن جامع وعلى بن أبان، فأعدَّ جيشًا ضخمًا بدوره لنصرة ابنه ، ومضى معه إلى حصن الزنج الشمالى فى البطيحة الذى سموه باسم « المدينة المنيعة » وأوقعا بقائد لهم يسمى الشعرانى وبجنده وقعة ماحقة . واتخذ

(١) طبرى ٥٥٧/٩ وما بعدها . (٢) طبرى ٥٦١/٩ .

الموفق حينئذ خطة سديدة أن يعفو عمن يستسلم له من جند العدو ويضمه إلى جيشه واستسلم له كثيرون[١]. واتجه إلى حصن الزنج الأوسط الذى سموه مدينة « المنصورة » وكان بجوار « طهيثا » والتقى هناك بسليمان بن جامع وأصحابه ، فقتل منهم مقتلة عظيمة ، واستولى على المدينة وكل ما بها من الأموال والذخائر والميرة ، وفرّ سليمان على وجهه لا يلوى ، وفرّ كثيرون من الزنج إلى الآجام المحيطة بالمدينة ، وأعلن الموفق مرة ثانية أنه يعفو عفواً تامًّا عن كل من يستسلم راضياً ، واستسلم له كثيرون ، فكان يخلع عليهم ويضمهم إلى جيشه . وكانت سياسة قويمة إذ أخذ كثيرون من أتباع صاحب الزنج يغادرون معسكره إلى معسكر الموفق[٢]. ومضى إلى الأهواز والقرى التى بينها وبين فارس ، وفَرّ عنها سريعًا قائدان من قواد الزنج هما المهلبى وبهبوذ بن عبد الوهاب تاركَيْن وراءهما عتاداً ضخمًا من الميرة احتواه الموفق . وكاتبه كثيرون من فرسان هذين القائدين وجنودهما يطلبون الأمان فأمّنهم وسلكهم فى جيشه ، واستأمن قائد اسمه « منتاب » وكثير من المقاتلين فى سميريات الزنج وسفنهم[٣]. وتقدم الموفق بجموعه إلى المدينة «المختارة » حاضرة صاحب الزنج آخر معاقله . ورأى من مناعتها ما جعله يؤمن بأن حصارها سيطول، فبنى لجيشه أمامها على الضفة الثانية لدجلة مدينة سماها «الموفقية» شيّد فيها جميع المرافق ، وساق إليها أصناف المنافع ، وشدّد فى حصار المختارة، حتى غدت كأنها سجن كبير لصاحبها وأتباعه ،ونادى بأن الأمان مبسوط للناس أحمرهم وأسودهم ، واستسلمت له من الزنج جموع كثيرة ، إذ رأوا صاحبهم كالأسير وقد عزّته الميرة والمؤن ، وفى ذلك يقول ابن الرومى للموفق من قصيدة طويلة[٤] :

حَصَرْتَ عميدَ الزَّنْج حتى تخاذلتْ ... قُــواه وأَوْدَى زادُه المتزوَّدُ

فظــلَّ ولم تقتله يلفظ نفسه ... وظلَّ ولم تأْسره وهْو مقيَّد

تُفَرِّق عنه بالمكايد جُنْــدَهُ ... وتزدادهم جندًا ، وجُنْدك مُحْصَدُ[٥]

وما زال الموفق يحاصر المدينة وصاحبها حتى رأى أن يَشُنّ عليها حملة حاسمة سنة ٢٦٩ إذ هاجمت سفنه الحربية قصر صاحب الزنج وصمم على الفرار منه ، والتقى

---

(١) طبرى ٩/٥٦٦ وما بعدها .
(٢) طبرى ٩/٥٧١ وما بعدها .
(٣) طبرى ٩/٥٧٥ وما بعدها .
(٤) زهر الآداب للحصرى ٣/١٩٤ .
(٥) محصد : مجتمع محكم .

الموفق فى هذه الأثناء بجيش له فى غربى نهر أبى الخصيب فمزّقه شر ممزق ، وطلب الأمان كثيرون من الزنج وقوادهم وفى مقدمتهم الشعرانى وشبل[١] بن سالم . وجمع الموفق المستأمنة من الزنوج العارفين بمسالك المدينة المختارة ومضايق طرقها وحصونها كى يمحضوه النصيحة فى الوصول إلى صاحبها ، ودلّوه راضين ، فاستولى على قصره فى صفر لسنة ٢٧٠ بعد موقعة عظيمة ، ووافاه البشير بقتله ، فخرّ لله ساجداً على ما أولاه ، وأمر بصلب قائديه سليمان بن جامع وعلى[٢] بن أبان المهلبى . وكان الموفق قد جُرح جرحاً بليغاً فى صدره فى أثناء المعارك الأخيرة ، ولم يثنه ذلك عن الحرب حتى كُتب له فيها النصر المبين ، ولذلك يقول ابن المعتز فى تهنئته بهذا النصر من قصيدة صوّر فيها بطولته :[٣] .

شَقَّ الصفوف بسيفهِ وشَفَى حـزازاتِ الإِحَنْ
دامى الجـراحِ كأنهـا وَرْدٌ تفتَّح فى غُصُنْ

وبذلك انتهت ثورة الزنج ، ويقال إنه ذهب ضحيتها نحو مليون ونصف ، وأمر الموفق بالنداء فى أهل البصرة والأبُلَّة وكور دجلة والأهواز وواسط بقتل صاحب الزنج ورجوع كل مواطن إلى داره وبلده آمناً على نفسه وماله وأهله[٤] .

٤

ثورة القرامطة

مرَّ بنا فى كتاب العصر العباسى الأول أن الشيعة كانوا فرقاً ، وظلت هذه الفرق نشطة فى العصر العباسى الثانى ، وأهمها فرقة الزيدية التى حملت السلاح دائماً فى وجوه العباسيين ، ثم فرقة الإمامية التى كانت تعيش على التقية وتعمل سراً ضد العباسيين ، وقد انقسمت مبكرة إلى اثنى عشرية آمنت بأن الإمامة توالت فى اثنى عشر إماماً ، آخرهم محمد المهدى المنتظر المتوفى سنة ٢٦٠ للهجرة ، وإلى إسماعيلية نسبة إلى إسماعيل بن جعفر الصادق ، وكان قد توفى قبل أبيه ، فقالوا إن

(١) طبرى ٦٤٣/٩ .
(٢) طبرى ٦٥٤/٩ وما بعدها .
(٣) ذيل زهر الآداب ص ١٥٧ .
(٤) طبرى ٩ / ٦٦٣ .

الإمامة انتقلت منه إلى ابنه محمد ، لأنها تنتقل حتماً إلى الابن الأكبر ، حتى لو مات فى عهد أبيه . وأخذت تتكوّن سريعاً حول محمد الحركة[١] الإسماعيلية، وكان الذى نظّمها ووضع مبادئها عبد الله بن ميمون القداح ، وهو فارسى كان واسع المعرفة بجميع المذاهب والأديان، وأخذ فى سرعة يكوّن حول محمد بن إسماعيل جمعية سرية تعمل على تقويض الدولة العباسية، وكان يستعين على جذب الناس إليه بطرق تتناسب مع كل شخص ، فأشخاص يجذبهم بالسحر والشعوذة، وأشخاص يجذبهم بإظهار التقوى والنسك . وكان يزعم أن دينه دين النور الخالص ،ودعا كل أعضاء جمعيته إلى الاشتراك فى كل ما يكسبون مقيماً بينهم ضرباً من الألفة. وبدأ بدعوته فى موطنه بالأهواز ، ثم تركها إلى البصرة ومعه رفيقه الحسين الأهوازى ، وأحس بمطاردة والى البصرة لهما ، فهرب مع رفيقه إلى «سَلَمْيَة» بقرب اللاذقية فى الشام ، ومن هناك أخذ يرسل دعاته إلى العراق ، كما أخذ ينظم الدعوة الإسماعيلية باثاً فيها تعاليم مانوية فارسية وفلسفية يونانية غير بعض تعاليم جلبها من فرق الشيعة الغالية كفرقة الخطابية . ودعا فى قوة إلى فكرة التأويل فى الآيات القرآنية حتى يمكن فهم معانيها الباطنة المستترة أو قل معانيها الخفية التى ترمز إليها من بعيد . وزعم أن تاريخ الأمة ينقسم إلى حلقات ، كل حلقة يمثلها سبعة من الأئمة ، سابعهم هو الإمام الناطق الذى ينسخ بشريعته ما قبله من الشرائع ، أما الأئمة الستة قبله فأئمة صامتون . وزعم أيضاً أن أئمة الدعوة قسمان : أئمة حقيقيون مستورون أو مستقرّون ، وأئمة بجانبهم مستودَعون وهم رءوس الدعاة المسمون بالحجج ، وبذلك أصبح هو نفسه إماماً مستودَعاً ، وتبعه على ذلك أبناؤه ، ومن هنا جاء الشك فى نسب الأسرة الفاطمية الإسماعيلية التى حكمت مصر نحو قرنين من الزمان ، فهل كان أئمتها مستقرين أو كانوا مستودعين ؟ وجعل ابن ميمون الدعوة مراتب يصعد فيها التابعون ، وهى سبع مراتب ، مرتبة للعامة ، ومرتبة لمن فوقهم ، ومرتبه لمن مرّ عليه عام ، ومرتبة لمن مرّ عليه عامان ، ومرتبة لمن مرّ عليه ثلاثة أعوام ، ومرتبة لمن مرّ عليه أربعة أعوام ، ثم المرتبة السابعة ، وجُعلت المراتب فيما بعد تسعاً .

وما يلبث عبد الله بن ميمون — وقيل بل ابنه أحمد خلفه — أن يرسل الحسين

(١) انظر فى الحركة الإسماعيلية والقرامطة كتاب عبد العزيز الدورى ص ١٢٦ وما بعدها .

الأهوازى إلى الكوفة وسوادها ليدعو إلى الجمعية ، فالتقى فى السواد بنبطى يحمل بعض الغلات على أثوار له اسمه حمدان ، كان أهل قريته يلقبونه — فيما زعم الطبرى — لقباً نبطياً هو قرمط لاحمرار عينيه الدائم (١)، وزعم بروكلمان أن معنى هذا اللقب المعلم السرى (٢). وكأنما وجد الأهوازى فى هذا الرجل طلبته ، فدعاه إلى مذهبه واستجاب له فى حماسة بالغة ، وأحسّ الأهوازى بدنو أجله ، فعهد إليه برياسة الدعوة ، وجَدّ فيها حتى أصبحت له فرقة كبيرة دُعيت جميعها باسم القرامطة نسبة إليه . وكان داهية فأخذ فى تنظيم الحركة ، وفرض على جميع أتباعه أن يدفع كل منهم سنوياً درهماً واحداً ، ثم جعله ديناراً تأهباً للانتقال إلى دار الهجرة ، وفرض على أهل المرتبة السابعة سبعة دنانير ، ولم يلبث أن فرض على كل إنسان من أتباعه أن يؤدى إليه خمس ماله ، وأخيراً فرض عليهم جميعاً الألفة ، وهى الشركة فى الأموال ، وبذلك هيّأ لظهور نظام اشتراكى كامل . ولما اطمأن إلى نجاح دعوته أخذ يحلّ لأتباعه ترك الفرائض الدينية وأن يتخذوا بيت المقدس قبلتهم ويحجوّا إليه ، وزعم لهم أن الصوم يومان فى السنة : يوم عيد المهرجان ويوم عيد النيروز وأن النبيذ حرام والخمر حلال ، ووضع قانوناً هو أن كل من حاربه وجب قتله ، ومن لم يحاربه وخالفه يجب أخذ الجزية منه (٣) . وفى سنة ٢٧٧ اتخذ لأتباعه دار هجرة بقرب الكوفة سماها « مهما باد » نزلها كثيرون من الرجال والنساء . وكان أكبرَ معاونيه فى حركته صهره عبدان ، ويُذْكَرُ له كتاب صوَّر فيه طريق التابع ومراتبه السبع آنفة الذكر التى تنتهى به إلى الخضوع المطلق للإمام الخفى أو المستتر وممثليه من الأئمة المستودَعين .

وأقبل على الانضمام إلى الدعوة كثير من الفلاحين فى سواد الكوفة والبصرة لما وعدتهم به من تغيير ظروفهم الاقتصادية السيئة ، إذ كان الملاك الإقطاعيون يسومونهم سوء العذاب مع التقتير الشديد فى الأجور ، وانضم إليها أيضاً كثير من الطبقة الكادحة فى المدن ممن كانوا يعيشون فى بؤس مدقع ، وقد وعدهم جميعاً حمدان وأتباعه بأنهم سينقلونهم من الشقاء إلى السعادة ومن الفقر وذله إلى الغنى وعزه . غير أنهم لم يقفوا

---

(١) طبرى ١٠/٢٦ .

(٢) تاريخ الشعوب الإسلامية لبروكلمان (الطبعة العربية) ص ٢٢٩ .

(٣) طبرى ١٠/٢٥ وما بعدها .

جميعاً بدعوتهم عند إنشاء مجتمع اشتراكى ، إذ مضوا يدعون إلى التحلل من الدين الحنيف وفروضه حتى ليقول البغدادى إنهم أنكروا البعث والحساب والجنة والنار ، وقالوا : هل الجنة إلا هذه الدنيا ونعيمها وهل النار وعذابها إلا ما فيه أصحاب الشرائع من التعب والنَّصَب فى الصلاة والصيام والحج والجهاد [١] ، وزعموا : « أن الأنبياء كنوح وإبراهيم وموسى وعيسى ومحمد وكل من ادعى النبوة كانوا أصحاب نواميس ومخاريق أحبوا الزعامة على العامة ، فخدعوهم بنيرنجات واستعبدوهم بشرائعهم »[٢]. ومضى حمدان يتخذ لهم أعلاماً بيضاء دلالة على أن دينهم دين النور ، ويقال إنه كان يكتب عليها : (ونريد أن نَمُنَّ على الذين استُضْعفوا فى الأرض ونجعلهم أئمةً ونجعلهم الوارثين) .

وقد أرسل مبكراً دعاة إلى اليمن جاهروا فيها بدعوته وأحدثوا شغباً كثيراً ، ونزل « كلواذى » وأخذ يدير منها دعوته ، ومن أهم دعاته الذين اتخذهم حينئذ أبو سعيد الحسن بن بهرام الجنَّابىّ . وجَنَّابة من قرى بحر فارس ، وقد أرسل به إلى جنوبى إيران ، واستطاع أن ينشر هناك الدعوة ، والتفَّ حوله كثيرون اتخذ من نفسه مشرفاً على إدارة أموالهم . غير أن ولاة العباسيين تنبهوا لحركته هناك وصادروا ما جمع من أموال ، ففرَّ على وجهه إلى حمدان ، يبلغه الخبر ، فأمره أن يتجه إلى منطقة أخرى ، واختار له الأحساء فى منطقة البحرين ، وهناك استجابت له قبيلة عبد القيس وعشائرها البدوية ، واستطاع لسنة ٢٨٦ أن ينشئ فى تلك الأصقاع النائية دولة اشتراكية جعل عاصمتها « المؤمنية » بدلا من « هجر » العاصمة القديمة وهى المسماة اليوم باسم « الهفوف » « وفى السنة نفسها أغار على « القطيف » القريبة من البصرة وقتل من لقيه بها من الرجال والنساء[٣]. وفى السنة التالية هددت جنوده البصرة[٤]. وأحسَّ حمدان بقوته فأخذ يدفع أتباعه إلى الإغارة على قرى السواد ، وتصدَّى لهم بدر غلام الطائى . وأوقع بهم على غرة بنواحى روذميستان وقتل منهم مقتلة عظيمة[٥]. ويعودون إلى الانتشار فى سواد الكوفة لسنة ٢٨٩ ويفتك بهم شبل غلام الطائى ويقع فى أسره قائدهم المعروف بابن أبى قوس[٦] ، فيرسل به إلى المعتضد ،

---

(١) الفرق بين الفرق للبغدادى (طبعة محمد محيى الدين عبد الحميد ص ٢٩٥ .

(٢) المصدر نفسه ص ٣٠٢ .

(٣) طبرى ١٠ / ٧١ .

(٤) طبرى ١٠ / ٧٥ .

(٥) طبرى ١٠ / ٨٢ .

(٦) فى الطبرى : فوارس .

فيضرب عنقه ، ويصلبه على الجسر فى جماعة من القرامطة ، ويذكر ذلك ابن المعتز فى أرجوزته آنفة الذكر ، منددا بالدعوة القرمطية ، قائلا :

ابنُ أبي قَوْسٍ لهمْ نبيٌّ ... إمامُ عَدْلٍ لهمُ مَرْضِيٌّ

خَفَّفَ عنهم من صلاة الفَرْضِ ... وقال : ناب بعضها عن بعضِ

فاذهبْ إلى الجِسْر تجده فارسا ... على طِمِرٍّ (١) لأسيرٍ جالسا

وتلك عقبى الغَيِّ والضلالِ ... والكُفْر بالرحمن ذى الجلالِ

وهو يسجل هنا على القرامطة جهلهم حتى ليزعمون أن ابن أبى قوس نبى ، مع تخفيفهم للصلاة وكفرهم بالرحمن ، وسجل عليهم فى الأرجوزة قبل هذه الأبيات الشريعة الجديدة التى اتخذوها وأنهم يجاهدون فيها عن إمام مختف لا يظهر أبداً

ومنذ هذا التاريخ الذى قُتل فيه ابن أبى قوس يختفى من العراق وسواده اسم حمدان وصهره عبدان ، ونفاجأ بداعية يتولى زعامة القرامطة مكانهما يسمى زَكْرويه(٢) . ويبدو أنهما أحسّا بتغير فى المبادئ التى (٣) كانا يدعوان إليها ، فأرسل حمدان بعبدان إلى سَلَمْيَة ليقف على حقائق الأمور ، فوجد أحمد بن عبد الله بن ميمون القداح ترفى وخلفه ابنه الحسين ، ولما اجتمع به سأله عن الإمام الذى يدعون إليه وعن حُجّته ، فعجب الحسين من سؤاله ، وقال له : « من هو الإمام إذن ؟ » فأجابه عبدان إنه محمد بن إسماعيل بن جعفر الصادق الذى دعا له أبوك وكان حجته ، فاستنكر الحسين القداحى إجابته ، وقال له : إن الإمام إنما كان والده ، وحلّ هو محله الآن . وعندئذ أدرك عبدان حقيقة القدّاحين وأنهم تظاهروا بالدعوة لمحمد بن إسماعيل خداعا للناس وتمويها عليهم حتى يجتذبوهم إلى صفوفهم . وعاد عبدان إلى حمدان فوقفه على حقيقة الأمر ، وأشار عليه بوقف الدعوة وأن يجمع الدعاة ويبين لهم الحقيقة . وأخذ حمدان برأيه ، فوقف الدعوة فى الأماكن القريبة منه ، ولم يستطع توضيحها لمن كانوا فى الأماكن النائية ، وترك كلواذى واختفى هو وصهره عبدان من مسرح التاريخ ، ويبدو أن

---

(١) طمر : فرس .

(٢) كان أحد دعاة قرمط المهمين . الطبرى ١٠ / ٩٤ .

(٣) الدورى ص ١٦٥ .

القداحين عملوا على اغتيالهما ، واتُّخذ زَكَرْويه أداة لتنفيذ هذا الاغتيال .

وعلى هذا النحو صارت رياسة الدعوة فى سواد الكوفة والعراق إلى زَكَرْويه الدَّندانى ، وكان أعظم نشاطًا من حمدان قرمط وصهره عبدان ، ولما رأى الدولة تتعقب القرامطة بسواد الكوفة وأنه لا غَنَاء عندهم سعى فى استغواء البدو من أسد وطيئ وتميم وغيرهم ، وتابعته منهم جماعات ، غير أن كثرة البدو المحيطين بجنوبى العراق لم تستجب له ، فأرسل أولاده يحيى والحسين ومحمداً إلى عشائر قبيلة كلب فى بادية السماوة بين العراق والشام ، فأصاخوا لهم وبايعوهم ، وكان مما زعموه لهم أنهم من ولد محمد بن إسماعيل بن جعفر الصادق ، حتى إذا رأوهم يدعونهم إلى العقيدة القرمطية نفروا منهم ولم يتابعهم إلا بنو العليص ، إذ بايعوا فى آخر سنة ٢٨٩ يحيى بن زكرويه متلقبًا لهم بالشيخ وزاعمًا أنه أبو عبد الله على بن محمد ابن إسماعيل بن جعفر الصادق ، وقيل بل زعم أن اسمه محمد بن عبد الله . وزعم لهم فيما زعم أن أباه — ودعاه أبا محمود — يدعو له ، وأنه يتبعه فى السواد بالعراق وفى المشرق والمغرب مائة ألف ، وأيضًا زعم لهم فيما زعم أن ناقته التى يركبها مأمورة ، وأنهم إذا اتبعوها فى لقاء عدوّ نزل عليهم الفتح المبين ، وتكهَّن لهم أو ادعى فيهم الكهانة ، وأظهر لهم عضداً له ناقصة ، وذكر أنها آيته[1] . ومضى فى سنة ٢٩٠ بمن تبعوه يعيث فساداً فى المدن السورية ، وكانت تتبع حينئذ الدولة الطولونية ، وكانت تعانى من ضعف شديد ، وكانت قد ولت عليها طُغْجًا الإخشيدى قبل ولايته على مصر ، فأرسل لابن زكرويه جيشًا سرعان ما هُزِم وقُتل قائده[2] . وقصد ابن زكرويه الرقة فى جمع كثير يَقْتُلُ وينهب ، وواقع هناك جيشًا للخليفة المكتفى وهزمه وقتل قائده . وحاصر دمشق غير أنها صمدت لحصاره ، وسرعان ما قُتل على أبوابها ، فبايع أتباعه أخاه الحسين ونادوا به خليفة من بعده ، وزعم لهم بدوره أنه أحمد بن عبد الله بن إسماعيل بن جعفر الصادق ، وأظهر لهم شامة فى وجهه الملثَّم ذكر أنها آيته ، ولذلك سُمِّى بصاحب الشامة ، ووفد عليه ابن عم له يسمى عيسى بن مهرويه ، فزعم أنه مثله من نسل جعفر الصادق ولقَّبه المدثِّر ، وزعم أنه المقصود بسورة المدثر[3] ! وأجابه كثير

---

(١) طبرى ١٠ / ٩٥ .

(٢) طبرى ١٠ / ٩٧ .

(٣) طبرى ١٠ / ٩٦ .

من البدو ، واشتدت شوكته ، فزحف بجموعه على دمشق وخافه أهلها فصالحوه على خراج يؤدونه إليه . وتقدّم إلى حمص ، فتغلب عليها ، وخُطب له على منابرها باسم المهدى المنتظر ، ثم سار إلى حماة والمعرة وبعلبك يقتل ويسفك الدماء وينهب . ونزل سَلَمْيَة ، وبدأ بقتل مَنْ بها من بنى هاشم ثم قتل أهلها أجمعين حتى صبيان الكتاتيب، ولم يُبْق بها عيناً تطرف[1]. ويظهر أنه كان يريد القضاء على الأئمة المستودَعين من أسرة القداحين ومن وراءهم من الأئمة المستورين إن كان يوجد أحد منهم حقًّا ، حتى يصفو الجو له ولإمامته ودعوته وخلافته ، ونرى الطبرى يحتفظ بكتاب منه إلى بعض عماله يستهله على هذا النمط : « بسم الله الرحمن الرحيم من عبد الله أحمد بن عبد الله المهدى ، المنصور بالله ، الناصر لدين الله ، القائم بأمر الله ، الحاكم بحكم الله ، الداعى إلى كتاب الله ، الذابّ عن حُرَم الله ، المختار من ولد رسول الله ، أمير المؤمنين ، وإمام المسلمين ، ومذلّ المنافقين ، خليفة الله على العالمين ، وحاصد الظالمين ، وقاصم المعتدين ، ومبيد الملحدين ، وقاتل القاسطين ، ومهلك المفسدين ، وسراج المبصرين ، وضياء المستضيئين ، ومشتت المخالفين ، والقائم بسنة سيد المرسلين ، وولد خير الوصيين ، صلى الله عليه وعلى أهل بيته الطيبين ، وسلّم كثيراً . . . »[2] .

وواضح أن الحسين بن زكرويه لم يكتف بأن يكون إماماً مستودَعاً مثل القداحين ، بل رأى أن يكون الإمام المستور نفسه . ولذلك ادّعى له نسباً إلى محمد ابن إسماعيل بن جعفر الصادق ، وتلقب بالمهدى وخليفة الله أمير المؤمنين . وفرّ منه عبيد الله المهدى رأس الدولة الفاطمية ، ومضى فى فراره حتى شمالىّ إفريقيا . ولما تكاثرت فظائعه وضجّ أهل الشام منه بالشكوى إلى الخليفة المكتفى أرسل إليهم جيشاً جراراً بقيادة محمد بن سليمان ، فنازل الحسين وأتباعه بالقرب من حماة فى المحرم لسنة ٢٩١ وسحقهم سحقاً ذريعاً . ففرّ كثيرون من جنده إلى البوادى ، وفر على وجهه مع بعض خاصته إلى الشرق ميمماً الفرات ، وأُسروا هناك جميعاً ، وصُلبوا ببغداد مع عشرات من القرامطة جىء بهم من الكوفة ، وكان بينهم بغداديون ذاقوا المصير نفسه[3]. ويذكر الطبرى أن أخاً لصاحب الشامة — لعله الأخ الثانى

---

(١) طبرى ١٠/١٠٠ .
(٢) طبرى ١٠/١٠٥ .
(٣) طبرى ١٠ / ١٠٨ .

المسمى محمداً — عاث ببعض الأعراب فى نواحى دمشق لسنة ٢٩٣ ثم صار إلى طبرية فغلب عليها ودخلها وقتل عامة أهلها من الرجال والنساء ونهبها وانصرف إلى ناحية البادية[1]. وأرسل زَكْرويه فى السنة نفسها داعية له إلى بادية الشام يسمى أبا غانم ، فالتفّ حوله كثيرون وانتهب بهم بعض المدن القريبة من البوادى مثل بُصْرَى وأذرعات ، وتعقبتهم جنود الخلافة من ماء إلى ماء ، وقتَل أبا غانم أحدُ أتباعه[2] فقُضى على تلك الثورة . وبذلك تنتهى حركة زكرويه فى بوادى الشام ، إذ يقضى العباسيون عليهم هناك قضاء مبرماً ، وأحكم لهم ذلك أنهم قضوا فى الوقت نفسه على الدولة الطولونية التى كانت قد ضعفت ضعفاً شديداً ، مما مكن لزَكْرويه وأبنائه وأتباعه أن يحدثوا هناك شغباً وفتناً كثيرة .

واستعادت الدولة سيطرتها كاملة على سواد الكوفة ومَن كان به من أتباع زَكْرويه ويذكر المؤرخون أنه أنفذ إلى البدو داعية له من أهل السواد يسمى القاسم بن أحمد يدعوهم للخروج معه ومع شيعته من سواد الكوفة ، واجتمع له كثيرون ، حتى إذا كان المحرم من سنة ٢٩٤ هاجم قوافل الحجاج فى أوبتها من المسجد الحرام ونهب جميع ما كان معها من الأموال مما قُدّرت قيمته بنحو مليونين من الدنانير وقتل من الحاج نحو عشرين ألفاً ، وبلغ النبأ بغداد ، فندب له الخليفة المكتفى وصيف بن صوارتكين فى جيش جرار ، فلقيه فى الرابع من شهر ربيع الأول وقتل من شيعته مقتلة عظيمة ، وخلص بعض الجند إلى زَكْرويه فضربه بالسيف وهو فارٌّ ضربة اتصلت برأسه ، فاستسلم ، وأخذه أسيراً ، وأسروا نائبه وخواصه وابنه وأقاربه وكاتبه وامرأته ، وحُمِل وهو جريح فتوفى فى الطريق إلى بغداد من أثر الضربة[3] . وبذلك قُضى على حركة زكرويه فى سواد الكوفة وبوادى الشام قضاء نهائياً .

وإذا كانت حركة القرامطة قد باءت فى هاتين المنطقتين بإخفاق ذريع فإنها نجحت إلى حد بعيد فى منطقة الأحساء والبحرين على يد أبى سعيد الحسن بن بهرام الجنّابى الذى مرّ ذكره آنفاً ، وكان من كبار دعاة حمدان قرمط ، واستطاع أن

---

(١) طبرى ١٠/١٢١ والنجوم الزاهرة ٣ / ١٥٨ .

(٢) طبرى ١٠ / ١٢٢ .

(٣) طبرى ١٠ / ١٢٤ وعريب ص ١١ والنجوم الزاهرة ٣ / ١٥٩ .

يؤسس هناك دولة ظلت آماداً متطاولة إلى نحو منتصف القرن الرابع إذ دخلوا منذ سنة ٣٥٨ فى طاعة الخليفة العباسى وخطبوا له على المنابر . وكانت تسود فى دولة أبى سعيد الروح الاشتراكية التى بثّها أستاذه حمدان قرمط ، وعظم أمره . وكثيراً ما كان يحدث لعهد الخليفة المكتفى أن يتقدم بجنوده نحو البصرة ، وتلقاه جيوش الخلافة ، ويقتتل الطرفان قتالا شديداً[1] . وما زال يسوس دولته ، حتى قتله غلام له صقلبى فى سنة ٣٠١ وقتل معه جماعة من قواده[2] ، فقام بالأمر من بعده ابنه أبو طاهر سليمان بن الحسن الجنَّابىّ ، ونراه يهاجم البصرة بأتباعه بمجرد استيلائه على الحكم[3] ، حتى إذا كانت سنة ٣٠٧ عاد إلى مهاجمتها وإعمال النهب والسلب فيها[4] . ودخلها لسنة ٣١١ فى ألف وسبعمائة من أتباعه ، وضعوا السيف فى أهلها ، وقتلوا واليها سبكًا المفلحى ، وأحرقوا المربد وبعض الجامع ومسجد قبر طلحة ، وظل بها سبعة عشر يومًا يحمل على إبله ما نهبه من الأموال والمتاع[5] . وفى السنة التالية رصد الحاجّ فى مقدمهم من مكة لشهر المحرَّم وأخذ يوقع بقوافلهم ، وينهب الأموال ، ويأسر ويقتل ، وجاء الخبر إلى بغداد بذلك فوقع النَّوْح والبكاء وخرج النساء منشَّرات الشعور مسوّدات الوجوه يلطمن ويندبن[6] . وفى سنة ٣١٣ سار الحجاج من بغداد ومعهم جعفر بن ورقاء فى ألف فارس ، فلقيهم أبو طاهر ، فناوشهم بالحرب ، فخاف الناس ورجعوا إلى بغداد ، فاتجه إلى الكوفة ، فقاتلوه ورجحت كفته ودخل البلدة وأقام بها ستة أيام ينهب ويسلب ، وكان مما نهبه منها أربعة آلاف ثوبِ وشيٍ وثلثمائة راوية زيت[7] . وفى سنة ٣١٥ خرج فى ألف فارس وخمسة آلاف راجل متجهًا إلى الكوفة ، وعلم المقتدر فجهَّز لحربه يوسف بن أبى الساج فى عشرين ألفًا ، وتقاتلا على أبواب الكوفة ، ودارت الدوائر على ابن أبى الساج وأسر جريحًا ، وقُتلت جماعة كثيرة من أصحابه . وبلغ ذلك المقتدر فراعه الخبر ، وندب مؤنسًا لقتاله ، فخرج بالعساكر إلى الأنبار فى أربعين ألفًا ، وانضم إليه أبو الهيجاء بن حمدان وإخوته فى أصحابهم وأعوانهم ، ووقعت بينهما

---

(١) طبرى ١٠ / ٧٥ ، ٧٩ ، ٨٥ .
(٢) طبرى ١٠ / ١٤٨ والهمدانى ص ١٤ والنجوم الزاهرة ٣ / ١٨٢ .
(٣) الهمدانى ص ١٤ .
(٤) النجوم الزاهرة ٣ / ١٩٧ .
(٥) الهمدانى ص ٤٠ والنجوم الزاهرة ٣/ ٢٠٧ .
(٦) الهمدانى ص ٤٣ والنجوم الزاهرة ٣/ ٢١١ .
(٧) الهمدانى ص ٤٨ والنجوم الزاهرة ٣/ ٢١٣ .

مناوشات ليست بذات بال ، مما أغرى أبا طاهر بمنازلة بلدان كثيرة فى جنوب العراق سالبًا ناهبًا سافكًا للدماء[١] . وفى السنة التالية دخل الرحبة جنوبى قَرْقِيسْياء شمالى العراق ، ووضع فيها السيف ، فبعث إليه أهل قَرْقِيسْياء يطلبون الأمان فأمَّنها ، ثم دخلها . وتوجه إلى الرقة ، فأخذها ، وتفاقم أمره وكثر أتباعه[٢] . حتى إذا كان موسم الحج لسنة ٣١٧ حدثت الطامة الكبرى إذ وافى أبو طاهر الحاجَّ يوم التَّرْوِية ، وهم يهلُّون ويلبُّون ،وقتل الحجاج قتلا ذريعًا فى فِجاج مكة وداخل البيت الحرام وهم متعلقون بأستاره ، ويقال إنه قتل منهم نحو عشرة آلاف ، طُرح كثير منهم فى بئر زمزم ، وعَرَّى البيت من كسوته وقلع بابه واقتلع الحجر الأسود وأخذه معه إلى هجر ، وظل هناك حتى رُدَّ إلى موضعه فى عهد الخليفة المطيع سنة ٣٣٩ . ونهب جميع التحف التى زيَّن بها الخلفاء الكعبة على مر الأزمنة وما كانوا رصَّعوها به من الجواهر النفيسة ، ويقال إنه كان يجلس على باب الكعبة والحجيج يُصْرَعون حوله فى المسجد الحرام ، وهو ينشد مثل قوله :

أنا لِله وبالله أنا يَخْلق الخلقَ وأُفنيهم أنا

ويقال إنه كان زنديقًا لا يصلى ولا يصوم ولا يؤدى فرائض الإسلام ، مع تظاهره بأنه مسلم وزعمه أنه داعية عبيد الله المهدى بإفريقيا[٣] . ولم يحج أحد منذ هذا التاريخ حتى سنة ٣٢٦ ، خوفًا من شره وشر أتباعه من القرامطة ، غير أن شرَّه لم ينحسر عن العراق ، إذ هاجم الكوفة لسنة ٣١٩ ، وعاود الهجوم عليها فى سنة ٣٢٥ ونازلته جنود الخلافة فى سنة ٣٣٠ ، ومات فى شهر رمضان لسنة ٣٣٢ بالجُدَرِى بعد أن تقطعت بسببه أوصاله وأطرافه وهو ينظر إليها ، وبعد أن طال عذابه ورأى فى جسده العِبَر . وخلفه أخوه سعيد[٤] بن الحسن الجنَّابىّ ، وهو الذى ردَّ الحجر الأسود إلى مكانه بالكعبة ، وكان العراق قد دخل فى حكم البويهيين فضعف شأن قرامطة البحرين والأحساء ، واضطروا بأخرة إلى الدخول فى طاعة الخلافة العباسية ونَبْذ عقيدتهم القرمطية .

---

(١) الهمدانى ص٥٢ والنجوم الزاهرة ٣/٢١٧ .

(٢) النجوم الزاهرة ٣ / ٢٢٠ .

(٣) الهمدانى ص٦٢ عريب ص٩٥ والنجوم الزاهرة ٣/ ٢٢٤ .

(٤) الهمدانى ص ١٠٢ ، ١٣٩ والنجوم الزاهرة ٣ / ٢٢٨ ، ٢٧٥ ، ٢٨١ .

٥

أحداث مختلفة

لعل أهم ما أمر به المتوكل فى أوائل خلافته وَقْفُ القول بخلق القرآن وإنهاء حمل الناس بالقوة عليه وما كان من العنف بجلّة الفقهاء السنّيين وفى مقدمتهم أحمد ابن حنبل ممن رفَضوا اعتناق هذا القول، وكانت المحنة بذلك بدأت — كما مرّ فى كتابنا العصر العباسى الأول — منذ عصر المأمون سنة ٢١٢، إذ جعل القول بخلق القرآن عقيدة رسمية للدولة وكتب إلى الآفاق بامتحان الفقهاء فيها، فمن لم يعلن جهاراً اعتناقه لها ضُرب وقُيِّد وأرْسل إلى بغداد لمحاكمته وحبسه. وتظل المحنة قائمة فى عهد المعتصم، وإن خفّت حِدّتها كثيراً، ثم تعود إلى الاشتداد لعهد الواثق ويعود معها العنف بالفقهاء ممن لا يجاهرون بأن القرآن مخلوق. حتى إذا ولى المتوكل أمر بوقف هذا العنف وكل ما اتصل به من امتحان وأن يترك الناس الخوض فى ذلك ويهتموا بالحديث والسنة[1]. وبذلك هيأ لأن يأفل شأن الاعتزال ورجاله الذين دفعوا إلى هذه المحنة وظلوا يمدونها بالحطب الجزل، حتى أطفأ المتوكل نارها المشتعلة وأحالها رماداً، وكان لذلك أثر بعيد فى الحياة العقلية والفنية، فقد أفل نجم المعتزلة أصحاب الفكر الحر، وتألق نجم أهل السنة المحافظين، وأخذ الذوق المحافظ يسود فى كل شىء فى الشعر وفى الغناء، وحتى فى الدراسات الدينية، إذ ظهر مذهب داود الظاهرى الذى يرفض القياس.

وثار فى أذربيجان لسنة ٢٣٤، محمد بن البعيث وقُضى على ثورته.
وتدخل سنة ٢٣٦، فيأمر المتوكل بهدم قبر الحسين فى كربلاء وهدم ما حوله من المنازل والدور وأن يُحرَثَ ويبذر ويُسْقَى موضع قبره ويُمْنَعَ الناس من إتيانه، فحُرِث الموضع وزُرع ما حواليه حتى يزول أثره، وحلت بذلك محنة عظيمة على آل أبى طالب وشيعتهم. ويقول المسعودى إنه حين انتهى الفَعلة إلى الحفرة وموضع اللحد لم يروا فيه أثر جثة ولا غيرها[2]. ويقول الطبرى: نُودى فى

(١) مروج الذهب ٤/٣ والنجوم الزاهرة ٢/ ٢٧٥. (٢) مروج الذهب ٤/ ٥١.

الناس : من وجدناه عند قبره بعد ثلاثة بعثنا به إلى السجون ، فامتنع الناس من المصير إليه[١]. وكان ذلك إنذاراً شديداً للعلويين ، فلم يتحرك منهم أحد لعهد المتوكل خشية بطشه ، وبالمثل لم يتحرك الخوارج لا فى الموصل ولا فى خراسان .

وتظل الغزوات الصيفية للروم البيزنطيين — ويسمونها الصائفة — قائمة طوال عصر المتوكل ، وينزاون فى سنة ٢٣٩ دمياط وينهبون كثيراً من الأمتعة والأموال ، ثم يفرون إلى البحر المتوسط وما وراءه[٢] . ويحاولون الإغارة على سُمَيْساط وبعض الثغور فى شمالى الشام والموصل ، ويُنْزِل بهم على بن يحيى الأرمنى فى سنة ٢٤٥ هزائم متلاحقة[٣] ، ويدور العام ، فينكل بهم فى غزو الصائفة ويعود بأسلاب وغنائم كثيرة ، كما ينكل بهم الفارس المغوار عمر بن عبد الله الأقطع وتكثر مغانمه ، ويغزوهم الفضل بن قارن فى عشرين مركبًا ويفتتح حصن أنطالية[٤] . وما يزال غزو صقلية مستمرًّا فى عهد المتوكل منذ نزول العرب بها فى عصر المأمون حتى تستسلم نهائيًّا[٥] . وفى ديوان البحترى غزوة بحرية دمَّر فيها أسطول المتوكل بقيادة أحمد بن دينار أسطول الروم لم يعرض لها المؤرخون[٦] .

ويولِّى المتوكل سنة ٢٣٧ محمد بن عبد الله بن طاهر الشرطة وأعمال السواد فى العراق ونيابته فى بغداد ، وهى وظيفة تشبه وظيفة المحافظ لعصرنا ، وظل يتولاها حتى وفاته سنة ٢٥٣ وظلت بعده فى بيته طويلا . وفى سنة ٢٤١ ثارت البجة فى شمالى السودان على والى مصر وامتنعت من دفع الخراج ، واشتبك معها محمد بن عبد الله المعروف بالقمى فى سلسلة من المعارك توالت فيها انتصاراته ، وما زال يقاتلهم حتى أنابوا إلى الطاعة وعادوا إلى أداء ما كانوا يؤدونه من الخراج[٧] . وفى سنة ٢٤٤ غضب المتوكل على بختيشوع المتطبب وصادر أمواله وأمر بنفيه إلى البحرين[٨] . ويقول المسعودى : « كانت أيام المتوكل أحسن أيام وأنضرها من استقامة الملك وشمول الناس بالأمن والعدل »[٩] .

---

(١) طبرى ٩ / ١٨٥ .
(٢) طبرى ٩ / ١٩٣ وانظر العرب والروم لفازيلييف ترجمة محمد عبد الهادى شعيرة ص ١٨٧ .
(٣) طبرى ٩ / ٢١٨ .
(٤) طبرى ٩ / ٢١٩ .
(٥) العرب والروم ص ١١٥ ، ١٢٩ ، ١٨٠ ، ٢٢٨ وما بعدها .
(٦) ديوان البحترى (طبع دار المعارف) ٢ / ٩٨٠ .
(٧) طبرى ٩ / ٢٠٣ وما بعدها .
(٨) طبرى ٩ / ٢١١ .
(٩) مروج الذهب ٤ / ٤ .

وخلفه ابنه المنتصر فى شوال سنة ٢٤٧ ، وكانت خلافته قصيرة لم تزد على ستة أشهر ، وفيها وجّه جيشاً كثيفاً بقيادة وصيف لغزو الصائفة[١]. ولعل أهم أعماله أنه أمر بالكف عن العلويين وألا يمنع أحد من زيارة كربلاء والنجف وما بهما من قبور آل أبى طالب ، وأمر بردّ أرض فَدَك فى الحجاز إلى أولاد الحسن والحسين ، وأطلق أوقاف العلويين جميعاً وأمر ألا يتعرض أحد لشيعتهم بأذى أو مكروه[٢]. وخرج لعهده محمد بن عمرو الشارى بناحية الموصل ،وتجمع حوله كثيرون من الخوارج تزعمهم وحضهم على الثورة وانضم إليهم كثيرون من الأكراد ، فوجه إليه جيشاً بقيادة سيما التركى ، هزمه هزيمة ساحقة ، وساقه مع طائفة من أصحابه أسيراً إلى سامرّاء ، فقُتلوا وصُلبوا جميعاً [٣] . وفى عهده بدأ يعقوب ابن الليث الصفار ثورته فى سجستان وتحرك إلى هراة[٤] .

ويتولى الخلافة المستعين بالله نحو ثلاث سنين وثمانية أشهر ، وفى عهده يعود أبناء عمه الطالبيين إلى التحرك ، فيخرج بالكوفة لسنة ٢٤٨ يحيى بن عمر الطالبى حفيد زيد بن على زين العابدين ، ويرسل إليه المستعين بجيش كثيف يقضى على ثورته ويُقْتَلُ ويُحْمَلُ رأسه إلى بغداد ويُصْلَبُ ويبكيه كثير من الشعراء لورعه وتقواه[٥] ، وجيمية ابن الرومى فى رثائه والتفجع عليه مشهورة ، وفيها يقول :

سلامٌ وريحانٌ ورَوْحٌ ورحمةٌ   عليك وممدودٌ من الظل سَجْسَجُ[٦]

وفى سنة ٢٥٠ يخرج الحسن بن زيد، وهو من حفدة زيد بن على زين العابدين ابن على بن أبى طالب ، وكان خروجه بطبرستان ويغلب هناك على بلاد الديلم جميعها[٧]، ويظل ثابتاً لجيوش الدولة العباسية حتى يلبى نداء ربه لعهد المعتمد سنة ٢٧٠ ويخلفه من بعده أخوه محمد[٨]. ويخرج على المستعين علويون مختلفون

---

(١) طبرى ٩/٢٤٠ والعرب والروم ص٢١٧ .

(٢) مروج الذهب ٤ / ٥١ .

(٣) طبرى ٩/٢٥٥ ومروج الذهب ٤/٥٣ .

(٤) طبرى ٩/٢٥٥ .

(٥) طبرى ٩/٢٦٦ ومروج الذهب ٤/٦٣ والفخرى ص ٢٤٠ .

(٦) سجسج : معتدل لا حار ولا شديد البرد .

(٧) طبرى ٩/٢٧١ ومروج الذهب ٤/٦٨ .

(٨) طبرى ٩/٦٦٦ ومروج الذهب ٤/٦٨ ، ١٧٧ .

بالرّى وقزوين والكوفة ويقضى عليهم جميعًا[١]. ويتحرك بعض الخوارج ويلقاهم المصير نفسه[٢]. وتحدث حينئذ أكبر فاجعة أصابت الغزاة المقاتلين فى جبهة الروم إذ استشهد فى سنة ٢٤٩ بطلان مغواران من أهل البأس والنجدة والمكيدة فى الحروب ، هما عمر بن عبيد الله الأقطع وعلى بن يحيى الأرمنى اللذان طالما دوّخا الروم وأنزلا بهم هزائم ساحقة ، أما عمر فكان يغزو الصائفة فى جمع من أهل ملَطْية فلقيه إمبراطور بيزنطة فى جيش جرار بلغ خمسين ألفًا ، ونشب القتال بينهما ، واستبسل عمر فى الجموع القليلة التى كانت معه استبسالا رائعًا ، ولكنهم استطاعوا لكثرتهم أن يحيطوا به ، فاستشهد فى ألف من المسلمين الأبرار ، بعد أن أبلوا فى المعركة بلاءً عظيمًا . وأما على فكان قد انصرف من الثغور إلى ديار بكر شمالى العراق ، وجاءه نعىّ عمر المفجع ، فاستشاط غضباً وأسرع إليه فى أربعمائة مقاتل ، وهو لا يعلم عدّة الروم ، فأحاطوا به مثل صاحبه ، ومضى إلى ربه شهيداً[٣].

وبويع بالخلافة المعتز فى المحرم من سنة ٢٥٢ وفى عهده أوقع مفلح بعبد العزيز ابن أبى دلف الثائر بالكرج وهزمه هزيمة نكراء[٤]، ودخل مفلح لسنة ٢٥٥ طبرستان ، وهزم الحسن بن زيد العلوى وأحرق منازله ، وفر الحسن إلى الديلم ، وتوجه مفلح نحوه[٥]. وعلا حينئذ شأن يعقوب بن الليث الصفار ، واستولى على كرمان وفارس[٦]. وأقطع المعتز حاجبه بايكباك مصر لسنة ٢٥٤ فولى عليها أحمد بن طولون ، وسرعان ما أسس بها الدولة الطولونية .

وتولى الخلافة المهتدى فى سنة ٢٥٥ ومكث فى الخلافة أحد عشر شهراً ، وكان صالحًا تقيًّا عادلا طاهر السيرة ، أمر بالمعروف ونهى عن المنكر وحرّم الشراب والاختلاف إلى القيان للسماع ، وبنى قبة جلس فيها لاستقبال العام والخاص ، والنظر فى المظالم وأقل من المطعم والمشرب ، وكان يخطب بنفسه خطبة الجمعة ويؤم الناس فى المسجد الجامع ، وكانت الخلفاء قبله تنفق على موائدها فى كل يوم

---

(١) مروج الذهب ٤/٦٩ .
(٢) طبرى ٩/٣٠٨ .
(٣) طبرى ٩/٢٦١ ومروج الذهب ٤/١٢٥ والعرب والروم ص ٢٢٠ ، ٢٢٤ .
(٤) طبرى ٩/٣٧٣ .
(٥) طبرى ٩/٣٨٢ .
(٦) طبرى ٩/٣٨٢ وما بعدها .

عشرة آلاف درهم ، فأزال ذلك وجعل لمائدته وسائر مؤنه كل يوم نحو مائة درهم ، وكان يواصل العبادة والصيام[١] ، فبدا غريباً عن روح العصر ، وثقل حكمه على الأتراك فأعملوا الحيلة عليه حتى قتلوه . وفى عهده بدأ أمر صاحب الزنج يظهر على نحو ما مرّ بنا فى غير هذا الموضع .

وخلفه المعتمد فى رجب سنة ٢٥٦ وكان يؤثر اللذة ويعكف على الملاهى غير أنه رُزق حظوة بأخيه أبى أحمد الموفق وكان حازماً مقداماً بعيد النظر عارفاً بأمور الحرب وشئون السياسة ، فغلب على الخلافة وتدبيرها ، وأصبح المعتمد معه كالمحجور عليه . وكانت الخلافة العباسية تردّت فى هوة بعيدة القرار ، فأعاد إليها هيبتها ، وقضى كما مرّ بنا على ثورة الزنج قضاء مبرماً ، وهزم يعقوب بن الليث الصفار هزيمة نكراء ، اضطر على إثرها إلى الفرار إبقاء على نفسه من الموفق وجنوده . وتحركت حينئذ الخوارج فى الموصل وخراسان ، وقضى على حركاتها جميعاً[٢]. وكان القواد من أصحاب الثغور وغيرهم لا يزالون ينازلون الروم فى الصوائف وفى مقدمتهم البطل يازمان الذى نكّل بهم لسنة ٢٧٤ ودارت السنة فغزاهم فى البحر ، وأخذ لهم أربعة مراكب[٣].

وولى الخلافة المعتضد لسنة ٢٧٩ ، وكان صورة قوية للحزم والجد اللذين ليس بعدهما جد وحزم ، كما كان فارساً شجاعاً وبطلا مغواراً أنقذ الخلافة مع أبيه الموفق من الزنج الثائرين الذين دوّخوا القواد قائداً تلو قائد . وفى أيامه سكنت الفتن وصلحت البلدان واستقامت له الأمور ورخصت الأسعار . وأديل له دائماً من المخالفين عليه ، وكانت جيوشه تغدو وتروح بالنصر ، وممن ظفر بهم هرون الشارى الذى خرج بالموصل[٤] وثار عليه بأصبهان والجبل فى سنة ٢٨٣ بكر بن عبد العزيز بن أبى دلف العجلى الشيبانى فوجه إليه عيسى النوشرى ففرّ من أمامه ، ثم عاد إلى الظهور فى سنة ٢٨٤ ، وقُضى على ثورته. ونازل له السامانيون محمد بن زيد العلوى أخا الحسن الذى مر ذكره ، إذ هاجموه بطبرستان وقتلوه على أبوابها[٥] لسنة ٢٨٧. ونازلوا له الترك وفتحوا حاضرتهم وأسروا ملكهم وامرأته خاتون ونحواً من

---

(١) مروج الذهب ٤ / ٩٧ ، ١٠٣ .
(٢) طبرى ٩ / ٥١٢ ، ٥٣٢ .
(٣) طبرى ١٠ / ١٣ وما بعدها .
(٤) طبرى ١٠ / ٤٣ .
(٥) طبرى ١٠ /٨١ ومروج الذهب ٤/ ١٧٧ .

عشرة آلاف مع ما أخذوا من الأسلاب والغنائم الوافرة[١]، وغزت جيوشه الروم وكبدتهم خسائر فادحة ،| وغزاهم قائده راغب فى البحر لسنة ٢٨٥ ، واستولى منهم على مراكب كثيرة ، غير ما أغرقه ، وضرب أعناق ثلاثة آلاف منهم وفتح كثيراً من حصونهم[٢]. ويغادر أبو عبد الله الشيعى فى عهده الشام إلى المغرب وينزل بقبيلة كتامة ويدعوهم إلى عبيد الله المهدى جد الخلفاء الفاطميين الذى كان قد فرّ من الحسين بن زكرويه ، على نحو ما أسلفنا فى حديثنا عن القرامطة والإسماعيلية[٣]. ويحدث لعهد المعتضد حادث مفجع إذ يوغر دميانة أحد قواده فى الثغور صدره على أهل طرسوس لشىء كان فى نفسه منهم ، ويشير عليه أن يحرق سفنهم التى كانوا يغزون فيها الروم . والعجب العجاب أن يصيخ له المعتضد المعروف بكياسته ، غير أن هذا الشيطان عرف كيف يؤثر فيه ، فأمر بإحراق جميع سفنهم البحرية وإحراق جميع آلاتها الحربية ، يقول الطبرى : « وكانت خمسين مركباً قد أُنفقت عليها أموال جليلة فأضرّ ذلك بالمسلمين وكسر فى أعضادهم وقَوِىَ به الروم وأمنوا أن يُغْزَوْا فى البحر أو تُدَمَّر سفنهم وأساطيلهم فيه »[٤].

ويتولى الخلافة المكتفى سنة ٢٨٩ ، وكان يتوخى العدل والإنصاف فى حكمه ، فردّ المظالم إلى أهلها ومالت إليه قلوب الرعية . وفى عهده تمّ القضاء على زكْرويه القرمطى ومن بقى من أبنائه وفتح جيشه المقيم بطرسوس أنطالية على ساحل البحر المتوسط عنوة ، وقتل من أهلها خمسة آلاف ، وأسر مثلهم ، واستولى على ستين مركباً للروم حمَّلها ما غنم من الرقيق والمتاع والذهب والفضة[٥]. ويذكر آدم ميتز أنه فى السنة نفسها ، وهى سنة ٢٩٣ ، استولى المسلمون على مدينة سالونيق ثانية مدن الدولة البيزنطية وأسروا من أهلها اثنين وعشرين ألفاً[٦]. وفى السنة التالية غزت جنود المكتفى سلندو وآلس وفتح الله عليهم وقتلوا من أهلهما مقتلة كبيرة[٧]. وفى السنة نفسها ظهر السفيانى بالشام ، ودعا إلى نفسه ، وتبعه نفر ، فحُملوا جميعاً مقيَّدين إلى باب المكتفى[٨].

---

(١) طبرى ١٠ / ٣٤ .
(٢) طبرى ١٠ / ٦٨ .
(٣) انظر النجوم الزاهرة ٣ / ١٢٤ .
(٤) طبرى ١٠ / ٨٠ .
(٥) طبرى ١٠ / ١١٧ .
(٦) الحضارة الإسلامية فى القرن الرابع الهجرى لآدم ميتز ترجمة الدكتور أبى ريدة (الطبعة الأولى) ١ / ٥ .
(٧) طبرى ١٠ / ١٣٠ .
(٨) طبرى ١٠ / ١٣٥ .

ويخلفه أخوه المقتدر سنة ٢٩٥ وهو ابن ثلاث عشرة سنة ، وما يوافى شهر ربيع الأول لسنة ٢٩٦ ، حتى يجتمع كثيرون من الكتاب والقضاة وذوى الرأى ويُجمعوا على خلعه وتولية ابن المعتز ، وتم له البيعة ، ولا يكاد يمضى عليه يوم وليلة حتى ينتقض الأمر عليه كما مر بنا فى غير هذا الموضع ، فيُقتل وتُرد الخلافة على المقتدر ، ويصبح لعبة فى أيدى الترك يحركونه كما يشاءون ، وتعود الدولة إلى سيرتها القديمة السيئة قبل المعتمد وأخيه الموفق . وكان فى بيت المال يوم تولى الخلافة خمسة عشر مليوناً من الدنانير بدّدها كلها ، وبدّد معها القناطير المقنطرة من الأموال التى كانت تُجبَى من أطراف الدولة الواسعة. وتحكمت أمه « شغب» ووصيفاتها فى شئون الدولة ، وعاد الأتراك إلى طغيانهم وفسادهم ، فكثرت الرشوة وعمّ الظلم والبغى ، وكثر الوزراء وكثرت مصادراتهم ومصادرات الكتّاب والتجار ، كما كثر الاستيلاء على أموال ذوى اليسار بغير حق ، مما ألممنا به فى غير هذا الموضع . وكان هذا الفساد سبباً فى كثرة الفتن والثورات ، وما توافى سنة ٣٠٠ للهجرة حتى يثور على الدولة بطبرستان والديلم الأطروش العلوى وهو الحسن بن على الحسنى ، اقّب نفسه بالداعى ، واستطاع أن يُدخل فى الإسلام كثيرين استجابوا له ، وبنى لهم المساجد ، وكان حصيفاً فاضلا أصلح الله الديلم به [١] . وأغار الروم على اللاذقية بَحراً وسبَوْا منها خلقاً كثيراً ، وردّ دميانة قائد الأسطول العربى فى البحر المتوسط على هذا الغزو فى السنة نفسها وهى سنة ٢٩٨ فغزا بأسطوله قبرص وفتح بها كثيراً من الحصون وحرق وسَبَى كثيرين [٢] . وفى سنة ٣٠٤ غزا مؤنس بلاد الروم من ناحية مَلَطْيَة وفتح حصوناً كثيرة [٣] ، وردّ الروم على هذا الغزو فى سنة ٣١٤ فدخلوا ملَطْية بالسيف ، وقتلوا وسبوا ، وظلوا فيها أياماً [٤] . وفى سنة ٣١٣ فُتحت بلوخستان ، وكانت لا تزال وثنية فدخلت فى دين الله .

وتولى الخلافة القاهر بالله سنة ٣٢٠ ، وكان مولعاً بالشراب والغناء ، وكان سفاكاً للدماء ، شديد البطش بمن يغضب عليه من الأتراك ، وقتل منهم نفراً فى مقدمتهم مؤنس الملقب بالمظفر أكبر الحجاب فى عصره وعصر المقتدر ، وهابه الناس وخشوا

---

(١) طبرى ١٠/١٤٩ ومروج الذهب ٤/٢١٩ والنجوم الزاهرة ٣ / ١٨٥ .

(٢) مروج الذهب ٤/ ٢١٨ .

(٣) النجوم الزاهرة ٣ / ١٩٠ .

(٤) النجوم الزاهرة ٣/٢١٥ .

صوابه ، ومع إدمانه للخمر أمر بتحريمها وتحريم السماع وقبض على المغنين وكسر آلات اللهو وأمر بتتبع الجوارى من المغنيات[١] ، وما زال مخوف السطوة حتى احتيل عليه بعد سنة ونصف من خلافته فخُلع وسُملت عيناه ، وهو أول من عوقب هذا العقاب الصارم من الخلفاء ، وهى عادة بيزنطية ذميمة ، وقد عاش بعدها سبعة عشر عاماً .

وخلفه الراضى بالله ابن أخيه المقتدر سنة ٣٢٢ ، وكان سمحاً جواداً مقرباً للعلماء والأدباء ، ولم يكن ينصرف عنه أحد من ندمائه إلا بخلعة أو صلة ، ومن أهمهم أستاذه الصولى أبو بكر محمد بن يحيى وابن الأنبارى . وخصه الصولى بترجمة ضافية فى كتابه الأوراق ، فى القسم الخاص بأبناء الخلفاء ، روى فيها طائفة كبيرة من أشعاره ، وهو آخر خليفة له شعر مدوّن ، وآخر خليفة انفرد بتدبير الجند ، وآخر خليفة خطب فى صلاة الجمعة ، وآخر خليفة جالس الندماء[٢] . وفى عهده قُتل ابن مُقْلة الأديب والخطاط المشهور بعد أن اعتلى كرسى الوزارة مراراً . وعَظُم أمر ابن رائق بعد توليه الوزارة ، إذ قلّده الراضى جميع أمور الدولة ، غير أنه لم يلبث أن صار محجوراً عليه وكالأسير فى يده[٣] . وفى أوائل عهده سنة ٣٢٤ شنّ سيف الدولة الحمدانى أول حرب على الدمستق فى آمد[٤] ، وتوالت بعد ذلك حروبه مع البيزنطيين .

ويتولى الخلافة المتقى سنة ٣٢٩ ، وكان ناسكاً تقياً يصوم الدهر ، ولم يشرب النبيذ قط ولا اتخذ جلساء ولا ندماء ، وكان يقول : المصحف نديمى ولا أريد جليساً غيره ، غير أنه كان تعس الحظ إذ جاء بأخرة وقد فسدت الأمور وأفلت الزمام من يد الدولة ، لاشتداد المنافسة بين الوزراء والأمراء وخاصة آل البريدى بالموصل . وبلغ من اضطراب الأحوال أن استولى أبو الحسين البريدى على بغداد ، ومضى البريدى يسوم الناس ظلماً فادحاً فى الخراج وغير الخراج ويأخذ أموال التجار وغيرهم غصباً ، أما الخليفة فلجأ إلى الحمدانيين فى الجزيرة ،

---

(١) التنبيه والإشراف ص ٣٨٨ والنجوم الزاهرة ٣ / ٢٣٩ .

(٢) النجوم الزاهرة ٣ / ٢٧١ .

(٣) النجوم الزاهرة ٣ / ٢٥٨ .

(٤) نفس المصدر والصفحة .

وما زال ينتقل معهم إلى أن قدموا به إلى بغداد وهرب منها البريدى ، وخلَع حينئذ على الحسن بن عبد الله بن حمدان ولقبه بناصر الدولة وعلى أخيه علىّ ولقّبه بسيف الدولة[١]. ولم تهدأ الأمور فى بغداد فقد تفاقم أمر العيّارين وازداد النهب حتّى خلت الدور من أهلها وعُطلت المساجد والأسواق وأغلقت الحمامات . وكأنما كُتب على المتقى أن يعيش سنى خلافته بائسًا تعيسًا . حتّى القصور وقبابها يصيبها الدمار فقد سقطت لأوائل خلافته قبة قصر المنصور الخضراء ، وكأنما كان ذلك إيذانًا بأفول نجم الدولة العباسية ، إذ كانت تلك القبة تاج بغداد وعلمها المعلم[٢]. وفى سنة ٣٣١ زحف الروم على أرزن بأرمينية وميّافارقين ونَصيبين بديار بكر ، فقتلوا وسبوا كثيرين ، وطلبوا من أهل مدينة الرُّها منديلا من كنيستها زعموا أن المسيح عليه السلام مسح به وجهه فارتسمت صورته ، وقالوا إن سلمتموه لنا أطلقنا كل من بأيدينا من أسرى المسلمين . وكوتب الخليفة المتقى فى ذلك ، فاستفتى الفقهاء والقضاة ، واختلفوا فى الرأى ، ورجحت كفة من قالوا بإعطائهم إياه ، لأن خلاص المسلمين من الأسر أوجب ، فأُرسل المنديل إلى الروم وأطلقت الأسارى ، وحملوا المنديل إلى القسطنطينية ، وخرج البطريرك ورجال الدين والدولة لاستقباله فى موكب كبير[٣]. وما زالت الأمور تسوء والحكم يزداد فساداً ، وتوقف جهاد الروم ، ونُهب الحجاج وقُطعت الطرق ، وأخذت دعائم الدولة تتداعى تداعيًا شديداً ، ولم يلبث توزون القائد التركى للمتقى أن غدر به ، فقبض عليه وخلعه ، لقاء ستمائة ألف دينار أخذها من أحد الطامحين إلى الاستيلاء على الخلافة . وتولت الجارية الشيرازية «حُسْن» سمل عينيه بيد غلام لها سندى . وعاش بعد خلعه خمسًا وعشرين سنة[٤]، ومات توزون بعد خلعه بقليل .

ويخلفه المستكفى سنة ٣٣٣ بعد أن تآمر عليه مع توزون والجارية الشيرازية ، ونادراً ما كان يهنأ بأيامه فى الخلافة ، إذ كان يتقاذفه الترك وهذه المرأة الجشعة ، فلم يهدأ له بال . ولم يدر عليه عام فى خلافته حتّى دخل بنوبويه بغداد وصارت

---

(١) النجوم الزاهرة ٣/٢٧٤ وما بعدها .

(٢) النجوم الزاهرة ٣/٢٧٠

(٣) الهمدانى ص ١٣٥ والنجوم الزاهرة ٣/٢٧٨ ومتز ١/٥ .

(٤) الهمدانى ص ١٤٢ والنجوم الزاهرة ٣/٢٨٢ ومتز ١/١٦ .

إليهم مقاليد الأمور ، وسرعان ما طلبوا إليه أن يخلع نفسه ، فنزل على مشيئتهم ، غير أنه اشترط ألا يقطع شيء من أعضائه ، وكان المطيع أخو المتقى هو الذى خلفه فأمر بأن تُسمل عيناه انتقاماً لأخيه . وبذلك انتهت الحقب التى استولى فيها الأتراك على مقاليد الخلافة العباسية ، وأنزلوا بالخلفاء ما لا يطاق من الذل والهوان .

الفصل الثانى

الحياة الاجتماعية

١

طبقات المجتمع

كان يتوزَّع مجتمعَ العصر العباسى الثانى ثلاثُ طبقات أساسية : طبقة عليا تشتمل على الخلفاء والوزراء والقواد والولاة ومن يلحق بهم من الأمراء وكبار رجال الدولة ورءوس التجار وأصحاب الإقطاع من الأعيان وذوى اليسار ، وطبقة وسطى تشتمل على رجال الجيش وموظفى الدواوين والتجار والصناع الممتازين ، ثم طبقة دنيا تشتمل على العامة من الزُّرّاع وأصحاب الحرف الصغيرة والخدم والرقيق ، ويأتى فى إثر تلك الطبقات أهل الذمة .

وكانت الطبقة الأولى تغرق فى النعيم ، يتقدمها الخلفاء وكانت تُجْبَى إليهم أموال الخراج من سواد العراق وأقاصى الدولة وأدانيها غير ما كان يجبى من المكوس على الواردات والصادرات ، وعادة كان الوالى يرسل إلى بغداد ما تبقى لديه من الإنفاق على شئون إمارته وحاجتها من المساجد والبيمارستانات ومَنْ بها من الجند والموظفين . وذكر ابن خرداذبة أن الدخل من سواد العراق لسنة ٢٤٠ للهجرة بلغ ثمانية وسبعين مليونًا من الدراهم ، وبلغ دخل جزء منه فى عهد المعتضد لسنة ٢٨٠ مليونين وخمسمائة وعشرين ألفًا من الدنانير[١] . وتدهور الدخل فى عهد المقتدر ومع ذلك نرى خراج سواد العراق يبلغ مليونًا وخمسمائة وسبعة وأربعين ألف دينار ، ويورد الصابى مع هذا الإحصاء الدخل العام لعهده فى سنة ٣٠٦ ، ويذكر أنه بلغ أربعة عشر مليونًا وثمانمائة وتسعة وعشرين ألفًا وثمانمائة وأربعين دينارًا[٢] .

---

(١) كتاب الوزراء للهلال بن المحسن الصابى ص ١٠ وما بعدها .

(٢) رسوم دار الخلافة للهلال الصابى ص ٢١ .

وكانت هذه القناطير المقنطرة من الدراهم والدنانير تُنْفَقُ سنويًا . وقلما كان يتبقى منها شيء ويقال إنه لما ولى المعتضد (٢٧٩ — ٢٨٩ هـ) ادَّخر من كل سنة من سنى خلافته مليونَ دينار ، بلغ ما ادخره تسعة ملايين [١] ، وخلفه ابنه المكتفى (٢٨٩ — ٢٩٥ هـ) ، فبلغ بالمدَّخر أربعة عشر مليونًا [٢] . وجاء بعده المقتدر فلم يقف عن الادخار فحسب ، بل أتلف كل المدَّخر مع ما صار إليه من أموال الخراج سنويًا ومما كانت تُغلّه الضياع السلطانية الواسعة ، حتى قالوا إنه بدَّد — كما مرَّ بنا فى الفصل الماضى — ثمانين مليونًا من الدنانير . ويورد الصابى فى كتابيه : الوزراء ورسوم دار الخلافة أثباتًا [٣] بما كان يُنْفَقُ على حواشى الخليفة وداره فى عصر المعتضد والمقتدر (٢٩٥ — ٣٢٠ هـ) ، وهى تصور عِظَم هذه النفقات . فقد كان يُنْفَقُ على القصر والحرم والخدم أكثر من ستين ألف دينار شهريًا وكان يُنْفَق على المطابخ الخاصة والعامة أكثر من عشرة آلاف دينار شهريًا ، بل قد يبلغ ذلك أكثر من ثلاثين ألفًا ، غير ما يُنْفَقُ على البوابين من البيض والسودان وكان يبلغ ألف دينار ، وغير ما يُنْفَقُ على المماليك والحرس وكانوا يُعَدُّون بالآلاف ، وغير ما ينفق على المرسومين لخدمة الدار من القرّاء وأصحاب الأخبار والمنجمين والبوقيين والمضحكين والطبالين وأصحاب الصيد والملاَّحين فى السفن وأصحاب المشاعل والأطباء ، ويقول الصابى إن نفقة ذلك كله وما يجرى مجراه مما يلزم الدار كان يبلغ أكثر من مليونين وخمسمائة ألف دينار سنويًا . ويقال إنه كان فى الدار لأيام المكتفى عشرون ألف غلام للحرس وعشرة آلاف خادم من السود والصقالبة ، أما فى أيام المقتدر فكان بها أحد عشر ألف خادم منهم سبعة من السود وأربعة من الصقالبة وأربعة آلاف امرأة بين حرة ومملوكة وألوف من الغلمان الحُجْرية (المقيمين فى الحُجَرِ) ، وكانت النوبة لحفظة الدار خمسة آلاف غير أربعمائة من الحراس ، وكان عدد الفراشين ثمانمائة [٤] . ويروى المؤرخون أن الراضى (٣٢٢ — ٣٢٩ هـ) ، عمل على القَصْد الشديد فى نفقات دار الخلافة ، حتى بلغت مع

---

(١) كتاب الوزراء ص ١٨٩ .

(٢) كتاب الوزراء ص ١٩٠ .

(٣) الوزراء ص ١١ وما بعدها ورسوم دار الخلافة ص ٢١ ويذكر الصابى فى الكتاب الأول أن نفقات الحضرة لعهد المعتضد كانت سبعة آلاف دينار يومياً .

(٤) رسوم دار الخلافة ص ١٠ ويقال إن الخدم فى عهد المتوكل كانوا سبعمائة . انظر الديارات للشابشتى (الطبعة الثانية) ص ١٦٠ .

شدة الحذف والاقتصاد ثلاثة آلاف دينار [١] يومياً .

وقد بدأ العصر بالمتوكل ، ويقال إن النفقات لم تبلغ فى عصر من عصور الخلفاء ما بلغته فى عصره ، وخاصة فى بناء القصور ، وقد أحدث فيها البناء الموسوم باسم البناء الحيرى ، وكان يُجعَل فيه دون القصر ثلاثة أبواب عظام ، وكان فى الرواق مجلس الخليفة ، وأمامه بيتان بهما خواصه وعلى اليمين خزانة الكسوة وعلى اليسار ما يُحتاج إليه من الشراب [٢]. وكان كلما بنى قصراً أتبعه بآخر ، حتى بلغت قصوره نحو العشرين ، وهى : بركوار (دار الهناءة) والشاه والعروس والبركة والجوسق والمختار والجعفرى والغريب والبديع والصبيح والمليح والشبداز والقصور والجامع والقلاية والبرج والمتوكلية والبهو واللؤلؤة ، وبلغ ما أنفقه على تلك القصور مائتين وأربعة وسبعين مليوناً من الدراهم [٣] . وكان البرج من أجملها زينة إذ جُعل فيه صور عظيمة من الذهب والفضة ، وبركة جُعل فرشها ظاهراً وباطناً صفائح الفضة ، وشجرة ذهب على أغصانها وفروعها طيور تغرّد وتصفر مكللة بالجوهر ، وسُميت طُوبى (من أشجار الجنة) . واتُّخذ له سرير كبير من الذهب عليه تمثالا سبعين عظيمين ودرجٌ عليه صور السباع والنسور . وأُلْبست حيطان القصر من الداخل والخارج بالفسيفساء والرخام المذهب ، ويقال إن نفقة هذا القصر وحده بلغت مليوناً وسبعمائة ألف دينار [٤] . وتبارى الخلفاء بعد المتوكل فى بناء القصور ، فبنى المعتز ابنه قصره المعروف باسم التاج أو الساج وكان قصراً ضخماً [٥] ، وبنى المعتمد (٢٥٦ — ٢٧٩ هـ) قصره المعشوق على شاطئ دجلة [٦] ، وبنى المعتضد قصر الثُّرَيَّا ، وكان أبنية متلاصقة ، ووصل بينها وبين قصر التاج بسرداب طويل لتمشى فيه حظاياه ، وفيه يقول ابن المعتز [٧] :

وبُنْيان قَصْرٍ قد علتْ شُرفاتُه كصفٍّ نساءٍ قد تربَّعْنَ فى الأُزْرِ

---

(١) رسوم دار الخلافة ص ٣٠ .
(٢) مروج الذهب ٤/٤ .
(٣) الديارات للشابشتى (الطبعة الثانية) ص ١٥٩ .
(٤) الديارات ص ١٦٠ وانظر المروج ٤/٤٠ .
(٥) انظر ياقوت فى التاج وديوان البحترى (طبع دار المعارف) ١٤٨٣/٣ .
(٦) ديوان البحترى ١٤٦٧/٣ .
(٧) ديوان ابن المعتز (طبعة دار صادر ببيروت) ص ٢١٥ وانظر معجم البلدان فى الثريا .

ولعل فى كثرة هذه القصور ما يشير إلى أن دار الخلافة كانت واسعة ، وكان القصر الواحد أحيانًا يمتد إلى فرسخ أو يزيد ، ويقال إن قصر الثريا كان يمتد إلى ثلاثة فراسخ وإنه كلّف المعتضد — كما قدمنا فى الفصل الماضى — أربعمائة ألف دينار. وكأنما كانت دار الخلافة وقصورها أشبه بمدينة ، ومرّ بنا آنفًا عدد من كان بها فى عصر المكتفى والمقتدر من الغلمان والحرس والخدم ، وأنهم كانوا يُعَدّون بالآلاف ، فطبيعى أن يكون بها فلاحون وأكرة للعمل ومساجد وحمامات تفوت الحصر حتّى قالوا إن الحمامات بلغت بها أحيانًا أربعمائة[1]. وكانت الدار تشتمل على بساتين وجداول متصلة بدجلة وقباب شتى وأروقة وبرك ومياه جارية .

وكان الوزراء يعيشون فى هذا النعيم نفسه لما كانوا يأخذونه من رواتب ضخمة وإقطاعات وما كانوا يختلسونه لأنفسهم من أموال الدولة ، ويقال إن الوزير كان يأخذ إقطاعًا يدرّ عليه مائة وسبعين ألف دينار ، حتّى إذا كان عهد المقتدر أجْرِى عليه راتب قدره خمسة آلاف دينار فى كل شهر ، ثم صار سبعة آلاف[2]. ولكى نتصور مبلغ ثراء الوزراء يكفى أن نعرف أن المعتمد (٢٥٦ — ٢٧٩) استخلص — كما مر بنا فى الفصل الماضى — من وزيره سليمان بن وهب وابنه عبيد الله نحو مليون دينار ، ويروى أنه أحْصى ما وجد لوزيره صاعد من الرقيق والمتاع والكسوة والسلاح والآلات فى خاصة نفسه دون ما وُجد لأخيه عبدون فكان مبلغه ثلثمائة ألف دينار ، وكان مبلغ غلته فى سائر ضياعه مليونًا وثلثمائة ألف[3]. ويذكر المؤرخون عن ابن الفرات وزير المقتدر أنه كان يملك — كما ذكرنا فى غير هذا الموضع — من الفضة والضياع والأثاث ما يزيد على عشرة ملايين من الدنانير . وكانت لسليمان بن وهب دار كبيرة جعلتها الدولة بعده لكل وزير حتّى سنة ٣٢٠ ، وكانت تسمى دار المخرِّم ، وكانت مساحتها تربو على ثلثمائة ألف ذراع[4]. وكانت دار ابن الفرات مدينة ضخمة حتّى كان بها فوجان من الخياطين[5]، ويقال إنه

---

(١) رسوم دار الخلافة ص ٨ .

(٢) كتاب الوزراء ص ٢٨٢ ، ٣٥١ .

(٣) مروج الذهب ١٢١/٤ .

(٤) مسكويه ٤١٠/٥ .

(٥) كتاب الوزراء ص ١٧٦ .

لما عُين وزيراً زاد ثمن الشمع فى يوم تعيينه لأنه كان من رسمه ألا يخرج أحد من داره وقت العشاء إلا ومعه شمعة، وسُقى فى داره فى ذلك اليوم وليلته أربعون ألف رطل ثلجاً [١].

وكان للوزير بدار الخلافة بناء مفرد يجلس فيه والخواصّ والحواشى بين يديه إلى أن يستدعيه الخليفة ، وكان يَغْدو إليه الكتّاب ، فيقفهم على الأعمال المطلوبة منهم ويسلم إلى كل كاتب ما يتعلق بديوانه ويوصيه بما يريد منه ، ثم يروحون إليه بما عملوا ، وفى أثناء ذلك تُعْرَض عليه الكتب بالنفقات والتسبيبات والحسبانات [٢]، والكتّاب جلوس بين يديه كلٌ فى مكانه ومعه دواته .

وكان الوزير يتخذ مثل الخليفة حرساً على باب داره وقد يُعَدون بالعشرات [٣] وكان مجلسه يَغَصّ بغلمان مسلّحين ، وكان يركب إلى دار الخلافة وبين يديه الحجاب والقواد والغلمان ، ويقال إنه كان لحامد بن العباس أحد وزراء المقتدر أربعمائة مملوك يحملون السلاح أمامه ، ولكل مملوك نفر من المماليك والغلمان يتبعونه ، ويَرْوى بعض الكتاب أنه أحصى الموائد المنصوبة فى داره فوجدها ثلاثين ونيفاً ويقال ، بل كانت أربعين ، وكان يجلس إلى كل مائدة ثلاثون رجلا ، وعلى كل واحدة جدى أو جداء وبوارد وحلوى مما لذ وطاب [٤]. وكان الوزير يتولّى إدارة مالية البلاد والقيام على الدخل والخرج وفرض الضرائب . واشتهر غير بيت بتوليه الوزارة مثل بيت بنى وهب وأصلهم من نصارى العراق ، وعمل كثير منهم فى الدواوين وبلغوا فيها أعلى المناصب ، أما الوزارة فتولاها منهم فى هذا العصر أربعة ، كان فى مقدمتهم سليمان بن وهب الذى مرَّ بنا ذكره ثم ابنه عبيد الله ، ثم ابن عبيد الله القاسم ، ويقال إن المكتفى زوّج ابنه أبا أحمد من ابنته ، وإنه خلع عليه أربعمائة خلعة ، أما الصداق فكان مائة ألف دينار [٥]، وأنفق على

---

(١) كتاب الوزراء ص ٦٣ ، ١٩٥ .

(٢) كتاب الوزراء ص ٢٣٨ .

(٣) كتاب الوزراء ص ١٢١ .

(٤) كتاب الوزراء ص ١١٢ والنجوم الزاهرة ٣/٢٠٨ والهمدانى ص ٢٠ ، ٣٧.

(٥) النجوم ٣/١٣١ .

الوليمة أكثر من عشرين ألف دينار[١].

وعلى نحو ما كان الوزراء والخلفاء يعيشون فى هذا الترف كان يعيش فيه أيضًا القواد ، وكان بيدهم مصير الخلفاء وكانوا يفدون أنفسهم منهم بكل ما يطلبون من أموال ، وكانوا يُقْطعونهم إقطاعات كثيرةعلى نحو ما كانوا يقطعون الوزراء ، فكانت لهم ضياع واسعة تغلُّ عليهم أموالا وفيرة ، ولعل خليفة لم يكثر من الإقطاع لهم كما أكثر المقتدر ، ويقال إن إقطاعات يانس الموفقى فى عهده كانت تغلّ سنويًّا ثلاثين ألف دينار . وبلغ حينئذ من مكانة القواد أن خلع المقتدر على مؤنس لقب المظفر[٢] ، ولما قدم بغداد فى عام ٣١٢ للهجرة ركب الوزير ابن الفرات للسلام عليه وتهنئته بمقدمه[٣] ، وهو ما لم تجر به عادة وزير من قبله ، فقد أصبح القواد يقدَّمون على الوزراء . وكان لهم حجّابهم ومماليكهم وحشمهم وخدمهم ونفقاتهم الواسعة على نحو ما كان للوزراء . وبالمثل كان ولاة الأقاليم ، وكان حامد ابن العباس الذى مر بنا ذكره قبل توليته الوزارة للمقتدر واليًا على فارس والبصرة ومن ولايتهما كوَّن ثروته الواسعة . ويُرْوَى أن خمارويه صاحب مصر حين زوَّج ابنته قطر الندى من المعتضد الخليفة العباسى حمل معها من الجهاز ما لم يُرَ مثله ولا يُسمع به ، وكان ابن الجصاص الجوهرى البغدادى القائم على الجهاز ، ويقال إنه سأله هل بقى بينى وبينك من الحساب شىء ؟ فأجابه كُسَيْر (باق) طفيف وإذا هو أربعمائة ألف دينار[٤] ، فما بالنا إذن بنفقات الجهاز كله . ويتوقف المؤرخون ليقصوا لنا هدايا الصفار والى فارس للمعتضد وما كان معها من تماثيل وملايين الدراهم وصناديق الثياب[٥] . وكان مما أرسله إسماعيل بن أحمد السامانى والى خراسان إلى المكتفى سنة ٢٩٢ ثلثمائة بعير عليها صناديق فيها المسك والعنبر والثياب من كل لون[٦] . وكأنما أموال الولايات ودخولها كانت ملكًا للولاة ينفقونها فى بذخهم ويهدونها بحسب مشيئاتهم . وتوفى لسنة ٣٠١ على بن أحمد الراسبى وكان متوليًّا من حدود واسط فى العراق إلى جُنْديسابور ومن السوس إلى شهرزور ، وخلّف مليون دينار ومن آنية الذهب والفضة ما قيمته مائة ألف دينار

---

(١) عريب ص ٥٣ .

(٢) النجوم ٣/٢٠٣ .

(٣) الوزراء ص ٥٠ .

(٤) النجوم ٣/٦٢ .

(٥) مروج الذهب ٤/١٤٨ .

(٦) النجوم ٣/١٥٦ .

ومن الخزِّ ألف ثوب ، وخلَّف ألف فرس وألف بغل وألف بعير ، وكان له ثمانون طرازاً (مصنع ثياب) تُنْسج فيها الثياب التى لملبوسه[١] وملبوس حُرَمه وحواشيه وخدمه .

وكان أبناء البيت العباسى يتقاضون من الدولة رواتب ثابتة ، ومثلهم العلويون والهاشميون بصفة عامة ، وكثيرون منهم كانوا يتولون مناصب هامة ، وكان منهم دائماً من يحج بالناس فى كل عام . وكان الخلفاء ما يزالون يقطعون المقرَّبين منهم إقطاعات وضياعاً كثيرة ، بالإضافة إلى كثير من الضياع التى كانوا يرثونها عن آبائهم وأجدادهم . وكان الوزراء كثيراً ما يتقربون إليهم بالهدايا والعطايا ، ويقال إن على بن عيسى وزير المقتدر كان ينفق فى كل سنة – على شُحِّه – أربعين ألف درهم فى صلات الطالبيين والعباسيين وأولاد الأنصار والمهاجرين وفى مصالح الحرمين[٢] وكان المعتضد يُجْرِى على أبناء المتوكل وأولادهم ذكوراً وإناثاً ألف دينار شهرياً ، وكان يُجْرى على أولاد الواثق والمهتدى والمستعين خمسمائة دينار فى الشهر[٣] .

وأعان ذلك كله على اتساع الطبقة الأرستقراطية وأن تنشأ أجيال من أبنائها غارقة فى الدعة والنعيم ، وفى مقدمتهم أبناء الخلفاء والوزراء والقواد والأمراء وبالمثل أبناء كبار الكتاب ، وكثيراً ما كان يصل آباؤهم إلى الوزارة ، وحتى من لم يصل إلى الوزارة كان يتقاضى أحياناً مائة دينار فى الشهر وقد يرتفع راتبه إلى خمسمائة[٤] ، غير ما كان يأتيهم من الهدايا وأحياناً من الرشوة وخاصة من عمال الخراج . وكان منصب القاضى منصباً رفيعاً ، وكان يتقاضى راتباً عالياً مائة وعشرين أو مائتين من الدنانير[٥] ، ومن الحق أن منهم من كان يتعفف عن أخذ شىء نظير عمله ، ولكن من الحق أيضاً أن منهم من كان مترفاً موسَّع الرزق مثل إبراهيم بن جابر القاضى بحلب والعواصم من أرض الشام إذ يروى المسعودى أنه « قطع لزوجته أربعين ثوباً تُسْتَرِيًّا وقصبياً (حريراً) وأشباه ذلك من الثياب فى يوم واحد وخلَّف أموالا عظيمة »[٦] .

---

(١) النجوم الزاهرة ٣/١٨٣ .
(٢) كتاب الوزراء ص ٣٢٢ .
(٣) كتاب الوزراء ص ٢٠ .
(٤) كتاب الوزراء ص ١٥٦ وانظر ص ٢٠ ، ٣١٤ .
(٥) الولاة والقضاة للكندى ص ٣٧٧ ، ٤٢١ .
(٦) مروج الذهب ٤/١٧٤ .

وكان يدخل فى هذه الطبقة الأرستقراطية ورثة الإقطاع والضياع الواسعة وكبار التجار الذين كانوا يتجرون برءوس أموال ضخمة فى مطالب تلك الطبقة من أدوات الترف والزينة ، وكان فى مقدمتهم النخاسون الذين كانوا يجلبون الرقيق والجوارى من أطراف الأرض ، وتجار الطرَف النفيسة التى كانت تجلبها السفن من جميع أنحاء العالم . وبالمثل تجار الجواهر ويكفى أن نذكر ابن الجصاص التاجر الجوهرى البغدادى الذى أشرف على جهاز قَطْر الندى بنت خمارويه كما أسلفنا ، فقد هيأ لها من الثياب والجواهر وأدوات الزينة ما كلف أباها مئات الألوف ، وحين صودرت أمواله لعهد المقتدر سنة ٣٠٢ للهجرة أُخِذَ منه من المال والجوهر ما عُدَّ بالملايين حتى قيل إنه بلغ ستة عشر مليونًا من الدنانير ، ويقول المسعودى : «الذى صَحَّ مما قُبِض من ماله من العين (الذهب) والوَرِق (الفضة) والجوهر والفرش والثياب والمستغلات خمسة ملايين وخمسمائة ألف دينار»[1] . وكانت كل طائفة من التجار تقيم فى سوق واحد فيقال سوق النخاسين وسوق الوراقين ، وكان من أقربهم إلى الترف البزازون (تجار الأقمشة) والعطارون . وكانت أسواق الأخيرين وأصحاب الدهون والخزازين (تجار الحرير) والجوهريين والصيادلة بعضها إلى جانب بعض ببغداد . وكان الأطباء يحصلون على أموال ضخمة ، وخاصة أطباء دار الخلافة وبيمارستانات بغداد ، وتزخر كتب طبقات الأطباء بملايين الدراهم والدنانير التى صارت إليهم من الخلفاء ، ويقول محمد بن زكريا الرازى الطبيب المشهور إن سبب تعلقه بتعلم الطب إنه أصيب برمد فى عينيه ، فأبى الطبيب الذى عرض نفسه عليه أن يعالجه إلا بخمسمائة دينار[2] . وحتى الشعراء والعلماء والندماء كان منهم من يغدق عليهم الخلفاء الصلات ، وكذلك الوزراء ، حتى ليغدون من عِلْية القوم مثل على بن يحيى المنجم الذى أثرى ثراء طائلا من منادمته للخلفاء .

وإذا تركنا الطبقة العليا إلى الطبقة الوسطى وجدنا كثيرين يندمجون فيها ، وفى مقدمتهم علماء العربية والفقه والتفسير والحديث ، وكان كثير منهم يأخذ رواتب

---

(١) مروج الذهب ٢١٨/٤ والنجوم ١٨٥/٣ .

(٢) حكماء الإسلام للبيهقى ص ٢١ .

من الدولة ، وكان منهم معلمون يختلف إليهم الناشئة ، وكانوا يدفعون إليهم أجوراً قليلة ، حتى لقد تكون رغفانًا من الخبز أحيانًا ، وكانت هذه الرغفان تختلف إختلاف أسر الصبيان فى الغنى والفقر ، ولذلك ضُربت الأمثال فى الاختلاف والتفاوت بتفاوت رغفان المعلم واختلافها فى الجودة ، وكان من الآباء من يدفع أجر أولاده دراهم معدودة . وكان من يعلم أولاد الطبقة العليا تنهال عليه الهبات ويقدَّر له راتب شهرى معلوم .

ويدخل فى عداد هذه الطبقة المغنون والشعراء وكان كثير منهم تتدفق عليه الأموال تدفقًا ، وسنعرض لذلك فى موضع آخر ، والمهم أن هذا التدفق كان خاصًّا بأفراد منهم ارتفعوا إلى الطبقة الأرستقراطية وعاشوا فى بذخ وترف شديد ، أما عامتهم فيُسْلَكون فى الطبقة الوسطى ، وقد رأينا كبار الكتاب فى الدواوين ينتظمون فى الطبقة العليا ، ولكن كان وراءهم عشرات إن لم يكن مئات يعملون فى الدواوين ويأخذون رواتب متوسطة ، وخاصة فى دواوين الخراج ودواوين الجيش وفى أعمال الحسبة ورقابة الأسواق وفى البريد ودواوين الأخبار وفى المكوس والضرائب الجمركية . ويُضَمّ إلى كتّاب الدواوين وعمّالها رؤساء الجند ممن يَلُونَ القادة ، فلم تكن لهم رواتبهم الرفيعة ، ولكن كانت لهم رواتب متوسطة تكفل لهم رزقًا حسنًا .

ومن هذه الطبقة أوساط الصناع وخاصة من كانوا يقومون على أثاث المساكن والأزياء والطعام ، ويدخل فى الأثاث صناعة البسط والسجاجيد والنمارق والمقاعد والتخوت والوسائد . وكان مركز الصناعات الأسواق مثلها مثل التجارات ، وكانوا جميعاً يتناولون غداءهم بمطاعم فى أسواقهم أو فى دكاكينهم ، وكانوا لا يتركونها إلا فى المساء . وكان هناك جهابذة كثيرون لاستبدال النقود ، وكانت هناك فنادق للغرباء ، وكانت المساكن تستأجَرُ وكذلك أثاثها . وإذا عرفنا أنه كان يسكن بغداد بضعة ملايين فى تقدير بعض المؤرخين عرفنا كثرة من كان بها من التجار والصناع ، ونجد من كبارهم من كان يربح فى صفقة واحدة ألوف الدنانير[1] ، أما أوساطهم

(١) الوزراء والكتاب للجهشيارى (طبعة الحلبى) ص ١٨٥ ، ٣١٩ .

فقلما كان يزيد رأس أموالهم فى تجاراتهم على ثلاثة آلاف دينار[١]، وكان الناس يودعون أموالهم لدى بعض التجار الأمناء للاتجار لهم بها مناصفة فى الأرباح. ونستطيع أن نتصور مستوى المعيشة فى بغداد مما يروى من أن الأسرة المتوسطة كان يكفيها شهريًّا خمسة وعشرون درهمًا، كأن نفقات اليوم المتوسطة لا تحتاج إلى أكثر من درهم واحد[٢]. وفى الفرج بعد الشدة للتنوخى خبر يدل على مستوى الحياة وأوسط ما كان الناس يتجرون فيه، إذ يُرْوَى عن شخص رقيق الحال أنه ورث أربعين ألف دينار فجأة وعلى غير انتظار، فبنى لنفسه داراً بألف دينار، واشترى آلات وفرشًا وثيابًا وجوارى ثلاثًا بسبعة آلاف دينار، وأعطى تاجراً ألفى دينار ليتَّجر له فيها، وخزن عشرة آلاف للشدائد، واشترى بالباقى ضيعة تُغِلُّ له فى كل سنة ما يزيد على مقدار نفقته[٣]. وقد لا يصوِّر ذلك حياة الطبقة الوسطى تمامًا، ولكنه يشير إلى أن نفقاتها لم تكن كبيرة، وكان يُعَدُّ من يقتنى سبعمائة دينار صاحب ثروة كبيرة، وكثير من الصناع والتجار لم تكن ثرواتهم تزيد على ذلك، وهم الذين كانوا يندمجون فى الطبقة الوسطى من الأمة.

وتأتى بعد ذلك الطبقة العامة من الرعية، وهى التى كان يقع عليها عبء العمل كله فى الزراعة وفى الصناعات الصغيرة وفى خدمة أرباب القصور، فهى التى تعمل فى الإقطاعات والضياع، وهى التى تقوم على تقديم أسباب الحياتين للطبقتين الوسطى والعليا، عاملة تارة أو صانعة، أوخادمة تارة ثانية. فكل ما تتقلب فيه الطبقتان من النعيم إنما هو من أيدى هذه الطبقة العامة، يسلبونه منها بطرق شتى ولا يبقون لها سوى الضنك والضيق والبؤس والشقاء. ومرَّت بنا فى الفصل السابق ثورة الزنج وكيف أنهم كادوا يدمرّون الدولة تدميراً، لشدة نقمتهم على الأوضاع التى كانت سائدة، وما كادت تخمد حتى هبَّت ثورة القرامطة، وعنفت بالدولة هى الأخرى عنفًا شديداً، وشاعت معها فكرة المهدى المنتظر الذى ينشر العدالة بين الناس فى الأرض، ولو أن دعوة القرامطة وُجهت توجيهًا سليمًا على أساس العدالة التى

---

(١) البخلاء للجاحظ (طبعة دار الكاتب المصرى) ص ١٠١.

(٢) مصارع العشاق ص ١٥٩.

(٣) الفرج بعد الشدة للتنوخى ٢/ ١٧.

لا تصلح حياة الناس بدونها وبيان فساد الحكم العباسي حينئذ وما داخله من جور وعسف لنجحت إلى أقصى حد ، ولكنها وُجهت توجيهاً خاطئاً على أساس دعوة باطنية ، حتى لكأنما مُحى منها مقصد الإصلاح الاجتماعى ، ولذلك أخفقت إخفاقاً ذريعاً .

ووسائل شتى كانت تُبْتَزّ بها أعمال هذه الطبقة العامة وما بأيديها من أموال قليلة ، أما من يعملون فى الأرض من الأكرة والزراع فكانوا عبيداً لا يُتْرَكُ لهم إلا ما يسدّ رمقهم ، وإنْ سدّه كان ذلك شيئاً كثيراً . وأما صغار الصناع والتجار الأصاغر والفعَلة والفرّاشون والبوّابون وكل من يؤلفون الطبقة العامة فقد كان مثلهم مثل رقيق الأرض لا يكادون يجدون ما يتبلّغون به إلا نادراً وحين يعملون فى الدولة بأجر مهما يكن طفيفاً ، لأنه يضمن لهم القوت اليومى . وكان مَنْ يوجد لديه مال كأنما يقع تحت طائلة العقاب بسبب كثرة الضرائب التى كانت تُفْرَضُ حتى على الأسواق وما يُصنَعُ فيها وما يباع ويُشتَرى . ومما زاد هذه الطبقة بؤساً أن الأسعار لم تكن ثابتة ، فكثيراً ما كان يرتفع ثمن القمح والشعير حتى يصبح حصول العامة عليهما عسيراً وحتى لتجأر بالشكوى إلى الخليفة ، على نحو ما صنع أهل البصرة فى عهد المعتضد إذ أرسلوا وفداً كبيراً إليه يشكو ما نزل بمدينتهم من غلاء فاحش آملين أن يمدّ الخليفة لهم يد المساعدة[1]

وكانت هذه الطبقة تعمل فى كل المهن الحقيرة ، ومن المؤكد أنه نشأت طبقات كثيرة حينئذ من الحِرْفيين أو المهْنيين وأن التخصص أخذ طريقه إليهم ، فكان لكل حرفة أصحابها الخاصون ، يؤكد ذلك ما روى من أن الجاحظ لم تكن له حلقة على وجه بابه إذا أراد اصطفاقه فطلب من نجار أن يثقب له موضعها ، فلما ثقبه قال له : قد جوّدت الثقب وانظرْ أى نجّار يدق فيها « الرُّزّة [2]» وكأن من النجارين مَنْ كان للثقب ومَنْ كان لتركيب الرزة ، وهو ما يعنى الاختصاص الدقيق . ولا ريب فى أن ذلك هو الذى أدّى إلى أن تنشأ فى العالم العربى من قديم فكرة النقابات للحِرْفيين والصناع وإن كانت حينئذ

---

(١) مروج الذهب ١٤٩/٤ .

(٢) الحيوان ٢٧٦/٣ — ٢٧٧ .

لا تعدو دَوْرَ النشأة البسيطة .

وأدّى بؤس هذه الطبقة العامة إلى أن ينشأ فيها كثير من القَرَّادِين وأصحاب الملاهى الصغيرة الطَّوَّافين والحوَّائين كما ينشأ فيها كثير من المهرجين الذين ينقطعون لإضحاك الطبقتين الوسطى والعليا ، وكان منهم من يتصل بخليفة أو وزير فتبتسم له الدنيا . ونشأ فيها أيضاً كثير من رَاضَة الخيل والسوَّاس وأصحاب القنْص والصيد بالكلاب والفهود . ونشأت طبقة من الأدباء المتسولين المسمون بالمُكْدِين ، وكانوا حينئذ خليطاً من هؤلاء الأدباء ومن متظاهرين بالنسك ، مستعملين كل حيلة من شعر أو تُقًى أو رُقْية ، فهم يطلبون المال من كل طريق ، مستخدمين كل حيلة . ويدل دلالة قوية على ما كانت تعانيه هذه الطبقة العامة من البؤس والعيش المر أن كثر بها اللصوص ، حتى غدوا فى أوقات كثيرة مصدر خطر عظيم ببغداد ، لكثرتهم ، ولشدة فتكهم ، ويشير الجاحظ إليهم فى كتاباته مراراً كما يشير إلى رؤسائهم وأنه كانت لهم مروءة الفرسان ، وكأنهم كانوا امتداداً لصعاليك الجاهلية[1] .

ووراء تلك الطبقات الدنيا والوسطى والعليا كان هناك عدد ضخم من أهل الديانات الأخرى ، من النصارى واليهود والمجوس والصابئة ، وكانوا يسمون أهل الذمة إشارة إلى أنهم فى ذمة الإسلام وعهده ورعايته وما وضعه من مبادئ التسامح الرائع ، فإذا هم يصانون ويُحْرَسُون ويُحْرَسُ نساؤهم وأسَرهم ، حتى ليصبح لكل أهل ملة منهم كيانهم الخاص فلهم معابدهم ولهم رؤساؤهم الدينيون : للنصارى مثلا الجاثليق والبطرك . ولهم محاكمهم الخاصة التى تفصل بينهم فى خصوماتهم . تسامح لم يَعْرفه دين ولم تَعْرفه أمة قبل الإسلام ، ولا ظلم ولا جور ، بل عدالة مطلقة تعمهم وحماية بدون حدود ، وليس عليهم للدولة إلا ضريبة مالية محدودة هى الجزية التى لم يكن يدفعها إلا القادر على حمل السلاح ، أما المريض بعلة لا يُبْرَءَ منها وذوو العاهات والأطفال والنساء والشيوخ ورجال الدين فى كل ملة فلا يؤدون شيئاً ، ولم تكن هذه الضريبة أو الجزية تتعدَّى ثلاثة دنانير لأصحاب

---

(١) انظر قصة خالد بن يزيد فى مطالع كتاب البخلاء .

الثراء الطائل منهم ودينارين لمتوسطي الثراء وديناراً لعامتهم ممن يتكسبون كسباً لا يضيرهم معه دفعه . وكانت قيمة الدينار حينئذ نحو اثني عشر درهماً ، وهذا كل ما يدفعونه في العام المتطاول ، وهو في حقيقته لم يكن سوى ضريبة دفاع عنهم . ويتراوح ما كان يؤديه أهل الذمة ببغداد في أوائل القرن الثالث بين مائة وعشرين ألف درهم ومائتي ألف[1] ، مما يدل على أن دافعي الجزية في تلك الحقب كانوا لا يزيدون على نحو عشرين ألفاً ، فإذا أضفنا إليهم العاجزين عن الكسب من النساء والأطفال والشيوخ وغيرهم ممن ذكرناهم آنفاً تبين أن عدد أهل الذمة حينئذ ببغداد كان لا يقل عن نحو ستين ألفاً . وكانوا جميعاً يشدون إلى أوساطهم زنانير أشبه بأحزمة .

وكان أهل بغداد وغير بغداد من المسلمين يعاملونهم معاملة حسنة ، فكانوا يوسعون لهم في كل عمل معهم ، وكانت العامة تأنس خاصة للمسيحيين منهم ، إذ كانوا يؤثرونهم على المجوس ويرونهم أسلم صدوراً من اليهود ، كما يقول الجاحظ في رسالته الرد[2] على النصارى ، وفيها يذكر أن الخلفاء والولاة قربوهم منهم واستخدموهم في الدواوين وقاموا لهم على كثير من شئونهم وأنهم كانوا ينهضون بحرف جليلة مثل العطارة والصيرفة ، وكان منهم أطباء الخلفاء والوزراء وعِلْيَة القوم وأطباءُ البيمارستانات ، حتى استقر في أنفس الناس أن الطبيب الحاذق لا يكون إلا مسيحياً . أما اليهود فكانوا يعملون في أحقر المهن ، حتى ليقول الجاحظ في الرسالة آنفة الذكر : « لا تجد اليهودي إلا صباغاً أو دباغاً أو قصّاباً (جزاراً) أو شعّاباً (مصلح جرار وأحذية) » ؛ ويقول ابن قتيبة إنهم أنتن خلق الله فناء[3] . وكان النصارى يتخذون أفخر الدواب والثياب والخدم ويتمتعون مثل العلية بلعب الصوالجة ، وحتى تسموا بأسماء المسلمين مثل الحسن والحسين كما يقول الجاحظ .

ويأمر المتوكل لسنة ٢٣٥ ، بأن يلبس أهل الذمة كلهم الطيالس العسلية

---

(١) كتاب الخراج لقدامة (طبع ليدن) ص ٢٥١ وابن خرداذبة ص ١٢٠ .

(٢) انظرها في ثلاث رسائل للجاحظ نشر فنكل .

(٣) أدب الكاتب لابن قتيبة (طبعة ليدن) ص ٦٦ .

ويشدوا فى أوساطهم الزنانير وأن يركبوا السروج بركب الخشب ويجعلوا على مؤخرها كرتين ومن لبس قلنسوة مثل قلنسوة المسلمين يجعل عليها زرين ، وأمر أيضاً أن يجعلوا رقعتين على ثياب مماليكهم يخالف لونهما لون الثوب الموضوعتين عليه ، وتوضع إحدى الرقعتين على الصدر والأخرى خلف الظهر ، وكل من الرقعتين بمقدار أربع أصابع ويكون لونها عسلياً ، وتلبس المرأة منهم إزاراً عسلياً وأمر بهدم بيعهم وكنائسهم المحدثة وألا يستعان بهم فى الدواوين وأعمال الدولة، حتى لا تجرى أحكامهم على المسلمين[١] .

ويبدو أنه منذ المتوكل أخذت هذه الأوامر الشديدة تخفف عن النصارى حتى لنجده هو نفسه يجعل النفقة فى سنة ٢٤٥ على بناء قصره الجعفرى بيد دليل بن يعقوب النصرانى كاتب بغا[٢] . وكثر أهل الذمة بعده فى الدواوين ولعل ذلك ما جعل العامة فى سنة ٢٧٢ للهجرة تثور عليهم [٣] .

ويعظم أمر أهل الذمة فى أواخر القرن الثالث ، إذ يكثر استخدامهم فى الكتابة وفى أمور المسلمين فيأمر المقتدر سنة ٢٩٦ بألا يستخدم أحد منهم إلا فى الطب والجهبذة وأن يطالبوا بلبس العسلى وتعليق الرقاع المصبوغة على أظهرهم[٤] ، ومع ذلك نرى وزيره ابن الفرات يتخذ منهم أربعة كتاب كان يدعوهم يومياً إلى طعامه مع خمسة آخرين اختص بهم جميعاً[٥] .

وواضح من هذا كله مايدل على أن أهل الذمة لم يكونوا مضطهدين طوال العصر وأن الأوامر التى كانت تصدر أحياناً بالتشديد عليهم لم تكن تنفذ، وأنهم كانوا يعملون فى مختلف الأعمال حتى الوظائف الديوانية وأعمال الخراج . وكان كثير منهم — وخاصة من النصارى — يعيشون فى نعيم غدق لما يصير إليهم من الطب والصيرفة والأعمال التجارية المربحة .

---

(١) طبرى ١٧١/٩ وانظر ١٩٦/٩ .
(٢) طبرى ٢٧٢/٩.
(٣) طبرى ٩/١٠ .
(٤) النجوم الزاهرة ١٦٥/٣ .
(٥) كتاب الوزراء ص٢٤٥ وانظر ص٩٥.

٢

الحضارة والترف والملاهى

رأينا تفنّن الخلفاء والوزراء فى بناء القصور ،حتى ليشبه بعضها مدناً صغرى تمتلئ بالأبنية والأفنية والأساطين والقباب والبساتين والجداول والبرك والنافورات ؛ مع التأنق فى أبوابها ونوافذها وشرفاتها وزخرفة حيطانها بالنقوش والصور وتعليق الستائر الحريرية عليها ، ومع ما يموج فيها من البسط والسجاجيد والطنافس والمناضد والتحف المرصعة بالجواهر

وقد افتُتِحَ العصر بالمتوكل وقصوره الباذخة التى كلفت الدولة ملايين الدنانير ، ويكفى لتصور ما كان فى عصره من بذخ وترف شديد أن نروى ما قصّه الرواة عن حَفْله الذى أقامه بمناسبة إعذار (ختان) ابنه المعتز ، فقد أمر وزيره الفتح بن خاقان أن يلتمس فى خزائن الفرش بساطاً لإيوان قصر البركوار الذى أقام فيه الإعذار ، وأن يكون فى طوله وعرضه ، وكان طوله مائة ذراع وعرضه خمسين ، ووجد طلبته : بساطاً مذهباً مبطناً ، يقال إن التجار قوّموه بعشرة آلاف دينار . وبُسط فى الإيوان ووُضع للمتوكل فى صدره سرير ، مُدّ بين يديه أربعة آلاف مرفع (كرسى) مذهبة مرصعة بالجواهر وعليها تماثيل العنبر والندّ والكافور . ومدّت الموائد وتغدّى المتوكل والناس . وجلس على السرير ، وأُحْضِرَ الأمراء والقواد والندماء فأُجْلسوا على مراتبهم ، وجىء بأوعية مملوءة دراهم ودنانير نصفين ، صُبَّتْ فيها حتى ارتفعت . ووزّع الغلمان الشراب ،ودعوا كل من يشرب إلى أن يأخذ ثلاث حفنات أو ما حملتْ يداه من ذلك المال . وكان الناس يجمعونه فى أكمامهم الواسعة ويخرجون إلى غلمانهم فيدفعونه إليهم ويعودون إلى مجالسهم . وكلما خلا وعاء مما فيه أتى الفراشون بما يملؤه من الدنانير والدراهم حتى يعود كما كان . وخلع على سائر

مَنْ حضر ثلاث خلع ، وحُملوا عند انصرافهم من الحفل على الخيل المطهَّمة ، وأعتق المتوكل ألف رقبة ، وأمر لكل عتيق بمائة درهم وثلاثة أثواب . وكان فى صحن الدار بين يدى الإيوان أربعمائة جارية بين أيديهن أطباق الفواكه من كل صنف ، وخمسة آلاف باقة نرجس ، وعشرة آلاف باقة بنفسج . ترف لا يماثله ترف! . ونثر المتوكل على هؤلاء الجوارى وخدم الدار والحاشية عشرين مليون درهم ، ونثرت زوجه قبيحة أم المعتز مليون درهم على المزين ومن كانوا فى جانبه من الغلمان وبعض الجنود وقهارمة الدار والخدم الخاصة من البيضان والسودان . مال ينفق ويبعثر بدون حساب ، وكأنما أمسك به سفهاء ، لا يعرفون حقوقاً لرعية ولا يقدرون مسئولية . وحضر الحفل كثير من الندماء فى مقدمتهم ابن حمدون وابن المنجم ، وكثير من الشعراء فى مقدمتهم الحسين بن الضحاك وعلى ابن الجهم ، وكثير من المغنين فى مقدمتهم عمرو بن بانة وابن المكى وعثعث وسليمان الطبال وصالح الدفاف وزُنام الزامر ، وكثير من المغنيات فى مقدمتهن عَريب وبدعة جاريتها وشارية وجواريها . ويُقال إنه أُنفِقَ على هذا الإعذار أو الختان ستة وثمانون مليوناً من الدراهم [1] ، سفه ما بعده سفه!

وعلى هذا النحو كانت ملايين الدنانير والدراهم تُنْفَق بدون حساب وبدون أى رقابة فى حفلات القصر ، وهى حفلات أمدَّت القَصَص فى كتاب ألف ليلة وليلة بكل ما يقع فى الخيال الواهم من بذخ وترف لا ضفاف له ، وبدلاً من أن توجَّه هذه الملايين إلى مرافق الشعب وحاجاته أو إلى إعداد الجيوش فى حروب الترك والبيزنطيين كانت تبدَّد هذا التبديد الأحمق والشعب يكدح ويشقى ويسيل عرقه مدراراً ويتجرَّع غُصَص البؤس والحرمان ليعبث المتوكل وغير المتوكل بأمواله ، فإذا قصور شماء تُبْنَى ويُنْنَق فيها الملايين تلو الملايين ، وإذا هى تستحيل إلى مقاصف يدور فيها الكاس والطاس وتُنْشَر حمول الذهب والفضة . ويروَى أن المتوكل شرب يوماً فى القصر السالف ذكره المسمى بالبركوار ، فقال لندمائه ، ولم تكن الأيام أيام ورود ورياحين : أرأيتم إن عملنا احتفالاً بالورود

(١) الديارات للشابشتى (الطبعة الثانية) ص ١٥٠ وما بعدها .

أو كما نطقه بالفارسية : «شاذكلاه» ، فقالوا له : لا يكون الشاذ كلاه إلا بالورد ، وليست الأيام أيام ورد ، فقال : ادعوا لى عبيد الله بن يحيى — وكان أحد وزرائه — فحضر ، فقال له : اضرب لى دراهم ، فى كل درهم حبتان من الفضة ، فسأله : كم المقدار يا أمير المؤمنين ؟ فأجابه خمسة ملايين درهم ، فأمر عبيد الله بضربها ، فضربت ، وأنبأ المتوكل بضربها ، فقال له : اصبغ طائفة منها بالحمرة وطائفة بالصفرة وطائفة بالسواد ، واترك طائفة على حالها ، فصنع عبيد الله ما أمره به ، ثم تقدم المتوكل إلى خدمه وحواشيه — وكانوا سبعمائة — فأمرهم أن يعد كل منهم قباء جديداً وقلنسوة بخلاف لون قباء صاحبه وقلنسوته ، ففعلوا . ثم تحين يوماً فيه ريح ، فأمر أن تنصب قبة لها أربعون باباً ، فاصطبح فيها والندماء حوله وعلى الخدم الكسوة الجديدة ، وأمر المتوكل بنثر الدراهم كما ينثر الورد ، طائفة طائفة ، فنثرت تباعاً ، وكانت الريح تحملها لخفتها ، فتتطاير فى الهواء كما يتطاير الورد[1] .

وكل هذا من الفراغ ومن الترف المفرط ، فإذا الخلفاء ينعمون بالحياة إلى حد السفه والهوس . وطبقات من وزرائهم قتر عليها فى الرزق ، فهى تعيش فى ضنك وضيق شديد . ولعل هذا هو السبب فى أن الشعب لم يهتم أى اهتمام بما كان يجرى فى القصر من تحكم الأتراك فى الخلفاء ، كأنهم لا يعنونهم فى شىء . وكل يوم يسمعون بجديد من هوسهم وسفههم ، كأن يسمعوا بأن المتوكل حين انتهى من بناء قصره الجعفرى استدعى أصحاب الملاهى ، فقدموا له بعض المساخر والملاعب المضحكة ، ومنحهم مليونين من الدراهم[2] . وبحق يقول المسعودى إن النفقات لم تبلغ فى وقت من الأوقات ما بلغته فى أيام المتوكل[3] . وكان أكثر أبنائه على غراره من مثل المعتز ، وكان يكثر من عقد مجالس الشراب فى قصوره ، وهو أول من ركب من الخلفاء بحلية الذهب[4] . ولم يتوقف هذا البذخ والترف طوال العصر ، ويصور ذلك من بعض الوجوه استقبال المقتدر لرسل ملك الروم سنة ٣٠٥ للهجرة وقد جاءوا يطلبون عقد هدنة ، إذ فرشت قصوره بأجمل الفرش وملئت دار الخلافة

---

(١) الديارات ص ١٦٠ .
(٢) طبرى ٩/٢١٢ .
(٣) مروج الذهب ٤/٣٩
(٤) مروج الذهب ٤/٩٤ .

ودهاليزها وممراتها وصحونها بالجند والسلاح ، وابتدأ ذلك من باب الشَّمَّاسية إلى دار الخلافة ، وكان عدد الجند مائة وستين ألفًا بالدروع والسلاح ومن تحتهم الخيل بسروج الذهب والفضة ، وكان عَدَدُ الغلمان سبعة آلاف خادم وسبعمائة حاجب بالبِزَّة الرائقة والسيوف والمناطق المحلاة . وكان فى دجلة الشذاءات والطيارات والزبازب والشبَّارات والزلالات والسُّمَيريَّات (سفن شتى) بأفضل زينة وعلى أحسن تعبئة . وسار رسل ملك الروم ومن معهم من المواكب إلى أن وصلوا إلى دار الخلافة ، ودخلوا قصر الجوسق بين بستانين رائعين ، ورأوا بركة عجيبة يمدُّها جدول وبها أربع طيارات مذهبة مزينة بالدبيقى المطرز ، ثم أُدخلوا قصر الشجرة ، وهى شجرة من الفضة كانت قائمة وسط بركة مدورة ، ولها ثمانية عشر غصنًا عليها الطيور والعصافير المذهبة والمفضضة تصفر ، والشجرة تتمايل وورقها يتحرك على نحو ما تُحدث الرياح للأشجار الطبيعية ، ثم أُدْخلوا إلى قصر الفردوس وبه من الفرش ما لا يقوَّم ، وفى الدهاليز عشرة آلاف درع مذهبة معلقة[١]، مما راع رسل ملك الروم روعة شديدة .

ويقول هلال بن المحسن الصابى جرت العادة أن يكون جلوس الخليفة على كرسى مرتفع فى عرش أرمنى من الحرير أو من الخز وأن يلبس قباء أسود من الإبريسم (الحرير) وعلى رأسه معممة سوداء ، ويتقلَّد سيف الرسول عليه السلام ويلبس خُفًّا أحمر ويضع بين يديه مصحف عثمان وعلى كتفيه بُرْدَة النبى صلى الله عليه وسلم ويمسك بقضيبه ، ويقف الغلمان والخدم من خلف السرير وحواليه متقلدين بالسيوف ، وفى أيديهم الطَّبَرْزينَاتُ والدَّبابيس (من أسلحة الحروب) . وكان يقوم من وراء السرير وجانبيه خدم صقالبة يذبّون عن الخليفة بالمذابّ المقمَّعة بالذهب والفضة ، وتُمَدّ أمامه ستارة ديباج إذا دخل الناس رُفعت ، وإذا أريد صَرْفهم مُدَّت . ورُتب فى الدار قريبًا من المجلس خدم بأيديهم قِسِيّ البندق يرمون بها الغربان والطيور لئلا ينعب ناعب أو يصوّت مصوّت . ترف ليس فوقه ترف ، حتى أذن الخليفة يحرسونها من أصوات الغربان والطيور ! . وكان زىّ الأمراء من أهل البيت العباسى الأقبية السود ، ويلبس القضاة الطيالسة

---

(١) رسوم دار الخلافة للصابى ص ١١ وما بعدها والنجوم الزاهرة ١٩٢/٣ .

والقلنسوات الضخمة[١] . ويلبس الوزراء الأقبية السود وينتطقون بالسيوف وقد يلبسون دراعة وقميصاً ومبطّنة وخفّاً .[٢] وكان السواد هو اللباس الرسمى العام، وكانوا يلبسون فى أرجلهم الجوارب والأحذية السود المشدودة بالزنانير . وفى يوم الموكب كان يحضر حاجب الحجاب بأكمل لباسه من القَباء الأسود والعمامة السوداء والسيف والمنطقة ، وأمامه الحجاب ونُوّابهم ، ويجلس فى الدهليز من وراء السّتر ، ثم يحضر الوزير وقائد الجيش ، ويتكامل الناس فيراسل حاجب الحجاب الخليفة ، فإذا أذن الإذنَ العام دخل وحده حتى يقف فى الصحن ويقبل الأرض ، ثم يؤذن له بتقديم الناس ، فيخرج ويدعو ولىّ العهد إن وُجد ، وكذلك أولاد الخليفة ، إن كان له أولاد ، ثم يدخل الوزير ، ويمشى الحجاب بين يديه إلى مقربة من العرش ، فإذا قرب تأخروا عنه ، وتقدم الوزير بعد تقبيل الأرض إلى أن يدنو من الخليفة فإن مدّ يده إليه أخذها وقبّلها وتراجع حتى يقف فى يمين العرش على بعد خمسة أذرع منه ، ويدخل بعده قائد الجيش أو أميره فيقبل الأرض ويقف على يسار العرش ، ثم يدخل أصحاب الدواوين والكتّاب ، ثم القوّاد ونوّاب الحاجب على مراتبهم ، ويقفون يميناً وشمالا على رسومهم ، ثم ينادَى على بنى هاشم والقضاة ومن يلبسون القلانس ويسلمون ويقفون منفردين ، ثم يقع الإذن العام فيدخل الجند ويقفون صفّين . وكل ذلك تعقيد أدت إليه الحضارة والترف وأن الناس لا يشتركون فى الحكم ولا يشاطرون فيه ، فتحول إلى رسوم وشكليات وآداب لا يعرفها العرب ولا يعرفها الإسلام . وكان للوزراء بالمثل مواكبهم ، وكذلك كان للقواد ، ويروى أن نازوك أحد قواد المقتدر كان يمشى فى موكبه بين يديه أكثر من خمسمائة فراش بالشموع الموكبية سوى حملة المشاعل[٣] .

وكان يرافق هذه الأبّهة أبّهةٌ فى المسكن والملبس والمطعم ، فكانت الستور الجميلة تعلّق دائمًا على حيطان المسكن ، وكانت تُفْرَش أرض غرفه وممرّاته وصحونه بالبسط والسجاجيد ، وتمتد فوقها المقاعد والوسائد والنمارق ، وكانت القصور تكتظ بذلك اكتظاظًا شديداً ، ويصوّر ذلك من بعض الوجوه أن المتوكل حين غضب على عمر بن فرج الرُّخَّجِىّ أحد كبار موظفى الدولة ، وصادر أمواله ،

(١) رسوم دار الخلافة ص ٩٠ .
(٢) كتاب الوزراء للصابى ص ٣٢٥ .
(٣) رسوم دار الخلافة ص ١٠ .

حملت فرشٌ وأمتعة من داره على خمسين بعيراً[١] ، فما بالنا بما كان فى قصور الوزراء ، فضلا عن الخلفاء ، من فرش فخمة . وعلى نحو ما كانوا يهتمون بالفرش كانوا يهتمون بالثياب ، حتى كانت صناعتها أهم الصناعات وأرقاها ، وكان الصناع يتفننون فى صنعها من الخز والديباج والحرير . ويروى صاحب الديارات أن المتوكل جلس يوماً فى أحد قصوره على عرش من الذهب وعليه ثيابُ وَشْىٍ مُثْقلة ، وأمر ألا يدخل عليه أحد إلا فى ثياب وشى مثله[٢] ، وكان الخدم يقفون بين يديه وعليهم ثياب حمراء مورَّدة[٣] . ويقال إن المستعين هو الذى أحدث لبس الأكمام الواسعة فجعل عرضها ثلاثة أشبار ، وصغَّر القلانس وكانت طويلة كأقباع القضاة[٤] . وكان المعتضد يلبس الثياب الدبيقية الرفيعة التى كانت تُصنع بمصر والثياب الحريرية التى كانت تصنع بمدينة تُسْتَر وغيرها من المدن الفارسية[٥] . ويُرْوَى أن إسحق بن إبراهيم المصعبى حاكم بغداد لعهد المتوكل أهدى إلى عمرو بن بانة مغنى العصر عشرة أثواب خزّ أقلها قيمة بمائة دينار[٦] ، وكان خليفته على بغداد محمد بن عبد الله بن طاهر يتأنَّق فى ثيابه ، وقيل إنه كان بينها ثوبان من الوَشْى قيمتهما ألف وخمسمائة دينار[٧] ، ومرَّ بنا أن الراسبي والى إيران كان له مصنع خاص تنسج فيه ثيابه وثياب حواشيه وأصحابه . وكان الشعراء مثلهم مثل المغنين يلبسون الخز والوَشْى والثياب الحريرية[٨] . وكانوا يلبسون فى الشتاء الفراء والثياب الصوفية ، واشتهر ثوب باسم المِمْطر كان يُصْنَعُ من القماش المشمع للوقاية من المطر ، ونرى البحترى يسأل إبراهيم بن الحسن بن سهل ثوباً منه[٩] . ولبسوا الجوارب الصوفية والقطنية والحريرية والأحذية الحمراء[١٠] . ويبدو أن الرجال كانوا يتنافسون فى اقتناء الحجارة الكريمة ، إذ نرى نفراً منهم حين تصادرُ أمواله تصادَرُ بينها جواهر ثمينة تبلغ قيمتها ألوف الدنانير[١١] . وكانت خزائن الخلفاء تكتظ بالجواهر من كل صنف ،

---

(١) طبرى ٩/ ١٦١ .
(٢) الديارات ص ١٦١ .
(٣) الديارات ص ٥٧ .
(٤) مروج الذهب ٤/ ٩٤ .
(٥) مروج الذهب ٤/ ١٦٨ .
(٦) الديارات ص ٤٤ .
(٧) الديارات ص ٢٠٣ .
(٨) البيان والتبيين ٣/ ٥٩ .
(٩) ديوان البحترى (طبع دار المعارف) ٢/ ٨٩٢ .
(١٠) تاريخ بغداد ١١/ ١٦٦ والأغانى ٦/ ٨٥ .
(١١) طبرى ٩/ ١٦١ .

ويُذْكَرُ أنه كان عند المستعين فَصٌّ ياقوت أحمر اشتراه الرشيد بأربعين ألف دينار[١]، ويُرْوَى أن المقتدر طلب الصناديق وأوعيتها المحفوظة بالخزائن، فاختار منها مائة حبة، ونظمها سُبْحَةً يسبح بها وعُرِضت على تجار الجواهر فقوَّموا كل حبة منها بمائة ألف دينار أو تزيد[٢].

وكان النساء حرائر وجوارى يبالغن فى أناقتهن وزينتهن، فكن يَلْبَسْنَ ثياب السندس والإستبرق والوَشْى النفيس من كل لون وكن يتحلين بالجواهر من كل صنف: من الذهب والفضة والزمرد والياقوت واللؤلؤ، وكنَّ يتخذن منها تيجاناً وعقوداً وأقراطاً وخلاخيل، وكنَّ يَضَعْنَها بصور مختلفة على عصائبهن ومراوحهن. ويُرْوَى أنه كان لدى قبيحة زوجة المتوكل وأم المعتز ثلاثة أسفاط: سَفَطٌ مملوء زمرداً، وسَفَطٌ مملوء ياقوتاً وسفط مملوء دُرًّا كبيراً، وقُوِّمَت الأسفاط فبلغت قيمتها مليونين من الدنانير. وكان النساء يتخذن أمشاطاً من الصدف والصندل[٣]. وكن يتفنن فى أوضاع شعورهن على رءوسهن وجباههن، وقد يلوينها على أصداغهن فى هيئة حرف النون أو على هيئة العقرب، وفى ذلك يقول ابن المعتز[٤]:

لَوَى صُدْغَه كالنون من تحت طُرَّة ... مُمَسَّكَة تزهى بعاجٍ جبينِ

ويقول أيضاً[٥]:

ريمٌ يَتِيهِ بحسن صورتِهِ ... عَبَثَ الفُتورُ بلحظ مُقْلَتِهِ

وكأن عَقْرَبَ صُدْغِهِ وقفتْ ... لما دنتْ من نارِ وَجْنَتِهِ

وكن يتعطرن بطيب المسك كما أشار إلى ذلك ابن المعتز فى البيت الأول وبطيب الغالية والزعفران والعنبر. ويقال إن عَرِيب المغنية المتوفاة سنة ٢٧٧ عن سن عالية كانت تغسل شعرها من أسبوع إلى أسبوع وتغلفه فى كل غَسْلَة بستين مثقالا من المسك والعنبر[٦]. ويقول الجاحظ إن المرأة من الطبقة الوسطى حين كانت تهئ ابنتها للزواج كانت تحليها بالذهب والفضة وتكسوها الثياب الحريرية وتع.رها

---

(١) مروج الذهب ٤/ ٨٣.

(٢) طبرى ٩/ ٣٩٥.

(٣) نساء الخلفاء لابن الساعى (طبع دار المعارف) ص ٦.

(٤) ديوان ابن المعتز (نشر دار صادر ببيروت) ص ٤٥٢.

(٥) الديوان ص ١٠.

(٦) أغانى (طبعة الساسى) ١٨/ ٨٧.

بالطيب العبق[١]. وازدهرت حينئذ بفارس صناعة الروائح العطرية من الزهور والورود والرياحين المتنوعة .

وتفننوا فى المطاعم إلى غير حد ، تدل على ذلك المصنفات الكثيرة التى ألفت حينئذ فى فن الطبيخ للحارث بن بُسْخنَّر (من المغنين) ولإبراهيم بن العباس الصولى ولعلى بن يحيى المنجم ولجَحْظة البرمكى وغيرهم على نحو ما يشير إلى ذلك ابن النديم فى كتابه الفهرست[٢]، وكان الخلفاء يأكلون فى آنية الذهب والفضة ، ويذكر أن المكتفى كانت تقدَّم على مائدته عشرة ألوان فى كل يوم سوى صنوف الحلواء[٣]، وكان ما يقدم قبل الخليفة القاهر على مائدة الخلفاء من صنوف الطعام والحلواء يقدّر بثلاثين ديناراً[٤]، ويقال إن ثمن المسك الذى كان يُنْفَق يومياً فى مطبخه عشرة دنانير[٥] فما بالنا بما كان ينفق على الطعام والحلواء والفاكهة . . .

وبالمثل كان الوزراء يسرفون فى الإنفاق على طعامهم وموائدهم ، ومرَّ بنا أنه كان لحامد بن العباس وزير المقتدر أربعون مائدة يختلف إليها فى كل غداء أفواج من الناس . ويقول الصابى فى كتابه الوزراء إنه كان لابن الفرات مطبخان : مطبخ للخاصة ، ومطبخ للعامة ، وكان يقدم إلى الأخير يومياً تسعون رأساً من الغنم وثلاثون جَدْياً غير المئات من الدجاج ، وكان الخبَّازون وأصحاب الحلواء يعملون ليل نهار . ويصف لنا الصابى مائدته الخاصة به وبأصحابه المقربين ، فيقول : إنه كان يدعو إلى طعامه فى كل يوم تسعة من أصفيائه الكتَّاب ، وكان بينهم أربعة نصارى : « فكانوا يقعدون من جانبيه وبين يديه ، ويقدَّم إلى كل واحد منهم طبق فيه أصناف الفاكهة الموجودة فى الوقت من خير شىء ، ثم يُجْعَلُ فى الوسط طبق كبير يشتمل على جميع الأصناف ، وكل طبق فيه سِكّين يقطع بها صاحبها ما يحتاج إلى قطعه من سفرجل وخوخ وكمثرى ، ومعه طستُ زجاج يُرْمَى فيه بالثفْل . فإذا بلغوا من ذلك حاجتهم واستوفوا كفايتهم شِيلت الأطباق وقُدِّمت الطسوت والأباريق ، فغسلوا أيديهم ، وأحضرت المائدة مغشَّاة بدبيقى فوق مكبَّة خيازر ، ومن تحتها سفرة (مفرش) أدم فاضلة عنها ، وحواليها مناديل . . . فإذا

---

(١) البخلاء (طبعة دار الكاتب المصرى) ص ٢٥ .

(٢) الفهرست لابن النديم (الطبعة الثانية للمكتبة التجارية بمصر) ص ٤٥٤ .

(٣) مروج الذهب ٤/١٩١ .

(٤) عريب ص ١٨٣ .

(٥) كتاب الوزراء ص ٣٥٢ .

وُضعت رُفعت المكبَّة (غطاء الآنية) والأغشية ، وأخذ القوم فى الأكل ، وابن الفرات يحدّثهم ويؤانسهم ويباسطهم . فلا يزال على ذلك ، والألوان تُوضَعُ وتُرْفَعُ أكثر من ساعتين . ثم ينهضون إلى مجلس فى جانب المجلس الذى كانوا فيه ويغسلون أيديهم ،والفرّاشون قيام يصبون الماء عليهم ، والخدم وقوف على أيديهم المناديل الدبيقيّة ورطليّات ماء الورد لمسح أيديهم وصبّه على وجوههم»[1] وكأن العباسيين لم يتركوا للمدنية الحديثة شيئاً .

وكان فى بيوت الكبراء شرابى يعنى بالشراب وآلته وبالفاكهة والروائح[2] ، وكان بجانبه الشوّاء والطبّاخ والخبّاز والخبّاص وهو الذى يصنع الحلوى ، وفى كتاب البخلاء للجاحظ وغيره من كتب العصر أسماء أطعمة كثيرة مثل السّكباج ، وهو لحم يُطْبَخُ بخلّ ويضاف إليه شىء من الزعفران لتطيب رائحته ، والمَضيرة وهى لحم ممزوج ببعض التوابل ، والشبارقات وهى شرائح مشوية من اللحم ، والطباهج وهو طعام من لحم وبيض وبصل ، والهريسة وهى لحم وماء وسميذ إلى غير ذلك من أطعمة كثيرة . ثم الحلوى من الفطائر والرقاق ، ومنها اللوزينج ، وكان يتخذ من اللوز والدقيق والفستق ويُرَشُّ بماء الورد ، ومنها الفالوذج وهو حلوى من النشا وعسل النحل والسمن ، والخُشْكنان وهو كعك يُحشَى بالجوز والسكر . ثم الأشربة ومنها الجُلاّب وهو شراب ممزوج بماء الورد . وكانت تقدّم مع الطعام المشهيات ويسمونها النُّقْل ، وكانت تتألف — كما فى عصرنا — من أشياء حِرّيفة . وكتبوا كثيراً عن آداب الطعام نجد ذلك منثوراً فى كتاب البخلاء للجاحظ وعيون الأخبار لابن قتيبة وأدب النديم لكشاجم وكتاب الموشى للوشاء ، وفيه فصل طريف عن زى الظرفاء فى الطعام .

وكانوا يفصلون وقت الشراب عن وقت الطعام ، وفيه يكون السمر ، ودائماً نجد الندماء ، وكان لكل خليفة ندماؤه من العلماء والمنجمين والأطباء ومن يوردون

---

(١) كتاب الوزراء ص ٢٤٠ .

(٢) كتاب الفرج بعد الشدة للتنوخى ٢/١١ .

النوادر والفكاهات ومن يعرفون كيف يرضونه فى ساعات صفوه وساعات سخطه ، وكانت تغمرهم الصلات السنية على نحو ما يروى عن على بن يحيى المنجم وما قيل من أنه وصله من المتوكل وحده ثلثمائة ألف دينار ، وكان نديماً ممتازاً ، فهو شاعر وطبيب وأديب ومضحك وصاحب نوادر . وتخصصت أسرة حمدون بهذه الصناعة ، وهى من سلالة حمدويه صاحب الزنادقة فى عصر المهدى ، فكان إبراهيم بن حمدون ينادم المعتصم ثم الواثق ولحق عصر المتوكل ، وكان ينادم المعتمد منهم أبو محمد بن حمدون ، أما أبو عبد الله أحمد بن حمدون فكان ينادم المتوكل وغيره من الخلفاء ، ويقال إن المتوكل وصله فى مدة خلافته بثلثمائة وستين ألف دينار وإن المستعين وصله بأكثر مما وصله به المتوكل[1] . ونجد فى بلاط المتوكل كثيرين من الندماء ، ومنهم أبو العبر وأبو العنبس الصيمرى الذى قلد أمامه البحترى فى إنشاده الشعر تقليداً مضحكاً . وكان المعتمد كثير الندماء مثل المتوكل ، وفى مروج الذهب حديث دقيق لبعض ندمائه عن آلات الطرب والغناء والرقص ، ويقول المسعودى بعقب ذلك : « وللمعتمد مجالسات ومذاكرات ومجالس فى أنواع من الأدب ، منها مدح النديم وذكر فضائله »[2] ، ولا بد أن يكون كشاجم استفاد فى كتابه « أدب النديم » من ذلك فوائد كثيرة . وكان المعتضد يفرد حجرة للندماء ، ليستدعيهم منها ، وكان لكل منهم نوبته أو دوره[3] . واشتهر الراضى بأنه كان يوسع فى مجالسه للندماء « ولم يكن ينصرف عنه أحد من ندمائه فى أى يوم إلا بصلة أو خلعة أو طيب ، منهم محمد بن يحيى الصولى وواحد من بنى حمدون »[4] . وكان للوزراء ندماؤهم ، بل كان أيضاً لعلية القوم وكبار الموظفين فى الدولة ، ويكفى أن نعرف مثلا أن أحمد بن المدبر كان له سبعة ندماء لا يأنس بغيرهم ولا ينبسط إلى سواهم[5] ، ومن المؤكد أن وظيفة هؤلاء الندماء هى التى دفعت الجاحظ إلى كتابة مصنفه البخلاء للتسلية والتندير ، وكثر من حوله

---

(١) معجم الأدباء (طبع القاهرة) ٢/٢١٧ .
(٢) مروج الذهب ٤/١٣٨ .
(٣) تاريخ بغداد ٧/٣٨٠ .
(٤) مروج الذهب ٤/ ٢٤٤ .
(٥) مروج الذهب ٤/١٦٣ .

التأليف فى المغفلين وأصحاب النوادر والفكاهات[١].

وكانوا يُشْغَفون — وفى مقدمتهم الخلفاء — بضروب كثيرة من الملاهى ، ويقال إن مجالس المتوكل كانت تمتلئ باللعب والهزل[٢] ، وممن كان يعجب بهم أصحاب السماجة أو كما نقول الآن التمثيل الهزلى ، الذين كانوا يقلدون الناس فى حركاتهم وأصواتهم[٣]. وكان هو وخلفاؤه كثيراً ما يتفرَّجون على نطاح الكباش والديكة[٤] وتواثب السباع والفيلة . ويحكى عبيد الله بن عبد الله بن طاهر أن المعتز استدعاه ، حتى إذا كان بمجلسه أسمعه غناء شارية وزَمْرَ زُنام ، وأراه آلة عملها أحمد بن موسى الخوارزمى من نحاس يُرْسِل فيها الماء فيُسْمَع لها زمْر السرْناى (آلة من آلات الطرب) ، ثم أدخله إلى نافذة رأى منها الفيل والسبع كيف يتواثبان[٥]. ومن أهم ملاهيهم لعبة الشطرنج ، وكان من يحسنها تُفْتَحُ له أبواب الخلفاء والوزراء والكبراء مثل أبى القاسم التوَّزِىّ الشطرنجىّ ، ومثل محمد بن يحيى الصولى ، ويقال إن المكتفى استقدمه حين علم بإحسانه لعبة الشطرنج ، وجعله يلعب بين يديه مع لاعب آخر كان مشهوراً بلعبه هو الماوردى ، ولكن الصولى قهره وغلبه[٦] . ويحدثنا المسعودى بعقب ذكره ذلك عن الشطرنج وكيف أنه كان يُلْعَبُ على رُقْعة أدم مربعة حمراء ، ويعرض لآلاته وأنواعها واختلاف هيئاتها ، فيذكر بجانب الرقعة المربعة السالفة رقعة مستطيلة ورقعة مدوّرة ورقعة نجومية وتسمى الفلكية . ويقول المسعودى إنه استُحدثت فى زمانه رقعة للشطرنج تسمى الجوارحية ، سمَّوا كل بيت من أبياتها باسم جارحة من جوارح الإنسان ، ويقول إن للاعبيها وهواتها فنوناً من الهزل والنوادر البديعة . وكانوا يقامرون ويراهنون فى لعبة الشطرنج ، وكذلك فى لعبة النَّرْد (الطاولة) ، وكانوا يلعبونها عادة على رقعة

---

(١) الفهرست ص ٤٤٩ .

(٢) مروج الذهب ٤/٤ .

(٣) الديارات ص ٣٩ .

(٤) مروج الذهب ٤/١٠٣ .

(٥) الديارات ص ١١٠ ومعروف أنه كان بدار الخلافة منذ المعتصم حظيرة للحيوان تسمى حير الحيوان . انظر الأغانى (طبعة الساسى) ١٠/١٣٠ .

(٦) مروج الذهب ٤/٢٣٢ .

بها أربعة وعشرون منزلا بثلاثين حجراً وفصَّين يجرى بهما اللعب كما هو معروف فى عصرنا . وكان إبراهيم بن المدبر وزير المعتمد مشغوفًا به وكان ماهراً فيه ، فكان يطلب بلعبه القمار وكسب الرهان ، ويروى صاحب الديارات أنه ربح من شخص ذات يوم عشرين ديناراً[١] .

واعل ملهى لم يشغل الناس كما شغلهم الغناء ، وسنعرض لذلك فى موضع آخر ، وكثيراً ما كانوا يتجمعون فى تلك الحقب للفرجة على سباق الخيل ، حتى كانت أيامه أشبه بأيام الأعياد . وكذلك كان اللعب بالصوالجة على الخيل ، حيث تضرب كرة ويتقاذفها الخيَّالة والفرسان ، وكانت فى دور الخلفاء ميادين خاصة لتلك اللعبة[٢] ، وكان يلعبها الخلفاء والوزراء والقواد وحواشيهم ، ويُرْوَى أن عبيد الله بن يحيى ابن خاقان وزير المعتمد دخل ميدانًا فى داره يوم جمعة ليضرب الصوالجة مع بعض غلمانه ، فركب فرسه ، وثقل ، فصدمه غلامه رشيق ، فسقط عن فرسه ميتًا[٣] . ويصور ابن قتيبة هذه اللعبة والتفوق فيها ، فيقول إن الضارب يضرب الكرة بالصولجان خِلْسَةً من تحت مِخْزَم الدابَّة تلقاء لبَّتها ، وعليه أن يحسن كفَّ الدابَّة فى شدة جريانها متوقيًا من الصَّرْعة والصَّدْمة المفاجئة .

وكانوا يخرجون للصيد والقَنْص أفواجًا ، واشتهر غير خليفة بالخروج له ومعه الكلاب والصقور والفهود ، وكان من أشد الخلفاء شغفًا به المعتضد « وكان كالمعتصم فى أكثر أموره ومآربه وأشبه به من سائر بيته وبنيه من الخلفاء فى محبته لمباشرة الحرب والصيد وما أشبههما ، ولم يكن ينفكّ من حرب إلا إلى صيد ولا من صيد إلا إلى حرب ، وكان يخرج لصيد الأسْد ، فيخيِّم عليها حتى لا يبقى منها باقية »[٤] وكان ابنه المكتفى مشغوفًا مثله بالصيد «وكان أكثر ما يُدْمنه الصيد بالفهد والعقاب ، وهما سَبُعا الضوارى والجوارح ، ويباشر ذلك بنفسه ويمتهنها فيه لشدة الشغف به

---

(١) كتاب الديارات ص ١١ .
(٢) كتاب الوزراء ص ١٣٨ .
(٣) النجوم الزاهرة ٣/٣٨ .
(٤) المصايدوالمطارد لكشاجم (طبع بغداد) ص٥ .

والارتياح إليه »[١]. ومنذ أبى نواس والشعراء يكثرون من النظم فيه بجميع صوره ، ويعرض كشاجم آلاته عرضًا مفصلا فى كتابه المصايد والمطارد ، كما يعرض روائع ما قيل فيه من أراجيز وأشعار كانوا يسمونها الطَّرديات . ومن طريف ملاهيهم المهارشة بين القردة والفيلة[٢].

وكانت العامة تجد تسليتها المحبَّبة عند قُصَّاص كانوا منتشرين فى طرقات بغداد وكانوا يقصون عليها نوادر الأخبار وغرائبها ، ويبدو أنهم كثروا كثرة مفرطة حتّى لنرى المعتمد يأمر فى سنة ٢٧٩ بالنداء فى بغداد ألا يقعد على الطريق ولا فى المسجد الجامع قاص ولا صاحب نجوم ولا زاجر[٣]. وكان اللعب بخيال الظل معروفًا حينئذ ، وكان يعتمد على الهزل والسخرية والإضحاك[٤]. وكان هناك كثير من المضحكين الذين يتفننون فى طرق الهزل ، وكان كثير منهم يخلط هزله بحكاية لهجات النازلين ببغداد من الأعراب والخراسانيين والزنوج والفرس والهنود والروم أو يحاكون العميان ، وكأنما يجمع الحاكى سمات من يحكيه جميعًا ، وقد يحاكون بعض الدواب وخاصة الحمير[٥]. ومن أشهر هؤلاء الحكَّائين المضحكين لعصر المعتضد ابن المغازلى ، وكان يتكلم على الطريق ويقص على الناس أخباراً ونوادر ومضاحك ، وكان فى نهاية الحذق لا يستطيع من يراه إلا أن يضحك ، وكان لا يدع حكايته لأعرابى أو مكى أو نَجْدِى أو تركى أو نبطى أو زنجى أو سِنْدى إلا حكاها ، وكان يخلط ذلك بنوادر تضحك الثكلى ، وسمع به المعتضد فأحضره ، فما زال يذكر له نوادر وهو متماسك ، حتى أخرجه عن طوره ووقاره إلى الضحك ، فضرب بيده وفحص الأرض بقدمه ، واستلقى من كثرة الضحك وغلبته عليه[٦].

---

(١) المصايد والمطارد ص ٧ .

(٢) الحيوان ٧/ ٦٢ .

(٣) طبرى ١٠/٨ ، ٤٠ والنجوم الزاهرة ٣/ ٨٠ .

(٤) الديارات ص ١٨٧ وما بعدها .

(٥) البيان والتبيين ١/٦٩ .

(٦) مروج الذهب ٤/١٦٣ .

٣

الرقيق والجوارى والغناء

كان الرقيق منتشراً فى كل مكان ، فى القصور وفى الأكواخ وفى الصناعات وفى الزراعة ، وكان كثيراً كثرة مفرطة ، فمنه السندى ومنه الإفريقى الزنجى والحبشى والسودانى ومنه التركى والصقلبى ، ومنه الصينى والخراسانى والأرمنى والبربرى ، وكأنما كانت تجمتع فيه كل الأجناس . ومع أن الإسلام قصر الرق على من يؤخذ فى الحرب أسيراً كافراً ، فقد مضى المسلمون — محاكين شعوب العالم القديم — يفسحون للتجارة فيه وجلبه من البلاد الأجنبية ، وكأنهم لم يستطيعوا أن يبطلوا هذه العادة عند الأمم المغلوبة كما كان منتظراً ، بل لقد شاركوهم فيها . ولم تلبث تجارة الرقيق فى ديار الإسلام أن أصبحت ذات شأن عظيم ، حتى ابتُنى لها فى كل مدينة كبيرة سوق خاصة يقوم على مراقبتها موظف يسمى قيّم الرقيق . ويذكر اليعقوبى أن سوق سامرّاء فى القرن الثالث الهجرى كانت مربعة ، وبها طرق متشعبة ، وفيها الحُجَر والغرف والحوانيت[1] .

ومعروف أن الإسلام عمل على تحرير الرقيق بوسائل شتى ، إذ جعله فداء لأعظم الجنايات مثل القتل خطأ وأخفها مثل الحنث فى اليمين ، وأباح للعبد حق التملك وأن يكاتب صاحبه على جزء من المال يدّخره من العمل ، حتى إذا وفّاه رُدّت إليه حريته . واستطاع كثير من الأرقاء المحرَّرين أن يصلوا إلى أعظم المناصب فى الدولة ، وكان من هؤلاء الأرقاء من يتمتعون بجاه عظيم مثل قواد الترك طوال العصر ، غير أن جمهوراً كبيراً منهم كان يعامَل معاملة سيئة ، وخاصة الزنوج الذين كانوا يقومون بأعمال الحرث والزراعة فى البصرة ، مما جعلهم يثورون لعصر المعتمد — كما مرّ بنا — ثورة عارمة . ولا ريب فى أن هذه المعاملة السيئة تخالف روح الإسلام مخالفة صريحة ، لا من حيث استرقاق الناس بالشراء لا بالحرب فقط ، بل أيضاً من حيث أخذهم بالعنف والعَسْف والظلم ، فقد دعا القرآن

---

(١) جغرافية اليعقوبى ص ٢٥٩ .

والحديث جميعـًا إلى الإحسان للأرقاء والبرّ بهم والمعاملة الكريمة على نحو ما يلقانا فى آية سورة النساء: (وبالوالدين إحسانـًا وبذى القربى واليتامى . . . وما ملكتْ أيمانكم إن الله لا يحب مـَنْ كان مختالا فخوراً) ، وفى الحديث النبوى : « شر الناس مـَنْ أكل وحده ومنع رِفْدَه (عطاءه) وضرب عبده » ، وفيه أيضًا : « العبيد إخوانكم ، جعلهم الله تحت أيديكم ، فمن كان أخوه تحت يده فليطعمه مما يأكل ، وليلبسْه مما يلبس ، ولا تكلفوهم ما يغلبهم ، فإن كلفتموهم فأعينوهم » ، وكانت الجارية بمجرد أن يستولدها سيدها تصبح أم ولده ، وليس له حق بيعها ، وابنها حر مثل أبيه ، وبمجرد موت سيدها تصبح حرة . وفى مواضع كثيرة من القرآن والحديث نجد الدعوة قوية إلى تحرير العبيد ، ولذلك كان كثيراً ما يوصى الرسول من ملكوهم بعتقهم بعد موتهم ، ويـُرْوَى أن المعتصم أوصى بعد موته بعتق ثمانية آلاف من مماليكه ، ومثله كان يصنع الوزراء والكبراء من الأمة .

على كل حال كان الأرقاء كثيرين كثرة مفرطة ، وكان أهم ما يقومون به فى المدن الخدمة ، ويقول المسعودى إن الخدم كانوا عادة من السودان أو الصقالبة أو الروم أو الصين [1] . ويبدو أن جمهورهم كانوا من الخصيان ، ومع أن الإسلام حرّم الخصاء تحريمـًا باتـًا نجد الخصيان منتشرين فى العالم الإسلامى انتشاراً واسعـًا . وكانوا يـُخْصَوْن خارج حدود الدولة الإسلامية : فى بيزنطة وأواسط آسيا ، ثم يـُجْلـَبـُون ويباعون فى أسواق الرقيق ببغداد وغير بغداد ، ويتردَّد ذكرهم كثيراً منذ أواخر القرن الثانى الهجرى . « وكانت انتشارهم باعثـًا على أن تلبس بعض الجوارى المسمَّيْن بالغُلاميات ملابسهم ، وترتـَبط بذلك حادثة مشهورة فإن زبيدة أم الأمين حين رأته يستكثر من الخصيان اتخذت الجوارى المقدودات الحسان الوجوه ، وعمَّمت رءوسهن ، وجعلت لهن الطرَر والأصداغ والأقفية (صور من تجميل أوضاع الشعر على الرأس تشبهـًا بالفتيان) وألبستهن الأقبية والقراطق والمناطق (ملابس الفتيان) فماست قدودهن وبرزت أردافهن ، وبعثت بهن إلى ابنها الأمين ، فاختلفن بين يديه ، فاستحسنهن ، واجتذبن قلبه إليهن وأبرزهن للناس» [2] فقلَّده كثير من أهل بغداد ، وظل ذلك من بعده حتى عصر الخليفة القاهر المتوفى

---

(١) مروج الذهب ١٥٨/٤ .

(٢) مروج الذهب ٢٢٦/٤ .

سنة ٣٢٢ إذ يروى بعض الإخباريين أنه رأى فى قصره جوارى يلبسن القراطق والأقبية والطُرَر ومناطق الذهب والفضة[١].

وكثرة الخصيان هى التى هيّأت لظهور هؤلاء الغلاميات ، ويكفى أن نذكر ما قاله المؤرخون من أنه كان فى قصر المقتدر أحد عشر ألف غلام خصىّ[٢]. ومنذ أواسط القرن الثالث أخذ الناس — احترامًا لمن صارت إليهم مقاليد الأمور منهم ، وخاصة من الترك — يسمون الخصىّ الخادم والأستاذ[٣]. ولم يكونوا يستطيعون التعرض للخصيان البيض خوفًا من الترك وبطشهم ، أما السود فكانت العامة تكثر من الصياح بهم : يا عقيق[٤]. ويروى المسعودى أن الخدم السود جأروا بالشكوى إلى المعتضد لما يلحقهم فى الأزقة والشوارع والدروب وسائر الطرق من الصغير والكبير من العوام إذ كانوا جميعًا يصيحون بهم : « يا عقيق صُبّ ماء واطرح دقيق يا غاق (صوت الغراب) يا طويل الساق»[٥]. وكان المضحكون الهزليون فى الطرق كثيراً ما يحاكون الخدم المختلفين وأصواتهم[٦].

وكانت الإماء والجوارى فى الدور والقصور أكثر من الخصيان وأرقاء الرجال ، إذ أباح الإسلام للمسلم أن يتملك ما شاء من الجوارى والإماء ، وكثير من الرجال كانوا يفضلونهن على الحرائر ، لأنهن كن من أجناس وأشكال مختلفة ، ولم يكن بينهن وبين الرجال حوائل الحجاب مثل الحرائر اللائى يقترنون بهن وهم لا يعرفون من أمرهن شيئًا ، بخلاف الجارية فإنها كانت معرّضة لهم فى دور النخّاسين ، فكانوا يختارونها بحسب مشيئتهم وموقعها فى أنفسهم ، بخلاف الحرائر فقد كان الحجاب يحول بينهم وبين التعرف عليهن ، وكانوا يُضْطَرّون لاتخاذ دلّالات يصفونهن لهم ، وقلما يتطابق الوصف مع الحقيقة . وكان بين الجوارى المعروضات للبيع دائمًا كثير من الفاتنات الفارسيات والخراسانيات والأرمنيات والتركيات والروميات ، فكنّ يستأثرن بقلوب الرجال . ومن أجل ذلك لم يكونوا يعددون زوجاتهم ، فقد كفاهم اتخاذ الجوارى والإماء هذا التعدد ، وأكبّوا عليه إكبابًا .

---

(١) مروج الذهب ٤/٢٢٧ .
(٢) النجوم الزاهرة ٣/٢٣٤ .
(٣) مروج الذهب ٤/١٧٨ ، ١٨٠ .
(٤) طبرى ١٠/٥٣ .
(٥) مروج الذهب ٤/١٧١ .
(٦) مروج الذهب ٤/١٦٣ ، ١٦٤ .

وكان إمامهم فى ذلك الخلفاء فإنهم أكثروا من الجوارى كثرة مفرطة ، حتى ليروى أنه كان لدى المتوكل منهن أربعة آلاف جارية [١] ، وهى رواية مبالغ فيها ، غير أنها تدل على ما ثبت لدى الناس من كثرة جواريه ، ويقال إنه لما أفضت إليه الخلافة أهداه عبيد الله بن طاهر هدية فيها مائتا وصيف ووصيفة ، وكان فى الهدية محبوبة [٢] . وكانت شاعرة مغنية فوقعت عنده أعظم موقع واقترن بها ، ووفت له بعد موته وفاء منقطع النظير . وظلت هذه السيول تتدافع إلى قصر الخلافة طوال العصر من كل قطر ، ويُرْوَى أن زيادة الله بن الأغلب أهدى المكتفى حين ولى الخلافة مائة وخمسين جارية [٣] . ولعلنا لا نعجب بعد ذلك إذا عرفنا أن أمهات الخلفاء فى العصر كُنَّ من الجوارى ، وخاصة جوارى الترك والروم ، وكُنَّ يتدخلن فى شئون الحكم ، فكل جارية تحاول أن تقيم فى المناصب العليا أقرباءها والمقربين منها ، على نحو ما كانت تصنع أم المقتدر بأخرة من العصر ، حتى فسد الحكم لعهده فساداً لا يمكن إصلاحه ، وفسحت لأخيها الرومى المسمى غريباً فى النفوذ والسلطان ، فزاد الطين بلة ، وزاد بلة ثانية بما أتاحت لقهرمانتها أم موسى من إسنادها نقابة بنى هاشم لأخيها ، وأتاحت لقهرمانتها الثانية ثمل — كما مر بنا فى غير هذا الموضع — أن تقعد فى الرصافة كل يوم جمعة للنظر فى المظالم .

وكانت الجارية الجميلة تباع بألف دينار وأكثر ، وكان الناس يغدون ويروحون إلى سوق الرقيق ودور النخاسين يتفرَّجون على الوافدات الجديدات من الجوارى الفاتنات ، وكان النخاسون يجمعون منهن كثيرات ، حتى لقد كانت رءوس أموالهم تبلغ الألوف ، ويقول ابن المعتز عن نخَّاس منهم يسمى أحمد بن الحارث إنه كان يجتمع أحياناً عنده من الرقيق ما يبلغ مائة ألف دينار [٤] ، ويذكر أبو الفرج الأصبهانى عن نخاس يسمى أبا عمير أنه كان له جوارٍ لهن ظرف وأدب ، وكان ابن البواب الشاعر يألف جارية منهن يقال لها عبادة ويكثر غشيان منزل أبى عمير من أجلها فأصابه ضيق شديد ، فانقطع عن زيارتها ثم نازعته نفسه إلى

---

(١) مروج الذهب ٤ / ٤٠ .

(٢) أغانى (ساسى) ١٩ / ١٣٢ ونساء الخلفاء لابن الساعى ص ٩٢ .

(٣) مروج الذهب ٤ / ٢٠٠ .

(٤) طبقات الشعراء لابن المعتز (طبع دار المعارف) ص ٤٢٦ .

لقائها وصعب عليه الصبر عنها ، فأتى عبادة ، ووجد الجارية ورفاقه يعاتبونه على تأخره عنهم وعن صاحبته ، ولم يلبث أن أنشأ يقول :

لو تشكَّى أَبو عميرٍ قليلاً لأَتيناه من طريق العِياده
فقضينـــا من العيادة حقًّا ونظرنا فى مُقْلتى عبـــاده

فقال أبو عمير : مالى ولك يا أخى ، انظر فى مقلتى عبادة متى شئت غير ممنوع ، ودعنى أنا فى عافية لا تتمنَّ لى المرض لتعودنى[١] . وواضح من امتناع ابن البواب عن زيارة أبى عمير حين ألمت به ضيقة أن الشعراء وغيرهم حين كانوا يختلفون إلى دور النخاسين كانوا يحملون معهم كثيراً من الهدايا للنخاسين وجواريهم ، مما كان يكلفهم أموالا كثيرة ، وإلى ذلك يشير الجاحظ فى رسالته عن القيان إذ يذكر عن النخاس «أن من فضائله أن الناس يقصدونه بالرغبة كما يُقْصَدُ بها الخلفاء والعظماء فيُزار ولا يكلَّف الزيارة ، ويوصَل ولا يُحْمَل على الصلة ، ويُهْدَى إليه ولا تُقْضَى منه الهدية»[٢] . ويصور الجاحظ تفنن الجارية فى اللعب بألباب الرجال ، إذ لا تزال تنصب أشراكها باللحظ والتبسم وإظهار الشوق إلى طول مكث من يختلف إليها والحزن لفراقه والصبابة لسرعة عودته ، فإذا أحسَّت أنه وقع فى الشَّرَك أوهمته أنها تعلَّقت به وأنه شَجْوها فى فكرها وضميرها وليلها ونهارها وأنها لا تريد سواه ولا تؤثر أحداً على هواه وأنها لا تبتغيه لماله وهداياه وإنما لنفسه ، ثم جمَّشته بعضوض تفاحها وتحيات من ريحانها وزوَّدته بخصلة من شعرها وقطعة من ثيابها ، يقول الجاحظ وربما زارته فى بيته وأمكنته من القبلة فما فوقها . لذلك لا نعجب حين نراهن يَسْتَعْرِنَ قلوب الشعراء ، وحين نرى الشعراء عاكفين عليهن وقد بذلن لهن كل ما استطاعوا من هدايا وتحف وطرف نفيسة ، وفى ذلك يقول على بن الجهم متحدثًا عن جوارى نخَّاس يسمى المفضل وابتزازهن وابتزاز صاحبهن أموال من يزورونهن[٣] :

أَوانِسُ ما فيهنَّ للضيف حِشْمَةٌ ولا رَبُّهن بالمهيبِ المُبَجَّـــلِ

---

(١) أغانى (ساسى) ٢٠ / ٤٣ .
(٢) رسائل الجاحظ نشر فنكل ص ٧٣ .
(٣) ديوان ابن الجهم (نشر المجمع العلمى العربى بدمشق) ص ٥٢ .

يُسَرُّ إذا ما الضَّيفُ قَلَّ حَياؤه ويَغْفل عنه وهْو غيرُ مغفَّلِ
ولا يدفع الأَيدى السفيهةَ غيرةً إذا نال حظًّا من لبوسٍ ومأْكلِ
لك البيتُ ما دامتْ هداياك جمَّةً ودُمْتَ مليًّا بالشراب المعسَّل

وكأن دار النخاس تعد « باراً » كبيراً وجواريه ما يزلن يختلفن إلى رُوَّاده . وكان كثيرات منهن مثقفات بفنون الآداب ، فكن يجذبن الرجال والشباب والشعراء بجمالهن وعذوبة حديثهن ، بل كان منهن كثيرات يحسنَّ نظم الشعر مثل فضل الشاعرة ومثل محبوبة جارية المتوكل .

ولم يكن المجتمع العباسى يُعْنَى بفن كما كان يعنى بالغناء والموسيقى ، ويتضح ذلك من كثْرة الكتب المترجمة منذ مطالع العصر فى الفن الموسيقى على نحو ما يتضح فى أوائل ترجمة إسحق الموصلى فى كتاب الأغانى وكذلك ما ساقه منها كتاب الفهرست لابن النديم ، ولم يلبث العرب أن شاركوا مشاركة قوية فى هذا التأليف منذ الخليل بن أحمد صاحب العروض المتوفى سنة ١٧٠ للهجرة . ويتكاثر هذا التأليف فى القرن الثالث ، وخاصة فى بيئة المتفلسفة مثل الكندى وله فى الموسيقى كتب مختلفة[١] ، وكذلك لتلميذه[٢] أبى الطيب السرخسى واقسطا[٣] بن لوقا البعلبكى ، فلكل هؤلاء مؤلفات فى الموسيقى أحصاها ابن النديم فى فهرسته . وخلف من بعدهم الفارابى بأخرة من العصر فأربى على كل سالف وخالف من اليونان والعرب جميعًا على نحو ما يتضح فى مصنَّفه كتاب الموسيقى الكبير ، وقد استطاع أن يدخل تحسينات على آلة القانون الإغريقية . وعلى نحو ما يسوق ابن النديم كتب المتفلسفة فى الموسيقى يسوق كتب المغنين فيها وفى الغناء والمغنين والمغنيات ، ولإسحق الموصلى فى ذلك نشاط واسع ، ومن أشهر من خلفوه فى القرن الثالث على التأليف فى هذا الفن بَذْل[٤] ، وكان لها كتاب فى الأغانى يشتمل على اثنى عشر ألف صوت ، ودنانير البرمكية ويقول أبو الفرج لها كتاب مجرد فى الأغانى مشهور[٥] ، وممن ذكرهم ابن النديم النَّصْبى وله كتاب فى الأغانى ألفه

---

(١) الفهرست ص ٣٧٣ .
(٢) الفهرست ٢١٩ ، ٣٨٠ .
(٣) الفهرست ص ٤٢٤ .
(٤) الأغانى (ساسى) ١٥ / ١٣٨ .
(٥) الأغانى (ساسى) ١٦/ ١٣١ .

على حروف المعجم للمتوكل[١] .

ومنهم جحظة وله كتاب فى الطّنْبوريين[٢] ، ويذكر أبو الفرج أن لعمر وبن بانة كتاباً فى الأغانى يُعَدّ من الأصول المهمة فيها[٣] ، كما يذكر أنه كان لأحمد ابن يحيى المكى كتاب سماه المجرد فى الأغانى كان يحتوى على أربعة عشر ألف صوت[٤] ، وكان لمحمد بن على بن أمية المعروف باسم أبى حشيشة كتاب فى أخبار الطنبوريين[٥] . وعمل فى هذا العصر كثير من المغنين على تحسين آلات الغناء وتغذيته بالألحان الأجنبية ، وخاصة أن كثرتهم كانت من الموالى فُرْساً وغير فرس ، بل إن منهم مَن اخترع بعض الآلات مثل زُنام الزامر ، فقد اخترع نايا نُسب إليه ، فقيل ناى زُنامىّ[٦] . ومما يدل على ما كان للغناء حينئذ من سمو المنزلة أننا نجد طائفة من الخلفاء والأمراء وكبار رجال الدولة تشارك فى وضع أصواته مثل المنتصر[٧] والمعتز[٨] والمعتمد[٩] وابن المعتز[١٠] وعبيد[١١] الله بن عبد الله بن طاهر ، واشتهر بأنه كان يستطيع أن يجمع ألحاناً كثيرة فى صوت واحد ، وكانت له كتب فى النغم وعلل الأغانى .

وكانت تتقابل فى الغناء حينئذ مدرستان : مدرسة محافظة تتمسك بالأصول والأوضاع الموروثة ويمثلها إسحق الموصلى ، ومدرسة مجددة لا تزال تضيف إلى التراث الفنى فى الغناء أصواتاً وأنغاماً وألحاناً ويمثلها إبراهيم بن المهدى ، ويحكى أبو الفرج بعض وجوه الخلاف بينه وبين إسحق ، فيقول إنهما كانا يختلفان فى مداول بعض المصطلحات ، فما كان يسميه إسحق ثقيلا أولا وخفيفه كان يسميه إبراهيم بن المهدى ثقيلا ثانياً وخفيفه ، وما كان يسميه إسحق ثقيلا ثانياً وخفيفه كان يسميه إبراهيم بن المهدى ثقيلا أولا وخفيفه ، ويقول أبو الفرج : « وأما التجزئة والقسمة فإنهما أفنيا أعمارهما فى تنازعهما فيهما ، حتّى كان يمضى لهما

---

(١) الفهرست ص ٢١٤ .

(٢) الفهرست ص ٢١٤ .

(٣) أغانى (دار الكتب) ١٥/٢٦٩ .

(٤) أغانى ١٦/ ٣١١ .

(٥) الفهرست ص ٢١٤ .

(٦) تاج العروس للزبيدى ٨/ ٣٣٠ .

(٧) أغانى (دار الكتب) ٩/٣٠٩ وانظر فى أصوات أخيه أبى عيسى الأغانى ١٠/٢٠١ .

(٨) أغانى ٩/٢٠٥ .

(٩) أغانى ٩/٣٢٣ .

(١٠) أغانى ١٠/٢٧٧ .

(١١) أغانى ٩/٤٠ وما بعدها .

الزمان الطويل لا تنقطع مناظرتهما ومكاتبتهما فى قسمة وتجزئة صوت واحد[١]» .
وقد توزَّعا المغنين والمغنيات فى القرن الثالث ، فكان من ينكر تغيير الغناء القديم يأخذ بمذهب إسحق ، ومَنْ رأى التجديد والتغيير فى الألحان يأخذ بمذهب ابن المهدى . ونستطيع أن نعين أهم من تعصبوا لهذا أو ذاك ، فممن كان يتعصب لإسحق من المغنين المشهورين فى هذا العصر أحمد بن يحيى المكى ، وله ترجمة[٢] فى كتاب الأغانى وكان إسحق يقدمه ويؤثره ، ولحق عصر المستعين ، وكان ابنه محمد يحذق الغناء على شاكلته ولحق عصر المعتمد . وممن كان ينهج منهج إسحق بُنان ، وكان أخصَّ الناس بالمتوكل والمنتصر ، وكان إذا اجتمع هو وزنام الزامر على الضرب بالعود والزمر أحسنا وفتنا وأعجبا . ومنهم أيضًا عبد الله[٣] بن أبى العلاء ، وقد عُمِّر إلى آخر أيام المعتصد وكانت تقوَّم دابتّه وثيابه إذا ركب بألف دينار ، وابنه أحمد كان من المغنين النابهين . وممن كان على نهج إسحق أيضًا القاسم بن زُرْزور وولده وجوارى آل هاشم وآل الفضل بن الربيع ومَنْ جرى مجراهم ممن تمسَّك بالغناء القديم وحمله كما سمعه[٤] . وممن كان على مثاله أيضًا الزُّبير بن دَحْمان ، وكان متعصبًا لإسحق ، فى حين كان أخوه عبد الله يتعصب لابن المهدى ، فكان كل منهما يرفع من صاحبه ويشيد بذكره ، يقول أبو الفرج : «فعلا الزبير بتقديم إسحق له لجلالته عند الناس وتمكنه منهم وقبولهم منه[٥]» ، وكأن أنصار إسحق كانوا أكثر نفراً إذ كان الذوق العام يميل إلى المحافظة أكثر مما يميل إلى التجديد ، ولم يكن ذلك شيئًا خاصًّا بالغناء ، بل كان عامًّا فيه وفى الشعراء ، فقد كان الشعراء والمغنون جميعًا يستمسكون بالتقاليد الموروثة . وممن كان ينزع منزع إبراهيم بن المهدى ورغباته فى التجديد بالغناء عمرو بن بانه ، المنسوب إلى أمه ، وكان المتوكل أنيسًا به ، ونال منه جوائز كثيرة «وكان يذهب مذهب إبراهيم بن المهدى فى الغناء وتجنيسه ويخالف إسحق ويتعصب عليه تعصبًا شديداً ويواجهه بذلك وينصر إبراهيم بن المهدى عليه »[٦] ، ويقول أبو الفرج إنه علَّم الغناء عشرة من الغلمان ، وطال عمره حتى سنة ٢٧٨ وكان يشاركه فى مذهبه محمد بن الحارث بن بسخنَّر ،

---

(١) أغانى ١٠/٩٦ وما بعدها .
(٢) أغانى ١٦/٣١١ .
(٣) أغانى ساسى ٢٠/١١٤ .
(٤) أغانى (دار الكتب) ١٠/٧٠ .
(٥) أغانى (ساسى) ٢٠/١٤٤ .
(٦) أغانى (دار الكتب) ١٥/٢٦٩ .

وكان من المتعصبين على إسحق ، ويقول أبو الفرج : «أخذ الغناء عن إبراهيم بن المهدى ومن بحره استقى» ، وكان يُغَنِّى على المعزفة فنقله ابن المهدى إلى العود وواظب عليه حتى حذقه[1] ، وكان الخلفاء يسكبون عليه أموالهم سكباً ، وخرّج كثيرات من الجوارى اللائى برعن فى الغناء .

وعلى نحو ما كان المغنون حزبين : حزباً يتبع إسحق الموصلى وحزباً يتبع إبراهيم بن المهدى كذلك كانت المغنيات ، وممن كان يأخذ منهن بمذهب إسحق عَرِيب وجواريها من أمثال تحفة الزمارة وبدعة ، وترجم أبو الفرج ترجمة ضافية لها[2] ذكر فى صدرها أنها كانت نهاية فى الجمال والظَّرْف وحسن الصوت وجودة الضرب وإتقان الصنعة والمعرفة بالنغم والألحان ورواية الأشعار ، اشتراها الأمين من مولاها المراكبى وكان عمرها سبعة عشر عاماً ونظمها فى جواريه الغلاميات ، واشتراها المأمون بعده بخمسين ألف درهم ، ثم اشتراها المعتصم بمائة ألف وأعتقها فهى مولاته ، وظلت تغنّى طوال حياتها وماتت عن سن عالية سنة ٢٧٧ لعهد المعتمد ، وقد أمر على بن يحيى المنجم أن يجمع غناءها الذى صنعته فأخذ منها دفاترها وصُحفها التى كانت سجّلت فيها أصواتها ، وكتب ذلك كله فكان ألف صوت بارع ، واشتهرت جاريتها بدعة[3] بالغناء وإتقانه على طريقة الموصلى ، وعاشت حتى سنة ٣٠٢ . وحاول بعض أعيان بغداد شراءها فطلب إلى على بن يحيى المنجم أن يفاوض عريب فى شرائها بمائة ألف دينار ، وجعل له عشرين ألفاً ، ورفضت بدعة فأعتقتها عريب ، ويقال إنها خلفت مالا كثيراً وجوهراً وضياعاً وعقارات . أما اللائى كن يتعصبن لإبراهيم بن المهدى فعلى رأسهن شارية[4] جاريته ، وكان قد اشتراها بثمانية آلاف درهم ، حتى إذ اخرّجها وذاع صيتها عرض عليه المعتصم فيها سبعين ألف دينار ، فأبى أن يبيعها له ضَنّاً بها ، واشتراها المعتصم بعد ذلك من تركته بخمسة آلاف وخمسمائة دينار . وكان المعتز يأنس لغنائها ، وطالت حياتها حتى لحقت المعتمد ، وكان يأبى أن يلحّن له أشعاره سواها وسوى عريب ، وأمر لها ذات مرة وقد غنته صوتاً بألف ثوب من الثياب الأنيقة . ومن جواريها اللائى

---

(١) أغانى (ساسى) ٨٢/٢٠ .

(٢) أغانى ١٧٥/١٨ وما بعدها .

(٣) أغانى ١٢٥/١٩ وعريب ٣٨ والطبرى . ١٥٠/١٠ والهمدانى ص ١٥ .

(٤) أغانى (دار الكتب) ٣/١٦ وما بعدها .

اشتهرن بالغناء على طريقتها وطريقة ابن المهدى : مهرجان ومطرب وقمرية وشرّة وقد اشتراها المعتمد بعشرة آلاف دينار

وممن كنّ يحسنّ الغناء فريدة[١] زوجة المتوكل وجاريته محبوبة[٢] وقلم[٣] الصالحية وشاجى[٤] جارية عبيدالله بن عبدالله بن طاهر ، وقد نسب إليها كل ما صنعه من الغناء والأصوات . وكانت هناك جماعة كبيرة اشتهرت بالغناء على الطنبور فى مقدمتها أبو حشيشة[٥] الطنبورى الذى عاش إلى عصر المعتمد ، وسليمان[٦] بن القصار الطنبورى ، وكان المعتز أنيساً به ، ويقال إنه غناه يوماً صوتاً فأعطاه مائة دينار مكيّة ومائتين مما ضُرب لخزائنه ، وجحظة البرمكى وله ترجمة طويلة فى معجم الأدباء ، وعمر[٧] الميدانى ولم يكن فى الطنبوريين أصح غناء وأكثر تصرفاً منه ، وعبيدة[٨] الطنبورية ، وكانت تتقن الضرب على الطنبور إتقاناً بعيداً . وكثيراً ما كان يأخذ الغناء شكل جوقة ، وكانت آلات الغناء عادة أربعاً هى العود والجنك والقانون والمزمار ، وقد يوضع مكان القانون الطنبور[٩] . وكثيراً أيضاً ما كان يقترن الغناء بالرقص ، وفى مروج الذهب للمسعودى فصل[١٠] طريف يوضح صلته بالغناء والموسيقى وما كانت ترتفع به الحناجر من أشعار ، وفيه تسمّى أنواع الرقص وفنونه بأسماء أوزان الشعر من مثل الخفيف والرمل والهزج ، وبالمثل كانوا يقيسون الغناء ، مما يدل أقوى الدلالة على الصلة الوثيقة بين الفنون الأربعة : الغناء والموسيقى والرقص والشعر .

وكان للجوارى فى هذا الجو المشبع بالموسيقى والغناء أثر كبير فى شيوع الظَّرف والرقة واللطف ، إذ دفعوا الشباب والشيوخ إلى تمثل كثير من العواطف والمشاعر التى تملأ قلوبهم ليناً وبِراً وعطفاً ووداً ، وقد خلبوا ألبابهم بحديثهن الساحر الذى يصب فى القلوب تارة رحيقاً وتارة حريقاً ، حديث العشق وما يشيع فيه من

(١) أغانى ٤/ ١١٤ .
(٢) أغانى (ساسى) ١٩/ ١٣٢ .
(٣) أغانى (دار الكتب) ١٣/٣٤٧ .
(٤) أغانى (ساسى) ٨/٤٢ ونشوار المحاضرة ١/٦٣ والديارات ص ١١١ وما بعدها .
(٥) تاريخ بغداد للخطيب البغدادى ٣/٥٧ والفهرست ص ٢١٤ .
(٦) أغانى (دار الكتب) ١٤/١١٢ .
(٧) أغانى (ساسى) ٢٠/٦٦ .
(٨) أغانى ١٩/١٣٤ .
(٩) التنوخى على المستطرف ٢/١٤٤ .
(١٠) مروج الذهب ٤/١٣٧ .

العواطف والمواجد ونور الأمل وظلام اليأس وما قد يتحول إليه من حب مادى كثير الشباك : شباك التضرع والأمل والطلب ، وحبّ أفلاطونى نقى كثير الحجُب : حُجبِ الطّهْر واليأس والبراءة ، مما جعل الشعر يكتظ بمعانى الرقة واللطف المفرطين كما يكتظ بالظرف حتى ليصبح للظرفاء تقاليد خاصة فى الزى والنظر وتناول الطعام والشراب ، وقد أفرد لها الوشاء فصلا خاصًا فى كتابه « الموشى » يدل على رقة الحسّ أوسع دلالة . ونستطيع أن ندخل فى فنون الظرف التى أشاعها الجوارى حينئذ إعجابهن بالأزهار وتعلقهن بها وشغف كثيرات منهن بكل زهر وريحان ، حتى لتلحق بالقصور حدائق كثيرة ويقام كثير من البساتين . وألهمت الأزهارُ الشعراء بكثير من الأشعار ، حتى ليصبح وصف الطبيعة بابًا مهمًّا من أبواب الشعر ، وليس ذلك فحسب ، فقد أحس الشعراء فى الأزهار معانى السلوى فى الحب والوصل ودنوه واتصاله وانقطاعه ، إلى غير ذلك من معان لا تحصى ، كأن يحس شاعر فى معنى الورد الخجل لاحمراره ويحس آخر انقطاع الوصل لسرعة ذبوله ، أو يحس شخص فى البنفسج عودة الوصل ورجوعه . وكانوا يتهادون بالأزهار والرياحين دالين بها على أمثال تلك المعانى ، كما كان يحيِّى بها بعضهم بعضًا ، وكثرت التحية عندهم بالتفاح ، وكانت الجارية تترك على التفاحة أثر أخذها بفمها ، وقد تشققها بالمسك أو بالغالية أو بغيرهما من أنواع الطيب ، وقد تكتب عليها بيتًا أو بيتين تدل بهما على اللوعة ، ويقول ابن المعتز [1] :

وآثار وصلٍ فى هواكِ حفظتها ... تحيَّات ريحانٍ وعضَّات تُفَّاحِ

وكن يكتبن أبيات الحب الرقيقة على الثياب والأكمام والقلانس والعصابات والطرر والذوائب والمناديل والبسط والوسائد والأسرة [2] ، ويُرْوَى أن عريب كانت تلبس قميصًا موشحًا بالذهب ، كُتب فى وشاحه :

وإنى لأهواه مسيئاً ومحسناً ... وأقضى على قلبى له بالذى يقضى

فحتّى متى روحُ الرِّضا لا ينالنى ... وحتى متى أيام سخطك لا تمضى

---

(١) الديوان ص ١٣٩ .

(٢) انظر الموشى للوشاء والعقد الفريد (طبعة لجنة التأليف والترجمة والنشر) ٦/٤٢٥ وما بعدها .

وكن يتنافسن فى التهادى بالتحف الجميلة وتبعهم الشباب والرجال . وليس ذلك فحسب ، فقد كن يتثقفن بثقافات العصر ، وعملن على شيوع الثقافة ، إذ كان منهن كثيرات يروين الأشعار والأخبار ، وينظمن الشعر نظماً بديعاً .

٤

المجون والشعوبية والزندقة

رأينا فى كتابنا العصر العباسى الأول كيف كانت موجة المجون حادة ، وقد انتقلت إلى هذا العصر بحدتها ، إن لم تكن زادت حدة فوق حدة ، إذ ظل الناس يُمْعنون فى شرب الخمر واحتساء كئوسها ، مدمنين عليها لا يرعوون ولا يزدجرون . ومعروف أن القرآن الكريم حرَّمها ، ولذلك أجمع الفقهاء على تحريمها ، لمجىء ذلك بنص القران ، وما كان محرَّماً بنصه لا يحلّ منه قليل ولا كثير . أما النبيذ فمسكره محرم أيضاً بالقياس ، غير أن اجتهاد بعض فقهاء العراق الأحناف أداهم إلى تحليل بعض الأنبذة غير المسكرة كنبيذ التمر والعسل والتين والبُسْرِ وكالزبيب المطبوخ أدنى طبخ . فشرب الناس هذه الأنبذة وشربها الخلفاء، وتجاوزوا ما حلَّله الأحناف إلى المسكر المحرم من الأنبذة وغيرها، وفى ذلك يقول ابن الرومى :

أَباح العراقىُّ النبيذَ وشُرْبَهُ ... وقال حَرامان : المُدامَةُ والسُّكْرُ
وقال الحجازىُّ : الشرابان واحدٌ ... فحلَّ لنا من بين قَوْلَيهما الخَمْرُ
سآخذ من قوليهما طرفيهما ... وأشربها لا فارق الوازرَ الوِزْرُ

وابن الرومى يريد بالحجازى الشافعى وبالعراقى أبا حنيفة ، وقد استحدث لنفسه مذهباً ثالثاً لم يحل فيه الأنبذة المسكرة فحسب بل أحلّ أيضاً الخمر ، وساد هذا المذهب لا بين أضرابه من الشعراء فحسب بل بين كثير من الناس ، وإن كان يجب أن نحتاط بالقياس إلى الخلفاء ، وأن نظن أنهم إنما تورطوا فى

---

(١) ديوان ابن الرومى (اختيار وتصنيف كامل كيلانى) ص ٧٨ .

الأنبذة فلم يقفوا عند أنواعها المحللة ، بل شربوا أنواعها المسكرة . وكان المتوكل يعقد فى قصوره مجالس كثيرة للمنادمة والشراب ، وكان يحب الشرب ومن حوله الورود والرياحين [١] وكان المعتز ابنه يزور الأديرة للشراب [٢] ، وكان يشرب فى قصوره بين ندمائه والمغنون يغنون بين يديه ، كما كان يشرب فى البساتين [٣] . وفرغ المعتمد — كما مر بنا فى غير هذا الموضع — للهو والشراب ، ويقول المسعودى : « كان مشغوفاً بالطرب والغالب عليه المعاقرة ومحبة أنواع اللهو والملاهى [٤] ، وديوان ابن المعتز ملىء بالخمر ودنانها وكئوسها وغَبوقها وصَبوحها . وكان القاهر مدمناً شرب الخمر [٥] كما كان مولعاً بالغناء والسماع وجعله ذلك يأمر بأن تباع الجوارى المغنيات على أنهن لا يعرفن الغناء حتى يحصل منهن على من يريد بأرخص الأثمان ، وبالمثل حرم الخمر على الناس وكأنه يريد أن يعبها وحده [٦] ، وكان الراضى عاهد ربه ألا يشرب وظل على ذلك سنتين من خلافته مع إذنه لجلسائه وندمائه بالشرب ، ثم وجدوا له رخصة من يمينه فكفَّر عنها وعاد إلى الشراب ، وآخر الخلفاء المستكفى وكان قد ترك الشراب ، فلما ولى الخلافة دعا به توّاً وعاد إلى شربه [٧] .

وعلى هذا النحو كانت قصور الخلافة فى عصور كثير من الخلفاء كأنها مقاصف للشراب والسماع والغناء ، وبالمثل كانت قصور الأمراء والوزراء وكبار أصحاب المناصب فى الدولة وعلية القوم ، وتورط فيها بعض القضاة عن طريق النبيذ المحلل ، كما تورط كثير من علماء اللغة وغيرهم أمثال ابن دُرَيد ، كان يعكف عليها عكوفاً شديداً ، ويقول أبو حفص بن شاهين : « كنا ندخل عليه فنستحى مما نرى من العيدان المعلّقة والشراب وقد جاوز التسعين » [٨] . وأوغل الشعراء فيها إيغالا . ومن يتصفح كتاب الأغانى لأبى الفرج الأصبهانى يحس أن بعض الناس أدمنوها إدماناً شديداً . وكانوا يعقدون لها المجالس فى المساء والليل والصباح ، وآثروا ألا يقل عدد

---

(١) الديارات ص ١٦٠ وانظر فى صبوح . المنتصر أغانى (ساسى) ١٧/ ١٣٠ .

(٢) الديارات ص ١٦٤ وما بعدها .

(٣) الديارات ص ١٦٦ وما بعدها .

(٤) مروج الذهب ٤/١٣١ .

(٥) النجوم الزاهرة ٣/٢٤٥ .

(٦) ابن الأثير (طبعة أوربا) ٨/٢٠٤ .

(٧) مروج الذهب ٤/٢٦٧ .

(٨) النجوم الزاهرة ٣/٢٤١ .

الندماء عن ثلاثة ، وكان يدور عليهم بها السقاة والساقيات من الغلمان والجوارى وكانوا يزينون مجالس الشراب بالورود والرياحين ، كما كانوا يزينون رءوسهم أحيانًا بأكاليل الزهر .

وكان كرخ بغداد يكتظ بالمقينين وكانوا منبثين أيضًا فى سامراء ، وتحولوا بدورهم إلى ما يشبه حانات كبيرة ، ففيها الخمر ، وفيها القيان المغنيات ، وفيها الجوارى الظريفات الأديبات ، وكان الشعراء يختلفون إلى هذه الدور أو قل إلى هذه الحانات ومثلهم الناس من حولهم فيعبون من كئوسها ويتمتعون بالسماع ومغازلة الجوارى والقيان .

وكانت البساتين حول سامرّاء وبغداد تمتلئ بحانات الخمر والسماع ، وكان الشعراء والناس يختلفون إليها ، وقد يختلون بأنفسهم إلى زاوية فى بستان ويتخذون منها لأنفسهم حانة ، يشربون فيها على أزهار الرياض وأبصارهم تتملّى بجمال الجوارى وآذانهم تتمتع بالسماع ، وكثيراً ما يصور الشعراء هذا المتاع المضاعف بجمال الطبيعة وجمال المرأة ونشوة الخمر من مثل قول البحترى [١] :

اشربْ على زهر الرياض يَشُوبه	زَهْرُ الخدود وزهرةُ الصَّهْباءِ
من قهوةٍ تُنْسِى الهمومَ وتبعث الـ	شَّوْقَ الذى قد ضَلَّ فى الأَحشاءِ

وكان من يعملون بالحانات من الأجانب سواء الرجال والنساء، ويقول الجاحظ : « من تمام آلة الخمار أن يكون ذميًّا وأن يكون اسمه آذين أو مازيار أو أزدانقاذار أو ميشا أو شلوما ويكون أرقط الثياب مختوم العنق » [٢] وتختلط فى النص أسماء فارسية ونصرانية ويهودية . أما الجوارى فكن من القيان الأجنبيات غالبًا ، وكانت تعجّ بهم حانات البساتين وحانات الكرخ ودور المقينين ، والشباب والشعراء يختلفون إليهن ، وكن من أجناس مختلفة ، وقلما كن يشعرن بشىء من الكرامة أو يستشعرن شيئًا من التحفظ والاحتشام ، بل لقد كن يتفنن فى الحيل التى يجذبن بها الرجال ، وكن يستكثرن من الخِلان بطرق غير مستقيمة ، فدفعن إلى

---

(١) الديوان ١ / ٦ .

(٢) البيان والتبيين (طبع مطبعة لجنة التأليف والترجمة والنشر) ١/٩٢ .

كثير من الفجر والمجون ، وكل شيء من حولهن يُغْريهن على هذا السلوك الآثم ، وصوَّر ذلك الجاحظ ، فقال : « كيف تسلم القينة من الفتنة أو يمكنها أن تكون عفيفة ، وإنما تُكْتَسَبُ الأهواء وتتعلَّم الألسن والأخلاق بالمنشأ ، وهى إنما تنشأ من لدن مولدها إلى أوان وفاتها فيما يصدّ عن ذكر الله من لهو الحديث . . . وبين الخلعاء والمجان ومن لا يُسْمَع منه كلمة جِدّ ، ولا يُرْجَعُ منه إلى ثقة ولا دين ولاصيانة مروءة . وتَرْوى الحاذقة منهن أربعة آلاف صوت (أغنية) فصاعداً يكون الصوت فيما بين البيتين إلى أربعة أبيات ، وعددُ ما يدخل فى ذلك من الشعر إذا ضُرب بعضه ببعض عشرة آلاف بيت ، ليس فيها ذكر الله إلا عن غفلة ولا ترهيب من عقاب ولا ترغيب فى ثواب ، وإنما بُنيت كلها على ذكر . . . القيادة والعشق والصبوة والشوق والغُلْمة ، ثم لا تنفكُّ من الدراسة لصنعتها منكبَّة عليها تأخذها من المطارحين الذين طَرْحُهم كله تجميش وإنشادهم مُراودة »[1]. وكان الزوار ينالون منهن ما يريدون ما داموا يقدمون للمقيِّن هداياهم النفيسة ، وكن بلد ورهن يتخذن من بينهم المعشوقين ، فما يزلن يغمزن هذا بعين وذاك بعين ، وما يزلن يُقمن من حولهن الشباك ، وكثير من الشعراء والشباب يتعثَّرون فيها ، وكثيرون كانوا يصلون إلى قلوبهن ، وهن لا يحتشمن ولا يتحرَّجن ، ودائمًا يُقمن حفلات الغناء والموسيقى والرقص .

واستحالت الأديرة فى هذا الجو الماجن إلى دور للعبث واللهو ، وهيأ لها ذلك أنها كانت تقدّم لروّادها الخمور المعتقة . وكانت متناثرة فى ضواحى بغداد وسامراء وغيرهما من مدن العراق ، فحوّلها الشعراء والناس إلى مجالس للخمر والمجون ، وأكثروا من التغنى بها ووصف متاعهم بخمورها ونشوتها وسقاتها من الرهبان والراهبات ، حتى لتُؤَلَّف فى ذلك كتب مستقلة مثل كتاب « الديارات » للشابشتى وهو يكتظ بأشعار ابن المعتز وغيره ، وله يذكر لياليه بالمطيرة إحدى متنزهات سامرَّاء وبالكرخ وحاناته وبدير السوسى وراهباته[2] :

---

(١) انظر ثلاث رسائل للجاحظ نشر فنكل ص ٧١ وما بعدها .

(٢) الديارات ص١٤٩ .

يا ليـالىَّ بالمَطيرة والكَرْ خ ودير السُّوسىِّ بالله عودى
كنتِ عندى أُنموذجاتٍ من الجَنَّ ةِ لكنها بغير خلـود

وكانت هناك أيام سنوية يخرج فيها أهل سامراء وبغداد وغيرهما من مدن العراق للهو والقصف والمجون وهى أيام الأعياد: أعياد الإسلام وأعياد الفرس وأعياد النصارى ، وكانت تشبه كرنفالات ضخمة يلهو الناس فيها لهواً مباحاً وغير مباح ويتفرجون على القصَّاص والحكَّائين وأصحاب المساخر الهزليين ، أما أعياد الإسلام فهى عيد الفطر وعيد الأضحى . وفى ديوانى البحترى وابن المعتز إشارات لهما مختلفة[1]، وأما أعياد الفرس فمن أهمها عيد النيروز فى أول الربيع ، وهو أول السنة الفارسية ، وينوه الشعراء بذكره كثيراً كقول البحترى يهنئ المعتمد به وبلحظات سروره[2]:

لا تَخْلُ من عيشٍ يكرُّ سرورُه أبدًا ونَيْروزٍ عليك معادِ

وكانو يكثرون من التهادى فيه ، ويروى أن المتوكل كان يهدى فيه هدايا متنوعة فيها تماثيل من عنبر وورود حمراء[3]. وكانو يخرجون فيه إلى المتنزهات والبساتين يقصفون ويمرحون ويلهون ملاهى مختلفة . ومن أعياد الفرس عيد المهرجان فى أول الشتاء ، وفيه يقول البحترى[4]:

وكأَن الأَيام أُوثر بالحُسْ نِ عليها ذو المهرجان الكبيرِ

ولابن الرومى قصيدة طويلة يهنئ فيها عبيد الله بن عبد الله بن طاهر به ، وقد حشد فيها كثيراً من فنون اللهو فيه[5]،وكان للفرس عيد يسمى عيد السَّذق كانوا يوقدون فيه النيران على الجبال والتلال ، ويظلون يجمعون لها الأحطاب أياماً ، ومن أشهر ما كان فى هذ العيد احتفال مرداويج الديلمى أمير الجبل فى غربى إيران به ، ويقال كان فى السماط الذى صنعه فيه ألف رأس من البقر[6] .

---

(١) انظر ديوان البحترى ٢/١٠٧١ ، ١٠٩٦ وديوان ابن المعتز ص ١٨١ ، ٢٤٧ .
(٢) ديوان البحترى ٢/٧٣٤ .
(٣) الديارات ص ٥٧ .
(٤) الديوان ٢/٨٨٧ .
(٥) ديوان ابن الرومى (نشر كيلانى) ص ٨٢ .
(٦) مسكويه ٥/٤٧٩ وأبو الفدا فى عام ٣٢٣ وابن الأثير ٨/٢٢٢ .

أمّا أعياد النصارى فكان تقريبًا لكل دير عيد يخرج فيه الناس إليه للهو والمجون والهزل ، وكانت لهم أعياد عامة ، منها عيد الميلاد وكانو يكثرون فيه من إيقاد الشموع والنيران(١) ، ومنها عيد الشعانين أو عيد الزيتونة وهو يقع فى يوم الأحد الذى يسبق عيد الفصح من كل سنة ، وكان النصارى يتقلدون فيه الصلبان ويتوشحون بالمناديل المنقوشة ويحملون بأيديهم الخوص والزيتون . وكان الدير الأعلى فى الموصل يحتفل بهذا العيد احتفالا كبيراً . ومن أعيادهم عيد الفصح ، وعندهم أن عيسى قام فيه بعد الصلب بثلاثة أيام، وكان يحتفل به دير سمالو شرقى بغداد ، ولا يبقى أحد من أهل الطرب واللهو إلا قصده للقصف والمجون ، وفيه يقول محمد بن عبد الملك الهاشمى(٢) :

ولرُبَّ يومٍ فى سمالو تَمَّ لى　　فيه السرور وغُيِّبَتْ أحزانُهُ
فتلاعبتْ بعقولنا نشواتُه　　وتوقَّدتْ بخدودنا نيرانُه
حتى حسبتُ لنا البِساط سفينَةً　　والدَّيْرَ ترقُص حولنا حيطانُه

وكان يقام فى أكتوبر عيد للقديسة أشمونى فى قُطْرَبُّل ، وهى قرية فى شمالى بغداد كانت أشبه بحانة للخمارين، وكان الناس يذهبون من بغداد وسامراء إلى هذا العيد عن طريق الدواب أرضًا والسفن فى دجلة بحراً ، متنافسين فيما يُظْهرونه هناك من زيهم وزينتهم ومباهين بما يُعِدُّونه لقصفهم، وكانوا يضربون فى شط القرية وديرها وحاناتها وأكنافها الخيم والفساطيط وتعزف عليهم القيان وهم يحتسون كئوس الخمر ، وبالمثل كانوا يصنعون فى عيد دير الزندورد بالجانب الشرقى لبغداد ، وفيه يقول جحظة(٣) :

ديرٌ تدور به الأقداحُ مترَعةً　　من كفِّ ساقٍ مريضِ الطَّرْف وَسْنانِ
والعـودُ يتبعه نـايٌ يوافقه　　والشَّدْوُ يُحْكمه غُصْنٌ من البانِ

ولا شك فى أن كل ما قدمنا أعدّ لانتشار المجون والخلاعة فى سامراء وبغداد ،

---

(١) ابن الأثير ٨/٢٢٢ وأبو الفدا فى عام ٣٢٣ .
(٢) الديارات ص ١٤ .
(٣) الديارات ص ٣٣٨ .

إذ كانت الخمر فى كل مكان ومعها القيان والجوارى المبتذلات ، فكان طبيعيًّا أن يعم كثير من الشعر الصريح ، بل المفرط فى إباحيته وفى التعبير عن الغرائز الجسدية . ولم يكن كل ما فى المدينتين العراقيتين الكبيرتين المجون وآثامه ، بل كان هناك تقى كثير ونسك وعبادة ، وهو ما حماهما من السقوط . على أن هؤلاء المجان والخلعاء تورطوا فى آفة مزرية ، هى آفة الشغف بالغلمان المرد ، وهى آفة ورثوها عن العصر العباسى الأول . على أن من أصحاب هذا الغزل المزرى من ارتفعوا به عن أدران المادة ، وجعلوه غزلا أفلاطونيًّا نقيًّا ، وسنفصل القول فى ذلك فى أثناء حديثنا عن شعراء الغزل ، على نحو ما هو معروف عن الفقيه محمد بن داود الأصفهانى وتعلقه بمحمد بن جامع الصيدلانى . ولا بد أن نذكر أن كثيرين من الفقهاء وعلماء الدين والوعاظ كانوا لا يزالون يشددون النكير على المجون وما اتصل به من خمور ومن سماع ، وبتأثيرهم حاول — كما قدمنا — المهتدى أن يحمل الناس على الجادة ، فحرم الشراب ونهى عن القيان والسماع إليهن ، غير أن العامة والخاصة استطالوا حكمه واحتال عليه الأتراك حتى قتلوه بعد سنة واحدة من خلافته ، وصنع صنيعه بأخرة من العصر المتقى ، ولكنه لقى سريعًا المصير نفسه . ويذكر ابن الأثير أنه فى عام ٣٢٣ للهجرة دبر الحنابلة ببغداد حملة شعواء على المجون وفتشوا دور القواد والعامة ، وكانوا كلما وجدوا نبيذاً أراقوه أو آلة للغناء حطموها أو مغنية ضربوها ، وحرموا على الرجال رفقة الصبيان والغلمان[١] .

وظلت مستعرة فى هذا العصر نيران الشعوبية على نحو ما كانت مستعرة فى العصر العباسى الأول ، إذ مضى كثيرون يشيدون بفضائل الشعوب القديمة وحضارتها ومدنيتها ، وفى مقدمتها الفرس بسياساتهم وآدابهم والروم بعلومهم وفلسفاتهم والهند بسحرها ومعارفها الرياضية وغير الرياضية . وانضم إلى هذه الدعوة كثيرون من أبناء الشعوب الأخرى ، من النبط والسريان وغيرهما ، منوهين جميعًا بما كان بديارهم من علوم وآداب وفنون وعمارة . وكأنما ذهبت أدراج الرياح مناداة الإسلام بهدم الفوارق العصبية بين القبائل والفوارق الجنسية بين الشعوب ، وكأنما كان هؤلاء الشعوبيون يبتغون أن يحدثوا صدْعًا لا يلتئم ولا يمكن رأبه بين أفراد الأمة ، وقد لجُّوا فى

---

(١) ابن الأثير ٨/٢٢٩ وما بعدها .

تصوير ما كان عليه الجاهليون — وعرب البوادى لعصرهم — من العيش الخشن ومن الغلظة والأطعمة اليابسة الجافة ، وكيف أن العرب كانوا — ولا يزال كثيرون منهم — بدواً رُعاة أغنام وإبل ، وأين هم من ملك الأكاسرة والقياصرة ؟ وأين هم من الحضارة الفارسية الرومية ؟ وأين هم من علوم الروم والفرس ؟ وكان كثير من العلماء قد كتب فى إفاضة عن مثالب القبائل فى القديم ، فاستغل الشعوبيون ذلك واتخذوا منه أسلحة لدعوتهم ،وحتى فضائل العرب من مثل الكرم والشجاعة حاولوا طمسها ناقضين لها نقضاً .

وتصدَّى الجاحظ وابن قتيبة لهذه النزعة الآثمة وردَّا عليها ردًّا عنيفاً ،أما الجاحظ فعقد فى كتابه « البيان والتبيين » باباً طويلا سماه «كتاب العصا » صوَّر فيه طعن الشعوبية على العرب فى خطابتهم ، إذ كانوا يشيرون فيها بالعصى والمخاصر ، كما كانوا يتكئون على القِسِىِّ ، مما يصرف — فى رأى الشعوبيين — الخاطر ويشغل الذهن فى أثناء الخطابة . وزعموا أن الخطابة ليست ميزة ينفرد بها العرب دون سواهم ، إذ هى فى جميع الأمم حتى الزنج . وزعموا — فيما زعموا — أن الفرس أخطب من العرب وأن لهم فى صناعة البلاغة كتباً متوارثة . وطعنوا على العرب أيضاً فى أسلحتهم الحربية الساذجة بالقياس إلى أسلحة الفرس والروم وما عُرفا به من التنظيمات الحربية وآلات الحرب الضخمة من مثل المجانيق والعرَّادات . وكل ذلك نازعهم فيه الجاحظ فى عنف شديد ، ولكى يبلغ كل ما كان يريد من إفحامهم ومقاومتهم جعل كتابه « البيان والتبيين» ردًّا مفحماً عليهم ، إذ خصصه لعرض الثقافة العربية الخالصة فى صورها المختلفة من الخطابة والشعر والأمثال ، كى يروا رؤية العين ما فى هذه الثقافة من قيم بلاغية وجمالية ، فينتهوا عن مزاعمهم ويثوبوا إلى رشدهم . وأما ابن قتيبة فألف فى الرد عليهم مبحثاً سماه [1] « كتاب العرب أو الرد على الشعوبية » وهو فى مطالعه يذكر أن من أشد الشعوبيين عداوة للعرب قوماً من كتَّاب الدواوين امتعضوا لآداب أقوامهم ، حتى اعتزى أو انتسب نفر منهم إلى أشراف العجم وأساورتهم ، داخلين بذلك فى باب فسيح من الدعوى

---

(١) انظر هذا الكتاب فى رسائل البلغاء لمحمد كرد على (طبع لجنة التأليف والترجمة والنشر) ص ٣٤٤ وما بعدها .

والنسب المتهم لا حجاب عليه ولا مدافع عنه ، ويقول إنهم كانوا يُزْرون على الحكم والأمثال العربية ويتبجَّحون بما يروون عن الفرس واليونان من آداب وعلوم . ولم يكتف بعنفه عليهم فى هذا المبحث الطريف ، فقد عنف بهم فى مقدمة كتابه « أدب الكاتب » مصوراً قصورهم عن النهوض بوظيفتهم الأدبية فى الدواوين لنقص ثقافتهم العربية ، وحاول محاولة طريفة فى كتابه « عيون الأخبار » أن يجمع بين تلك الثقافة والثقافات الأجنبية ليبين أنها كلها ضرورية ولا تعارض بينها بوجه من الوجوه مما قضى على الشعوبية قضاء مبرماً على نحو ما سنُصَوّر ذلك فى الفصول التالية .

ومن أهم الكتَّاب الذين كانوا يستشعرون هذه النزعة الحمقاء سعيد بن حميد بن البَخْتكان ، وكان من أبناء دهاقين الفرس وزعم أنه من سلالة ملوكهم ، وله فى الشعوبية والتعصب لقومه كتب مختلفة ، منها كتاب فضل العجم على العرب وافتخارها [1] . ويبدو أن الجاحظ وابن قتيبة جميعاً استطاعا أن يقضيا قضاء مبرماً على الشعوبية فقلما نسمع بعدهما بشعر شعوبى أو بمن ألف فى الشعوبية وانتصر لها . وقد أشرنا فى كتاب العصر العباسى الأول إلى أن بعض الباحثين أدخل فى هؤلاء الشعوبيين مَنْ يقولون بالتسوية بين العرب وغيرهم ، ويجب أن ينحوا عن هذه الجماعة الضالة ، لأنهم كانوا فى الواقع ينادون بنظرية الإسلام وما دعا إليه من المساواة بين جميع الأفراد فى الأمة عرباً وغير عرب ، مساواة تشمل جميع الحقوق والواجبات بحيث لا يَفْضُلُ مسلم صاحبه إلا بالتقوى والعمل الصالح كما جاء فى الذكر الحكيم : (يأيها الناس إنا خلقناكم من ذكر وأنثى وجعلناكم شعوباً وقبائل لتعارفوا إن أكرمكم عند الله أتقاكم إن الله عليم خبير) . وأيضاً كما جاء فى خطبة حجة الوداع : « أيها الناس إن ربكم واحد ، وإن أباكم واحد . كلكم لآدم وآدم من تراب ، أكرمكم عند الله أتقاكم . وليس لعربى على عجمى فضل إلا بالتقوى » ، وبذلك يتضح أن التسوية بين الشعوب هى نظرية الإسلام ، فلا عربى يفضل أعجمياً ولا أعجمى يفضل عربياً من حيث النسب والقومية ، إذ ليست العروبة ولا العجمة فى الإسلام ميزة تُعلى من شأن صاحبها ، فالناس جميعاً سواسية . وإذن فمن

(١) الفهرست لابن النديم ص ١٨٥

الخطأ أن نَحمل القائلين بالتسوية على الشعوبيين أو على القول بالشعوبية، إنما الشعوبيون هم الذين يُغْلون الأعاجم على العرب وينادون بعدم التسوية حانقين حنقاً شديداً على كل ما هو عربى ، بل إن الضغينة لتأكل قلوبهم أكلا فإذا هم يودون لو ثأروا لآبائهم من العرب حين أزالوا ملكهم ونقضوا عروشهم فردوهم إلى ديارهم على أعقابهم مدحورين . وممن كان يذهب هذا المذهب فى الحماقة والجهالة والعداوة للعرب المتوكلى الشاعر المنسوب إلى المتوكل لأنه كان من ندمائه ، إذ يقول فى شعوبية حاقدة ذميمة[1] :

أنا ابنُ الأكارم من نَسْل جَمّْ   وحائزُ إرثِ ملوكِ العجمْ

وطالبُ أوتارهم جَهْـرةً   فمن نام عن حقِّهم لم أَنَمْ

فقُلْ لبنى هاشمٍ أجمعين   هلموا إلى الخَلْع قبل النَّدمْ

وعــودوا إلى أرضكم بالحجاز   لأكل الضِّباب وَرَعْىِ الغَنَمْ

فإنى سأعلو سريرَ الملوك   بحدِّ الحُسام وحَرْف القَلَمْ

وواضح أن قلب المتوكلى يضطرم حقداً وضغينة على العرب ، حتى ليظن نفسه أنه من أبناء جم أو جمشيد الملك الفارسىّ القديم وأنه قد وُكل إليه أخذ الثأر أو الأثآر من هؤلاء الذين قوضوا ملك آبائه ، وإنه ليتجه إلى حكام الأمة من بنى هاشم مهدداً لهم متوعداً ومنذراً أن يبادروا إلى خلع أنفسهم والعودة إلى موطنهم الأصلى فى الحجاز ، ليعيشوا كما كان يعيش آباؤهم معيشة غليظة خشنة يأكلون فيها اليرابيع والضباب ، ويرعون الأغنام ، على نحو ما يرعى ويأكل نازلة القفر والفلوات ، وكأنه نسى أن بنى هاشم من قريش سكان مكة فى القديم وأنهم لم يكونوا رعاة ولا أهل جفاء وخيام ، ولكنها الشعوبية العمياء الرَّعْناء .

ولعل أسوأ ما أدت إليه هذه الشعوبية الحمقاء الزنا قة والزنادقة الذين كانوا يبغضون العرب وكل ما اتصل بهم من إسلام وغير إسلام . ويوضح ذلك الجاحظ قائلا : « إن عامة من ارتاب بالإسلام إنما كان أول ذلك رأى الشعوبية والتمادى فيه وطول الجدال المؤدى إلى الضلال ، فإذا أبغض شيئاً أبغض أهله ، وإن أبغض تلك اللغة أبغض تلك الجزيرة ، وإذا أبغض تلك الجزيرة أحبَّ من أبغض تلك

---

(١) ضحى الإسلام (الطبعة السابعة) ١/٦٥ .

الجزيرة ، فلا تزال الحالات تنتقل به حتى ينسلخ من الإسلام ، إذ كانت العرب هى التى جاءت به ، وهى السلف والقدوة »[١] . ومرّ بنا فى العصر العباسى الأول أن الزندقة إنما كان يُوصَمُ بها أولا من يتابعون مانى فى عقيدة النور والظلمة وما اتصل بها من مبادئ ، بالضبط كما كانت تطلق عند الفرس . والزنادقة المعتنقون لهذه الأفكارهم الذين كانوا يحاكمون زمن المهدى وابنه الرشيد ، ثم اتسع مدلولها فشملت كل من اعتنق نحلة فارسية من نحل المجوس كنحلة المزدكية وما دعت إليه من التحلل الخلقى والإباحية المسرفة ، واتسعت أوسع من ذلك فشملت كل إلحاد بالدين الحنيف أو بالديانات مطلقًا وكل مجاهرة بالعصيان والإثم والفسق . ومر بنا أيضًا فى العصر العباسى الأول كيف أن المتكلمين — وفى مقدمتهم المعتزلة — تجردوا لجدالهم ونَقْض أقوالهم وآرائهم الخبيثة . وعقدوا لذلك مناظرات كانوا يُفْحمونهم فيها إفحامًا شديداً ، على نحو ما صوّر ذلك الجاحظ عن النظّام فى كتابه الحيوان ، وألّفوا أيضًا الكتب والرسائل الطوال .

ولم تهدأ حركة الإلحاد والزندقة فى هذا العصر التالى ، بل لقد اشتد أوارها ، إذ تحول كثيرون منهم إلى التشكيك فى النبوات عامة ، وكان من أشدهم نفر بدءوا حياتهم فى صفوفهم المعتزلة ، وما زالوا يُبْطنون الإلحاد حتى افتضح أمرهم وانكشف سرهم ، وفى طليعتهم أبو عيسى الوزاق المتوفى سنة ٢٤٧ للهجرة[٢] وكان فى أول أمره معتزليًّا ، وأحس المعتزلة فيه إلحاده فطردوه عنهم ، فتحول شيعيًّا رافضيًّا ، وينعته الخياط بأنه كان مانويًّا يؤمن بأزلية النور والظلمة وقدم العالم[٣] ، ويبدو أنه أنكر النبوات وأن له فى ذلك بعض الرسائل[٤] . وقد أثر تأثيراً واسعًا فى تلميذه أبى الحسين أحمد بن إسحق الرَّاوَنْدى[٥] المولود فيما بين سنتى ٢٠٥ و ٢١٥

---

(١) الحيوان ٧/٢٢٠ .

(٢) مروج الذهب ٤/٢٣ .

(٣) كتاب الانتصار (طبعة لجنة التأليف والترجمة والنشر) ص ١٥٢ .

(٤) انظر مجموعة من النصوص غير المنشورة متعلقة بتاريخ التصوف فى الإسلام لماسينيون (طبع باريس ١٩٢٩) ص ٨٢ .

(٥) انظر فى ابن الراوندى وأستاذه أبى عيسى الوراق كتاب من تاريخ الإلحاد فى الإسلام لعبد الرحمن بدوى (نشر مكتبة النهضة المصرية) وانظر فى ترجمة ابن الراوندى ووفاته مروج الذهب ٤/٢٣ وابن خلكان ومعاهد التنصيص (طبعة بولاق) ١/٧٦ ومرآة الجنان لليافعى ٢/١٤٤ ، ٢٣٧ والنجوم الزاهرة ٣/١٧٥ وشذرات الذهب لابن العماد ٢/٢٣٥ ومقدمة نيبرج لكتاب الانتصار وتاريخ أبى الفدا فى عام ٢٩٣ .

وكان يعتنق فى أول الأمر الاعتزال وصنَّفَ عدداً من الكتب فى مناصرته ونَشْره بين الناس ، ثم تحول عنه إلى التشيع على مذهب الرافضة مثل أستاذه أبى عيسى وصار أعنف خصوم المعتزلة فى القرن الثالث الهجرى ، بل لقد تمادى فى ذلك حتى كفر بالدين وجميع الديانات وألف فى ذلك كتباً مختلفة يسميها صاحب الفهرست باسم الكُفْريات . ولما ارتفع اسمه إلى مسامع الحكام خشى مغبة ذلك وأن يُرْمَى به فى غياهب السجون فاختبأ فى منزل أبى عيسى بن لاوى اليهودى الأهوازى ، وله صنَّف بعض كفرياته ، وما زال مختبئاً بمنزله حتى ترفى على ما يقول المسعودى وابن خلكان حوالى سنة ٢٥٠ للهجرة وقال ابن الجوزى وابن تغرى بردى إنه توفى سنة ٢٩٨ ويرجح التاريخ الثانى ما يذكره ابن الأنبارى فى نزهة الألباء بترجمة المبرد عن كتابه المقتضب وأنه لم يُكتب له الرواج ، لأن ابن الراوندى الملحد رواه .

وسقطت كتب ابن الراوندى فى العصور التالية من أيدى الزمن ، فلم يصلنا منها شىء ، ولكن وصلتنا شذور ومقتطفات فى كتب بعض من ردوا عليه أو من ترجموا له ، من ذلك كتاب المجالس المؤيدية لهبة الله الشيرازى داعى دعاة الفاطميين لعصر المستنصر إذ جلب اقتباسات[1] من كتابه « الزمردة فى دفع النبوات » وفيها نراه يردّ إنكار النبوات إلى البراهمة الهنود تضليلا حتى يبعد التهمة عن نفسه ، وكأنه إنما يتكلم بلسانهم ، وهو يستهل كلامه بأن الله أنعم على الإنسان بالعقل ليميز الحسن من القبيح والخير من الشر ، وإذن فلا داعى للرسل ، لأنهم إما أن يؤكدوا هذا التمييز العقلى الذى يُغْنِى عنهم فيه العقل ، وإما أن يبطلوه أو ينقضوه وحينئذ تكون نبوتهم عبثاً ولا حاجة للإنسان بها ، ويقول إن الرسول عليه السلام أتى بما ينافر العقول من مثل الصلاة وشعائر الحج ومناسكه ، وينفى المعجزات النبوية ، ويزعم أن فصاحة القرآن ليست معجزة وخاصة بالقياس إلى العجم الذين لا يدركون الفصاحة العربية . ويردد نفى المعجزات النبوية وأن الملائكة نصروا رسول الله فى غزوة بدر وأنه أُسرى به إلى بيت المقدس ، ويمضى فى لغو من هذا النوع ، ونرى ابن الجوزى ينقل فى كتابه المنتظم شذرات[2] أخرى من مصنفه الزمردة ،

---

(١) انظر فى هذه الاقتباسات وتحليلها كتاب من تاريخ الإلحاد فى الإسلام ٧٥-١٨٨ .

(٢) راجعها فى كتاب من تاريخ الإلحاد فى الإسلام ص ١١١ .

ويبدو أن ابن تغرى بردى نقلها عنه ، من ذلك أنه كان يقول : « إنا نجد فى كلام أكثم بن صيفى الحكيم الجاهلى أحسن من (إنا أعطيناك الكوثر) و (قل أعوذ برب الفلق) وإن الأنبياء وقعوا (اهتدوا إلى) بطلسمات تجذب كما أن المغناطيس يجذب الحديد أما قوله صلى الله عليه وسلم لعمار : تقتلك الفئة الباغية (كان مع على بن أبى طالب فى صفين وقتله جيش معاوية) : فإن المنجم — فى رأيه — يقول مثل هذا إذا عرف المولد وأخذ الطالع . ويقول ابن الجوزى : «كان ابن الراوندى وأبو عيسى محمد بن هرون الوراق الملحد يتراميان بكتاب « الزمرد » ويدعى كل واحد منهما على الآخر أنه تصنيفه ، وكانا يتوافقان على الطعن فى القرآن[1]» . أما كتابه الكفرى الثانى الذى خصّ به الرد على القرآن فهو كتاب « الدامغ » ، ويقال إنه صنف هذا الكتاب إرضاء لليهودى الذى كان يُؤْويه ، وهو فيه ينكر إعجاز القرآن كما مر بنا فى حديث داعى الدعاة الفاطمى ، ويزعم أن فى كلام الجاهليين ما هو أفصح منه وأبلغ ، ويقول ابن الجوزى إنه بدأ فيه بالطعن فى القرآن وبلاغته حتى لقد زعم — بهتاناً وزوراً كبيراً — أن به أخطاء لغوية .

ولعل فى ذلك ما يصور — من بعض الوجوه — الهجمات العنيفة التى كان يصوّبها الملحدون فى القرن الثالث الهجرى إلى الإسلام والقرآن الكريم بل إلى الديانات عامة . ومن هنا نفهم السر فى أن الخليفة المعتمد حلّف الورّاقين لسنة ٢٧٩ ألاّ يبيعوا كتب الكلام والجدل والفلسفة[2] ، فقد كان من المتفلسفة والمتكلمين من يبطنون الإلحاد[3] والزندقة ويدخلونهما على ما يصنفون من الكتب . وكان أهمّ من نقض على ابن الرّاوندى كفرياته معاصره أبو الحسين عبد الرحيم بن محمد المعروف بالخياط ، وقد نشر له المستشرق نيبرج كتابه « الانتصار والرد على ابن الراوندى الملحد ما قصد به من الكذب على المسلمين والطعن عليهم » ، وكذلك عُنى بالرد عليه معاصره أبو على[4] محمد بن عبد الوهاب

(١) من كتاب تاريخ الإلحاد فى الإسلام ص ١١٣ .

(٢) طبرى ١٠/ ٢٨ وابن تغرى بردى ٣/ ٨٠.

(٣) الفهرست ص ٤٨٧ .

(٤) يقول ابن الجوزى إنه نقض خمسة كتب له فى مقدمتها الزمردة والدامغ . انظر من تاريخ الإلحاد فى الإسلام ص ١٦٢ ويورد الكتاب هنا من نقضوا كتابه فى تفصيل وإسهاب .

الجَبَّائى . وكان أهم من ورث عن ابن الراوندى إلحاده وزندقته وطعنه على الدين الحنيف ، بل على جميع الديانات الطبيب أبو بكر محمد[١] بن زكريا الرازى المتوفى سنة ٣٢٠ ، وكان كيمائيًّا ماهراً إلا أنه اتبع هواه وضل ضلالا بعيداً إذ مضى على هدى ابن الراوندى وأشباهه ينكر النبوات وألف فى ذلك كتابه « مخاريق الأنبياء » وسقط بدوره من يد الزمن ، إلا أن أبا حاتم الرازى أورد فى كتابه « أعلام النبوة » اقتباسات كثيرة منه ردًّ عليها ونقضها نَقضًا ، وقد حلَّلها الدكتور بدوى تحليلا[٢] جيداً ، وأظهر أنه يتابع فى حججه وأدلته ابن الراوندى ، فالعقل يكفى وحده لمعرفة الخير والشر ، ولا حكمة ولا داعى لإرسال الأنبياء ، وأيضًا لا معنى لأن يخص الله نفراً (يريد الأنبياء) من البشر لإرشادهم وتوجيههم ، والناس جميعًا متساوون فى الفطن والمواهب . وبرهانه المنكسر ما ذكره من أن الأنبياء متناقضون فيما بينهم ، زاعمًا أن اختلافهم لم يصدروا فيه عن الله جاهلا بأنه كان من حكمة الله أن يحدث هذا الاختلاف تخفيفًا على الناس ورحمة بهم . وينقد الأديان عامة ويدخل فيها ديانات المجوسية ، كما ينقد الكتب المقدسة ، ويزعم أنها جميعها زاخرة بالتناقض ، وأن خيراً منها للناس العلوم التى استنبطها الفلاسفة والعلماء بعقولهم . وهو خلط بين حاجات البشر المادية وحاجاتهم الروحية . ولعل فى هذا كله ما يصور نشاط الملحدين والزنادقة فى العصر وكان لهم المعتزلة والمتكلمون بالمرصاد فنقضوا آراءهم وأوضحوا ما فيها من فساد وزيف ودحضوها دحضًا .

٥

الزهد والتصوف

يجب ألا يتبادر إلى الأذهان من حديثنا عن الزندقة والشعوبية والمجون فى العصر العباسى الثانى أنه كان عصراً مُلحداً غلبت عليه العنصرية كما غلب المجون

---

(١) انظر فى ترجمته الفهرست ص ٥١٨ وابن أبى أصيبعة والقفطى ص ٢٧١ ودائرة المعارف الإسلامية .

(٢) انظر كتاب من تاريخ الإلحاد فى الإسلام ص ١٩٨ .

والإلحاد وانحلال الأخلاق فإن ذلك إنما كان يشيع فى طبقات خاصة ، أما المجون فكان يشيع فى الطبقة المترفة ،وأما الشعوبية فكانت تشيع بين نفر من أبناء الأعاجم ، وبالمثل الزندقة كانت مقصورة على أفراد . ومن الخطر أن نجعل ذلك كله صفات عامة للمجتمع ، فقد كان المجتمع مجتمعاً إسلامياً ، وكانت الطبقة العامة فيه حسنة الإسلام تتمسك بفرائضه وسننه وشعائره ، ولم تكن تعرف الترف ولا ما يجر إليه من مجون وانحلال وفساد فى الأخلاق ، إنما كانت تعرف الشظف والبؤس والحرمان ، وكانت ساخطة سخطاً شديداً على المجان وعلى الشعوبيين والملحدين من أعداء الإسلام والعروبة .

وإذا كانت الحانات ودور النخاسة اكتظت فى بغداد وسامراء وغيرهما من مدن العراق بالخمر والقيان والضرب على الآلات الموسيقية ، وشركتها فى ذلك البساتين والأديرة من بعض الوجوه فإن مساجد سامراء وبغداد وغيرهما كانت مكتظة بالعبّاد والنسّاك وكانوا أكثر كثرة من المجّان وأهل الفساد . وكان فى كل مسجد حلقة ، بل حلقات لوعاظ مختلفين كانوا لا يزالون يذكّرون الناس بالله واليوم الآخر وأنهم معروضون يوم الحساب فإما إلى الجنة والنعيم وإما إلى النار والجحيم . واختلط الوعظ بقصص دينى كثير على نحو ما صوّرنا ذلك فى كتاب العصر العباسى الأول ، وكثر حينئذ النساك والزهاد فى متاع الحياة الدنيا ، وعاشوا معيشة كلها شظف وتقشف وتبتل وعبادة ، واقرأ فى تراجم الفقهاء والمحدّثين لهذا العصر فستجدهم أو على الأقل ستجد كثرتهم وهم يُعَدّون فى العالم الإسلامى بالمئات إن لم يكن بالآلاف قد أخذوا أنفسهم بالانصراف عن متاع الحياة الدنيا ، بل لكأنما تجرّدوا للجهاد فى سبيل ذلك أسوة بزاهد الأمة الأول محمد صلى الله عليه وسلم ، منتظرين ما عند الله من النعيم الخالد الذى لا يزول . ويكفى أن نرجع إلى ترجمة واحد منهم مثل إبراهيم[1] بن إسحق الحربى ، وكان من كبار المحدثين ، وكان لا يأخذ على محاضراته فى الحديث أجراً من أحد ، إذ عزف عن كل متاع فى الحياة ، وعاش معيشة زاهدة مبالغة فى الزهد إلى أقصى حد ، حتى إنه ليرفض

(١) راجع فى ترجمته تاريخ بغداد ٦/٢٧ ومعجم الأدباء ١/١١٢ والأنساب للسمعانى ١٦٢ وصفة الصفوة ٢/٢٢٨ وشذرات الذهب ٢/١٩٠ والنجوم الزاهرة ٣/١١٦ ويقال : كان يقاس بابن حنبل فى علمه وزهده .

فى إباء أى مال يأتيه من خليفة أو صاحب سلطان أو جاه ، ويُرْوَى أن المعتضد أرسل إليه بعشرة آلاف درهم مع بعض أتباعه ، فردّها ، وعاد الرسول يقول له إن المعتضد يسألك أن تفرقها فى جيرانك ، فقال له : عافاك الله ، هذا ما لم نشغل أنفسنا بجمعه فلا نشغلها بتفرقته ، قل لأمير المؤمنين إن تركتنا أقمنا وإلا تحوّلنا عن جوارك .

وظل يلزمه صداع خمسًا وأربعين سنة بدون أن يخبر به أحداً ، وقد أفنى من عمره ثلاثين سنة لا يأكل إلا رغيفًا واحداً فى اليوم والليلة ، إن جاءته به زوجته أو إحدى بناته أكله وإلا بقى جائعًا ظامئًا إلى الليلة الثانية . وهى درجة رفيعة فى الزهد ، وكان على غراره كثيرون من المحدثين والفقهاء يصومون الدهر ويعيشون على الكفاف بل على أقل من الكفاف كما يعيشون على العبادة والورع .

وأخذت تتسع فى هذا العصر موجة التصوف ، وكانت مقدماتها أخذت تظهر منذ أواخر القرن الثانى الهجرى عند إبراهيم بن أدهم وشقيق البلخى صاحب اليد الطولى فى مبدأ التوكل وإشاعته[1] بين أوائل المتصوفة ومعروف الكرخى الذى أشاع مبدأ المعرفة الإلهية وأنها غاية المتصوف وحدها لا النجاة من عذاب الآخرة[2] . ويعرض القشيرى فى رسالته أقوالا مختلفة فى اشتقاق كلمة صوفى ، وهل هى من الصوف لأنهم كانوا يلبسونه تمييزاً لهم من أهل الرَّفَه والتنعم ، أو هى من الصَّفَاء أو هى من الصُّفَّة نسبة إلى أهل الصفة الذين كانوا ينقطعون للعبادة فى المسجد لعهد الرسول عليه السلام ، ولا يُدْلى القشيرى برأى حاسم ، وذهب البيرونى إلى أنها مشتقة من كلمة صوفيا اليونانية بمعنى الحكمة[3] . ويبدو أن أوجه الآراء الرأى القائل بأن الكلمة مشتقة من الصوف لأن كثيرين من الزهاد فى القرن الثانى الهجرى كانوا يلبسونه ، وشاع لبسه بين المتصوفة بعد ذلك .

ومنذ أواسط القرن الماضى يُعْنَى المستشرقون بدراسة التصوف وبيان التأثيرات الأجنبية التى أثرت فى نشأته وتطوره ، وكان من أسبقهم إلى ذلك فون كريمر ،

---

(١) النجوم الزاهرة ٢/ ٢١ .

(٢) فى التصوف الإسلامى لنيكلسون ترجمة أبى العلا عفيفى وطبع لجنة التأليف والترجمة والنشر ص ٥ .

(٣) ما للهند من مقولة للبيرونى (الطبعة الأوروبية) ص ١٦ .

وكان يذهب إلى أن التصوف يشتمل على عنصرين أساسيين ، عنصر مسيحى وعنصر بوذى هندى ، ويتضح العنصر الثانى — عنده — فى فكرة وحدة الوجود التى تمثلها ، كما يقول ، الحلاج فى أواخر القرن الثالث[١] الهجرى . وذهب نيكلسون فيما بعد إلى أن الحلاج لم يتمثل هذه الفكرة لا هو ولا غيره من متصوفة القرن الثالث. وممن شدد على التأثير الأجنبى جولدتسيهر ، إذ ربط بين التصوف وتعاليم الأفلاطونية الحديثة وما يندرج فيها من مذهب الفيض ووحدة الوجود ، كما ربط بينه وبين البوذية[٢] الهندية . وخفف من حدة القول بهذا التأثير الأجنبى ماسينيون فى بحوثه عن الحلاج ، إذ ذهب إلى أن التصوف نشأ من صميم الإسلام نفسه ، وإن تأثر فى الطريق بمؤثرات الثقافة الهيلينية التى كانت منتشرة فى الشرق منذ ميلاد المسيح[٣] . وبالمثل خفّف من حدة القول بالتأثير الأجنبى نيكلسون ، وإن لاحظه مع مر الزمن ، كما هو الشأن عند ذى النون وتأثره فى رأيه بالأفلاطونية الحديثة إذ كان على علم بالحكمة اليونانية الشائعة فى عصره ، وأيضاً كما هو الشأن عند أبى يزيد البسطامى وتأثره فى رأيه بالفلسفة الهندية الفارسية . على أنه مضى فى بحوثه يُعْلى من شأن التأثير الإسلامى فى نشأة التصوف ، ويقلل من أهمية التأثيرات الأجنبية ، وكان أهم معول هدم به القول بهذه التأثيرات ما كان قد تبادر لكثير من الباحثين من إيمان أبى يزيد البسطامى والحلاج بنظرية وحدة الوجود ، فقد نفاها عنهما ، ولم يثبتها إلا منذ ابن عربى المتوفى سنة ٦٣٨ . وبذلك انتهى إلى القول بأن جميع الأفكار التى وُصفت بأنها دخيلة على المسلمين ووليدة ثقافة أجنبية غير إسلامية إنما هى وليده الزهد والتصوف اللذين نشآ فى الإسلام وكانا إسلاميين فى الصميم[٤] .

وإذن فالتصوف إسلامى فى جوهره وفى نشأته ونموه وتطوره ، وهو الرأى العلمى الصحيح ، ولكى نتصور التصوف فى دقة فى أثناء هذا العصر ، يحسن أن نستعرض أئمته الذين غرسوا مبادئه وأحواله ومقاماته ومصطلحاته فى نفوس العصور التالية ،

---

(١) انظر نيكلسون فى مبحثه عن الحلاج ومقدمة عفيفى .

(٢) العقيدة والشريعة فى الإسلام لجولد تسيهر (طبعة دار الكاتب المصرى) ص١٣٦ وما بعدها.

(٣) راجع مقدمة عفيفى لكتاب نيكلسون السالف .

(٤) انظر مقدمة عفيفى وكتاب فى التصوف الإسلامى فى مواضع مختلفة .

وأولهم الحارث[١] بن أسد المحاسبي المتوفى سنة ٢٣٤ وقد نُشرت له رسائل مختلفة ، وهي تدل بوضوح على أنه جدّد في ربط التصوف بالشريعة على طريقة أهل السنة . وكان يعتنق مذهب الشافعي ويرى أن الرافضة خرجوا على حدود الإسلام وملته ، ولذلك يُرْوَى أنه لما مات أبوه وكان هو في عَوَز وإملاق في حين خلّف أبوه ثروة طائلة رفض أن يأخذ منها درهمًا ، لأن أباه كان رافضيًّا ، وقال : أهل ملتين لا يتوارثان . ومن أهم ما يميزه بين خلفائه ومعاصريه من المتصوفة أنه دعا في قوة إلى محاسبة النفس ومراقبتها ومجاهدتها وتزكيتها باتباع الكتاب والسنة ، وهو أول من فرق بين التوكل على الله وبين الرضا بقضاء الله وأحكامه ، وجعله — وتابعه في ذلك متصوفة العراق — من الأحوال التي لا تكتسب ، على حين جعله متصوفة خراسان من المقامات[٢] ، ورفض أن يفضي التوكل إلى عدم التكسب ، فلا بد من السعي في الأرض سعيًا ينال به الإنسان الفضل والثواب .

وكان يعاصره ذو النون[٣] المصري المتوفى سنة ٢٤٥ ويرى نيكلسون أنه الواضع الحقيقي لأسس التصوف ، إذ هو — كما يقول ابن تغري بردي — أول من تكلم في مصر في الأحوال والمقامات ، ويعمم ذلك نيكلسون ، فيجعله لا أستاذ المصريين وحدهم في التصوف ، بل أستاذ المشارقة أيضًا ، وينقل عن تذكرة الأولياء للجامي حديثه عن العارف والمعرفة ، وفيه قسم المعرفة ثلاثة أقسام : قسما مشتركًا بين عامة المسلمين ، وقسمًا خاصًّا بالفلاسفة والعلماء ، وقسمًا خاصًّا بالأولياء الذين يرون الله بقلوبهم . وبذلك فصّل المعرفة الصوفية عن المعرفة العلمية والفلسفية ، فالأولى قلبية ، تنزع نحو القلب ، وتعتمد على التجربة الحدسية ، والثانية عقلية

---

(١) نشأ في البصرة ثم انتقل في شبابه إلى بغداد ، انظر في ترجمته تاريخ بغداد ٨/٢١١ والأنساب للسمعاني ٥٠٩ وابن خلكان وطبقات الشافعية للسبكي ٢/٢٧٥ ومرآة الجنان ٢/١٤٢ والنجوم الزاهرة ٢/ ٣١٦ والتهذيب لابن حجر ٢/١٣٤ وكتاب طبقات الصوفية للسلمي (طبع باريس) ص ٤٦ .

(٢) انظر باب الرضا في الرسالة القشيرية .

(٣) راجع في ترجمة ذي النون وآرائه الفهرست ص ٥١٧ وطبقات الصوفية للسلمي ص ٢٣ ، وتاريخ بغداد ٨/٣٩٣ وتاريخ دمشق لابن عساكر ٥/٢٧١ ومرآة الجنان لليافعي ٢/١٤٩ والنجوم الزاهرة ٢/٣٢٠ والطبقات الكبرى للشعراني ١ /٥٩ وأخبار الحكماء للقفطي ١٨٥ وشذرات الذهب ٢/١٠٧ ورسالة القشيري في ص ٩ وفي مواضع متفرقة ونيكلسون ص ٧ وما بعدها .

تعتمد على الأفكار كما تعتمد على المنطق . ومن هنا كان التصوف ليس علماً ولا فلسفة ولا مذهباً ، وإنما هو أحوال ومقامات ، ويقال إنه سُئل كيف عرف ربَّه ؟ فقال : « عرفتُ ربِّى بربي ولولا ربِّى لما عرفت ربِّى » ، وسُئل عن الذكر ، فقال : « هو غيبة الذاكر عن الذكر » ، وقال : « ليس من احتجب عن الخلق بالخلوة كمن احتجب عنهم بالله » . وكأنه هو الذى وصل فى قوة بين التصوف وعلم الباطن ، أو قل هو الذى فسح فيه للباطن . وقد قال إنه مقصور على الخواص من أهل الله ومن هنا فرق دائماً بين الخواص والعوام ، ومن قوله : « توبة العوام تكون من الذنوب وتوبة الخواص تكون من الغفلة » . وكان يقول : « إياك أن تكون بالمعرفة مدَّعياً » يقصد معرفة الصوفية القلبية القائمة على الإدراك الحدسى . ومن قوله أيضاً : « الصوفى مَنْ إذا نطق أبان نطقه عن الحقائق وإن سكت نطقت عنه الجوارح بقطع العلائق» وكان يقول إن العارف (الصوفى) لا يلزم ربه فى حالة واحدة وإنما يلزمه فى الحالات كلها . وكانت تجرى فى كلامه ألفاظ المحبة والوجد ، وكان يقول علامة التوكل انقطاع المطامع . وكان يقول : « من علامات المحب لله متابعة حبيب الله فى أخلاقه وأفعاله وأوامره وسننه » . وفى ذلك ما يدل بوضوح على أنه لم يحدث عنده أى انفصام بين التصوف والشريعة ، فهو يكملها بمحتواه وممارساته العملية ، بل هو لا يكون له قوام بدونها ، وبدون ما شرعت من فرائض ونوافل وعبادة وتقوى .

وكان السَّرِىّ[1] السَّقَطى المتوفى سنة ٢٥١ شيخ متصوفة بغداد وإمامهم فى وقته ، وكان تاجراً فهجر التجارة ولزم بيته وانقطع للعبادة ، ويقال إنه أول من تكلم ببغداد فى لسان التوحيد وحقائق الأحوال ، أو هو بعبارة أخرى أول من تكلم فى المقامات والأحوال هناك ، وبذلك يكون أول تال لذى النون تحدث فيها حديثاً مستفيضاً . وكان يقول : « التوكل الانخلاع عن الحول والقوة » و : « من علامات المعرفة بالله القيام بحقوق الله » ، وهو بذلك كان يصل بين التصوف والشريعة ، بل يجعلها قوامه ، ويوضح ذلك أنه سُئل عن المتصوف من هو ؟ فقال :

---

(١) راجع فى ترجمة السقطى طبقات الصوفية للسلمى ص ٤١ وابن خلكان وتاريخ دمشق لابن عساكر ٥/٧١ وطبقات الشعرانى ١/٦٣ .

« هو اسم لثلاثة معان ، هو الذى لا يطفئ نور معرفته نورَ ورعه ولا يتكلم بباطن عن علم ينقضه عليه ظاهر الكتاب ، ولا تحمله الكرامات من الله على هتك أستار محارم الله»[١] ، وهو يذكر الكرامات ولعله لم يكن يريد معناها الدقيق الذى عُرف للكلمة فيما بعد وأن الله يُجْرى على أيدى الأولياء ما يشبه معجزات الأنبياء . وكان يكثر من الحديث عن محبة الله منشداً :

مَنْ لم يَبِتْ والحبُّ حَشْوُ فؤادِهِ لم يَدْرِ كيف تفتُّت الأكْبادِ

ويبدو أنه كان يأخذ نفسه بمجاهدات زهدية وتقشفية عنيفة .

وإذا كان ذو النون هو الذى أدخل فى التصوف بقوة النزعةَ نحو المعرفة الإلهية، فإن أبا يزيد طيفور[٢] بن عيسى البسطامى المتوفى سنة ٢٦١ هو الذى أدخل فيه — على ما يظهر — فكرة الفناء فى الذات العلية ، وقد أثبت له نيكلسون كثيراً من الأقوال من مثل قوله : « للخلق أحوال ولا حال للعارف لأنه مُحيت رسومه وفنيت هُوِيَّته بهُوِيَّة غيره ، وغُيِّبتْ آثاره بآثار غيره » ، وقوله : « خرجت من الحق إلى الحق حتى صاح منى فىَّ : يا مَنْ أنت أنا ! فقد تحققت بمقام الفناء فى الله » . وروى من أقواله التى تنعكس عليها أفكار وحدة الوجود قوله : « سبحانى ما أعظم شانى » وقوله : « خرجتُ من بايزيديَّتى كما تخرج الحية من جلدها ، ونظرت فإذا العاشق والمعشوق والعشق واحد ، لأن الكل واحد فى عالم التوحيد » . ويمكن أن يُرَدَّ هذان القولان وما ساقه نيكلسون من أقوال له أخرى إلى فكرة الفناء . ومما نسبوه إليه أيضاً قصة معراجه إلى السماء وقد قصَّها العطار بالتفصيل إذ رُوى عنه قوله : « صعدت إلى السماء وضربت قبتى بإزاء العرش » . ولا شك فى أنها قصة منحولة عليه هى وأقواله التى قد تفهم منها فكرة وحدة الوجود على نحو ما أشار إلى ذلك الذهبى فى كتابه ميزان الاعتدال إذ قال : « وقد نقلوا عنه أشياء يشك فى صحتها عنه، منها : « سبحانى » و : « ما فى الجُبَّة إلا الله » و : « ما النار ؟! لأستندنَّ إليها غداً وأقول

---

(١) تهذيب ابن عساكر ٦/٧٨ ونيكلسون ص ٢٩ .

(٢) انظر فى ترجمته طبقات الصوفية للسلمى ص ٦٠ وابن خلكان والرسالة للقشيرى فى مواضع مختلفة وطبقات الشعرانى ١/٦٥ وميزان الاعتدال للذهبى ٢/٣٤٦ والنجوم الزاهرة ٣/٣٥ ونيكلسون ص ٢٢ وما بعدها .

اجعلنى لأهلها فداءً ، وما الجنة ؟ ! إنها لعبة صبيان . ونسب إليه أهل بلدته بسطام — فى الجنوب الشرقى لبحر الخزر — أنه زعم أن له معراجًا إلى السماء كمعراج الرسول عليه السلام » . ولعل فى ذلك ما يدل على أنه وضعت على لسانه من قديم أقوال وقصص غريبة ، وكأنه تحول شخصية أسطورية فى تاريخ التصوف ورجاله ، ويبدو أنه كانت تجرى على لسانه شطحات وعبارات موهمة كثيرة أعدّت لأن تصبح له هذه الشخصية ، غير أنه مما لا ريب فيه أنه صاحب فكرة الفناء فى الذات الإلهية ، تلك الفكرة التى أخذت مكانًا مهمًّا فى التصوف الإسلامى . ويبدو أنه أول من أدخل فى التصوف فكرة السكر بجانب فكرة العشق الإلهى ، فى الرسالة القشيرية أن معاصره الصوفى يحيى بن معاذ كتب إليه : « سكرت من كثرة ما شربت من كأس محبة الله » فأجابه : « غيرك شرب بحور السموات والأرض وما روى بعد ولسانه خارج من العطش ، ويقول هل من مزيد »[١] ، وكن ينكر ما يردده الناس عن كرامات الصوفية . وكان يؤمن بأن التصوف لا يقوم بدون الشريعة والمحافظة على فرائضها والصدوع بأوامرها ونواهيها [٢] .

ونشعر أن معالم التصوف ومبادئه أخذت فى الوضوح منذ أوائل النصف الثانى من القرن الثالث الهجرى ، حتى لتنشأ طبقة تحاضر فيها مثل يحيى بن معاذ الذى ذكرناه آنفًا ، ومثل أبى حمزة الصوفى المتوفى سنة ٢٦٩ ، وهو أول من تكلم على رءوس المنابر ببغداد فى اصطلاحات الصوفية من صفاء الذكر وجمع الهمة والعشق والقرب والأنس[٣] ، ومثل أبى سعيد الخراز المتوفى سنة ٢٧٧ وهو أول من توسع فى الكلام عن الفناء[٤] . ويظهر حينئذ حمدون[٥] القصّار النيسابورى المتوفى عام ٢٧١ وقد ذهب بعيداً فى تقشفه ، إذ دعا مريديه إلى سلوك طريق الملامة بأن يتظاهروا

---

(١) الرسالة القشيرية ص ١٤٦ وانظر شذرات الذهب ٢/١٤٣ .

(٢) انظر ترجمته فى ميزان الاعتدال ، ويقول الذهبى : ما أحلى قوله : لو نظرتم إلى رجل أعطى من الكرامات حتى يرتفع فى الهواء فلا تغتروا به حتى تنظروا كيف هو عند الأمر والنهى وحفظ حدود الشريعة .

(٣) النجوم الزاهرة ٣/٤٦ .

(٤) طبقات الصوفية للسلمى ص ٢٢٣ .

(٥) انظر السلمى ص ١١٤ وكتاب الملامتية والصوفية وأهل الفتوة لأبى العلا عفيفى .

باتخاذ أشياء ينكرها الشرع ، حتى يتاومهم العوام من حولهم فلا يقفوا على حقيقة تصوفهم وإخلاصهم لله ، ومنهم انتشر مذهب الملامتية بنيسابور ، إذ يُبْدون فى مظهر المذنبين دائما ، مما أعدّ للقعود — فيما بعد — عن النهوض بفرائض الشريعة . أما فى هذا العصر فنجد المتصوفة دائمًا يعلنون تمسكهم بها ، حتى ليقول سهل ابن عبد الله التسترى الصوفى المتوفى سنة ٢٨٣ : « أصولنا سبعة أشياء : التمسك بكتاب الله تعالى ، والاقتداء بسنة رسول الله صلى الله عليه وسلم ، وأكل الحلال ، وكفّ الأذى ، واجتناب الآثام ، والتوبة ، وأداء الحقوق »[١] وفى رسالة القشيرى أنه كان ينكر الكرامات إنكاراً شديداً .

وأهم صوفى ظهر بأخرة من القرن الثالث الجنيد[٢] المتوفى سنة ٢٩٧ ويُنْعت بالقواريرى الخزّاز ، لأن أباه كان يبيع الزجاج وكان هو يبيع الخزّ ، وأصله من نهاوَنْد بالقرب من همذان ، إلا أن مولده ومنشأه ببغداد ، وهو ابن أخت السرىّ السقطى وعنه أخذ الطريقة ، وأخذها السَّرِىُّ بدوره عن معروف الكرخى . وكان ورده فى اليوم ثلثمائة ركعة وثلاثين ألف تسبيحة ، وفى طبقات الصوفية للسُّلمى أنه كان يقول : « ما أخذنا التصوف عن القيل والقال ، ولكن عن الجوع وترك الدنيا وقطع المألوفات والمستحسنات » . ويقال إنه أقام عشرين سنة لا يأكل إلا من الأسبوع إلى الأسبوع ، وكان يصلى كل ليلة أربعمائة ركعة . وكان يقول : « طريقنا مضبوط بالكتاب والسنة ، ومن لم يحفظ القرآن ولم يكتب الحديث ولم يتفقّه لا يُقْتَدَى به » . وتتردد على لسانه كلمتا الطريق والمريد ، مما يدل على أنه أخذ يشيع منذ العصر العباسى الثانى نظام الطرق والمريدين فى التصوف ، فللإمام الصوفى طريقة ، يحملها عنه مريدوه من تلاميذه وأتباعه وينشرونها فى موطنه وغير موطنه من العالم الإسلامى . وأتاح هذا النظام البقاء لكثير من طرق الصوفية ، وصَبْغها بصبغة جماهيرية شعبية ، وإن كان قد رشّح لأن يكون الارتباط فى الطريقة بالإمام الصوفى نفسه لا بمبادئه وأفكاره ، وبذلك أوجد صلة وثيقة بين الشيخ

---

(١) السلمى ص ٢٠٣ .

(٢) انظر فى ترجمة الجنيد تاريخ بغداد ٧/٢٤١ والرسالة القشيرية فى مواضع مختلفة وابن خلكان والسلمى ص ١٤١ وطبقات الشافعية للسبكى ٢/٢٦٠ ومرآة الجنان لليافعى ٢/٢٥١ والنجوم الزاهرة ٣/١٦٩ وشذرات الذهب ٢/٢٢٨

ومريديه وتلاميذه ، فكانوا يأتمرون بتوجيهاته ، وكانوا يحيطونه بهالة من الإجلال والتوقير ، هيأت فيما بعد لأن تصبح لكل شيخ قداسته . وكان الجنيد يستخدم أسلوباً مليئاً بالمبالغات فى الترغيب والترهيب زاخراً بالألفاظ الطنانة الكثيرة الإيهام والإيحاء، وأخذ عنه تلميذه الحلاج هذا الأسلوب وأصبح ميزة أساسية له فى أقواله وأشعاره ، وهو أسلوب كثرت فيه الشطحات ، ولاحظ ذلك القدماء إذ نرى السراج فى كتابه اللمع يعرض طائفة من شطحات الجنيد ويفسرها تفسيراً بيناً . وأشهر تلاميذ الجنيد الحسين بن منصور المشهور باسم الحلاج وسنعرض له بالحديث فى غير هذا الموضع .

ومن أهم الصوفيين المتأخرين فى العصر الحكيم[1] الترمذى محمد بن على بن الحسن بن بشر المتوفى سنة ٣٢٠ وكان يحاول صنع أسس فلسفية لعلم الكلام ، غير أنه مضى يدرس التصوف وتعمق فيه كما تعمق فى دراسة اتجاهات الشيعة ، وعاش للتصوف يؤلف فيه كتباً كثيرة . ويقال إنه هو الذى أدخل بقوة نظرية الولاية فى البيئات الصوفية وكل ما جرّت إليه من إيمان بكرامات الصوفية أولياء الله وصفوته فى خلقه ، وقد ألف فيها كتاباً سماه ختم الولاية زعم فيه أن للأولياء خاتماً كما أن للأنبياء خاتماً وأن الولاية تفضل النبوة لقوله عليه السلام : « يغبطهم النبيون والشهداء » إذ لو لم يكن الأولياء أفضل منهم ما غبطوهم ! ! وذكر فى الكتاب المذكور أن عيسى يعود فى آخر الزمان ، وبذلك يكون خاتم الأولياء ، وثار عليه أهل بلدته « ترمذ » ففر إلى نيسابور وبها توفى . وقال السبكى : دافع عنه السلمى معتذراً عنه ببعد فهم الفاهمين . وعلى كل حال يُعَدّ الترمذى الحكيم أول من عمل على إشاعة فكرة الاعتقاد بولاية الصوفية وما جرت إليه من تصور الكرامات .

ومنذ أواخر القرن الثالث الهجرى تلقانا ظاهرة جديدة فى بيئات المتصوفة ، فقد كان السابقون منهم لا ينظمون الشعر بل يكتفون بإنشاد ما حفظوه من أشعار المحبين ، وهم فى أثناء ذلك يتواجدون وجداً لا يشبهه وجد ، أما منذ أبى الحسين النورى

---

(١) انظر فى ترجمة الحكيم الترمذى طبقات الصوفية للسلمى ص ٢١٦ وطبقات الشافعية للسبكى ٢/٢٤٥ وطبقات الشعرانى ١ / ١٠٦ ورسالة القشيرى فى مواضع مختلفة وتذكرة الحفاظ للذهبى ٢/٢١٨ .

المتوفى سنة ٢٩٥ فإن صوفيين كثيرين ينظمون الشعر معبرين به عن التياع قلوبهم في الحب آملين في الشهود مستعطفين متضرعين ، مصورين كيف يستأثر حبهم لربهم بأفئدتهم استئثاراً مطلقاً ، نذكر منهم سمنون أبا الحسين الخواص المتوفى سنة ٣٠٣ وأبا على الروذبارى المتوفى سنة ٣٢٢ والشبلى دُلَف بن جحدر المتوفى سنة ٣٣٤ وجميعهم من تلامذة الجنيد .

وواضح مما تقدم أن العصر العباسى الثانى لم يكد ينتهى حتى تأصلت فى التصوف فكرة المعرفة الإلهية ومحبة الله ، كما تأصلت فكرة أن الصوفية أولياء الله ، وسنرى فى موضع آخر كيف أن الحلاج أحاط الرسول عليه السلام بهالة قدسية تشبه الهالة التى يحيط بها المسيحيون المسيح عليه السلام ، وكان لكل ذلك أثر عميق فى حياة التصوف وتطوره على مر الأجيال .

الفصل الثالث

الحياة العقلية

١

الحركة العلمية

دعا الإسلام أمته فى قوة إلى العلم والتعلم ، فبمجرد أن اكتسح العرب العراقَ وإيران والشام ومصر مضوا ينهلون من كل الثقافات والمعارف التى كانت منبثة فى هذه البلدان ، وأسعفهم فى ذلك أنهم عرّبوا شعوبها وأخذتْ بنفسها تعرّب لهم كل مدّخراتها وكنوزها الثقافية ، وتجرّد بعض العرب لمعرفة اللغات الأجنبية التى كانت تحمل تلك الكنوز والمدخرات ، وما ينقضى القرن الثانى الهجرى حتى تكون قد دخلت العربية سيولٌ ثقافية وعلمية لا حصر لها ، مما مكّن العرب أن يتحوّلوا سريعًا إلى أمة علمية تُعْنَى بكل جوانب العلم الذى كان معروفًا عند الأمم القديمة وخاصة الفرس والهنود والسريان واليونان ، وتشارك فيه مشاركة جادّة خصبة ، وتضيف إليه علومًا جديدة تتصل بالقرآن والشريعة والشعر واللغة والنحو والعروض .

ونشط التعليم حينئذ نشاطًا واسعًا فمن تعليم للناشئة بالكتاتيب إلى تعليم للشباب بالمساجد،وكان الناشئة يبدءون بتعلم الخط والكتابة والقراءة ويحفظون بعض السور القرآنية ، ويَنْشُدون بعض الأشعار والأمثال، ويدرسون شيئًا من الحساب والسنن والفرائض والنحو والعروض ، وعُنى معلمو البنات بتحفيظهن القرآن وخاصة سورة النور ، على نحو ما صورنا ذلك كله فى كتاب العصر العباسى الأول نقلا عن

الجاحظ ، وذكر هو وابن قتيبة أسماء طائفة مشهورة من معلمى الكتاتيب ، ونراه يخصُّهم برسالة لا تزال منها بقايا بين رسائله المطبوعة على هامش كتاب الكامل للمبرد ، وفيها يصوّر نوادرهم وحماقاتهم المضحكة ، ومن حينئذ أصبحت شخصية معلم الكُتَّاب تدور بين الشخصيات الهزلية فى أدبنا العربى ، ويقول محمد بن حبيب العالم اللغوى المتوفى سنة ٢٤٥ : إذا قلت للرجل ما صناعتك ؟ فقال : معلم صبيان فاصفعْ ، يشير إلى حماقته ، وكان ينشد :

مَنْ عَلَّم الصِّبيان صَبَّوْا عَقْلَـهُ   حتى بنى الخلفاءِ والخلفاءَ[1]

وصَبَّوا عقله : جعلوه مثل عقلهم : عقل الصبيان حمقًا وبلاهة ، وكأنما تصيب عقله عدوى من عقولهم لطول ملابسته لهم ، وابن حبيب يعمم ذلك حتى فيمن يعلمون أبناء الخلفاء وآباءهم حين كانوا فى المهد صغاراً . ويقول ابن قتيبة إنهم كانوا يعلمون الصبيان على حسب الهدايا التى كانت تأتيهم من آبائهم[2] ، أو بعبارة أدق على حسب الأجور التى كانوا يأخذونها منهم .

وطبيعى ألا تكون حياة معلم الكتَّاب على هذا النحو رافهة ، بل كان كثيراً ما يحفُّ بها الضيق والبؤس على نحو ما يحدثنا الرواة عن أبى زيد البلخى المتوفى عام ٣٢٢ وكان فى بدء حياته معلم كُتَّاب ، وقد شكا شكوى مرة حينذاك من حياته[3] البائسة . وكثير من اللغويين والنحاة قبل أن ينالوا شهرتهم العلمية بدءوا معلمى صبية مثل يعقوب بن السكيت المتوفى سنة ٢٤٣ ، فقد كانت له فى مطالع حياته حلقة فى درب القنطرة ببغداد يؤدّب فيها مع أبيه صبيان العامة[4] . ويخيَّل إلى الإنسان كأنما أولاد العامة جميعًا كانوا يختلفون إلى الكتاتيب لما استقر فى نفوس آبائهم من ضرورة التعلم وأنه مثل الطعام والشراب لا يمكن الاستغناء عنه ، وأن من لم يتعلم فى صغره فاته العلم فى كبره ، ومثَّلوا العلم فى الكبر بالنقش على الماء ، وفى الصغر بالنقش على الحجر يثبت ولا يزول أبداً . وكان الأولاد يكتبون فى ألواح من الآبنوس أو الخشب ، كل على حسب قدرة أبيه

(١) معجم الأدباء لياقوت (طبعة القاهرة) ١١٢/١٨ .

(٢) عيون الأخبار (طبعة دار الكتب المصرية) ٣٩/٤ .

(٣) معجم الأدباء ٦٥/٣، ٨١ .

(٤) تاريخ بغداد للخطيب البغدادى ٢٧٣/١٤ .

المادية ، وكان المعلمون يأخذونهم بالتأديب ، فيضربونهم أحيانًا أو يحبسونهم ، حتى يؤدوا واجباتهم على خير وجه .

وكان معلمو أبناء الخاصة أحسن حالا ومعاشًا من معلمى أبناء العامة ، ومع ذلك نرى الجاحظ يأسى لحالهم إذ يقول : « يكون الرجل نحويًّا عروضيًّا وقَسَّامًا فَرْضِيًّا وحسن الكتاب جيد الحساب حافظًا للقرآن راوية للشعر وهو يرضى أن يعلّم أولادنا بستين درهمًا، ولو أن رجلا كان حسن البيان حسن التخريج للمعانى ليس عنده غير ذلك لم يرض بألف درهم »[١] وهذا إنما ينصب على معلمى أبناء الطبقة الوسطى ، أما من كانوا يعلمون أبناء الخلفاء والوزراء والأمراء والقواد وكبار رجال الدولة والأعيان وكبار التجار فكانوا يحظون برواتب كبيرة ، فمثلا يعقوب ابن السكيت الذى بدأ ، كما أسلفنا ،معلم كتاتيب حين عهد إليه بعض الحكام فى تعليم ابنه جعل له راتبًا شهريًّا خمسمائة درهم وسرعان ما جعلها ألفًا ، واتخذه المتوكل لتعليم ولده وأسنى له الراتب وأجزل فى العطاء[٢]، ولما أسند محمد بن عبد الله ابن طاهر نائب المتوكل على بغداد وجماعة من الخلفاء بعده تعليم ابنه إلى ثعلب الإمام الكوفى النحوى المشهور ظل ثلاث عشرة سنة يتناول الغداء معه على مائدته ، وفرض له أن يأخذ يوميًّا خبزاً فاخراً ولحمًا كثيراً حين انصرافه إلى منزله وجعل له ألف درهم شهريًّا . وقالوا إنه حين مات خلّف واحداً وعشرين ألف درهم وألفى دينار وحوانيت أو دكاكين بباب الشام فى بغداد قيمتها ثلاثة آلاف دينار[٣]، ويقال إن الخاقانى وزير المقتدر أو لم وليمة ضخمة بمناسبة دخول ابن له الكُتَّاب وأعطى المعلم ألف دينار .

ولم تكن هناك مراحل للتعليم مثلنا اليوم ، بل كان الكُتَّاب يحل محل تعليمنا الابتدائى والإعدادى ، ومن يريد أن يكمل تعلمه بعده يختلف إلى حلقات المساجد ، وكانت أشبه بمعاهد عليا ، فلم تكن فقط دوراً للعبادة ، بل كانت أيضًا دوراً ، بل قل جامعات ، للعلم والعلماء ، إذ كان لكل عالم فى كل فرع من فروع

---

(١) البيان والتبين ١/٤٠٣ .

(٢) تاريخ بغداد ١٤/٢٧٣ .

(٣) إنباه الرواة للقفطى (طبعة دار الكتب المصرية) ١/١٤٧ وما بعدها ومعجم الأدباء ٥/١٢٥ .

العلم حلقة كبرى ، يتحلّق فيها طلابه من حوله . وكان عادة يستند إلى أسطوانة فى المسجد ، ثم يملى محاضراته والطلاب يكتبون ، وإذا كانوا كثيرين بحيث لا يسمعه البعيد عنه ردّد مُسْتَمْلٍ كلامه حتى يستطيع البعيدون عنه سماع ما يقوله وكتابته ، وكان العالم لا يغير مكان حلقته الذى اختاره منذ نهض بالتدريس، ويُرْوَى أن نِفْطَوَيْه المتوفى سنة ٣٢٣ ظل يملى دروسه فى اللغة والنحو بجامع المنصور ببغداد خمسين سنة وهو جالس إلى أسطوانة بعينها لا يزايل مكانه منها[١] . وكانت أكثر الحلقات طلابًا حلقات المتكلمين والفقهاء ، أما المتكلمون فلكثرة ما كان يجرى بينهم من مناظرات كان الطلاب يختلفون إليها للفرجة والتعلم ، وأما الفقهاء فلأن الإلمام بالفقه كان الوسيلة إلى تولى مناصب الحِسْبة والشرطة والقضاء والولاية أحيانًا. وكان الطلاب يمسكون فى أيديهم بالأقلام والأوراق للكتابة وأمامهم محابرهم، وكانوا يُعَدُّون بالمئات فى بعض الحلقات ، ويُرْوَى أن الطبرى حين سأله الطلاب الحنابلة عن إمامهم ابن حنبل وخلافه مع بعض الفقهاء وأجابهم بأن خلافه لا يُعَدُّ أو لا يُؤْبَهُ له رموه بمحابرهم وكانت ألوفًا[٢] .

وكانت المساجد حينئذ أشبه بجامعات حرة ، فالطلاب يختلفون إلى من يشاءون الاستماع إليه بدون أى شرط ، منهم من يأخذ الفقه أو الكلام أو الحديث النبوى أو التفسير أو اللغة أو النحو أو الشعر ، وكثير منهم كان يأخذ ما عند شيخ ، ثم يتحول عنه إلى شيخ آخر أو حلقة أخرى ، ويبدو أن بعض علماء النحو واللغة كان يتقاضى من طلابه أجوراً على حسب قدرتهم ، ففى أخبار الزجاج أنه رغب فى تعلم النحو فلزم حلقة المبرد بجامع بغداد لتعلمه ، فسأله أى شيء صناعتك ؟ فأجابه : أخرط الزجاج وكَسْبِى فى كل يوم درهم ونصف ،وأريد أن تهتم بتعليمى وأنا أعطيك كل يوم درهمًا ، وسأظل أعطيك إياه أبد الدهر ، فلزمه وعُنِى بتخريجه ، وطلبت منه أسرة معلمًا شابًّا يعلم أولادهم النحو فسمّاه لهم ، وعلم أولادهم وظل يعطى المبرد فى كل شهر ثلاثين درهمًا ويزيده بما يقدر عليه[٣] . ويبدو أن المبرد كان شحيحًا بعلمه ، إذ فى تاريخه أن المتوكل والفتح بن خاقان وزيره كانا يجزلان له فى العطاء حتى إذا توفيا أجرى عليه محمد بن عبد الله بن طاهر حاكم بغداد راتبًا

(١) معجم الأدباء ١ / ٢٥٦ .
(٢) معجم الأدباء ١٨ / ٥٨ .
(٣) معجم الأدباء ١ / ١٣١ .

شهريًّا ، ويتوفّى فيتابع أخوه عبيد الله الذى خلفه على بغداد إجراء الرواتب عليه ، وهو مع ذلك كله لا يتورع عن أن يأخذ من طالب فقير درهمًا كل يوم .

على كل حال كان المبرد مثله مثل المحاضرين الكبار بالمساجد ترعاهم الدولة وتفرض لهم رواتب شهرية ، وكانوا أنواعًا كثيرة ، فمنهم فقهاء ومنهم لغويون ونحاة ومنهم محدّثون ومفسرون ، ومنهم أدباء يأخذون من كل علم بطرف وعلى أيديهم كان يتخرج الندماء . وكان كل عالم وصاحب فن يأخذ راتبه مع جماعته ، وكان منهم من يُسْلَكُ فى جماعات كثيرة ، فيأخذ مع كل جماعة الراتب الذى تأخذه ، كالزجاج تلميذ المبرد ، فقد جعل المعتضد له راتبًا فى الفقهاء وراتبًا فى العلماء وراتبًا فى الندماء ، فبلغ راتبه من الدولة ثلثمائة دينار شهريًّا[١] . وكان الموفق يُجْرِى على ثعلب راتبًا سنيًّا[٢] . وكان المقتدر يجرى على ابن دريد العالم اللغوى المتوفى سنة ٣٢١ خمسين ديناراً فى كل شهر[٣] . وكان أبو الحسن بن الفرات وزير المقتدر يطلق لطلاب الحديث سنويًّا عشرين ألف درهم[٤] . وكان القضاة ورجال الحسبة من الفقهاء يتقاضون رواتب كثيرة ، حتى ليُثْرِى بعضهم من راتبه ثراء طائلا ، على نحو ماسَرَّ بنا فى الفصل الماضى عن إبراهيم بن جابر القاضى بحلب .

ولم يكن الخلفاء العباسيون ووزراؤهم وحدهم الذين عملوا على تنشيط العلم وإعطاء الرواتب الجزيلة للقضاة والعلماء من كل صنف ، فقد كان يشركهم فى ذلك حكام الولايات ، وفى مقدمتهم أسرة الصفاريين حكام سجستان ، إذ نرى أبا عبد الله البُوشَنْجِىّ شيخ أهل الحديث بنيسابور المتوفى سنة ٢٩١ يذكر أنه أخذ من تلك الأسرة سبعمائة ألف درهم ، ولما دالت دولتهم تحوّل عنهم إلى السامانيين ببخارى ، ففرضوا له راتبًا مجزيًا[٥] ، وقد بعثوا فى إمارتهم بتشجيعهم للعلماء نهضة علمية عظيمة ، ويُرْوَى أن أميرهم إسماعيل بن أحمد السامانى كان يصل محمد بن نصر المروزى إمام المحدثين فى دياره المتوفى سنة ٢٩٤ بأربعة آلاف درهم كل سنة ، وكان أخوه إسحق يصله بمثلها ، كما يصله بمثلها سكان موطنه سمرقند[٦] .

---

(١) الفهرست ص ٩٦ وإنباه الرواة ١ / ١٦١ .

(٢) معجم الأدباء ٥ / ١٤١ وإنباه الرواة ١ / ١٤٢ .

(٣) انظر ترجمته فى ابن خلكان .

(٤) كتاب الوزراء للصابى ص ٢٠١ .

(٥) طبقات الشافعية للسبكى ٢ / ١٩٢ .

(٦) السبكى ٢ / ٢٤٨ .

ولم يكن حكام الولايات يُنْفقون على علماء ولايتهم وحدهم ، بل كانوا ينفقون أيضاً على كل من ينزل بها من العلماء الوافدين الذين قد يقيمون بها شهراً أو أشهراً ، ومن طريف ما يُرْوَى من ذلك أن الرحلة فى طلب الحديث إلى مصر جمعت بين محمد ابن نصر المروزى آنف الذكر ومحمد بن إسحق بن خزيمة النيسابورى المتوفى سنة ٣١١ ، ومحمد بن جرير الطبرى المتوفى سنة ٣١٠ ومحمد بن هرون الرُّويانى المتوفى سنة ٣٠٧ ولم يبق عندهم ما يقوتهم ، فاتفق رأيهم على أن يخرج أحدهم فيسأل لأصحابه الطعام ، وإذا هم بالشموع ورسول من قبل والى مصر يدق عليهم الباب ، وسألهم أين محمد بن نصر فقيل له هو هذا فأخرج صُرَّة فيها خمسون ديناراً فدفعها إليه ثم قال لهم أيكم محمد بن جرير ؟ فقالوا هو هذا ، فأعطاه صرة فيها خمسون ديناراً ، وكذلك صنع مع محمد بن إسحق بن خزيمة ومحمد بن هرون الرويانى ، ثم قال لهم إن الأمير يقسم عليكم إذا نفدت هذه الدنانير أن تبعثوا إليه أحدكم[1]. على أنه يجب أن نعرف أنه كان هناك كثيرون وراء الولاة والوزراء والخلفاء من أعيان الأمة وأثريائها يمدُّون العلماء بالمكافآت والأموال الجزيلة بل ربما أمدوا الطلاب تشجيعاً وحثًّا على طلب العلم ، ويروى أن ابن زرعة قاضى دمشق المتوفى سنة ٣٠٢ كان يهب لمن يحفظ مختصر المزنى فى الفقه الشافعى مائة دينار[2]. وكان ابن ماسى يُنْفذ إلى أبى عمر اللغوى المعروف باسم غلام ثعلب من وقت إلى وقت كفايته[3]، وسنرى فى حديثنا عن علوم الأوائل القناطير المقنطرة من الأموال التى كانت تنفق على الأطباء والمترجمين . ولا بد أن نشير هنا إلى أن نَفَراً من الفقهاء والمحدّثين وحتى من القضاة كانوا يأبون أن يأخذوا على عملهم وتعليمهم أجراً ، كما مر بناء فى الحديث عن زهاد الأمة أمثال إبراهيم الحربى ، وكان كثيرون منهم يعيشون من التجارة أو من الوراقة أو من بعض الحرف الصغيرة . غير أن الكثرة الغامرة كانت تعيش من رواتب الدولة ، وممن وضعوا أنفسهم موضع الحماة للعلوم والآداب من الوزراء والسَّراة، وكان كثيراً ما يهديهم العلماء والأدباء آثارهم ، فيهدونهم بدورهم كثيراً من أموالهم وخير مثل يصور ذلك الجاحظ ، فقد أهدى كتابه « الحيوان » إلى محمد بن عبد الملك الزيات فأعطاه خمسة آلاف

(١) السبكى ٢ / ٢٥١ .
(٢) السبكى ٣ / ١٩٧ .
(٣) السبكى ٣ / ١٩٠ .

دينار ، وأهدى كتابه «البيان والتبيين» إلى أحمد بن أبي دؤاد فأعطاه أيضًا خمسة آلاف دينار ، وأهدى كتابه : « الزرع والنخيل » إلى إبراهيم بن العباس الصولى فأعطاه مثلهما خمسة آلاف دينار . وكلهم كانوا من كبار رجال الدولة . وصنف للفتح ابن خاقان وزير المتوكل رسالته فى فضائل الترك فأجرى عليه راتبًا شهريًّا من خزانة الدولة[١] . وأمثال الجاحظ كثيرون فى كل فن وفى كل علم كانوا ينالون هذه العطايا الجزيلة ويأخذون الرواتب السنية على جهودهم فى المحاضرات للطلاب وفى تأليف الكتب وتصنيفها ، مما أشعل فى نفوس الشباب والناس محبة العلم والعكوف عليه ، حتى يُعَدُّوا من أهله ، وفى شرفه وفضله يقول الجاحظ [٢] :

يطيب العيشُ إذ تَلْقَى لَبيبـاً ... غَذَاه العلمُ والرَّأْىُ المصيبُ
فيكشف عنك حيرةَ كل جَهْلٍ ... وفَضْلُ العلم يعرفه الأَريبُ
سقام الحِرْصِ ليس له دواءٌ ... وداءُ الجهل ليس له طبيبُ

وكانت الطريقة الشائعة فى المحاضرات ، وخاصة محاضرات المتكلمين والمحدّثين واللغويين هى الإملاء ، ويعرض السيوطى لإملاء اللغويين حينئذ ، فيقول : « أملى ثعلب مجالس عديدة فى مجلد ضخم ، وأملى ابن دُرَيْد مجالس كثيرة ، وأملى أبو محمد القاسم بن الأنبارى وولده أبو بكر ما لا يحصى ، وطريقهم فى الإملاء كطريقة المحدّثين سواء ، يكتب المستملى أول القائمة : « مجلس أملاه شيخنا فلان بجامع كذا فى يوم كذا ، ويورد التاريخ ، ثم يورد المُمْلِى بإسناده كلامًا عن العرب والفصحاء فيه غريب يحتاج إلى التفسير ثم يفسّره ، ويورد من أشعار العرب وغيرها بأسانيده ومن الفوائد اللغوية بإسناد وغير إسناد ما يختاره . . . وآخر من علمته أملى على طريقة اللغويين أبو القاسم الزجاجى له أمال كثيرة فى مجلد ضخم ، وكانت وفاته سنة ٣٣٩[٣] » . وبلغ من عناية العلماء المملين حينئذ أن كانوا — وخاصة أهل الحديث — يراجعون ما كتبه تلاميذهم ، ويكتبون لمن يأنسون منهم القدرة على روايته عنهم شهادة بأنهم أجازوا لهم تلك الرواية ، ويسمّى ذلك

---

(١) معجم الأدباء ١٦ / ٧٩ ، ٩٩ وأمالى المرتضى (طبعة الحلبى) ١ / ١٩٥ .

(٢) جامع بيان العلم وفضله لابن عبد البر (طبع إدارة الطباعة المنيرية بمصر) ١ / ٥٨ .

(٣) المزهر (طبعة الحلبى) ٢ / ٣١٣ .

عند المحدّثين باسم الإجازة ، وهى شهادة قيمة على صحة الرواية[١]. وقد يسجل التلميذ على نسخته أنها من سماع هذا الشيخ أو ذاك، وقد يسجل أنه قرأها عليه ، وقد يسجل له ذلك الشيخ . وكان الشيخ أحيانًا يملى عملا له فى بلد ، ثم ينتقل إلى بلدة أخرى ويمليه مضيفًا إليه أو مهذبًا ، وكانوا ينصُّون على ذلك ، مثل معجم الجمهرة لابن دُرَيْد ، إذ نصوا على أنه مختلف النسخ كثير الزيادة والنقصان ، لأنه أملاه مراراً بفارس وببغداد ، فلما تعدد الإملاء زاد المعجم ونقص ، ويقول ابن النديم أصح النسخ نسخة أبى الفتح عبد الله بن أحمد النحوى ، لأنه كتبها من عدة نسخ وقرأها عليه[٢]. وتلك هى أعلى مرتبة فى تحقيقنا العلمى الحديث للكتب، إذ نراجع مخطوطات الكتاب ونعرضه عليها ، ونستخلص منه أصلا صحيحًا غاية الصحة ، وقد اهتدوا مبكرين إلى ذلك يرشدهم نظر علمى سديد . وكان كثير من العلماء حين يُمْلى كتابًا ثم يزيد فيه ويضيف يهمل نسخته أو نسخه الأولى ، ولا يقرئُ سوى النسخة الأخيرة ، على نحو ما يلقانا عند أبى عمرو المطرز، فإنه أملى فى سنة ٣٢٦ كتابه الياقوت فى اللغة ، ثم رأى الزيادة فيه فأملاه على تلاميذه ثانية سنة ٣٢٩ ، ثم رأى أن يضيف إليه بعض إضافات ، فجمع نسخه وعارضها بعضها على بعض سنة ٣٣٢ وجعل هذه العرضة الصورة النهائية للكتاب وأهدر ما سواها من الصور السابقة[٣].

وكان من أهم ما عمل على إشعال الجذوة العلمية وإمدادها بوقود جزل لا ينفد مناظرات العلماء فى المساجد وقصور الخلفاء والوزراء فى الكلام وفى الفقه وفى اللغة والنحو وغير ذلك من العلوم التى كان يشتد فيها الخلاف والجدل . وكان الشباب يختلف فى المساجد إلى هذه المناظرات ، ليتعلم قَرْع الحجة بالحجة وغلبة الخصم بالحق وبالباطل أحيانًا ،وتفيض كتب المتكلمين بأخبار هذه المناظرات وكذلك كتب الفقهاء واللغويين والنحاة وكثيراً ما أثيرت فى أثناء هذه المحاورات بعض القضايا والمسائل كقضية العشق فى مجلس المنتصر[٤] وأنواع اللهو والملاهى فى مجلس المعتمد[٥].

(١) انظر فى أقدم هذه الإجازات كتابنا البحث الأدبى ص ١٥٧

(٢) الفهرست ص ٩٧

(٣) الفهرست ص ١١٩

(٤) مروج الذهب ٤ / ٥٥

(٥) مروج الذهب ٤ / ١٣١

وكان استخدام الورق فى الكتابة وتصنيف الكتب استخداماً عاماً منذ عصر الرشيد عاملا مهماً فى ازدهار الحركة العلمية حينئذ ، فقد كانوا يكتبون قبل عصره غالباً فى الجلود والقراطيس المصنوعة بمصر من ورق البردى وكانوا يكتبون فى ورق الكاغد المستورد من الصين وكان مرتفع الثمن جداً ، فنقلوا صناعته إلى بغداد فى عصر الرشيد ، إذ أنشأ الفضل بن يحيى البرمكى وزيره مصنعاً للورق ، فرخص ثمنه ، وانتشرت الكتابة فيه لخفته ، وسرعان ما كثرت الكتب والمصنفات ، كما كثر الورّاقون الذين يعيشون من نسخها ، وأنشأ كثيرون منهم دكاكين للتجارة فيها ، واختلف إليها الشباب والعلماء لا لشراء الكتب والمؤلفات فحسب ، بل ليقرءوا فيها وينهلوا من مصنفاتها ، وكانوا يكترونها لذلك ويبيتون فيها يقرءون على المصابيح ويقيِّدون أو ينسخون ما يشاءون من الأفكار والصحف والرسائل . وعمل ذلك على نهضة الحركة العلمية نهضة واسعة ، إذ أصبحت الكتب والمصنفات تحت أعين الطلاب والشباب وبأيديهم ، يتزودون منها كما يريدون أزواداً كانت أيسر وأسهل من التلقى عن الشيوخ والعلماء فى المساجد ، إذ كانت تجمع لهم مسائل العلم الذى يريدونه وأصوله وفروعه ، ويصور ذلك الجاحظ مقارناً بين من يطلب الفقه عن طريق الاختلاف إلى حلقات العلماء ومن يطلبه عن طريق الكتب ودكاكين الوراقين ، يقول : « وقد تجد الرجل يطلب الآثار (الحديث) وتأويل القرآن ويجالس الفقهاء خمسين عاماً ، وهو لا يُعَدُّ فقيهاً ولا يُجْعَلُ قاضياً ، فما هو إلا أن ينظر فى كتب أبى حنيفة وأشباه أبى حنيفة ويحفظ كتاب الشروط فى مقدار سنة أو سنتين حتى تمر ببابه فتظن أنه من بعض العمال ، وبالحَرَى ألا يمر عليه من الأيام إلا اليسير حتى يصير حاكماً (قاضياً) على مصر من الأمصار أو بلد من البلدان »[١] . ولرواج هذه التجارة حينئذ اتخذ كثير من العلماء المحاضرين بالمساجد ورّاقين يقيِّدون إملاءاتهم ويذيعونها فى الناس ، ويذكر ابن النديم ورّاقَى المبرد إسماعيل ابن أحمد الزجاجى وإبراهيم بن محمد الساسى[٢] ، ويذكر ياقوت من وراقى الجاحظ زكريا[٣] بن يحيى ، ومن حين إلى آخر تلقانا أسماء هؤلاء الوراقين فى تراجم العلماء وأخبارهم .

---

(١) الحيوان للجاحظ (طبعة الحلبى) ١ / ٨٧ .
(٢) الفهرست ص ٩٥ .
(٣) معجم الأدباء ١٦ / ١٠٦ .

وبجانب الوراقين ودكاكينهم التى كانت تحل حينئذ محل دور النشر والطباعة كانت هناك مكتبات يختلف إليها الناس والشباب فى كل مكان ، ويشيد أبو معشر البلخى المتوفى سنة ٢٧٢ بعناية ملوك الفرس بالمكتبات وما كان بها من كتب مودعة أصناف علوم الأوائل[١] ، وقد ذكرنا فى كتاب العصر العباسى الأول خزانة الحكمة التى شادها ببغداد هرون الرشيد ، وأقام عليها يوحنا بن ماسويه لترجمة الكتب الطبية القديمة ،وكيف تحوّل بها المأمون إلى ما يشبه معهداً علمياً كبيراً إذ ألحق بها مرصداً ضخماً ، ووظّف بها كثيرين للترجمة . وقد تأسست مكتبات كثيرة فى العصر ، منها ما كان عامًّا ، ومنها ما كان خاصًّا ، أما العام فعلى رأسه مكتبات المساجد، إذ كان كثير من العلماء يقفون كتبهم عليها ليفيد منها الطلاب ، وقلّدهم فى ذلك السَّراة . وعُنى بعض المثقفين والعلماء ببناء مكتبات عامة يتزود منها الناس أزواداً علمية مختلفة ،ومن أشهرها حينئذ مكتبة على بن يحيى المنجم نديم الخلفاء من زمن المتوكل إلى زمن المعتمد وكان أديبًا مثقفًا ثقافة واسعة كما كان شاعراً ، وكانت له ضيعة نفيسة بنى فيها قصراً جليلا جعله خزانة كتب عظيمة وسماه خزانة الحكمة مشاكلة لخزانة الرشيد والمأمون ، وكان الناس يؤمونها من كل بلد ، فيقيمون فيها ويعكفون على المصنفات العلمية دارسين ، والكتب مبذولة لهم ، والنفقة مشتملة عليهم من مال على بن يحيى ،فقدم عليها أبو معشر من خراسان يريد الحج ، وهو إذ ذاك لا يحسن شيئًا ذا بال من النجوم ، فلما رآها هاله أمرها ، فأقام بها وأضرب عن الحج ، وتعلم فيها علم النجوم وتعمق فيه حتى ألحد كما يقول ياقوت ، وحتى كان ذلك آخر عهده بالحج وبالدين والإسلام أيضًا[٢] ، ويذكر ياقوت أن جعفر بن محمد بن حمدان الموصلى الشافعى — من أدباء العصر وعلمائه — أسس مكتبة ملأها بكتب من جميع العلوم والفنون ، وقفها على كل طالب للعلم ، وكان لا يمنع أحداً من دخولها ، فهى مفتوحة للجميع ، وإذا ألمّ بها معسرٌ أو بائس فقير صُرِف له ورق للكتابة فيه وفضة أودراهم لمعاشه . وكانت تُفْتَحُ فى كل يوم، وكان ابن حمدان يجلس فى بعض غرفها ، ويحاضر قاصديها ممليًا عليهم من أشعاره وأشعار غيره وحكايات مستطرفة وشذوراً من الفقه وما يتعلق به[٣] . ولا يكاد يكون

(١) الفهرست ص ٣٤٨
(٢) معجم الأدباء ١٥ / ١٥٧
(٣) معجم الأدباء ٧ / ١٩١

هناك عالم أو أريب نابه أو سَرِيّ إلا وله مكتبة خاصة تموج بالكتب ، وكانوا يوظفون لها بعض الوراقين كما كانوا يجلدونها[١] ويتفننون فى العناية بكتابتها وتجليدها ، وكان المانوية شديدى الاهتمام بزخرفة كتبهم[٢] يريدون أن يجعلوها تحفاً فنية استمالة للقراء . ويتوقف الجاحظ فى كتابه « الحيوان » ليعجب من مكتبة إسحق بن سليمان العباسى وما كانت تزخر به من الكتب والأسفاط والرقوق والقماطر والدفاتر والمساطر والمحابر[٣] ، وكانت لابن حنبل مكتبة قُدّرت كتبها باثنى عشر حملا وعدلا[٤] ، أما الفتح بن خاقان وزير المتوكل المتوفى سنة ٢٤٨ فكانت له خزانة كتب جمعها له على بن يحيى المنجم لم يُرَ أعظم منها كثرة وحسناً ، وكان يحضر مجلسه فصحاء الأعراب وعلماء البصرة والكوفة[٥] ، وكانت لثعلب مكتبة حافلة ، قوّم خيران الورّاق ما يساوى عشرة دنانير منها بثلاثة ، ومع ذلك بلغ ثمنها ثلثمائة دينار[٦] ، وكذلك كانت لأبى بكر محمد بن القاسم الأنبارى مكتبة كبيرة ، وسأله بعض أصحابه كم يحفظ منها ؟ قال : ثلاثة عشر صندوقاً[٧] . ونسوق خبراً يدل على عظم المكتبات الخاصة عند بعض الأفراد ، فقد روى الرواة أن أبا عمر غلام ثعلب كان يؤدّب ولد القاضى أبى عمر محمد بن يوسف فأملى عليه ثلاثين مسألة بشواهدها من كلام العرب واستشهد فى تضاعيفها ببيتين غريبين جدًّا ، فعرضهما القاضى أبو عمر على ابن دُرَيْد وابن الأنبارى وابن مِقْسم فلم يعرفوهما ولا عرفوا غالب ما استشهد به من أبيات : وقال ابن دريد : هذا مما وضعه أبو عمر من عنده . فلما جاء أبو عمر ذكر له القاضى ما قال ابن دريد . فطلب من القاضى أن يحضر له ما فى داره من دواوين العرب ، فلم يزل يأتيه منها بشاهد لما ذكره بعد شاهد ، حتى خرج من الثلاثين مسألة وشواهدها ، ثم قال للقاضى : وأما البيتان فإن ثعلباً أنشدناهما وأنت حاضر فكتبتهما فى دفترك فطلب القاضى دفتره ، فإذا هما فيه[٨] وتلك مكتبة قاض كان بها جميع دواوين العرب ، ولو لم تحدث هذه القصة لما عرفنا شيئاً

(١) رسائل الجاحظ (طبع مطبعة لجنة التأليف والترجمة والنشر) ص ٧٤ .
(٢) الحيوان ١ / ٥٥ .
(٣) الحيوان ١ / ٦٠ .
(٤) السبكى ٢ /٢٧ .
(٥) معجم الأدباء ١٦ / ١٧٤ .
(٦) إنباه الرواة ١ / ١٤٨ .
(٧) معجم الأدباء ١٨ / ٣٠٧ .
(٨) السبكى ٣ / ١٩١ .

عنها ، فما بالنا بمكتبات المؤلفين العظام فى العصر ، وكثير منهم ألّف مكتبة ضخمة فلو لم يكن له سوى مؤلفاته لكانت لديه منها خزانة كتب حافلة ، ويكفى أن نذكر مثلا الجاحظ وقد خلف من الكتب العظام وعشرات الرسائل ما يؤلف مكتبة كبيرة . ومما لا ريب فيه أن مكتبته كانت تحتوى المصنفات التى جمع منها المادة اللغوية والأدبية والكلامية لكتبه . ونذكر بجانبه الطبرى ، وقد أحصى بعض تلاميذه الأوراق التى كتبها وألّف منها كتبه ، فقال إنه مكث أربعين سنة يكتب فى كل يوم أربعين ورقة ،وحسب آخرون أوراق كتبه من يوم ولد إلى أن مات فوجدوه كتب كل يوم أربع عشرة ورقة [١] .

ويحس كل من يتعقب الحركة العلمية فى العصر كأن سباقًا نشب بين العلماء والعلم ، فهم يجدُّون فى طلبه وتحصيله وهم يصارعونه صراعًا متصلا يريدون أن يذللوه ويقهروه فى جميع الميادين . وهو صراع كان يداخله شغف شديد به ، كما كان يداخله إيمان بأنه لن يخضع لهم إلا إذا تجرّدوا له وتوفّروا عليه وأمضوا فيه بياض النهار وسواد الليل فى غير كلل ولا ملل ، بل فى حب لا يفوقه حب ، ويحدثنا الرواة عن كثيرين عشقوا الكتب أو بعبارة أخرى العلم عشقًا لا يشبهه عشق ، ويقول أبو هفان : «لم أر قط ولا سمعت من أحبّ الكتب أكثر من ثلاثة : الجاحظ فإنه لم يقع بيده كتاب قط إلا استوفى قراءته كائنًا ما كان حتى إنه كان يكترى دكاكين الوراقين ويبيت فيها للنظر ، والفتح بن خاقان فإنه كان يحضر لمجالسة المتوكل ، فإذا أراد القيام لحاجة أخرج كتابًا من كمه أو خُفّه وقرأه فى مجلس المتوكل إلى حين عَوْده إليه ، وإسماعيل بن إسحق القاضى فإنى ما دخلت إليه إلا رأيته ينظر فى كتاب أو يقلب كتبًا أو يَنْفضها [٢] » .

وهذا الشغف العلمى الشديد هو الذى دفع العلماء إلى الرحلة من بلد بعيد إلى بلد بعيد طلبًا للعلم ،مهما تجشموا فى ذلك من مشاق ،فكان اللغويون يرحلون إلى البوادى محتملين ما فيها من شظف العيش وخشونته فى سبيل جمع اللغة ، وكان الفقهاء يرحلون بدورهم للتتلمذ على أئمتهم ، ومثلهم العلماء المختلفون فى كل فرع من فروع العلم ، ومن خير ما يصور ذلك ما رواه ياقوت عن أبى زيد البَلْخى أحمد

---

(١) السبكى ٣ / ١٢٢ وما بعدها

(٢) معجم الأدباء ١٦ / ٧٥

ابن سهل من أن نفسه دعته وهو فى عنفوان شبابه إلى أن يرحل عن بَلْخ ويدخل أرض العراق ويجثو بين أيدى العلماء ويقتبس منهم العلوم ، فتوجَّه إليها راحلا مع الحاج وأقام بها ثمانى سنوات ، فطوَّف البلاد المتاخمة لها ، والتى الكبار والأعيان وتتلمذ لأبى يوسف يعقوب بن إسحق الكندى ، وحصَّل من عنده علومًا جمَّة ، وتعمَّق فى علم الفلسفة ، وهجم على أسرار علم التنجيم والهيئة ، وبرَّز فى علوم الطب والطبائع وبحث فى أصول الدين[1] » . وأكبر من شُغفوا بالرحلة فى العصر المحدِّثون ، لأن الصحابة كانوا قد نزلوا فى أمصار العالم الإسلامى من إيران إلى المغرب ، وكانوا يروون أحاديث كثيرة عن الرسول حملها عنهم تلاميذهم من التابعين ومن جاءوا بعدهم ، فكان فى كل مصر أحاديث لا تعرفها الأمصار الأخرى ، فرحل مصنفو الحديث وحُفَّاظه فى طلبها من أقصى الشرق إلى أقصى الغرب ، ورحلة البخارى من خراسان إلى مدن إيران والعراق والحجاز والشام ومصر مشهورة ، ومثله بقية المحدثين الذين جمعوا متفرقات الأحاديث فى العالم الإسلامى . وسنرى الرحلة تشيع بين المترجمين إلى بلاد الروم ، كما سنراها تشيع بين الجغرافيين ليصفوا ما شاهدوه بأعينهم ، وكذلك سنراها تشيع بين المؤرخين من أمثال المسعودى .

ويبدو أن الشغف المفرط بالعلم لم يكن مقصوراً على الطبقات الخاصة من العلماء ومن يبتغون من الطلاب أن يكونوا على شاكلة أساتذتهم المتخصصين ، بل كان حظًّا مشتركاً بين الطبقات العامة ، إذ كان العلم مطروحًا فى المساجد مباحًا للجميع ، وكذلك فى المكتبات العامة ، ولم يكن هناك كتاب طريف إلا وتعرضه دكاكين الوراقين . ويدل على ذلك أكبر الدلالة أن من يرجع إلى تراجم العلماء سيجد كثرتهم الغامرة من الطبقة العامة ، وتصور ذلك ألقابهم من مثل الحدَّاد والخزَّاز والقواريرى والتمَّار والقوَّاس والنبَّال والقلاَّل والعطار والمطرّز . وأبعد من ذلك وأعمق أن نجد الجاحظ فى رسالته «الرد على النصارى» يشكو من مناقشة العامة للملحدين والزنادقة فى آرائهم الضالة ، لعدم معرفتهم الدقيقة بتلك الآراء وما يفندها من الأدلة الساطعة ، حتى ليقول : « ومن البلاء أن كل إنسان من المسلمين يرى أنه متكلم وأنه ليس أحد أحق بمحاجة الملحدين من أحد » ، وكأن كل

---

(١) معجم الأدباء ٣ / ٧٢

فرد من أفراد العامة لعصره كان يظن نفسه نال حظًا أوحظوظًا من مناهج المتكلمين فى جدال أصحاب الملل والنحل الضالة . وظاهرة ثانية تدل على مدى تغلغل الثقافة بين جميع أفراد الأمة بلا استثناء، إذ نرى من النساء من يختلفْنَ إلى حلقات المتكلمين [١] والفقهاء وغيرهم ،ويبدو أنه برّزت حينئذ فى الثقافة الدينية غير امرأة حتى انبرى — كما مر بنا — قهرمانة لأم المقتدر، هى ثَمَل ، تجلس فى سنة ٣٠٦ لسماع المظالم والحكم بين المتظالمين ويجلس معها القضاة والعلماء ، واختلف الفقهاء حينئذ فى جواز ولاية المرأة للقضاء ، وأجاز ذلك الطبرى [٢]، وهى فتوى تدل على ما بلغته المرأة من التعمق فى الفقه وعلوم الشريعة لهذا العصر ، ولابن بسام المتوفى سنة ٣٠٣ أبيات يقول فيها [٣] :

ما للنساءِ وللكِتا بةِ والعِمالة والخطابَهْ

وقد يدل البيت على أن من النساء حينئذ مَنْ كُنّ يطالبن بمساواة المرأة بالرجل فى الوظائف المهمة مثل كتابة الدواوين وولاية الأقاليم والخطابة فى المحافل العظام .

ولم تكن هذه الجوانب وحدها ثمار اشتراك الطبقة الشعبية العامة فى العلم والثقافة، فقد كانت هناك ثمرة مهمة غاية الأهمية ، هى محاولة أن يصبح العلم شعبيًا بحيث لا يعلو على أفهام العامة ، وبحيث يصل إليهم من أسهل الطرق وأيسرها ، ويتضح ذلك عند الجاحظ فى كتابه « البيان والتبيين » و « الحيوان » وعند ابن قتيبة فى كتابه « عيون الأخبار» . ومرّ بنا أن الجاحظ أراد بكتابة « البيان والتبيين » أن يردّ على الشعوبية رداً مفحمًا ببيان ما تحمل الثقافة العربية فى الخطابة والشعر والأمثال من قيم بلاغية رائعة ، ونضيف هنا أنه أراد أن يذلل هذه الثقافة بعرضها فى أسلوب عصرى يقرّبها من أفهام العامة بحيث تُسيغها بدون أى عسر أومشقة . وبَوْنٌ بعيد بين عرض هذه الثقافة عند اللغويين من أمثال الأصمعى وأبى عبيدة وأبى زيد وعرضها عند الجاحظ فى البيان والتبيين ، فهى عند الأولين جافة جفافًا شديداً ولا يستطيع غير المتخصصين فهمها والفقه بمسائلها العويصة . أما فى البيان والتبيين فعذبة سائغة لا للطبقة الوسطى من المثقفين فقط . بل أيضًا للطبقة الشعبية الدنيا. وبالمثل عرضه

---

(١) انظر ترجمة الأشعرى فى ابن خلكان .
(٢) الأحكام السلطانية للماوردى ص ١٠٧ .
(٣) صبح الأعشى (طبعة دار الكتب المصرية) ٦٤/١.

لهذه الثقافة فى كتابه الثانى « الحيوان » فهو يقرّب هذه الثقافة من الشعب، بحيث يجد فيها لذة ومتاعاً، وهو يمزج بينها وبين ما عُرف عند أرسطو وغيره من علم الحيوان ، ليتضح أن هذا العلم لم يكن غريباً ولا بعيداً عن العرب، بل لقد استظهروا منه كثيراً فى أشعارهم . وهو لا يقرّب هذا العلم من العامة وحده، بل يقرّب أيضاً علم الكلام ونظريات أصحابه من المعتزلة أمثال النظام ، بل أدق الدقائق من هذه النظريات وما حملت من براهين عقلية سديدة ، وكأنما كان يريد للعامة أن تتمثل هذه البراهين حتى تتسلح عقلياً فى مناقشتها للمسائل ومحاورتها لأصحاب الملل وخاصة النصارى كما أسلفنا منذ قليل . وأما كتاب عيون الأخبار فقد عرض فى مجلداته الأربعة الثقافات المعاصرة له عرضاً بسيطاً سهلا ، حتى يجعل قطوفها دانية للعامة ، وحتى لا يظنوا — كما أشرنا إلى ذلك فى غير هذا الموضع — أن بينها تعارضاً ، فتلك آداب الفرس وتقاليدهم فى السياسة والحكم، وتلك وصايا العرب فى القضاء وغير القضاء وخطبهم وأشعارهم، وتلك أقوال المسيح عليه السلام وأقوال أصحاب الكتب السماوية فى الزهد، وتلك أحكام وقواعد فى الطعام والنبات والحيوان منقولة عن اليونان . وكل ذلك يسوّى منه الكتاب فى لغة سهلة يسيرة واضحة أشد الوضوح ، بحيث تتيح له أن يتغلغل فى طبقة الشعب، وبحيث يتبين فى وضوح أنه لا توجد حواجز ولا سدود بين الثقافة العربية والثقافات الأجنبية وما قد يُظَنّ من ذلك كله إنما هو أقواس وهمية . وبلغ من قرب هذا الكتاب من نفوس جميع طبقات الشعب الخاصة والعامة أن أكبّ الناس على ما فيه من آداب الفرس وأهملوا كل ما صوّر هذه الآداب من كتب أخرى ، إذ استطاع ابن قتيبة أن يعطيها صبغة شعبية تجعلها واضحة كل الوضوح، كما استطاع أن يَكْسُوَها بأساليبه البديعة ثوباً عربيًّا ناصعاً ، بحيث أصبحت فى ثوبها الجديد أنصع وأبهى وأنضر من ثوبها القديم .

٢

علوم الأوائل : نقل ومشاركة وتفلسف

تحدثنا فى كتاب العصر العباسى الأول عن حركة الترجمة فيه وكيف أنها شملت كل ما استطاع العرب نقله من علوم الهند والفرس واليونان، وكان أكثر ما نقلوه عن الفرس والهند فى مجال الفلك والرياضيات ، ونقلوا عن اليونان

إما عن اليونانية مباشرة وإما عن السريانية والفارسية مجموعات العلوم التى تتصل بهم من الرياضيات والعلوم الطبيعية ، وسرعان ما أخذوا يشاركون فى هذا التراث فإذا يوحنا بن ماسويه ينفذ إلى إضافة مباحث جديدة فى التشريح ، وإذا هم يضعون لحركات الأفلاك زيجات وجداول جديدة أكثر دقة من المأثورات الفارسية واليونانية ، وإذا محمد بن موسى الخوارزمى ينشئ عصراً جديداً فى التاريخ العالمى للرياضيات فيكتشف علم الجبر وقواعده ويعطيه اسمه الذى عُرف به فى العالم كله . والدولة هى التى هيأت لذلك كله منذ أبى جعفر المنصور ، فقد شجعت على الترجمة والنقل بكل الوسائل، ولم يلبث هرون الرشيد أن أنشأ دار الحكمة وجلب إليها المترجمين من مدرسة جنديسابور الفارسية ومن السريان والفرس ، وخلفه المأمون فاستحالت هذه الدار جامعة كبرى ، إذ ألحق بها مرصداً ومكتبة ضخمة ، وأرسل البعوث إلى بيزنطة وبلاد الروم تأتيه بالمأثورات اليونانية المختلفة، وأخذت هذه المأثورات تستولى على معظم النشاط فى النقل والترجمة ، حتى أصبحت لها نهائيًّا الغلبة على المأثورات الفارسية والهندية .

وأشرنا فى حديثنا عن الترجمة فى العصر العباسى الأول إلى ما تُرجم عن اليونانية من الأصول المختلفة ، فقد ترجمت فى الرياضيات النظريات الفلكية الإغريقية ومن أهم مصنفاتها التى عُنى النقلة بترجمتها كتاب المجسطى لبطليموس الإسكندرى ، كما عنوا بترجمة كتاب الأصول لأقليدس فى الهندسة ، وترجموا كثيراً من المؤلفات اليونانية فى العلوم الطبيعية وخاصة ما اتصل عند أرسطو بعلم الحيوان وبوصف النباتات مما يهم الصيادلة ، وترجموا فى الطب مصنفات جالينوس وبقراط . وترجموا لكثيرين من اليونان غير أرسطو ، فترجموا لأفلاطون وغير أفلاطون مصنفات مختلفة . ويلاحظ أن العرب استعانوا فى هذه الترجمة بالسريان ، وكانوا قد نقلوا إلى لغتهم قبل الإسلام كثيراً من المأثورات اليونانية ، وتصادف أن أخذ وها من علماء المذهب الأفلاطونى الجديد ، مع ما أضافوه إليها من شروح اقتبسوها من آراء أفلاطون أو من الأفلاطونية الجديدة المتأثرة بفيثاغورس أو بالرواقيين . وليس ذلك فحسب ، فإن السريان فيما يبدو نسبوا إلى أرسطو وأفلاطون كتبًا كثيرة، ونُقلت إلى العرب بهذه النسبة الخاطئة، مثل كتاب

الربوبية المنسوب خطأ إلى أرسطو ومحوره بحوث فى النفس والإنسان تُمْزَجُ بقصص كثيرة وبقواعد فى السياسة والصحة والتغذية . على أن كثيراً مما نسبوه إليه صحيح وخاصة ما يتصل بالطب والحيوان والعلوم الطبيعية . وكلما تقدمنا مع الزمن كثر الاهتمام به وبترجمة آثاره ، حتى غدا المعلم الأول للعرب وعلمائهم وفلاسفتهم المختلفين ، وخاصة فى علم المنطق والطبيعيات ، أما فى الرياضيات فكان أساتذتهم فيها فيثاغورس وبطليموس وأقليدس .

ويذهب العصر العباسى الأول ، ونمضى فى العصر العباسى الثانى فنجد حركة النقل والترجمة تزداد حدة وقوة وتنمو الترجمة عن اليونانية نمواً عظيماً ، ويتم لها الانتقال من الترجمة الحرفية التى تمتلىء بالعثرات والصعوبات اللفظية إلى ترجمة الفقر والعبارات بالمعنى ترجمة دقيقة . وهذا هو السر فى أننا نجد كثيراً فى ترجمات المترجمين أنهم أعادوا ترجمة هذا الكتاب أو ذاك مما ترجمه الحجاج بن مطر وغيره من مترجمى العصر العباسى الأول . ويخيل إلى الإنسان أنهم لم يتركوا حينئذ كتاباً يونانياً فى أصله اليونانى أو فى ترجمته السريانية إلا ترجموه إلى العربية . وكان الذى أذكى الترجمة والنقل حينئذ الأموال الضخمة التى كان يُغْدقها المتوكل وغيره من الخلفاء على المترجمين ، ويكفى أن نذكر ما أهداه المتوكل إلى حنين بن إسحاق المتوفى سنة ٢٦٤ فإنه أهداه ثلاث دور من دوره وحمل إليها كل ما تحتاج إليه من الأثاث والفرش والآلات والكتب وأنواع الستائر الأنيقة وأقطعه بعض الإقطاعات وجعل له راتباً شهرياً خمسة عشر ألف درهم غير ثلاثة خدم من الروم وغير ما أسبغه على أهله من الأموال والخلع والإقطاعات[١] . وكان الوزراء بدورهم يغدقون على المترجمين أموالا كثيرة ، سواء أهدوا إليهم بعض ترجماتهم أو بعض ما ألفوه على هدى ما قرءوه فى اللغتين اليونانية والسريانية ، وفى أخبار قسطا بن لوقا أنه أهدى إبراهيم بن المدبر كتابين كما أهدى الحسن بن مخلد وزير المعتمد كتاباً[٢] . وفى أخبار إسحق بن حنين أنه كان منقطعاً إلى القاسم بن عبيد الله وزير المعتضد[٣] . وكان ثابت بن قرة لا ينقطع عن إسماعيل

---

(١) طبقات الأطباء لابن أبى أصيبعة (نشر مكتبة دار الحياة ببيروت) ص ٢٧٠ .

(٢) ابن أبى أصيبعة ص ٣٣٠ .

(٣) ابن أبى أصيبعة ص ٢٧٤ .

ابن بلبل وزير المعتمد وله ألّف مقالة فى الهندسة.[١] وكان كثير من الأطباء يكلفون المترجمين نقل كتب طبية أو كتب تتصل بالطب ، يقول ابن أبى أصيبعة : « وكان مما نُقلت له الكتب اليونانية وترجمت باسمه جماعة من أكابر الأطباء مثل يوحنا بن ماسويه وجبرائيل بن بختيشوع وابنه بختيشوع وداود بن سرابيون وسلمون بن بنان واليسع وإسرائيل بن زكريا بن الطيفورى وحبيش بن الحسن »[٢] . وكانت هناك أسر وأفراد كثيرون يَعُدُّون أنفسهم حماة للترجمة والمترجمين ، وكانوا يتنافسون فى هذه الحماية مع أنفسهم ومع الخلفاء ، ذكر منهم ابن أبى أصيبعة طائفة[٣]، منها على[٤] بن يحيى المنجم صاحب خزانة الحكمة التى سبق أن تحدثنا عنها ، وأحمد بن المدبر . وممن نوّه بهم القدماء طويلا فى هذا الجانب بنو موسى[٥] بن شاكر وهم محمد والحسن وأحمد ، وكان الأول والثانى يُشْغَفان بالهندسة فى حين شُغف الثالث بالحيل (الميكانيكا) وكان لهم مرصد أسسوه على دجلة ، وكانوا يُغْدقون رواتب شهرية على جماعة من المترجمين بينهم حنين بن إسحق وحبيش ابن أخته وثابت بن قرة ، ويقال إنها كانت تبلغ فى الشهر خمسمائة دينار[٦] . وكل هذا الاهتمام بالترجمة والإنفاق عليها والتنافس فيها أحدث ازدهاراً عظيماً لها فى العصر العباسى الثانى فقد أكبَّ المترجمون على المأثورات الإغريقية فى كل فروع العلم والفلسفة يترجمونها ، وكادوا لا يبقون كتاباً بدون ترجمة وبدون شرح أو تلخيص . ومن يرجع إلى ابن أبى أصيبعة والقفطى تهوله الكثرة الغامرة مما ترجموه ، إذ يبلغ أحياناً عند المترجم الواحد مئات الكتب والرسائل ، سوى ما ألّفوه وصنفوه .

وأهم المترجمين حينئذ وأشهرهم حنين[٧] بن إسحق المتوفى سنة ٢٦٤ وكان طبيباً

---

(١) ابن أبى أصيبعة ص ٣٠٠ .
(٢) ابن أبى أصيبعة ص ٢٨٤ .
(٣) ابن أبى أصيبعة ص ٢٨٣ .
(٤) انظر أيضاً تاريخ الحكماء للقفطى (طبعة ليبزج) ص ١٣٢ .
(٥) راجع فى بنى موسى ابن أبى أصيبعة ص ٢٦٠ والفهرست ص ٣٩٢ والقفطى ص ٣١٥ ، ٤٤١ والعلم عند العرب لألدومييلى (نشر الجامعة العربية) ص ١٣٩ .
(٦) ابن أبى أصيبعة ص ٢٦٠ وانظر ترجمة الرازى ص ٤١٤ وكثرة من ألف الكتب بأسمائهم وأهداها إليهم .
(٧) انظره فى الفهرست ص ١٢٣ والقفطى ص ١٧١ وابن أبى أصيبعة ص ٢٥٧ وألدومييلى ص ١٣٢ ، ١٣٩ وتاريخ الفلسفة فى الإسلام لدى بور (طبع لجنة التأليف والترجمة والنشر — الطبعة الرابعة) ص ٣٧ .

مسيحيًّا نسطوريًّا من مدرسة جنديسابور ، رحل إلى بلاد الروم وتعلم اليونانية وكان يجيد بجانبها السريانية والفارسية والعربية ، وهو وابنه إسحق[١] وابن أخته حبيش[٢] أكثر المترجمين فى العصر إنتاجًا ، وكانوا يعملون معًا ، فنسبت بعض الترجمات لهذا تارة ولذاك تارة أخرى . وكان يعاونهم تلاميذ كثيرون ، يدل على ذلك ما جاء فى ترجمة حنين من أن الخليفة المتوكل « جعل له كتّابًا نحارير عالمين بالترجمة يترجمون بين يديه وهو يتصفح ما ترجموا ، وفى مقدمتهم أصطفن بن بسيل[٣]» ، ويبدو من اسمه أنه يونانى الأصل . وكان حنين يُشْغَف بترجمة الكتب الطبية ، وقد ترجم لجالينوس منها عشرت إلى العربية والسريانية ، غير ما أصلحه لتلاميذه من آثاره مما ترجموه إلى اللغتين . ويصور لنا فى مقدمة بعض الكتب التى ترجمها مدى دقته العلمية فى الترجمة إذ كان لا يزال يجمع للكتاب الذى يريد ترجمته كل ما يمكنه من نسخ ، حتى إذا اجتمعت له قابل بينها وعارض عباراتها بعضها على بعض واستخلص للكتاب ترجمة دقيقة[٤] . وكان ابنه إسحق يعنى بترجمة الكتب الحكمية والفلسفة ، فلم يقف عنايته مثله على الكتب الطبية ، ولذلك كثرت ترجماته لأرسطو وأقليدس وأرشميدس وبطليموس . أما حبيش فعُنى مثل خاله بترجمة الكتب الطبية . واشتهر أصطفن بأنه كان أول من ترجم كتاب ديوسقريدس فى النبات وكتاب أوريباسيوس فى الأدوية المفردة[٥] .

وبجانب هذه المدرسة الكبيرة للترجمة وأستاذها حنين كان هناك مترجمون يفوقون الحصر ، من أشهرهم ثابت[٦] بن قرة المتوفى سنة ٢٨٨ ومن أهم ما ترجمه كتاب الأصول لأقليدس ، ويقول ألدومييلى إن النص العربى يصلح النص الإغريقى فى

(١) راجع الفهرست ص ٤٢٩ والقفطى ص ٨٠ وابن أبى أصيبعة ص ٢٧٤ ودى بورص ٣٧ وألدومييلى ص ١٤٢ .

(٢) انظر الفهرست ص ٤٢٨ والقفطى ص ١٧٧ وابن أبى أصيبعة ص ٢٧٦ ودى بورص ٣٧ وألدومييلى ص ١٤٢ .

(٣) ابن أبى أصيبعة ص ٢٦٢ والقفطى ص ١٧١ .

(٤) انظر أصول نقد النصوص ونشر الكتب لبرجسترا سر (طبع مطبعة دار الكتب المصرية) ص ٩٤ .

(٥) القفطى ص ٧٤ وألدومييلى ص ١٤٢ .

(٦) راجع الفهرست ص ٣٩٤ والقفطى ص ١١٥ وابن أبى أصيبعة ص ٢٩٥ ودى بورص ٣٧ وألدومييلى ص ١٤٢ .

مواضع مختلفة ، وترجم كتاب أرسطو فى النبات تفسير نيقولاوس ، وله كتاب قرسطون فى نظرية الميزان واعتدال الأجسام الميكانيكية ، وكان له أثر كبير فى لاتينية العصور الوسطى كما يقول ألدوميلى ، ومن مصنفاته كتاب الذخيرة فى الطب ألفه لابنه سنان . ومن أنبه المترجمين حينئذ قسطا[١] بن لوقا البعلبكى المتوفى سنة ٣٠٠ وكان مسيحيًّا من أصل يونانى ، ومن ترجماته شرح الإسكندر الأفروديسى وشرح جون فيلوبون على السماع الطبيعى وكتاب آراء الفلاسفة المنسوب إلى فلوطرخس وكتاب الحيل لهيرون المنشور فى ليبزج سنة ١٩٠٠ وكان قد ترجمه للخليفة المستعين. وترجم لإبراهيم بن المدبر كتابه الجامع فى الدخول إلى علم الطب غير كتب أخرى ألفها أو ترجمها لكثيرين . وله رسالة صغيرة فى الفرق بين النفس والروح ترجمت إلى اللاتينية . وخاتمة هؤلاء المترجمين النابهين أبو بشر متى[٢] ابن يونس ، وكان من أصل يونانى ، وقد عُنى بترجمة جميع آثار أرسطو فى المنطق وغير المنطق ، وترجم له كتاب الشعر ترجمة مضطربة ، لأنه يدور — كما هو معروف — حول المأساة اليونانية ، ولم يكن العرب ولا المترجمون حينئذ يتصورونها ، ولذلك يكون لمتى عذره فى اضطراب ترجمته لهذا الكتاب[٣]. وقد انتهت إليه رياسة المنطقيين فى عصره ، وله مناظرة فى المنطق والنحو مع السيرافى سنة ٣٢٠ احتفظ بها ياقوت فى معجمه[٤].

وبمتى بن يونس ينتهى عصر الترجمة العظيم ، ومنذ أوائل هذا العصر ، بل منذ عصر المأمون ، يشارك العرب فى علوم الأوائل التى ترجموها ، بحيث يظهر عندهم علماء يزاحمون العلماء الأوائل عند الأمم القديمة بمناكب ضخمة ، ويكفى أن نذكر محمد بن موسى الخوارزمى وابتكاره لعلم الجبر الذى أشرنا إليه فى غير هذا

---

(١) انظر الفهرست ص ٤٢٤ والقفطى ص ٢٦٢ وابن أبى أصيبعة ص ٣٢٩ ، وألدوميلى ص ٤٢٤ والقفطى ص ٢٦٢ وابن أبى أصيبعة ص ٣٢٩ وألدوميلى ص ١٥٥ ، ١٦٥ ودى بورص ٣٩ .

(٢) راجع الفهرست ص ٤٢٩ وابن أبى أصيبعة ص ٣١٧ والقفطى ص ٣٢٣ وعبد الرحمن بدوى فى كتاب فن الشعر لأرسطو مع الترجمة العربية القديمة لمتى بن يونس نشر مكتبة النهضة المصرية .

(٣) انظر كتابنا البلاغة تطور وتاريخ (طبع دار المعارف) ص ٧٦ .

(٤) انظر معجم الأدباء ١٨٠/٨ .

الموضع والذى ليس له سابقة عند علماء الأوائل ، وله شروح على كتاب أقليدس فى الهندسة وكتاب بطليموس فى الجغرافية ، وقد خلّف فيها أول كتاب عربى جغرافى سماه صورة الأرض ، ونشطت الكتب والمباحث الجغرافية منذ هذا التاريخ المبكر. ومع افتتاح هذا العصر العباسى الثانى يؤلف عبيد الله بن خرداذبة الفارسى الأصل كتابه « المسالك والممالك » وهو يصرح فى مطالعه بأنه اعتمد فى بيان حدود الأرض ومسالكها على كتابات بطليموس . وأخذ غير عالم يتناول هذا الموضوع ، تناوله أبو عبد الله الجيهانى وأبو زيد البلخى ، وأهم منهما ابن الفقيه ، غير أنه لم يذكر إلا المدائن العظمى ولذلك سمّى كتابه « البلدان » . وأدق منه وأمهر علميًّا اليعقوبى أحمد بن يعقوب العباسى ، إذ نراه فى كتابه الذى سماه أيضًا باسم البلدان يعتمد على الرحلة والطواف ببلاد ديار الإسلام واصفًا لها وصف المشاهد المتثبت من الأخبار. وبذلك تم تكامل علم الجغرافيا عند العرب . واهتموا حينئذ بإفراد جزيرة العرب وجغرافيتها ببعض الكتب على نحو ما نجد عند الهمدانى المتوفى سنة ٣٣٤ فى كتابه « صفة جزيرة العرب » .

وعلى نحو ما نهضوا حينئذ بعلم الجغرافيا نهضوا بالرياضيات والفلك ، يتقدمهم محمد بن موسى الخوارزمى ، ومن تلاميذه فى مرصد المأمون حبش الحاسب ، وله جداول فلكية مهمه . ومن نابهى الفلكيين فى أواسط العصر أحمد ابن محمد بن كثير الفرغانى وكتابه : « أصول الفلك » له ترجمات كثيرة إلى اللاتينية ، وترك هناك تأثيراً كبيراً حتى عصر كوبرنيقوس [١] ، وله كتب مختلفة فى الإسطرلاب. ومن الفلكيين الذين اشتهروا حينئذ شهرة واسعة أبو معشر البلخى المتوفى سنة ٢٧٢ وكان له تأثير واسع فى العرب ومسيحيي العصور الوسطى وترجمت له كتب كثيرة إلى اللغة اللاتينية [٢] . ومن الفلكيين النابهين فى العصر الفضل [٣] بن حاتم النيريزى المتوفى سنة ٣١٠ وكان متقدمًا فى علم الهندسة وهيئة الأفلاك وحركات النجوم وله شروح على أصول أقليدس ترجمها جيرار دى كريمونا ونشرها كورتزه فى ليبزج سنة ١٨٩٩ وله شروح أيضًا على كتاب بطليموس فى الفلك وزيج على مذهب

(١) ألدوميلى ص ١٦٧ وانظر فى ترجمة الفرغانى الفهرست ص ٤٠٣ والقفطى ص ٢٨٦ .

(٢) ألدوميلى ص ٢٦٩ وراجع ترجمته فى الفهرست ص ٤٠٠ والقفطى ص ١٥٢.

(٣) انظر فيه ألدوميلى ص ١٥٥ ، ١٦٢ والفهرست ص ٤٠٣ والقفطى ص ٢٥٤ .

الهند وكتابها « السند هند » وكتاب سمت القبلة أو معرفة اتجاهها . وكان يعاصره البتّانى[١] محمد بن جابر بن سنان المتوفى سنة ٣١٧ « ولا يُعلَم أحد فى الإسلام بلغ مبلغه فى تصحيح أرصاد الكواكب وامتحان حركاتها » وكان له مرصد فى الرقّة على نهر الفرات ، وله زيج جليل ضمّنه أرصاد النيرين وإصلاح الحركات المثبتة لهما فى كتاب المجسطى لبطليموس ، وتُرجم زيجه إلى اللاتينية ، وقد لخص نلّينو أهمية مباحثه الفلكية وتصحيحه لبطليموس كثيراً من أخطائه فى دراسته القيمة عنه بدائرة المعارف الإسلامية .

وبالمثل نهضت العلوم الطبية والطبيعية وكانت تشمل حينئذ الصيدلة والكيمياء ، وقد أنتج العصر العباسى الأول أكبر كيميائى فى تلك الحقب القديمة ، وهو جابر بن حيان ، وسبق أن ألممنا به فى كتابنا عن العصر المذكور ، وكان قد تُرْجم كتاب الحيوان لأرسطو وعلى هديه ألّف الجاحظ كتابه « الحيوان » فى هذا العلم ، وحلّل بلاسيوس هذا الكتاب فى مجلة إيزيس العدد الرابع عشر سنة ١٩٣٩ مبيناً ما يشتمل عليه من الطبيعة الكيمائية وعلم الحيوان وعلم الإنسان[٢] . وظل المترجمون يتوفرون على ترجمة كتب الصيدلة والكيمياء والطب ، وكل يحاول تصحيح ترجمة من سبقه وإفادة الأطباء بكل ما يستطيع . ومرّ بنا أنهم كانوا يشجعون بأموالهم الغدقة الترجمة وأن كثيراً من الكتب تُرجم باسمهم . ومن أهمهم بختيشوع[٣] ابن جبرائيل بن بختيشوع ، وبلغ من كثرة ثرائه أنْ كان يضاهى الخليفة المتوكل فى الزينة والفرش والمأكل والمشرب ، ويقال إنه وصف للمتوكل دواء فى بعض وعكاته فأمر له بثلثمائة ألف درهم وثلاثين تختاً من الثياب ، ونقل له حنين كثيراً من كتب جالينوس الطبية . وكان يعاصره سابور[٤] بن سهل المسيحى صاحب بيمارستان جنديسابور المتوفى سنة ٢٥٥ واشتهر بكتاب له فى الصيدلة كان يقع فى ٢٢ باباً وظل الأطباء والصيادلة يعتمدون عليه حتى ظهر كتاب ابن التلميذ فى القرن السادس .

---

(١) انظر فيه ألدوميلى ص ١٥٥ ، ١٦٨ والفهرست ص ٤٠٣ والقفطى ص ٢٨٠ .

(٢) ألدوميلى ص ٩٦ .

(٣) راجع فيه الفهرست ص ٤٢٧ والقفطى ص ١٠٢ وابن أبى أصيبعة ص ٢٠١ وفى القفطى أنه كان يلبس الجبة المثقلة بالوشى قيمتها ألف دينار .

(٤) انظر فى سابور الفهرست ص ٤٢٧ والقفطى ص ٢٠٧ وابن أبى أصيبعة ص ٢٣٠ وألدوميلى ص ١٧٠ ، ١٧٢ .

ومن كبار الأطباء فى العصر سنان[1] بن ثابت بن قرة الذى أسلم على يد الخليفة القاهر بالله ، وقد عاش حتى سنة ٣٣١ وتقلد مارستانات بغداد الخمسة سنة ٣٠٤ وبنى فى سنة ٣٠٦ مارستانين كبيرين ، أحدهما للخليفة المقتدر وكانت نفقته مائتى دينار فى كل شهر والثانى لأمه وكانت النفقة عليه شهريًّا ستمائة دينار وأقام للوزير ابن الفرات مارستانًا ثالثًا ببغداد سنة ٣١١ كانت النفقة عليه شهريًّا ، مائتى دينار ، وبنى لبجكم حاكم بغداد سنة ٣٢٩ مارستانًا رابعًا ببغداد على الشاطئ الغربى لدجلة وزوّده بالأطباء والأدوات المختلفة . ومن طريف ما يُرْوَى أن نجد حامد بن العباس أحد وزراء الخليفة المقتدر يأمره أن يفرد أطباء للمسجونين يزورونهم يوميًّا ومعهم الأدوية والأشربة ، وظل ذلك تقليداً مرعيا حتى نهاية العصر ، ونراه يأمره أيضًا بإرسال متطببين إلى الفلاحين فى سواد العراق بحوض دجلة والفرات يطوفون به ويقيمون فى كل جانب منه المدة التى تدعو إليها الحاجة ، ومعهم خزانة الأدوية والأشربة . ويبدو أن المتطببين كثروا فى العصر ، حتى ليذكر ابن أبى أصيبعة أن عددهم فى جانبى بغداد وحدها بلغ فى سنة ٣١٩ ثمانمائة رجل ونيفًا وستين سوى من كان فى خدمة السلطان .

وطبيب المسلمين غير مدافع فى العصر ، كما يقول القفطى ، هو أبو بكر محمد[2] بن زكريا الرازى المتوفى حوالى سنة ٣٢٠ وُلد كما يتبين من اسمه بالرى ، وسبق أن عرضنا له فى حديثنا عن الزندقة وألممنا بكتابه « مخاريق الأنبياء » وقد بدأ حياته بدراسة العلوم الرياضية ، ثم اشتغل بالكيمياء والطب ، وعمل فى بيمارستان موطنه وبيمارستانات بغداد وتنقل فى مدن إيران وخراسان ، وألف باسم كثيرين من الأمراء وذوى الجاه طائفة من كتبه المهمة ، وتُرْجم إلى اللاتينية كثير من كتبه الطبية وظل حجة الطب غير مدافع حتى القرن السابع عشر ، وما زال المستشرقون يُعْنَوْن به وبآثاره حتى اليوم وقد نُشر فى باريس سنة ١٩٣٣

---

(١) راجع سنان بن ثابت فى الفهرست ص ٣٩٤ ، ٤٣٥ والقفطى ص ١٩٠ وابن أبى أصيبعة ص ٣٠٠ والنجوم الزاهرة ٣/١٩٣ ، ٢٧٩ .

(٢) انظر فى ترجمته المراجع المذكورة فى حديثنا عنه بين الزنادقة فى الفصل السابق ، وراجع دى بورص ١٤٧ والدومييلى ص ١٧١ – ١٧٨ .

فهرس كتبه الذى ذكره البيرونى ومنه تبين أنه خلّف فى الطب ٥٦ كتاباً وفى الطبيعيات ٣٣ وفى الفلسفة ١٧ وفى الرياضيات ١٠ وفى الميتافيزيقا ٦ وفى المنطق ٨ وفى علم الكلام ١٤ وفى الكيمياء ٢٣ وأكبر كتبه فى الطب كتابه الحاوى ، وهو دائرة معارف طبية ضخمة ، وقد ترجمت منه أجزاء إلى اللاتينية ، واستخرج منه ماكس ما يرهوف ٣٣ ملاحظة إكلينيكية لها خطرها . ويلى هذا الكتاب الطبى فى الأهمية كتابه المنصورى الذى أهداه إلى الأمير السامانى بخراسان المنصور بن إسحق ، وهو كتاب نفيس ، تُرجم إلى اللاتينية مراراً فى العصور الوسطى وعصر النهضة . وتُرجم له أيضاً إلى اللاتينية مراراً كتابه فى الجُدَرى والحصبة ، وهو بحث طبى رائع فى الوبائيات ، وله ترجمات حديثة إلى الإنجليزية والفرنسية والألمانية . ولم يُعْنَ بالطب الجسمى وحده فقد عنى أيضاً بالطب النفسى ، إذ ألف كتاباً فى الطب الروحانى نشرته جامعة القاهرة ، وهو فيه يُكْبِر من شأن العقل عارضاً النقائص الخلقية التى تسبب الأمراض والعلل النفسية مبيناً أن المصاب بها إذا حكّم معياره العقلى موازناً بين نفعه وضرره تخلص من تلك العلل والأمراض وفارقته إلى غير مآب . وكان ينصح الأطباء أن يوهموا مرضاهم أنهم أصحاء وإن لم يثقوا بذلك لأن مزاج الجسم فى رأيه تابع لأخلاق النفس . وكان يهتم بالكيمياء معلناً أن الفيلسوف لا يكون فيلسوفاً حقاً إلا إذا تعلم صناعة الكيمياء ومهر فيها ، وله فيها كتب مختلفة كما قدمنا . وكان يؤمن بخمسة مبادئ قديمة تأثر فيها بفلاسفة اليونان مثل إنباذوقليس وأنكساجوراس وهى : الله تعالى والنفس الكلية والهيولى الأولى والمكان المطلق والزمان المطلق ، وكان يؤمن بقدم هذه المبادئ وأنه لا بد منها لوجود العالم .

وكان طبيعياً وقد نُقلت الفلسفة اليونانية إلى العربية أن تصبح للعرب بدورهم فلسفة ذات طوابع مستقلة ، ومر بنا أن ما تُرجم إليهم من تلك الفلسفة صُبِغ بالصبغة الأفلاطونية الجديدة عن طريق تأثر السريان بها ، وكان ذلك سبباً فى أن تشوب فلسفتهم تلك النزعة . ولعل أول فيلسوف عربى بالمعنى الدقيق لكلمة فيلسوف نلتقى به فى هذا العصر هو الكندى[1] يعقوب بن إسحق ، وهو عربى أصيل من

---

(١) انظر فى الكندى الفهرست ص ٣٧١ والقفطى ص٣٦٦ وابن أبى أصيبعة ص ٢٨٥ ودائرة المعارف الإسلامية وبحثاً للشيخ مصطفى عبد الرازق فى مجلة كلية الآداب بجامعة القاهرة لعام=

قبيلة كندة ، ولذلك لُقب فيلسوف العرب ، نشأ بالبصرة ثم تركها إلى بغداد ويبدو أنه أكبَّ فى نشأته على الاعتزال ، ولعل ذلك ماجعل نجمه يأفل فيما بعد حين أفل نجم المعتزلة لعهد المتوكل. ولا تُعْرَفُ سنة وفاته ويبدو أنه عاش حتّى أواخر العقد السادس من القرن الثالث. وله كتب ورسائل تعد بالعشرات بل بالمئات ، وهى تبلغ عند ابن النديم نحو مائتين وأربعين وعند القفطى نحو ما ئتين وثلاثين وعند ابن أبى أصيبعة نحومائتين وثمانين ،وتتناول العلوم الرياضية والهندسية والفلكية والجغرافية والطبيعية والمنطق والأخلاق والسياسة والكلام والجدل والطب . وقد تُرجم كثير منها إلى اللاتينية وأثَّر فى شعوبها تأثيراً عميقًا ، ويقول ألدوميلى إن كتابه فى الهندسة أثَّر تأثيراً ملحوظًا فى روجر بيكون. وقد يفهم من بعض ما كتبه ابن أبى أصيبعة وغيره عنه أنه كان يترجم عن اليونانية والسريانية ويرى الباحثون أنه لم يكن يعرفهما ، إنما كان يُصْلح ويصحح بعض ما تُرجم عنهما ، وله تهذيباتٌ لكثير مما تُرجم ، وله أيضًا شروح وتعليقات. ويذكر ابن النديم وغيره أن له كتبًا فى التوحيد والعدل والاستطاعة أو حرية الإرادة ، مما قد يدل على اتجاهه الاعتزالى ، ومما يدل بقوة على هذا الاتجاه عنده إشادته بالعقل . وهو فيلسوف إسلامى بالمعنى الدقيق ، إذ له رسائل فى إثبات النبوة والدفاع عنها دفاعًا قويًّا ، وكان يذهب إلى أن العالم محدث مخالفًا بذلك أرسطو فى زعمه أنه قديم ، وذهب إلى أن النفس بسيطة وأنها من نور الله ، وعنها صدر عالم الأفلاك ، والنفس الإنسانية تفيض عن هذه النفس الكلية ، وهى تتصل بالجسد ، ولكنها تظل فى جوهرها مستقلة عنه ، حتّى إذا فارقته التذت لذة كبيرة ، وقال إن الكواكب لا تؤثر فيها ، لأنها إنما تؤثر فى الأمور الطبيعية . وله بحوث فلسفية فى الرياضة ، ولكنها دون بحوثه الطبيعية وفيما وراء الطبيعة . وربما كانت أهم نظرية فلسفية له طبع بها الفلسفة الإسلامية هى نظريته فى أن العقل مصدر المعارف وتقسيمه له إلى عقل فاعل هو الله ، وعقل

= ١٩٣٣ ودى بورص ١٧٦ وألدوميلى ص ١٤٩ ، ١٥٣ ومقدمة الدكتور محمد عبد الهادى أبى ريدة لرسائل الكندى الفلسفية) طبع مطبعة الاعتماد بالقاهرة ، وكذلك مقدمة الدكتور أحمد فؤاد الأهوانى لمجموعة أخرى من رسائله ، وكتاب دور العرب فى تكوين الفكر الأوربى لعبد الرحمن بدوى (طبع دار الآداب ببيروت) .

بالقوة يكمن فى داخل الإنسان ، وعقل بالملكة هو العقل المنفعل بعد حصول المعقولات فيه ، وعقل مبين يؤدى للغير معقولاته . ومما قرره أن الحواس تُدْرِك الجزئيات والصور المادية فى حين أن العقل يُدْرِك الكليّات وما يتصل بها من الأنواع والأجناس . وذهب إلى تناهى الجسم والزمان والحركة من جهة الفعل لا من جهة القوة ، وهاجم الكيمياء هجومًا عنيفًا ، وأكبر الظن أنه إنما كان يقصد ضربًا خاصًّا من الكيمياء شاع فى عصره ، هو المتصل بالسحر والخرافه وكشف الأسرار .

وإذا كان العصر قد افتُتِح بفيلسوف هو الكندى فإنه اختُتِم أيضًا بفيلسوف له مكانة كبيرة فى الفلسفة الإسلامية هو الفارابى [1] أبو نصر محمد بن محمد بن طرخان المتوفى سنة ٣٣٩ ويقال إنه من أصل فارسى ، وُلِد فى فاراب من بلاد الترك فيما وراء النهر . ويبدو أنه تلقن فى نشأته ما كان فى خراسان من علوم الأوائل وسرعان ما مضى يطلبها فى بغداد ، وأكبّ على الرياضيات والطبيعيات والإلهيات واستوعب ذلك كله استيعابًا منقطع القرين ، وسرعان ما أخذ يوفق بينه وبين الدين الحنيف من جهة وبينه وبين العقل الذى أكبره الكندى من جهة أخرى ، واستطاع أن ينفذ من خلال ذلك إلى تشكيل الفلسفة الإسلامية فى صورتها المبكرة ، بحيث عُدّ فيلسوف المسلمين غير مدافع . ولعل أول ما يلاحظ على فلسفته أنها تعنى بالإلهيات ، فهو لا يعنى بالطبيعيات ، وهو يرغب عن فيثاغورس وأضرابه من الرياضيين . ويتضح إكباره العقل فى اهتمامه بالمنطق وما يؤدى إليه من استنباطات كلية مما جعله يُعْنَى بشرح كتبه عند أرسطو وتفصيل مسائله من تصور وتصديق وقضايا وبراهين وأقيسة ومراتب ظنّ متفاوتة ، ويتعمق فى بحث الكليات . وفى كل جانب من فلسفته الإلهية يتضح فكره العقلى المنطقى ، من ذلك ذهابه إلى أن كل موجود إما واجب الوجود وإما ممكن ، وبذلك جعل أول صفة لله هى أنه

---

(١) راجع فى الفارابى الفهرست ص ٣٨٢ والقفطى ص ٢٧٧ وابن أبى أصيبعة ص ٦٠٣ ودائرة المعارف الإسلامية وبحثاً للمرحوم الشيخ مصطفى عبد الرازق فى الجزء السابع من مجلة المجمع العلمى العربى بدمشق ودى بورص ١٩٢ ومقدمة ديتريصى لرسائله (طبعة ليدن) ، وانظر مجموعة أخرى طبعت فى حيدر آباد وظهر الإسلام لأحمد أمين (الطبعة الأولى) ٢ : ١٣١ .

الموجود الواجب الوجود فى حين أن كل ما عداه ممكن الوجود أو بعبارة أخرى حادث فهو القديم وحده . وصلة هذه الفكرة بالدين الحنيف واضحة ، وهو عنده الموجود الأول الفرد بالذات ولا جنس له ولا تركيب فيه ولا يمكن حَدُّه ، إذ هو لا يتحيز فى مكان ، وهو أكمل الموجودات ويجب أن تكون معرفتنا به أكمل معرفة . وإذا كانت معرفتنا بالرياضيات أكمل من معرفتنا بالطبيعيات للتعميم السارى فى قضاياها وجب أن تكون معرفتنا به فوق معرفتنا بالرياضيات والطبيعيات جميعًا . ويقبس من الفلسفة قبسًا يمزجه بقبس آخر من التصوف لعصره ، فإذا هو يذهب إلى أن الله يفيض عنه منذ الأزل مثاله وهو العقل الأول الذى يحرّك الفلك الأكبر ، وتلى هذا العقل عقول الأفلاك الثمانية ، وهى التى تصدر عنها الأجرام السماوية ، والعقول التسعة مجتمعة هى ملائكة السماء ومرتبتهم فى الوجود مرتبة ثانية ، وفى المرتبة الثالثة العقل الفعَّال فى الإنسان وهو روح القدس الذى يصل العالم العلوى بالعالم السفلى . وفى المرتبة الرابعة النفس الكلية ، ومنها [illegible] العقل [illegible] أفراد الإنسان . وفى المرتبة الخامسة الصورة . وفى السادسة المادة . والمراتب الثلاث الأولى : الله وعقول الأفلاك والعقل الفعال ليست أجسامًا ، أما المراتب الأخرى فتلابس الأجسام . وواضحٌ الأثرُ الإسلامى فى هذا التفلسف ، فقد ذُكر الله وهو العلة الأولى عند الفلاسفة وذكرت الملائكة وروح القدس مع محاولة وضع تفسير جديد لهما . وكان يذهب إلى أن النفس كمال الجسم ، أما كمال النفس فهو العقل . وبحث فى السعادة مبحثًا تأثر فيه أيضًا بالتصوف تحدث فيه عن شروطها ودرجاتها ، وصرّح فى قوة بأن اللذات العقلية والروحية تفوق اللذات المادية الجسمية ، وأن السعادة لا تُطْلَبُ لغاية وراءها وإنما تُطْلَبُ لذاتها ، وأداتها فى رأيه الأفعال والأخلاق الجميلة ، وهى لا تُدْرَكُ إلا إذا تحررت النفس الناطقة من أغلال المادة والشهوات . ويصرّح فى كتابه آراء أهل المدينة الفاضلة بأن الحاكم ينبغى أن يكون متحليًا بكل الفضائل الإسلامية والفلسفية متجنبًا اللذات الجسمية ، إذ فيه تتمثل المدينة بخيرها وشرها ، فإذا كان خيرًا فاضلًا كانت المدينة فاضلة ، وإذا كان شرّيرًا فاسقًا انهارت المدنية وفسد الحكم فيها فسادًا شديدًا . وهو يذكر النبوة كثيرًا ، وهى عنده أعلى مرتبة يبلغها الإنسان فى العلم والعمل ، وهو يضعها — كى يوضحها — فى مرتبة وسطى بين الإدراك الحسى

والمعرفة العقلية الخالصة . ونحن إنما لمسنا السطح فقط لنصور فلسفة الفارابى ، وهى فلسفة إسلامية عقلية استمدَّت من روحانية الإسلام ومن نظريات العقل ومن أفكار الفلاسفة وخاصة أرسطو وأفلاطون مازجة بين هذه العناصر جميعًا ، مستخلصة منها فلسفتنا الإسلامية الوسيطة وأصولها السديدة .

٣

علوم اللغة والنحو والبلاغة والنقد والتاريخ

رأينا فى كتاب العصر العباسى الأول مدى التنافس الذى نشب بين علماء البصرة والكوفة فى جمع اللغة وكيف كانوا يرحلون إلى نجد والبوادى ومعهم قوارير المداد وأحمال الصحف ليدوّنوا كلمات اللغة من ينابيعها الأصلية. وقد مضى كثيرون من علماء البلدتين وتلاميذهما ببغداد فى هذا العصر يخرجون إلى البادية ونجد لمشافهة الأعراب والسماع منهم لما يجرى على ألسنتهم من أقوال وأشعار وأضافوا إلى ذلك ما سمعوه من أساتذتهم الأصمعى والمفضل الضبى وأبى زيد وأضرابهم . وأخذ تلاميذهم يحملون عنهم رواياتهم ، وسرعان ما تكوَّن فى هذا العصر السند ، إذ يقول العالم اللغوى مثل الأشناندى أبى عثمان سعيد بن هرون المتوفى سنة ٢٨٨ : عن التوَّزى أبى محمد عبد الله بن محمد بن هرون المتوفى سنة ٢٣٣ عن أبى نصر أحمد ابن حاتم الباهلى عن الأصمعى . ومعروف أن علم الأصمعى حمله مع أحمد بن حاتم جماعة منهم الأثرم أبو الحسن على بن المغيرة المتوفى سنة ٢٣١ والزيادى أبو إسحق إبراهيم بن سفيان المتوفى سنة ٢٤٩ والرياشى العباس بن الفرج المتوفى سنة ٢٥٧. وكل أولئك وأضرابهم من رواة اللغويين القدماء كانوا يعتمدون قبل كل شىء على الإملاء ، وكان تلاميذهم يحرصون عليه مخافة دخول غلط عليهم فى قراءة النصوص. ومع ذلك كان منهم من يأخذ أحيانًا عن الكتب ، وكانوا يميزونه من سواه ، خشية أن يكون قد صحَّف فيما قرأ ، واتسع التصحيف حتى ألف فيه العلماء كتبا مفردة . وجعلهم الاهتمام بالسند يتأثرون برجال الحديث فى تجريح الرواة وتعديلهم ، وكان علماء البصرة فى ذلك أشد تحرجًا من علماء الكوفة وبغداد ، وبالمثل تأثروا بهم فى تلقيب بعض الروايات بألقاب الجودة والضعف ، ويُؤْثَرُ عن ابن الأنبارى

الكوفى المتوفى سنة ٣٢٨ قوله : « الكلمات قسمان : كلمات متواترة وآحاد ، فأما المتواترة فلغة القرآن وما تواتر من السنّة وكلام العرب ، وهذا قطعى يفيد العلم ، وأما الآحاد فما تفرّد بنقله بعض أهل اللغة ولم يوجد فيه شرط التواتر[1] » . وكانوا يجمعون فيما يُملونه أشتاتاً من بعض أقوال العرب وأشعارهم وأقاصيصهم ، ومما يصور ذلك مجالس ثعلب الكوفى المتوفى سنة ٢٩١ . وأحياناً كانوا يؤلفون الكتاب فى أقوال وأشعار وأمثال حيثما اتفق مثل مجالس ثعلب ، وأحياناً يجمعون كلمات فى موضوع واحد مثل كتاب المذكر والمؤنث ليعقوب بن السكيت الكوفى المتوفى سنة ٢٤٣ وكتاب النخل وكتاب الطير لأبى حاتم سهل بن محمد بن عثمان السجستانى البصرى المتوفى سنة ٢٥٠ . وكان طبيعياً أن تظهر حينئذ معاجم تحصى كلمات اللغة إحصاء دقيقاً دالة على معانيها ، ولم يلبث أن تداول الورّاقون معجم العين المنسوب إلى الخليل حتى إذا كان ابن دريد محمد بن الحسن البصرى المتوفى سنة ٣٢١ وجدناه يؤلف معجمه اللغوى الكبير : الجمهرة فى اللغة ، وعلى الرغم من نقد القدماء له وقول نفطويه الكوفى معاصره المتوفى سنة ٣٢٨ إنه ليس أكثر من تحريف لمعجم العين للخليل يعدّ عملا باهراً . ودفعتهم فكرة تعليم اللغة للناشئة إلى أن يجمعوا كثيراً من الألفاظ والعبارات الغريبة فى طائفة من الموضوعات والمعانى ويؤلفوا فيها كتاباً مثل كتاب الألفاظ لابن السكيت ، وهو يحتوى كثيراً من أبيات الرجز المسرفة فى الغرابة ومن الألفاظ المهجورة ، وهو جانب يميز اللغويين الكوفيين إذ كانوا يكثرون من رواية الغريب المهجور فى مصنفاتهم . وعُنوا فى هذا العصر أشد العناية بجمع دواوين الشعر القديم جمعاً علمياً ، عماده التوثق والتحقيق ، وهو عمل يُعَدّ متمماً لما نهض به فى العصر الماضى المفضل الضبى والأصمعى وابن الأعرابى ، وكانوا يضيفون إلى الدواوين غالباً شروحاً للتوضيح ، ويشتهر فى هذا المجال محمد بن حبيب البصرى وثعلب الكوفى والسكرى أبو سعيد الحسن بن الحسين البصرى تلميذ الرياشى وأصغر تلاميذ الأصمعى المتوفى سنة ٢٧٥ وكان شديد الطموح ، فلم يكتف بجمع دواوين طائفة كبيرة من الشعراء ، بل مضى يجمع دواوين القبائل ، ويقال إنه جمع منها نيفاً وثمانين ، لم يُبْقِ الزمن منها إلا قطعاً من ديوان هذيل

---

(١) المزهر (طبعة الحلبى) ١ / ١١٤ .

نُشرت فى خمس مجموعات أربع منها فى أوربا وواحدة طُبعت فى دار الكتب المصرية ، ودائمًا نراه يذكر ما اختلف فيه أئمة البصريين والكوفيين فى رواية أبيات وألفاظها المختلفة . وصنفوا كثيراً من المختارات الشعرية ، وكان مما صنفوه فى العصر الماضى المعلقات والمفضليات والأصمعيات . أما فى هذا العصر فمن أهم ما صنفوه من كتب الاختيارات جمهرة أشعار العرب لأبى زيد محمد بن أبى الخطاب القرشى ، ولا تُعْلَمُ سنة وفاته بالضبط ، ولكن الوسائط فى مقدمته لكتابه بينه وبين علماء القرن الثانى جيلان أو ثلاثة مما يؤكد أنه عاش فى أواخر القرن الثالث الهجرى ، ومختاراته تضم تسعًا وأربعين قصيدة موزعة على سبعة أقسام ، فى كل قسم سبع قصائد ، والقسم الأول خاص بالمعلقات . وتغلب القصائد الجاهلية على المجموعة ، وتمتاز بالقصائد الطويلة . ويُعْنَى ابن الأنبارى بشرح مفصل على المفضليات يسوق فيه الفروق بين الروايتين البصرية والكوفية لأبيات هذه المجموعة الكبيرة . وعُنى حينئذ شاعران بعمل ديوانين للحماسة هما أبو تمام والبحترى ، وكأن اللغويين جعلوا فكرة الاختيار من الشعر القديم والحديث تعمُّ فى جميع البيئات . وظهرت عندهم بقوة فكرة عمل مختارات من الشعر والنثر تُقَرِّبهما من أفهام الشباب والناشئين عامة ، فصنع المبرد كتابه « الكامل » وبه مختارات كثيرة ذلَّلها ويسَّرها لشُداة الأدب واللغة . وكأنما أحسَّ الجاحظ وابن قتيبة ، كما مر بنا ، أن غاية اللغويين من هذا التيسير والتذليل لا تزال أبعد من أن يحققوها ، لأن فكرة التعليم اللغوى من أجل اللغة قبل كل شيء لا تزال غالبة عليهم ، فألف الجاحظ البيان والتبيين ليدخل على هذه الفكرة الأفكار الجمالية والبلاغية ، وألف ابن قتيبة كتابه عيون الأخبار ليدخل بدوره عليها الأفكار الفارسية واليونانية ، مازجًا بينها مزجًا يثير رغبة الناشئة والشباب فى قراءته ، وألف بجانبه مصنفه « أدب الكاتب » ليضرم فى قلوبهم الحمية للفصحى وتنقية اللغة مما لابسها أو يكاد يلابسها من الشوائب الأعجمية والعامية . وأُلِّفت فى العصر كتب كثيرة[1] تصوِّر ما يلحن فيه العامة ، منها ما هو لأحمد بن حاتم الذى مر ذكره أو لأبى حاتم السجستانى أو للمازنى أبى عثمان بكر بن محمد البصرى المتوفى سنة ٢٤٩ أو للمفضل بن سلمة

---

(١) انظر كتاب الفهرست ص ٨٩ ، ٩١ ، ٩٣ ، ١١٥ .

الكوفى المتوفى سنة ٢٩٠ ونيف بقصد جذب الشباب والمتأدبين إلى دوائر الفصحى. وللغاية نفسها ألف ثعلب كتابه « الفصيح » جامعًا فيه كثيراً من الصياغات الفصيحة الناصعة ، كما ألف عبد الرحمن بن عيسى الهمذانى المتوفى سنة ٣٢٧[١] مصنّفه « الألفاظ الكتابية » وهى عقود نظم فيها درراً من الصياغات البليغة الزاخرة بحيوية دافقة : وعلى غرارها ما جمعه قدامة بن جعفر المتوفى سنة ٣٣٧ فى كتابه « جواهر الألفاظ » وبذلك بثّ اللغويون فى نفوس كثيرين مشاركتهم فى تحبيب العربية للناشئة والشباب المتأدبين بوسائل كثيرة . ومنها وسيلة لم نتحدث حتى الآن عنها ، ونقصد ما حاوله بعض اللغويين من اتخاذ بعض القصص وسيلة تعليمية ، إذ كانوا يقصون بعض حكايات عن الأعراب ، مدمجين فيها بعض ألفاظ غريبة كى يسهل على الناشئة حفظها ، وممن اشتهر باتخاذ هذه الوسيلة التعليمية ابن دريد إذ ألف أربعين أقصوصة قصيرة — كان يسمى كلا منها حديثًا —[٢] لغرض التعليم اللغوى وتبسيطه وتيسيره ، وبذلك أوحى لبديع الزمان أن يؤلف فيما بعد مقاماته مبتغيًا بها الوجهة التعليمية نفسها .

ومن يرجع إلى كتابنا «المدارس النحوية» يطلع فى وضوح على نشاط النحاة فى العصر ، فقد كانت المدرستان البصرية والكوفية قائمتين ، وأخذت المدرسة البغدادية طريقها إلى الظهور بأخرة من العصر . وإلى المدرسة البصرية يرجع الفضل فى إقامة صرح النحو العربى بكل ما يتصل به من قواعد ، لا فى هذا العصر بل فى العصر السابق له ، وخاصة منذ الخليل بن أحمد ، فهو الذى صاغه فى صورته العامة المعروفة بأبوابه وعوامله ومعمولاته وكل ما سند بناءه من سماع وتعليل وقياس قويم . وأتمّ سيبويه صنيعه فى مصنفه « الكتاب » الذى عدّه النحاة آية كبرى لا سابقة لها ولا لاحقة . وخلفه الأخفش الأوسط ، ففسح للغات والقراءات الشاذة محتجًّا لها ومدافعًا دفاعًا سديداً . وفى هذه الأثناء استطاع الكسائى وتلميذه الفرّاء أن يشيدا فى الكوفة مدرسة نحوية ، تعتمد على صورة النحو البصرى العامة وتستقل بطوابع تميزها ، من حيث بسط القياس وقبضه ومن حيث الاتساع فى الرواية ومن

---

(١) راجع مقدمة الألفاظ الكتابية (طبعة بيروت سنة ١٨٨٥) .

(٢) زهر الآداب للحصرى ١ / ٣٠٧

حيث وضع بعض المصطلحات الجديدة ، ومن حيث تلقيب بعض العوامل والمعمولات ، وعُنِى الفرّاء خاصة بإنكار بعض القراءات الشاذة .

وعلى هذه الشاكلة لا ينتهى العصر العباسى الأول ،حتى تكون المدرستان البصرية والكوفية تميزتا تميزاً تامًّا ، وكان أهم الأئمة البصريين فى هذا العصر المازنى والمبرد ، أما المازنى فهو بكر[1] بن محمد الملقب بأبى عثمان المتوفَّى كما مر آنفاً سنة ٢٤٩ وهو تلميذ الأخفش الأوسط ، وكان لَسِناً قوى الحجة ، وله مناظرات مأثورة مع ابن السكيت وغيره من الكوفيين أفحمهم فيها بأدلته القاطعة ، وعاش يدرس لطلابه وتلاميذه كتاب سيبويه ، وله حوله تعليقات وشروح عدة ، منها تفاسير كتاب سيبويه والديباج فى جوامعه ، وصنف فى علل النحو كتاباً ، وعُنى بالتصريف عناية واسعة جعلته يخصه بكتاب التصريف ، ولابن جنى عليه شرح مبسوط سماه « المنصف » . وفى كتاب « المدارس النحوية » طائفة من آرائه فى النحو احتفظ بها النحاة فى مصنفاتهم ، وهو أول من أعطى علم التصريف صيغته النهائية فى كتابه السالف ذكره ،ويقول فى مطالعه بعد ذكره أمثلة الأسماء والأفعال المجردة والمزيدة : « إنما كتبت لك فى صدر هذا الكتاب هذه الأمثلة (الأبنية) لتعلم كيف مذاهب العرب فيما بنت من الأسماء والأفعال ، فإذا سُئلت عن مسألة فانظر هل بنت العرب على مثالها ، فإن كانت بَنَتْ فابْنِ مثل ما بنتْ . . . وسأصنع لك من كل شىء من هذا الباب رسمًا تقيس عليه ما كان مثله[2] » . وهو يُعَدّ أول من فتح بقوة باب التمارين غير العملية فى الصرف ، إذ نراه يبنى من ضرب على مثال جعفر أو على مثال سفرجل وما إلى ذلك من أبنية غير مستعملة فى اللغة[3] . وكان يتشدد فى الأخذ بالقياس ، مما جعله يرد – على هدى الفرّاء – بعض القراءات التى تشذ على قواعد النحو ومقاييسه[4] . وأنبه تلاميذه المبرد محمد[5] ابن يزيد الأزدى إمام نحاة البصرة ازمنه المتوفى سنة ٢٨٥ وهو آخر أئمتهم المهمين ،

---

(١) انظر فى ترجمة المازنى تاريخ بغداد ٧ / ٩٣ ، وإنباه الرواة ١ / ٢٤٦ ومعجم الأدباء ٧ / ١٠٧ .

(٢) راجع المنصف على التصريف ١ / ٩٥ .

(٣) انظر المنصف ١ / ١٧٣ وما بعدها .

(٤) المدارس النحوية (طبع دار المعارف) ص ١١٩ .

(٥) راجع فى ترجمة المبرد تاريخ بغداد ٣ / ٣٨٠ وإنباه الرواة ٣ / ٢٤١ ومعجم الأدباء ١٩ / ١١١ .

وفيه يقول ابن جنى : «كان يُعَدُّ جيلا فى العلم ، وإليه أفضت مقالات أصحابنا (البصريين) وهو الذى نقلها وحرَّرها وأجرى الفروع والعلل والمقاييس عليها[1]» وكان يشرح لتلاميذه كتاب سيبويه وكتب الأخفش والمازنى وله مصنفات كثيرة ، منها كتاب الكامل فى اللغة والأدب الذى أشرنا إليه فيما أسلفنا من حديث وكتاب المقتضب فى النحو المطبوع فى القاهرة بتحقيق محمد عبد الخالق عضيمة ، وهو كتاب نفيس ، وطُبع له كتابه « الفاضل » ونسب عدنان وقحطان ، وسقطت من يد الزمن مصنفات له كثيرة . وأهميته فى تاريخ النحو البصرى إنما ترجع — كما لاحظ ابن جنى — إلى أنه حرَّر مسائل النحو البصرى وقواعده ، وإلى أنه اشتق من أصوله فروعاً كثيرة ، وإلى أنه بسط فيه كثيراً من العلل والمقاييس التى لم يُسْبَقْ إليها ، وقد نفذ إلى كثير من التعريفات والآراء المبتكرة فى العوامل المحذوفة والمضمرة والملفوظة ، وبالمثل فى المعمولات ومواقعها فى الإعراب ، واستكثر من العلل كثرة مفرطة ، فكل رأى لا بد له من علة أو علل تسنده ، كما استكثر من القياس ، مع اعتداده بالسماع عن العرب ومع حس أدبى دقيق فى التذوق اللغوى . وله تلاميذ كثيرون ، لعل أهمهم الزجاج إبراهيم بن السرىّ المتوفى سنة ٣١٠ وهو امتداد له فى عنايته بكتاب سيبويه وفى تصنيفه لبعض الكتب النحوية وفى محاولته النفوذ إلى بعض الآراء المبتكرة مع العناية بالتعليل والقياس . ومن تلاميذه المهمين ابن السراج أبو بكر محمد بن السرىّ المتوفى سنة ٣١٦ وقد عكف على المنطق حتّى أتقنه ، وعاش يقرأ لتلاميذه كتاب سيبويه وفى مقدمتهم السيرافى وأبو على الفارسى ، وله كتاب الأصول عُنى فيه عناية واسعة بعلل النحو ومقاييسه ، انتزعه من كتاب سيبويه ، وأثَرُ دراسته للمنطق واضحة فيه وفى تقاسيمه .

وإذا تركنا المدرسة البصرية إلى المدرسة الكوفية وجدنا لها إماماً مشهوراً فى هذا العصر هو ثعلب[2] أبو العباس أحمد بن يحيى المتوفى سنة ٢٩١ وقد قرأ على شاكلة أستاذيه الكسائى والفراء كتاب سيبويه وكتب الأخفش ، وأضاف إلى ذلك زاداً كبيراً حصَّله من الشعر القديم ودواوينه ومن القراءات والحديث النبوى . وذكر

---

(١) سر صناعة الإعراب لابن جنى ١ / ١٣٠ .

(٢) انظر فى ثعلب تاريخ بغداد ٥ / ٢٠٤ وإنباه الرواة ١ / ١٣٨ ومعجم الأدباء ٥ / ١٠٢

مترجموه له مصنفات كثيرة فى النحو واللغة والقراءات والأمثال والمنتخبات الشعرية والنثرية ، وقد وصلنا منها « الفصيح » الذى عرض له فى غير هذا الموضع والذى ابتغى به تقويم ألسنة المبتدئين. وطُبع له كتابه « المجالس» وهو إملاءات لمختارات شعرية ونثرية تكتظ بالنحو والأشعار الغريبة والشاذة والقراءات والأمثال والأخبار والأقوال المنثورة . وصَنَّعَ طائفة كبيرة من الدواوين القديمة. ومن يرجع إلى كتابه المجالس وما تناثر فى كتب النحاة له من آراء يجده يطبق تطبيقاً دقيقاً آراء أستاذه الفراء وأستاذيهما جميعاً الكسائى وكل ما أصَّلاه لمدرستهما الكوفية من أصول فى النحو ومن مصطلحات وألقاب جديدة وما كانا يأخذان به أنفسهما من التوسع فى الرواية عن العرب والاعتداد بالشواذ اللغوية . وله كتاب مطبوع يسمى قواعد الشعر ، وسنعرض له فى حديثنا عن البلاغة والنقد . وله — مثل المبرد منافسه — تلاميذ كثيرون ، لعل أهمهم أبو بكر محمد بن القاسم الأنبارى المتوفى — كما مر بنا— سنة ٣٢٨ ، وتضاف إليه مصنفات كثيرة فى غريب الحديث وعلوم القرآن وفى اللغة وكتابه الأضداد فيها مطبوع وأيضاً فى النحو . وعُنى مثل أستاذه بإخراج الدواوين الشعرية القديمة ، وسبق أن تحدثنا عن شرحه للمفضليات ، وهو ملىء بمعارفه الواسعة فى اللغة والأشعار والأخبار . وكان — فيما يظهر — مثقفاً ثقافة منطقية ، فدعم النحو الكوفى بكثير من العلل السديدة .

وتنشأ بأخرة من العصر المدرسة البغدادية متميزة بمنهجها القائم على الانتخاب من آراء المدرستين البصرية والكوفية مع النفوذ إلى كثير من الآراء المبتكرة ، وقد تداولها جيلان : جيل مبكر كانت تغلب عليه النزعة الكوفية من أمثال ابن كَيْسان ، وجيل تال كانت تغلب عليه النزعة البصرية من أمثال الزجاجى . ولكى تتضح المدرسة وهاتان النزعتان نقف قليلا عند ابن كيسان والزجاجى . أما ابن كيسان[1] فهو أبو الحسن محمد بن أحمد بن كيسان المتوفى سنة ٢٩٩ وهو تلميذ ثعلب والمبرد ، وأهَّله ذلك لكى ينتخب من آرائهما آراءه النحوية ، ولم يكتف بذلك فقد حاول النفوذ إلى بعض الآراء الجديدة ، وكان فى أول أمره كوفياً ، فعُنى ببسط

---

(١) انظر فى ابن كيسان تاريخ بغداد ١ / ٣٣٥ وإنباه الرواة ٣ / ٥٧ ومعجم الأدباء ١٣٧/١٧ .

العلل لآراء الأئمة الكوفيين ، تُسْعفه فى ذلك ثقافة منطقية عميقة ، وجعله ذلك يصطبغ بصبغة كوفية ، حتى بعد استقلاله عن تلك المدرسة ، وقد ألف فيها وفى المدرسة البصرية كتابه « اختلاف البصريين والكوفيين » وله وراءه كتب فى النحو والتصريف ، وكتاب مهم فى علل النحو قال القدماء إنه كان يقع فى ثلاثة مجلدات ، ولعله هو الذى عرض فيه احتجاجاته لآراء المدرسة الكوفية . ويعرض كتاب المدارس النحوية ما اختاره من آراء المدرسة البصرية وكذلك من آراء المدرسة الكوفية ، ثم ما نفذ إليه من آراء اجتهادية انفرد بها من دون غيره من أئمة المدرستين . وهو بذلك مثل دقيق من أمثلة المدرسة البغدادية التى كانت تمزج بين آراء المدرستين السالفتين وتحاول أن تتخذ لنفسها آراء جديدة فريدة . والزجاجى[1] هو أبو القاسم عبد الرحمن بن إسحق المتوفى سنة ٣٣٧ تلميذ الزجاج البصرى ، وله مصنفات كثيرة ، طُبع منها كتاب الجمل وهو مختصر فى النحو كانت له شهرة مدوّية فى العصور الوسطى وشُرح شروحًا لا تكاد تحصى ، وطُبع أيضًا له أماليه الوسطى مع تعليقات للشنقيطى ، ومجالس العلماء وهى مناظرات بينهم فى مسائل لغوية ونحوية ، وكتاب الإيضاح فى علل النحو ، وقد عرض فيه علل النحو عند البصريين والكوفيين ملاحظًا أن ابن كيسان وأضرابه من الجيل البغدادى الأول هم الذين وضعوا للنحو الكوفى أكثر علله واحتجاجاته ، وقد يضيف من عنده وجوهًا من العلل ، يدعم بها العلل الكوفية والبصرية جميعًا . وهو بالمثل فى النحو ينتخب من آراء الطرفين ويضيف آراء جديدة ، وإذا كان ابن كيسان تتضح عنده نزعة كوفية فالزجاجى على العكس تتضح عنده نزعة بصرية ، إذ كثيرا ما يقف مع البصريين مناضلا مدافعًا ، وكأنه كان إرهاصًا لغلبة النزعة البصرية على النزعة الكوفية فى المدرسة البغدادية ، على نحو ما سيتضح فيما بعد عند أبى على الفارسى وابن جنى .

ونشطت فى العصر الأنظار البلاغية ، وفى كتابنا « البلاغة تطور وتاريخ » ما يصور مراحل نشأتها فى العصر العباسى الأول ونموها فى هذا العصر ، فقد مضى كثيرون من الكتّاب مثل ابن المقفع ومن الشعراء مثل بشار يبدون بعض

(١) انظر فى الزجاجى إنباه الرواة ٢ / ١٦٠ والأنساب للسمعانى الورقة ٢٧٢ ونزهة الألباء (طبعة الحلبى) ص ٣٠٦ .

ملاحظات بلاغية على ما يُكسِبُ الكلام حسناً وجمالا حتى إذا ظهر مسلم بن الوليد اتخذ ما اكتشفه الأدباء من محسنات مذهباً وأطلق عليه لأول مرة اسم البديع ، وكان يشمل وجوه حُسْنٍ بيانية وبديعية ، وأخذ اللغويون من أمثال الأصمعى وأبى عبيدة فى هذه الأثناء يبدون بعض ملاحظات على وجوه الحسن فى الكلام ، وألف الأصمعى كتاباً فى التجنيس وسجل بعض ألوان هنا وهناك مثل الطباق والالتفات ، فى حين عُنِى أبو عبيدة معاصره — وخاصة فى كتابه « مجاز القرآن — ببيان بعض الخصائص البلاغية مثل التقديم والتأخير والتشبيه والكناية والاستعارة . وأخذ المتكلمون — وخاصة المعتزلة — يعنون بالبحث فى وجوه البلاغة ، وجعلهم ذلك يحاولون التعرف على ما عند الأمم الأجنبية منها وأضافوا إليه كثيراً من ملاحظاتهم . ومضى اللغويون والأدباء طوال القرن الثالث للهجرة يحاولون التعرف على مواطن الجمال والبلاغة فى الكلام ، ونثر ابن قتيبة فى كتابه : « تأويل مشكل القرآن » ملاحظات متنوعة عن الخصائص البيانية والأسلوبية ، على حين ألم المبرد فى كتابه « الكامل » بالكناية والتشبيه ، وفصَّل القول فيهما تفصيلا جيداً ، وانسابت من ذلك كله مسارب إلى كتاب قواعد الشعر لثعلب . غير أن هذه الجهود كلها ليست شيئاً بالقياس إلى ما نثره الجاحظ المعتزلى المتكلم المتوفى سنة ٢٥٥ فى كتابيه « البيان والتبيين » و « الحيوان » وهو يتحدث طويلا عن فكرة مطابقة الكلا م لمقتضى الحال التى شاعت فيما بعد عند البلاغيين ، ويتسع فى الحديث عن الإيجاز والإطناب ومواضعهما وعن أصوات الكلام وموسيقاه ومواقع الألفاظ ومواضعها التى لا تعدوها وعن السجع والازدواج والاقتباس ، وحلل الاستعارة بأقسامها المختلفة تحليلا بديعاً ، وألم بالتشبيه وبكثير من فنون البديع واستنبط فنًّا جديداً منها هو المذهب الكلامى . وبذلك كان يُعَدّ المؤسس الحقيقى لمباحث البلاغة العربية .

وأخذت تتضح منذ مطالع العصر بيئات [1] ثلاث تتناول كل منها البلاغة تناولا متميزاً ، وهى بيئة اللغويين المحافظين وبيئة المتفلسفين والمترجمين المجددين وبيئة المعتزلة المعتدلين ، أما البيئة الأولى فكانت تحاول بكل ما استطاعت

---

(١) انظر فى هذه البيئات كتاب البلاغة تطور وتاريخ (طبع دار المعارف) ص ٦٢ وما بعدها .

أن تفرض المثال العربى القديم ، فهو النموذج الذى يحسن أن يحاكى ، وكل ما سواه غثٌّ سقيم، وأخذت تتجه إلى ملاحظات نحوية ولغوية مدرسية على نحو ما يتضح فى كتاب الموشح للمرزبانى . وأما البيئة الثانية بيئة المتفلسفة والمترجمين فكانت مجددة مسرفة فى التجديد، إذ رأت من الواجب أن تتخذ الفلسفة اليونانية ومعايير اليونان البلاغية أصولا فى تقويم البلاغة العربية ، مما جعل البيئة اللغوية تعلن النكير عليها وكان يقف معها أصحاب البلاغة العربية الخالصة وكانوا أكثر نفراً وأنصاراً لما قلناه فى غير هذا الموضع من أنه سادت فى العصر نزعة محافظة غلبت فيه على كل شىء وكان طبيعيا أن تغلب على الذوق الأدبى العام . وكان المتكلمون — وفى مقدمتهم المعتزلة — يقفون موقفاً معتدلا بين الطرفين المتعارضين ، إذ يقرءون ما لدى الأجانب من مقاييس بلاغية ويقرنونه إلى أنظار العرب فى البلاغة ، بل إنهم يُخْضعونه للذوق العربى الأصيل ومقاييسه على نحو ما يتضح عند الجاحظ فى كتابه البيان والتبيين ، وبذلك التحموا بالبيئة اللغوية المحافظة . وكان حريا بالمتفلسفين ورفقائهم من المترجمين أن يثوبوا إلى رشدهم وينضموا إلى المتكلمين فى موقفهم السديد ، ولكن المسألة لم تكن مسألة عقلية أو منطقية يُحْتَكَمُ فيها إلى المنطق والعقل ، بل كانت مسألة شعوبية ، فهى التى أمدَّتهم فى هذا الموقف بوقود جزل من الخصام والجدال والحجاج ، وكانوا لا يزالون يدَّعون أن كل ما شُغف به الشعراء لهذا العصر من محسنات بيانية وبديعية إنما مرده إلى البلاغة اليونانية ، ولذلك تصدى لهم ابن المعتز فى كتابه « البديع » يُثْبت أن فنونه التى يلهجون بها فنون عربية خالصة، إذ تتعمق فى القدم حتى العصر الجاهلى، وكل ما للمحدثين من أمثال بشار وأبى تمام إنما هو الإكثار منها، وهو إكثار جعلهم — كما يقول — يحسنون فيها تارة، وتارة يسيئون إساءة شديدة . ومضى فى الكتاب يدرس فنونه الأساسية ، وهى عنده خمسة ، الاستعارة والتجنيس والطباق ورد الأعجاز على ما تقدمها والمذهب الكلامى ، وإنما خص هذه الفنون بالدراسة لأنها كانت موضع الأخذ والرد بين أصحاب الفلسفة وأصحاب البلاغة العربية الخالصة . على أنه لم يلبث أن ضم إليها ثلاثة عشر فنا بَسَطَها بَسْطاً ، وهى الالتفات والاعتراض والرجوع والخروج من معنى إلى معنى وتأكيد المدح بما يشبه الذم وتجاهل العارف والهزل يراد به الجد وحسن التضمين والتعريض

والكناية والإفراط فى الصفة أو المبالغة وإعنات الشاعر نفسه فى القوافى أو ما سُمى فيما بعد باسم لزوم ما لا يلزم وحسن الابتداءات . ويمكن أن نضم إلى هذا المبحث المفصل فى البديع وفنونه مبحثاً لابن طباطبا المتوفى سنة ٣٢٢ فى كتابه « عيار الشعر » جعل موضوعه التشبيه ، مفصلا القول فى أنواعه تفصيلا دقيقاً .

ولم تقف البيئة الفلسفية مكتوفة الأيدى أمام ابن المعتز وكتابه البديع ، فقد تجرَّد منهم كثيرون لنقل كتابى الشعر والخطابة لأرسطو ، واشتهر نَقْلُ متَّى بن يونس لأولهما ونَقْل إسحق بن حنين لثانيهما . ولم يلبث قدامة المتوفى سنة ٣٣٧ الذى اشتهر حينئذ بثقافته الفلسفية أن حاول صنع تشريع لبلاغة الشعر العربى مستضيئاً من حين إلى حين بما كتبه أرسطو فى كتابه الشعر ، وسمَّى صنيعه « نقد الشعر » . وإن نعرض الآن لما فى الكتاب من نقد فسنعرض له عما قليل ، إنما نعرض لما فيه من حديث عن المحسنات البديعية ، وقد حاول جاهداً أن يبدِّل ويعدل فى بعض المصطلحات التى وضعها ابن المعتز معارضة له ، وكأنه إنما ألَّف كتابه محادَّة لكتاب البديع ، واستطاع أن يضيف إلى محسنات ابن المعتز الثمانية عشر ثلاثة عشر محسناً جديداً أهمها الترصيع والغلو وصحة التقسيم وصحة المقابلات وصحة التفسير والتتميم والمبالغة والإشارة والإرداف والتمثيل . وبعضها يتداخل مع محسنات ابن المعتز . وكتاب ثان أنتجته بيئة المتفلسفة هو كتاب البرهان فى وجوه البيان لإسحق ابن سليمان بن وهب ، وكان معاصراً لقدامة ، ويتضح فيه أنه يريد أن يخضع البلاغة العربية للبلاغة اليونانية وما كتبه فيها أرسطو عن الشعر والخطابة بأقوى مما حاول قدامة ، حتى لنراه يضيف إلى انتفاعه بكتابى أرسطو السالفين كتابيه فى المنطق والجدل ، مازجاً ذلك بمباحث المتكلمين وفقهاء الشيعة ، وكأنما تستعجم البلاغة عنده ، وقد حاول أن يطبق بعض ما ذكره أرسطو من وجوه البلاغة ، ولكنه فاته فى كثير من الأحوال أن يُحْسن هذا التطبيق ، واقترح بعض ألقاب ومصطلحات جديدة لم يكتب لها الذيوع كما كُتب لنظائرها عند قدامة وابن المعتز ، ويبدو أن أصحاب البلاغة العربية التالين ضاقوا به وبكتابه ، فلم يذكروه ولم ينقلوا عنه . وكان ذلك سبباً فيما بعد ، لأن ينصرف الناس عن هذه البلاغة الأعجمية وأذواق أصحابها المتفلسفين ، وأن يستميلهم المتكلمون المعتدلون ببحوثهم البلاغية ،

حتى ليسيطروا ببحوثهم على العصور والأجيال التالية .

وإذا كانت البلاغة خطت خطوات واسعة فى سبيل تحولها إلى علم فى هذا العصر فكذلك النقد خطا بدوره خطوات كثيرة نحو تقنين مسائله ، ولا بد من ملاحظتين قبل الحديث فيه، أولاهما أن أكثر الكتب التى عرضنا لها فى البلاغة عرضت له ، وثانيتهما أن البيئات اللغوية والاعتزالية والفلسفية التى تحدثنا عنها فى البلاغة هى نفسها التى حاولت أن تشرّع النقد وأن تضع له معاييره ومقاييسه . وأولى هذه البيئات البيئة اللغوية المحافظة ، وقد هاجم الجاحظ ذوقها فى غير موضع من كتاباته[1]، ولعله كان يأخذ عليها اهتمامها بالغريب فى الأشعار ونسيانها أو إهمالها جوانب الجمال والبلاغة فيها ، مما جعله يؤلف كتابه «البيان والتبيين» على نحو ما مرّ بنا فى غير هذا الموضع . ومن المحقق أن روحها كانت محافظة ، ولكن من المحقق أيضًا أنها هى التى نقدت الشعر القديم لأول العهد به ، وهى التى ميزت وثيقه من منحوله ، مع كثير من الأحكام واللفتات النقدية الجديدة ، ولعل كتاب طبقات فحول الشعراء لابن سلام المتوفى سنة ٢٣١ خير ما يصور عمل هذه البيئة المحافظة حتى عصره ، ونراه يعرض فيه قضية الانتحال فى الشعر القديم عرضًا علميًّا رائعًا ، موضحًا عبث القبائل والرواة المختلفين به ومدى ما دخله من فساد ، ثم تقدم يضع الشعراء فى طبقات حسب جودتهم الفنية ، راويًا لكل منهم كثيراً مما صححته البصرة له وخاصة فى العصر الجاهلى . ونمضى إلى العصر العباسى الثانى فنلتقى بثعلب وكتابه « قواعد الشعر » وهو كتيِّب مدرسى جافّ وزَّع فيه الشعر توزيعًا نحويًّا على أربعة أنواع : أمر ونهى وخبر واستخبار ، وتحدث عما تجرى فيه من أغراض الشعر ومن التشبيه ، وعرض لبعض ملاحظات نقدية سطحية ، وليس فى الكتاب نظرية نقدية ، إنما هى لمحات سريعة ، وقد سمى الطباق الأضداد وسمى الجناس المطابق ، وتابعه فى التسمية الأخيرة قدامة . والكتاب لا يضيف إلى النقد العربى شيئًا ذا قيمة يمكن الوقوف عنده . وفى الحق أن البيئة اللغوية أخذت تتخلف فى مجال النقد ، على نحو ما تخلفت فى مجال الدراسات البلاغية ، إذ لم يعد يلقانا فيها سوى ملاحظات طائرة كأن نجد عند المبرد فى كتابه « الكامل » كلمة هنا أو هناك

---

(١) البيان والتبيين ٣ / ٣٢٤

عن صحة المعنى أو جزالة اللفظ أو رداءته أو عوار الفكرة أو استغلاقها أو ضرورة الشعر والموسيقى ، وشركه فى مثل هذه الملاحظات كثير من اللغويين بحيث نراهم يخصصون كتباً فى أخطاء الشعراء مثل كتاب أخطاء أبى تمام فى الألفاظ والمعانى لأحمد بن عبيد الله بن عمار المتوفى سنة ٣١٩ .

وإذا كانت البيئة اللغوية لم تستطع أن تتطور مع روح العصر فى نقدها ، بل ظلت به عند نقد لغوى جاف لا يكوّن نظرية ولا ما يشبه نظرية فإن بيئة المعتزلة استطاعت أن تتمثل فى نقدها روح العصر مع المحافظة على روح العربية والتقاليد الموروثة ، ومرّ بنا فى الحديث عن البلاغة أنها كانت توازن بين معايير البلاغة اليونانية ومعاييرها العربية وأنها لم تحاول أن تُعْلى الأولى على الثانية ، إنما حاولت أن تفيد منها بدون أن تطغى على الفكر العربى وبيانه وبلاغته . ويمكن أن يلاحَظ ذلك بوضوح عند بشر بن المعتمر المعتزلى المشهور وقرينه أو معاصره الجاحظ ، أما بشر فنراه فى الصحيفة التى دوّنها له الجاحظ فى البيان [1] يدعو إلى الملاءمة بين الكلام وأحوال السامعين ونفسياتهم ، وهى فكرة مطابقة الكلام لمقتضى الحال التى كانت شائعة عند اليونان فى أحاديثهم عن البلاغة والنقد ، كما يدعو إلى البعد عن التكلف واستكراه المعانى والألفاظ وتجنب الغريب المتوعر فى الألفاظ والتراكيب ، وينفذ إلى فكرة طريفة هى أن شرف المعنى لا يرجع إلى أنه من معانى الخاصة أو من معانى العامة ، فكلٌ فى موضعه شريف ، ومدار الشرف على الملاءمة بين الكلام ومقامه ، ويدعو فى قوة إلى تبسيط الأسلوب وجعله فى لغة وسطى بين لغة البدو الجافة الخشنة وبين لغة العامة المسفّة المبتذلة . ويخلفه الجاحظ ، وتستعر نار المتفلسفة والشعوبية جميعاً ، فينادى بأن مدار الجمال فى القرآن الكريم إنما يعود إلى نظمه الذى تنقطع الرقاب دون محاكاته ، ويمدُّ فى قوة ملاحظة بِشْر عن اللغة الوسطى ، حتى يتلاءم مع الحداثة ومع روح العصر ، فالألفاظ يجب ألا تكون ساقطة عامية ولا غريبة وحشية ، ويجب أن يلائم الخطيب بين كلامه والسامعين فلا يورد خطيب على الجماهير اصطلاحات المتكلمين ، وللإيجاز موضع وللإطناب موضع

(١) البيان والتبيين ١ / ١٣٥ وانظر البلاغة تطور وتاريخ ص ٤٣ .

لا فى الألفاظ وحدها، بل أيضًا فى الأساليب ،ويلاحظ أن للأديب شاعراً أو ناثراً معجمه اللغوى الخاص، وهى ملاحظة دقيقة ، وعَرَضَ طويلا للفظ وفصاحته وجزالته ورقته وتناسبه مع ما قبله وما بعده فى الكلام حتى لكأن واشجة من الرحم تربط بينه وبين الأسرة اللفظية التى يسلك فيها . وأنكر الترادف ذاهبًا إلى أن لكل لفظة معناها الخاص الذى يفترق قليلا أو كثيراً عن معنى أو معانى مرادفها ، وعاب مراراً التكلف وفرق بينه وبين التنقيح . وجعله إعجابه باللفظ الموثق يشيد به مضائلا من المعانى وقيمتها ، وكأنما كان يريد أن يُسقط إلى الأبد ما تقواه الشعوبية عن كثرة المعانى فى الآداب الأعجمية ؛ وكذلك ما تقواه البيئة المتفلسفة عن المعانى الفلسفية اليونانية ، إذ هى تحمل أفكاراً صحيحة، ولكن ينقصها جمال الصياغة وحسن السبك والرصف والنظم . ومع إعجابه بالشعر العربى القديم كان يعجب بالشعر الحديث ، حتى ليفضّل أبا نواس على كل من سبقه من الشعراء[1] . وهو معنى ما نقول من اعتدال المعتزلة وأنهم كانوا يوازنون بين القديم والحديث وبين معايير النقد العربى واليونانى ملائمين بين ذلك كله نافذين إلى نقد عربى عباسى حديث .

وأفاد ابن قتيبة من نظرات الجاحظ النقدية إفادة واسعة ، مع أنه لم يكن من المعتزلة بل كان من أهل السنة ، ولكنه اشترك معه كما مرّ بنا فى غير هذا الموضع فى الرد العنيف على الشعوبية ، ونراه يكتب مقدمة طويلة لكتابه الشعر والشعراء يضمنها كثيراً من آرائه النقدية ، وتارة يوافق الجاحظ فى بعض آرائه وتارة يخالفه ، فمما وافقه فيه رفض معيار القدم والحداثة فى الحكم على الشعراء فلا يُنْظَرُ إلى متقدم بعين الجلالة ولا إلى متأخر بعين الاحتقار ، بل يوزن كل منهما بموازين الجودة الفنية الدقيقة . ووافقه فى فكرة الطبع والتكلف ، واستعار قبسًا من فكرته عن المطابقة بين الكلام وأحوال النفس استضاء به فى بيان الدوافع النفسية التى تبعث على قول الشعر كالطمع والغضب والشوق والطرب ، كما استعار قبسًا من فكرة

---

(١) الحيوان ٢ / ٢٧ وانظر فى تحليلنا لآرائه كتاب البلاغة : تطور وتاريخ ص ٤٦ وما بعدها وكتابنا « النقد» (طبع دار المعارف) وقد أشرنا فيه إلى حديثه عن السرقات ، وهو أول من فتح بابها على مصراعيه للنقاد ، وقد أخذوا فى أواخر هذا العصر يخصون بعض الشعراء بمباحث مستقلة فيها مثل كتاب سرقات أبى نواس ليموت ابن المزرع المتوفى سنة ٣٣٤ وسرقات البحترى لأحمد [illegible] أبى طاهر المتوفى [illegible]

بشر بن المعتمر عن الأديب ألا يُقْبل على عمله إلا إذا كان مستعداً له استعداداً كاملا ، فتحدث عن العلاقة بين الشاعر والأوقات التى يستحبُّ فيها نظم الشعر . وخالف الجاحظ فى قَصْر الجمال الفنى على اللفظ فجعله شركة بينه وبين المعنى ، فقد يحسن اللفظ والمعنى معاً وقد يقبحان معاً ، وقد يحسن أحدهما ويقبح الآخر . وكل ذلك كان يبشر بأن ابن قتيبة لن يرتد إلى الوراء وخاصة أنه سَوَّى بين القدم والحداثة فى الشعر ولكنه عاد فطلب إلى الشاعر ألا يحيد عن منهج المتقدمين فى نظام القصيد . ونلتقى فى أواخر العصر بناقد يتأثر بالجاحظ فى كثير من آرائه النقدية ، كما يتأثر بابن قتيبة فى رده الجمال الفنى إلى اللفظ والمعنى معاً ، وهو ابن طباطبا صاحب عيار الشعر ، ونراه فى مواضع من كتابه يشير إلى تماسك المعانى وارتباط أول الكلام بما يليه ، ويشدد فى وحدة السياق وأن تتواصل أبيات القصيدة حتى تغدو بناء محكماً بل حتى تغدو كأنها جسد واحد لا يمكن وضع عضو فيه مكان عضو آخر ، وكأنما أحسَّ ما يردده النقاد فى هذا العصر من فكرة الوحدة العضوية فى القصيدة بحيث يطرد فيها التناسق والالتحام حتى تصبح كلا واحداً ، بل حتى كأنها لفظة واحدة ومعنى واحد[1] .

ولم نتحدث حتى الآن عن البيئة الثالثة بيئة المتفلسفة فى النقد، ولعل خير من يمثلها قدامة فى كتابه «نقد الشعر» وهو فى مطالعه يصرّح ولا يجمجم بأنه إنما سيُعْنَى بعلم جيّد الشعر ورديئه وأن أحداً لم يسبقه إلى وضع هذا العلم فى العربية . ويجعل الكتاب فى ثلاثة فصول ، يخص أولها بتعريف الشعر وبيان أجزائه ، والثانى بنعوت الجودة فى الشعر ، والثالث بنعوت الرداءة . ويقف عند تعريف الشعر وقفة منطقية يستمد فيها بوضوح من منطق أرسطو وما ذكره عن الحدود والتعريفات وأجزائها ، ويبدو هنا أنه لم يفهم نظرية أرسطو فى المحاكاة وأن المعوّل فى الشعر عليها لا على الوزن ، وجاءه ذلك من سوء الترجمة لكتاب الشعر عند متى بن يونس فإن كثيراً من معانى الكتاب فى الأصل طُمست طمساً ، وهو ما جعل قدامة يضطرب فى الإفادة منه على صور شتى . وأجزاء الشعر عند قدامة اللفظ والمعنى والوزن والقافية ،

---

(١) راجع فى تحليل عيار الشعر كتاب البلاغة تطور وتاريخ ص ١٢٣ .

ويقول إن نعوت الجودة تتصل بكل منها مفردة ومركبة ، ونراه يتأثر فى هذا الفصل بنظرية الحدود الوسطى التى شُغف بها أرسطو فى حديثه عن الأخلاق ، ويفيض فى الفصل الثانى فى الحديث عن نعوت الجودة ، ويعرض لأغراض الشعر ، ويحاول متأثراً بطريقة أرسطو أن يضع لها قواعد كلية عامة ، وهو فى هذه القواعد يستمد كثيراً من كتابى الخطابة والشعر لأرسطو ، وكأنه يريد بكل ما يستطيع من قوة أن يخضع البلاغة العربية للبلاغة اليونانية ، وخانه التوفيق فى كثير من الأحيان ، ولولا ما أضافه إلى ابن المعتز من بعض فنون البديع لتناسى النقاد التالون كتابه ولم يلتفتوا إليه أى التفات [١] .

ولا بد أن نلاحظ بصفة عامة أن الذوق الذى كان مسيطراً على النقد والشعر جميعا كان ذوقًا محافظًا ، وكان طبيعيًّا أن يُرْفَضَ نقد المتفلسفة المفرطين فى التجديد. وكان من المنتظر للغويين الذين يمثلون بدقة النزعة المحافظة أن يسيطروا على الحركة النقدية ولكنهم لم يستطيعوا لسبب مهم ، وهو أنهم لم ينفذوا إلى وضع نظرية أو أصول من شأنها أن تشيع ، ولذلك سيطر المتكلمون الذين استطاعوا أن يضعوا للنقد أصولا ورسومًا واضحة ، وساعد على سيطرتهم أنهم لم يكونوا يرفضون القديم بل كانوا يوازنون بينه وبين روح العصر كما أسلفنا ، وبذلك ظلوا يحافظون للشعر على تقاليده الموروثة .

ونشطت فى العصر الكتابات التاريخية نشاطًا عظيمًا فمن كتابة فى تاريخ السيرة النبوية إلى كتابة فى الأحداث الإسلامية والأمم والدول ، وكتابة فى المدن ، وكتابة فى التراجم والطبقات ، ومرَّ بنا فى كتاب العصر العباسى الأول أن ممن عنوا بالسيرة النبوية حينذاك ابن إسحاق وراوى سيرته ابن هشام والواقدى ومحمد بن سعد فى كتابه الطبقات وكذلك المدائنى أبو الحسن على بن محمد المتوفى سنة ٢٣٤ ، وله كتب ورسائل كثيرة فى السيرة النبوية وفى تاريخ القبائل والخلفاء بلغت عند ابن النديم نحو ٢٣٠ مصنفًا . ومن أهم المؤرخين للسيرة النبوية فى العصر أبو زرعة [٢] عبد الرحمن بن عمرو الحافظ شيخ الشام فى وقته المتوفى سنة ٢٨٢ ، وفى مكتبة

---

(١) انظر فى تحليل نقد الشعر كتاب البلاغة تطور وتاريخ ص ٧٨ .

(٢) انظر فى أبى زرعة تاريخ دمشق لابن عساكر ٧ / ٢٧٤ والنجوم الزاهرة ٣ / ٨٧ .

الفاتح بإستانبول مخطوطة من هذه السيرة . وكتب كثيرون فى الأحداث الإسلامية وفى تاريخ الأمم والدول منهم اليعقوبى الذى مر ذكره بين الجغرافيين وتاريخه فى ثلاثة أجزاء طُبع بأوربا وبالنجف فى العراق ، ومنهم البلاذرى[١] أحمد بن يحيى بن جابر المتوفى سنة ٢٧٩ ، وله كتاب فتوح البلدان المعروف نشره دى خويه بليدن فى القرن الماضى ونشر بالقاهرة مراراً ، وله كتاب أنساب الأشراف فى التراجم والتاريخ طُبعت منه بعض أجزاء وبعض قطع ويعاد نشره كاملا فى دار المعارف بالقاهرة . وكان يعاصره أبو حنيفة[٢] الدينورى المتوفى سنة ٢٨٢ صاحب كتاب الأخبار الطوال المنشور أولا بليدن ، ثم بعد ذلك فى القاهرة ، ونراه يستهله بالحديث عن تاريخ الإسكندر والفرس ودولتهم الساسانية ، ثم يتحدث عن فتوح العراق وحروب صِفّين وتاريخ الأمويين وما كان فيه من مقتل الحسين وأحداث المختار بن أبى عبيد ، ثم يوجز فى الحديث عن الخلفاء من عبد الملك إلى المعتصم . وأتاحت ترجمة تاريخ الأمم القديمة وخاصة الفرس فى العصر العباسى الأول والكتابات الكثيرة عن الرسل والأنبياء لمحمد[٣] بن جرير الطبرى المتوفى سنة ٣١٠ أن يكتب تاريخه الضخم : « أخبار الرسل والملوك » ، وهو تاريخ للعالم منذ بدء الخليقة حتى عصره ، ونراه حين يصل إلى تاريخ الهجرة النبوية ينهج فى الكتاب منهج الحوليات فكل سنة مستقلة بأحداثها حتى إذا تمت أيامها انتقل إلى السنة التالية حتى يصل إلى سنة ٣٠٢ واتبع طريقة المحدّثين ، فكل خبر وكل حادثة تُرْوَى مع إسنادها ، وتتعدد الروايات ويتعدد الإسناد ليقابل المؤرخ الحصيف بين الروايات مع رواتها ويستخلص منها الخبر الصحيح ، وله نشرات مختلفة فى ليدن وفى مصر ، وطبعته الأخيرة بدار المعارف محققة ومزودة بفهرس دقيق . ومن أهم المؤرخين فى العصر المسعودى[٤] أبو الحسن على بن الحسين المتوفى سنة ٣٤٥ وله

---

(١) انظر معجم الأدباء ٥ / ٨٩ والنجوم الزاهرة ٣ / ٨٣ والفهرست ص ١٧٠ .

(٢) راجعه فى الفهرست ص ١٢٢ ومعجم الأدباء ٣/٢٦ .

(٣) انظر ترجمته فى تاريخ بغداد ٢/١٦٢ ومعجم الأدباء ١٨ / ٤٠ وتذكرة الحفاظ ٢ / ٢٥١ وطبقات القراء ٢ / ١٠٦ وطبقات الشافعية ٣ / ١٢٠ .

(٤) راجع ترجمته فى الفهرست ص ٢٢٥ ومعجم الأدباء ١٣/٩٠ وتذكرة الحفاظ ٣/٧٠ والنجوم الزاهرة ٣ / ٣١٥ .

كتب تاريخية مختلفة ، وهى تتدفق بحيوية جمّة ، إذ أخذ نفسه بالطواف فى البلدان الإسلامية فى الشام وإيران والهند وزنجبار ومصر والبلاد البعيدة الخارجة عن عالم الإسلام حول بحر الخزر وركب المحيط الهندى والهادى إلى الصين فى رفقة التجار ، فاتسعت مداركه ، ومن أهم كتبه التاريخية مروج الذهب ، طُبع فى باريس ثم فى مصر وبيروت طبعات مختلفة ، وهو يبدأ فيه بتاريخ الخليقة منذ نشأتها ويتحدث عن الأمم القديمة وبلدانها ومشاهداته فيها ، ثم يوجز السيرة النبوية ، حتى إذا انتهى منها أخذ يتحدث عن الخلفاء خليفة خليفة حتّى المطيع لله سنة ٣٣٦ وله كتاب التنبيه والإشراف وهو موجز تاريخي ، وطُبع له بمصر الجزء الأول من كتابه أخبار الزمان .

وبجانب هذه الكتب التاريخية العامة نجد كتباً خاصة ببعض المدن مثل أخبار أهل البصرة لأبى زيد عمر بن شبة المتوفى سنة ٢٦٤ وتاريخ واسط لأسلم بن سهل بن زياد المتوفى سنة ٢٨٨ وتاريخ أصبهان لابن منده الأصبهانى المتوفى سنة ٣٠١ وتاريخ الموصل لأبى زكريا يزيد بن محمد الأزدى المتوفى سنة ٣٣٤ وأهم من هذه الكتب جميعًا تاريخ بغداد لأحمد بن أبى طاهر الملقب بطيفور المتوفى سنة ٢٨٠ وهو من مصادر تاريخ الطبرى ، وقد نشر كلر Keller الجزء السادس منه . وذكرنا فى كتاب العصر العباسى الأول مدى اهتمام مؤرخى العصر بالأنساب والأيام ، وظل ذلك بعدهم مستمراً إذ نرى ابن الأنبارى يعنى فى شرحه للمفضليات بالأيام عناية واسعة ، وللزبير بن بكار المتوفى سنة ٢٥٦ كتاب ضخم فى نسب قريش وأخبارهم ، نشر منه بالقاهرة محمود أحمد شاكر مجلداً كبيراً . وألفت فى العصر كتب كثيرة فى رجال الحديث للبخارى وغيره ، وانتقل التأليف فى الرجال إلى التأليف فى الشعراء ، فألف ابن قتيبة كتابه « الشعر والشعراء » وألف ابن المعتز كتابه « طبقات الشعراء المحدثين » وهما منشوران ، وألف يحيى بن على بن يحيى المنجم المتوفى سنة ٣٠٠ كتابين مفقودين هما البارع فى أخبار الشعراء المولدين والباهر فى أخبار الشعراء المخضرمين من بشار إلى مروان أبى حفصة . وألفت كتب فى الوزراء وكتّاب الدواوين مثل كتاب الوزراء والكتاب لمحمد بن عبدوس الجهشيارى المتوفى سنة ٣٣١ وهو مطبوع . وأفردت كتب لأخبار العباسيين وأشعارهم مثل كتاب

الأوراق لمحمد بن يحيي الصولى المتوفى سنة ٣٣٥ وقد نشر منه المستشرق دان (Dunne) أخبار الشعراء المحدثين وهو تراجم لطائفة منهم ، ونشر منه أيضًا أخبار الراضى المتقى ، وأشعار أولاد الخلفاء وأخبارهم ، وهو كتاب جدير بالتحقيق والنشر . وأخذوا يهتمون بالسيرة الفردية ، فألف أبو عبد الله محمد ابن عبد الله بن الحكم المتوفى سنة ٢٦٢ كتابًا فى سيرة عمر بن عبد العزيز طُبع بالقاهرة ، وألف بمصر أبو جعفر أحمد بن يوسف بن الداية المتوفى سنة ٣٤٠ كتابًا فى سيرة أحمد بن طولون وابنه خمارويه . وعلى هذا النحو نشط التأليف فى التاريخ لهذا العصر نشاطًا واسعًا ، فمن تأليف فى السير إلى تأليف فى الطبقات وتأليف فى الأمم والدول وتأليف فى المدن ، وكادوا لا يتركون فى التاريخ جانبًا إلا رصدوه وسجلوه ودوّنوه .

٤

علوم القراءات والتفسير والحديث والفقه

معروف أن القرآن الكريم حُمل عن الرسول صلى الله عليه وسلم تلاوةً ومشافهة ، واشتهر بتلاوته قُرّاء مشهورون منذ الصدر الأول فى مقدمتهم الخلفاء الراشدون وزيد بن ثابت وأبىّ بن كعب وعبد الله بن مسعود وأبو موسى الأشعرى وغيرهم من جلة الصحابة أمثال عبد الله بن عباس ، وخلفتهم أجيال من التابعين فى كل بلد إسلامى ، كلهم يحافظون على تلاوته بجميع حروفه وحركاته كما أُثرت عن الرسول الكريم ، وأخذوا يُعَدّون بالعشرات ، وأخذ يتبع كل قارئ منهم تلاميذ يلازمونه ويأخذون عنه قراءته بأدق صورة ممكنة ، وفى الوقت نفسه أخذ قُرّاء موثّقون يروون قراءات عن ابن مسعود إمام أهل الكوفة أو عن على بن أبى طالب أو عن غيرهما من جلة الصحابة ، فتكاثرت القراءات ، حتى لنجد أبا عبيد القاسم بن سلام يؤلف كتابًا يحتوى على أكثر من عشرين قراءة .

ونمضى بعده إلى العصر العباسى الثانى ، فتستمر القراءات فى كثرتها ، وتبدو الحاجة واضحة إلى عالم بالقراءات يختار منها طائفة تذيع وتنتشر فى العالم الإسلامى ، ويؤكد الحاجة إلى ذلك أن بعض القُرَّاء كان لا يجد حرجًا فى القراءة بشواذ منها متناهية فى الشذوذ[1] ، وحينئذ تجرَّد للنهوض بهذه المهمة الخطيرة أبو بكر أحمد[2] ابن موسى بن مجاهد التميمى إمام القُرَّاء ببغداد منذ سنة ٢٩٠ فأكبَّ على القراءات وكتبها المصنفة ، واستخلص منها سبعًا هى قراءات نافع فى المدينة وعبد الله بن كثير فى مكة وعاصم وحمزة والكسائى فى الكوفة وأبى عمرو بن العلاء فى البصرة وعبد الله بن عامر فى دمشق ، اتخذها إمامًا للناس ، وألف فى ذلك كتابه السبعة ، وكل من يراجعه يرى الجهد الهائل الذى أدَّاه عن علماء القراءات فى عصره ، فكل إمام من السبعة تُذْكَرُ الطرق التى روى بها ابن مجاهد قراءته ، وينص فى الكتاب على الاختلاف بين الطرق للإمام الواحد فضلا عن الطرق مجموعة لكل الأئمة . وانبرى من بعده تلميذه أبو على الفارسى لكتابة شرحٍ على هذا المصنف : « السبعة » يحتج فيه لوجوه القراءات المبثوثة به وجهًا وجهًا ، سماه كتاب الحجة . وألف ابن مجاهد كتابًا ثانيًا فى شواذ القراءات ، عُنى ابن جنى بشرحه على نحو ما عُنى أستاذه أبو على الفارسى بشرح السبعة ، سماه المحتسب ، وهو محقق ومنشور بالقاهرة .

ونما تفسير القرآن الكريم فى هذا العصر نمواً واسعًا ، واتضحت فيه اتجاهات أربعة سيطرت على اتجاهاته فى العصور التالية ، هى اتجاه التفسير بالمأثور ، والتفسير بالرأى أو التفسير الاعتزالى ، والتفسير الشيعى ، والتفسير الصوفى ، أما التفسير بالمأثور فقد بلغ القمة المرجوَّة التى كانت تنتظره عند محمد بن جرير الطبرى ، إذ استطاع أن يجمع فى تفسيره عن طريق الروايات المسندة كلَّ ما أثر

---

(١) انظر فى ذلك مقدمتنا لكتاب السبعة لابن مجاهد (طبع دار المعارف) حيث أوضحنا هناك موقف ابن مجاهد من معاصره ابن شنبوذ لقراءته حروفاً تخالف مصحف عثمان المجمع عليه ، وكذلك موقفه من ابن مقسم العطار لقراءته حروفاً تخالف الإجماع وإن كانت موافقة لخط المصحف العثمانى ومعروف أنه لم يكن منقوطاً ، فكان يصحِّف بعض الكلمات ويستخرج لها وجوهاً ظنية . وكل منهما ناظره ابن مجاهد واعترف بخطئه وتوبته من صنيعه بحضرة القراء والفقهاء .

(٢) انظر فى ترجمة ابن مجاهد طبقات القراء لابن الجزرى ١ / ١٣٨ وطبقات الشافعية ٣/ ٥٧ والنجوم الزاهرة ٣/ ٢٥٨ .

عن التابعين والصحابة فى تفسير الآى القرآنية . وكان الصحابة يحملون كل ما ذكره الرسول من تفسير لبعض آياته وبعض كلماته . وتفسير الطبرى من هذه الناحية يمكن أن يُستَخلَص منه تفسير الرسول عليه السلام ، وكذلك من عُرفوا بكثرة التفسير من الصحابة والتابعين مثل ابن عباس وابن مسعود وتلاميذهما من مثل مجاهد وعكرمة . ومما يلاحظ عنده أنه لم يتوسع فى حَمْل الإسرائيليات ، إذ كان يرى أنه لا غناء فيها وخاصة فى التفاصيل التى لا يضر الجهل بها ، كمسألة المائدة التى أُنزلت على عيسى فى سورة المائدة فى الآيات ١١٢ إلى ١١٥ فإنه وجد عند أصحاب الإسرائيليات من يتحدثون عما كان عليها من طعام هل كان سمكاً أو خبزاً أو ثمراً من ثمار أهل الجنة فقال إن العلم بذلك غير نافع ، وبالمثل الآية رقم ٢٠ من سورة يوسف إذ باعه إخوته (بثمن بَخْس دراهم معدودة) فقد وجدهم يتساءلون عن عدد الدراهم . هل كانت عشرين أو اثنين وعشرين أو أربعين ، فأضرب عن ذلك قائلا إنه « ليس فى العلم بمبلغ ذلك فائدة تقع فى دين . . . والإيمان بظاهر التنزيل فرض وما عداه فموضوعٌ عنا تكلف علمه » . ودائماً يذكر مع كل آية القراءات المختلفة فيها ، ويعرض لمعنى الكلمات من الوجهة اللغوية ويستشهد عليه بالأشعار الجاهلية والإسلامية ، وكثيراً ما يفضّل شرح معنى للفظ على شرح معنى آخر . وكان يأخذ بفكرة حرية الإرادة التى أخذ بها المعتزلة ، ولكنه لم يتعصب لهم ، بل جادلهم فى بعض آرائهم وردّها عليهم من مثل رأيهم فى الرؤية البصرية لله وتأويلهم لها ويعلن مراراً أنه يقف مع السلف كما فى الآية رقم ٧٤ من سورة البقرة وأنه يحسن أن يراعى المفسر المعنى الظاهر للفظ بدون تأويل ، والأساس الذى لا محيد عنه هو عرض أقوال الصحابة والتابعين وعلماء الأمة لتبين معانى التنزيل الصحيحة الدقيقة .

ومنذ القرن الثانى يرجع المعتزلة إلى القرآن مفسرين مستشهدين ومتمثلين ، محتكمين إلى عقولهم ، ومحاولين أن يطابقوا بينه وبين آرائهم ، وأداهم ذلك إلى أن يحملوا منذ أول الأمر على أصحاب التفسير بالمأثور الذين كانوا يقفون أحياناً مع ظاهر الآيات . وكانوا أحياناً لا يحكّمون عقولهم فيما يسمعون ، فيروون غرائب لا يصدقها العقل السليم ، وفى الجزء الرابع من كتاب الحيوان للجاحظ حملات شعواء للنظام

على أمثال هؤلاء المفسرين ، وكان طبيعيًّا ألا يقفوا عند تفسير آيات بعينها تخالف آراءهم الاعتزالية ، بل يحاولوا بسط هذه الآراء فى تفسير القرآن جميعه ، وأول تفسير عندهم هو تفسير أبى بكر الأصم المتوفى حوالى منتصف القرن الثالث وتفسيره مفقود ، وأهم منه تفسير أبى على الجُبّائى محمد بن عبد الوهاب المتوفى سنة ٣٠٣ ، وهو بيد بعض المحققين بالقاهرة فى سبيل نشره ، ولابد أنه يمتلئ بالتأويلات الاعتزالية ، ولا ريب فى أن الزمخشرى انتفع به فى تفسيره انتفاعًا كبيراً .

وتأويلات المعتزلة لآى الذكر الحكيم إنما كانت تأويلات عقلية ، وكان وراءهم فريقان يؤولان القرآن تأويلات اعتقادية ، وهم الشيعة والصوفية ، وكان الشيعة يخرجون عن ظاهر القرآن ملتمسين تأويلات بعيدة ، إذ يذهبون إلى أن لفظًا بعينه يُقْصَدُ به علىّ أو غيره من أئمتهم وأن لفظًا آخر يقصد به خصم من خصومهم ، وصور ذلك ابن قتيبة عنهم ، فقال إن منهم من يزعم أن الجبْت والطاغوت فى الآية رقم ٦٠ من سورة النساء هما معاوية وعمرو بن العاص[1] . ونسبوا لأئمتهم تفسيرات مبكرة ، فى مقدمتها تفسير نسبوه إلى جعفر الصادق المتوفى سنة ١٤٨ وتفسير ثان نسبوه إلى الحسن العسكرى المتوفى سنة ٢٦٠ وهو آخر الأئمة الظاهرين عند الإمامية. وتفسيراتهم من هذه الناحية تُطْبَعُ بطابع الرواية عن أئمتهم وآل البيت بعامة . أما تأويل المتصوفة حينئذ فلم يكن يبعد عن ظاهر اللفظ بُعْدَ التفسير الشيعى ، إذ كان كل مأربه أن يوضح من خلال بعض الآيات بعض الأفكار الصوفية ، وربما كان أقدم تفسير لهم هو تفسير سهل التُّسْتَرِىّ المتوفى حوالى سنة ٢٨٣ ونراه فى آية سورة النور : (الله نور السموات والأرض — إلى قوله : والله بكل شىء عليم) يجعل النور المحمدى فى سابق الأزل أساسًا للآية . وكأن سهلا سبق الحلاج فى فكرة النور المحمدى الأزلى .

وقد عرضنا فى كتاب العصر العباسى الأول لتطور منهج التأليف فى الحديث النبوى وأنه بدأ بتصنيفه على أبواب الفقه غالبًا . وأن خير ما يصور هذه الطريقة

(١) انظر تفسير غلاة الشيعة فى كتاب تأويل مختلف الحديث لابن قتيبة ص ٨٤ .

كتاب الموطأ لمالك بن أنس المتوفى سنة ١٧٩ ثم نشأت طريقة ثانية توزّع فيها الأحاديث على رواتها من الصحابة ، فتجمع الأحاديث مثلا التى رواها أبو هريرة بدون نظر إلى اختلاف موضوعاتها الفقهية ، فالأساس وحدة الصحابى لا وحدة الموضوع ، على نحو ما هو معروف عن مسند ابن حنبل المتوفى سنة ٢٤١ ، وظل محدّثون يؤلفون على هذه الطريقة حتى نهاية هذا العصر مثل أبى عبد الله محمد بن نصر المروزى المتوفى سنة ٢٩٤ وتوجد من مسنده مخطوطتان بمكتبة دار الكتب المصرية . وأخذت تقترن بهذه الطريقة سريعًا طريقة ثانية هى امتداد للطريقة الأولى آنفة الذكر ، وكأنما رأوا أن الإفادة من طريقة المسانيد يكتنفها غير قليل من الصعوبة إذ لا بد لمن يريد الاطلاع على حديث، لراوٍ من الصحابة فى مسألة من مسائل الفقه، من قراءة كل ما له من أحاديث، وكانت دراسات الفقه نمت حينئذ واحتاج الفقهاء إلى الاطلاع سريعًا على بعض الأحاديث للاحتجاج بها فى كتبهم وضد مجادليهم ، وأول مصنَّف وصلنا من هذه الطريقة هو مصنف عبد الله بن محمد بن أبى شيبة المتوفى سنة ٢٣٥ . ثم ألفت مصنفاتها الستة المشهورة ، وهى الجامع الصحيح للبخارى المتوفى سنة ٢٥٦ والصحيح لمسلم المتوفى سنة ٢٦١ والسنن لابن ماجه المتوفى سنة ٢٧٣ وسنن أبى داود المتوفى سنة ٢٧٥ والجامع للترمذى المتوفى سنة ٢٧٩ وسنن النَّسائى المتوفى سنة ٣٠٣ وتُعَدّ أصح كتب الحديث المؤلفة لا فى هذا العصر وحده بل فى جميع العصور . ولم يكن الاعتماد فى هذه المصنفات وما يماثلها على دراسة الكتب ، وإنما كان الاعتماد على الرواية ولقاء الرجال ، مما جعل المحدّثين يرحلون إلى الأمصار الإسلامية المختلفة يجمعون من هنا وهناك ما تفرق من الأحاديث على نحو ما هو معروف عن البخارى فى تطوافه بأكثر مدن خراسان وإيران والعراق والشام والحجاز ومصر . وظل المحدّث الكبير يعتمد على حافظته فى إملائه الأحاديث ، وكانوا إذا نزلوا بلداً ربما تعرضوا لامتحان العلماء لهم كى يعرفوا مدى حفظهم ، ويُحْكى عن البخارى أنه قدم بغداد ، فاجتمع أصحاب الحديث ورأوا اختباره فعمدوا إلى مائة حديث ، قلبوا متونها وأسانيدها بأن جعلوا الإسناد مع غير متنه ، واجتمع الناس ، فألقوها على البخارى ، فأنكرها حديثًا حديثًا ، حتى إذا فرغوا أخذ يرويها رادًّا كل متن إلى إسناده ، وله فى

ذلك حكايات أخرى عجيبة[١] . ومن طريف ما يروى فى هذا الجانب أن أبا داود صاحب السنن المذكور آنفاً كان له ابن من حفاظ الحديث هو عبد الله قدم سجستان ذات مرة ، فسألوه أن يحدّثهم ، فقال لهم : ليس معى أصل ، فقالوا متعجبين : ابن أبى داود وأصول ! وأثاروه ، فأملى عليهم ثلاثين ألف حديث من حفظه ، وعاد إلى بغداد فوجد المحدّثين يذكرون قصته مع غير قليل من الريبة ، ولم يلبثوا أن أرسلوا إلى سجستان من يكتب لهم نسخة من الأحاديث التى أملاها ، فكُتبت وجىء بها ، وعُرضت على الحفاظ ، فخطّأوه فى ستة أحاديث ، منها ثلاثة حدّث بها كما سمعها، وثلاثة أخطأ فيها ، وكأنه لم يخطئ فى كل عشرة آلاف حديث إلا فى حديث واحد[٢] .

ولا بد أن نقف قليلا عند البخارى ومسلم لنرى مبلغ دقتهما فى رواية الحديث ورفضهما لضعيفه ، أما البخارى[٣] محمد بن إسماعيل فقد أمضى ستة عشر عاماً يجمع صحيحه من أفواه الرواة الثقات فى مختلف الأمصار ، وكل حديث معه سنده من زمنه إلى زمن الصحابى راويه الأول ، وهو يدرس ويفحص ، حتى لا يروى إلا الحديث الصحيح الذى لا يرْقَى إليه شك ، يفحص المتون ويفحص الرواة ليعرف المتهم من الوثيق عقيدة وقوة حافظة وخلوا من شوائب الكذب والغفلة ، ولذلك كان طبيعيًّا أن يؤلف تاريخه الكبير فى الرجال ، ويروون عنه أنه كان يقول : « قلّ اسم فى التاريخ إلا وله عندى قصة » وكان عفّ اللسان لا يشتد فى تجريح المتهمين من الرواة، بل يكتفى بمثل قوله : « فيه نظر » أو « سكتوا عنه » أو « هو منكر الحديث » . وجمع فى صحيحه — كما يقول ابن حجر فى مقدمته لشرحه عليه — ٧٣٩٧ حديثاً وإذا أضفنا إلى ذلك الأحاديث التى استأنس بها بلغت أحاديثه ٩٠٨٢، ويقال إنه انتخبها من نحو مائتى ألف حديث محكّماً فى انتخابه شروطاً غاية فى الشدة ، حتى يحيطها بأقوى سياج من الصحة والثقة . وأول شروطه

---

(١) طبقات الشافعية ٢ / ٢١٨ .

(٢) السبكى ٣ / ٣٠٨ .

(٣) انظر فى ترجمته تهذيب التهذيب ٩ / ٤٧ وشذرات الذهب ٢ / ١٣٤ وطبقات الحنابلة بن أبى يعلى (طبع القاهرة) ١/ ٢٧١ وكتاب الجرح والتعديل لابن أبى حاتم (طبع حيدر آباد) ق ٢ ج٣ ص١٩١ وفيات الأعيان لابن خلكان (طبعة محمد محيى الدين عبد الحميد) ٣ / ٣٢٩ .

أن يكون الإسناد متصلا ، فلا يسقط من رواته أحد ، وأن يكون كل راو مسلماً ، معروفًا بالصدق ، وعدم التدليس ، والتخليط ، عدلا ، ضابطًا ، حافظًا ، سليم الذهن ، قليل الوهم ، سليم الاعتقاد ، وكان يرى أن رواة كل إمام من أئمة الحديث يختلفون فى درجة الصلة به . فأصحاب الدرجة الأولى من لازموه فى السفر والحضر ، ووراءهم من لم يلازموه سوى مدة قصيرة ، واشترط فى رواة أسانيده أن يكونوا من أصحاب الدرجة الأولى ، وبذلك اشترط فى الراوى المشافهة والملازمة . وقد يقال إن فى الصحيح أحاديث لايتصل فيها الرواة بريدون التى ذكرت — كما قدمنا — للاستئناس فقط ، وقد أخرجها ابن حجر فى عده لأحاديث الكتاب كما مرَّ آنفًا وكتاب الجامع الصحيح يبدأ بالحديث عن الوحى والإيمان وتتوالى كتب الفقه وأبوابه ، ويقحم عليها أبوابًا أخرى كحديثه عن بدء الخلق والجنة والنار وتراجم الأنبياء ومناقب قريش وفضائل الصحابة والمهاجرين والأنصار والسيرة النبوية والمغازى والأطعمة والأشربة والأدب وتعبير الرؤيا . وختمه بكتاب التوحيد . وهو موزع على ٩٧ كتابًا تشتمل على ٣٤٥٠ بابًا وبعضها فيه أحاديث كثيرة وبعضها فيه حديث واحد ، وقد يوضع عنوان الباب دون كتابة شىء تحته ، وكأنه كان ينوى أن يكتب فيما بعد تحته بعض الأحايث وعاجله الموت . ومعروف أن الكتاب لم يكن قد وُضع فى صورته النهائية . وهو يُعَدّ بحق أصحّ كتب الحديث إذ تحرَّى البخارى فى جمعه تحريًّا ليس له سابقة ولا لاحقة فى تاريخ مصنفات الحديث ، باذلا جهداً عنيفًا تنقطع دونه الأمانى .

وأما مسلم فهو مسلم[1] بن الحجاج القشيرى النيسابورى المتوفى سنة ٢٦١ وصحيحه مثل صحيح البخارى فى الثقة والمنزلة ، وقد روى أكثر أحاديث البخارى ولكن بطرق أخرى غير طرق أسانيده ، ورتبه على كتب الفقه وأبوابه كما صنع البخارى ، ولكنه لم يستكثر منها مثله . ونراه فى مقدمة صحيحه يذهب إلى أن الأحاديث ثلاثة أقسام : قسم رواه الحفاظ المتقنون لا يَرْقَى إليه الشك . وقسم رواه المستورون المتوسطون فى الحفظ وهو يهبط درجة عن سابقه ،

(١) انظر فى مسلم تاريخ بغداد ١٣/ ١٠٠ وتذكرة الحفاظ للذهبى (طبع حيدر آباد) ٢/ ١٦٧ ومرآة الجنان لليافعى ٢/ ١٧٤ ومقدمة النووى بشرحه عليه .

وقسم رواه الضعفاء والمتروكون ، ويقول إنه إذا فرغ من رواية القسم الأول أتبعه القسم الثانى ، أما القسم الثالث فإنه يهمله ولا يعرّج عليه . وتصريحه بأنه يروى من القسم الثانى جعل المحدثين من قديم يضعون صحيحه فى منزلة دون منزلة صحيح البخارى ، بل إن منهم من حمل عليه مثل أبى زرعة[١] الرازى . على أن هناك من قدمه على صحيح البخارى[٢] لأنه أدق منه تأليفاً ، وساد ذلك خاصة بين حفاظ المغرب فكانت كثرتهم تفضله على صحيح البخارى . والحق أنه لا يفضله من وجهة التوثيق الخالصة ، لسبب مهم ، وهو أن البخارى اشترط فى الرواة الملازمة فى السفر والحضر لمن يروون عنهم ، فى حين تخفف من ذلك مسلم ، فاكتفى بالمشافهة والمعاصرة ولم يطلب الملازمة . ومما لا ريب فيه أن صحيح مسلم مع ذلك يُعَدّ فى الذروة من التوثيق ، إذ كان دقيقاً غاية الدقة ، حتى إنه ليذكر الفروق بين روايات الحديث ، ولو كانت حرفاً ، وكان على علم لا يبارَى فى معرفة رجال الحديث الموثّقين والمتهمين . وذكروا أن عدد أحاديثه نحو ٧٢٧٠ حديثاً . وهو مع صحيح البخارى أعلى كتب الحديث منزلة وأوفرها حظاً من الصحة والتوثيق ويليهما الكتب الأربعة التى سميناها آنفاً والتى يطلق عليها معهما اسم كتب الصحاح الستة ، وهى سنن أبى عبد الله محمد بن يوسف بن ماجه[٣] القزوينى وقد اشتهر برحلاته الكثيرة فى ديار الإسلام ، وتُعَدّ هذه السنن أضعف كتب الصحاح الستة لأن ابن ماجه ضمنها كثيراً من الأحاديث الضعيفة ، ويقال إنها لم توضع فى سلك الكتب الستة إلا منذ المائة السادسة للهجرة ، والكتاب الثانى سنن أبى داود سليمان[٤] بن الجارود بن الأشعث الأزدى السجستانى ، ولم يسلك فيها غير أحاديث الفقه والتشريع ، ولعله لذلك حظى بتقدير رفيع بين المحدثين . وثالث الكتب الجامع لأبى عيسى محمد[٥] ابن عيسى بن سهل الترمذى وقد عُنى فيه بأحاديث الأحكام وذكر معها من احتج بها من أهل المذاهب . ولذلك كان الكتاب يفيد فائدة جُلَّى مَنْ يُعْنَوْنَ

(١) تاريخ بغداد ٤/ ٢٧٤

(٢) طبقات الشافعية ٣/٢٧٦ .

(٣) تذكرة الحفاظ للذهبى ٢ / ٢٠٩

(٤) انظر فى ترجمة أبى داود تاريخ بغداد ٩ / ٥٥ وتذكرة الحفاظ ٢ / ١٦٧ ومرآة الجنان لليافعى ٢ / ١٨٩ وطبقات الشافعية ٢ / ٢٩٣ .

(٥) انظر تذكرة الحفاظ ٢/١٨٧/ والتهذيب لابن حجر ٩ / ٣٨٧ وميزان الاعتدال ٣/١١٧/ والأنساب للسمعانى الورقة ١٠٦ .

بدراسة الخلاف بين الفقهاء . ورابع الكتب سنن أبى عبد الرحمن أحمد[١] بن شعيب ابن على النَّسائى ، وقد عنى فيه بصيغ ونصوص فى المعاملات ، كما عنى برواية أحاديث الاستعاذات والأدعية التى تقال فى الصلاة . وبجانب هذه الصحاح الستة ألفت كتب أحاديث مختلفة فى العصر ، كما ألفت كتب مختلفة فى الرجال أى رواة الحديث ، من أهمها تاريخ البخارى الذى أشرنا إليه ، ويلحقه فى الأهمية كتاب التاريخ الكبير لأبى بكر أحمد ابن أبى خيثمة زهير بن حرب تلميذ ابن حنبل المتوفى سنة ٢٧٩ وفيه تحدث عن تعديل الرواة وتجريحهم . وعُنيت البيئات الشيعية بأن يكون لها حظ فى الاهتمام بالحديث ، ومن أهم الكتب التى صنفتها كتاب جامع لأحاديث الإمامين : جعفر الصادق وموسى الكاظم ، جمعه أبو العباس عبد الله بن جعفر بن الحسين بن مالك بن جامع الحميرى القمى فى أواخر القرن الثالث الهجرى. وواضح من ذلك كله مدى النشاط الذى نهض به المحدثون فى تأليف كتب الحديث لهذا العصر ، ويكفى أنه ألفت فيه كتب الصحاح الستة التى شغلت المحدثين بالتعليق والشرح والتفسير طوال العصور الماضية .

وكان هذا العصر متمماً للعصر العباسى الأول فى نشاط الدراسات الفقهية والتشريعية ، وقد رأينا هناك كيف أن المذاهب الفقهية الأربعة تكونت نهائيًّا ، وظل الاجتهاد نشيطًا ، فالفقهاء يجتهدون ويتناظرون ويختلفون ويكثرون من التآليف والمصنفات ، وتظهر مذاهب ثانوية لا يُكْتَبُ لها البقاء ، سوى مذهب داود الظاهرى ، ولكن ظهورها يحمل الدلالة الواضحة على حرية الاجتهاد الفقهى حينئذ وأن أبوابه كانت مفتوحة على مصاريعها . وكان طبيعيا أن يصبح لكل مذهب مجموعة كبيرة من أساتذته وشيوخه يذيعونه فى العالم الإسلامى ، ومن أهمهم فى المذهب الحنفى أبو بكر أحمد[٢] بن عمر الشيبانى الخصاف المتوفى سنة ٢٦١ وله كتاب أحكام الوقف وهو منشور بالقاهرة وكتاب الحيل والمخارج فى الفقه ، وهو منشور فى هانوفر والقاهرة . ولا يقل عنه أهمية فى هذا المذهب أبو جعفر

---

(١) انظره فى تذكرة الحفاظ ٢ / ٢٧٦ والتهذيب لابن حجر ١ / ٣٦ ومرآة الجنان اليافعى ٢ / ٢٤٠ وشذرات الذهب ٢ / ٢٣٩ والسبكى ٣ / ١٤

(٢) انظر فى الخصاف الجواهر المضية لابن أبى الوفاء ١ / ٨٧ والفوائد البهية للكنوى ١٧ .

أحمد[١] بن محمد بن سلامة الحَجْرى الطحاوى المتوفى سنة ٣٢١ وقد انتهت إليه بمصر رياسة أصحاب أبى حنيفة ، وهو الذى نشر بها المذهب وعمل على إذاعته ، وله معانى الآثار ، وهو منشور فى جزأين بمدينة لكنو وكتاب مشكل الآثار وهو منشور بحيدر آباد ، ولا تزال له كتب كثيرة غير منشورة أحصاها بروكلمان . وقد حمل المذهب المالكى عن مؤسسه مالك بن أنس كثيرون فى مصر والمغرب والأندلس ولمع من فقهاء المذهب فى هذا العصر عبد السلام[٢] بن سعيد بن حبيب التنوخى المشهور باسم سحنون القيروانى المتوفى سنة ٢٤٠ وهو الذى نشر المذهب فى المغرب ودفعه إلى أن يشيع فى جميع أرجائها . وله فيه مصنفه الذى ظل اسمه يدوّى هناك منذ ظهوره ، وهو المدونة الكبرى التى لا تزال تتّخذ المرجع الأساسى بتلك الديار لتعليم الفقه المالكى وتدريسه ، وقد نُشرت بالقاهرة من قديم ، ونشرت لها شروح مختلفة . وقد خلف الشافعى وعمل على نشر مذهبه وعُنى بالتصنيف فيه كثيرون فى مقدمتهم تلاميذه المصريون : البويطى والربيع المرادى ، وأهم منهما المُزَنى[٣] أبو إبراهيم إسماعيل بن يحيى المتوفى سنة ٢٦٤ ناصر المذهب وبدرسمائه كما يقول السبكى ، وله مختصر من علم الإمام النفيس محمد بن إدريس ظل الشافعية يتدارسونه طويلا ، وفيه يقول أبو العباس أحمد بن سريج المتوفى سنة ٣٠٦ أكبر أئمة المذهب لأواخر القرن الثالث الهجرى الذى انتشر منه فى أكثر الآفاق[٤] :

لَصِيقُ فؤادى منذ عشرين حجَّةً ... وَصَيْقَلُ ذهنى والمفرِّج عن هَمِّى
جَموعٌ لأَصناف العلوم بأَسْرها ... فأَخلقْ به أنْ لا يفارقه كُمِّى

وطُبع هذا المختصر على هامش كتاب الأم للشافعى . وكان أحمد بن حنبل قد تتلمذ للشافعى ثم استقل بمذهب فقهى خاص اعتمد فيه على الحديث النبوى ، وبذلك عُدَّ مذهبه ممثلا لأهل السنة . ومن أهم أتباعه فى هذا العصر

---

(١) راجعه فى الجواهر المضية ١ / ١٠٢ وتذكرة الحفاظ للذهبى ٣ / ٢٩ والأنساب للسمعانى ١٥٧ وتاريخ دمشق لابن عساكر ٢ / ٥٤٢ والنجوم الزاهرة ٣ / ٢٣٩ .

(٢) انظره فى الديباج المذهب لابن فرحون (طبع فاس) ١٧١ وابن خلكان ومرآة الجنان لليافعى ٢ / ١٥١ .

(٣) انظره فى وفيات الأعيان وشذرات الذهب ٢ / ١٤٨ والأنساب للسمعانى ٥٢٧ ومرآة الجنان لليافعى ٢ / ١٧٧ والنجوم الزاهرة ٣ / ٣٩ وطبقات الشافعية للسبكى ٢/ ٩٣.

(٤) السبكى ٣/ ٣١ .

أبو القاسم عمر[١] بن الحسين بن عبد الله الخرق المتوفى سنة ٣٣٤ ، وله فى الفقه الحنبلى كتاب المختصر فى الفقه ، طُبع فى القاهرة بشرح عبد الله بن أحمد ابن قدامة أكبر أئمة المذهب الحنبلى فى القرن السابع الهجرى .

وهيأ الاجتهاد الفقهى الواسع فى هذا العصر لظهور مذاهب فقهية وراء المذاهب الأربعة الكبرى، برز منها خاصة المذهب الظاهرى نسبة إلى أبى سليمان[٢] داود بن على بن خلف الأصبهانى الظاهرى المتوفى سنة ٢٧٠ ، وكان يتبع فى أول أمره مذهب الشافعى ويتعصب له ، ثم أسس له مذهبا عُرف بمذهب أهل الظاهر ، وهو مذهب يقوم على إنكار القياس فى الدين ومسائل التشريع ، لأن القياس عقلى والدين إلهى ، ويكفى لبيان الأحكام ما فى القرآن والحديث من عموم . ومن أجل ذلك كان يرى الوقوف عند ظاهر الكتاب والسنة وعدم فتح الأبواب للقياس والآراء التى تنبثق عنه . وفى رأينا أن ظهور هذا المذهب يُعَدّ إشارة واضحة فى العصر إلى بروز نزعة محافظة قوية فى دراسات الفقه ، وقد كُتب له أن يذيع فى الأندلس والمغرب فيما بعد ، وأن يتحمّس له فقهاء نابهون مثل ابن حزم ، بل أحيانًا دول مثل دولة الموحدين فى الأندلس والمغرب .

٥

الاعتزال وانبثاق المذهب الأشعرى

مرّ بنا فى كتاب العصر العباسى الأول كيف نشأ الاعتزال ونما وازدهر وكثر أعلامه وأتباعه ، وكيف أحالوا البصرة وبغداد إلى ساحتين كبيرتين للجدال فى المسائل العقيدية والدفاع عن الدين الحنيف وكل ما اتصل به من توحيد الله وحقائق النبوة والثواب والعقاب فى الآخرة ، ولم يكونوا يوجهون دفاعهم إلى أصحاب الملل والنِّحل الأخرى فحسب، بل أيضًا إلى المجبرة والمرجئة والشيعة الغالية، ونازلوا الدهريين

---

(١) طبقات الحنابلة لابن أبى يعلى ٣٣١ والأنساب للسمعانى ١٩٥ وتاريخ بغداد ٢٣٤/١١ والنجوم الزاهرة ٣ / ٢٨٩ .

(٢) انظره فى تاريخ بغداد ٣٦٩/٨ والسبكى ٢ / ٢٨٤ واليافعى ٢ / ١٨٤ والنجوم الزاهرة ٣ / ٤٧ وشذرات الذهب ١٥٨/٢

والمانويين الثَّنَوْيين نزالا عنيفًا . وكانت مناظراتهم لهذه الفرق لا تتوقف يومًا ، والناس يتجمعون حولهم فى المساجد يسمعون ويتفرجون ، وقد جذبوا الشباب إليهم ، بحيث كانت حلقاتهم أكبر الحلقات وأوفرها سامعين . وقد عكفوا على الثقافات والمعارف الأجنبية يتزودون بها ، وخاصة الفلسفة اليونانية وما يتصل بها من منطق ، وسرعان ما كوَّنوا لأنفسهم مذهبًا ضخمًا تميز بأصوله الخمسة المعروفة ، وهى التوحيد والعدل والوعد والوعيد والأمر بالمعروف والنهى عن المنكر والقول بأن مرتكب الكبيرة فى منزلة وسطى بين منزلتى المؤمن والكافر . وأخذوا على هدى ثقافتهم يتعمقون فى مسائل الطبيعة وما وراء الطبيعة ، وإذا أئمتهم ينفذون إلى آراء جديدة كل الجدة فى البحوث الطبيعية والفلسفية والإلهية ، بل إن منهم من استطاع أن يكوّن له فلسفة مستقلة ، فتلك فلسفة واصلية نسبة إلى واصل بن عطاء المتوفى لآخر العصر الأموى ، وهذه فلسفة بِشْرِية نسبة إلى بشر بن المعتمر أو ثُمامية نسبة إلى ثُمامة بن أشرس أو هُذَيْلية نسبة إلى أبى الهذيل أو نظَّامية نسبة إلى النظَّام . وعلى هذا النحو لم يتكوَّن للاعتزال أئمة أو باحثون ممتازون فقط بل تكوَّن له هؤلاء الفلاسفة فى العصر العباسى الأول ، وهو العصر الذى بلغ فيه الاعتزال الذروة المأمولة ، حتى لتصبح له السيطرة التامة على الحكم فى عهود المأمون والمعتصم والواثق ، فإذا أئمته يحملون علماء الدين كرهًا على القول بخلق القرآن ، وتنشب المحنة المعروفة ، ويُمْتَحنُ كثير من الفقهاء ويسامون العذاب . وكان ذلك نذير شؤم ، إذ أسخطوا الفقهاء والمحدِّثين والناس عليهم ، وسرعان ما دالت دولتهم مع افتتاح العصر العباسى الثانى ، إذ ولى المتوكل الخلافة ولم يلبث أن أعلن إبطال القول بخلق القرآن ، واستقدم المحدِّثين إلى سامرَّاء عاصمته وأجزل عطاياهم وأمرهم بالجلوس إلى الناس وإظهار السنة والأخذ بالتسليم . وكان من أثر ذلك أن اندحر المعتزلة على حين انتصر الفقهاء والمحدِّثون ، وأخذ كثير منهم يجرِّحون المعتزلة ، وقوى نفوذهم وسلطانهم على العامة ، ولم يستطع المعتزلة بعد ذلك أن يستردوا سلطانهم .

على أن الاعتزال استمر فى نشاطه ، وخاصة أن كثيرين من تلاميذ فلاسفته الذين سميناهم عاشوا فى العصر العباسى الثانى ، ومنهم من طالت حياتهم فيه ،

فكان طبيعياً أن يظل له جهابذته وأن تظل له حلقاته فى البصرة وبغداد ، بل إن كثيرين من المعتزلة الجدد فى العصر استطاعوا أن يكوّنوا لهم فلسفة أو كما اصطلح القدماء فرقة نسبت إليهم ، وفى مقدمتهم الجاحظ المتوفى سنة ٢٥٥ وهو تلميذ النظام ، وكان واسع الثقافة إذ لم يترك ثقافة أجنبية إلا اطلع عليها وخاصة الثقافة اليونانية وما يتصل بها من الفلسفة الطبيعية والمنطق ، وقد ظل يدافع عن المعتزلة ويجادل خصومهم جدالا عنيفاً ، وله فى ذلك كتاب مستقل سماه « فضيلة المعتزلة » . ويقول ابن المرتضى فى كتابه طبقات المعتزلة : « إنه أُغْرِىَ بشيئين : كون المعارف ضرورية والكلام على الرافضة [١] » والمراد الرد على الرافضة من الشيعة وبيان ما فى اعتقاداتهم من فساد. ويفسر الأشعرى قوله بأن المعارف ضرورية بأنه كان يذهب إلى أن « ما بعد الإرادة فهو للإنسان بطبعه وليس باختيار ، وليس يقع منه فعل باختيار سوى الإرادة [٢] » ويزيد الشهرستانى ذلك بياناً بقوله : « انفرد الجاحظ بمسائل منها قوله إن المعارف كلها ضرورية طباع وليس شىء من ذلك من أفعال العباد ، وليس للعبد كسب سوى الإرادة وتحصل أفعاله منه طباعاً » . [٣] ويقول البغدادى فى الفَرْق بين الفِرَق . « مما نسب إلى الجاحظ قوله : « إن المعارف كلها طباع ، وهى مع ذلك فعل للعباد وليست باختيار لهم ، ووافق ثمامة ابن الأشرس فى أن لا فعل للعباد إلا الإرادة ، وأن سائر الأفعال تنسب إلى العباد على معنى أنها وقعت منهم طباعاً وأنها وجبت بإرادتهم [٤] » . ولعل فى ذلك كله ما يوضح رأيه فى أن المعارف ضروريةٌ طباعٌ ، يريد أنها تحصل بلا اكتساب ، إنّما كل ما هناك أن الإنسان يوجه إليها إرادته ، فتحدث اضطراراً وطبيعة ومثلها أفعال الإنسان تحدث طبيعة واضطراراً ما دامت قد اتجهت إليها إرادته ، فالمدار على الإرادة ، وما يحدث بعدها فناشئٌ عنها ، ويقول الشهرستانى إنه : « كان يقول بإثبات الطبائع للأجسام كما قال الطبيعيون من الفلاسفة ، وقال باستحالة عدم الجواهر فالأعراض تتبدل والجوهر لا يجوز أن يفنى » ، ويقول أحمد أمين : « وهى عبارة

---

(١) انظر كتاب طبقات المعتزلة لابن المرتضى (طبع بيروت) ص ٦٧ .

(٢) مقالات الإسلاميين ٢ / ٤٠٧ .

(٣) الملل والنحل للشهرستانى (طبع مؤسسة الحلبى) ١ / ٧٥ .

(٤) الفرق بين الفرق للبغدادى ص ١٧٥ .

على إيجازها تدل على معان عديدة فهو يقرر فيها القوانين الطبيعية للأشياء، فللماء وللنار ولأشياء هذا العالم كلها قوانين طبيعية لا تتخلف ، وهو يقرر المبدأ الهام الحديث وهو أن المادة لا تنعدم ، فالجوهر عنده لا يفنى وإنما تتغير الأعراض فجوهر المادة ثابت لا ينعدم ، وإنما يتحول ويتغير فيكون مرة ماء ومرة زرعًا ومرة معدنًا ومرة خشبًا ، وهذه كلها أعراض طارئة على المادة ،وإن شئت فقل : إنها طارئة على العناصر الأولية التي تتكون منها المواد[1]» . وذكر الشهرستانى تكملة لنظرية الجاحظ فى الطباع أنه كان يقول فى أهل النار «إنهم لا يخلدون فيها عذابًا بل يصيرون إلى طبيعتها » ، وأنه كان يقول : النار فى الآخرة تجذب أهلها إلى نفسها بدون أن يدخل أحد فيها ، فهى التى تدخلهم نفسها وتخلدهم فيها . وقد رد أبو الحسين الخياط على نسبة هذا القول إلى الجاحظ ، وقال إنه مما نسبه إليه ابن الراوندى الكذاب ، وقال إنه كذب عليه أيضًا فى نسبته إليه إحالة فناء الأجساد وعدمها [2]. ولعل فى ذلك ما ينبهنا إلى أنه يجب الاحتياط فى التعرف على آراء المعتزلة وأنه يحسن استقاؤها من كتبهم الخاصة .

وعاصر الجاحظ وتلاه كثير من المعتزلة فى البصرة وبغداد ، وهم يكونون فى هذا العصر الطبقات السابعة والثامنة والتاسعة من كتاب طبقات المعتزلة لابن المرتضى ، ومن أهمهم أبو يعقوب يوسف بن عبد الله بن إسحق الشحام من أصحاب أبى الهذيل ، وإليه انتهت رياسة المعتزلة فى البصرة فى وقته[3] ، وكان يعاصره فى بغداد جعفر بن مبشر وجعفر بن حرب ، وكانا ورعين زاهدين ، ويسوق أبو الحسين الخياط فى كتابه الانتصار بعض آرائهما ، ويذكر أن أولهما صنف كتبًا كثيرة فى الفقه ، وأن له كتابًا فى الرد على أصحاب الرأى والقياس فى الشريعة[4] .

ومن تلامذة جعفر بن مبشر أبو الحسين عبد الرحيم بن محمد بن عثمان الخياط الذى عاش حتى نهاية القرن الثالث الهجرى . وكان من أكثر المعتزلة علماً بأقوالهم

(١) ضحى الإسلام (طبع ونشر مكتبة النهضة — الطبعة السابعة) ٣ / ١٣٥ .

(٢) الانتصار للخياط ص ٢١ — ٢٢ .

(٣) طبقات المعتزلة ص ٧١ .

(٤) الانتصار ص ٨١ .

واختلافاتهم ، وكان فقيهاً مثل أستاذه ومحدِّثاً مرموقاً . وله كتب كثيرة فى الرد على ابن الراوندى ، نُشر منها — كما مر بنا فى غير هذا الموضع — كتاب الانتصار والرد على ابن الراوندى الملحد ، وهو يدل بوضوح على سعة معرفته بآراء المعتزلة ، وكان ابن الراوندى نسب إليهم آراء كثيرة غير صحيحة ، فزيَّفها وبيَّن بطلانها ، ومن عجب أن نرى البغدادى فى الفرق بين الفرق والشهرستانى فى الملل والنحل ينسبان إليهم بعض هذه الآراء ، كما يتضح من المقارنة بين ما جاء فيهما عن الجاحظ مثلا وما جاء فى كتاب الانتصار . ويمكن من هذا الكتاب استخلاص كثير من آراء الخياط مؤلفه ، ومن آرائه المهمة ذهابه إلى أن المعدوم يُعَدّ شيئاً ، محتجا بأن الشيء ما يعلم ويخبر عنه ، وبذلك عَدّ الجوهر جوهراً فى العدم والعرض عرضاً فى العدم ، وأطلق على المعدوم لفظ الثبوت[١] .

وأنبه من هؤلاء المعتزلة جميعاً وأشهر أبو على[٢] محمد بن عبد الوهاب الجُبَّائى المتوفى سنة ٣٠٣ وهو تلميذ أبى يعقوب الشحام البصرى ، وهو وابنه أبو هاشم من معتزلة البصرة . ولعل خير ما يصور آراءه كتاب مقالات الإسلاميين للأشعرى تلميذه وفيه أنه كان يرى أن الله سبحانه لم يزل عالماً بالأشياء والجواهر والأعراض وأن الأشياء تُعْلَم أشياء قبل كَوْنها وتسمَّى أشياء قبل كونها وكذلك الجواهر والحركات والسكون والألوان والطعوم والأراييح والإرادات[٣] . وكأنه فى موقفه إزاء الأشياء يلتقى بالخياط فى رأيه الذى مرَّ بنا آنفاً ، وقد حاول بعض خصومهما أن يلزمهما بأنهما يقولان بأزلية الأشياء وقدم الأجسام والجواهر والأعراض ، ومن المحقق أنهما لم يقولا بذلك إنما يريدان أزلية العلم الإلهى . ومن تتمة رأى أبى على أنه كان يرى أن ما علم الله أنه يكون لا بد أن يكون . وكان يرى أن من الذنوب صغائر وكبائر ، وأن الصغائر تستحق غفرانها باجتناب الكبائر ، وأن الكبائر تُحْبِط الثواب على الإيمان ، وكان يذهب إلى أن العزم على الكبيرة كبيرة والعزم على الكفر كفر[٤] . وكان يقول إن الله خير بما

---

(١) الشهرستانى ١ / ٧٧ .

(٢) انظر فى ترجمة أبى على الجبائى وآرائه طبقات المعتزلة لابن المرتضى ص ٨٠ ومقالات الإسلاميين للأشعرى فى مواضع مختلفة والشهرستانى ١ / ٧٨ ومذاهب الإسلاميين لعبد الرحمن بدوى ، الجزء الخاص بالمعتزلة والأشاعرة ص ٢٨٠ وما بعدها .

(٣) مقالات الإسلاميين ١ / ٢٢٢ .

(٤) مقالات الإسلاميين ١ / ٣٠٥ .

فعل من الخير ، وقال إن الأمراض والأسقام ليست بشرّ فى الحقيقة وإنما هى شر فى المجاز ، وكذلك كان قوله فى جهنم إذ كان يقول إن عذابها ليس بخير ولا بشرّ فى الحقيقة ، لأن الخير هو النعمة وما للإنسان فيه منفعة ، والشر هو العبث والفساد وعذاب جهنم ليس بصلاح ولا بفساد وليس برحمة ولا منفعة ، ولكنه عدل وحكمة [١] .

وكان يرى أن معنى قوله تعالى : (الله نور السموات والأرض) إنما هو على سبيل التوسع ، ومعناه أنه هادى أهل السموات والأرض ، وأنهم يهتدون به كما يهتدون بالنور والضياء وقال إنه لا يجوز أن نسميه نوراً على الحقيقة إذ هو ليس من جنس الأنوار [٢] . وكان يُجلُّ العقل إجلالا شديداً ، وهو إجلال كان يتابع فيه المعتزلة ، حتى ليمكن أن نسميهم جميعاً باسم العقليين ، غير أنه مضى فى الشوط إلى نهايته « فأثبت — وتابعه ابنه أبو هاشم — شريعة عقلية ، وردّ الشريعة النبوية إلى مقدّرات الأحكام ومؤقتات الطاعات التى لا يتطرق إليها عقل ولا يهتدى إليها فكر [٣] » .

ويقال إن تلاميذه حرّروا ما أملاه فوجدوه مائة وخمسين ألف ورقة ، ولم يبق من مصنفاته الكثيرة سوى تفسيره .

وأبو هاشم [٤] الجبُّائى عبد السلام بن محمد بن عبد الوهاب المتوفى سنة ٣٢١ لا يقل عن أبيه أبى على الجبُّائى شهرة ، بل إنه يتقدمه فى الشهرة وذيوع لاسم ، بل لقد تحول المعتزلة فى القرن الرابع الهجرى إلى مذهبه وآرائه ، مؤمنين بأنه لم يبلغ غيره فى الكلام مبلغه . وأبوه هو أستاذه الذى خرّجه فى المباحث الاعتزالية ، وهو يتفق معه فى كثير من آرائه ، وينفرد عنه فى آراء كثيرة أيضًا ، يقول ابن المرتضى : « وقد استنكر بعض الناس خلافه على أبيه ، وليست مخالفة التابع للمتبوع فى دقيق الفروع بمستنكر ، وفى ذلك يقول أبو الحسن الكرخى :

يقولون بين أَبى هاشمٍ وبين أَبيه خــلافٌ كثيرُ
فقلتُ وهل ذاك من ضائرٍ وهل كان ذلك مما يَضيرُ

(١) مقالات الإسلاميين ٢/ ١٩٥ .

(٢) مقالات الإسلاميين ٢/ ١٩٢ .

(٣) الشهرستانى ١/ ٨١ .

(٤) انظر فى ترجمة أبى هاشم تاريخ بغداد ١١ / ٥٥ وطبقات المعتزلة ص ٩٤ والفهرست ص ٢٦١ والملل والنحل للشهرستانى ١/ ٧٨ وما بعدها والفرق بين الفرق للبغدادى (طبعة محيى الدين عبد الحميد) ص ١٨٤ ومذاهب الإسلاميين لبدوى ١/ ٣٣٠.

فخَلُّوا عن الشيخ لا تعرضوا لبحرٍ تضايقُ عنه البحورُ
وإن أبا هاشمٍ تِلْوُهُ إلى حيث دار أَبوه يدورُ
ولكنْ جَرى من لطيف الكلامِ كلامٌ خفيٌّ وعلمٌ غزيرُ

فهو قد دار مع أبيه فى آراء كثيرة ، واستقل عنه فى أخرى استقلالا ، لا يضيره ، فحبُّه أباه وتقديره شىء ، وحبه الحقيقة الاعتزالية وتقديره إياها شىء آخر . وأدرك الشهرستانى ما بين الأب والابن من الاتفاق ، فجمع بينهما فى فصل واحد ، عارضًا فيه أولاً وجوه اتفاقهما ، ثم ذكر ما خالف فيه أبو هاشم أباه . ولعل أهم نظرية عُرف بها هى نظرية الأحوال ، وهى نظرية تتصل بصفات الله الأزلية ، ومعروف أن المعتزلة نفوها من قديم ذاهبين إلى أنها هى عين الذات الإلهية ، فالله عالم بذاته ، أى علمه هو ذاته ، وهكذا بقية الصفات ، وقال أبو على الجبائى إن الله عالم لذاته وقادر لذاته ، وهلم جرًّا ، وتنبَّه أبو هاشم إلى فساد قول أبيه لما يترتب عليه من جعل الله علة لصفاته[1] . فحاول النفوذ إلى رأى دقيق وهداه عقله إلى أن الصفات أحوال تدرك بها الذات على نحو إدراكها للمعانى الكلية ، ويوضح ذلك الشهرستانى قائلا : « عند أبى هاشم هو عالم لذاته أى ذو حالة هى صفة معلومة وراء كونه ذاتًا موجوداً إنما تُعْلَمُ الصفة على الذات لا بانفرادها ، فأثبت أحوالا هى صفات لا موجودة ولا معدومة ولا معلومة ولا مجهولة ، أى هى على حيالها لا تُعْرَفُ كذلك بل مع الذات ، قال : والعقل يدرك فرقًا ضروريًا بين معرفة الشىء مطلقًا وبين معرفته على صفة ، فليس من عرف الذات عرف كونه عالمًا ولا من عرف الجوهر عرف كونه متحيزاً قابلا للعرض[2] » . وهى نظرية دقيقة ، إذ حاول بها أبو هاشم أن يلغى ما قد يُظَنّ من نفى المعتزلة : أبى الهذيل العلاّف وأضرابه للصفات الأزلية عن الله أنه ليس لها وجود مع أنها مكررة مرددة فى الذكر الحكيم ، فقد ذهب إلى أنها فى حال وسطى لا موجودة ولا معدومة ، وأنها تُدْرَكُ كما تدرك الكليات بدون أن تكون هى نفسها عين الذات ، وكأنه خشى أن يؤول ذلك عند بعض الناس إلى أن تكون جواهر أو أقانيم ، فأثبت أنها أحوال ، وفى الوقت

---

(١) أصول الدين للبغدادى (طبعة استانبول) ص ٩٢ .

(٢) الشهرستانى ١/٨٢ .

نفسه كان يرد على زميله الأشعرى كما سيلى عما قليل فى فكرته القائلة بأن الصفات الإلهية زائدة على الذات . ومن آراء أبى هاشم الطريفة تعليله للعقاب الأخروى إذ يقول : « إن القديم تعالى خلق فينا شهوة القبيح ونفرة الحسن ، فلا بد أن يكون فى مقابلته من العقوبة ما يزجرنا عن الإقدام على المقبّحات ، ويرغبنا فى الإتيان بالواجبات ، وإلا كان يكون المكلّف مُغْرًى بالقبح ، والإغراء بالقبح لا يجوز على الله تعالى [(١)] » . وكأنّه تنبّه بوضوح إلى أن الغرض من العقاب التربيةُ وأن يَحْذر الإنسان عواقب عمله الوخيم حتى ينتهى عنه . وكان أبوه يرى أن التوبة عن الصغائر تجب سمعًا وعقلا ، أما أبو هاشم فكان يرى أنها لا تجب إلا سمعًا ، لأن التوبة — فى رأيه — إنما تجب لدفع الضرر عن النفس ولا ضرر فى الصغيرة فلا التوبة تجب عنها [(٢)] . وكان أبوه يرى أن التوبة عن بعض الكبائر مع الإصرار على بعض آخر تصحّ ، أما أبو هاشم فكان يرى أنه لا تصح التوبة عن بعض الكبائر دون بعض ، فلا بد أن يتوب المذنب من جميع الكبائر توبة نصوحا [(٣)] .

وتلميذ ثان لأبى على الجُبّائى انفصل عنه بأكثر مما انفصل ابنه أبو هاشم ، بل لقد استطاع أن يقيم مذهباً جديداً لا يعارض به أستاذه فحسب ، بل يعارض به المعتزلة جميعا ، إذ أقامه على التوسط بين آرائهم وآراء أهل السنة ، حتى لقد عُدّ هو نفسه مذهب أهل السنة ، ونقصد أبا الحسن [(٤)] على بن إسماعيل ، سليل أبى موسى الأشعرى الصحابى الجليل ، المتوفى سنة ٣٢٤ ، وقد ظل على مذهب المعتزلة أربعين عامًا كان يختلف فيها إلى حلقات أستاذه أبى على الجبائى ، ثم تاب من القول بالعدل وخلْق القرآن وعدم رؤية الله بالأبصار وأن الإنسان يفعل أعماله بقدرته وإرادته الخالصة ، وظل يلقى محاضراته بالبصرة والناس يقبلون عليه إلى أن بدا له أن يتركها إلى بغداد وظل بها إلى وفاته .

وقد نُشرت له كتب مختلفة ، منها مقالات الإسلاميين التى رجعنا إليها مراراً ،

---

(١) شرح الأصول الخمسة للقاضى عبد الجبار ص ٦٢٠

(٢) المصدر نفسه ص ٧٩٢

(٣) المصدر نفسه ص ٧٩٤

(٤) انظر فى ترجمة الأشعرى تاريخ بغداد ١١/٣٤٦ والفهرست ص ٢٧١ والجواهر المضية فى طبقات الحنفية ١ / ٣٥٣ وابن خلكان وطبقات الشافعية للسبكى ٣٤٧/٣ والنجوم الزاهرة ٢٥٩/٣ ومذاهب الإسلاميين لبدوى ٤٨٧/١ .

ومنها رسالته : الإبانة عن أصول الديانة واللمع ، وهما يصوران مذهبه تصويراً دقيقاً ، وهو مذهب كما قدمنا يوازن بين آراء أهل السنة ، وكل مسألة تُذْكر فيها الأدلة العقلية والأدلة السمعية من الكتاب والسنة ، ونضرب مثلا لذلك البراهين على وجود الله ، وقد اشتقها من القرآن اشتقاقاً على هذا النمط الذى ساقه الشهرستانى إذ يقول : قال الأشعرى : الإنسان إذا فكر فى خلقته من أى شىء ابتدأ ، وكيف دار فى أطوار الخلقة طوراً بعد طور حتى وصل إلى كمال الخلقة ، وعرف يقيناً أنه بذاته لم يكن ليدبر خلقه ، ويبلغه من درجة إلى درجة ويرقاه من نقص إلى كمال — عرف بالضرورة أن له صانعاً قادراً عالماً مريداً ، إذ لا يُتَصَوَّرُ صدور هذه الأفعال المحكمة من طبع لظهور آثار الاختيار فى الفطرة وتبين آثار الإحكام والإتقان فى الخلقة[1]» ، وواضح أنه يستلهم فى هذا البرهان ما جاء فيه من أطوار خلق الإنسان وتحوله من نطفة إلى علقة فمضغة فعظام فكسوة من لحم ، ثم أطواره فى حياته . وإذا عرض مثلا لبيان أن الله لا يشبهه شىء أدلى بالبرهان العقلى ثم أتبعه بالبرهان السمعى من مثل قوله تعالى : (ليس كمثله شىء) . وعلى هذه الشاكلة دائماً يسوق الأشعرى مع الأدلة العقلية الأدلة السمعية . وقلنا آنفاً إن مذهبه وسط بين مذهبى المعتزلة والمحدّثين ، وقد تابع الأولين فى تنزيه الذات العلية عن التشبيه وكل ما يتعلق بالتجسيد ، وأخذ بقول المحدّثين فى أن الله يُرَى بالأبصار يوم القيامة ، مستدلا على ذلك بأدلة سمعية أوضحها فى رسالته « الإبانة » إيضاحاً تاماً وبأدلة أخرى عقلية أوضحها فى « اللمع » . وتوسط بين المعتزلة والجبرية فى أفعال الإنسان وخالقها ، فقد كان الجبرية يذهبون إلى أن الله خالق أفعال الإنسان ، وقال المعتزلة ، بل الإنسان هو الذى يخلق أفعاله ، وتوسط الأشعرى فقال إن أفعال الإنسان لله خلقاً وصنعاً وهى للإنسان كسباً وإرادة فهو يريدها والله يخلقها فيه[2] . وكان يرى أن صفات الله أزلية قائمة بذاته ، فهى ليست عين الذات الإلهية كما يقول أكثر المعتزلة ولا هى أحوال كما قال أبو هاشم الجبائى بل هى زائدة على الذات قائمة بها[3] . وحاول التوفيق فى مسألة خلق القرآن بين المعتزلة والمحدّثين من أمثال ابن حنبل أى بين القولين القائلين بأن القرآن حادث أو هو قديم ، فقال إن « العبارات

---

(١) الشهرستانى ١ / ٩٤.
(٢) اللمع ص ٤٥ وما بعدها.
(٣) الشهرستانى ١ / ٩٥

والألفاظ المنزلة على لسان الملائكة إلى الأنبياء عليهم السلام دلالات على الكلام الأزلى ، والدلالة مخلوقة محدثة ، والمداول قديم أزلى[١]» ، وبعبارة أخرى كان يرى أن القرآن وكلام الله القائم بذاته قديم ، أما الكتاب الذى بين أيدينا والذى نزل به الوحى فى زمن من الأزمان فحادث . وأنزل العقل من مكانته القدسية عند المعتزلة وخاصة فى الإلهيات ، إذ قال إن معرفة الله وشئونه الإلهية ليس سبيلها ولا أداتها العقل ، بل الوحى والشرع ونصوص القرآن والسنة ، فالعقل عنده لا يوجب شيئًا ولا يقتضى تحسينًا ولا تقبيحًا ، ولا يوجب على الله رعاية لمصالح العباد ، والواجبات كلها واجبات بالسمع ، وقد تحصَّل معرفة بالعقل ، ولكنها لا تجب إلا عن طريق السمع[٢] .

(١) الشهرستانى ١ /٩٦

(٢) الشهرستانى ١ /١٠١

الفصل الرابع

نشاط الشعر

١

علم الشعراء بأسرار العربية

كل من يتابع جهود اللغويين فى القرنين الثانى والثالث للهجرة يلاحظ تَوًّا كثرة ما أدوه للعربية وشعرائها من دراسات متنوعة ، فقد جمعوا مادتها الشعرية واللغوية جمعاً مستقصيا صوَّروه فى مباحث مفردة كمبحث عن الإبل أو الشجر أو الكلأ أو النخل و الكَرْم أو خَلْق الإنسان أو الميسر والقداح أو الأنواء ، وكمبحث عن الاشتقاق أو عن علامات التأنيث أو الهمز وتحقيقه أو عن فعلت وأفعلت أو عن الأضداد ، أو عن الوحش والسباع والطير والهوام وحشرات الأرض . وكادوا لا يتركون موضوعاً ولا صيغة لغوية فيها بعض الاشتباه إلا دوَّنوا فيها الرسائل القصيرة والطويلة . ثم ألَّفوا الكتب المجلدة . واستطاعوا منذ أواسط القرن الثانى للهجرة أن يضعوا قواعد النحو العربى وضعاً نهائيًّا و بالمثل قواعد الصرف والتصريف ، وأيضًا قواعد الأوزان الشعرية والقوافى ، بحيث أصبح الشعر العربى ولغته جميعاً مذلَّلين منقادين للناشئة ، وفى أثناء ذلك وُضعت القواعد لوضع المعجم العربى ، بحيث يضم بين دِفَّتَيْه كل الكلمات العربية المستعملة والأخرى المهملة ، على نحو ما هو معروف عن معجم العين المنسوب إلى الخليل بن أحمد ، وألَّف على غراره بأخرة من العصر ابن دريد معجمه المشهور : الجمهرة ، كما مرَّ بنا فى غير هذا الموضع .

وعلى هذا النمط أخذ اللغويون يجمعون للناشئة من الشعراء وغير الشعراء مادة اللغة ، كما أخذوا يبسطون لهم قواعدها النحوية والصرفية والموسيقية ، وقد مضوا منذ مطالع العصر العباسى يجمعون لهم عيون الشعر العربى فى مجاميع كثيرة ، غير ما جمعوه

من الدواوين القديمة الجاهلية والإسلامية، وما أخذوا يجمعونه من دواوين العصر العباسى للشعراء النابهين، وكانوا يشرحون ما يجمعونه من أشعار تلك الدواوين حتى تفقهه الناشئة فقهاً حسناً، وشاركهم الشعراء فى هذا الصنيع على نحو ما مر بنا فى الفصل السالف مما صورناه عند أبى تمام والبحترى، وقد يكون مما دفعهما إلى هذه المشاركة أنهما وجدا اللغويين يهتمون فى كثير من الأمر بالشعر الغريب، ليتخذوا منه مادة للتعليم على نحو ما يلقانا فى كتابات ابن السكيت وثعلب، فأرادا أن يقفا الناشئة بجانب ذلك على طرائف الشعر القديم والحديث، وكان كثير من اللغويين قد عُنى بالترجمة للشعراء القدماء الجاهليين والإسلاميين، فانبرى بعض الشعراء والأدباء يترجم للشعراء العباسيين فى كتب يفردها لهم، كما يلقانا فى كتاب طبقات الشعراء المحدثين لابن المعتز وكتاب الورقة لمحمد بن داود بن الجراح، وجمع ابن قتيبة بين القدماء والمحدثين فى كتابه «الشعر والشعراء». وكانت قد سبقت ذلك كله كتب فى تراجمهم للأصمعى وأبى عبيدة ودعبل، وكتاب طبقات الشعراء لابن سلام مشهور.

وكل ذلك مكَّن الناشئة من إتقان العربية والوقوف على كثير من أسرارها التركيبية والموسيقية، وزاد من وقوفهم على هذه الأسرار أن بيئة المتكلمين أخذت تُعْنَى منذ القرن الثانى الهجرى بتلقين الناشئة بعض قواعد البيان والبلاغة، حتى يحسنوا الجدل والحوار وحتى يخلبوا ألباب سامعيهم، وإذا هذه القواعد تتفجر على ألسنتهم عند بشر بن المعتمر وأمثاله، وإذا الجاحظ يؤلف فى ملاحظاتهم وملاحظاته البيانية كتابه «البيان والتبيين» مصوراً فيه كثيراً من أسرار البيان العربى تصويراً يتيح للشباب أن يقفوا فى غير مشقة على خصائص العربية وأن يتذوقوا هذه الخصائص تذوقاً دقيقاً. وشارك الجاحظ فى هذا المجال كثير من اللغويين، على نحو ما مر بنا فى الفصل السالف أمثال أبى عبيدة والمبرد، ولم يلبث أن انبرى شاعر نابه هو ابن المعتز لتصوير فنون البيان الشعرى الرائع فى كتابه «البديع» واستطاع أن يضع لها المصطلحات التى كانت تجمعها فى عصره، وأن يتيح لها من التعريف بها ووصف أساليبها ما لم يتح لمتكلم أو لغوى أو شاعر من قبله، باثا فى ثنايا ذلك ملاحظات دقيقة فى الفن الشعرى وجماله المتنوع الذى لا ينضب معينه.

ومعنى ذلك كله أن العربية بخصائصها الجمالية والموسيقية والصرفية والنحوية وُضعت تحت أعين الناشئة فى القرن الثالث الهجرى وضعاً علمياً دقيقاً حتى أصبح فى ميسور كل ناشئ أن يُتقنها ، إذ يستطيع أن يقرأ أشعارها فى غير عناء ويفهمها فى غير مشقة ويتذوقها فى غير تكلف ، بحيث يستطيع أن يسيغها ، بل أن يتمثلها تمثلا دقيقاً . على أنه يحسن أن نعترف بأن عربية مولدة أخذت تشيع على ألسنة العامة بجانب العربية الفصحى ،وكانت تتداولها الطبقات الدنيا وقد يشركها أفراد من الطبقات الوسطى ، وكانت تنتشر فى العراق على ألسنة النبط وأهل الذمة ، وساعد على انتشارها تحول مقاليد الحكم العباسى من أيدى الفرس أصحاب الحضارة العريقة إلى أيدى الترك، وكانوا لايعرفون أى حضارة ولم يكن يعنيهم أن يحسنوا العربية، فاستخدموا اللغة الدارجة فى أحاديثهم ، وكان ذلك عاملا مساعداً فى إشاعتها لهذا العصر بين من يعلمون معهم فى الدواوين وأعمال الدولة المختلفة ، وليس ذلك فحسب ، فقد كان نفر من كتابهم يستظهرون على ألسنتهم بعض الكلمات العامية ، وعمَّم ذلك بعض الباحثين فى الشعراء ، إذ رأوا ابن قتيبة يحيل كتابه « أدب الكاتب » إلى أسواط حامية يشوى بها وجوه الكتاب لعصره معلناً النكير عليهم لعنايتهم بالمنطق والفلسفة والهندسة وعلم الفلك ، مسجلا قعودهم عن التثقيف ثقافة عميقة باللغة واشتقاقاتها وأبنيتها، وكيف أنهم لا يعرفون المدلولات الدقيقة للألفاظ ولا مواضع استخدامها، مع جهلهم بكثير من الصيغ وما بينها من الفروق، فهم لا يعرفون فرق ما بين اسم المرة واسم الهيئة فى الصيغة، ولا كيف تتبادل الحروف أمكنتها، وكذلك الأفعال اللازمة والمتعدية ، مع ما يلوكون من الكلمات الفارسية .

وطبيعى أن هذه الحملة التى شنَّها ابن قتيبة على الكتَّاب لا تشمل جمهورهم ، إنما هى تشمل أفراداً منهم، لم يكونوا من بلغاء العصر ولا من كتَّابه الممتازين ، ومن أجل ذلك يجب ألا نعممها فى الكتَّاب فضلا عن الشعراء ، ويجب ألا يغيب عن بالنا أن اللغويين كانوا لهم بالمرصاد ، فمن انحرف منهم عن جادة الفصحى شنَّعوا عليه وسقطوا به من حالق سَقْطَةً لا إقالة له منها أبداً، إذ كانوا يَعُدُّون أنفسهم حُماة الفصحى، وأن من نوَّهوا به من الشعراء طار اسمه ومن أزْرَوْا به لم تقم له قائمة ، وكان الشعراء يسلمون لهم بهذه المنزلة، فكانوا يعرضون عليهم أشعارهم

وخاصة فى أول أمرهم ، كما يحدثنا أبو الشبل أحد الشعراء لعصر المتوكل إذ يقول : « لما عرض لى الشعر أتيت جاراً لى نحويا هو المازنى وأنا يومئذ حديث السن ، فقلت له إن رجلا لم يكن من أهل الشعر ولا من أهل الرواية قد جاش صدره بشىء من الشعر ، فكره أن يُظهره حتى تسمعه ، قال : هاته ، وكنت قد قلت شعراً ليس بجيد ، إنما هو قول مبتدئ ، فأنشدته إياه فلما سمعه نهرنى عليه وذمه[1] » ، ومنذ بشار بن برد فى العصر العباسى الأول نجد اللغويين يتعقبون الشعراء فى أساليبهم ، فكلما بدا من أحدهم انحراف عن جادّة الفصحى أعلنوا النكير عليه ، حتى لوكان فى انحرافه الظاهر إنما يقيس على أمثلة الشعراء القدماء وأبنيتهم أو على بعض أبنية العرب المسموعة ، ومما يصوّر ذلك عند بشار أنه رأى العرب يصوغون من الفعل فَعَلَى للدلالة على السرعة فيقولون حَجَلَى للدلالة على سرعة السير ، فقاس على هذه الصيغة وَجَلَى من الوَجَل قائلا :

والآن أَقصَر عن سُمَيَّة باطلى ... وأَشار بالوَجَلَى علىَّ مشيرُ

فأخذ كثير من اللغويين يحمل عليه مخطئًا له[2] ، وبشار محق ، لأن من حقه القياس ، وإذا كان من حقنا أن نقيس فى شئون الدين ، كما قرّر ذلك الفقهاء المعاصرون له من أمثال أبى حنيفة فأولى أن يقيس الشعراء فى أبنية اللغة واشتقاقاتها الصرفية ، وارتضت كثرة اللغويين منهم أن يخضعوا أحيانًا لضرورات الأوزان وأنغامها التى يصوغون عليها أشعارهم ، وسمّوا ذلك ضرورات شعرية ، غير أن بعض المحافظين المسرفين فى محافظتهم كانوا يَعُدُّون الضرورات عيوبًا ، وكانوا لا يزالون يحصونها على الشعراء كما يحصون عليهم بعض أقيستهم مما لم يسمع عن العرب ، وظل ذلك دأبهم فى هذا العصر كما كان دأبهم فى العصر العباسى الأول حين كانوا يراجعون بشاراً وأضرابه . واحتفظ كتاب الموشح للمرزبانى بطائفة كبيرة من مراجعاتهم لمعاصريهم ، من ذلك قول على بن الجهم :

ونحن أُناسٌ أهل سَمْعٍ وطاعةٍ ... يصحُّ لكم إسرارُها وعِلانُها

---

(١) الأغانى (طبع دار الكتب المصرية) ١٤ / ١٩٦ .

(٢) أغانى ٣ / ٢٠٩ .

فقد ذكروا أنه أخطأ فى قوله : « علانها » بكسر العين وإنما سُمع عن العرب : « إعلانها » وكأن ابن الجهم صاغ من كلمة العلن عالنه كما قالوا أعلنه واشتق منها : عالنه عِلانًا . وسمعه المبرد يقول فى بعض حديثه : « أظننى مأزوراً فى قعودى » ، فقال : لقد نقص فى عينى حين سمعت منه هذا القول ، إذ المسموع موزور لا مأزور[١] ، وكأن ابن الجهم قاس هذه الصيغة على مثال مأجور ومأثور . وهذان المثالان هما كل ما رواه اللغويون من أخطاء ابن الجهم ، وحتى على فرض خطئه فيهما وأنه لم يُصبْ فى اجتهاده كان يحسن أن يغفروهما له وأن يشيدا بمدى معرفته للعربية وأمثلتها فى البنية والصياغة ، إذ لم يحدث أن أخطأ فيها — إن سلمنا لهما بهذا الخطأ — سوى مرتين . وشاعر ثان هو على بن محمد العلوى الكوفى المعروف بالحِمَّانى فقد أخذوا عليه خطأين : خطأ نحويًّا وخطأ اشتقاقيًّا صرفيًّا ، فأما الخطأ النحوى فى قوله :

وجْهٌ هو البدر إلا أن بينهما فضلاً تلألأ فى حافاته النُّورُ
فى وجه ذاك أخاطيطٌ مسوَّدةٌ وفى مضاحكِ هذا الدرُّ منثورُ

فقد قالوا إن حق كلمة « منثور » فى آخر البيت الثانى النصب ، لأنها فى موقع الحال ، والطريف أن المرزبانى حاول إخراج الحمانى من هذا الخطأ وردَّه عنه ، فقال إن رفع منثور جائز بمعنى هو منثور[٢] ، والمسألة لا تحتاج إلى كل هذا التأويل فإن الحمانى تبادر إليه أن كلمة منثور خبر لكلمة الدر ، وكلمة « فى مضاحك هذا » متعلقة بها ، ولا عيب ولا خطأ فى ذلك . وأما الخطأ الاشتقاقى الذى عابوه على الحِمَّانى فى قوله :

أَرقتُ وماليلُ المُضَام بنائمٍ وقد ترقُد العينان والقلبُ ساهرُ

فقد قالوا إن الصواب مَضيم بفتح الميم ، إذ لا يقال أضمته وإنما يقال ضمته[٣] فهى فى غير حاجة إلى التعدية بالهمزة . وربما سمع الحمانى من العرب من يقول أضام أو ربما قرأ ذلك فى بعض الأشعار القديمة . وهو على كل حال خطأ واحد يشهد

(١) انظر الموشح للمرزبانى (طبعة دار نهضة مصر) ص ٥٢٨ .
(٢) الموشح ص ٥٢٠ .
(٣) الموشح ص ٥٤٤ .

بسلامة لغته . وحتى البحترى الذى اشتهر بفصاحته وإتقانه للعربية وعلمه بأسرارها وقدرته البارعة على استخدام مفاتيحها الموسيقية نجد اللغويين يتوقفون بإزاء بعض استعمالاته ليثبتوا عليه الخطأ فى هذا الموضع أو ذاك، وقد زعموا أن من اللحن عنده قوله فى بعض شعره :

يا عليًّا بَلْ يا أبا الحسن الما لكَ رِقَّ الظريفةِ الحسناء

وواضح أن المنادى العلم ، وهو على ، فى أول البيت منصوب منون ، وحقه الضم[1] ، وهى مسألة يعرفها الناشئة ومن يَشْدون شيئًا من النحو ، وغريب أن يخطئُ فيها البحترى، وهو فعلا لم يخطئْ ، فإن رواية الكلمة فى الديوان « يا على » وإذن لا خطأ ، وقد يكون تقوَّل عليه ذلك بعض خصومه . وأخذوا عليه قوله فى الفتح بن خاقان :

يا مِادحَ الفَتْح ويا آملَهُ لستَ امرأً خابَ ولا مُثْنٍ كذَبْ

فقد قالوا إن كلمة « مثْن» فى البيت كان حقها النصب ، فيقال مثنيًا ، لأنها معطوفة على منصوب هو كلمة « امرأ » وفاتهم أن البحترى رفع الكلمة على إضمار مبتدأ محذوف أى : « ولا أنت مثْن كذب » ومن حقه أن يصنع ذلك حين يريده . وأخذوا عليه أيضًا قوله :

ولو أنصفَ الحسَّادُ يوماً تـأمَّلوا مساعيك هل كانتْ بغيرك أَلْيَقَا

فإنه سكَّن كلمة « مساعيك » وكان حقها النصب : « مساعـَيك » لأنها مفعول به ، وأنكروا عليه قوله فى مطلع رثائه للمتوكل :

محلٌّ على القاطول أخلق دَاثِرُهْ وعادتْ صروف الدهر جَيْشاً تغاوره[2]

وقالوا المروىّ : دَـثِـرٌ مُـخْـلِـقَـة ، ولا يقال : « أخلق داثره » لأن الداثر لا بقية له فتخلق أى تبلى وتستجد ، وهم مبالغون فى قولهم ، لأن العـَرب يقولون أطلال داثرة ، وهم يريدون بقاياها أو قل بقايا الديار قبل أن تُمـْحـَى محواً نهائيًّا .

---

(١) انظر فى هذا اللحن وما يتلوه مما أخذوه على البحترى الموشح ص٥١١ وما بعدها .

(٢) المحل هنا : قصر المتوكل الذى قتل فيه وكان قد بناه على جدول القاطول بسامراء .

ويلاحظ الصاحب بن عباد أنه ذكر الفعل الناقص : « نسيـَه » بإشباع الياء وإسكانها بدلا من فتحها فى قوله[١] :

أَبو غالبٍ بالجودِ يذكر واجبى إذا ما غَبِىٌّ الباخلين نَسيه

وكأن ابن عباد لم يلتفت إلى أن البحترى إنما صنع ذلك لضرورة القافية التى تنتهى بها قصيدة البيت ، وأيضًا فإنه لم يلتفت إلى أن هذه لغة معروفة لطيئ قبيلة الشاعر إذ ينطقون مثل « رَضِىَ » بفتح الياء « رضى » بإسكانها وإشباعها . ومما يدل دلالة واضحة على تعنت اللغويين إزاء البحترى وغيره من الشعراء أن نجد صاحب خزانة الأدب يـَرْوى عنهم أنهم أنكروا عليه تسكين اللام فى كلمة « طـَلـْحاته » من قوله مادحـًا :

عدلتم بِطَلْحَةَ عن حَقِّه ونكَّبتمُ عن مـوالاتهِ
وكيف يجوز لكم جَحْدُهُ وَطلْحتكم بعضُ طَلْحاته

قالوا كيف يسوّغ لنفسه تسكين اللام والوجه أن تكون مفتوحة[٢] ، وواضح أنه صنع ذلك لضرورة الشعر ، ومعروف أنها تبيح للشاعر أن يخرج على القواعد النحوية والصرفية أحيانـًا ، فما بالنا بالحركة والسكون حين يتبادلان مواضعهما وفى الحق أن كل ما أنكروه على البحترى مما يحق له ولا تجوز مؤاخذته عليه ، وهى صورة من التزمـُّت وضيق الأفق عند بعض اللغويين . ومما يدخل فى هذا الباب من التعنت القبيح أن نجد بعض اللغويين يستمع إلى ابن الرومى يمدح الموفق حين قضى على ثورة صاحب الزنج التى مرت بنا فى غير هذا الموضع ، فيقول فى بعض مديحه مخاطبـًا الموفق :

ثناك له مقدارُه فكأَنما تقوَّض ثَهْلانٌ عليه وصِنْدَدُ[٣]

فيعترض على نطقه : « صِنْددَ » بفتح الدال الأولى قائلا إنها « صندِدٌ » بكسرها[٤] . وإنما أطلنا فى بيان ذلك كله لندل على أن اللغويين لم يكونوا يستطيعون

---

(١) الكشف عن مساوئ المتنبى للصاحب ابن عباد (طبعة القاهرة) ص ٩ .

(٢) خزانة الأدب للبغدادى ٣/٣٩٤ .

(٣) ثهلان وصندد : جبلان .

(٤) ديوان المعانى لأبى هلال العسكرى (طبعة بغداد) ٢/ ٥٦ .

أن يتعلقوا فى هذا العصر على الشعراء النابهين بأخطاء جوهرية فى اللغة أو فى التصريف ، بل لقد كانوا لا يزالون يلتقطون بعض الضرورات الشعرية ليعدوها أخطاء ، وحتى الحركات الداخلية فى الكلمات وأبنيتها كانوا لا يزالون يتعقبونها على نحو تعقبهم لابن الرومى فى كلمة « صندد » . وكل ما ذكره المرزبانى وسجله عن علماء اللغة فى هذا الباب لا يعدو مثل هذه الصور التى وصفناها ، ومثلها ما حاول بعض معاصريه أن يسجلوه مثل الصاحب بن عباد وأبى هلال العسكرى ، فإنهم لم يتجاوزا فى الغالب الضرورات الشعرية ، مما يدل دلالة قاطعة فى العصر على سلامة اللغة وسلامة الألسنة ، وحقًّا كما قلنا كانت هناك لغة عامية تتداول فى الحياة اليومية ، ولكنها ظلت لا تجور على العربية ، وظلت الناشئة فى كل مكان تتغذى بالفصحى وتتلقنها على أساتذتها النابهين . وكان هناك كثيرون لا يزالون يستخدمونها فى حياتهم اليومية العاملة ، كان ذلك يرفع منهم فى أعين الناس ، حتى ليقول إسحق[1] بن خلف الطَّنْبُورِىّ :

النحو يبسط من لسان الألْكن ... والمــرء تُعْظمه إذا لم يَلْحَنِ
وإذا طلبتَ من العلوم أَجلَّها ... فأَجلُّهــا عندى مقيمُ الأَلْسُنِ

وإذا كان الإعراب فى رأى بعض المغنين أو الضاربين على الطنبور يبلغ هذا المبلغ من المنزلة الرفيعة، فأولى أن تكون منزلته أرفع وأعلى شأنًا عند الشعراء الذين عاصروه ، وفى الحق أنهم ظلوا يحافظون بكل قوة على الصياغة العربية فى المفردات والتراكيب وعلى قواعد الإعراب والتصريف، بحيث نجد شاعراً ضخماً مثل البحترى أو ابن الرومى لا يكاد اللغويون يتعلقون عليه بشىء ذى بال ، بل حتى الشعراء الذين اشتهروا بأنهم كانوا أميين لا يقرءون ولا يكتبون والذين لم يجالسوا العلماء لأخذ قواعد النحو والتصريف مثل الخُبْزأرزىّ ، الذى كان يخبز بالبصرة خبز الأرز ويبيعه فى دكان متكسبًا به، والناس يزدحمون عليه لسماع شعره كان لا يعدو الفصحى فى نظمه .

---

(١) عيون الأخبار لابن قتيبة (طبعة دار الكتب المصرية) ٢/١٥٧ .

ولعل فى كل ما قدمنا ما يصور من بعض الوجوه كيف كان الشعراء يتزودون بالعربية الفصيحة أزواداً مكّنتهم من الوقوف على خصائصها ودقائقها الإعرابية والصرفية، بحيث نفوا عن أساليبهم كل الشوائب التى كان من المفروض أن تسيل من العامية المتداولة إلى الفصحى، ولم ينفوها فحسب، بل عملوا جاهدين على أن يحتفظوا بالصياغة العربية الأصيلة بدون أن يدخل عليها نبوٌّ أو انحراف أو أى اعوجاج أو أى نقص فى الأداء. ويكفى أن يكون هَمُّ جماعة كبيرة من اللغويين أن يتعقبوا سقطات شاعر مثل البحترى فيعوزهم المثال، فيلجئون إلى بعض الضرورات الشعرية عنده يسجلونها، ومعروف أن شاعراً لم يكثر فى هذا العصر كما أكثر ابن الرومى، ومع ذلك لم يسعفهم الفحص فى أشعاره إلا أن يسجلوا فى بناءٍ عنده حركة داخلية على تقدير صحتها إن سلم لهم ذلك. فإذا قلنا إن الشعراء فى هذا العصر تمثلوا العربية وأسرارها التركيبية أقوى تَمثل وأروعه لم نكن مغالين ولا مُبْعدين، بل لقد تمثلوا أسرارها الجمالية كما مر بنا تمثلا بارعًا، وهو تمثل جعل الشعراء يُعْنَوْنَ عناية بالغة باختيار الألفاظ والملاءمة الصوتية بين اللفظة واللفظة فى الجرس، بل بين الحروف نفسها، حتى يلذ الشعر الألسنة التى تنطق به والآذان التى تستمع له والأفئدة التى تصغى إليه، وما زال الشعراء مكبين على قيثاراتهم يستخرجون منها أعذب الأنغام، حتى استطاع البحترى أن يصل من ذلك إلى كل ما كان يحلم به الشاعر العربى منذُ وُجد امرؤ القيس حتى عصره، فإذا شعره يستحيل أنغامًا وألحانًا خالصة.

والبحترى إنما هو رمز لحركة التمسك بالصياغة العربية، بل التمثل لها بحيث تجرى فى نفس الشاعر سليقة الشعر العربى بكل سماتها وشاراتها وبكل معانيها وخواصها، بل بحيث يفقه ذلك كله فقهًا تامًّا دقيقًا، بما أتيح له عند العلماء وأصحاب البلاغة من ملاحظات جمالية، تنبع من الثقافة بالشعر السابق قديمه وحديثه ومن الذوق المصفى المتحضر ومن الشعور المرهف الرقيق. وإذا لغة الشعر تصبح تارة رصينة ناصعة كأتم ما تكون النصاعة والرصانة، وحينًا تصبح عذبة خفيفة تكاد تطير لخفتها ورشاقتها عن الأفواه طيرانًا. ومن هنا كنا نستطيع أن نقول إن أساليب الشعر فى العصر ظل لها رونقها وبهاؤها، بل لقد ازدادت بهاءً

ورونقاً ، بفضل تمثل الشعراء الفريد فى العصر للصياغة العربية السليمة وبصرهم بأسرارها وحذقهم لخصائصها حذقاً جعلهم يُسْتَوْنَ منها جواهر ولآلئ كثيرة . وإذن فمن واجبنا أن نحترس أشد الاحتراس من حديث يوهان فلك فى كتابه « العربية » عن اتساع الضيم الذى دخل فى العصر على لغة الشعر وصياغته ، فإن هذا الضيم الذى ساقه حين يُبْحَثُ لا يعدو ما لاحظناه آنفاً عند البحترى ومعاصريه من أشياء تُعَدُّ على الأصابع ، وهى تدخل جملة فى الضرورات الشعرية ، وكأن كل الضيم الذى خاله إنما هو سراب ظنه ماء ، ولا ماء هناك ولا ضيم حدث فى الفصحى على ألسنة شعراء العصر ، بل لقد كانوا يتقنون المعرفة بأسرارها ورسومها وصياغاتها الباهرة كأشد ما تكون المعرفة دقة وعمقاً .

٢

ذخائر عقلية خصبة

مَرَّ بنا نشاط الترجمة فى العصر كما مر بنا النشاط العام للحياة العقلية ، حتى ليكاد يظن الإنسان أنه لم يكن هناك أحد لا تتسع قراءاته ، فتشمل جميع مواد الثقافات المعروفة حينئذ من عربية وإسلامية وأجنبية من موارد شتى : موارد هندية وفارسية ويونانية ، مع ما كان يداخل المعارف الهيلينية من موارد شرقية فارسية وغير فارسية . فكل ذلك كان تحت أبصار الناس من شباب وغير شباب ينهلون منه كما يشاءون دون حجاب ودون أية صعوبات ، فدار الحكمة مكتبة الدولة مفتوحة على مصاريعها ودور أخرى كثيرة عرضنا لها فى غير هذا الموضع ، ودكاكين الوراقين بالمثل تعرض كل ما يطلبه القارئ ، وحلقات المساجد تموج بالمحاضرين فى مختلف فروع المعرفة ، ولكل شخص الحق فى أن يستمع إلى ما يرغب فيه من هذه المحاضرات .

وأخذ العرب حينئذ يشاركون مشاركة قوية فعالة فى تاريخ الفكر الإنسانى ؛ فإذا علماء وفلاسفة عظام يأخذون فى الظهور بينهم ، ويكفى أن نذكر الخوارزمى العالم

الرياضى النابه واضع علم الجبر ، والكندى الفيلسوف أو أول فلاسفة العرب بالمعنى الدقيق لكلمة فلاسفة ، وهما معلمان كبيران فى العصر يدلان أقوى دلالة على نهضة العقل العربى وازدهاره حينئذ ، مما عرضنا لبعض مظاهره فى الفصل الماضى . وحدث فى أثناء ذلك أن أخذ بعض الأدباء يتجرد للمزج بين ثقافات العصر واستخلاص ثقافة عربية لها طوابعها ومشخصاتها المستقلة ، على نحو معروف عن الجاحظ المعتزلى ، وكان المعتزلة قد أكبوا منذ أوائل العصر العباسى فى القرن الثانى الهجرى على الثقافات الأجنبية يتزودون منها ، واستطاع كثيرون منهم أن يكوّنوا لأنفسهم نظريات تتصل بالطبيعة وما وراء الطبيعة مما صورناه فى كتابنا العصر العباسى الأول ، ونفذ الجاحظ فى العصر كما قلنا آنفًا إلى الوصل فى كتاباته بين الثقافتين العربية والإسلامية والثقافات الأجنبية ، بحيث غدتْ كتبه تغذّى العقول والقلوب ، فالأدب فيها يلتقى بالفكر والعلم التقاء خصبًا مثمراً ، على نحو ما نجد فى كتابه «الحيوان». وخطا ابن قتيبة فى هذا الاتجاه من المزج بين الثقافات خطوة أخرى كما أسلفنا ، فمزج فى كتابه « عيون الأخبار » بين الثقافة العربية والثقافة الفارسية مزجًا قويا ، مزاوجًا بين طائفة كبيرة من الآداب فى الثقافة الأولى والآداب السياسية فى الثقافة الثانية ، مع ما أضافه من الحكم الطريفة التى جلبها من كتاب كليلة ودمنة المترجم عن الهندية ، وكذلك ما أضافه عن الثقافة اليونانية .

وكان طبيعيًّا لذلك كله أن تنمحى الأبعاد والفوارق بين الفكر العربى الخالص والفكر الأجنبى ، فإذا هما يمتزجان فى بيئة الشعراء وغيرها من البيئات ، وإذا كثير من الشعراء يتعمقون الفلسفة والثقافات الأجنبية ، وحقًّا ظلت طائفة لاتُعْنَى بهذا التعمق على نحو مامر بنا فى الفصل الماضى عند البحترى وأضرابه ، ولكن حتى هؤلاء وحتى البحترى نفسه لم يستطيعوا التخلص من معرفة بعض جوانب الفكر الأجنبى ، على حين نجد كثيرين غيره من أمثال ابن الرومى تعمقوا فى هذا الفكر ، بل لقد أقبلوا عليه يلتهمونه التهامًا ، بل لقد انقضوا عليه انقضاضًا ، وكأنما لايريدون أن يبقوا منه بقية . على أنهم لم يفنوا فى هذا الفكر ، فقد ظلوا يحتفظون للشعر العربى بشخصيته ومقوماته الأساسية . فهم لايذيبونه فى الفكر الأجنبى ، بل هم يخضعون هذا الفكر له ، أو بعبارة أدق هم يتخذون من هذا الفكر وسائل كى يتعمقوا فى تصوير المشاعر

والأفكار التى طالما عرض لها الشعر العربى ، مضيفين إليها معانى وخواطر حافلة بما يملأ النفس إعجاباً .

ولا ريب فى أن ذلك كان على درجات ، فمن الشعراء من كان يغرق فى التثقف بالثقافات الأجنبية ، ومنهم من كان لا يشق على نفسه ، فهو إنما يلم بأطراف منها تقل وتكثر حسب ملكاته العقلية ، ومهما أسرف الشاعر فى هذا الإلمام فإنه يحتفظ لأساليبه بالنصاعة والنقاء ، حتى من كان يرجع إلى أصول غير عربية ، فقد استقر فى نفوس جميع الشعراء الاحتفاظ بتقاليد الشعر الموروثة وأن يظل شعرهم موصولا بماضيه ، وحقاً حاول الشعوبيون أن يشككوهم فى هذا الماضى وأن يقطعوا صلتهم به ، ولكنهم لم يصيخوا إليهم ولا استمعوا إلى ضجيجهم ، فقد كانت شخصية الشعر العربى فى نفوسهم أقوى من أن تزعزعها أو تهزها صيحات هؤلاء الشعوبيين المارقين ، فلم يزايلوها ولا انحرفوا عنها ولا عن أصولها التقليدية . بل لقد استطاعوا أن يثبتوا مرونة هذه الأصول، وأنها تتسع لفنون البديع الجديد التى سجلها ابن المعتز اتساعاً كانت تحمل مقدماته فى صدورها من قديم ، بل لقد وجدوا فى مرونة هذه الأصول ما يمكنها من أن تحمل كل صنوف الغذاء الفكرى الجديد على اختلاف ألوانها، غذاء الفلسفة والمنطق والعلوم المختلفة وغذاء الآداب الفارسية واليونانية والحكمة الهندية ، فكل سيول هذا التراث الثقافى الأجنبى من كل جنس يستوعبها الشاعر العباسى ويتمثلها ويتقنها علماً وفقهاً وتحليلا دون أن ينحرف بشعره عن أصوله الموروثة ، بل إن هذه الأصول تونق وتزدهر ويصبح كل ما يُنْقَل إليها من الفكر الأجنبى عربى اللسان والصياغة المصفاة ، بل أهم من ذلك أن ذهن الشاعر العباسى يصبح ذهناً عميقاً يتغلغل فى حقائق المعانى نافذاً إلى دخائلها وأغوارها البعيدة ، نفوذاً يتيح له ما لا ينفد من الخواطر الشعرية المبتكرة .

وحقا أن هذا العمق فى ذهن الشاعر العباسى يلاحظ منذ بشار ومن تلاه فى القرن الثانى ، غير أننا كلما تقدمنا مع الزمن ازداد هذا العمق بعداً فى بواطن المعانى المستمرة ، وهو عمق رافقته صور كثيرة من دقة التحليلات والاستنباطات والتقسيمات ، فمن ذلك ما يرويه ابن قتيبة من أن بعض الشعراء أنشد الكندى الفيلسوف :

وفى أَربعٍ منى حَلَتْ منك أَربعٌ فما أَنا أَدرى أَيها هاج لى كربى

أوجهُك فى عينى أم الطعم فى فمى　　　أم النطقُ فى سمعى أم الحب فى قلبى

فقال له الكندى : والله لقد قسّمتها تقسيماً فلسفيًّا[١] ، وتكثر مثل هذه التقسيمات بين الشعراء إذ كانت تُعَدُّ من بدع العصر ومستحدثاته الطريفة ، ومنها قول ابن المعتز فى جمال الذوائب[٢] :

سقتنىَ فى ليلٍ شبيهٍ بشعرها　　　شبيهةَ خَدَّيها بغير رقيبِ
فأَمسيتُ فى ليلين بالشعر والدُّجَى　　　وخَمْرين من راحٍ وخَدٍّ حبيب

وهو تقسيم طريف لليل والخمر جميعاً . وعلى نحو ما كانوا يغربون فى التقسيم كانوا يغربون فى الأخيلة ، وقد نقلوا منها ما أعجبهم فى آداب العجم ، من مثل قول على بن الجهم فى وصف الورد :

أَما ترى شجراتِ الورد مظهــرةً　　　لنا بدائعَ قد رُكِّبْنَ فى قُضُب
كأَنهنَّ يواقيتٌ يُطيف بهــا　　　زَبَرْجَدٌ وسْطَها شَذْرٌ من الذَّهَب

والصورة من قول أرديشير : « الورد ياقوت أحمر وأصفر ودر أبيض على كراسى زبرجد يتوسطه شذور ذهب»[٣] . ولا تكاد تُحْصَى صور الشعراء الطريفة ، بل إن صور شاعر واحد أكثر من أن تحصى ، غير أنه مما يلاحظ أنهم عُنوا كثيراً بأن يغرقوا فى الوهم والتجريد على شاكلة قول العطوى أحد متكلمى المعتزلة الحذاق[٤] :

فوحقِّ البيــان يعضده البر　　　هان فى مأْقطٍ أَلدِّ الخصامِ
هى تجرى مَجْرى الأَصالة فى الرَّأْ　　　ىِ ومجرى الأَرواح فى الأَجسامِ

وواضح مدى إغرابه فى الصورة إذ مثل صاحبته بجمال الأصالة فى الرأى ، وهي صورة فريدة ، وتوضح إحساس العطوى بما كان ينفذ إليه المعتزلة لعصره من تفكير أصيل منتهى الأصالة ، وهو تفكير كثيراً ما كان يدفعهم إلى صور غير

---

(١) ابن أبى أصيبعة ص ٢٨٧ .
(٢) زهر الآداب للحصرى ٣/ ١٦ .
(٣) ديوان المعانى للعسكرى ٢/ ٢٣ وانظر الديوان (طبعة المجمع العلمى بدمشق) ص ١١١ .
(٤) معجم الشعراء للمرزبانى (طبعة الحلبى بالقاهرة) ص ٣٧٧ .

مألوفة من التجريد والوهم البعيد ، وكأن الحسين بن الضحاك استعار منهم قبسًا حين قال فى بعض غزله[١] :

إن من لا أرى وليس يرانى　　نُصْبَ عينى ممثَّلٌ بالأَمـانى
بـأبى مَنْ ضميرُه وضميرى　　أبدًا بالمغيب يَنْتَجِيَـانِ
نحن شخصان إن نظرتَ وروحا　　ن إذا ما اختبرتَ يمتزجـانِ
فإذا ما هممتُ بالأَمر أوهـ　　ـمَّ بشىءٍ بدأته وبَدانى
كان وَفْقًا ما كان منه ومنى　　فكأَنى حكيتُـه وحكانى
خطراتُ الجفون منا سواءٌ　　وسواءٌ تَحرُّك الأَبدان

وهو يعبر عن اتحاد بالمحبوب وفناء فيه حتى كأنما هما شخص واحد وروح واحدة وإن بديا شخصين وروحين فخواطرهما واحدة ، بل حتى حركات الأجسام واحدة . وكل ذلك بعد فى الخيال إلى درجة الوهم ، وعلى شاكلته قول ابن المعتز :

وشكوى لو آنَّ الدمع لم يُطْفِ حرَّها　　تولَّد منهـا بينهن حريقُ

فلولا الدموع لاحترق العاشقان ، حرقتهما الشكوى الممضة التى لا يخمد أوارها ، وقد تكون الصورة حسية ، ولكن نشعر إزاءها بالبعد فى الخيال والإغراق فى الوهم كقول أبى العباس الناشئ المعتزلى فى وصف سحاب يهطل ولا يكفّ عن سقوطه[٢] :

خليلىَّ هل للمُزْنِ مقلةُ عاشقٍ　　أم النارُ فى أحشائه وهْى لا تدرى
سحابٌ حكتْ ثكلى أُصيبتْ بواحدٍ　　فعاجتْ له نحو الرياض على قبر

فالمزن أوالسحاب مقلة عاشق ما تزال تتساقط منها حبات الدموع ، وما بريقه إلا نار العشق الملتهبة فى الأحشاء ، بل لكأنه ثكلى فقدت وحيدها ، فهى تبكى عليه بكاء مرًّا لا ينقطع . وللشاعر أشعار كثيرة فى الإشادة بأصحابه من المتكلمين

(١) أغانى (طبعة دار الكتب) ٧/ ١٨٧ .
(٢) زهر الآداب ١/ ١٧٧ .

وكيف أنهم ينيرون دياجى المشاكل المظلمة بأفكارهم الثاقبة، وكانت مناظراتهم لا تزال دائرة فى العصر على الرغم من استعلاء أهل السنة عليهم ، ولكنهم ظلوا يشعلون العراق بحجاجهم وحوارهم وجدالهم وظلوا يثيرون دفائن المعانى بردودهم ومناقضاتهم لخصومهم ، مما نرى آثاره عند الشعراء ، ومعروف أن الشاعر العربى من قديم كان يشكو طول الليل حتى ليبدو عند بعض الشعراء مظلماً لا آخر لظلامه، ويلم ابن بسام بهذا المعنى ، فينفى هذا الظلم عن الليل قائلا[1] :

لا أَظلم الليل ولا أَدَّعى ... أَن نجوم الليل ليستْ تَغُورْ

ليلى كما شاءتْ فإن لم تَزُرْ ... طال وإن زارتْ فليلى قصيرْ

فالطول والقصر نسبيان ، وهما معلقان بصاحبته إن هى زارت قَصُرَ الليل وإن لم تزر طال ، وبذلك نقض المعنى على من سبقه نقضاً ، منصفاً لليل من الشعراء السابقين الذين طالما ظلموه. وقد يُقال : وأين شعر المعتزلة الذى استظهروا فيه عقيدتهم الاعتزالية ومصطلحاتهم الكلامية ، ويبدو أنه كان لهم شعر كثير فى هذا الباب سقط من يد الزمن ، فالمرزبانى فى معجم الشعراء يترجم لشخص منهم يسمى محمد بن دكين المتكلم ويذكر أن له أشعاراً يحض فيها على القول بالعدل والتوحيد ، غير أنه لا ينشد منها شيئاً[2] .

وليست الأشعار الاعتزالية فى نفسها شيئاً إلا ما قد تدل عليه من صلة أصحابها المعروفة بالفلسفة والفكر الأجنبى اليونانى وغير اليونانى، وأهم منها ما استودعه هذا الفكر فى العقل العربى من خصب ، ليس هو وحده مورده الوحيد ، بل لعل تفاعل هذا العقل مع عناصر الفكر الأجنبى كانت أكثر خصباً ، إذ استطاع أن يستوعبها ويتمثلها ، ويصطنع لنفسه من خلالها مواد لا تقل عنها روعة ولا جمالا ، وهى مواد يمكن رؤيتها رؤية واضحة فى كثرة التوليدات العقلية . ولا نبالغ إذا قلنا إنه لا يوجد شاعر فى هذا العصر إلا وقد نفذ إلى كثير من هذه التوليدات حتى الشعراء الشعبيون من أمثال الحمدونى إسماعيل بن إبراهيم ، ويروى أن أحد ممدوحيه وهو أحمد بن حرب المهلبى وهب له طيلساناً (ثوباً فارسياً)

---

(١) المختار من شعر بشار للخالديين (طبع لجنة التأليف والترجمة والنشر) ص ٢٠ .

(٢) معجم الشعراء ص ٤٠٧ .

أخضر فلم يرضه ، فأخذ ينشد فيه مقطعات تجاوز بها الخمسين من مثل قوله[١] :

طَيْلَسانٌ لابن حرب جاءَنى قد قضى التمزيق منه وَطَره
فهْو قد أدرك نوحاً فعسى عنده من علم نوحٍ خبره
أَبدًا يقرأ من أَبصرَهُ : (أَئِذا كُنَّا عِظاماً نَخِرَهْ)

ولا شك فى أن هذه قدرة بارعة ، والحمدونى لم يملكها عفواً ، وإنما ملكها واستحوذ عليها بفضل خصب ملكته وما أتاحت الثقافة المعاصرة له من محصول غذاها به ، فإذا هو حين يتناول موضوعًا مثل طيلسان ابن حرب وأنه خَلَقٌ بالٍ يستطيع أن يعرضه فى صور متعددة لا تبلغ فى العدد أصابع يد ولا أصابع يدين ، بل تتجاوز ذلك إلى عشرات من المقطوعات ، ولكل مقطوعة صورتها الطريفة الخاصة .

ويكاد الإنسان يقطع بأنه لا يوجد شاعر فى العصر إلا وقد أذعن للثقافات المعاصرة المتنوعة واتخذ منها غذاء لعقله وقلبه ، وكأن شاعراً لا يستطيع منها فكاكاً ولا خلاصًا ، ونضرب مثلا بالبحترى الذى رأيناه فى الفصل السابق يحمل حملة شعواء على من يكلِّفون الشعراء دراسة المنطق والفلسفة ، فإننا حين نتصفح أشعاره نجد فيها آثار الثقافات التى عاصرته ، حتى لنراه يشيد بالعلم والمعرفة فى بعض ممدوحيه ، إذ يقول له[٢] :

عرف العالمون فضلك بالعلـ ـم وقال الجهَّال بالتقليدِ

وهو لا يشيد بالعلم فحسب ، بل ينكر أيضًا التقليد وكأنه يدعو للاجتهاد واستخدام العقول ، بل إنه ليزعم أن التقليد جهل ما وراءه جهل ، وحرىٌّ بمن يدعو هذه الدعوة أن يطبقها على نفسه ، وأن يأخذها بالعلم والتثقيف ، وكل ما فى الأمر أنه لم يكن يسرف فى ذلك إسراف بعض معاصريه من الشعراء ولا كان يفرغ له ، فقد كان يعيش فى شعره مع نفسه أكثر مما كان يعيش مع الثقافة التى

---

(١) زهر الآداب ٢/٢٣٥ .

(٢) ديوان البحترى (طبع دار المعارف) ١/٦٣٨ .

عاصرته ، بل إننا نحتاج إلى تقييد هذا الكلام ، فقد جمع من أشعار القدماء والمحدثين ديوان حماسة ضخماً . مما يؤكد أنه عكف على دراسة هذه الأشعار حتى استطاع أن يستخلص منها هذا الديوان ، وكأننا نعدم فى العصر الشاعر الذى لا يطلب الثقافة الفنية ، بل الثقافة العامة ، وكل من يتابع البحترى فى شعره يلاحظ أنه حوى لنفسه أطرافًا من تلك الثقافة أتاحت له أن يصبح من ذوى الملكات الخصبة ، وتثقفه بأشعار أستاذه أبى تمام ذائع مشهور ، وهى نفسها تحبب إلى من يديم النظر فيها أن يأخذ بحظ أو حظوظ من الثقافات المعاصرة ، وصوّر بنفسه مدى تنوع هذه الثقافات وتنوع الكلام الذى يحملها فى قوله لبعض ممدوحيه[١] :

ولقد جمعتَ فضائلاً ما استُجْمِعَتْ يَفْنَى الزمانُ وذكرها لم يَهْرَمِ
مثلَ الكلامَ تفرَّقَتْ أنــواعُهُ فِرَقاً وتَجْمَعُها حروفُ المُعْجَمِ

وحقًّا لم يكن البحترى صاحب تعمق فى معانى الشعر مثل أبى تمام أو مثل معاصره ابن الرومى ، ولكن كانت ملكته خصبة ، وكانت ما تزال تمده بخواطر لا تنفد ، ونستطيع أن نلاحظ ذلك فى سينيته التى وصف فيها إيوان كسرى وصفًا لم يُسْبَق إليه ، كما نستطيع أن نلاحظه فى تنوع اعتذاراته للفتح بن خاقان تنوعًا خلب معاصريه ، كما خلبهم عنده إبداعه فى وصفه لخيال المحبوبة أو طيفها حين يلم به فى رُؤَاه وأحلامه ، وتغنى الشعراء بالخيال قديم منذ أوائل العصر الجاهلى ، ولكن الجديد عند البحترى أنه استطاع بملكته العباسية الخصبة التى تقتدر على التوليد والإتيان بالصور المبتكرة والإكثار منها أن يستولى على إعجاب الأسلاف بمثل قوله[٢] :

سَقَى الغَيْثُ أَجْرَاعاً عهدتُ بجوِّها غزالا تُراعيه الجآذرُ أَغْيَدَا[٣]
إذا ما الكرى أهدى إلىَّ خيالَهُ شفى قربهُ التَّبْريحَ أو نَقَعَ الصَّدا[٤]
ولم أَرَ مثْلَيْنَا ولا مثل شأْننا نُعَذَّبُ أَيقاظاً ونَنْعَمُ هُجَّدا[٥]

---

(١) الديوان ٤/٢٦٦٦ .
(٢) الديوان ٢//٦٧٠ .
(٣) الأجراع : الرمال الطيبة . الجو: منخفض الأرض . الجآذر : بقر الوحش .
(٤) نقع الصدا : سكن الظمأ .
(٥) هجدا : نائمين .

وقوله[1] :

أَلمَّتْ بنا بعد الهدوِّ فسامحتْ بوصلٍ متى نطْلبه فى الجِدِّ تَمْنَعِ[2]
وما بَرِحَتْ حتى مضى الليل وانْقَضَى وأَعْجلها داعى الصباح الملمَّعِ[3]
فولَّت كأَن البَيْنَ يَخْلُجُ شَخْصَها أَوانَ تولَّتْ من حَشَاىَ وأَضلعى[4]

وواضح ما فى الشطر الأخير بالأبيات الأولى من لفتة ذهنية واضحة ، ومثله آخر الأبيات الثانية فقد ولَّت وكأنها تُنْتَزَع من حشاه وأضلعه وروحه ، وكان يعرف البحترى كيف يمس قلب سامعه ، كما كان يعرف كيف يتأثر لنفسه ببعض الصور والمعانى ، فقد سمع أو حفظ قول القائل فى وصف أحاديث بعض النسوة وما يتحدثن فيه من جمال وسحر :

إذا هن ساقَطْنَ الأَحاديث بالضُّحَى سِقاطَ حَصَى المرجان من كَفِّ ناظمِ

فما زال يدير البيت فى نفسه وما زال يحاول أن يضيف إليه إضافة بارعة ، وإذا ملكته تسعفه بقوله فى وصف لقائه بمن خلبت لُبَّه[5] :

ولما التقينا والنَّقَا مَوْعِدٌ لنـــا تَبَيَّن رامى الدُّرِّ منا ولاقِطُهْ[6]
فمن لؤلؤٍ تجلوه عند ابتسامها ومن لؤلؤ عند الحديث تُساقطه

ولعل أكبر شاعر فى العصر يصور ذخائر الفكر حينئذ فى الشعر ومدى ما أثرت الحياة العقلية فيه ابن الرومى ، ويبدو عنده بوضوح أنه عكف على جميع الثقافات التى عاصرته ، وأنه أخذ ينهل منها حتى تحولت إلى ذهنه وقلبه ، فإذا هو يستوعبها ، وإذا هو يتقنها ، بل إذا هو يتمثلها تمثلا نادراً ، وكان مما دفعه إلى ذلك دفعًا اعتناقه مبكراً مذهب الاعتزال ، وفى

---

(١) الديوان ٢/١٢٣٧ .
(٢) الهدو : شطر من الليل .
(٣) الملمع : الممزوج سواده ببياضه إشارة إلى أوائل الصباح .
(٤) يخلج : ينتزع .
(٥) ديوان المعانى ١ / ٢٣٨ وانظر الديوان ٢/١٢٣٨ .
(٦) النقا : قطعة من الرمل .

شعره ما يدل على حرصه الشديد عليه كقوله[١] :

أأرفض الإعتزال رَأياً كـلاّ لأنى بـه ضَنينُ

فهو يؤمن به ويعتنقه منحازاً إليه ، ولا يرضى به بديلا ، وإنه ليمنحه كل حبه ، حتى ليصبح ضنينًا به ، وكأنه غدا جزءاً من جوهر نفسه ، ولعله لذلك كان يحسُّ بواشجة رحم بينه وبين نظرائه ممن يعتنقون هذا المذهب الذى كان معروفًا حينئذ بمبدئين يجادل فيهما أصحابه طويلا ، وهما العدل على الله بحيث لا يعطل حرية الإرادة عند الإنسان حتى يكون مسئولا عن أعماله وينال ما يستحقه من الثواب والعقاب ، فلا جبر ولا حتم ولا إلزام ، ثم التوحيد وما يُطْوَى فيه من تنزيه الله عن مشابهة المخلوقين ، فهو ليس بجسم ولا عرض ولا يحده زمان ولا مكان ، وإلى ذلك يشير فى بيان علاقته الوثيقة ببعض معاصريه قائلا له[٢] :

إن لا يكن بيننا قُرْبَى فآصِرَةٌ للدين يقطع فيها الوالدُ الولدا
مقالةُ «العدل والتوحيد» تجمعنا دون المضاهين : مَنْ ثَنَّى ومن جحدا

وواضح أنه يجعل لُحمْة الاعتزال فوق لحمة القربى ، وكأنه يؤمن بأن القربى دم أما الاعتزال فعقل وروح ، وهو لذلك فوق القربى وشائجَ وأواصرَ . ولا يهمنا أنه كان يؤمن بالاعتزال من حيث هو ، وإنما يهمنا أن الاعتزال وصله بالثقافات الأجنبية على اختلاف صنوفها وألوانها ، فقد كان المعتزلة يتصلون مباشرة بهذه الثقافات لدعم عقولهم من جهة ولتبين ما فيها من آراء فاسدة كانوا ينقضونها نقضًا ، وكانت أهم ثقافة أكبوا عليها الثقافة اليونانية بما فيها من فلسفة ومنطق ، وأكبَّ معهم كثير من الشعراء — وخاصة من كانوا يعتنقون الاعتزال — على هذه الثقافة ينهلون منها ويعبون ، وفى مقدمتهم ابن الرومى الذى يبدو أنه كان يفرغ لها وخاصة فى مطالع حياته ويُنْفق فى ذلك أوقاتًا طويلة ، مما أتاح لأشعاره أن تصطبغ بأصباغ عقلية واضحة .

وأول ما يطالعنا من هذه الأصباغ صبغ يعم جميع أشعاره كما تعم الخضرة أشجار

---

(١) ديوان ابن الرومى (نشر كامل كيلانى) ص ٩٢ .

(٢) ابن الرومى : حياته من شعره (طبع المكتبة التجارية) ص ٢٢٣.

الطبيعة فى الربيع ، ونقصد استقصاءه للمعانى ، فهو إذا ألمَّ بمعنى لم يكد يترك فيه بقية لأحد من بعده ، وكان لذلك تأثير مهم فى قصائده إذ تبدو الأبيات فيها مترابطة ترابطًا لا يُعْرَفُ لأحد غيره من شعراء العربية ، ترابطًا يجعل البيت لا يُفْهَمُ تمام الفهم إلا إذا نظر القارئ فيما يسبقه وما يتلوه ، حتى لتصبح القصيدة بناء متكاملا متناسقًا ، مما يوثق الوحدة بينها لا الوحدة الموضوعية فحسب ، بل أيضًا الوحدة العضوية ، إذ تصبح كُلا واحداً مؤلفًا من أجزاء ولكل جزء أو بيت مكانه ، بحيث لو نُزع منه إلى مكان آخر لنبا به المكان الجديد . ومنشأ ذلك أن الأبيات يتولد بعضها من بعض ، أو قل هى الأفكار والمعانى ما تزال تتوالد وتتشعب ، وكل شعبة تنشأ عن سابقتها وتلتحم بها لحمَة القرابة ، بل لحمة الأعضاء فى الجسد الواحد .

وتتصل بهذا الجانب عند ابن الرومى خصائص عقلية كثيرة ، لعل أولها هذا الخصب الذى لا حد له ، فقد أصبح العقل العربى يتعمق المعانى حتى يصل إلى قاعها وقرارها ، ويستخرج كل ما كان مستوراً بها من لآلئ كانت خافية عن الأنظار، بل إن الشاعر يغوص فى مسارب المعانى فيطّلع على شُعَب لاتكاد تحصى وهما جانبان : جانب التشعيب والتفريع وجانب الكشف والاستقصاء ، حتى يتضح المعنى من جميع جوانبه ، وحتى نصبح كأننا نستمع إلى صور من الحوار المعروف عند المعتزلة ، فهم ما يزالون بحوارهم يثيرون دقائق المعنى حتى ينكشف من جميع أطرافه، وإذا هو واضح أشد ما يكون الوضوح بفضل علم المنطق الذى يستهدون به فى مباحثهم وبفضل ملكاتهم العقلية التى صقلها الفكر الفلسفى . وكأنما تحولت المعانى الشعرية عند ابن الرومى إلى صورة من صور حوارهم ، فهى تتفرع إلى أقصى حد ، وهى تتضح أيضًا إلى أقصى حد ، ولذلك كانت القصيدة عنده تطول طولا مسرفًا لا يُعْرَفُ لشاعر عربى من قبله ولا من بعده ، لأن المعانى تُذْكَرُ بجميع شعبها ، وما يزال يستقصيها حتى تبدو واضحة أشد ما يكون الوضوح وهو الوضوح نفسه الذى يُشْغَفُ به أهل المنطق أو قل من يعكفون على دراسة المنطق ، حتى يستأثر بكل ما يفكرون فيه ، وحتى يمنحوه عنايتهم الكاملة .

ليس من شك إذن فى أن شعر ابن الرومى يصور تعمقه فى دراسة المنطق وليس

ذلك فحسب ، فإن المنطق بأقيسته وعلله يستحيل عنده شعراً وفنًّا ، فإذا بنا نتنقل فى طرائف لا تحصى من المعانى ، وكأنما أصبحت هذه الطرائف حدوداً للشعر ، فهو لا يُتَـصَوَّر بدونها ، وإلا يكون شيئًا غَثًّا لا قيمة له ، وصوَّر ذلك ابن الرومى نفسه فى بعض حواره مع شاعر أنشده شعراً سليمًا من العيوب مطبوعًا عاريًا من دقائق المعانى ، فقال له : « نحن — أعزَّك الله — نطلب مع السلامة الغنيمة»[١] . فلا شعر بدون غنيمة أو بدون معنى مبتكر أو بدون قياس سديد أو تعليل لافت دقيق ، من مثل قوله[٢] :

عدوُّك من صديقك مستفاد ... فلا تستكثرنَّ من الصِّحــابِ

فإن الداءَ أكثرُ ما تراه ... يكون من الطعام أو الشراب

وهذا التحذير من الصديق يدور فى كثير من الأقوال والأمثال ، ولكن الطريف عند ابن الرومى هو التعليل البارع ، إذ قاس الصديق على الطعام والشراب الممتعين وكيف يستحيلان أحيانًا داء لا شفاء منه ، وكأنما يؤتى الحذر من مأمنه ، ومن تعليلاته الطريفة تعليله لمحبة الأوطان ، إذ يقول[٣] :

وحبَّبَ أوطانَ الرجال إليهمُ ... مآربُ قَضَّاها الشبابُ هنالكا

إذا ذكروا أوطانهم ذكَّرتهمُ ... عهودَ الصبا فيها فحنّوا لذلكا

فقد ألفتْه النفسُ حتى كأنه ... لها جسدٌ إن بان غودر هالكا

وكان الشعراء قبله يتشوقون إلى أوطانهم ولا يعرفون العلة فى ذلك حتى كشفها لهم ابن الرومى ، فكل يتعلق بوطنه ويشغف به ، لأنه ملاعب صباه وشبابه التى لا يبرح خيالها ذاكرته ، والتى طالما ألفتها النفس وأنِستْ لها ، بل لقد التصقت بها التصاق الروح بالجسد ، بحيث لو انفصم أحدهما عن صاحبه أصبح فى الهالكين . وتكثر فى شعر ابن الرومى كثرة مفرطة التعليلات والأدلة والأقيسة كقوله فى بعض غزله[٤] :

---

(١) ذيل زهر الآداب (طبع المطبعة الرحمانية بمصر) ص ١٩٠ .

(٢) الديوان ص ١٣٩ .

(٣) الديوان ص ١٣ وزهر الآداب ٣/ ٩٩ .

(٤) زهر الآداب ١/ ١٢ .

لا تكثرنَّ ملامةَ العُشَّاقِ   فكفاهمُ بالوجد والأشواقِ

إن البلاءَ يُطاق غيرَ مضاعف   فإذا تضاعف كان غير مُطاقِ

لا تطفئنَّ جَوًى بلومٍ إنَّه   كالريح تُغْرِى النار بالإحراقِ

فهو يقيس تكرار اللوم للعشاق على تضاعف البلاء الذى لا يطاق ، ولا يكفيه هذا القياس ، وإذا هو ينفذ إلى قياس بديع ، فالهوى نار مشتعلة فى الصدور ، واللوم ريح عاصفة تفرقها يمينًا وشمالا ، حتى تأتى على كل ما تجاوره ، وكأنما لا يزال يغريها بأن تزداد تلظيًا وإحراقًا واشتعالا . وبجانب هذه القدرة لدى ابن الرومى على الأقيسة والعلل ، نحس قدرة فائقة على الجدل وكسب القضية بالحق وغير الحق ، وكأنه معتزلى كبير يناقش بعض مسائل الاعتزال ويحاول أن ينقض على خصمه حججه وأدلته ، أو قل إنه يُدلى بحجج وبراهين تمحو كل براهينه وحججه ، وهى براهين وحجج شعرية ، فيهافن وفيها جمال وفيها حس الشاعر وفطنته ، من ذلك أن يجد الناس من حوله مجمعين على إيثار الورد على النرجس ، فيرد عليهم إجماعهم بالدليل القاطع والبرهان الساطع يقول[1] :

خجلتْ خدودُ الورد من تفضيلهِ   خَجَــلاً تورُّدُها عليهِ شاهدُ

أين العيونُ من الخدود نفاسةً   ورياسةً لولا القياسُ الفاسدُ

فاحمرار الورد الذى طالما شبَّهه الشعراء بالخدود إنما هو احمرار خجل من تفضيل من لا يقدرون الجمال له على النرجس الذى يشبهه الشعراء بالعيون ، وأين الخدود من العيون روعة وجمالا ، وهوبون بعيد لا يخطئ فيه إلا أصحاب القياس الفاسد الكليل . ومما يتضح عنده فيه أثر الاعتزال واختلاطه بالمعتزلة أن نراه يعمد إلى ذم شىء ذمًّا طبيعيًّا ، لأنه يستحق الذم ، ثم يعمد بعد ذلك إلى مدحه ، بيانًا لقدرته فى الحجاج والجدل . ويُنْسَب إلى الجاحظ كتاب فى المحاسن والأضداد بعامة ، وهو منحول عليه ، ولكنا نجد معاصراً لابن الرومى هو إبراهيم بن محمد البيهقى يؤلف كتاب المحاسن والمساوى وهو منشور ، ويدل بوضوح على أن الناس شغفوا فى العصر — يقودهم المعتزلة من أمثال الجاحظ — بمدح الشىء وذمه ، وعلى

---

(١) الديوان ص ٣٨٩ .

قبس من هذا الصنيع عمد ابن الرومى إلى ذم الحقد البغيض ، فقال[١] :

الحقدُ داءٌ دفينٌ لا دواءَ له يَرِي الصدورَ إذا ما جَمْرُهُ حُرِثا[٢]

فاستَشْفِ منه بصفحٍ أو معاتبـةٍ فإنما يبرئُ المصدورَ ما نفثَا[٣]

فالحقد داء لا يمكن الشفاء منه ، وما يزال جَمْره متقداً فى الصدور ولا يمكن إطفاؤه ، ويحاول ابن الرومى أن يكتشف دواء لصاحبه ، فيوصيه بالصفح والعتاب فقد ينفسان عنه بعض الشىء ، ولكن أى تنفيس ؟ إنه تنفيس المصدور الذى قد ينفس عنه لحظة ما ينفثه ، وسرعان ما ينطوى صدره ثانية على مرضه أو قل على هذا الجمر جمر الحقد الذى يشوى صدر صاحبه شيًّا . وابن الرومى فى ذلك كله متفق مع الناس جميعًا فى ذم الحقد الكريه ، ولكن أليس من حقه أن يُغرب عليهم كما يغرب أحيانًا المعتزلة أصحاب الحجاج واللسن واللدد فى الخصومة ، فيمدح لهم الحقد البشع ويحيله شيئًا مستحبًا لا بشاعة فيه ولا قبح ، يقول[٤] :

وما الحِقْدُ إلا تَوْأَمُ الشكر فى الفتى وبعضُ السجايا يَنْتَسِبْنَ إلى بعضِ

فحيث تَرى حِقْدًا على ذى إساءةٍ فثَمَّ ترى شكرًا على حَسَن القَرْضِ

ولولا الحقودُ المستكنَّاتُ لم يكن لينقضَ وِتْرًا آخر الدهر ذو نَقْضِ

فالحقد توأم للشكر وقرين له ، وحرى بنا إذا تأملنا فى حقيقته أن نعيد النظر فيه ، فإنه يُستَحَبّ إزاء بعض الأشخاص ممن يسيئون إلى الناس ، بينما يستحب الشكر إزاء من يحسنون القرض والتفضل على من حولهم ببعض ما أنعم الله عليهم . ويلفت ابن الرومى إلى دليل قاطع يدل على أن الحقد محمود ، فلولاه لضاع الوتر أو الثأر ولم يأخذ موتور حقه من واتر . وبذلك استطاع أن يخرج الحقد الذميم فى صورة حسنة محمودة ، بفضل مهارته فى الحوار والجدل ، وكأنه معتزلى كبير يدافع عن قضية من قضايا المعتزلة الشائكة . وكثيرون من الشعراء وراءه أفادوا على شاكلته من حوار المعتزلة ومناظراتهم ، كما أفادوا من ثقافات العصر ما استحالت به ملكاتهم

---

(١) الديوان ص ١٣٧ .

(٢) يرى : يشعل .

(٣) المصدور : المريض بذات الصدر أو الرئة .

(٤) الديوان ص ١٦٣ .

العقلية خصبة إلى أبعد حدود الخصب ، بحيث أتاحت لهم ما لا يحصى من دقائق المعانى والأخيلة .

٣

التجديد فى الموضوعات القديمة

ظلت الموضوعات القديمة المألوفة من مدح وغير مدح وهجاء تسيطر على الشعر والشعراء ، وكأنما كان هناك إصرار قوى أن تظل للشعر العربى شخصيته وموضوعاته وأن يظل حيًّا على الألسنة مع حياة الأمة ، فلا يضعف ولا يذوى عوده ، بل يقوى ويزدهر ، غير متحوّل عن أصوله ، مهما غذَّته الثقافات الفلسفية وغير الفلسفية ومهما عبَّر عن الحضارة العربية الحديثة ، فهو موصول دائمًا بقديمه ، شأنه فى ذلك شأن الآداب الحية التى لا تنقطع صلتها بماضيها ، مهما وقع عليها وعلى أهلها من تأثيرات حضارته وثقافته ، إذ تظل متصلة بها اتصالا يمكّن لها فى التاريخ وفى الخلود . وحقًّا تنعكس على موضوعات الشعر حينئذ آثار حضارية وثقافية كثيرة ، ولكنها لا تُحْدِثُ تعديلا فى جوهرها ، فجوهرها ثابت ، إنما تحدث بعض إضافات تكثر وتقل حسب ملكات الشعراء وحسب ما كانوا يتغذون به من الثقافات وما كان يداخلهم من إعجاب إزاء مظاهر الحضارة الجديدة .

وأول ما نتحدث عنه من الموضوعات المديحُ ، ومعروف أن الشاعر الجاهلى كان يصوّر فيه المثل الخلقى الرفيع فى عصره ، من الكرم والشجاعة والوفاء وحماية الجار والحلم والحزم وإباء الضيم وحصافة العقل ، حتى إذا كان العصر الإسلامى أخذ الشاعر يضيف إلى هذه المثالية مثالية الدين ، وخاصة إذا كان يمدح خليفة ، وكانوا يسجلون أعمال الخلفاء والولاة وما ينشرون من الأمن والعدالة التى لا تطيب حياة الناس بدونها ، وسجلوا أيضًا مواقع القواد مع الترك وغيرهم وبطولاتهم الحربية المختلفة . وبذلك كانت المدحة فى العصرين الجاهلى والإسلامى تشتمل بما تعرض من مثاليات على أسس قويمة خلقية ودينية لتربية الشباب ، كما كانت تشتمل على أعمال الدولة وأمجاد العرب الحربيه . وكل ذلك اضطرم اضطرامًا فى المدحة عند

شعراء العصر العباسى الأول ، مع محاولاتهم الجادة فى التطور بمعانى المديح عمقًا وسعة وتنوعًا ، وظلت رغباتهم ومحاولاتهم فى هذه الإضافة تزداد خصبًا فى هذا العصر ، وهم فى ذلك لا ينسون مثالية المديح الموروثة ، فإذا مدحوا خليفة أو واليًا أو قائداً تمثلوا فيه الفضائل العربية مرسومة ، وكذلك الفضائل الإسلامية ، وتمثلوا أيضًا العدل الذى يعصم الحاكم من الطغيان ويعصم الشعب من العبث والظلم والفساد. ويتردد ذلك دائمًا على ألسنة الشعراء من مثل قول البحترى فى المتوكل ، وكان اسمه جعفراً[١] :

خَلقَ اللهُ جَعْفَرًا قَيِّم الدُّنْ ... يَا سَدَادًا وقيِّم الدين رُشْدَا
أَظهر العدلَ فاستنارتْ به الأَرْ ... ضُ وَعَمَّ البلادَ غَوْرًا ونَجْدا

وقد مضى الشعراء يُضَمِّنون هذه المثالية على الخلفاء فى الحكم وفى التقوى وأيضًا فى الخلق والشيم ، مهما كانت سيرتهم وكأنهم لم يكونوا يفكرون فيهم من حيث هم إنما كانوا يفكرون فيهم من حيث خلافتهم وقيامهم على حكم الرعية ، وهم لذلك يرفعون أمام أعينهم ما ينبغى أن يكون عليه الخليفة فى خلقه وفى دينه وفى سيرته وفى حكمه ، وكأنما هو رمز ، رمز للأمة فى حاكمها الرشيد ، وهم يبرزونه لها بالصورة التى تريدها ويريدونها معها ، صورة الحاكم المخلص الأمين الذى ينكر الظلم أشد الإنكار ، والذى يعمل بكل ما فى وسعه على إشاعة العدالة بين أفراد رعيته حتى يتساووا فى الانتفاع بالحياة تساوياً تامًّا . وكان هناك من يبالغون فى مديح الخلفاء حتى ليضفون عليهم صفات قدسية ، وهى صفات خلعها شعراء الشيعة على أئمتهم منذ عصر بنى أمية ، وأخذ شعراء الخلفاء من حينئذ يستعيرونها ليسبغوها بدورهم على الخلفاء الأمويين والعباسيين ، من مثل قول ابن الجهم فى المتوكل[٢] :

إمامُ هُدًى جَلَّى عن الدين بعد ما ... تعادتْ على أَشياعه شِيَعُ الكُفْرِ

وقوله[٣] :

له المِنَّةُ العُظْمَى على كل مسلمٍ ... وطاعتُه فرضٌ من الله مُنْزَلُ

---

(١) الديوان ٢ /٧١٢ .
(٢) الديوان ص ٢٢٢ .
(٣) الديوان ص ١٦٤ .

فهو الهادى المهدى الذى تجب طاعته على جميع المسلمين ، وكان الشعراء من وراء ابن الجهم يبالغون فى بيان ذلك مبالغات شتى ، مما سنعرض له فى غير هذا الموضع . ونرى كثيرين منهم يسجلون الأعمال الكبرى فى عصور الخلفاء ولنأخذ مثلا المتوكل ، فجميع أعماله مثبتة فى دواوين الشعراء وفى كتب التاريخ ، فمن ذلك أمره لأهل الذمة بلبس الطيالسة العسلية والزنانير مما وقفنا عنده فى الفصل الأول ، فقد تغنى بهذا العمل ابن الجهم فى أشعاره[١] ، ومن ذلك عقده البيعة لبنيه الثلاثة : المنتصر والمعتز والمؤيد ، فقد تغنى شعراؤه بهذا الصنيع طويلا[٢] .

ويكثر فى عهده بناء القصور على نحو ما أسلفنا ، وكلما شاد قصراً نوّه الشعراء به وبروعة بنائه وما يدل عليه من مظاهر الحضارة والعمران لعصره. وليس هناك حادثة جُلَّى من سجن وزير وتعذيبه مثل ابن الزيات ، أو غضب على قاض وتصفية أمواله مثل ابن أبى دؤاد ، أو على طبيب وقبض أمواله مثل بختيشوع أو على كاتب من كتاب الدواوين أو على بعض الولاة إلا ويسجل الشعراء ذلك فى أشعارهم مما يجعلها بحق وثائق تاريخية ، وأروع ما سجلته هذه الوثائق أمجاد قوادنا وأبطالنا وجيوشنا فى حومات الوغى شمالا وشرقاً ، وهى ليست تاريخاً يُسْرَدُ كما تصنع كتب التاريخ ، وإنما هى أناشيد انتصارات رائعة لجنودنا وقوادهم البواسل فى حروب الروم والترك والأرمن ، وماتنى الجيوش العربية تخوض إليهم بحوراً من الدماء منزلة بهم صواعق الموت التى لا تبقى ولا تذر . وكان من أبطال هذه المعارك لعهد المتوكل يوسف بن محمد الثغرى ، وكان المتوكل قد ولاه بعد وفاة أبيه على أرمينية ، وكانت قد نشبت بها ثورات فأخذ يسحقها بجنوده المغاوير سحقاً ، وفيه وفى انتصاراته على بعض البطارقة الأرمنيين يقول البحترى[٣] :

هو الملكُ المرجوٌّ للدين والعُلا ... فللّه تَقْواه وللمجد سائرُهْ

له البأسُ يُخْشَى والسماحة تُرْتَجَى ... فلا الغيث ثانيه ولا الليل عاشِرُهْ[٤]

كَسَرْتَهُمُ كَسْرَ الزُّجاجةِ جِدَّةً ... ومن يجبر الوَهْىَ الذى أنت كاسرُه

حسامٌ وعزمٌ كالحسام وجَحْفَلٌ ... شِدادٌ قُوَاهُ مُحْصَدَاتٌ مَرَائِرُه[٥]

(١) الديوان ص ١٩٢ .
(٢) الطبرى ٩ /١٨١ .
(٣) الديوان ٢ /٨٧٧ .
(٤) عاشره : يبلغ معشاره .
(٥) محصدات : محكمات . مرائره : قواه ، وأصلها طاقات الحبال .

وليست هناك وقائع حربية كبيرة إلا ودوّن الشعراء فيها البطولات العربية ، وكان من أهم هذه الوقائع ثورة الزنج ، وقد تغنى الشعراء فيها ببطولة الموفق غناء مدويا ، ونرى الطبرى يسجل فى تاريخه طائفة كبيرة من أشعار هذا الغناء . وبالمثل نراه يدوّن أغانى وأناشيد أنجرى فى حروب القرامطة ، وكأنما استقر فى نفوس المؤرخين أن الشعر الذى تغنّى بهذه الحروب ووصفها لا يقل أهمية عن وثائق التاريخ ، فهو ليس مديحًا للبطولات وتمجيداً فحسب ، بل هو أيضًا تاريخ ، وهو تاريخ نابض بالحياة . ومن المحقق أنه حتى الآن لم يستغلّ هذا التاريخ الشعرى فى كتابة تاريخ العصر ، إذ كثيراً ما يحوى من التفاصيل ومن دقائق الأحداث مالا نجده مصوراً فى كتب التاريخ ، ولذلك كان ينبغى على المؤرخين ألا يكتفوا بما يقرءون فى كتب التاريخ عن الأحداث والوقائع الحربية ، بل يضموا إلى ذلك وصف تلك الوقائع والأحداث المبثوث فى دواوين الشعراء ، حتى يطلعوا على كل جوانبها اطلاعًا مضبوطًا دقيقًا .

وظل شعراء المديح فى كثير من مدائحهم يقلدون الأقدمين فى الوقوف على الأطلال والبكاء على الدمن والآثار العافية ، وفى رأينا أن استبقاء الشاعر العربى على مدى العصور الماضية لهذا المطلع فى كثير من قصائده لم يكن لبيان صلته بأسلافه ولا استبقاء لصورة من صور حياتهم الرعوية فى العصر الجاهلى وما كان يتصل بها من الرحلة الدائرة حول مساقط الغيث والكلأ . وإنما كان لإحساس الشاعر إحساسًا عميقًا بتعبير هذا المطلع عن كل ما ينمحى من حياة الإنسان إلى غير مآب ، سواء فى ذلك حبه وغير حبه ، فدائمًا لحظات ماضيه تذهب منه إلى غير مآب فى الشباب وغير الشباب ولا يستطيع لها رجعة ولا أوبة . وكأنما تصوّر الأطلال نوازع الفناء التى تطبق مخالبها على كل ما يمضى من حياة الإنسان ، وعادةً تُطْبِقُ هذه المخالب عليه آخر الأمر ، فيصبح أثراً بعد عين ، وهو لذلك يقف بالأطلال باكيًا بدموع غزار ، متمنيًا لو عادت إليها نضرة الحياة القديمة . ولذلك قد يستسقى لها السحاب حتى تعود إليها النباتات والظلال وحتى تدبّ فيها الحياة ، فمن ذلك قول ابن المعتز يصف داراً وأطلالا[1] :

---

(١) الديوان (طبعة دار صادر ببيروت) ص ٣٥٤ وزهر الآداب ١ / ١٦٦ .

لا مثل مَنْزلة الدُّوَيْرَةِ منزلٌ ... يا دارُ جادكِ وابلٌ وسقاكِ
بُؤْساً لدهرٍ غَيَّرَتْكِ صُرُوفُهُ ... لم يَمْحُ من قلبي الهوى ومحاكِ
لم يَحْلُ للعينين بعدكِ منظرٌ ... ذُمَّ المنازلُ كلُّهن سواكِ
أيُّ المعاهد منك أَندبُ طيبَه ... مُمْساكِ بالآصال أم مَغْداكِ
أم بَرْدُ ظِلِّك ذى الغصون وذى الجَنَا ... أم أرضك المَيْثاءُ أم رَيَّاك[1]
وكأنما سَطَعَتْ مجامرُ عَنْبَرٍ ... أوفُتَّ فَأْرُ المِسْكِ فوق ثَرَاكِ
وكأنما حَصْباءُ أَرضك جوهرٌ ... وكأَن ماءَ الورد دمعُ نَدَاكِ
وكأنما أَيدى الربيع ضُحَيَّةً ... نشرتْ ثيابَ الوَشْيِ فوق رُبَاكِ

وابن المعتز يلمُّ بتلك الدار ، ويراها وقد فقدت بهجتها القديمة وغيَّرتها صروف الزمان حتى محت أطلالها الدوارس ، ولا يزال هواه بها ماثلا فى قلبه ، وهو يدعو لها الغيث أن يجودها حتى تستعيد حُلَّتها الداثرة . وتتراءى له من خلال ذكرياته وعهود حبه الماضية ، فيرى كل الديار دونها ولا تقاس إلى جمالها ، ويبكيها ويندبها ، ويندب كل معهد فيها وما كان ينتشر فيه من طيب على الصباح الباكر وعلى الآصال فى المساء وعلى الغصون ذات الظلال والثمار ، وتفوح الأرض برائحتها الساطعة ، وكأنما تفوح مجامر عنبر ، أو كأنما تفوح فأرة مسك ، وحتى الحصى كأنه جواهر سقطت من أهل تلك الدار ، وكأن قطرات الندى ماء ورد عاطر ، والربيع ينشر بها وشيا عجيب الألوان . وهو وصف يحمل حنينًا ووجداً لا نهاية لهما للدار وما كان بها من لقاء بين الأحبة ، لقاء جعل كل ما حولهم يبدو فى هذه الصورة الفاتنة المحفورة فى ذهن ابن المعتز حفراً لا يمكن أن يطمس أو تأتى عليه الأيام .

وكان الشاعر القديم ينزع نفسه من الأطلال وما يتصل بها من ذكريات الهوى والشباب الداثرة ، مفضيًا إلى وصف رحلة له فى الصحراء ، يتحدث فيها عن طول سُراه وعن الفلوات وحيوانها الأليف والوحشى ومَدى ضَنَا بعيره فى رحلته

---

(١) الجنا : الثمر . الميثاء : السهلة . الريا : الرائحة .

الطويلة الشاقة ، وكأنما يريد أن يجذب نفسه جذبًا من أفكار الغناء ويتغلغل فى نوازع الحياة . وتبعه الشاعر العباسى مستبقيًا على كل هذه العناصر فى قصيدة المديح ، وقد يفرد لوصف هذه الرحلة قصائد أو مقطوعات طريفة ، وهى متناثرة فى دواوين الشعراء من مثل قول على بن الجهم[١] :

كم قد تجهَّمنى السُّرَى وأزالنى ليـــلٌ ينوءُ بصدره متطاولُ
وهززتُ أعناقَ المطىِّ أَسومُها قصدًا ويحجبها السوادُ الشامل
حتى تولَّى الليلُ ثانىَ عِطْفِـــهِ وكأَن آخره خِضَابٌ ناصِلُ
ورأيت أَغْباش الدُّجَىٰ وكأَنها حِزَق النَّعام ذُعِرْنَ فهْى جوافلُ[٢]

وهو يصور سُراه فى ليل متطاول يجثم سواده على آفاق الكون ، وما زال يقطعه حتى نـَصل خضابه الأسود وبدت أغباشه وبقاياه وكأنها نعام مذعور ، فهى تفر فراراً من الضوء الذى أخذ ينتشر على قطع الظلام . وطالما وصف الشعراء نحول إبلهم وضناها كناية عن طول سُراها ومدى ما عانته من نصب فى وعثاء السفر الطويل الذى لا يكاد ينتهى . وألمَّ شعراء العصر كثيراً بهذا المعنى كقول البحترى فى وصف إبله[٣] :

يَتَرَقْرَقْنَ كالسَّراب وقد خُضْـ ـنَ غِمارًا من السَّراب الجارى
كالقِسِىِّ المعطَّفات بل الأَسـ ـهمِ مبريَّةً بل الأَوتارِ[٤]

فهى لا تكاد تبين نحولا وهزالا حتى لكأنها أصبحت سرابًا ، وإنها لتشبه القسىَّ المنحنية ، بل هى أكثر نحولا فهى كالأسهم ، بل هى أيضًا أكثر ضَنًا وهزَالا حتى غدت كالأوتار ضموراً . وكانوا فى أثناء ذلك يعرضون لوصف حُمُرِ الوحش وأتُنها التى يصادفونها فى الفلاة ، وكذلك لوصف الظباء وبقر الوحش ، وكل يحاول أن ينفذ إلى صورة دقيقة من مثل قول ابن المعتز[٥] :

---

(١) الديوان ص ١٦٨ .
(٢) أغباش : بقايا . حزق : جماعات . جوافل : منزعجة .
(٣) الديوان ٢ /٩٨٧ .
(٤) المعطفات : المنحنيات .
(٥) الديوان ص ١٥٩ .

وجَرَتْ لنا سُنُحاً جآذرُ رَمْلَةٍ تتلو المهَا كاللؤلؤ المتبدِّدِ[١]
قد أطلعتْ إبَرَ القرون كأنها أخذُ المراود من سَحيق الإِثْمِدِ[٢]

وكان ابن المعتز قد سُبق بوصف إبر القرون وأطرافها المدبَّبة بالمراود المغموسة فى الكحل شديد السواد واللمعان ، فما زال يحاول النفوذ إلى صورة جديدة حتّى قال يصف ثوراً وحشيًّا يقود إجْلا أو قطيعًا من بقر الوحش[٣] :

كأَنى على طاوٍ من الوحش ناهضٍ تخالُ قرون الإجْل من خلفه غابا

فقرون البقر تتكاثر حتى ليخالها ابن المعتز غابة نبتت فى الفلاة فجأة .

وكان الشعراء يعرضون أحيانًا مع الربيع ووصفه للحديث عن الخمر ، على نحو ما كان يصنع أسلافهم العباسيون ، وشاعت حينئذ التهنئة بعيد النيروز وبيوم المهرجان الكبير ، وكانت بغداد وضواحيها تتحول فيه إلى ساحات كرنفالات ضخمة على نحو ما مر بنا فى غير هذا الموضع ، وكان الشعراء يهنئون الخلفاء والولاة به ، وكثيراً ما كانوا يتحدثون عن ملاهيه ، وقد يسوقون الحديث إلى الخمر ، على نحو ما يلقانا عند ابن الرومى فى قصيدة يوم المهرجان التى مدح بها عبيد الله بن طاهر محافظ بغداد حينئذ ، ونراه يصور تصويراً رائعًا ما كان بمجلسه من قيان يتغنين غناء يأسر القلوب ، يقول[٤] :

وقيانٍ كأنها أُمَّهــاتٌ عاطفاتٌ على بَنِيها حَوانِ
مُطْفِلاتٌ وما حملْنَ جَنِيناً مرضعاتٌ ولسْنَ ذاتَ لِبانِ[٥]
كلُّ طفلٍ يُدْعَى بأَسماءَ شَتَّى بين عودٍ ومِزْهَرٍ وكِرَانِ[٦]
أُمُّه دهرَها تترجم عنه وهْو بادى الغِنى عن الترجمـــان
غير أن ليس ينطق الدهر إلا بالتزامٍ من أمه واحتضانِ[٧]

(١) سنحا : عرضاً أو مارة من اليمين . الجآذر : جمع جؤذر وهو ولد البقرة . المها : بقر الوحش .
(٢) الإثمد : الكحل .
(٣) الديوان ص ٣٨ وطاو : جائع .
(٤) الديوان ص ٨٤ .
(٥) لبان : لبن .
(٦) الكران والمزهر من آلات الطرب الوترية .
(٧) التزام : اعتناق .

وقد مضى يتحدث عن تأثير هؤلاء القيان بغنائهن وبما كن يحملن من آلات الطرب على صدورهن ، وكأنها أطفال لهن، فهن يعانقنها وكأنما يرضعنها، ولكن لا بلبن وإنما بألحان شجية تشفى المحزون من دائه، ولكل منهن جمالها وسحرها وفتنتها وصوتها الذى يدلع الحزن والفرح جميعًا ، صوت تمده وتعلو به كما أرادت أو كما يقول فى قصيدته :

ذات صوتٍ تهزّه كيف شاءَتْ مثلما هَزَّتِ الصَّبا غُصْنَ بانِ

وإنما أردنا بذلك كله أن نصور كيف أن شاعر المديح فى هذا العصر حاول أن يضيف إلى عناصره الموروثة عناصر مستمدة من بيئته الحضارية ، ممثلا فيها كثيراً من المعانى والصور الدقيقة ، وكانوا دائمًا يلائمون بين مدائحهم وممدوحيهم ، فإذا مدحوا وزيراً مثلا عرضوا لسياسته وتفننه فى الكتابة ، وإذا مدحوا قائداً عرضوا لوقائعه وأمجاده الحربية ، وإذا مدحوا عالمًا أشادوا بعلمه ، وكذلك إذا مدحوا مغنيًا أشادوا بغنائه . واضطرم حينئذ الهجاء كما اضطرم المديح ، ولم يكد يترك الشعراء خليفة ولا وزيراً ولا قاضيًا ولاعالماً ولا مغنياً إلا كالوا له الهجاء كيلا ، وأدّاهم تنافسهم إلى أن يتبادلوا الهجاء ويريشوا كثيراً من سهامه . واقرأ فى أى ديوان من دواوين العصر فستجد دائماً هجاء كثيراً على نحو ما يلقانا فى ديوان البحترى مثلا، وقد اشتهر بهجائه بعض ممدوحيه حين يقلب لهم الدهر ظهر المجن ، مثل أحمد ابن الخصيب ممدوحه ، فإنه حين نكبه المستعين أنشده قصيدة يحثه فيها على مصادرة أمواله وسفك دمه ، وظل يسلقه بلسانه طويلا بمثل قوله[1] :

لابن الخصيب الوَيْلُ كيف انبَرَى بإفْكه المُرْدِى وإبطالهِ
كاد أمينَ الله فى نفسهِ وفى مواليه وفى ماله
والرأىُ كلُّ الرأى فى قتله بالسيف واستصفاءِ أمواله

وله قصائد كثيرة يمجد فيها المستعين وعهده ، حتى إذا خُلع وولّى الترك بعده المعتز أصلاه ناراً حامية من هجائه فى ثنايا مديحه للخليفة الجديد . ولم يكن البحترى حاذقًا فى هذا الفن ، غير أنه كان هناك كثيرون يتقنونه ، مثل على

(١) الديوان ٣ /١٦٣٧ .

ابن بسام ، وكان يتعرض فى هجائه كثيراً للخلفاء والوزراء وقلما سلم أحد من لسانه ومن قوله فى العباس بن الحسن وزير المكتفى[1] :

وزارة العباس من نَحْسِها تستقلع الدولةَ من أُسِّها

شبَّهته لما بدا مقبـلا فى حُلَلٍ يُخْجَلُ من لبسها

جاريةً رَعْناءَ قد قدَّرتْ ثيابَ مولاها على نفسها[2]

وكان أكثر ما يعتمدون عليه فى الهجاء من معانٍ التهوين والتحقير والتصغير وما إلى ذلك من طعنات مصمية نافذة ، بما تحمل من سموم الانتقاص والسخرية المريرة ، كقول إبراهيم بن العباس فى صديق تنكر له وجحد معروفه[3] :

ولما رأيتك لا فاسقاً تهابُ ولا أنت بالزاهدِ

وليس عـدوّك بالمتقى وليس صديقك بالحامدِ

أتيتُ بك السوقَ سوقَ الرقيقِ فناديت هل فيك من زائد

على رجلٍ غـادرٍ بالصديقِ كفـورٍ لنعمائه جاحدِ

فما جاءنى رجلٌ واحدٌ يزيد على درهمٍ واحـدِ

سوى رجلٍ حارَ منه الشَّقا وحلَّتْ به دعوةُ الوالدِ

فبعتُك منه بلا شاهد مخافة أُدْرَكُ بالشاهد

وأُبْتُ إلى منزلى سالماً وحَلَّ البلاءُ على الناقد[4]

والمقطوعة تمسخ هذا الصديق مسخًا ، حتى لتجعله حيًّا كميت وموجوداً كمعدوم ، فلا هو من أهل المجون ولا من أهل الزهد ولا يخشى بأسه عدو ولا يحمده صديق ، إنه كنودٌ مهين ، ولذلك ذهب ببيعه الصولى فى سوق الإنسان الكبيرة ، معلناً عيوبه من الغدر وكفر النعمة والجحود ، مما جعل الناس يكفُّون عن شرائه إلا

---

(١) زهر الآداب ٣ /٨٨.

(٢) قدرت : فصّلت وقطّعت .

(٣) ديوان المعانى ١ /١٨٣ .

(٤) الناقد : المشترى .

أن يكون بدرهم واحد ، إلا ما كان من رجل سيئ الحظ كأنما استجيبت فيه دعوة لأبيه ، أقدم على شرائه ، فباعه منه بدراهم معدودة ، وولى الصولى على وجهه يطلب السلامة من هذا البلاء الذى كان حلّ به . وكان مما يؤذى المهجوين حينئذ إيذاء شديداً أن يوصفوا بالقذارة ، إذ كان العرب قد تحضروا وأسرفوا فى صور النظافة وفى التطيب بالعطور ، وكأن من يوصف بنتن الرائحة يتلطخ بعار ما بعده عار ، ويستغل ذلك الصولى فى أحد مهجويه قائلا له[1] :

وكن كيف شئتَ وقل ما تشا وأَبْرِقْ يميناً وأَرْعِدْ شِمالا
نجابك لُؤْمُكَ مَنْجَى الذبابِ حمته مقاذيره أن يُنالا

فليكن كما يشاء فإن أحداً لن يستطيع التعرض له لحقارته وقذارته . ومعروف أن ابن الرومى هو أكبر شعراء الهجاء فى العصر وأكثرهم سهامًا لمهجويه ، وكان يعرف كيف يصب عليهم التصغير والحقارة والضعة ، كقوله المشهور فى وصف بخيل[2] :

يقتِّر عيسى على نَفْسِهِ وليس بباقٍ ولا خالدِ
فلو يستطيع لتقتيره تنفَّس من مَنْخِرٍ واحدِ

ففتحة أنف واحدة كانت تكفيه ، ولو أنه رأى فيها حقًّا كفاية ما انتفع بالفتحة الأخرى ، ولا حاول ذلك حرصًا وبخلا وشُحًّا جُبل عليه . وكانت لابن الرومى حاسة تلتقط العيوب الجسدية وتستطيع تكبيرها على نحو ما يصنع أصحاب الصور الكاريكاتورية الهزلية ، فإنهم يعرفون كيف يستغلون دقائق العيوب فى الوجوه والأجسام ، وتستحيل مقطوعات وقصائد كثيرة فى ديوان ابن الرومى إلى صور ساخرة من مهجويه ، حتى ليأخذوا أحيانًا شكل حيوانات مجترة وغير مجترة ، كقوله فى بعض مهجويه[3] :

ما ظننت الإنسان يجترُّ حتى كنتَ ذاك الإنسان عَيْنَ اليقينِ

---

(١) الديوان فى مجموعة « الطرائف الأدبية » ص ١٦٣ .

(٢) الديوان ص ٣٧٥ .

(٣) الفن ومذاهبه فى الشعر العربى (الطبعة السابعة بدار المعارف) ص ٢١٤ .

أما أبو سليمان الطنبورى المغنى فقد استمع إلى غنائه القبيح يوماً، فتراءى له فى صورة بغلٍ لطحَّان ما يزال يحرك فكيه فى أكل طعامه من الفول وغيره، أو كما يقول[١]:

وتحسب العين فكيْه إذا اختلفا   عند التنغم فَكَّىْ بَغْلِ طحَّانِ

وهو جانب طريف عند ابن الرومى سنعرض له ثانية فى ترجمته، والمهم أن نعرف الآن أنه استطاع أن ينمى الهجاء فى هذا الجانب الساخر إلى ذروة لم يصل إليها الشعر العربى قبله ولا بعده.

وظل الفخر نشطاً فى العصر، وكان قد ضعف الفخر القبلى منذ العصر الماضى وظل ضعيفاً فى هذا العصر لضعف الشعور بالعصبية القبلية، وإن كنا نجد هذا الشعور من حين إلى حين. ولكنه على كل حال كان شعوراً خافتاً، ونجده أحياناً على لسان البحترى حين يفتخر بطيِّ قبيلته، وكذلك على لسان ابن الجهم القرشى حين يفتخر بقريش وجدها فهر بن مالك قائلا[٢]:

أَبتْ لى قُرومٌ أَنْجَبَتْنى أَن أَرَى   وإن جَلَّ خطبٌ خاشعاً أَتضجَّرُ
أُولئك آل الله فِهْرُ بن مالكٍ   بهم يُجْبَرُ العظمُ الكسيرُ ويُكْسَرُ
همُ المنكِبُ العالى على كل مَنْكِبٍ   سيوفُهم تُفْنى وتُغْنى وتُفْقِرُ

وبقيت من ذلك بقية عند ابن المعتز، إذ نراه يفخر طويلا على بنى عمومته العلويين، وهو فخر سياسى يدور حول الخلافة وأن العباسيين أولى بها من العلويين. وربما كان أروع من هذا الفخر عنده فخره العام الذى يخلطه بشكواه، والذى يتحدث فيه عن حبه مقدماً لبعض صواحبه فضائله من الشجاعة والبأس والكرم الفياض والوفاء، ومن طريف فخره قوله[٣]:

لا أَشرب الماء إلا وهْو منجـردٌ   من القَذَى ولغيرى الشَّوْبُ والرَّنَقُ[٤]
عزمى حسامٌ وقلبى لا يخالفه   إذا تخاصم عَزْمُ المرء والفَرَقُ[٥]

(١) الديوان ص ٣٦١.
(٢) الديوان ص ١٣٢.
(٣) الديوان ص ٣٣٠.
(٤) الشوب: الماء المخلوط. الرنق: الكدر.
(٥) الفرق: الخوف.

مَيْتُ السَّرائر ضَحَّاكٌ على حَنَق ما دام يَعْجز عن أَعدائَ الحنَقَ

فهو يشرب الماء صفواً وغيره يشرب به كدراً وشوبًا وطينًا ، وهو قوى العزيمة ، يكتم سره ونيته ، أو هو بعبارة أخرى رجل كامل المروءة ، وقد تغنى الشعراء معه طويلا بالكرامة والعزة والأنفة والشيم العربية الرفيعة التى ظلت لا تبرح ذاكرة العرب على مر العصور .

واحتدم الرثاء فى العصر ، فلم يمت خليفة ولا وزير ولا قائد ولا نابه مشهور إلا رثاه الشعراء ، وكان يحدث أن يقتل الخليفة أو يخلع ويموت فى سجنه ، وكان من الشعراء من يتأثر لذلك تأثراً عميقًا ، فتتفجر لوعاته على لسانه رثاء حارًّا ، ومما يصور ذلك مقتل المتوكل الذى مرَّ بنا الحديث عنه ، وكان البحترى حاضراً مقتله فتعمق التأثر نفسه ، فبكاه بقصيدته[1] :

مَحَلٌّ على القاطول أَخلق دَاثِرُهْ وعادتْ صروف الدهر جيشاً تغاوِرُهْ

ويقال إنه نظمها حين ولى ابنه المعتز الخلافة وهى ليست رثاء ولا تأبينًا فحسب ، بل هى أيضًا ثورة على الجناة وفى مقدمتهم ولى العهد المنتصر ، إذ تحول صدره إلى ما يشبه بركانًا لا يزال يقذف بالحُمَم الملتهبة ، حتى ليحرم على نفسه كل متاع إلا أن يهب من يأخذ بثأر المتوكل ويسفح دماء قاتليه دمًا بدم ، ويعجب أن ابنه وولى عهده يشترك فى دمه ، ويدعو الله ألا يمتعه بتراثه ، يقول :

حرامٌ علىَّ الرَّاحُ بعدك أَو أَرى دماً بدمٍ يجرى على الأَرض مائرُه[2]

أَكان ولىُّ العهد أَضمر غَدْرَةً فمن عجب أَنْ وُلِّىَ العَهْدَ غادِرُهْ

فلا مُلِّىَ الباقى تُراثَ الذى مضى ولا حملتْ ذاك الدعاءَ منابره[3]

وكان ابن المعتز صديقًا حميمًا للخليفة المعتضد ، وكان لا يبارَى فى شجاعته وبأسه ، وكانت أيامه أيام أمن وسعود للخلافة ، فلما وافاه القدر جزع عليه ابن المعتز جزعًا شديداً ، وبكاه وبكى دولته بطائفة من المراثى الحارة ، منها مرثيته[4] :

---

(١) الديوان ٢ /١٠٤٥ .
(٢) مائره : سائله .
(٣) ملى : متّع .
(٤) النجوم الزاهرة ٣ /١٢٧ .

يا دهرُ وَيْحك ما أبقيتَ لى أحدا وأنت والدُ سوءٍ تأكل الولدا

وقد مضى فيها يندب سكناه فى دار موحشة ، وقد خلَّف من ورائه الجيوش والكنوز التى لم تكن تُحْصَى عدداً ، والسرير أو العرش الذى كان يملؤه مهابة وسؤدداً ، ويذكر سحقه للأعادى سحقًا لا يبقى ولا يذر ، والجياد والرماح تغدو عليهم وتروح ، كما يذكر قصوره ووصائفه وملاهيه وأمجاده الحربية ، يقول :

ثم انقضيتَ فلا عَيْنٌ ولا أَثَرٌ حتى كأنك يوماً لم تكن أحدا

وعلى نحو ما تفجعوا على الخلفاء تفجعوا على أبنائهم وعزّوهم فيهم ، وبالمثل صنعوا مع الوزراء وذوى النباهة والشأن ، ومرّ بنا فى حديثنا عن خزانات الكتب ما أقام على بن يحيى المنجم فى ضيعة له من خزانة ضخمة للكتب كان الناس يؤمونها من كل بلد ، فيجدون فيها نفقتهم وما يشاءون من كتب لا تكاد تحصى ، وكان الخلفاء منذ المتوكل يسبغون عليه عطايا جزيلة ، فكان ينفقها على مكتبته وعلى الناس من شعراء وغير شعراء ، فلما توفى رثاه على بن بسام رثاء رائعًا على هذا النمط[1] :

قد زرتُ قبرك يا علىُّ مسلِّماً ولك الزيارةُ من أقلِّ الواجبِ

ولو استطعت حملتُ عنك ترابه فلطالما عنى حملتَ نوائبى

ودمى فلو أنى علمت بأنه يَرْوى ثَراك سقاه صَوْبُ الصائب

لسكبته أسفاً عليك وحسرةً وجعلتُ ذاك مكان دمعٍ ساكبِ

فلئن ذهبتَ بملء قبرك سُؤْدُدًا لجميلُ ما أبقيت ليس بذاهب

والقطعة تفيض حسرة ولوعة ، حتى ليتمنى ابن بسام أن لو فَدَاه بروحه ومات مكانه وحمل عنه ترابه ، ويقول إنه لو عرف أن دمه يروى ثراه اسكبه عليه ولم يسكب دموعه المنهلة . ثم يسترجع نفسه فجميل ما أسدى إلى الناس من صُنْع لن يذهب سُدًى ، بل سيظل خالداً على مر الزمان . وكانوا يعزون الآباء فى البنات وأن يحتسبوهن عند الله ، ولهم فيهن تعزيات طريفة ، من ذلك تعزية ابن الرومى

(١) زهر الآداب ٣/٨٨ وانظر معجم الشعراء للمرزبانى ص ١٤٧ .

لابن المنجم المذكور فى ابنة له على هذه الشاكلة[١] :

لا تبعدنّ كريمةٌ أودعتَها ... صِهْرًا من الأَصهار لا يُخْزيكا
إنى لأَرجو أن يكون صَداقُها ... من جَنَّة الفردوس ما يرضيكا
لا تيأَسنَّ لها فقد زوَّجتَها ... كُفُوًّا وضمَّنْتَ الصداق مَلِيكا

وكانوا يحاولون النفوذ إلى العزاء بأن الموت مصير لا بد منه، وأن أحداً لن يعيش إلا إلى أجل محدود فنحن دائمًا مشدودون إلى الموت ، وكل لحظة تمضى تموت ولا تعود إلى الحياة أبداً ، فالدهر لا يعيدها ولا تعيدها أيامه ، بل لكأن الأيام خُلقت لكى تنزل الكوارث على الناس ، أما ما قد تجلبه لهم من حسن ونعم فهى إنما تجلبه عن غير عمد ، وفى ذلك يقول ابن المعتز فى بعض مراثيه[٢] :

أَلستَ ترى موت العُلا والمحامِد ... وكيف دفنَّا الخلق فى قَبْرٍ واحدِ
وللدَّهر أيامٌ يُسِئْنَ عوامدًا ... ويحسنَّ إن أَحسنَّ غيرَ عوامِد

وسَعَّرَ موتُ الأبناء وذوى الرحم قلوب الشعراء ، فبكوهم بدموع غزار وأنوا أنينًا حارًّا من قلوب جريحة كوتها نار الفراق الملتهبة ، ومضوا يتأوهون وجد وات الحزن الممض تلذع أفئدتهم لذعًا ، ويشتهر فى هذا الجانب ابن الرومى برثائه لابنه الأوسط وقد مات منزوفًا وهو لم يزل فى المهد صبيًّا ، وأحس كأن القدر اختطف منه فلذة كبيرة من كبده ، فامتلأت نفسه حزنًا وشقاء ، وقعهما على قيثارته ودموعه تنحدر على خديه ، وإنه ليخاطب عينيه أن ترسل الدموع غزيرة ، علَّها تنفس عنه شيئًا من محنته فى ابنه ، يقول[٣] :

بكاؤكما يَشْفِى وإن كان لا يُجْدِى ... فجودا فقد أَوْدَى نَظِيرُكما عِنْدِى[٤]
أَريحانةَ العينين والأَنف والحَشَا ... أَلاليت شعرى هل تغيَّرتَ عن عهدى
كأَنِّىَ ما استمتعتُ منك بِضَمَّةٍ ... ولا شَمَّةٍ فى ملعبٍ لك أَو مَهْدِ
وأَنت وإن أُفردتَ فى دار وحشةٍ ... فإنى بدار الأُنس فى وحشة الفرد

---

(١) زهر الآداب ٢ /١٧٣ .
(٢) الديوان ص ١٨٧ .
(٣) الديوان ص ٢٩ .
(٤) يجدى : يفيد . أودى : هلك .

والقصيدة جميعها على هذا النمط من التحسر الممض واللوعة المحرقة ، حتى لكأنما أصبحت الدنيا كلها فى عين ابن الرومى قبراً موحشاً كبيراً ، قبراً يصبُّ عليه حزناً ثقيلا . وممن رُزِئ بابنين له وبكاهما طويلا إبراهيم بن العباس الصولى ، وكان الموت قد فجأه فى أولهما ، ثم لم يلبث أن فجأه فى الثانى ، فقال(١) :

كلَّ لسانى عن وصف ما أَجِدُ ... وذُقْتُ ثُكْلاً ما ذاقه أَحَدُ

ما عالج الحزن والحرارة فى الأ ... حشاء مَنْ لم يمت له ولد

فُجِعْتُ بابنىَّ ليس بينهما ... إلا ليالٍ ما بينها عَدَدُ

وكلُّ حُزْنٍ يَبْلَى على قدم الـ ... دَّهْر وحُزْنى يُجِدُّهُ الكَمَدُ

وشاعرية الصولى كانت دون شاعرية ابن الرومى ، ولذلك لم يبلغ فى تصوير حزنه وأساه على فلذتى كبده ما بلغه ابن الرومى من تصوير كارثته فى ابنه وفاجعته فيه .

وذكرنا فى كتاب العصر العباسى الأول أن شعراء هذا العصر بكوا بغداد حين أصابتها كوارث النهب والتحريق فى حروب المأمون والأمين ، وبذلك عرف الشعر العربى لأول مرة رثاء المدن ، ونجد فى هذا العصر الجديد بقية لهذا الرثاء حين هجم صاحب الزنج بجموعه على البصرة وأنزل بها النهب والسلب والحرق وفتك بأهلها فتكاً ذريعاً، حتى قيل إنه قتل منهم فى هذا الهجوم ثلاثمائة ألف على نحو ما مر بنا فى هذا الموضع ، وقد أشرنا هناك إلى مراثى الشعراء لتلك المدينة وفى مقدمتها مرثية ابن الرومى :

ذَادَ عن مُقْلتى لذيذَ المنامِ ... شغلُها عنه بالدموع السِّجامِ

وهو يستهلها ببيان ضخامة الحادثة وخطورتها ، فقد نزل بالبصرة من ضروب الذل والهوان والخسف والعسف ما ملأ نفسه ألماً وهولا وحسرة ولوعة ، حتى إنه ليبكى بكاء مِرًّا طوال نهاره وطوال ليله ، فقد انتهك الزنج محارم الإسلام ، وإن

---

(١) الديوان فى «مجموعة الطرائف الأدبية» ص ١٧٥ .

لهفته عليها لتدلع لهبًا فى قلبه كلهب النار التى حرقتها ، وإنه ليندب مجدها وأمنها ومن سفكوا الدم فيها ، حتى كان الأخ لا يفكر فى أخيه ولا الأب فى بنيه ، فالجميع مشغولون بأنفسهم كل يريد النجاة ولا منجى فالسيوف تحصدهم حصداً ، أما النساء فساقوهن سبايا حاسرات الوجوه ، وباعوهن بيع الرقيق . وخـرّت المدينة الكبيرة عند أقدام الزنج ترنّح إعياء ، وأصبحت القصور بالتحريق تلالا ، وأصبح الناس أشلاء مبعثرة فى كل مكان ، وأصبح المسجد الجامع قَفْراً من عبّاده ونسّاكه . ويتحول ابن الرومى من وصف الكارثة المروعة إلى استصراخ الناس كى يردوا سيل الزنج الكاسح عن البصرة ومدن العراق ، ويرفع لهم شعارات الجهاد الدينى ، ويستحثهم بما يكون بينهم وبين الله من حوار إزاء تلك الفاجعة إن هم قعدوا عنها ، ويناديهم بلسان الرسول صلى الله عليه وسلم أن يردّوا عدوان الزنج الأثيم ، ويستنفرهم فى حماسة بالغة ارد هذا العار وللثأر والانتقام ، ويختم ابن الرومى المرثية ببيان فضل المجاهدين وما أعِدّ لهم من الجنان والرضوان العظيم . وهى بذلك تُعَدّ مرثية من جهة واستصراخًا واستنفاراً لحرب الزنج من جهة ثانية ، وهو استنفار يكتظ بالغيظ والحنق الشديد .

ومن موضوعات الرثاء التى استُحدِثَتْ فى العصر العباسى الماضى رثاء المدالل من الحيوانات المستأنسة ، ونرى شعراء هذا العصر يحاكون أسلافهم فى هذا الباب ، ومن أروع ما نظموه فيه مرثية الحسن بن على بن أحمد بن بشار المعروف بابن العلاّف الضرير النهروانى ، وكان من أصدقاء ابن المعتز وابن الفرات وزير المقتدر ، وكان له هر يأنس به تعوّد أن يدخل أبراج الحمام لدى الجيران ويأكل أفراخها ، وكثر ذلك منه ، فأمسكه بعض أربابها وذبحوه ، وحزن عليه ابن العلاف ، فرثاه رثاء حارًّا وكأنه يرثى صديقًا عزيزاً لديه نكبه بعض الخلفاء ، ولذلك قيل إنه كنى بالهر عن ابن المعتز وقيل عن ابن الفرات ، خوفًا على نفسه من المقتدر الذى نكبهما إن هو صرّح بالاسم الحقيقى ، ويضيف ابن خلكان إلى هذين القولين قولا ثالثًا ، هو أنه كانت لعلى بن عيسى وزير المقتدر جارية هويت غلامًا لابن العلاف ، ففُطن بهما فقُتلا ، وبكى ابن العلاف غلامه وكنى عنه بالهر . وفى رأينا أن روعة هذه المرثية هى التى جعلت القدماء يظنون بها هذه الظنون ، وهى خمسة وستون بيْتًا ،

كلها من عيون الرثاء وغرره . وفيها يقول[١] :

يا هِرُّ فارقتَنا ولم تَعُدِ	وكنتَ مِنَّا بمَنْزِلِ الولدِ
فكيف ننفكُّ عن هواك وقد	كنت لنا عُدَّةً من العُدَدِ
تطردُ عنا الأَذى وتحرسنا	بالغيب من حَيَّةٍ ومن جُرَدِ[٢]
وتُخرِجُ الفأرَ من مكامنها	ما بين مفتوحها إلى السُّدَدِ
حتى اعتقدتَ الأَذى لجيرتنا	ولم تكن للأذى بمعتقد
وحمتَ حول الرَّدى بظلمهمِ	ومن يَحُمْ حول حَوْضه يَرِدِ
صادوك غيظاً عليك وانتقموا	منك وزادوا ومَنْ يَصِدْ يُصَدِ
ما كان أغناك عن تصعُّدك الـ	بُرْجَ ولو كان جنة الخلُدِ

والمرثية كلها تفجع على هذا المنوال ، وتزخر بالحكم مع الحسرة على فقد الهرّ ومع التأمل فى الموت وحقائق الحياة . ومن طريف ما نجد من مرثيات فى العصر رثاء أبى الشبل البُرْجُمِيّ التميمى لقنديل حطمه كبش دخل بيته وعاث فيه[٣] وكذلك بكاؤه قرطاساً سُرِق منه خلسة[٤] .

وأكثر الشعراء فى العصر من العتاب والاعتذار ، سواء بين المتحابين أو بين الأصدقاء ، وقد تفننوا فى ذلك على صور شتى تسعفهم ملكاتهم العقلية الخصبة بمعان وخواطر لم تفد على سابقيهم ، أو لعلها وفدت ولكنهم أبرزوها إبرازاً جديداً ، تسعفهم فى ذلك مشاعرهم المرهفة وأذواقهم المتحضرة الرقيقة ومهارتهم فى الإتيان بالمعانى التى تروق وتروع العقول والقلوب جميعاً ، وربما كان من أجمل ما صاغوه فى العتاب قول سعيد بن حُمَيد[٥] :

أَقْلِلْ عتابك فالبقاءُ قليلُ	والدهرُ يعــدل تارةً ويميلُ

(١) انظر فى القصيدة وترجمة ابن العلاف ابن خلكان (طبع مطبعة الوطن) ١/٢٤٥ وانظر طبقات الشعراء لابن المعتز (طبع دار المعارف) ص ٣٥٩ وتاريخ بغداد ٧/٣٧٩ ونكت الهميان ص ١٣٩ .

(٢) الجرد : الفأر .

(٣) الأغانى (طبعة دار الكتب المصرية) ١٤/٢٠٤ .

(٤) الأغانى ١٤/٢٠٩ .

(٥) زهر الآداب ٢/٢٤٦ .

لم أَبكِ من زمنٍ ذممتُ صروفه إلا بكيت عليه حين يزول
ولعل أَحداث المنيَّة والرَّدَى يوماً ستصدع بيننا وتحول
فلئن سبقتُ لتبكينَّ بحسرةٍ وليكثرنَّ عليك منك عَويل
ولتفجعنَّ بمخلصٍ لك وامقٍ حَبْلُ الوفاء بحبله موصول
ولئن سبقتَ-ولاسبقتَ-ليمضينْ من لا يشاكله لدىَّ خليل
وأراك تَكْلف بالعتاب وودُّنا صافٍ عليه من الوفاءِ دليل
ولعل أَيام الحياة قليلةٌ فعلام يكثر عَتْبُنا ويطول

إنها حماقة أن يتمادى الأصدقاء فى العتاب ، والحياة من شأنها ألا تجرى سويّةً ، وكل ما نبكى منه يومًا نبكى عليه فى يوم تال . فأولى بنا ألا نفضى إلى التشاؤم ، إذ سرعان ما يُطْوَى بساط الحياة ، ولذلك خليق بالأصدقاء أن يَعْفوا عما قد يظنون بصداقتهم من كدر . ويعرض ابن حميد على صديقه الفراق الأخير الذى لا بد منه فراق الموت وكيف سيملأ صديقه عليه الفزعُ ويلتاع لوعة لا ينفعه إزاءها صراخ ولا عويل ، وكذلك شأنه إن سبقه صديقه ، وقيم العتاب وصداقتهما كلاهما صفاء وبِرٌّ ، وحرى بهما أن ينعما بتلك الصداقة قبل أن يقرع الموت الأبواب ويفترق الصديقان افتراقًا لا لقاء بعده . ولابن الرومى فى العتاب كثير من المعانى البارعة ، من مثل قوله فى آل وهب[1] :

تخذتكمُ دِرْعاً وتِرْساً لتدفعوا نِبالَ العِدَا عنى فكنتم نِصالَها
وقد كنت أَرجو منكمُ خير ناصرٍ على حين خِذلان اليمين شِمالَها
فإن أنتمُ لم تحفظوا لمودَّتى ذِماماً فكونوا لا عليها ولا لها

وعفاء على هؤلاء الأصدقاء فقد كان يتخذهم دروعًا وتروسا ، فإذا هم عون للأعداء ، وإذا هم يخذلونه خذلانًا مروعًا . خذلان اليمين للشمال ، وإنه ليتوسل إليهم إن لم يحفظوا ذمام مودته وحرمته أن يكفوه شرهم كما كفوه خيرهم ، فيكونوا

(١) الديوان ص ٨٨ .

لا عليه ولاله . ولعل أشهر شعراء العصر فى الاعتذار وأكثرهم تفننا فيه البحترى ، وقد أجمع القدماء على الإعجاب باعتذاراته للفتح بن خاقان وزير المتوكل ومن طريف ماله فيها قوله من قصيدة ميمية مدحه بها[١] .

عَذِيرى من الأَيام رَنَّقْنَ مَشْرَبِى ... ولقَّينني نَحْساً من الطير أَشْأَمَا[٢]

وأَكسبْنَنِى سُخْطَ امرئٍ بتُّ مَوْهِناً ... أَرى سُخْطَه ليلاً مع الليل مظلما[٣]

وقد كان سهْلاً واضحاً فَتَوعَّرتْ ... رُباه وطَلْقاً ضاحكاً فتجهَّما[٤]

أُعيذك أَن أَخشاك من غير حادث ... تبيَّن أَو جُرْمٍ إِليك تقدَّما

ولو كان ما خُبِّرْتَه أَو ظَنَنْتَه ... لما كان غَرْوًا أَن أُلُوم وتكرُما[٥]

أُقِـــرُّ بما لم أَجْنِهِ مُتَنَصِّلاً ... إِليك على أَنى إِخالُك أَلْوما[٦]

لِىَ الذنبُ معروفاً ، وإِن كنت جاهلاً ... به فلك العُتْبى علىّ وأَنْعما[٧]

ومثلُك إِن أَبدى الفَعال أَعاده ... وإِن صنع المعروفَ زاد وتمما[٨]

ولم ننقل الاعتذار كله فى القصيدة لطوله، وجميعه يجرى على هذه الشاكلة من التلطف ورقة الحاشية، وحسن التأتى ، ودقة التنصل ،مع التضخيم للذنب الذى لا يعرفه والذى جعل الفتح يتغير عليه ، وهو لذلك يقدم شتى المعاذير ، فقد أتى جرمًا لا يغتفر ،جرمًا لم يجنه، كدَّر ورْدَه، وأحال أيام سعده نحسًا لا يطاق ،إذ غضب عليه الفتح ، وكأنما اسودَّت الدنيا فى عينه ، ومثلُ الفتح حرىٌّ بالعفو لو أن هناك جريرة حقيقية ، فما بالنا ولا جريرة ولا جرم ولا ذنب ، ويسلِّم البحترى بذنبه رقة وتلطفًا، منوهًا بالفتح وفعاله الحميد ومعروفه الذى يواليه، وكيف أنه من أهل الصفح الجميل .

ولا نغلو إذا قلنا إن أهم موضوع استغرق الشعراء واستنفد أشعارهم الغزل ، وكانوا ينظمونه تعبيراً عن عاطفة الحب الإنسانية الخالدة ، وتلبية لحاجات الناس

(١) الديوان ٣ /١٩٨٢ .
(٢) رنقن : كدرن . الطير : التطير.
(٣) الموهن: نحو منتصف الليل .
(٤) التجهم : عبوس الوجه .
(٥) غروا : عجباً . ألوم : ألوَم .
(٦) ألوما : أكثر لوماً .
(٧) وأنعم هنا: وزيادة على ذلك .
(٨) الفعال بفتح الفاء : الصنع الجميل .

الوجدانية وحاجات المغنين والمغنيات من المقطوعات والأشعار التى كانت توقّع على الآلات والمعازف الموسيقية ، ولذلك تطلبها دائمًا دور القيان والطرب ، وكان الشعراء يختلفون إلى هذه الدور لسماع الغناء فى أشعارهم ولمغازلة الجوارى والإماء . وكان منهن من يتقن نظم الشعر ، ومنهن من كن يُطارِحْنَ الشعراء فى أغانى الحب وأناشيده . ولعبن دوراً واسعًا فى دفع المجتمع العباس نحو الصبابة والعشق ، وكان منهن من ينحرفن عن الطريق السوىّ ، كما كان من الشعراء والشباب من حولهن شياطين لا يعرفون دينًا ولا خلقًا ولا عرفًا . وكان ذلك سببًا فى أن يكثر الغزل الإباحى ، الذى لا يحتشم فيه الشاعر ، بل الذى يعبر فيه أحيانًا عن جوعه الجسدى وغرائزه الحيوانية . ومن الحق أن ذلك كان امتداداً لموجة الغزل المكشوف الذى شاع فى العصر العباسى الأول ، وكأنما ظلت لتلك الموجة حِدّتها ، وكانت دور القيان كما قلنا آنفًا من أسباب هذه الحدة ، إذ كان بعض جواريها يتحولن أدوات للإغراء والريبة والمجون ، وساعدهن على ذلك أنهن كن يُبَعْنَ ويُشْرَين ولم يكن يشعرن بشىء من الكرامة ، وكن يعشن بين الخلعاء والمجّان وبين كثيرين ممن لا يعرفون دينًا ولا صيانة مروءة ولا يفكرون فى عقاب ولا ثواب ، إنما يفكرون فى المتاع المادى وغرائزهم النوعية ومآربهم الرخيصة ، وطبيعى لذلك أن يشيع الغزل الإباحى المكشوف الذى لا يعرف للمرأة كرامة ولا للرجل مروءة ، إنما يعرف الهوان والابتذال البغيض . وعلى نحو ما ظل الغزل الماجن الخليع شائعًا فى هذا العصر ظل كذلك الغزل الشاذ بالغلمان الذى يُزرى بكرامة الرجال. وأكبر الظن أن كثيراً من هذا الغزل وسالفه لم يكن يصور حقائق واقعة ، إنما كان يصور حقائق خيالية من بعض الوجوه ، إذ كان يراد به إلى التندير والفكاهة فى مجالس هؤلاء المجان الخليعين ، فهم ينظمونه ويتداولونه للضحك والدعابة ، وعادة يصحبه الشاعر فى إنشاده بحركات ليزيد من ضحك السامعين . ونظن ظنًّا أنه فات مؤرخى الأدب العباسى أن يلاحظوا هذه الظاهرة ، وكأنه يشبه من بعض الوجوه ما قد يجرى على بعض الألسنة فى عصرنا من نكت جنسية . وليس معنى ذلك أننا نريد أن ننكر إنكاراً باتًّا الغزل المكشوف وأخاه الشاذ فى العصر العباسى الأول والثانى ، إنما نريد أن نلفت إلى أن كثيراً منه صُنع للتندير والفكاهة ، وأنه غاب ذلك عمن أرخوا للأدب العباسى ، وتاريخهم لذلك فى حاجة إلى غير قليل من التصحيح . ولا بد أن نلاحظ من جهة

ثانية أن هذا الغزل المادى الماجن كانت تحفه دائمًا وتتخلله معانى الغزل العربى العفيف الذى شاع فى العصر الأموى ، وكانت هذه المعانى تخفف من ماديته كما كانت تُشْعل فيه جذوة الحب الظامئ وآلامه الثقال ، فلم يسقط فى كثير من جوانبه ومقطوعاته ، إذ ظلت فيه الحيرة والحنان والتضرع والاستعطاف وظل الشوق الجامح الذى يملك على النفس عواطفها وحسها وشعورها وأهواءها . وأيضًا لا بد أن نلاحظ بجانب ذلك أن الغزل العذرى العفيف نفسه ظل حيًّا لا من خلال معانيه التى تسربت فى الغزل المادى الصريح كما ذكرنا آنفًا ، وإنما من خلال بعض الشعراء الذين ارتفعوا عن أدْران الحِس وأعراضه ، وعاشوا فى حبهم معيشة طاهرة نقية أعظم ما يكون الطهر والنقاء على نحو ما هو معروف عن محمد ابن داود الأصبهانى صاحب كتاب « الزهرة » فى الحب وأشعاره . وملاحظة أخيرة هى أن الضربين من الغزل المادى الإباحى والعذرى العفيف استطاعت ملكات الشعراء الخصبة حينئذ أن تستثير فيهما كثيراً من خطرات الحب ودقائقه البديعة ، وابن الرومى لا يبارَى فى نفوذه إلى هذه الدقائق ، كقوله فى العناق وطموحه إلى امتزاج الروحين[١] .

أعانقُها والنفسُ بعدُ مشوقةٌ ... إليها ، وهل بعد العناق تدانِ

وألثم فاها كى تزول حرارتى ... فيشتد ما ألقى من الهيمانِ[٢]

كأن فؤادى ليس يَشْفِى غليله ... سوى أن يرى الروحين يمتزجان

فالعناق لا يروى ظمأه ، وفى قلبه جذوة لا تطفئها القبلات ، بل تزيدها تلظيًا واشتعالا ، ويحسُّ أن عذابه بحب صاحبته لن يخلصه منها إلا أن تمتزج روحه بروحها ، حتى ينعم بالوصل الحقيقى . وكثيراً ما يلم بالعناق وكثيراً ما يودع فيه صوراً طريفة ، كقوله[٣] :

طالما التفتْ إلى الصُّبْـ ... ـح لنا ساقٌ بساقِ

فى قناعٍ من لثـامٍ ... وإزارٍ من عنـاق

---

(١) الديوان ص ٢٧ .

(٢) الهيمان : العشق الشديد

(٣) ديوان المعانى ١ /٢٤٤ .

فقد كانا مكسوَّين طوال الليل كسوة غريبة من اللثام والعناق ، ونحس دائمًا عنده بطفرات الفكر العبقرى وأخيلته كأن نراه يقول فى الصدور (١) :

صدورٌ فوقهنَّ حِقاقُ عاجٍ   وحَلْىٌ زانه حُسْنُ اتِّساقِ
يقول الناظرون إذا رأَوها   أَهذا الحَلْىُ من هذِى الحِقاق

وهى صورة لا تفد بحق فى ذهن شاعر من هذا العصر سوى ذهن ابن الرومى الذى كان يشبه متحفًا كبيراً ما يزال يستخرج منه الدرر والتحف النفيسة ، من مثل قوله فى جمال العيون ومدى تأثيرها وسحرها فى العشاق (٢) :

نظرتْ فأَقصدتِ الفؤادَ بسهمها   ثم انثنتْ عنه فكاد يَهِيمُ
ويلاه إنْ نظرتْ وإن هىَ أَعرضتْ   وَقْـعُ السهام ونَزْعهنّ أَليم

وكان مَنْ حوله من الشعراء لا يزالون يحاولون بكل ما وسعهم أن يأتوا بدرة أو تحفة تخلب ألباب سامعيهم ، ولتكن خاطرة طريفة أو صورة بديعة ، ولا يهم أن يكون أصلها قد دار على ألسنة الشعراء ، فالمهم طرافة العرض وتحوير المعنى أو الصورة ، من مثل قول ابن المعتز (٣) :

يا غُصناً إن هزَّه مَشْيه . خشيتُ أَن يسقط رُمَّـانُهُ

وقول أبى العباس الناشى فى بكاء إحدى صواحبه وقد أحسَّت أن فراقه لها سيطول أمده ، فقال وهو محزون الفؤاد (٤) :

كأَن الدموع على خَدِّها   بقيَّة طَلٍّ على جُلّنارْ

وينفذ أحمد بن صالح بن أبى فنن إلى معنى دقيق فإنه حين ينظر إلى صاحبته تتورد وجنتها خجلا ، فتقتص منه فى قلبه بما تصيبه به من سهام عينيها المصمية ، يقول (٥) :

أَدميتُ باللحظـات وَجْنَتها   فاقتصَّ ناظرُها من القَلْبِ

---

(١) ديوان المعانى ١ /٢٥٣ .
(٢) ديوان المعانى ١ /٢٣٦ .
(٣) الديوان ص ٤٢٢ .
(٤) زهر الآداب ٢ /٢١٦ .
(٥) تاريخ بغداد ٤ /٢٠٢ .

ومرَّ بنا فى فصل الحياة الاجتماعية أن موجة المجون ظلت على تفاقمها وحدتها فى هذا العصر ، وظل معها شرب الخمر المعتقة ، وكانت حاناتها تكتظ بها الكرخ فى بغداد ودور النخاسة والبساتين كما كانت تكتظ بدنانها وكئوسها الديارات . وكان سقاتها أخلاطاً من النصارى والمجوس واليهود ، وأقبل يعبُّها المجَّان والفسَّاق وكان منهم المتمرد على الدين الحنيف ، ومنهم المجوسى ، ومنهم من لا يؤمن بأى دين ، فأكبوا عليها جميعاً ، دون رادع أو وازع ، ويفيض كتاب الأغانى بأخبارهم ، وكذلك كتاب الديارات للشابشتى ، حيث يتوقف مع كل دير ليترجم لماجن كبير مثل الحسين بن الضحاك وأبى الشبل البرجمى وعبد الله بن العباس الربيعى ، وغيرهم ممن كانوا يعكفون على الشراب فى الأديرة وغير الأديرة ، وممن عاشوا سكارى لا يفيقون إلا لكى يعودوا إلى الشراب والمجون ، وهم فى أثناء ذلك يصفون الخمر والنشوة بها وكئوسها ودنانها وسقاتها مضيفين إلى ذلك غزلا مسعوراً بالجوارى والغلمان . ويخيل إلى الإنسان كأنما تردَّى فى حمأة هذه الرذيلة أكثر شعراء العصر ، ولذلك تزخر دواوينهم وأشعارهم بنعت الخمر والنشوة بها ، وجعلوا يحاولون فيها ما حاولوه فى أغراض الشعر الأخرى من النفوذ إلى معان وأخيلة تبهر السامعين ، من مثل قول ابن المعتز [١] :

شِربْنا بالكبير وبالصغيرِ ولم نَحفْل بأَحداث الدهورِ
وقد ركضتْ بنا خَيْلُ الملاهى وقد طِرْنا بأَجنحة السرور

وهو يصور نشوته بتلك الخمر التى شربوها بالقداح الكبيرة والصغيرة ، فملأتهم مسرة وفرحة ، حتى لكأنما يحملهم الاغتباط على خيوله ، بل على جناحيه ، فهم يطيرون طيراناً ، ولم يبلغ شاعر مبلغ ابن الرومى فى بيان ما تفسح الخمر من آمال السكران حتى ليتمنى المستحيلات ، يقول [٢] :

ومدامةٍ كحشاشة النَّفْسِ لطفتْ عن الإدراك والحِسّ
لنسيمها فى قلب شاربها رَوْحُ الرجاء وراحةُ النفس
وتمدُّ فى أمل ابنِ نشوتها حتى يؤمِّل مرجع الأَمسِ
وكأنهـا وكأَن شاربها قمرٌ يقبِّل عارضَ الشمس

---

(١) الديوان ص ٢٣٨ .
(٢) الديوان ص ١٠٧ .

وقد صور ابن الرومى فى البيتين الأولين رقة المدامة وخفتها حتى لتكاد تدق عن الحس، كما صور أثرها فى قلب شاربها وما تمنحه من أمل بعد يأس وراحة بعد تعب، بل إنها لتمد فى أمله، حتى ليظن أن ما يستحيل رجوعه سيعود ثانية وأنها تخلو من كل كدرة.

وينبغى أن نؤمن بأن حركة المجون فى العصر لم تكن تعم الناس جميعًا، إنما كانت تعم فى بعض قصور ذوى السلطان ومن كانوا يفيضون عليه من أموالهم من المغنين والشعراء، أما عامة الشعب فكانت تربض فى مسغبة شديدة وقلما عرفت شيئًا من الترف أو من الفراغ والثراء.

وكان الموضوع الذى يتصل بالعامة حقًّا هو الزهد وما نشأ عنه من التصوف، وبدون شك كانت الحانات والأديرة لا تقاس من حيث الكثرة ولا من حيث عدد من يؤمونها إلى المساجد، وكانت تكتظ بالفقهاء والمحدثين والعُبَّاد والنسَّاك الذين رفضوا متاع الحياة الدنيا، وعكفوا على عبادة الله. وكان بينهم كثيرون من الوعاظ الذين يعظون الناس صباح مساء، وقد رفعوا نصب أعينهم ثواب الآخرة من الجنان والفراديس وعقابها من الجحيم والعذاب المقيم، وهم فى أثناء ذلك يدعون إلى الزهد وازدراء المتاع الفانى والإقبال على ما عند الله من المتاع الباقى، مكررين الحديث عن الموت وأن الحياة إنما هى رحلة قصيرة والناس فيها كركب وقوف ينتظر كل منهم دوره، وسرعان ما يختطفهم الموت، فأولى لهم أن يتدبروا حياتهم وأن يتزودوا زاداً كبيراً لآخرتهم، زاداً من التقوى والصلاح والقناعة. ويكثر الشعر الزاهد فى العصر حتى ليتَّخذ أحيانًا مقدمة للمديح من مثل قول على بن الجهم[1]:

وعاقبةُ الصبرِ الجميل جميلةٌ	وأفضلُ أخلاقِ الرجال التفضُّلُ
وما المالُ إلا حسرةٌ إن تركته	وغُنْمٌ إذا قدَّمتَه متعجِّلُ
وللخيرِ أهلٌ يسعدون بفعلِهِ	وللناس أحوالٌ بهم تتنقَّلُ
ولله فينا علمُ غَيْبٍ وإنما	يوفِّق منا من يشاءُ ويَخْذُلُ

وبلغ من شيوع شعر الزهد حينئذ أن اشترك فيه كثير من الشعراء الذين تطفح

(١) الديوان ص ١٦٣.

دواوينهم بالحديث عن الخمر والمجون ، لما كانوا يتنفسون فيه من ترف بالغ مثل ابن المعتز ، فكانوا ينظمون منه مقطوعات وأحيانًا قصائد طويلة ، ولابن الرومى فيه قصائد ، بل مواعظ بديعة ، من مثل قوله[1] :

نَبْلُ الرَّدَى يَقْصِدْنِ قَصْدَكْ فأَجِدَّ قبل الموت جِدَّك[2]
ودَع البطـالة والغوا يَةَ جانباً وعليك رُشْدَكْ
فـكأنَّنى بك قد نُعِيـ ـتَ وقد بكى البـاكون فَقْدَكْ
وتركت منزلك المَشِـ ـيدَ معطَّلاً وسكنتَ لَحْدَكْ
وخلوتَ فى بيت البِلَى وخلا بك الملكان وحدَكْ
وسلاكَ أهلُك كلهم ونسوا على الأَيام عهدك
يتمتَّعـون بما جمعـ ـتَ ولا يرون عليه حَمْدَك
متنعِّمين وأَنت تحـ ـتَ الرَّمْسِ يَرْعَى الدودُ جِلْدَك

وهو يرفع الموت نُصْب أعين الناس ، وكأنه مطبق عليهم ، حتى يرتدعوا عن البطالة والغىّ ، فعمّا قريب سينزل بهم ، وسيرتفع الصياح والضجيج عليهم ، وسيتركون القصور المشيدة وينزلون اللحود المقفرة ، ويسألهم الملكان عما قدمت أيديهم ، ويسلوهم الأهل وينسونهم كأن لم يكونوا شيئًا مذكوراً ، على حين يتمتعون بأموالهم التى جمعوها دون حمد لهم أو ثناء عليهم ، وعلى حين يرعى الدود جثثهم وجلودهم ، فحرى بالعاقل أن يتدبر أمره ، وأن يتزود للآخرة زاداً كبيراً من التقوى ، فإن الموت له بالمرصاد ، وهنيئًا لمن انتفع بالموعظة وقدم من يومه وبره لغده. وقد أخذ ينمو من هذا الزهد موضوع جديد من موضوعات الشعر العربى هو التصوف وسنعرض له فى غير هذا الموضع .

---

(١) الديوان ص ١٢٧ .

(٢) أجد جدك : اجتهد فى الإخلاص لله والتوبة إليه .

٤

نمو الموضوعات الجديدة

على نحو ما حدث فى الموضوعات القديمة من إضافات كثيرة سواء من حيث المعانى أو من حيث التصاوير، أخذت الموضوعات الجديدة التى عرضنا لها فى كتاب العصر العباسى الأول تدخلها إضافات متنوعة، كما أخذت فروع من الموضوعات القديمة تستقل وتنمو نموًّا واسعًا حتى لتصبح موضوعات جديدة جدة خالصة، وأول ما نقف عنده مما تفرع عن الموضوعات القديمة أو تولد منها، شعر التهانى الذى تحول إليه شعر المديح فى بعض جوانبه، وخاصة التهانى بأعياد النيروز والمهرجان كما مر بنا آنفًا، وكان أولَ من افتتح التهانى أحمد بن يوسف للمأمون[1]، ثم أصبح ذلك سنة عامة، ثم أخذ هذا الموضوع يتسع، فأكثروا من التهنئة بالمواليد، وأيضًا فإنهم أكثروا من إرفاق الهدايا بأبيات من الشعر الرقيقة، من مثل قول سليمان بن وهب، وقد أهدى إلى سليمان بن عبد الله بن طاهر سِلال رُطَب من ضيعته[2]:

أذنَ الأميرُ بفضله وبجوده وبنَيْلهِ

لوليِّه فى برِّهِ بِجَنَاهُ سُكَّرَ نَخْلِه

فبعثتُ منه بِسَلَّةٍ تحكى حلاوة عَدْلِهِ

وكثيراً ما كانوا يتهادون بالورود والرياحين فى أيام الربيع ويرسلون معها ببعض الأشعار، وكذلك كانوا يتهادون ببعض التحف والطرف النفيسة، وقد يصفون مايهدونه تظرفًا كقول ابن الرومى فى قدح أهداه إلى على بن يحيى المنجم[3]:

وبديع من البدائع يَسْبِى كلَّ عقل ويطَّبى كل طَرْفِ

كفم الحبِّ فى الملاحة بل أشْهَى وإن كان لا يناجَى بِحَرْفِ

وسط القَدر لم يكبَّر لجرْعٍ متوالٍ ولم يصغَّر لرَشْفِ

(١) ديوان المعانى ١/٩٥.

(٢) الأغانى (طبعة الساسى) ٢٠/٧١.

(٣) الديوان ص ٣٣.

وظل الشعراء يقدمون لمدائحهم كثيراً بوصف الأطلال كما مر بنا ، ونفذ البحترى من ذلك إلى موضوع جديد هو الحديث عن آثار الفرس ممثلة فى إيوان كسرى على نحو ما هو معروف فى قصيدته السينية التى تُعَدّ من روائع الشعر العباسى ، وفيها يصور أطلال هذا الإيوان التى لا تزال ماثلة جنوبى بغداد إلى اليوم ، وكان قد زاره بعد قتل المتوكل ، فبكى همومه وأشجانه ، وبكى الأطلال الكسروية ودولة الفرس القديمة ودولتهم الحديثة التى أدال منها الترك لعصره وأصبح لهم السلطان والصولجان ، فإذا هم يطيحون بالخليفة، وإذا هم يسفكون دمه غير مراعين إلاًّ ولا عهداً . وإنه ليذكر يد الفرس فى العصر العباسى الأول وتشييدهم لحضارته ومدنيته ، مما يجعله ينوه بمجدهم القديم حتى ليكاد يرفعهم على العرب تحسراً على ما آلت إليه شئون الملك والحضارة فى عهد الترك . وهو لا يكاد يتماسك حزناً وحسرة ولوعة فى مستهل قصيدته لنبوّ ابن عمه عنه، وكأنه يرمز بذلك لقتل المتوكل ، فإن أحداً من أهل بيته أو من أبناء عمومته لم ينصره ، بل لقد اشترك ابنه وولى عهده المنتصر فى مؤامرة قتله ، ويشتد بنفسه تأثير المحنة ، فيتجه إلى المدائن عاصمة الفرس القديمة وإيوان كسرى تنفيساً عن نفسه ، ويلمّ به كثير من الشجون ، ويذكر إيران القديمة واتساع ملكها فى الشمال من باب الأبواب على بحر قزوين إلى جبال أرمينية ، كما يذكر رفاهة العيش التى كانت بها ، ولين الحياة ونعيمها وتملأ نفسه أطلال الإيوان ومانقش عليها من الرسوم والصور وخاصة ما سُجِّل بها من تصوير معركة حامية الوطيس بين الفرس بقيادة كسرى والروم وقعت بإنطاكية سنة ٥٤٠ للميلاد ، يقول وقد لفظ كلمة الإيوان باسمها الفارسى « الجرماز[1] » :

فكأن الجِرْمازَ من عَدم الإنْـ ... ـسِ وإخلاقه بَنِيَّةُ رَمْسِ[2]

لو تراه علمتَ أنَّ الليـالى ... جعلتْ فيه مَأْتماً بعد عُرْسِ

وإذا ما رأيتَ صورة أنْطا ... كِيَّةَ ارتعتَ بين رومٍ وفُرْسِ

والمنايا مواثلٌ وأنوشَرْ ... وانَ يُزْجِى الصفوف تحت الدِّرَفْسِ[3]

وعِراكُ الرجال بين يَدَيْهِ ... فى خفوتٍ منهم وإغماض جَرْسِ[4]

---

(١) الديوان ٢/١١٥٥ .

(٢) رمس : قبر . الإخلاق : البلى .

(٣) يزجى : يسوق . الدرفس : العلم الكبير .

(٤) خفوت : صمت . جرس : صوت خفى .

من مُشيحٍ يَهْوِى بعامل رُمْح ومُليحٍ من السِّنان بتُرْس[١]
تصف العَين أنهم جِدُّ أحيا ءِ لهم بينهم إشارةُ خُرْس
يَغْتلى فيهمُ ارتيابِىَ حتى تتقراهمُ يداىَ بِلَمْسِ[٢]

والبحترى لا يُبارى فى تصويره الحسى ، حتى لكأنما ينقل المشهد بحذافيره ، لا لنبصره فحسب ، بل أيضًا لنلمسه بأيدينا ، فهذا الإيوان لم يعد إيوان قصر يكتظ بالترف والنعيم ، بل أصبح بناء قبر ضخم لحضارة الفرس الباذخة وحال كل ما كان فيه من أعراس إلى مآتم ، غير أن صفحة منه لا تزال ناطقة بشجاعة الفرس ومجدهم الحربى ، إذ تجسدت فيها صورة معركة أنطاكية بين الروم والفرس ، وكسرى هاجمٌ بجموع جيشه تحت العلم الفارسى الكبير ، يمزق جموع الروم تمزيقًا ، والفرسان بين مهاجم ومدافع ولا صوت فى المعركة ولا جلبة ، إنما هو تصوير ولكن بلغ من نطقه وقوة تعبيره أن تظن العين أنها ترى المعركة كأنما تحدث تحت بصرها ، بل إن هذا الظن ليزداد فى نفس البحترى ، حتى ليندفع إلى الصورة ، يلمسها بيده ارتياعًا وانبهاراً . ويمضى فى الحديث عن الإيوان وثباته على الدهر حتى لكأنما قُدَّ أو نُحت فى جبل عال ويصور ما يجلله من كآبة ممضة ، وكأنما هو أليف غاب عنه أُنسُ أليفه ، أو زوج محزون لفراق عروسه ، فانعكست أيامها ولياليها ، بل لقد انعكست ليالى هذا الأيوان فغربت عنه كواكب السعد وأطلت عليه كواكب النحس المقيم ، حتى ما كان يرفل فيه من بُسط الديباج وستور الحرير نُزِع عنه نزعًا ، ومع ذلك لا تزال له كبرياؤه ولا تزال شرفاته شامخة شموخ جبال المدينة والقدس تختال فى ثيابها البيضاء الرائعة . وينقله خياله إلى ماضى هذا الإيوان التليد ، فالوفود مزدحمة بأبوابه والجوارى من كل صنف تغص بها المقاصير والغرف ، وكأن ذلك كان أول أمس ، كان اللقاء والفراق ، وصارت الرباع التى كانت مكتظة بالسرور ومتاعه منازل للعزاء والحزن الذى لا يريم ، والبحترى يبكيها بدموع غزار ، لما كان لأهلها قديمًا من عون للعرب فى حروبهم من الأحباش وما كان لهم حديثًا من عون فى تشييد الخلافة العباسية وما رافقها من ازدهار الحضارة العربية ،

---

(١) مشيح : مقبل . عامل الرمح : صدره مليح : خائف حذر .

(٢) يغتلى : يتجاوز الحد ويعظم . تتقراهم : تتبعهم .

ويبكى من خلال ذلك همومه وحزنه لمقتل المتوكل بأيدى الترك الذين صار إليهم بعد الفرس السلطان والصولجان .

وإذا كان وصف الأطلال القديم أوحى للبحترى بهذا الموضوع الجديد ، فإنه أوحى له ولكثيرين من حوله أن يصفوا قصور الخلفاء التى كانوا يشيدونها ويطيلون فى وصفها ووصف ما حولها من رياض وما يتقدمها من فوّارات وبرك على شاكلة قول على بن الجهم فى وصف أحد القصور الكثيرة التى كان يسكنها المتوكل بضواحى سامراء ووصف فوارتها أو نافورتها[1] :

صحونٌ تسافر فيها العيونُ ... وتَحْسِرُ عن بُعْدِ أقطارهــا
وقُبَّةُ مُلْكٍ كأَن النجو ... م تُفْضِى إليها بأسرارها
لها شُرُفاتٌ كأَن الربيع ... كساها الرياضَ بأَنوارها
نَظَمْنَ الفُسَيْفِسَ نَظْمَ الحلىِّ ... لعُون النِّساء وأَبْكارها[2]
فَهُنَّ كمُصْطَبحاتٍ بَرَزْنَ ... بفِصْح النصارى وإفطارها[3]
فمنهنَّ عاقصةٌ شَعْرَها ... ومصلحةٌ عَقْدَ زُنَّارها[4]
وفوارةٍ ثأْرها فى السَّماءِ ... فليستْ تقصِّر عن ثارها
تردُّ على المُزْنِ ما أَنزلتْ ... على الأَرض من صَوْب مدرارها

وواضح أنه صوَّر سعة أفنية هذا القصر وعظم قُبَّته وصعودها فى السماء حتّى لكأنما تفضى إليها النجوم بأخبار الغيب وأنبائه ، كما صوَّر شرفات القصر وما زينت به من الفسيفساء الملونة الجميلة جمال الحلى على جيد النساء وأعناقهن ، وتنوعت أشكال تلك الشرفات ، حتّى لقد أشبهت الفتيات حاملات الشموع فى عيد الفصح

---

(١) الديوان ص ٢٩ .

(٢) الفسيفساء : قطع من الرخام الملون الرقيق كانت تزين بها الحيطان والسقوف والشرفات . العون : جمع عوان ، وهى السيدة النصف .

(٣) مصطبحات هنا : من أصبح أى أسرج ، يريد حاملات الشموع . برزن : خرجن . فصح النصارى : عيد ذكرى القيامة .

(٤) تعقص شعرها : تشده على جيدها من خلف أو من وراء . والزنار : حزام يشد وسط الثوب على الخصر .

وذكرى قيامة المسيح ، ومنهن من تلبّد شعرها وتشدّه وتجمّعه ، ومنهن من تنتطق بأحزمة الزنّار مختالة ، وفوارة ماتنى ترسل سهامها إلى السماء كأنما لها ثأر عندها ، وكأنما تردّ على المزن قطرها .

وأهم من وصف القصور وصف الطبيعة ، وكان الشعراء فى العصر العباسى الأول أكثروا من تصويرها فى مقدمات مدائحهم ، وتبعهم شعراء هذا العصر يصفونها تارة فى إيجاز وتارة فى إطناب وإسهاب رامزين بها إلى عهد الممدوح وجماله ، وكثيراً ما وصفوا فى هذه المقدمات الغيث والسحب والبروق لبيان كرم الممدوح من جهة وما شمل البلاد فى زمنه من خصب وامتد على صفحاتها من جنات وعيون وزروع ، وتصور ذلك من بعض الوجوه حائية ابن المعتز فى مديح المعتضد ، وقد استهلها بوصف البرق والسحاب الهاطل من مثل قوله[1] :

مَنْ رأى بَرْقاً يُضىءُ التَماحـا ثَقَبَ الليلَ سناه فلاحا[2]

وكأن البرق مصحَفُ قارٍ فانطباقًا مرةً وانفتاحا

فى رُكامٍ ضاق بالماء ذَرْعاً حيثُما مالتْ به الريحُ ساحا[3]

لم يَدَعْ أرضاً من المَحْل إلا جادَ أو مَدَّ عليها جَناحا[4]

وسَقى أطلالَ هندٍ فأضحتْ يمرح القَطْرُ عليها مِرَاحَا

فالليل أضاءته مصابيح البروق ، وكأنها حين تشتعل وتنطفئ مصاحف بأيدى قُرّائها تتفتح وتنطبق ، وسيول المطر تتدافع من كل صوب نافذة لعابها من جدب إلى جدب ومن حوض إلى حوض ، والسحب تمد جناحيها وتبسط ركامها والأرض تمرح فى نباتاتها ورياحينها وبطاحها الخضراء .

ومرّ بنا أنهم كانوا يكثرون من وصف الربيع فى تهنئاتهم بعيد النيروز ، وأخذ حينئذ وصف الطبيعة يستقل عن المديح ويصبح فنًّا قائمًا بنفسه ، له قصائده وأشعاره ، وهى تارة تُعْنَى بوصف جميع الأنوار فى الربيع ، ولا يبارى ابن المعتز

---

(١) الديوان ص ١٤١ .

(٢) التماحا : التماعاً .

(٣) ركام : سحاب مركوم : متراكم بعضه فوق بعض .

(٤) المحل : الجدب .

فى هذا الاتجاه ، إذ يحاول فى كثير من قصائده إحصاء كل نور وكل زهر من أبيض وأحمر وأصفر ، وكانت له مخيلة تشبه آلة تصويرية دقيقة ، فهى ماتنى تصور وتلتقط الدقائق وكأنها لا تريد أن تترك شيئًا ، ومن خير ما يصور ذلك عنده أرجوزته البستانية التى ذم فيها الصبوح أو خمر الصباح ، وهو يفتتحها على هذا النمط [١] :

أَما ترى البُسْتانَ كيف نَوَّرَا ونَشَر المنثورُ زهرًا أصفرا
وضحكَ الورد إلى الشقائق واعتنق القَطْرَ اعتناق وامقِ
فى روضةٍ كحُلَلِ العروسِ وخُرَّمٍ كهامةِ الطاووسِ [٢]

ومضى يذكر الياسمين والخشخاش والسوسن والبهار والجلنار إلى غير ذلك من أزهار ، ولكل زهر صورته ، الحية النابضة . وتعلق كثيرون بوصف الورد والتعبير عن روعته وفتنته التى تأخذ بالألباب ، ولابن الجهم فيه قطعة بديعة يتحدث فيها عن رياحين الربيع وطيوره الغردة ونشوة النفوس به نشوة لا تقل عن نشوة الراح يقول [٣] :

لم يضحك الوردُ إلا حين أعجبه حُسْنُ الرياضِ وصوتُ الطائر الغَرِدِ
بدا فأبدتْ لنا الدنيا محاسِنها وراحتِ الرَّاحُ فى أثوابها الجُدُدِ
ما عاينتْ قضُبُ الريحان طَلْعَته إلا تبيَّن فيها ذِلَّةُ الحَسَدِ
وقابلتْه يَدُ المشتاق تُسْنده إلى الترائبِ والأحشاءِ والكَبدِ
كأن فيه شفاءً من صبابتِه أو مانعاً جَفْنَ عينيه من السُّهُدِ
بين النديمين والخِلَّين مَضْجعه وسَيْرُهُ من يَدٍ موصولة بيدِ
قامتْ بحجَّته ريحٌ معطَّرةٌ تَشْفى القلوب من الأوصابِ والكَمَدِ

وهو تصوير بارع لصبابة الناس بالورد ، حتى إنهم ليضمونه إلى الصدور والأحشاء والكبد يريدون أن يطفئوا به نيران أشواقهم ، ويشفوا به لوعات صباباتهم

---

(١) الديوان ص ٤٧٣ .

(٢) الخرم : زهر بنفسجى اللون .

(٣) الديوان ص ٨٩ .

وسهادهم الطويل ، وإنه ليُتَرَاءَى دائمًا يتهاداه الأحبة وقد اتخذ مضجعه بينهم ، وهم يتبادلون كئوس الحب الصافية ، وأريجه ينتشر شذاه فى كل ما حولهم بلسماً يشفى القلوب الكليمة . ولعل شاعراً لم يتعلق بالطبيعة فى العصر تعلق ابن الرومى والصنوبرى ، ونحس عندهما بقوة الإحساس بفتنة الرياض النضرة والفاكهة اليانعة والمياه الجارية ، وغلب ذلك على الشعراء حينئذ ، حتى لنجد ابن قتيبة يدعو إلى نبذ وصف البساتين والورود والرياحين والعودة إلى وصف الفيافى وأزهارها ونباتاتها[١] ، ولم يقف هذا التحول الجديد عند مجرد التخفف من موضوع الطبيعة الصحراوية الجافة والعناية بطبيعة الحياة الحضرية وورودها ورياحينها ، بل لقد تحولت هذه العناية إلى فتنة شديدة بجمال الرياض والبساتين ، فتنة خلبت ألباب الشعراء وملأت عليهم حواسهم وملكت عليهم قلوبهم ، وخير من يصور ذلك ابن الرومى ، إذ نحس فى وضوح شغفه بالطبيعة شغفًا يفوق كل وصف ، شغف العاشق بمعشوقته ، حتى ليحس كأنما الدنيا فى الربيع تتبرج له ولكل ناظر ، إذ يقول[٢] :

تبرَّجتْ بعد حيــاءٍ وخَفَرْ تبرُّج الأُنثى تصدَّتْ للذكر

بل لكأنما تحولت جوانبها تحت عينيه إلى معابد ، فهو ما ينى يقدم لها قرابينه وأدعيته وابتهالاته مصوراً جمالها المنبث فى كل أجزائها وما يجرى فيها من حياة ، وبدون ريب يتقدم ابن الرومى شعراء العربية عامة فى الإحساس بخفقات الطبيعة وهمساتها وكل حركة فيها ، حتى ليشبه فى هذا الجانب من بعض الوجوه شعراء الرومانسية الغربية الذين يفنون فى الطبيعة ، ويحسون امتلاءها بالحياة ، فكل ما فيها حى متحرك ناطق ، وكل ما فيها يخفق بالأحاسيس والمشاعر ، ومن خير ما يوضح ذلك عنده تصويره لمشهد الغروب ، يقول[٣] :

لقد رنَّقَتْ شمسُ الأصيلِ ونَفَّضَتْ على الأُفق الغربىِّ وَرْسًا مُذَعْذَعَا[٤]

وودَّعتِ الدُّنيا لتقضىَ نَحْبَها وشَوَّلَ باقى عُمْرِها فتَشَعْشَعَا[٥]

---

(١) الشعر والشعراء (طبع دار المعارف ١٩٦٦) ص ٧٦ .

(٢) الديوان ص ٨٩ .

(٣) الديوان ص ٣٠٠ .

(٤) رنقت : ضعفت . الورس : نبات أصفر . مذعذعا : متفرقاً .

(٥) شول : ذهب . تشعشع : بقى أقله .

ولاحظتِ النُّوَّارَ وهْىَ مريضةٌ ... وقد وضعتْ خَدًّا إلى الأَرض أضرَعَا[1]

كما لاحظتْ عُوَّادَهُ عَيْنُ مُدْنَفِ ... توجّع من أوصابه ما توجعا[2]

وبيَّن إغضاءُ الفراق عليهما ... كأنهما خِلاً صفاءٍ تودعَا[3]

وظلت عيونُ النَّوْرِ تخضَلُّ بالندَى ... كما اغرَوْرَقَت عَيْنُ الشجِىِّ لتَدْمَعَا[4]

وأزكى نسيمَ الروض ريعانُ ظِلِّهِ ... وغَنى مغنٍّى الطيْرِ فيه فسجَّعا[5]

وكانت أَرانينُ الذُّباب هناكمُ ... على شَدَوات الطيْر ضرباً موقَّعا[6]

وهو يصور وداع الشمس للطبيعة ساعة الغروب وما ترسل من الشفق الأصفر الشبيه بنبات الورس وزهره ، وأشعتها تتبدّد إلا بقايا قليلة ، فهى توشك أن تلفظ أنفاسها ، وقد غلبها النزع الأخير فهى تذل وتستكين وتضع خدها على الأرض إيذانًا بالفراق وإعلانًا لما ألم بها من شدة الأوصاب والآلام ، آلام الوداع المرير للنوار والأزهار التى تترقرق عيونها بندى بل بدمع سخين كما تترقرق بالدموع عيون المحبين المحزونين ، على حين كان النسيم العليل يزكو وينمو والطير يشدو مرجعًا ومرددًا ، وحتى الذباب لا ينساه ابن الرومى فقد كان رنينه يخالط شَدْوَ الطير وغناءه . ولم يكن الصنوبرى يبلغ هذا المبلغ من الإحساس بالطبيعة وعناصرها الحية ، ومع ذلك فهو أهم شعرائها فى العصر بعد ابن الرومى ، إذ عاش مشغوفًا برياض بلدته حلب شمالى الشام وحدائقها وأزهارها ، وأشعاره لا تصور فتنة عميقة بتلك الرياض على نحو ما نجد عند ابن الرومى ، وإنما تصور براعة فى الخيال وإبراز الصور الظاهرية أو الخارجية .

والطريف عند الصنوبرى وابن الرومى جميعًا أنهما يعنيان بتصوير الفواكه والثمار بجانب عنايتهما بتصوير الرياحين والورود والرياض ، ومما يدل على أن موضوع الطبيعة ازدهر فى العصر أن نجد حينئذ فصولاً تفرد لها فى بعض الكتب مثل كتاب

---

(١) أضرع : ذليل .

(٢) مدنف : مريض سقيم .

(٣) إغضاء الفراق : وحشته وكآبته .

(٤) تخضل : تترقرق وتندى . اغرورقت العين بالدموع : جالت بها .

(٥) أزكى : نمّى .

(٦) أرانين : جمع إرنان أى رنين .

الموشى ، فإن به فصلا خاصًّا لما نظم فى وصف الورود، بل قد نجد كتبًا فيها مثل كتاب مفاخرة الورد على النرجس لابن أبى طاهر أحد شعراء العصر النابهين .

ويدخل فى وصف الطبيعة وصف حيوانها الوحشى ، ونرى البحترى يسوق مبارزة الفتح بن خاقان للأسد فى بعض مدائحه وكان قد خرج إلى الصيد ، ففاجأه أسد فى طريقه ، فنازله ، وقتله ، وصور ذلك البحترى فى مدحة بائية للوزير نراه فيها يتحدث حديثًا مفصلا عن حياة الأسد فى الغابات والرياض وبطون الأودية وأعاليها ، وكيف يهجم على قطعان الحمر وبقر الوحش وكيف يستلب عقائلها وينحرها لأشباله ، ثم يصور المعركة بين الأسدين ، إلى أن خرّ السبع يتضرج فى دمائه ، يقول[١] :

فلم أرَ ضِرْغامَيْنِ أصدقَ منكما ... عِراكاً إذا الهيابَةُ النِّكْسُ كَذَّبا[٢]

فأحجمَ لما لم يجد فيك مطمعاً ... وأقدم لما لم يجد عنك مَهْرَبَا

فلم يُغْنِه أن كرَّ نحوك مُقبلاً ... ولم يُنجه أن حادَ عنك مُنَكِّبا

حملت عليه السيفَ لا عزمُك انثنى ... ولا يَدُك ارتدَّتْ ولا حدُّه نَبَا

ولا يكتفى البحترى بوصفه لهذا الحيوان الوحشى ، فقد تصادف أن لقيه ذئب فى بعض أسفاره ، فنازله وقضى عليه ، وأفاض فى تصوير هذا الذئب مستمدًّا من ملكته البارعة فى تصوير الحسيات تصويراً يجسد ما يصفه تجسيداً قويًّا؛ على شاكلة قوله[٣] :

وأطلَسَ ملءِ العيْن يَحْمِلُ زَوْرَهُ ... وأضلاعَه ، من جانبيه شَوًى نَهْدُ[٤]

له ذَنَبٌ مثل الرِّشاءِ يجـرُّهُ ... ومَتْنٌ كمتن القوس أعوجُ منأدٌ[٥]

طواه الطَّوَى حتى استَمرَّ مَرِيرُهُ ... فما فيه إلا العظمُ والروح والجِلْدُ[٦]

---

(١) الديوان ١/٢٠٠ .

(٢) الضرغام : الأسد . النكس : الجبان الضعيف .

(٣) الديوان ٢/٧٤٣ .

(٤) أطلس : مغبر إلى سواد. الزور : الصدر . الشوى : اليدان والرجلان . نهد : بارز .

(٥) الرشاء : الحبل . منأد : معوج .

(٦) طواه الطوى : أضمره الجوع : استمر مريره : قوى واشتد .

يقَضْقِضُ عُصْلًا فى أسِرَّتها الرَّدَى كقضقضة المقرور أرعده البَرْدُ[1]
سَمَالى وبى من شدة الجوع مابه ببَيْداءَ لم تُعْرَف بها عيشة رَغْدُ[2]
كلانا بها ذئبٌ يحدِّث نَفسَهُ بصاحبه والجَدُّ يُتْعسه الجَدّ

وهو يصف لون الذئب المغبر إلى سواد، وأعضاءه المكتنزة من الصدر والأضلاع واليدين والرجلين، وذنبه الرفيع ومتنه الصلب، وكيف أضمره الجوع وهزله حتى لم يبق فيه إلا العظم والجلد، وهو يصوّت بأنياب صلبة معوجة كأنها السكاكين القاطعة وكأنه مقرور تصطك أسنانه من شدة البرد وهوله. وقد التقيا فى فلاة موحشة، كأنما استحال البحترى فيها بجوعه بدوره ذئبًا مفترسًا. ويحدثنا البحترى عقب ذلك عن استثارته للذئب ونزاله وطعناته فيه حتى خرّ صريعًا. ويشتهر البحترى بوصفه للخيل وإتقانه لهذا الوصف حتى ليسبق فيه معاصريه بمثل قوله فى وصف فرس[3]:

يَهْوِى كما تَهْوِى العُقابُ وقد رأت صَيْدًا وينتصبُ انتصابَ الأَجْدَلِ[4]
وتراه يَسْطَعُ فى الغبار لهيبُه لوناً وشَدًّا كالحَرِيق المُشْعَلِ[5]
هَزِجُ الصهيل كأَنَّ فى نغماته نبراتِ معبدَ فى الثقيل الأَولِ[6]
مَلَكَ العيونَ فإن بَدَا أَعْطَيْنَهُ نظرَ المحبِّ إلى الحبيب المقبلِ

والفرس يسرع كأنه عقاب تنقضّ على فريسة، ويقف منتصبًا انتصابًا تامًّا كالصقر المترقب، وكأنه حين يجرى فى الغبار المتكاثف شعلة نار أو كأنه البرق الخاطف، وإن لصيهله لرنينا جميلا جمال أنغام معبد المغنى المشهور فى العصر الأموى، وإنه ليسحر العيون حين تنظر إليه حتى ليقيدها به كما يقيدها المحبوب فلا تلتفت عنه يمينًا ولا يساراً. ويكثر حينئذ وصف الديك والهرّ، وأهم من ذلك أنه يكثر شعر الطرد والصيد.

---

(١) يقضقض عصلا: يصوت بأنياب معوجة: أسرتها: خطوطها. الردى: الهلاك. المقرور: الذى يحس البرد بشدة.

(٢) رغد: ناعمة.

(٣) الديوان ٣/١٧٤٥.

(٤) العقاب: من الجوارح ومثلها الأجدل وهو الصقر.

(٥) الشد: ارتفاع النار.

(٦) معبد: أشهر مغن فى العصر الأموى. الثقيل الأول لحن كان يودع فيه أكثر أغانيه.

وكان الشعراء منذ العصر العباسى الأول يلمون بوصف الأطعمة وألوانها الحضارية الجديدة ، ونراهم فى هذا العصر يكثرون من وصفها ويخصونها بقصائد طويلة ، ويروى المسعودى فى كتابه « مروج الذهب » مجلساً للخليفة المستكفى جعله لإنشاد جلسائه وندمائه — ما نظمه الشعراء فى أنواع الطعوم المختلفة ، وليس من شك فى أن ابن الرومى يُعَدُّ أكبر من عُنى بوصفها ، وكان منهومًا بالطعام ، فكاد لا يترك لونًا من ألوانه دون أن يخصه بقصيدة أو مقطوعة ، من مثل قوله فى دجاجة مشوية وما قُدِّم معها من الثريد والمرققات والقطائف[1] :

وسميطةٍ صفراءَ دينـــاريَّةٍ ثمناً ولوْناً زفَّها لك حَزْوَرُ[2]
عظمتْ فكادت أن تكون إوزَّةً وثوَتْ فكاد إهابُها يتفطَّرُ[3]
ظِلْنَا نُقَشِّرُ جِلْدَها عن لحمها وكأن تِبْرًا عن لُجَيْنٍ يُقْشَرُ
وتقَدَّمتْها قبل ذاك ثرائِدٌ مثل الرياض بمثلهن يُصَدَّرُ
ومرقَّقـــاتٌ كلهن مزخرف بالبَيْض منها مُلْبَسٌ ومدثَّر[4]
وأتت قطائفُ بعد ذاك لطائفٌ ترضى اللهاةُ بها ويرضى الحَنْجَرُ

ويخيل إلى الإنسان أنه لم يترك على موائد عصره طعامًا إلا وصفه وصوَّره مبدعًا فى تصويره سواء أكان من طعام اللحوم أم طعام السمك ، وربما كان من أسباب اهتمامه بذلك عناية معاصريه بالولائم ، ومرَّ بنا فى غير هذا الموضع أنهم أكثروا حينئذ من التأليف فى الأطعمة ، وأيضًا فإن أشعاره تدل على شدة نهمه بالأطعمة وحدة شراهته ، وكأن السببين جميعا جعلاه يولع بالحديث عن المآكل والمشارب ، ومن طريف قوله فى الرءوس والأرغفة[5] :

رُوسٌ وأرغفةٌ ضخامٌ فخمةٌ قد أُخرِجت من جاحمٍ فوارِ
كوجوه أهل الجنة ابتسمتْ لنا مقرونةً بوجوه أهل النـــار

(١) الديوان ص ٤٧٨ وذيل زهر الآداب ص ٢٣٦ .
(٢) حزور : غلام فيه فتوة . دينارية : نسبة إلى الدينار . سميطة : دجاجة مسموطة .
(٣) إهابها : جلدها . يتفطر : يتشقق .
(٤) ملبس ومدثر : مغطى .
(٥) ذيل زهر الآداب ص ٢٣٩ .

ويحدثنا فى بعض شعره عن تخمته وبشَمه ، كما يحدثنا عن تشوقه دائماً لكل ما على الموائد ولهفته عليه كقوله فى قطائف قُدِّمَتْ إليه[١] :

قطائفٌ قد حُشِيَتْ باللَّوْزِ ... والسكَّر الماذىِّ حَشْو المَوْزِ[٢]

تَسْبح فى آذِىِّ دُهْن الجَوْزِ ... سررتُ لما وقعتْ فى حَوْزى[٣]

سرورَ عباسٍ بقرب فَوْزِ

فهو يغرم بتلك القطائف ، وكأنها معشوقته أو كأنه عباس بن الأحنف الذى اشتهر بعشقه لفوز عشقاً ملك عليه كل مشاعره وعواطفه وأهوائه . ، ولم يكن ابن الرومى يعشق القطائف وصنوف الحلوى والأطعمة فحسب ، بل كان يعشق معها أيضاً الفاكهة ، وكأنها كانت غذاء لقلبه قبل أن تكون غذاء لمعدته ، ومما كان يعشقه من ألوانها الموز وكذلك العنب الرازقى ، وفيه يقول[٤] :

ورازقىٍّ مُخْطَفِ الخصُورِ ... كأنه مخــازنُ البَلُّورِ[٥]

وفى الأَعالى ماءُ وردٍ جُورى ... لم يُبْقِ منه وَهَجُ الحَرور[٦]

إلا ضياءً فى ظروف نورِ ... لو أنه يبقَى على الدهور

قرَّط آذانَ الحسان الحورِ ... له مــذاقُ العسل المَشُورِ

ونكهة المِسْكِ مع الكافورِ

ومرَّ بنا فى حديثنا عن الملاهى أنه كان من أهم ملاهيهم لعبتا النَّرْد والشطرنج ، ويسوق المسعودى فى « مروجه » طائفة من الأشعار التى نُظمت حينئذ فى اللعبتين ، ويذكر أن أصحابهما وصفوهما فى أشعار كثيرة ، ومما اختاره منها فى الشطرنج ووصف اللعب به وما يدور على رقاعه من معاركه قول على بن الجهم[٧] :

---

(١) الديوان ص ٤٧٧ .

(٢) الماذى : شديد الحلاوة .

(٣) آذى : موج .

(٤) الديوان ص ١٩٥ وزهر الآداب ٢/ ٩ .

(٥) مخطف : ضامر .

(٦) الورد الجورى : ورد شديد الحمرة .

(٧) مروج الذهب ٤/ ٢٣٥ والديوان (طبعة المجمع العلمى العربى بدمشق) ص١٧٩.

أَرضٌ مربعةٌ حمراءُ من أَدَمٍ ما بين إلفين مَوْصُوفَيْن بالكرمِ
تذاكرا الحرب فاحتالا لها شَبَهًا من غير أن يَأْثَما فيها بسفك دمِ
هذا يُغير على هذا وذاك على هذا يغير وعَيْنُ الحرب لم تنَمِ
فانظرْ إلى الخيل قد جَاشَتْ بمعركةٍ فى عسكرين بلا طَبْلٍ ولا عَلَمِ

ويبدو أنهم بلغوا حينئذ مبلغًا بعيداً من المهارة فى لعب الشطرنج ، وكانوا يعقدون له مجالس يتفرجون فيها على لاعبيه وحذقهم فيه، وكانوا يملئونها بفنون النوادر، وممن اشتهر حينذاك بالبراعة فى لعبه وإحسانه إحسانًا يفوق كل وصف أبو القاسم التوَّزى الشطرنجى . ووصفَ ابن الرومى مهارته فى قصيدة طويلة وصفًا رائعًا ، استهله ببيان نفاذ فكره وبصيرته فى تلك اللعبة، وكيف أنه كان يهزم كل من يلاعبه ويعصف به وبجنوده ورخاخه بتدبيره اللطيف الخفى ، حتى ليوشك أن يكون أخفى من السر فى ضمير محب أدَّبته عقوبة الإفشاء ، وما يلبث أن يخاطبه بقوله[1] :

غَلِطَ الناس لست تلعب بالشطـــــرنج لكن بأَنفس اللُّعَباءِ
لك مكرٌ يدبُّ فى القوم أَخفى من دبيب الغذاء فى الأَعضـــاء
أَو دبيب الملال فى مستهامَيْـ ـن إلى غايةٍ من البغضـــاء
أَو مسير القضاء فى ظُلَمِ الغيْـ ـب إلى من يريده بالتواء
تقتل الشاه حيث شئت من الرُّقـ ـعة طَبًّا بالقِتْلة النكراء
غير ما ناظرٍ بعينيك فى الدَّسْـ ـت ولا مقبل على الرُّسَـــلاء
بل تراها وأَنت مستدبرُ الظهـ ـر بقلبٍ مصوَّرٍ من ذكاء
ما رأَينا سواك قِرْناً يولِّى وهْو يُرْدِى فوارسَ الهيجاء

وأبو القاسم — فى رأى ابن الرومى — لا يلعب بالشطرنج ولكن يلعب بأنفس لاعبيه بدهاء أشد خفاء من سريان الغذاء فى الجسم، بل سريان الملال فى متحابين حتى ينتهى بهما إلى حافة البغضاء ، بل مسير القضاء فى حجب الغيب إلى من

(١) الديوان ص ٣٩ .

يُرْديه ، ويصوره قاتلا للشاه فى كل مكان من الرقعة بفنه وطبه ، دون أن ينظر إليه وإلى مكانه من جنوده ، بل أيضًا يقتله وهو مدبر عن الدست بظهره ، وكأنما له عين يرى بها من خلفه حدة ذكاء ونفاذ بصيرة .

وذكرنا فى كتاب العصر العباسى الأول كيف أن بعض الشعراء ، وفى مقدمتهم أبو تمام ، كانوا يضعون أحيانًا فى مقدمات قصائدهم شكوى مرة من الزمن وهمومه وأن منهم من أفرد للشكوى بعض قصائد ومقطوعات ، ولكن هذه الشكوى تظل فى العصر السالف فردية ، أما فى هذا العصر العباسى الثانى فإنها تصبح موجة عامة قل من لم تعمه ، لفساد الأحوال السياسية التى وصفناها فى غير هذا الموضع ، فإذا المناصب يتولاها غير أهلها ، وإذا السعايات تفشو ويفشو معها ارتفاع الوضيع وتعظم المحنة ويستسلم الناس إلى غير قليل من اليأس ، ويحسون كأن لا أمل فى الإصلاح ، فقد عم الظلم واضطربت القيم وكأنما لم يعد للشر والنّكْر غاية ينتهيان إليها أوحد يقفان عنده ، أو قل كأنما أصبحت الحياة يأسًا متصلا ، لذلك كان طبيعيا أن نجد الشكوى على كل لسان ، شكوى مريرة من الزمن وأهله ، على شاكلة قول الكندى الفيلسوف[1] :

أَنافَ الذُّنابى على الأَرؤسِ ... فغمِّض جُفونك أَونكِّسِ[2]

وضائلْ سوادك واقبضْ يديك ... وفى قَعْر بيتك فاسْتجلس

وعند مليكك فابْغِ العلوَّ ... وبالوحدة اليوم فاستأْنسِ

فإن الغِنى فى قلوب الرجالِ ... وإن التعـــزُّزَ بالأَنفسِ

وكائنْ ترى من أَخى عُسْرَةَ ... غنىٍّ وذى ثروةٍ مفلسِ

ومن قائمٍ شخصه ميّتٌ ... على أَنه بعدُ لم يُرْمَسِ[3]

والكندى متشائم إلى أبعد حد ، فقد اختلت موازين الحياة ، فارتفع الوضيع وهبط الرفيع ، ولم يعد هناك مفر من هذا البلاء ولا خلاص ، فاعتزل الدنيا ، وعش وحيداً بعيداً عن هذا النكر الذى يصطلى الناس ناره ، ولا تؤمل فى أن ينقشع هذا

---

(١) ابن أبى أصيبعة ص ٢٨٨ .
(٢) أناف : أشرف : نكس : طأطئ الرأس ذلا .
(٣) يرمس : يقبر .

الظلام ، فلم يعد لك من أمل سوى الالتجاء إلى مليكك وساحات بِرّه . ويزدرى الكندى ما فى أيدى أصحاب الجاه والسلطان من مال تعافه النفوس الكريمة ، فيقول إن الغنى غنى النفس العزيزة ، وكم من فقير هو فى حقيقته غنى بقلبه وأخلاقه الرفيعة ، وكم من غنى هو فى حقيقته فقير بأخلاقه الذميمة ، بل إنه ميت وإن بدا حيًّا ، ميت لم يُقْبَر ولم يوضع فى رمسه . وإذا كان الكندى قد بلغ من الشكوى هذا الحد فإن من عاصره من الشعراء ومن جاءوا بعده كانوا يشعرون بنفس المحنة ، حتى من نشأ منهم فى بيوت الترف والدعة أمثال ابن المعتز ، والشكوى تكثر فى ديوانه من مثل قوله(١) :

لم يبقَ فى العيش غيرُ البؤْسِ والنَّكَدِ ... فاهربْ إلى الموت من همٍّ ومن نَكَدِ

ملأْتَ يا دهرُ عينى من مكارهها ... يا دهرُ حسبك قد أسرفتَ فاقتصِدِ

وكان طبيعيًّا أن يتعمق هذا الإحساس ابن الرومى الذى لم يكن يوسع له الوزراء والكبراء فى مجالسهم وعطاياهم ، بل كانوا يلقونه فى كثير من الأحوال بالحرمان والنكران، وكان يعرف فى دقة عبقريته الشعرية، فضاق بالناس وضاق بالحياة، وكانت كما أسلفنا شرًّا ونكراً خالصين ، فعاش يتجرعها غصصًا ، ولا مغيث ولا مخلص ولا معين ، فكان طبيعيًّا أن يتحول متشائمًا وأن يصبح التشاؤم فلسفة له ، فالحياة كلها سواد وكلها ظلام وكلها بلاء لا يطاق ، ويصور ذلك تصويراً بديعًا فى بكاء الطفل حين ولادته ، يقول(٢) :

لما تؤذن الدنيا به من صروفها ... يكون بكاءُ الطفل ساعةَ يُولَدُ

وإلا فما يبكيه منها وإنها ... لأَفْسَحُ مما كان فيه وأَرْغَدُ

إذا أبصر الدنيا استهلَّ كأنه ... بما سوف يلقى من أذاها مهدَّد

وللنفس أحوالٌ تظلُّ كأنها ... تشاهد فيها كل غيبٍ سَيُشْهَدُ

فالدنيا آلام ثقال وأهوال طوال ، والطفل يشعر بذلك ساعة ولادته فيبكى بكاء مرًّا ، وكان من الواجب أن يفرح لا أن يبكى ؛ لأنه أخذ حظًّا من الحرية

---

(١) الديوان ص ١٨٦ . (٢) الديوان ص ٣٩٣ .

بالقياس إلى المكان الذى كان فيه ، وكأنما رأى بعينيه ما يتهدده فى دنياه من الأذى الممض الذى سيملأ نفسه شقاء وعناء .

وصوَّر الشعراء — على غرار أسلافهم العباسيين — كثيراً من العواطف الدقيقة ، وحللوا كثيراً من المشاعر والشيم الرفيعة والأخلاق الزرية ، فمن ذلك تصوير ابن المعتز لحساده وما يأكل قلوبهم من الحسد والضغينة ، يقول من قصيدة طويلة[1] :

يا مَنْ يناجى ضِغْنَهُ فى نفسهِ   وَيدِبُّ تحتى بالأَفاعى اللُّدَّغِ
ويبيتُ تَنْهَضُ زفرةٌ فى صدرهِ   حَسَدًا وإن دميتْ جراحى يُولغ[2]
ما زال يبغى لى بكل قـــرارةٍ   حُمَةَ الأَذَى ويشير إن لم يلدغ[3]
نَغِلَتْ ضمائرُ صدرِه من دائِهِ   نَغَلَ الإهاب معطَّناً لم يُدْبَغِ[4]
لا تبتغى منى التى لا أَبتغى   إن كنتَ مشغولا بشأْنى فافرغِ

وابن المعتز يصور حَسَدَته فى صورة كريهة ، فهو ما يزال يدب من تحته بأفاعيه السامة وما تزال زفراته تصعد فى صدره وما يزال يلتمس جرحًا له ليولغ فمه فى دمائه ، وما يزال يريد به الطامة الكبرى ،كعقرب إن لم تلدغ بِحُمَتِها أشارت تريد نزول الكارثة ، وقد نغلت وفسدت طوايا صدره وكأنها إهاب معطن يتمزق . وابن الرومى لا يبارى فى تحليل مثل هذه المعانى وما يتصل بها من الطباع والشيم ، وله قصيدة طويلة يحلل فيها شيمة الصبر وكيف أنها تُحْمَدُ حين لا تكون لها ضرورة فكيف بها إذا أوجبتها الضرورة والحاجة الملحة حين تنزل بالإنسان مكاره ليس له منها مهرب ، إن الصبر حينئذ يكون نعم الجُنَّة والدرع الواقى . ويدفع ما يقال من أن من الناس من خُلِق جزعًا هلوعًا ، فهو لا يستطيع الصبر وكظم النفس عند الشدائد ، يقول[5] :

وقد يتظنَّى الناسُ أَنَّ أَساهمُ   وصبرهمُ فيهم طباعٌ مركَّبُ

---

(١) الديوان ص ٣١٥ والمختار من شعر بشار ص ٦٨ .

(٢) ولغه : شربه بطرف اللسان ، أو حرك لسانه فيه .

(٣) الحمة : السم أو إبرة العقرب التى يلدغ بها .

(٤) نغل : فسد .

(٥) الديوان ص ٣١٥ .

وأنهما ليسا كشيءٍ مصرَّفٍ يصرِّفه ذو نكبة حين يُنْكَبُ
وليسا كما ظنوهما بل كلاهما لكل لبيبٍ مستطاعٌ مسبَّبُ
يصرِّفه المختار منا فتارةً يُراد فيأْتى أو يذاد فيذهب

فالصبر الجميل والجزع الذميم مكتسَبان يكتسبهما الإنسان بمحض إرادته واختياره ، ولا جبر فيهما ولا طبع ، بل هما من عمل الإنسان وبمشيئته ، إن شاء جزع عند المصيبة وإن شاء لم يصبه جزع ولا هلع ، بل عصم نفسه منهما واحتملهما صابراً جلْداً شجاعاً أروع ما تكون الشجاعة والجلد والصبر .

وأخذ التصوف ينمو سريعاً منذ فاتحة هذا العصر ويستقل عن الزهد استقلالا تامًّا ، إذ مضى أصحابه يتحدثون عن الحب الإلهى ومقاماته وأحواله ، وكانوا يأخذون أنفسهم بمجاهدات عنيفة فى التقشف والنسك مع الانقطاع عن الدنيا والخلوص التام للمحبة الإلهية والنشوة بها إلى درجة الفناء فى الذات العلية ، ولهم أشعار كثيرة يصورون بها هذا العشق وما دلع فى قلوبهم من لوعة لا يمكن إطفاؤها ، لوعة حب قوى حار ، استأثر بكل ما فى قلوبهم من عواطف ومشاعر ، وشغلهم عن كل شىء ، إذ شُغفوا بمحبوبهم شغفاً عظيماً ، بل لقد تحول هذا الشغف عقيدة جمعوا فيها بين محبة الله وبين تقديسه وعبادته ، آملين منه فى الوصال وأن يرفع ما بينه وبينهم من حجب ، ولكن أنى يكون ذلك ؟ إن الدرب دائماً يبدو طويلا ودونه أهوال لا حصر لها ، أهوال تملأ قلوبهم حسرات ألا يستطيعوا آخر الأمر لقاء المحبوب ، ويصور ذلك من بعض الوجوه أبو الحسن النورى إذ يقول [١] :

كم حسرةٍ لى وقد غَصَّتْ مرارتها جعلتُ قلبى لها وقفاً لبلواك
وحقِّ ما منك يُبْلينى ويُتْلفنى لأَبكينّك أو أَحْظَى بلقياك

وواضح أن النورى يتجرَّع غُصَصَ الحسرات المرة ، بل إنه لينتظر البِلى والتلف فى سبيل فرحة نفسه باللقاء المنتظر ، وإنه ليحس الضنا ، بل إنه ليحس السقم والعلة ، ولا يجد شفاء لعلته وسقمه ، بل إنه ليجد لذة لا تعد لها لذة فى هذا

(١) طبقات الصوفية للسلمى ص ١٥٣ .

السقم وما يتصل به من عذاب هذا الحب الظامئ وناره التى لا تخمد أبداً ، حتى ليقول[١] :

إن كنت للسقم أهــلا فأَنت بالشكر أَوْلَى
عَذِّبْ فلم تُبْقِ قلباً يقول للسُّقم مَهْــلَا

فهو يشكره على سقمه لأنه يجد فيه متاعـًا لا يشبهه متاع ، بل إنه ليطالب عذابه لأنه لم يعد يشعر بقلبه ولا بما قد يألم من العذاب والسقم .

وكان طبيعيًّا أن ينمو فى العصر الشعر الذى يصور حياة الشعب وما كان يجرى فيها من بؤس وإقلال ومسغبة ، ومن خير الشعراء الذين يصورون هذا الجانب جحظة البرمكى ، إذ نراه يكثر من بيان الشقاء والبؤس اللذين يعيش فيهما بمثل قوله[٢] :

إنى رضيت من الرحيق بشراب تَمْرٍ كالعقيقِ
ورضيت من أكل السَّميـ ـذ بأَكل مسودِّ الدقيق
ورضيت من سَعة الصحـ ـون بمنزلٍ ضَنْكٍ وضيقِ

وكان يذهب مذهبه فى الكدية واحتراف التصعلك والشحاذة الأدبية غير شاعر ، وكان لهذه الطائفة مقدمات فى العصر العباسى السالف ، ولكنها اتسعت فى هذا العصر ، وأصبح هناك كثيرون يتخذون الكدية حرفة لهم يبتزون بها أموال الناس .

وظلت مجالس الخلفاء وعلية القوم تُعْنَى بالفكاهات والنوادر المستملحة ، وأشاع ذلك روحًا هزلية فى كثير من الشعراء ، وكانوا ما يزالون يتخذون الوسائل إلى ذلك ، كأن نجد شخصًا يسمى سعيد بن أحمد بن خوسنداد يهدى إلى ابن حمدون شاة هزيلة ، فينظم فى وصفها كثيراً من المقطوعات ، تارة يصور هزالها وتارة يصور جوعها وحرمانها وبؤسها فى أبيات كلها دعابة وكلها سخرية وفكاهة من مثل قوله[٣] :

---

(١) السلمى ص ١٥٦ .
(٢) ذيل زهر الآداب ص ١٤٩ .
(٣) زهر الآداب ٢ / ٢٣٤ .

لسعيد شُوَيْهَةٌ سلَّها الضُّرُّ والعَجَفْ
قد تغنَّتْ وأبصرتْ رجلا حاملا عَلَفْ
بأَبى من بكفِّه بُرْءُ ما بى من الدَّنَفْ
فأَتاها مطمِّعاً وأَتته لتعتلفْ
فتولى فأَقبلتْ تتغنى من الأَسف
ليته لم يكن وقَفْ عذَّب القلب وانصرف

فهى ليست شاة بل شويهة مصغرة من الضنا والهزال الذى أصابها لطول تعلقها بالعلف ، ولا تجده ولا تراه ، حتى إذا رأت يوماً رجلا يحمل علفاً توسلت إليه وتضرعت أن يبرئها من سقمها ، وأطمعها الرجل ، ولكنه سرعان ما تولى عنها تاركاً لها الحسرة واللوعة ، وهى تتمنى لو أنه يقف ،فقد آلم قلبها وانصرف . ومن الموضوعات التى تندروا بها كثيراً فى العصر وصف الثقلاء والأكلة وموائد البخلاء وما عليها من قلة الطعام ، ولابن الرومى فى ذلك كله أشعار كثيرة ، وقد أشرنا فيما أسلفنا إلى ابتكاره فى الهجاء لوناً جديداً من التصوير الهزلى وقد تعقب فيه أصحاب العيوب الخلقية من مثل جاحظ العينين والأحدب وأصحاب اللحى الطويلة ، فعرضهم عرضاً هزلياً مضحكاً فى كل رسومه وصوره .

٥

نمو الشعر التعليمى

عرفنا فى كتاب العصر العباسى الأول أن الشعراء استحدثوا فيه فن الشعر التعليمى وأن أبرع من استخدمه أبان بن عبد الحميد ، فقد نظم فيه كليلة ودمنة فى نحو أربعة عشر ألف بيت ، والأحكام الفقهية المتعلقة ببابى الصوم والزكاة ، وسيرتى أرْدشير وأنوشروان كما نظم قصيدة فى مبدأ الخلق ضمنها شيئاً من المنطق .وظل هذا الفن قائماً بعد أبان ، كما ظل ينمو عند بعض الشعراء،وفى مقدمتهم على بن الجهم وابن

المعتز وابن دريد . أما ابن الجهم فعنى بنظم مزدوجة فى التاريخ تقع فى أكثر من ثلثمائة بيت ، جعلها فى جزءين : جزء تناول فيه بدء الخليقة وتاريخ الأنبياء، وجزء تناول فيه تاريخ الإسلام والخلفاء ، وربما تأثر فى الجزء الأول بالقصيدة المنسوبة إلى أبان والتى قال الرواة عنها إنها كانت فى بدء الخلق ، أما الجزء الثانى وهو الخاص بتاريخ الخلفاء، فيعد سابقًا فيه فإن الشعراء من قبله لم يفكروا فى نظم هذا التاريخ، ونراه حريصًا فى مفتتح الجزء الأول على ذكر مصادره فيه إذ يقول ، وقد بدأ بقصة خلق آدم :

يا سائلى عن ابتداء الخلقِ ... مسألَةَ القاصدِ قَصْدَ الحقِّ
أَخبرنى قومٌ من الثِّقاتِ ... أولو علومٍ وأولو هيئـات
تفرّغوا فى طلب الآثارِ ... وعرفوا موارد الأَخبـارِ
ودرسوا التوراة والإنجيلا ... وأَحكموا التأْويل والتنزيلا
أَن الذى يفعل ما يشاءُ ... ومَنْ له القدرة والبقاءُ
أَنشأَ خلق آدمٍ إنشاءَ ... وقَدَّ منه زوجه حَوَّاءَ

ويستمر فى قصة حواء وآدم ووسوسة إبليس لهما وهبوطهما من الجنة إلى الأرض، وواضح أنه عُنى بذكر مآخذه لهذه القصة وما يليها من قصص الأنبياء عن رجال الآثار والأخبار، الذين درسوا التوراة والإنجيل وأحكموا دراسة التنزيل أو القرآن الكريم ، ويعرض لابنى آدم قاين (قابيل) وهابيل ، ويأخذ فى عرض تاريخ الرسل تباعًا ، بادئًا بنوح وقصة الطوفان وخالفيه من الرسل وأقوامهم ، وخاصة إبراهيم وما كان من كسره للأصنام ودعوته إلى التوحيد ، ويذكر زوجتيه : هاجَر وسارة وسُكْنَى هاجر فى البلد الأمين مع ابنها إسماعيل فى جوار القبيلة القديمة جُرْهُم ، ويتحدث عن إسحق ويعقوب وقصة يوسف وإخوته ويصور عصيان بنى إسرائيل لأنبيائهم ، ويذكر أخبارهم مع بختنصّر ، كما يذكر سليمان وأيوب ويونس والخضر وزكريا ويحيى وعيسى ، وبذلك ينتهى الجزء الأول من الأرجوزة . ويأخذ فى التقديم للجزء الثانى فيتحدث عن أحوال الأمم بين زمن المسيح

ومجيء الإسلام وما ساد من شرك وإثم إلى أن أشرقت الدنيا بطلعة الرسول صلى الله عليه وسلم ، يقول :

ثم أزال الظلمةَ الضياءُ وعاودتْ جِدَّتَها الأَشياءُ

أتاهمُ المنتَجب الأَوَّاه محمدٌ صلى عليه اللهُ

ويتحدث عن رسالته وموقف أهل مكة منه وخصومتهم له وهجرته إلى المدينة ثم يتحدث عن خلافة أبي بكر من بعده محددالها بالسنة والشهر ، ودائماً يحدد المدة التي وليها كل خليفة تحديداً دقيقاً ، كما يعرض لأهم الأعمال في عهده ، يقول:

وقام من بعد أَبي بكر عُمَرْ فبرزتْ أَيامه تلك الغُرَرْ

تضعضعتْ منه ملوك فارس وخرَّت الرومُ على المعاطس[1]

ويتحدث عن عثمان وعلى بن أبي طالب ، ثم ينتقل إلى بني أمية متعقباً لهم خليفة خليفة ، كما يتعقب أهم الأحداث في عهودهم ، ويُنْحى على يزيد بن معاوية باللوم والتعنيف لمقتل الحسين في عهده ، ولا يكاد يثني على سيرة خليفة أموى إلا ما كان من عمر بن عبد العزيز فإنه خصَّه ببعض الثناء . ثم انتقل إلى الحديث عن الخلفاء العباسيين مهللا لخلافتهم وتحوُّل صوبجان الملك إليهم ، منوهاً بهم . حتى إذا انتهت الخلافة إلى جعفر المتوكل أشاد بخلافته وانتظام شئون الملك والرعية لعهده ، ويأسى لقتل الفراغنة الأتراك له وماصارت إليه الخلافة من الاختلال يقول :

وبايع الناسُ الإمامَ جعفرا خليفةَ اللهِ الأَغرَّ الأَزهرا

قد سكَّن اللهُ به الأَطرافا فما ترى في ملكه خلافا

ثم تولَّى قتله الفَرَاغِنَهْ وساعدتْهم عُصْبةٌ فراعنه

لأَربعٍ خَلَوْنَ من شَوَّالِ فأَصبح الملك أَخا اختلالِ

(١) خرت على المعاطس: ذلت . والمعاطس : الآناف .

ويذكر بعده الخليفة المنتصر ثم المستعين الذى تلاه لسنة ٢٤٨ للهجرة ، وقد توفى لعهده سنة ٢٤٩ وكأنه نظم هذه الأرجوزة بأخرة من حياته . والأرجوزة قوية النسج مع سهولة فى الصياغة ونصاعة فى العبارة .

ونرى ابن المعتز يُعْنَى بنظم سيرة المعتضد الخليفة العباسى معاصره وكانت بينهما صداقة وثيقة ، وكان أبوه الموفق من قبله ولى عهد المعتمد ، وقد أعادا معاً للخلافة العباسية هيبتها على نحوما مر بنا فى غير هذا الموضع فقضيا على ثورة الزنج وهزما الصفار وأخمدا أنفاس كل ثائر ، واستقامت شئون الملك السياسية . وكانت أيام المعتضد أيام أمن ورفاهية وازدهار ، وكان لذلك وقع بعيد فى نفس صديقه ابن المعتز فرأى أن ينظم فى سيرته أرجوزة[1] تصور استقرار الأحوال السياسية والاجتماعية والاقتصادية وما عمَّ البلاد من العدل فى عهده ، مقارناً بين تشعث الأمور قبله وانتظامها لزمنه ، وهى فى نحو أربعمائة بيت ، وقد افتتحها بحمد الله والصلاة على رسول الله صلى الله عليه وسلم ، ثم أخذ فى تصوير سيرة المعتضد وكيف كانت الخلافة قبله مختلة ، فالترك يخلعون الخلفاء ويقتلونهم وينتهكون الحرمات وينهبون الأموال :

كذاك حتى أفقروا الخِلافه وعوَّدوها الرعبَ والمخافه

وارتُكبت عظائم الآثام ، وهبَّ الثوار فى كل مكان ، يتقدمهم قائد الزنج قاتل الشيوخ والأطفال ومخرب البصرة والأهواز . ويذكر ابن المعتز القواد الذين هزمهم ، حتى تصدَّى له الموفق وابنه المعتضد . وكان الموفق صورة للبأس الذى ليس بعده بأس والحزم الذى ليس بعده حزم ، وبعد جهاد وصراع شديدين قضى الله له بالنصر المبين — وحارب يعقوب الصفار بعد الزنج . فهزمه هزيمة ساحقة — ويذكر تنكيله بالوزير أبى الصقر إسماعيل بن بلبل لتفاقم طغيانه وما أذاق عمالُه وجنودُه الشعبَ من ظلم لايطاق ، حتى كان الوارث لايرث أباه الموسر إلا إذا دفع الرشوة الباهظة ، وحتى كان التاجر الثرى تُغْتَصَبُ منه أمواله قسراً ، مع مجونه وإيمانه بالتعطيل واعتناقه للشرك . هكذا كان الظلم فاشياً قبل المعتضد حتى إذا ولى شئون الرعية نشر فيها العدل الذى لاتصلح حياتها بدونه ، وسارع الثوار

---

(١) انظر فيها الديوان ص ٤٨١ .

بالإذعان خوفًا من بطشه وانتقامه، وهربَ اللصوص . وقبضَ الجند على أصحاب النهب والسلب وكبلوهم بالأصفاد والأغلال . وبعث برسله إلى ابن عيسى بن الشيخ ينذره ويتوعده ، فاستسلم خائفًا وأدّى أموالا جليلة ، واستنزل حمدان من حصنه فى ماردين . وأسرهرون صاحب الشراة الخوارج ، ويطيل فى ذمه وذم عقيدته وأنصاره ، كما يطيل فى ثورة رافع بن هرثمة بخراسان وماكان من القضاء عليها وصلبه ببغداد . وكان المعتضد قد أخر المطالبة بالخراج من شهر آذار إلى الحادى عشر من حزيران حتى يتم الحصاد . وكان ذلك صنعاً جميلا بالزراع والناس ، فأشاد ابن المعتز بهذه المكرمة وصوّر فى ثنايا ذلك صفوف التعذيب التى كانت تُصَبُّ على الناس صبًّا لاستخراج أموال الخراج منهم بالعنف . وقد عرضنا لذلك فى حديثنا عن الحياة السياسية، إذكانوا لايزالون يرهقونهم وينكلون بهم حتى لاتبقى فيهم قدرة على المقاومة ، وحتى يتنازلوا عن كل مايملكون جملة . ويتحدث عن أبنية المعتضد الشامخة وخاصة قصره الرباب وبركته الكبيرة ، وهو أحد قصوره المعروفة باسم الثريا . ويعود إلى حديثه عن إخماد المعتضد للثورات وينوه بموظفيه وعلى رأسهم القاسم بن عبيد الله وزيره ، ويصور كيف فتك بعض قواده بصالح بن مدرك الذى كان يعيث فى الأرض فساداً قاطعًا الطريق على الحجاج سافكًا للدماء ومنتهكًا للحرمات وناهبًا للأموال ، كما يصور قضاء إسماعيل بن أحمد السامانى والى خراسان على عمرو بن الليث الصفار الذى طالما تمادى فى غيه بفارس ، فعادت مذعنة إلى الطاعة . ومثلها طبرستان وقضاء السامانيين فيها على محمد بن زيد العلوى . وكذلك قضاؤه على وصيف الخادم حين نقض الطاعة فى الثغور . ويتحدث ابن المعتز عن القرامطة وتمزيق قواد المعتضد لهم ولجنودهم فى عهده ، ويذكر وصول وفد الروم يحملون كتاب إمبراطورهم صاغرين طالبين الهدنة والفداء . ويعود إلى القرامطة ، ويفيض فى ذم الكوفة مستقر الفرق الشيعية الغالية التى نبتت منها — فى رأيه — فرقة القرامطة ، وفيها يقول :

واستمع الآن حديثَ الكوفه مدينــــةٌ بعينها معروفه
كثيرة الأديان والأئمّه وهمُّهــــا تشتيتُ أمر الأمه

ويتحدث عن خذلان أهلها لعلى بن أبى طالب وقتله وقعودهم عن نصرة الحسين ومصرعه تحت أعينهم دون أن يهبوا لنجدته ويعصفوا بقتلته ، يقول :

ثم بكوا من بعده وناحــوا جهلا كذاك يفعل التمساحُ

ويبالغ فى ذمهم حتى ليجعلهم أس كل ضلال ومنبت كل الفرق لا من الشيعة فحسب ، بل أيضًا من الخوارج . وينوه بانتصار شبل غلام الطائى على القرامطة فى سواد الكوفة وأسره لقائدهم ابن أبى قوس على نحو ما مر بنا فى غير هذا الموضع ، وما كان من صلبه لسنة ٢٨٩ على الجسر ببغداد ، وهى السنة التى توفى فيها المعتضد . وقد يدل ذلك على أن ابن المعتز لم يفرغ من نظمه لتلك الأرجوزة إلا فى هذه السنة ، وربما فرغ منها قبل ذلك وأضاف إليها بأخرة هذا الجزء ، ولاريب فى أنه ألحق بها الأبيات الثلاثة الأخيرة التى تشير إلى وفاة المعتضد وانتهاء خلافته لعام تسع وثمانين ومائتين . والأرجوزة قوية النسج ، وهى تتفوق فى هذا الجانب على أرجوزة ابن الجهم ، إذ تتناسق فيها الصياغة تناسقا بديعا ، وتبدو فيها بوضوح عواطف ابن المعتز ومشاعره ، مما يجعلها تخفق بحيوية قوية . وقد استطاع أن يودع فيها سيرة المعتضد وأحوال الشعب فى عهده من جميع جوانبها السياسية والاجتماعية والاقتصادية . وبون بعيد بينها وبين كتب التاريخ مثل الطبرى من هذه الناحية ، فى تلك الكتب إنما نعرف الثورات والحروب وبعض الأعمال الكبرى ، وقلما اطلعنا على جانب من جوانب حياة الشعب ، أما فى تلك الأرجوزة فالشعب ماثل أمامنا وسياط جباة الضرائب تنوشه ويُزَجّ به فى السجون ظلمًا وعدوانًا وأمواله تُستَلَب منه بغيًا وطغيانًا .

وأما ابن دريد فكان عالمًا لغويًّا كبيراً ، ينظم الشعر ويحسنه ، وله ديوان مطبوع ، وقد عُنى بتضمين طائفة من أشعاره بعض المعارف . وأشهر ماله فى هذا الباب مقصورته[1] التى مدح بها عبد الله بن محمد بن ميكال والى الأهواز وابنه إسماعيل ، وقد بنى قافيتها على الحرف المقصور وجعلها فى نحو مائتين وخمسين بيتًا . ويقال إنه ضمَّنها ثلث المقصور فى اللغة[2] . وقد استهلها بالنسيب على طريقة

---

(١) انظر المقصورة فى الديوان ، وهى مطبوعة بشرح الخطيب التبريزى فى دمشق .

(٢) خزانة الأدب للبغدادى ٣ / ١٠٥ .

الشعراء القدماء مفتتحًا لها بقوله :

يا ظبية أَشبه شيءٍ بالمهَا ترعى الخُزامى بين أَشجار النَّقَا[١]

وقد مضى يشكو من شيبه وحبه وسهاده لطول الفراق ، وكيف أنه يحتمل من آلام الشوق وعذابه ما لا يحتمله الصخر الأصم . حتى لقد ذوى غصنه الرطيب وأصبحت حياته كلها غُصَصًا لا تطاق ، ويتجه إلى الدهر الذى يصب عليه المحن بالخطاب قائلا :

يا دهرُ إن لم تك عُتْبَى فاتَّئِدْ فإن إرْوادك والعتبى سَوَا[٢]
لا تحسبَنْ يا دهر أَنى جازعٌ لنكبة تَعْرِقُنى عَرْق المُدَى[٣]
مارسْت من لو هوتِ الأَفلاك من جوانب الجوِّ عليه ماشكا
لكنها نفثةُ مصدورٍ إذا جاش لغامٌ من نواحيها عَمَا[٤]

وهو يُبْدى أمام محن الدهر وخطوبه صلابة وقوة لا حد لها حتى لو خرَّت عليه الأفلاك ما تألم ولا شكا ، وقد مضى يتعزى بمن سطا الدهر عليهم قبل أن يحققوا آمالهم من أمثال امرئ القيس ويزيد بن المهلب . واستطرد يتحدث عن بعض ذوى الهمم الشامخة أمثال سيف بن ذى يزن وعمرو بن هند . وكأنما سرت فى روحه شجاعتهم فإذا هو فى عُدَّة الحرب رفيقاه السيف والفرس ، ويفيض فى وصفهما وخاصة فى أوصاف الفرس . وكأنه يكتب فيه رسالة لغوية مستقلة . ويصف رحلته إلى الأهواز بفارس . ثم يأخذ فى مديح الأميرين . حتى إذا فرغ منه وصف فتاة ساحرة خلبت ابه . ويُعْقب ذلك بطائفة من الحكم يحشدها حشداً من مثل قوله :

وإنما المَرْءُ حديثٌ بعده فكن حديثاً حسناً لمن وَعَى

---

(١) المها : بقر الوحش . الخزامى : نبات زهره طيب . النقا : القطعة من الرمل .

(٢) اتئد : تأن . الإرواد : الترفق .

(٣) تعرق : تفصل اللحم عن العظم . المدى : السكاكين .

(٤) اللغام : الزبد على فم البعير . عما : سقط

ويستطرد إلى وصف رحلة له فى الصحراء مع بعض الفتية، مصوراً ما تجشمه فى السُّرى من الصعاب وما كان ينزله من الآبار والذئاب تعوى حوله، ثم ينتقل فجأة إلى وصف الخمر، وكان منهوماً بها ، وهو يصرح بذلك ولا يخفيه، بل إنه يتسع فى تصريحه بأنه عبّ من كل ما كان يشتهيه. والطريف أن هذه الأرجوزة التى قصد بها ابن دريد إلى أخذ الناس بحفظ الألفاظ المقصورة فى اللغة لا تتعمق فى الإغراب اللفظى ، فقد استطاع أن يسلك الكثرة من ألفاظها فى أساليب سهلة يسيرة ، وحتى الأساليب والصياغات الأخرى لا تتعمق فى الإغراب ، مما يدل على مقدرته الشعرية البارعة .

ولابن دريد وراء هذه القصيدة قصائد أخرى تتضح فيها هذه الغاية اللغوية التعليمية ، من ذلك قصيدته[1] فى المقصور والممدود ، وقد اشتملت على سبع وخمسين كلمة مقصورة ومثلها ممدودة من نفس مادتها ، وقد بدأها بما يفتح أوله فيُقْصَرُ ويُمَدّ والمعنى مختلف من مثل قوله :

لا تركننَّ إلى الهَوَى واحذرْ مفارقة الهـــواء
يوماً تصير إلى الثَّرَى ويفوز غيرك بالثراء

وتلا ذلك بما يكسر أوله فيقصر ويمد والمعنى مختلف من مثل : اللِّوَى[2] واللواء . ثم ما يكسر أوله فيقصر ، ويُفْتَح فيمد ، والمعنى واحد مثل : سِوَى وسواء . ثم ما يضم أوله فيقصر ، ويكسر فيمد والمعنى واحد ، مثل : لُقًا ولِقاء . ثم ما يفتح أوله فيقصر ، ويكسر فيمد ، والمعنى واحد مثل : الغَدَا والغِذاء . ثم ما يفتَح أوله فيقصر ، ويكسر فيمد ، والمعنى مختلف ، مثل : السَّحا والسحاء[3]. ثم ما يُضَمّ أوله فيقصر ، ويفتح فيمد ، والمعنى مختلف ، مثل : ضُحًى وضَحاء[4]. وفى ديوانه قصيدة[5] ملأها بالغريب ، نظمها تحدياً لبعض علماء اللغة موردا عليه طائفة كبيرة من ألفاظها الآبدة ، وهى لذلك تُضَمّ إلى القصيدتين التعليميتين السابقتين ،

(١) ديوان ابن دريد (طبع القاهرة ص ٢٩ .

(٢) اللوى : منقطع الرمل .

(٣) السحا : القرطاس : السحاء : ضرب من الشجر .

(٤) الضحى : وقت ارتفاع الشمس . الضحاء : النهار .

(٥) الديوان ص ٨٨ .

فغايتها هى الأخرى علمية أو تعليمية واضحة . وأيضًا فى الديوان بجانب ما قدمنا ثلاث مقطوعات [١] أودع فى أولاها ما يذكر من أعضاء الجسم ولا يؤنث ، وفى ثانيتها ما يؤنث ولا يذكّر ، وفى ثالثتها ما يجوز فيه التذكير والتأنيث . وعلى هذا النحو سخر ابن دريد الشعر ليحمل مواد لغوية تعليمية بجانب ما حمل قبله من مواد تاريخية وغير تاريخية .

---

(١) الديوان ص ١٢٣ وما بعدها .

الفصل الخامس

أعلام الشعراء

١

على بن الجهم [١]

يرجع نسب على بن الجهم إلى بنى سامة بن لؤىّ القرشيين ، وقد نزل أحد أجداده مدينة مَرْو بخراسان واستوطن هذا البلد النائى مع من استوطنه من أبناء العرب الفاتحين لأواسط آسيا . وإلى هذا الموطن يشير على بن الجهم فى إحدى مدائحه للمتوكل ، إذ يفاخر بأنه من أهل خراسان الذين أدالوا للعباسيين من الأمويين قائلا [٢] :

مذهبى واضحٌ وأَصلى خُراسا نُ وعِزِّى بعِزِّكم موصولُ

ويبدو أن الجهم رحل عن موطن أجداده بخراسان مبكراً إلى بغداد مع بعض إخوته وأسرته طلباً للرزق وشَغَل بعض الوظائف فى الدولة . ويفتح له المأمون أبوابه ، ويولِّيه بريد اليمن وبعض الثغور ويتولَّى فى عهد الواثق شرطة بغداد [٣] وفى ديوان أبى تمام أشعار فى أخيه عثمان وابنه إدريس ، مما يدل — من بعض الوجوه — على أنه كان لهذه الأسرة بعض الجاه والوجاهة . ولا تُعْرَفُ بالضبط السنة التى أنجب فيها الجهم ابنه عليا ، ويغلب أن يكون مولده سنة ١٩٠ للهجرة وأن تكون بغداد مسقط رأسه ؛ ونراه فى نعومة أظفاره يختلف من داره فى شارع دُجَيْل

---

(١) انظر فى على بن الجهم وترجمته وأشعاره طبقات الشعراء لابن المعتز ص ٣١٩ والأغانى (طبعة دار الكتب المصرية) ١٠ /٢٠٣ ومعجم الشعراء للمرزبانى (طبعة الحلبى) ص ١٤٠ ووفيات الأعيان لابن خلكان فى على وتاريخ بغداد ١١ /٣٦٧ وتاريخ ابن الأثير والنجوم الزاهرة فى سنة ٢٤٩ والموشح للمرزبانى ص ٣٤٤ وطبقات الحنابلة لابن أبى يعلى ص ١٦٤ وقد طبع ديوانه فى المجمع العلمى العربى بدمشق خليل مردم ووضع له مقدمة قيمة .

(٢) الديوان ص ٢٦ .

(٣) تاريخ بغداد ٧ /٢٤٠ .

إلى كُتَّاب بالحى كان يتعلم فيه الأطفال ذكوراً وإناثًا مجتمعين، ولفتته ذات يوم بُنَيَّة صغيرة بمحاسنها الدقاق فكتب إليها فى بعض الألواح [١] :

ماذا تقولين فيمن شفَّه سَهَرٌ من جَهْد حبك حتى صار حيرانا

وسرعان ما أجابته البُنَيَّة فى نفس اللوح على البديهة :

إذا رأينا محبًا قد أَضرَّ به جَهْدُ الصبابة أو ليناه إحسانا

وفى بعض الروايات أن هذا البيت أول شعر نظمه ، وكأن هذه البُنَيَّة هى التى ألهمته الشعر وأنطقته . وكان لا يزال يملأ الدار على أبيه شغبًا وعبثًا ولعبًا ، فسأل معلمه فى الكُتَّاب أن يحبسه تأديبًا له ، وأجابه المعلم إلى حبسه، فاغتاظ على من أبيه غيظًا شديداً ، ولم يلبث أن كتب إلى أمه فى شِقِّ لَوْح مستغيثًا [٢] :

يا أُمَّتا أفديكِ من أُمِّ أَشكو إليكِ فظاظةَ الجَهْمِ

قد سُرِّح الصبيان كلهمُ وبقيتُ محصورًا بلا جُرْمِ

وتوسطت له أمه عند أبيه وأطلق سراحه ، وكأنما كان هذا الهجاء لأبيه إرهاصًا بما سيصير إليه من حدة لسانه التى سيصلى فيما بعد نارها . والحادثتان كلتاهما تدل على أن موهبته الشعرية تفتحت مبكرة ، فإنه لم يكد ينهى دروسه فى الكتَّاب حتى كان قد أصبح شاعراً ينظم الشعر فى يسر . وكانوا يتعلمون فى الكتَّاب شيئًا من علم الحساب ومن النحو والعروض وبعض سور القرآن وبعض الأشعار والأحاديث النبوية . ولا ريب فى أنه كان يغدو ويروح بعد ذلك مع الشباب إلى حلقات العلماء المتكلمين فى المساجد ينهل منها ، وربما اطلع على شىء من علوم الأوائل صنيعَ لداته فى عصره . وكانت فى المسجد الجامع حلقة كثيراً ما اختلف إليها وكثيراً ما اجتذبته ، ونقصد حلقة الشعراء إذ «كانوا يجتمعون كل جمعة فى القبة المعروفة بهم فى جامع بغداد ، ينشدون الشعر ويعرض كل منهم على أصحابه ما يكون قد نظمه بعد مفارقتهم فى الجمعة السابقة» . وفى هذه الحلقة تعرف

---

(١) الديوان ص ١٨٤ .

(٢) الديوان ص ١٨٠ والجرم : الذنب .

على كثير من شعراء عصره وفى مقدمتهم أبو تمام الذى أصفاه ودّه وصوّر ذلك تصويراً رائعاً فى شعره بمثل قوله[١] :

إنْ يختلفْ ماءُ الوِصال فماؤُنا   عَذْبٌ تحدَّر من غمامٍ واحدِ
أَو يفترقْ نَسَبٌ يؤلِّفْ بَيْنَنَا   أَدبٌ أقمناه مُقام الوالدِ

ولم يكد على يتجاوز العشرين ربيعاً حتى أخذ نجمه بين الشعراء المعاصرين له فى الصعود ، وإذا هو يصبح من مُدَّاح المعتصم ومن يحظون بالوفود عليه ، ويُعْجَبُ به ، فيجعله على مظالم حلوان بالعراق[٢] . ويفد على الواثق يمدحه ، غير أن ابن الزيات وزيره كان يزورُّ عنه ، ويبدو أنه عزله عن عمله ، إذ نراه يصبُّ عليه جام غضبه[٣] . وفى هذه الأثناء نراه يعقد صلة وثيقة بينه وبين عبد الله بن طاهر أمير خراسان ، مؤتسياً فى ذلك بصديقه أبى تمام ، ويتوفى سنة مائتين وثلاثين للهجرة ، فيعزّى فيه ابنه طاهراً خليفته على ولاية خراسان ويبكيه بكاء حارًّا .

وتُقبل الدنيا على ابن الجهم مع خلافة المتوكل سنة ٢٣٢ للهجرة إذ يصبح من أقرب الشعراء إلى نفسه ، ويتخذه جليساً ونديماً ، ويسرّ إليه بما يدور بينه وبين جواريه ومحظيّاته من مثل محبوبة وقبيحة أم المعتز ، ويغدق عليه أمواله وجوائزه حتى ليروى الرواة أنه دخل عليه يوماً وبيده دُرَّتان نفيستان يقلّبهما تعجباً واستحساناً ، ويبالغ الرواة فيقولون إن الواحدة منهما كانت تزيد قيمتها على مائة ألف ، وأنشده ابن الجهم قصيدة جعلته يقدم له إحدى الدُّرَّتَيْن ، وكانت فى يمينه ، والأخرى لا تزال فى يساره ، فأسرع ابن الجهم يقول على البديهة :

بِسُرَّ مَنْ رَا إمامُ عَدْلٍ   تغرف من بحره البحارُ
الملكُ فيه وفى بَنيــهِ   ما اختلف الليل والنهارُ
يُرْجَى ويُخْشَى لكل أمرٍ   كأنه جَنَّةٌ ونــارُ

---

(١) ديوان أبى تمام ١ / ٤٠٧.
(٢) أغانى ١٠ / ٢١٠ .
(٣) الديوان ص ١١٨ .

يداه فى الجود ضَرَّتانِ عليه كلتاهما تغارُ
لم تأتِ منه اليمينُ شيئاً إلا أتت مثلَه اليسارُ

واهتز المتوكل طرباً وأعطاه الثانية[١]. وقد يكون فى منادمته للمتوكل وملازمته له ما يدل على أنه كان ظريفاً جميل المحضر . ونراه يتحول منذ اليوم الأول فى خلافته داعية كبيراً من دعاته ، بل لقد تحول إلى ما يشبه أداة إعلام ، فليس هناك عمل ينهض به المتوكل إلا ويدعو له إن احتاج إلى دعوة ، بل إنه ليبالغ فى الدعوة له مبالغة مفرطة . وليس هناك عمل يستحق التنويه إلا ويهتف به فى أشعاره ويشيد إشادة بعيدة ، وحتى هو إن غضب على بعض الوزراء أو بعض الكتّاب والعمال رأيناه يَسْقط عليهم بسياط أشعاره طالباً لهم التنكيل الشديد . وكان أول عمل عامّ نهض به المتوكل وقفه محنةَ القول بخلق القرآن على نحو ما مر بنا فى غير هذا الموضع ؛ فقد كان الخلفاء منذ المأمون جعلوا هذا القول عقيدة رسمية للدولة ، وعَنُفوا بالفقهاء المنكرين لذلك وفى مقدمتهم أحمد بن حنبل عنفاً شديداً ، حتى إذا ولى المتوكل وقف هذه المحنة التى أوشكت أن تؤدى إلى فتنة خطيرة ،وبذلك أفل نجم أصحابها من المعتزلة الذين كانوا يُغْرون الخلفاء بها وسطع نجم الفقهاء وأهل السنة . ولا يزال ابن الجهم يُشيد بهذا الصنيع ، إذ رأب المتوكل صدع فتنة كان يخشى أن تتفاقم وتؤدى إلى شر خطير ، ونراه فى أثناء ذلك يكيل هجاء ذميماً للمعتزلة ، حتى ليصفهم بالكفر على شاكلة قوله[٢] :

قام وأهلُ الأرض فى رَجْفةٍ يَخْبِطُ فيها المقبلَ المدبرُ
فى فتنة عمياءَ لا نارُها تخبو ولا مُوقدها يفْتُرُ
فقال والألسنُ مقبوضةٌ لِيُبْلغِ الغائبَ من يَحْضُرُ
إنِّى توكلتُ على الله لا أُشركُ بالله ولا أكْفُرُ
لا أدَّعى القدرةَ من دونهِ بالله حَوْلِى وبهِ أَقْدِرُ

---

(١) الديوان ص ١٣٦ وانظر العقد الفريد (طبعة لجنة التأليف والترجمة والنشر) ١/٣٢١ .

(٢) الديوان ص ٧٣ .

وابن الجهم يزعم فى الأبيات أن القول بأن القرآن مخلوق من شأنه أن يؤدى بالإنسان إلى الكفر والشرك بالله ، وقد مضى ينفى عن المتوكل القول بحرية الإرادة وأن الإنسان يصرّف أفعاله كما تشاء له قدرته ، على نحو ما كان يؤمن المعتزلة ، فهو سنىٌّ يأخذ بأقوال أهل السنة ، وبأن كل شىء بقضاء وقدر مقدور على الإنسان لا حول له إزاءه ولا قوة . ونراه فى نفس القصيدة يزعم بأن أبا بكر قضى على الردة الأولى فى الإسلام وأن المتوكل قضى على هذه الردة الثانية للمعتزلة . وكل ذلك زلل منه ، وكان حريا به ألا يرسل لسانه فى المعتزلة وأن يقف بعيداً عن خصومتهم ، أو على الأقل ألا يصمهم بوصمات الردة والشرك والكفر ، ولكنه كان قد وضع نفسه موضع الداعية للمتوكل وأعماله المحامى عنه أمام خصومه ، فبالغ وتورط فى مبالغته أكثر مما ينبغى .

ومشكلة ثانية تورط فيها على نحو ما تورط ضد المعتزلة مندفعاً وراء المتوكل إذ كان شديد الانحراف عن على بن أبى طالب وآله ، ومرّ بنا فى غير هذا الموضع ما يصور مدى هذا الانحراف إذ أمر فى سنة ٢٣٦ بهدم قبر الحسين فى كربلاء وهدم ما حوله من الدور وأن يُحرَثَ موضع القبر ويُزْرَع ما حواليه ، ونرى ابن الجهم منذ ولى المتوكل الخلافة يُبْدِئُ ويعيد فى أن العباسيين أولى الناس بالأمر وحكم الأمة . وحقًّا بدأ ذلك عنده فى مدائحه للمعتصم ، ولكنه أصبح الآن نغماً مستمراً يوقعه على قيثارته كلما مدح المتوكل ، فبَيْته أحق من البيت العلوى بالخلافة ، وهم أفضل الناس وخيرهم جميعاً علويين وغير علويين ، أما المتوكل فهو صفوة الله ، اختاره لعباده ، بل هو الميثاق والعهد الذى عاهد الله الناس عليه أن يسمعوا ويطيعوا ، يقول له[1] :

أنت ميثاقنا الذى أخذ اللـ ... ـهُ علينا وعهدُه المسئولُ
بك تَزْكو الصلاةُ والصوم والحـ ... ـجُّ ويزكو التسبيحُ والتهليلُ

وكان هذا الموقف من على يثير عليه الشيعة ويجعلهم يبطنون له ضغينة مماثلة لما كان يبطنه له المعتزلة . وبجانب ذلك كان المتوكل كلما نكب أحداً زيّن عمله للرعية ،

---

(١) الديوان ص ٢٥ .

ومعروف أنه نكب لأول عهده ابن الزيات وعذبه فى سجنه حتى مات، وكذلك نكب عمر بن فرج الرُّخَّجِيّ وكان من عِلْية الكتاب ومشاهيرهم، وينوِّه ابن الجهم بعمله وأنه إنما انتقم منهما للرعية، إذ كان ابن الزيات — فى رأيه — ظالمًا جائرا يُزْرى على سنن النبي، وكان الرخجى يجور فى أحكامه وتصرفاته[١]. ويعقد المتوكل البيعة فى سنة ٢٣٥ لبنيه الثلاثة محمد المنتصر وأبى عبد الله المعتز وإبراهيم المؤيد عاهداً إليهم بولاية العهد على التوالى، فيشيد ابن الجهم بهذا الصنيع وأن المتوكل أراد به صلاح الدين[٢]. وأمر المتوكل كما مرَّ بنا فى غير هذا الموضع لسنة ٢٣٥ بأن يلبس النصارى وأهل الذمة جميعًا الطيالسة العسلية تمييزاً لهم ويشدُّوا فى أوساطهم الزنانير وكتب بذلك إلى عماله فى الآفاق، فقال ابن الجهم[٣]:

العَسَلِيَّاتُ التى فَرَّقَتْ بين ذوى الرِّشْدَةِ والغَىِّ
وما على العاقل أنْ يَكثروا فإنه أَكثَرُ لِلْفَىِّ

وآذى البيتان النصارى وأهل الذمة جميعًا، وبذلك لم يوغر صدور المعتزلة والشيعة عليه وحدهما، فقد أوغر أيضًا صدور النصارى وأهل الذمة، ولم يَقِفْ إيغارُه الصدور عند هذه البيئات الثلاث، فقد أوغر أيضًا صدور حاشية المتوكل جميعًا شعراء وغير شعراء، وكان منهم مروان بن أبى الجنوب والبحترى والحسين بن الضحاك وعلى بن يحيى المنجم وأبو العَيْناء وابن حمدون وعَزّون وبَخْتيشُوع الطبيب النصرانى وعبادة المضحك، وساءهم جميعًا أنه كان كثير السعاية بهم إلى المتوكل والذكر لهم بالقبيح عنده، وتصدّى له منهم البحترى ومروان بن أبى الجنوب يهجوانه. وأخذ هؤلاء الندماء يسعون به إلى المتوكل، فتارة يقولون له إنه يجمِّش غلمانك ويلاعبهم، وتارة ثانية يقولون له إنه كثير الإزراء عليك. وساعدهم كثيرون من حاشية المتوكل ممن لم نسمهم، وكان منهم المعتزلى والشيعى والنصرانى ومن يوداو انتقم منه شر انتقام، غير من كان يحسده على منزلته من المتوكل، فما زالوا يقعون فيه حتى ملأوا قلب المتوكل غيظًا وحنقًا عليه، فأمر بحبسه لسنة ٢٣٧ ونراه يرسل إلى أخيه من سجنه بقصيدة يصور فيها تجلده لنكبته وشكواه من رفاقه شكوى أليمة وأن

---

(١) الديوان ص ٣٩ وما بعدها.
(٢) الديوان ص ١٢٥.
(٣) الديوان ص ١٩٢ والفى فى البيت الثانى: الفىء وهو الغنيمة.

أحداً منهم لم يحام عنه فى بلائه ، بل لقد خذلوه جميعاً ، وما يلبث أن يقول [١] :

تضافرتِ الرَّوافِضُ والنَّصَارَى وأهلُ الإعتزال على هجائى

وكأنه كان يعرف فى وضوح خصومه الذين ما زالوا يرجفون به عند المتوكل حتى ألقى به فى غياهب السجون ، إنهم المعتزلة والشيعة والنصارى من حواشى الخليفة ثم منافسوه من الشعراء والندماء وإن لم يتعرض لهم فى هذه القصيدة بالذكر ؛ ويقول ابن المعتز : « إنما عَنَى بالروافض الطاهريين وبأهل الاعتزال بنى دؤاد وبالنصارى بختيشوع بن جبريل »[٢] . ومعروف أن الطاهريين هم أسرة عبد الله بن طاهر ، وكان ابنه محمد حاكماً لبغداد لعهد المتوكل ، وكان ابنه طاهر — كما أسلفنا — والياً لخراسان بعد أبيه عبد الله ، وأسرَّها طاهر لابن الجهم كما سنرى عما قليل . وكان أحمد بن أبى دؤاد رأساً من رءوس الاعتزال ، كان المتوكل يفسح له فى مجالسه ، لأنه كان أحد من أخذوا له البيعة بعد وفاة الواثق ، فحفظ له المتوكل صنيعه ، على أنه لم يلبث أن نكبه هو وابنه أبا الوليد بعد نكبته لابن الجهم . أما بختيشوع فكان لا ينسى له ذكره العسليات فى بيتيه السابقين وكان يكنُّ له عداوة شديدة .

وظل ابن الجهم فى محبسه يتوسل إلى المتوكل أن يعفو عنه ، مرسلا له بقصائد يصور فيها ولاءه له وإخلاصه ووفاءه ، منددا بخصومه بل هاجياً لهم أشد الهجاء وأعنفه ، ورقَّ له المتوكل فردَّ إليه حريته بعد عام ولكن بطانة السوء من حوله دبروا لابن الجهم مكيدة لا تُقْبَلُ فيها التعلاّت والمعاذير ، إذ اتهموه عند المتوكل بأن نفسه سوّلت له أن يهجوه هجاء قبيحاً ، وثار المتوكل ثورة شديدة وأمر لسنة ٢٣٩ بمصادرة أمواله ونفيه إلى خراسان وكتب إلى أميرها طاهر بن عبد الله أن يُصْلَبَ يوماً إلى الليل ، فلما وصل إلى ضاحية من ضواحى نيسابور تسمى الشَّاذياخ حبسه طاهر بها ، ثم أُخْرِج من محبسه وصُلب يوماً إلى الليل مجرَّداً ثم أنْزل[٣] ، وكأن طاهراً رأى فى ذلك فرصة

---

(١) الديوان ص ٨٤ .

(٢) طبقات الشعراء لابن المعتز ص ٣٢٠ .

(٣) أغانى ١٠ /٢٠٨ .

أن يقتصَّ من ابن الجهم على هذا النحو البشع ، لوصفه السالف له هو وبيته فى أشعاره بأنهم روافض أو شيعة غالية ، وكأنما يريد أن يسجل عليهم الخيانة للمتوكل ودولته . وظل فى سجن طاهر بالشاذياخ إلى أن كتب إليه المتوكل بإطلاقه فأطلقه ، ومَثَل ابن الجهم بين يديه ، يقول :

أطاهرُ إنى عن خراسانَ راحِلُ ومسْتخْبَرٌ عنها فما أنا قائلُ

فقال له طاهر : لا تقل إلا خيراً فإنى لا أفعل بك إلا ما تحبّ ، ووصله وحمله وكساه [١] ، وأخذ يبتغى إلى مودته كل الوسائل . ويبقى ابن الجهم فى جواره مدة يَتسمَّرُ فيها عنده ويلزمه فى غدوه ورواحه إلى الصيد [٢] . وكان طبيعيًّا أن تترك هذه المحنة التى طالت سنواتها والتى شقى بها فى بغداد وخراسان شقاء شديداً ظلاًّ كئيبًا على نفسه حتى لنراه عقب ردِّ حريته إليه يطيل المكث فى القبور ، ويسأله رجل ما يجلسك بين المقابر ، فيجيبه [٣] :

يشتاق كلٌّ غريبٍ عند غربتهِ ويذكر الأَهلَ والجيران والوطنا

وليس لى وطنٌ أَمسيت أَذكره إلا المقابر إذ صارتْ لهم وطنا

وعاد ابن الجهم إلى العراق ، ولكنه لم يولِّ وجهه نحو سامرَّاء ؛ فقد ازورَّ عنه المتوكل وأُغلقت أبواب قصوره من دونه ، إنما ولَّى وجهه نحو بغداد ، ونراه حينئذ يأسى لانصراف الناس عنه ، فقد تغيَّر عليه الخليفة فتغير عليه الناس جميعًا ، ولم يعد يجد من بينهم الصديق الوفىّ ولا الأخ المخلص ، وحزن لذلك حزنًا شديداً ، وأداه حزنه إلى أن يُغْرق أساه فى كئوس اللهو علَّها تنسيه كارثته ، ولزم جماعة ماجنة من فتيان بغداد كانوا يختلفون إلى منزل مقيِّن (نخَّاس) بالكرخ يسمى المفضَّل ، كان منزله مكتظًّا بالجوارى العابثات اللائى يتفنَّنَّ فى جذب الشعراء والشباب إليهن ، ومرت بنا فى الفصل الثانى أبيات لابن الجهم من قصيدة يصف فيها هؤلاء الجوارى وكيف كن يَعْبَثْن بقلوب الفتيان ويَسْعَرْن أفئدتهم ناراً [٤] . ويُنْعَى إليه المتوكل لسنة ٢٤٧ للهجرة فيرثيه رثاء حارًّا . وماتوافى سنة ٢٤٩ حتى يتناقل العالم

---

(١) أغانى ١٠/٢٠٩ وما بعدها.
(٢) أغانى ١٠/٢٢٧.
(٣) أغانى ١٠/٢٢٤.
(٤) الديوان ص ٥٢ .

العربى المأساة التى سبق أن أشرنا إليها فى الفصل الأول ، وهى مقتل البطلين عمر بن عبيد الله الأقطع وعلى بن يحيى الأرمنى فى حروب الروم ، ويتصايح المتطوعون لتلك الحروب فى كل مكان ، ونجد ابن الجهم كأنما يثوب إلى نفسه أخيراً ، فيعتزم الجهاد فى سبيل الله مع المجاهدين ، ويخرج فى قافلة إلى حلب لغزو الروم ، ويحاول أن يتجه من حلب إلى بعض الثغور[١] ، ويعترضه أعراب من بنى كلب ، ويقاتلونه ، وهو يصيح فيهم بأشعار حماسية ملتهبة ، وتصيبه طعنة قاتلة ، فيقتل شهيداً دون غايته[٢] .

وأشعار ابن الجهم موزعة بين المديح والاستعطاف والرثاء والهجاء والغزل والفخر والوصف والحكمة وجُلُّ مدائحه فى المتوكل ، فقد كاد لا يترك فيه فضلا لغيره ، ومرَّ بنا آنفًا أنه ظل منذ توليه الخلافة سنة ٢٣٢ للهجرة حتى سنة سجنه وسخطه عليه يسجل كل أعماله ، بل لقد تحول داعية له ، يحامى عنه ويدافع ، بل يبرر ويزين ما يصدر عنه من فعل ، وظل ينوه بموقفه من المعتزلة وفتنة خلق القرآن : بمثل قوله[٣] .

بهِ سَلم الإسلامُ من كل ملحدٍ وحَلَّ بأهل الزَّيْغِ قاصمةُ الظَّهْرِ

وبالمثل كان يندد بالشيعة والعلويين ، وكان ما يزال يرفع من المتوكل والعباسيين ، حتى ليجعلهم فوق كل الناس علويين وغير علويين ، وحتى ليقول[٤] :

لنا فى بنى العباس أكرمُ أسوةٍ فهم خيرُ خلق اللهُ طُرًّا وأَفْضَلُ

ويقول للمتوكل[٥] :

ولن يُقْبَل الإيمانُ إلا بحبِّكم وهل يقبل الله الصلاةَ بلا طُهْرِ

وكان لا ينى يمدح المتوكل بحب الخَـيْر والرفق بالرعية والصفح عن الزلات ونشر الأمن الذى يحرر الناس من الخوف ونشر العدل الذى لا تصلح الحياة بدونه ، يقول[٦] :

---

(١) تاريخ بغداد ١١ / ٣٦٩.
(٢) الأغانى ١٠//٢٣٣ وما بعدها .
(٣) الديوان ص ٢٢٢ .
(٤) الديوان ص ٧٠.
(٥) الديوان ص ١٤٨.
(٦) الديوان ص ٣٥ .

ملكٌ باسطُ اليَدَيْن إلى الخَيْـ ـرِ صفوحٌ عن الذنوب غفورُ
أمَّن الناس واستفاض به العدْ لُ فلا خائفٌ ولا مقهورُ

وله فى المتوكل وراء مدائحه تهنئة بعيد المهرجان ، ونراه يسوق فى فاتحتها دعوة للصبوح بالخمر من أيدى الخُرَّد الغيد ، ويُشيد بمجالسها وما فيها من غناء تهفو إليه النفوس ، ثم يأخذ فى مديح المتوكل وأن خلافته تفتح للناس أبواب الرحمة على مصاريعها وما تزال تمسهم بأجنحة من الرفق والعطف ، ويعلن فى صراحة صريحة أنه خراسانى من شيعة بنى العباس أصحاب الرايات السود شعارهم أو كما يسميها الخرق السود ، يقول[1] :

نحن أبناءُ هذه الخرقِ السُّو دِ وأهل التشيُّع المحمودِ

وأروع من هذه التهنئة تهنئة المتوكل بقضاء قائده بُغا قضاء مبرمًا على إسحق ابن إسماعيل الثائر بأرمينية وهى أرجوزة أنشدها ارتجالا ، وفيها يصور بأس الجيش العباسى فى تلك الحرب ، وكيف كان يهدم الحصون هناك بمجانيق ترسل عليهم صواعق من حجارة السجيل ، يشير بذلك إلى سورة الفيل ، وقد تخلل الاقتباس منها أبياته[2] ، وهى تدل على طواعية الشعر له وأنه كان يصدر فيه عن نَبْع غزير .

ويدخل ابن الجهم السجن ، ويتحول من مديح المتوكل إلى استعطافه ، ونراه فى ميمية قدَّمها إليه يذكر سِنَّه التى أشرفت على الخمسين ، وكيف أن الناس أخذوا ينكرونه لإنكار الخليفة له ، ويظل يأسى لقلة الصديق حتى يقول للمتوكل مستعطفًا[3] :

أما وأميرِ المؤمنين لقد رمى الـ ـعدوَّ فلا نِكْساً ولا متهضِّما
ولا ناسياً ما كان من حسن رأيه لخُطَّة خَسْفٍ سامنيها محتِّما

فخطة الخسف والظلم والهوان ستنقشع عنه ، ولكنها لم تنقشع ، فعاد إلى

(١) الديوان ص ٣٥ .
(٢) الديوان ص ١٧٦ .
(٣) الديوان ص٢١ .

استعطافه فى لامية له استهلّها بالحديث عن الصبر الجميل ، ويسترسل فى مديحه ، ويقول إنه خير خلق الله وأعلمهم وأشدهم توخيًا للإنصاف ، وكأنه يشير إلى ما يأمل منه من العفو والصفح والغفران حين يقول[1] :

يعاقب تأديباً ويعفو تطوُّلا ويَجْزِى على الحُسْنى ويعطى ويُجْزِلُ
ولا يُتْبِع المعروف مَنًّا ولا أذًى ولا البُخْلُ من عاداته حين يُسْأَلُ
رعاك الذى استرعاك أمرَ عبادهِ وكافاك عنا المنعم المتفضِّلُ

وينكل به طاهر بن عبد الله بن طاهر ، كما أسلفنا ، وكان يمدح أباه وبيته ، غير أنه زلَّ زلَّته التى تحدثنا عنها حين أحسَّ أن الطاهريين لا يتوسطون له عند المتوكل ولا يهمهم أمره ، فسماهم رافضة ، وكأنما أراد من المتوكل أن يَطير بهم طيرةً بطيئًا سقوطها ، وظل طاهر يسرّها له ، حتى تمكن منه ، ويرسل له ابن الجهم من سجنه فى الشاذياخ شعراً يستعطفه به من مثل قوله[2] :

إن كان لى ذنبٌ فلى حُرْمَةٌ والحقّ لا يدفعه الباطـلُ
وحُرْمَتى أعظمُ من زلَّتى لو نالنى من عدلكم نائل

ولكن الزلة فى رأى طاهر كانت أكبر من الحرْمة ، فلم يأبه باستعطافه ، حتى أمره المتوكل برد حريته إليه . حينئذ خشى معرَّة لسانه ، فقرَّبه منه وجعله من ندمائه وجلسائه .

ولابن الجهم مراث قليلة فى مقدمتها مرثيته لعبد الله بن طاهر ، يعزى بها طاهراً ابنه ، مصوراً عظم الفادحة فيه ، حتى ليظن كأن ركنًا من أركان الإسلام انقضّ انقضاضًا ، فى يوم عبوس من أخنى الأيام وأشدها بلاء على الأنام ، على نحو ما يقول فى مطلعها[3] :

أى ركنٍ وَهَى من الإسلامِ أى يومٍ أَخْنَى على الأَيامِ

ومضى يعزى آل الفقيد مصوراً عظم الكارثة فيه ، ثم انتقل إلى مديح طاهر

(١) الديوان ص ١٦٥ .
(٢) الديوان ص ١٦٩ والأغانى ١٠/ ٢١٨.
(٣) الديوان ص ١٨٢.

ابنه وأنه نعم الخلف لسلفه . وأهم من هذه المرثية مرثيته لصديقه الروحى أبى تمام ، وهى أبيات أربعة صور فيها شاعريته وكيف عدتْ عليها الأيام ، حتى إن الشعر ليبكيه بكاء مرًّا ، فقد هلك مثقفه ومروّض قوافيه وجفّ غدير روضته ، وجفت بدائع فطنته ، يقول[١] :

غاضَتْ بدائعُ فطنةِ الأَوهامِ … وعــدتْ عليها نكبةُ الأَيَّامِ

وغدا القريضُ ضئيلَ شخصٍ باكياً … يشكو رزيَّته إلى الأَقلامِ

وتـأَوَّهت غُرَرُ القوافى بعده … ورمى الزمانُ صحيحها بسقامِ

أَودى مثقِّفها ورائضُ صعبها … وغديرُ روضتها أَبو تمام

ومرّ بنا أنه رثى المتوكل رثاء حارًّا حين قتله بعض حرسه وحواشيه ، وهو يستهل رثاءه له بوصف سحابة أطلَّت العراق وملأته أمطاراً وخصبًا ، غير أن عاصفة هوجاء نَحتَّتها عنه ، وكأنما يرمز بها إلى المتوكل ، ثم أخذ يتفجع عليه تفجعًا مريراً ، مزريًا على جنوده أن لم ينصروه . منددا بمن قتلوه تنديداً شديداً[٢] .

والهجاء عنده ليس كثيراً ، وهو يَخِزُ فيه وخز الإبر ، وأحيانًا يطعن طعنات دامية ، مما جعل ابن المعتز يقول : إنه كان هَجَّاء يضع لسانه حيث يشاء ، ويقول المسعودى : « كان فى لسانه فضل قَلَّ مَنْ سلم معه منه » ، ولعله يقصد تعرضه للشيعة والعلويين والمعتزلة ، وكان يشتد هجاؤه حين يحس بأنه أوذى أو وقعت عليه إهانة ، وممن تعرّض لهم بالهجاء كثيراً أحمد بن أبى دؤاد شيخ المعتزلة ، لأنه سأله الشفاعة حين أمر المتوكل بحبسه فقعد عنه ولم يهتم به ، حتى إذا نكبه المتوكل شمت به هو وابنه أبى الوليد ، وسلّ عليهما لسانه بمثل قوله[٣] :

يا أَحمدُ بنَ أَبى دُؤادٍ دعوةً … بعثتْ إليك جنادلا وحديدا

ما هذه البِدَعُ التى سميتها … بالجهل منك العدلَ والتوحيدا

أَفسدت أَمرَ الدين حين وليتَه … ورميته بأَبى الوليد وليدا

---

(١) الديوان ص ١٨١ .

(٢) الديوان ص ٥٦ .

(٣) الديوان ص ١٢٥ .

وكان أبو الوليد يتولى المظالم بسامرَّاء وعزله عنها المتوكل حين صادر أمواله وأموال أبيه لسنة ٢٣٧ وابن الجهم يشير بالعدل والتوحيد إلى مبدأين أساسيين فى الاعتزال، إذ كان المعتزلة يوجبون العدل على الله مما أداهم إلى القول بفكرة خلق الناس لأفعالهم وحرية إرادتهم حرية تامة دون جبر أو إلزام ، حتى يثابوا ويعاقبوا على أعمالهم وما يأتون من الخير والشر . وأما التوحيد فأرادوا به تنزيه الله عن مشابهة المخلوقين ، بحيث لا يحصره مكان ولا زمان . وكان مروان بن أبى الجنوب كثير التعرض له يذمه ويهجوه ، ويقال إنه هجاه يوماً فى مجلس المتوكل ، فأطرق ثم رماه بهذين البيتين المُصْمِيَيْن (١) :

بلاءٌ ليس يشبهه بلاءٌ ... عداوةُ غير ذى حسبٍ ودينِ

يُبيحك منه عِرْضاً لم يَصُنْهُ ... ويَرْتَعُ منك فى عِرْضٍ مصونِ

وقد جرَّده من الحسب والدين والعرض والشرف .

ولابن الجهم غزل كثير ، وهو تارة يضعه فى مقدمات قصائده ، مذيبًا فيه لواعج حبه ، وتارة يفرده بمقطوعات تصور ما يثير الحب فى فؤاده من العواطف والمشاعر ، ومن مقدماته المشهورة التى طارت على كل لسان قوله فى فاتحة إحدى مدائحه للمتوكل (٢) :

عيونُ المَهَا بين الرُّصافة والجِسْرِ ... جَلَبْنَ الهَوَى من حيث أدْرِى ولا أدْرِى

أَعَدْنَ لىَ الشَّوْقَ القديم ولم أكن ... سلوتُ ولكنْ زِدْنَ جَمْرًا إلى جَمْرِ

وهو تصوير بديع لما ترسل العيون من سهام الحب التى تفد من كل مكان مكشوف وخبىء من حيث يدرى ابن الجهم ومن حيث لايدرى، وقد أعـَدْنَ له جذوة الحب القديم التى لا سبيل إلى إطفائها وأوقدن بجانبها جذوات كثيرة حديثة ، وقلبه يلتاع لوعة شديدة . ومضى يتحدث عن صواحب تلك العيون وكيف أنهن يُضِئْنَ من بعيد كالأهلة تتزود منها الأبصار ، ولامتاع سوى متاع النظر والخيال ،

---

(١) الديوان ص ١٨٧ .

(٢) الديوان ص ٢٢٠ .

وقد التهبت منه جوانح الفؤاد ، ويشكو المشيب ويذكر اقتطافه زهرات الحب ذات ليلة ، ثم يعود إلى الشكوى من الهجر والفراق ، ويجرى حواراً طريفاً عن حبه بين فتاتين تتبادلان الرأى فى وصله وصَدّه ، ومن طريف ما له فى الغزل قوله[1] :

سَقَى اللهُ ليلا ضَمَّنَا بعد فُرْقةٍ ... وأَدنى فوادًا من فؤادٍ معذَّبِ

فِبتَنْا جميعاً لو تُرَاقُ زُجاجةٌ ... من الرَّاح فيما بيننا لم تَسَرَّبِ

وكأنهما أصبحا روحين فى بدن .

والفخر كثير فى أشعار ابن الجهم ، وهو يردد الفخر بقرشيته وبفتوته التى أغرته بأن يكون صاحب لهو ومجون على الأقل فى فترات من حياته ، وصوَّر حين حُبس وصُلب عريانًا صلابة نفس غير مألوفة ، إذ ظلت نفسه قوية وظلت لا تنكسر أبداً ، ويستشعر هذا المعنى فى عمق حين يفتتح إحدى قصائده التى استعطف بها المتوكل بقوله[2] :

هى النفس ما حمَّلتها تتحمَّل ... وللدهر أيامٌ تجور وتعدلُ

ولا عار إن زالتْ عن الحرِّ نعمةٌ ... ولكنَّ عارًا أن يزول التجمُّلُ

وكان لا يزال يشعر بقرشيته وأنه من أرفع الأسر العربية مكانة وأعلاها منزلة ، وكاد له خصومه عند المتوكل واستتبع كيدهم السجن والقيود والأغلال والظلم والعسف ، ولكنه احتمل وقاوم ، حتى ليقول لبعض صواحبه[3] :

فلا تجزعى إمّا رأيتِ قيودَه ... فإن خلاخيلَ الرجالِ قيودُها

إنها ليست قيوداً وسلاسل بل هى حلِىّ الرجولة والفتوة ، وهو خليق أن يتحلَّى بها مهما عرضته لشر أو ضيق أو ضر ، ويحاول مراراً وتكراراً أن يظهر تجلده واحتماله لأثقال السجن وقيوده ، فنفسه لا تضعف ولا تهون ، بل لعل نيران هذه المحنة قد زادتها صلابة فوق صلابة ، إنها من جوهر كريم لا تذيبه المحن والخطوب

(١) الديوان ص ٩٥ .

(٢) الديوان ص ١٦٢ وطبقات الشعراء لابن المعتز ص ٣٢١ .

(٣) الديوان ص ٥١ .

ولا كل ما يسام به من ضروب الخسف والعسف ، ويبلغ ابن الجهم من ذلك حدًّا يفوق كل وصف حين يقول لصاحبته[1] :

قالتْ حُبِسْتَ فقلتُ ليس بضائرى حَبْسى وأىُّ مهنَّدٍ لا يُغْمَدُ[2]
أو ما رأيتِ اللَّيْثَ يَأْلَفُ غِيلَهُ كِبْرًا وأوباشُ السِّباع تردَّدُ[3]
والشمسُ لولا أنها محجوبَةٌ عن ناظريك لما أضاءَ الفرْقَدُ
والبَدْرُ يُدْرِكه السِّرارُ فتَنْجَلى أيَّامُهُ وكأنَّهُ متجــدِّدُ[4]
والغَيْثُ يَحْصُرُهُ الغمامُ فما يُرَى إلا وريِّقُهُ يَراحُ ويَرْعُدُ[5]
والنارُ فى أحجارها مخبوءَةٌ لا تُصْطَلَى إن لم تُثِرْها الأزْنُدُ
والزَّاعِبِيَّةُ لا يقيم كعوبَهــا إلا الثِّقافُ وجذْوَةٌ تتوقَّدُ[6]

وهو يمثل نفسه لصاحبته سيفًا مسلولا وُضع فى غمده ، بل كأنه أسد فى أجَمته وشمسٌ فى حجابها وبدرٌ فى سِراره ، بل لكأنه غيث مضمر فى غمامه ونار مكنونة فى زندها ورمح يَصْقله مثقفه . وهى صور تعبر عن نفس صلبة قوية وأنها ظلت على الرغم من محنة السجن سالمة لم يصبها وَهَنٌ ولا خَوَرٌ . ويُنْفَى إلى خراسان ويُسْجَن ويصلبه أميرها يومًا عاريًا وتظل له نفسه الصلبة ويزأر منشدًا[7] :

ما عابه أن بُزَّ عنه لِباسُهُ فالسيفُ أهولُ ما يُرَى مسلولا

فهو مثل السيف أهول وأهيب ما يُرَى حين يُجَرَّد من غمده ويصوَّب إلى الرقاب .

ولابن الجهم أشعار كثيرة فى وصف الطبيعة الصحراوية وأطلالها ونوقها وفى وصف الطبيعة الحضرية ورياضها ورياحينها ، ومرت بنا فى الفصل الماضى قطعة له بديعة

---

(١) الديوان ص ٤١ والأغانى ٢١٣/١٠ .
(٢) المهند : السيف .
(٣) الغيل : أجمة الأسد .
(٤) السرار : آخر أيام الشهر .
(٥) ريق الغمام : أوله . يراح : تكثر معه الرياح والعواصف الممطرة .
(٦) الزاعبية : ضرب من الرماح المصمية .
(٧) الديوان ص ١٧٢ .

فى وصف الورد وتهاديه ووصف شذاه العطر الذى يشفى القلوب الكليمة ، وله أشعار مختلفة فى وصف اللهو والملاهى ، ومن قوله فى وصف مجلس أنس[(١)] :

الوَرْدُ يضحكُ والأَوتارُ تَصْطَخِبُ والنَّاىُ يندبُ أَشْجَاناً ويَنْتَحِبُ
والرَّاحُ تُعْرَضُ فى نَوْر الربيع كما تُجْلَى العروسُ عليها الدرُّ والذهب

وقد مضى يصور نشوته بالراح وبالورد وبالغناء . وأنشدنا فى الفصل الماضى قطعة من وصفه لقصر من قصور المتوكل ونافورته العجيبة ، وكذلك وصفه للُعْبة الشطرنج وله قصيدة جيدة فى وصف سفينة[(٢)] .

وجعلته نكبته يكثر من التأمل فى الحياة وفى سلوك الناس وأخلاقهم وأصنافهم ، مما جعل تجاربه تتسع وجعله ينثر منها كثيراً فى أشعاره من مثل قوله[(٣)] :

ومَنْ طلب المعروفَ من غير أَهلهِ أطال عناءً أَو أَطال تندُّما
ومَنْ سامح الأَيام يَرْضَ حياته ومَنْ مَنَّ بالمعروف عاد مذمَّما

وواضح مما أسلفنا من أشعار ابن الجهم أنه لم يكن ممن يتكلفون فى أشعارهم ولا ممن يكثرون من ترصيعها بأصناف البديع وأصدافه ، ومما لا ريب فيه أن ملكاته كانت خصبة، وكان كثيرًا ما يلم بمعان دقيقة وصور طريفة مع سهولة الألفاظ ومع شفافيتها وصفائها ومع نصاعتها ورصانتها ومع جمال الجرس والأداء .

٢

البحترى[(٤)]

هو أبو عبادة الوليد بن عُبَيْد ؛ طائىُّ الأب شَيْبانىُّ الأم غلب عليه لقب البحترى نسبة إلى عشيرته الطائية بُحْتر ، ولد سنة ٢٠٤ للهجرة بِمَنْبج إلى

(١) الديوان ص ١٠٥ .
(٢) الديوان ص ١١٤ .
(٣) الديوان ص ٢٠ .
(٤) انظر فى البحترى وشعره الأغانى (طبعة الساسى) ١٨ /١٦٧، والموشح للمرزبانى والموازنة بين الطائيين للآمدى ، وطبقات الشعراء لابن المعتز ص ٣٩٤ ، ٤٥٨ والشريشى على مقامات الحريرى ١/ ٤٠ وعبث الوليد لأبى العلاء ، وأخبار البحترى للصولى (طبع المجمع العلمى العربى بدمشق) =

الشمال الشرقى من حلب على الطريق المؤدية منها إلى الفرات ، وقيل : بل وُلد بقرية تجاورها تسمَّى « زَرْدفنة » والرأى الأول أصح ، لأن البحترى نفسه يكرّر كثيراً فى شعره « مَنْبِج » مسقط رأسه ، وكانت تنزلها عشائر من طيئ ، وهى كما يقول ياقوت فى معجم البلدان : مدينة كثيرة البساتين عذبة الماء باردة الهواء ، أقطعها الرشيد عبد الملك بن صالح الهاشمى ، وفى ديوان البحترى مدائح كثيرة لابنه محمد ولطائفة من أسرته عاشت فى منبج وحلب .

وليس لدينا أخبار عن هيئته وصورته إلا ما رُوِىَ عنه فيما بعد من أنه كان أسمر طويل اللحية ، وقد نشأ فى أحضان عشيرته يتغذى من فصاحتها ويبدو أنه اختلف مبكراً إلى الكتَّاب ، فحفظ القرآن أو شطراً كبيراً منه ، كما حفظ كثيراً من الأشعار والخطب ، واختلف حين شبَّ إلى حلقات العلماء فى المساجد يأخذ عنهم اللغة والنحو وشيئًا من الفقه والتفسير والحديث وعلم الكلام . واستيقظت فيه موهبة الشعر مبكرة ، وسرعان ما أخذ يكثر من نظمه فى بعض من عرفهم من عامة أهل بلدته أو كما يقول ابن خلكان من أصحاب البصل والباذنجان ، وامتد به طموحه فتجاوز به بلدته إلى بلاد أكبر من حولها ؛ إذ نراه ينزل حلب ، وهناك تعرَّف على علوة بنت زريقة التى شغفته حبًّا ، ويبدو أن زريقة كانت مغنية ، وتعرَّف أيضًا على صديق يسمى الذفافى مدحه ببعض شعره ، وهجاه فيما بعد لاقترانه بعلوة ، على شاكلة قوله[1] :

نُبِّئْتُها زُوِّجَتْ أَخا خَنَثٍ ... أَغَنَّ رَطْبَ الأَطرافِ لَيِّنَها

وظلت دار علوة قائمة بحلب ، حتى عصر ياقوت إذ يقول : « وفى وسط البلد "حلب" دار علوة صاحبة البحترى» . وقد يدل ذلك على يسار الذفافى وأنه شيد لها داراً فخمة . وظلت ذكراها لا تبرح ذاكرة البحترى حتى الأنفاس الأخيرة من

= وتاريخ بغداد ١٣ /٤٤٦ ، ومعجم الأدباء لياقوت ١٩ /٢٤٨ ، وابن خلكان ، ومرآة الجنان لليافعى ٢/٢٠٢ ، وشذرات الذهب لابن العماد ٣/١٨٦ والنجوم الزاهرة ٣/ /٩٩ ، وحياة البحترى وفنه لأحمد أحمد بدوى ، والفن ومذاهبه فى الشعر العربى (الطبعة السابعة — طبع دار المعارف) وديوانه بتحقيق حسن الصيرفى ومقدمته (طبع دار المعارف) .

(١) الديوان ٤ /٢٣٢٥ .

حياته . واتسع برحلاته إلى حمص ، وكأنما كان السَّعد معه على ميعاد ، فإذا هو يسمع بأن أبا تمام بها والشعراء يعرضون عليه أشعارهم ، فعرض عليه شعره ، فأقبل عليه ، وقال له : أنت أشعر من أنشدنى فكيف حالك ، فشكا إليه خـلَّة ، فكتب إلى أهل معرَّة النعمان : « يصل كتابى مع الوليد أبى عبادة الطائى وهو على بذاذته " سوء حاله " شاعر فأكرموه » واستقبلوه استقبالا حسنًا ووظَّفوا له أربعة آلاف درهم[١] . وفى رأينا أنه لم يصله بأهل معرة النعمان فقط ، فقد وصله أيضًا ببعض ممدوحيه إذ نراه يقبل على بعض من خصَّهم بمديحه فيمدحهم ، مثل آل حميد الطوسى فى الموصل ، وخالد بن يزيد الشيبانى والى أرمينية والثغور ، وأبى سعيد محمد بن يوسف الثغرى الطائى الذى ولاه المعتصم حلب وثغور الشام والجزيرة ، وقد لزمه ولزم ابنه يوسف ، ويبدو أنه أول من اتصل بهم من ممدوحى أبى تمام . وتُخرج بعض الروايات ذلك مخرج القصص ، فتذكر أنه دخل عليه وأبو تمام عنده ، فأنشده قصيدته :

أأفاق صَبٌّ من هَوًى فأُفِيقا ... أم خان عهدًا أم أطاع شَفيقا

فردَّها أبو تمام عليه من حفظه كأنها من نظمه ، وعرَّفه أبو تمام نفسه ، ولزمه البحترى[٢] . ونظن أن الرواة زادوا فيها أنه لم يكن يعرف أبا تمام ، فمعرفته به أسبق من ذلك كما أسلفنا ، بل هو الذى حثه على مديح أبى سعيد الثغرى ولقائه له وهو عنده . ولم يكتف أبو تمام بتقديم الشاعر الشاب إلى بعض ممدوحيه ، فقد مضى يتعهد شاعريته ، ويلقنه كيف يجيد الشعر ويحسنه ، حتى خـرَّجه فيه شاعراً ممتازاً راع معاصريه ، ويصرِّح بذلك البحترى معترفًا بجميل أستاذه إذ يقول[٣] :

«كنت فى حداثتى أروم الشعر وكنت أرجع إلى طبع ، ولم أكن أقف على تسهيل مأخذه . . . حتى قصدت أبا تمام ، فانقطعت فيه إليه ، واتكلت فى تعريفه عليه، فكان أول ما قال لى : يا أبا عبادة تخيَّر الأوقات وأنت قليل الهموم صِفْرٌ من الغموم . واعلمْ أن العادة فى الأوقات أن يقصد الإنسان لتأليف شىء أو حفظه فى وقت السحر ، وذلك أن النفس قد أخذتْ حظها من الراحة ، وقسطها من

---

(١) أخبار البحترى ص ٥٦ ، والأغانى ١٨/١٦٩ .

(٢) أخبار البحترى ص٦٣، والأغانى١٨/١٦٩.

(٣) زهر الآداب للحصرى ١ /١٠١ .

النوم ، فإذا أردت النسيب فاجعل اللفظ رقيقًا والمعنى رشيقًا ، وأكثرْ فيه من بيان الصبابة ، وتوجع الكآبة ، وقلق الأشواق ، ولوعة الفراق . وإذا أخذت فى مدح سيد ذى أياد ، فأشهرْ مناقبه ، وأظهرْ مناسبه ، وأبنْ معاطه ، وشرّفْ مقامه وتقاصَ المعانى واحذر المجهول منها ، وإياك أن تَشين شعرك بالألفاظ الزريّة . وكن كأنك خيّاط يقطع الثياب على مقادير الأجسام وإذا عارضك الضجر فأرِح نفسك ، ولا تعمل إلا وأنت فارغ القلب . واجعل شهوتك إلى قول الشعر الذريعةَ إلى حسن نظمه ، فإن الشهوة نعم المعين . وجملة الحال أن تعتبر شعرك بما سلف من شعر الماضين ، فما استحسنه العلماء فاقصده ، وما تركوه فاجتنبْه ترشدْ إن شاء الله تعالى » .

وكأنما وضع أبو تمام نُصْبَ عينى البحترى دستوراً قويماً لإحسانه صناعة الشعر ، بل إن هذا بعض الدستور الذى وضعه ؛ إذ لا بد أنه أوصى البحترى وصايا كثيرة حتى يتقن صناعته . وهو فى هذا الجزء من وصاياه ينصحه أن يتخير أوقات إلهامه ، ثم يصف له الجودة التى يقوم عليها النسيب والمديح جميعًا ، مع العناية بدقائق المعانى وجمال الألفاظ والأساليب ، ونظن ظنًا أنه حين وجد فى تلميذه حسن الاستجابة ، واطمأن إلى أنه شاعر سيكون له شأن ، أخذ يعرّفه لا على أهل معرة النعمان فحسب ، بل أيضًا على ممدوحيه فى حلب والشام والجزيرة والموصل وأرمينية . وكاد محمد بن يوسف الثغرى بطل حروب بابك قديمًا وحروب الروم حديثًا أن يستخلصه لنفسه ، وقد ظل يمدحه ويصف بلاءه فى الثغور حتى توفى سنة ٢٣٦ للهجرة ، وتغنّى طويلا بمدح كاتبه محمد بن عيسى القمى ، ويتحول إلى ابنه يوسف الذى خلفه على إمارته الأخيرة فى أرمينية وأذربيجان ويكثر من مدائحه . ونظن ظنًا أن من أوائل مدائحه لأبى سعيد محمد بن يوسف الثغرى رائيته[١] التى يعزيه فيها عن المعتصم حين توفى سنة ٢٢٧ للهجرة . ويبدو أن أبا تمام دفعه بعد هذا التاريخ لزيارة سامرّاء بعد أن وثق من براعته الشعرية ، إذ نراه ينزل بها ، ونرى أبواب الخليفة الواثق ووزيره ابن الزيات وكاتبه الحسن بن وهب مفتوحة أمامه ، وكأن صداقة أبى تمام للأخيرين

---

(١) الديوان ٢ /٨٨٢ .

هى التى فتحت له سريعًا تلك الأبواب ، وإذا هو يَمْثُلُ بين أيديهم جميعًا مادحًا ممجداً .

ويتولى الخلافة المتوكل سنة ٢٣٢ للهجرة ويعصف بابن الزيات ويظل البحترى بعيداً خوفًا على نفسه ، وخاصة أنه كانت قد جرت على لسانه بعض أبيات يتعصب فيها للمعتزلة وقولهم بأن القرآن مخلوق ضد أهل السنة من مثل قوله فى بعض الخارجين على أبى سعيد الثغرى :

يرمون خالقهم بأقبح فعلهم ويحرِّفون كلامه المخلوقا

وسأله سائل : أكنت معتزليًّا ، فأجابه : «كان هذا دينى فى أيام الواثق ثم نزعت عنه فى أيام المتوكل ، فقال له : يا أبا عبادة ! هذا دين سوء يدور مع الدول ! »[1] . فقد نزع عن نفسه لعهد المتوكل ثوب الاعتزال الذى كان يدين به الواثق ووزيره ابن الزيات ، ولبس ثوب أهل السنة الذى فرضه المتوكل . وهو جانب سيئ فى البحترى إذ كان متقلبًا مسرفًا فى التقلب ، يلتمس المنفعة لنفسه ما وجد إلى ذلك سبيلا . على كل حال أحسّ بادئ الأمر أن أبواب المتوكل مُوصَدة من دونه ، ولكن ذلك لم يدفعه عن طريقه ، فقد أخذ يمدح بعض خاصّته وخاصّةِ وزيرهِ الفتحِ بن خاقان وهو يحيى بن على المنجم ، الذى اشتهر بوصله الشعراء بهما وأخذه لهم الصلات السنية منهما ، ووعده علىّ أن يصله بالفتح ، ونراه يستنجز وعده فى بعض شعره[2] ، وينجح على فى وصله بالفتح لسنة ٢٣٣ ويمدحه[3] وينال جوائزه ، ولكن عينه لا تزال طامحة إلى مديح المتوكل ، ويلوّح للفتح بطموحه ويعده الفتح ويتعجله أن يفى بوعده فى غير قصيدة من مثل قوله[4] :

وعدتَ فأوشكْ نُجْحَ وعدك إنه من المجد إعجالُ المواعيد بالنُّجْحِ
وأنت ترى نُصْحَ الإمام فريضةً وإخبارُه عنى سبيلٌ من النُّصْح

(١) أخبار البحترى للصولى ص ١٢٣ .

(٢) الديوان ٢ /١١٣٢ .

(٣) فى أخبار البحترى للصولى ص ٨٣ أن أول قصيدة مدح بها البحترى الفتح بن خاقان لسنة ٢٣٣ هى :

هب الدار ردت رجع ما أنت قائله
وأبدى الجواب الربع عما تسائله

انظر الديوان ٣/ ١٦١٠ .

(٤) الديوان ١ /٤٤٦ .

ويفتح له المتوكل بيد الفتح أبوابه ، ويستمع إليه وتتواتر صلاته وإقطاعاته عليه ، وكذلك إقطاعات الفتح وصلاته، فقد كان ديوان الخراج إليه . ونراه يمدح الوزير الثانى للمتوكل عبيد الله بن يحيي بن خاقان ، ولم يكد يترك أحداً من معاونى الفتح ومساعديه إلا مدحه ، فهو يمدح أبا نوح عيسى بن إبراهيم أحد كتّابه فى دواوين الخراج وكان نصرانيًّا ، وكأن نصرانيته لم تمنعه من مديحه ، وسنراه فيما بعد يكثر من مديح عبدون بن مخلد الراهب أخى صاعد وزير المعتمد . ويمدح أيضاً من كتاب الخراج والدواوين أعوان الفتح من أمثال أحمد بن المدبر وأخيه إبراهيم ، ويظل يمدحهما طويلا ، حتى بعد خروج أحمد للعمل فى دواوين مصر والشام . وكان قد ترك زوجته فى منبج وأنجب منها ابنه أبا الغوث فكان كثير الرحلة إلى مسقط رأسه ، ويبدو أنه كان يقضى فى وطنه الصيف كله فراراً من حر العراق ولَفْحه ، يقول[1] :

نَصَبٌ إلى طيبِ العراق وحُسْنِها ... ويمنع منها قَيْظُها وحَرُورها

هى الأرضُ نهواها إذا طاب فَصْلُها ... ونهرُب منها حين يَحْمَى هَجيرُها

وكان لا يترك وجيها ولا وليًّا ولا صاحب خراج فى طريقه من سامرّاء إلى منبج إلا ويقدّم إليه مدائحه ويأخذ جوائزه، من مثل بنى حميد الطوسى الطائى وأبى سعيد الثغرى وابنه يوسف صاحبى أرمينية وأذربيجان وآل عبد الملك بن صالح الهاشمى ، بل يبدو أنه كان يمد رحلاته فى الشام فيمدح بعض العمال والولاة مثل مالك بن طوق صاحب دمشق والأردن وأبى مسلم الكجّى ، كما كان يمد رحلاته إلى بغداد وما وراءها من مدن العراق ، ونراه يكثر من مديح القائمين عليها من آل طاهر ، فهو يمدح منهم إسحق المصعبى ومحمد بن عبد الله بن طاهر الذى حكم بغداد منذ سنة ٢٣٧ ، وكذلك أخواه سليمان وعبيد الله ، وله فى الأسرة شعر كثير . وممن أكثر من مديحهم لعهد المتوكل قائداه عبد الله بن دينار وابنه أحمد، وإبراهيم ابن الحسن بن سهل وله فيه نحو عشر قصائد ، وله فى الفتح بن خاقان تسع

(١) الديوان ٢ /٩٤٣ .

وعشرون قصيدة، ومن عمال المتوكل الذين مدحهم دُلَيل بن يعقوب النصرانى[١] .
وتحوَّل إزاء أعمال المتوكل وكل ما حدث فى عصره إلى ما يشبه آ لة راصدة ، فهو يسجل لسنة ٢٣٥ عقده ولاية العهد لأبنائه الثلاثة : المنتصر والمعتز والمؤيد قائلا[٢] :

قُدَّامهم نورُ النبيِّ وخَلْفهم هَدْىُ الإمام القائم المحمود

ولا يترك نصراً على ثائر إلا ويدوّنه ، وكان بطارقة أرمينية خلعوا الطاعة وفتكوا لسنة ٢٣٧ بيوسف بن محمد بن يوسف الثغرى والى إقليمهم ، فوجه إليهم المتوكل جيشاً سحقهم سحقاً وألقوا عن يد وهم صاغرون ، ونوّه البحترى بهذا الانتصار طويلا . وكانت قد حدثت فى أواخر العقد الرابع من القرن أو أوائل الخامس حروب دامية بين قبائل ربيعة : تغلب وشيبان وغيرهما ، واستطاع الفتح بن خاقان أن يَحْقِنَ الدماء بينها وأن يردَّها إلى الطاعة ، ومن الغريب أن لا تُعْنَى كتب التاريخ بهذا الحدث العناية المنتظرة ، بينما نرى البحترى يسجلها ، وقد بلغ به الأسى أقصاه إذ يرى هذه القبائل المنحدرة من أب وأصل واحد تفقد ما ينبغى أن يكون بينها من البِرِّ والعطف ، فإذا هى تفزع إلى السيف وإلى القوة والقهر وسفك الدماء ، يقول[٣] :

وفُرْسانُ هيجاءٍ تجيشُ صدورُها بأَحْقَادها حتى تَضيق دُرُوعُها
تقتِّل من وِتْرٍ أعزَّ نفوسها عليها بأَيد ما تكادُ تطيعُها
إذا احتربتْ يوماً ففاضَتْ دماؤها تذكَّرتِ القُرْبَى ففاضَتْ دموعُها
شواجرُ أرماحٍ تقطِّع بَيْنَهم شواجرَ أَرْحامٍ مَلُومٍ قَطوعُها[٤]

فبعضهم يسفك دم بعض ويده لا تطاوعه ، والدماء تفيض والدموع تسيل والرماح تقطع علائق الأرحام . وأعاد المتوكل ووزيره الفتح الأمر إلى نصابه من الأمن والسلم ، فأُغمدت السيوف وقرَّت القلوب الخافقة ونامت العيون المسهَّدة . ويثب أهل حمص بعاملهم[٥] لسنة ٢٤٠ ويعودون إلى الوثوب والثورة فى سنة ٢٤١ وينكل

(١) الديوان ٣ /١٦٨٩ .
(٢) الديوان ٢ /٧٠١ .
(٣) الديون ٢ /١٢٩٩ .
(٤) الشواجر : المتشابكة المتداخلة .
(٥) تاريخ الطبرى ١٩٧/٩ وما بعدها .

بهم المتوكل وسرعان ما يعفو عنهم ، ويسجل البحترى الحادث منوّهًا بعفوه قائلا[١] :

تداركتَ بالإحسان حمصَ وأهلَها وقد قارفوا فعل الإساءة والخُرْقِ[٢]

وترسل تذورة إمبراطورة القسطنطينية إلى المتوكل لسنة ٢٤١ وفداً يطلب الفداء بين أسرى الروم والعرب ، ويستقبل الخليفة الوفد فى حفل كبير يصفه البحترى ، ويطيل فى وصف السماط الذى مُدّ فيه وما علا وجوههم وسيماهم من ذهول وحيرة[٣]. وكان المتوكل قد فكّر لسنة ٢٤٣ فى أن يجعل دمشق حاضرة الخلافة حتى يبتعد عن سامراء ومَنْ بها من قواد الأتراك الطغاة ، ورحل إليها فى سنة ٢٤٣ وتنبّهوا لمقصده فعملوا على العودة به إلى سامراء واضطرّ أن ينزل على إرادتهم ، ويذكر البحترى خروجه إلى دمشق وقدومه منها فى غير قصيدة[٤]. ويأخذ منذ سنة ٢٤٥ فى وصف قصوره التى سميت باسم المتوكلية والتى بلغت — كما مر بنا فى الفصل الثانى — نحو العشرين ، وكان من أهمها البرج الذى عرضنا له هناك ، ويتوقف البحترى مراراً فى مدائحه ليصف تلك القصور من مثل القصر المعروف بالجعفرى والصبيح والمليح وشبداز[٥] ، وما يزال ينوه بها مباهيًا الأمم والشعوب . وفى قصر الجعفرى لقى المتوكل ووزيره الفتح مصرعهما لسنة ٢٤٧ تحت بصر البحترى وسمعه ، وهاله ما رأى ، مما جعله يرثى المتوكل برائيته زاعمًا أنه دافع عنه بيديه ، ويسجل على ابنه المنتصر — كما مرّ بنا فى الفصل الماضى — اشتراكه فى المؤامرة الباغية والفتك به ، قائلا[٦] :

أكان ولىُّ العهد أضمر غَدْرَةً فمن عجبٍ أنْ وُلِّىَ العهد غادرُهْ

وحرىٌّ بنا أن نذكر أن البحترى لم يتورط مثل ابن الجهم فى هجاء المعتزلة إرضاء للمتوكل ولا فى هجاء العلويين ولا فى هجاء النصارى . وأظلمت الدنيا فى عينيه بعد مقتل المتوكل وصاحبه الفتح ، فخرج إلى المدائن يتعزى ، وهناك نظم

(١) الديوان ٣/١٥٤٦ .
(٢) قارفوا : ارتكبوا . الخرق : الحمق .
(٣) الديوان ٣/١٦٠٢ .
(٤) الديوان ٢/٧٠٧ ، ٧٠٩ ، ٩٩١ ، ٣/١٥١٤ .
(٥) انظر الديوان ٢/١٠٤١ ، ٣/٢٠٠٤ .
(٦) الديوان ٢/١٠٤٨ .

سينيته مودعـًا فيها حزنه وأساه ، وعاد إلى سامراء وتركها إلى منبج وأهله . ودفعه الطمع إلى أن يعود إلى المنتصر سريعـًا وأن يقف بباب وزيره أحمد بن الخصيب متوسلا إليه بكاتبه الحسن بن مخلد حتى يقرّبه منه ويسترضيه له ، ويجيبه إلى أمنيته ، فيعفو عنه المنتصر ، ويستمع إلى قصيدته فيه ، وكان قد رفع المحنة التى أنزلها أبوه بالعلويين ودفع الأذى عنهم والتعرض لشيعتهم ، فأشار إلى ذلك البحترى منشداً[١] :

وآلُ أبى طالبٍ بعد مـا أُذيع بسِرْبهم فابْذَعَـرْ
ونالتْ أدانيَهم جفـوةٌ تكاد السماءُ لها تَنْفَطِـرْ
وصَلْتَ شوابكَ أرحامهم وقد أوشك الحَبْلُ أن يَنْبَتِر

ويتوفّى المنتصر بعد ستة أشهر من خلافته ويخلفه المستعين فيستبقى ابن الخصيب فى الوزارة ، وسرعان ما يغضب عليه قواد الترك فتُستَصْفَى أمواله ويُنْفَى إلى جزيرة إقريطش (كريت) وحينئذ نجد البحترى يتنكّر له ، ويبالغ فى تنكره إرضاء للمستعين وقواده ، فيؤلبهم عليه ، ويحثهم — كما مرّ بنا فى الفصل الماضى — على قتله قائلا[٢] :

لابن الخصيب الوَيْلُ كيف انبَرى بإفْكِهِ المُرْدِى وإبطـالِهِ

وهو جانب فى البحترى لاحظه بعض معاصريه — كما مرّ فى غير هذا الموضع — إذ تحدثوا عن كفره للإحسان وعدم وفائه ، حين يقلب الدهر مجنَّه لبعض ممدوحيه أو حين يسبق إليهم الموت ، فإنه بدلا من أن يثير ذلك فى نفسه ضروبـًا من الشفقة والرحمة ، يسارع إلى الوقوف مع خصومهم الجدد أصحاب الحكم والسلطان ابتغاء ما فى أيديهم من المال والنفع ، ويضرب القدماء لذلك مثلا موقفه من الخليفة المستعين إذ كان يمدحه ، وينال جوائزه حتى إذا خلعه قواد الترك وتولى المعتز الذى يرتجى نفعه أسرع إليه بقصيدة يمدحه فيها ويهجو المستعين هجاء مقذعـًا بمثل قوله[٣] :

---

(١) الديوان ٢ /٨٥٠ . ابذعر : تفرق .
(٢) الديوان ٣ /١٦٣٧ .
(٣) الديوان ١ /٢١٥ .

بكى المِنْبَرُ الشرقُّ إذ خارَ فوقــه على الناس ثَوْرٌ قد تدلّتْ غَباغِبُهْ[١]
فكيف رأيت الحقَّ قَرَّ قراره وكيف رأيت الظلم آلتْ عواقبه

وكان المعتز من أقرب الخلفاء إلى نفسه ، فأكثر من مديحه ووصف قصوره وتسجيل الأحداث لزمنه ، ومدح معه ابنه عبد الله وتوثقت بينهما الصداقة ، ومما سجله من الأحداث لعهده وعهد المستعين قتل القائد التركى أتامش وكاتبه شجاع[٢] لسنة ٢٤٩ وقتل بُغا الشرابى[٣] قاتل المتوكل لسنة ٢٥٤ ونراه يمدح القائد التركى وصيفاً[٤] الكبير وابنه صالحاً[٥] ويكرر حينئذ تشوقه إلى وطنه ، ويستأذن مراراً فى الإلمام به . ويُكثر من مديح الشاه ابن ميكال قائد المستعين ووزيره أبى صالح محمد بن يزداد وابنه عبيد الله وأخيه القاسم . ويَضْطر قواد الترك المعتزّ إلى خلع نفسه فى سنة ٢٥٥ ويتولى المهتدى بعده الخلافة لنحو عام واحد ، ويغدو إليه ويروح بقصائده مصوراً تقاه وزهده وانصرافه عن الملاهى ومتاع الحياة الزائل ونشره للعدل فى ربوع دولته وإذلال جيوشه للروم ونزولهم على إرادته صاغرين . وسرعان ما ثار عليه الأتراك وخلعوه وولوا بعده المعتمد ، وهو آخر الخلفاء الذين مدحهم البحترى ، وكان الخليفة الحقيقى لعهده أخاه الموفق ، وكان حازماً شجاعاً واسع التدبير ، وهو الذى قضى على ثورة الزنج وهزم يعقوب الصفار الثائر بإيران هزيمة ساحقة . ويصور البحترى فى مديحه للمعتمد بأس جيوشه وانتصاراتها الحربية ، ويصف القصر الذى احتفل ببنائه وسماه المعشوق ونوّه به ، وله قصيدة رائعة يهنئ فيها الموفق بقمعه لثورة الزنج ، وفيها يخاطبه بقوله[٦] :

أخذتَ بوِتْرِ الدين مَثْنَى وظُفِّرَتْ يداك فلم يُفْلتْ عدوٌّ تطالِبُه

ولم يترك حينئذ وزيراً ولا كاتباً كبيراً إلا ويمدحه ويأخذ جوائزه ، وكان المعتمد استوزر عبيد الله بن يحيى بن خاقان الذى وزر قديماً لأبيه المتوكل ، فلازمه البحترى ، وفكّر فى أن يرتجع منه الضياع الكثيرة التى كان المتوكل أقطعها إياه ؛ فأكثر الشاعر من التوسل إليه ، حتى يتركها له ، وقصيدته[٧] :

---

(١) خار : صاح . الغباغب : ماتغضن من الجلد فى منبت العثنون أو اللحية حول الذقن .
(٢) الديوان ١ /٥٢٤ .
(٣) الديوان ٣ /٢٠١٩ .
(٤) الديوان ٣ /١٤٠٣ .
(٥) الديوان ٣ / ٢١٧٤ .
(٦) الديوان ١ /٢٢٤ .
(٧) الديوان ١ /٤٩٣ .

أمرتجعٌ منى حباءُ خلائفٍ ... توليتُ تسييرَ المديحِ لهم وحدى

تصور جزعه المفرط ، ويتوفَّى عبيد الله سنة ٢٦٣ ويخلفه الحسن بن مخلد ، فيمدحه بقصائد مختلفة شاكيًا ضارعًا ، فيجعل أمره إلى كاتبه السِّيبى ، ولا يسارع إلى استرضائه ، فيشكوه إلى ابن مخلد بحائيته [1] :

لك الخلائقُ فينا السهلةُ السُّمُحُ ... والنَّيْل يَسْلُسُ للرَّاجى وينْسَرِحُ

ولا يكاد يسمعها الحسن حتى يبلغ بالبحترى ما يريد ، ويزيل المطالبة عنه [1] .
ويترك الحسن الوزارة سريعًا ويتولاها سليمان بن وهب الذى استوزره المهتدى من قبل ، ويقدم إليه البحترى مدائحه ، ويعصف به الموفق فى سنة ٢٦٥ فيحبسه ويصادر أمواله . ويخلفه على الوزارة أحمد بن صالح بن شيرزاد لمدة شهر واحد ، وللبحترى فيه مدائح مختلفة ، ويلى الوزارة بعده أبو الصقر إسماعيل بن بلبل بينما يلى الكتابة للموفق صاعد بن مخلد ، ويُكثر البحترى من مديح ابن بلبل ، ويهجو له فى بعض مديحه ابن شيرزاد الذى طالما مدحه ، ويمدح كاتبه جرادة على حين يذم كاتباً آخر كان نصرانيًّا يسمى إسرائيل ، ويلحّ على ابن بلبل فى قصائد كثيرة أن يأذن له بالرحيل إلى موطنه بمثل قوله [2] :

وأعتقتَ الرِّقاب فمُرْ بِعتقى ... إلى بلدى وأَنت به جديرُ

وأكثر حينئذ من مديح صاعد بن مخلد كاتب الموفق ، وكان من وجوه النصارى ، وحين استكتبه الموفق أعلن إسلامه وله فيه وفى أخيه عبدون الراهب وابنه أبى عيسى العلاء مدائح كثيرة . وكان أبو عيسى مثقفًا ثقافة واسعة بعلم الفلك ، مما جعل البحترى يُكثر له فى إحدى مدائحه من ذكر النجوم [3] . ومن كبار الكتّاب الذين مدحهم حينئذ أبو العباس أحمد بن ثوابة صاحب ديوان الرسائل . وفى أثناء ذلك كان يمدح كثيرين من العمال والولاة وأصحاب الخراج والكتّاب والقواد مثل وصيف الصغير وأذكوتكين والهيثم بن عبد الله التغلبى والى الموصل وأحمد بن محمد بن بسطام والى الشام وسيما الطويل والى حلب والعواصم ورافع بن هرثمة والى الرى

---

(١) الديوان ١/٤٣٨ وأخبار البحترى ص ١١٠ .
(٢) الديوان ٢/٩١٦ .
(٣) الديوان ٢/١٢٦٨ .

وكتّاب الجبل وأنفذ إليهم ذات مرة غلامه نصراً ليطالبهم برسومه[١] . وممن كان يمدحهم كثيراً أبو جعفر أحمد بن محمد الطائى والى الكوفة وآل نوبخت . وكان كثير الإلمام ببغداد ،وعُنى بمديح كثيرين من آل طاهر حكّامها كما مرّ بنا ، كما مدح بعض أعيانها وعلمائها مثل عبد الله بن الحسين بن سعد القطرّبلى والمبرّد النحوى ، ومدح عبيد الله بن خرداذبة الجغرافى صاحب البريد بناحية الجبل . ويبدو أن أصحاب الخراج عادوا يتعقبون البحترى ويطالبونه بخراج إقطاعاته الكثيرة ، مما جعله يسأل ابن بلبل المعونة فى خراجه ، كما يسأل المعتمد نفسه قائلا[٢] :

أَخْشَى الخراجَ وقد دعوتُ لعُظْمه ملكَ الملوك ورافـد الرُّفّاد

ومضى عمال الخراج يُثْقلون عليه ، وهو كل يوم يَمْثُلُ بين أيديهم شاكيًا ملحًّا فى أن يحطّوا عن كاهله ما يطلبونه منه، ولا يكاد يظفر بما يبتغى منهم، فيفكر فى مبارحة العراق ، ويمدح ابن طولون صاحب مصر والشام حينئذ ويصرّح فى مديحه له بما فى نفسه قائلا[٣] :

فأَصبحتُ فى بغدادَ لا الظلُّ واسعٌ ولا العَيْشُ غَضٌّ فى غَضارته رطْبُ
أَ أَمدح عُمَّال الطَّساسيجِ راغباً إليهم ولى بالشام مُسْتَمْتَعٌ رَغْبُ[٤]

وكل شيء يؤكد أن البحترى كان قد أثرى ثراء فاحشًا منذ عصر المتوكل ، فإنه نثر عليه أموالا جمة وإقطاعات عديدة ، بالإضافة إلى ما أغدق عليه الفتح بن خاقان وغيره من رجال الدواوين ، وخاصة آل المدبر وفى مقدمتهم إبراهيم ، وكان هو وأخوه أحمد من كبار الموظفين فى دواوين الخراج والضياع ، ويقول الصولى إنه كان يوجب على إبراهيم فى كل سنة أن يُسْقط أكثر خراجه أو يؤديه عنه ، وإنه استماحه مرة لشراء ضيعة فلامه لكثرة ضياعه ، وقال له : تكفيك ضياعك فقد

---

(١) الديوان ٣ /١٨٥٦ .
(٢) الديوان ٢ /٧٣٤ .
(٣) الديوان ١ /١٢٣ .
(٤) الطساسيج : الإقطاعات والضياع ، ويقال إن سواد العراق كان مقسماً إلى ستين طسوجا . رغب : متسع .

كثرت وعظمت ، غير أن البحترى تمادى فى إلحاحه عليه ، وأنشده قصيدته التى يقول فيها[١] :

وما زالتِ العِيسُ المراسيلُ تَنبَرِى   فيُقْضَى لدى آل المدبِّر حَاجُها[٢]
ولمْ لا أغالى بالضِّياع وقد دَنَا   علىَّ مَدَاها واستقام اعوجاجُها
إذا كان لى ترْبِيعُها واغْتــلالُها   وكان عليك عُشْرُها وخراجها[٣]

فأمر له بالمال الذى يشترى تلك الضيعة به[٤] . وكلما تقدمنا مع البحترى فى الزمن بعد المتوكل زادت ضياعه ، وقد وصلته من المعتز ضياع وأموال كثيرة ، وهو مع ذلك لا يزال يلحُّ عليه بالطلب حتى ليستهديه خاتم ياقوت ويُهْديه إليه[٥] . وكان المعتز قد أهدى إلى ابنه عبد الله إقطاعًا جاوره البحترى فى بعضه، وكأنه لم يكتف بما صار فى يده ، فقد مضى يسأل عبد الله أن يهب له من إقطاعه الضيعة التى تجاوره ، وتشفَّع إليه بأبيه وصنع فى ذلك أشعاراً ، منها قوله للمعتز :

يا واحدَ الخلفاء غيرَ مدافَعٍ   كرماً وأحسنَهم نَدًى وصَنيعا

فاتجه إلى ابنه عبد الله قائلا له : اقْضِ حاجة البحترى ، فوهبها له[٦] . وتظل عنده شهوة تملك الضياع والإقطاعات ؛ إذ نراه يطلب من صاعد بن مخلد إقطاعًا[٧] ومن ابنه أبى صالح ضيعة[٨] ومن سليمان بن عبد الله بن طاهر حين أصبح حاكماً لبغداد إقطاعاً[٩] . ويكثر عنده أن يسأل ممدوحيه أفراساً[١٠] وسيوفاً[١١]

---

(١) الديوان ١ / ٤٢٧ .

(٢) العيس : الإبل . المراسيل : النوق السهلة السير .

(٣) التربيع : الإنماء . والعشر : عشر الثمار وهو الخراج المفروض .

(٤) أخبار البحترى للصولى ص ١١٩ .

(٥) انظر التحف والهدايا للخالديين نشر سامى الدهان ص ٧٣ ، وزهر الآداب ٣/٩٧ ، وأخبار البحترى ص ١٠٨ وقد عدد فى القصيدة عطايا المعتز له من الدنانير والخلع وكيف أنه أمر بأن يزور بلده على خيل البريد الرسمى . انظر الديوان ٣ /١٥٣٦ .

(٦) أخبار البحترى ص ١٠٥ والديوان ٢ /١٣٠٩ .

(٧) الديوان ٣ /١٥٢٤ .

(٨) الديوان ٢ /١٠٠٨ .

(٩) الديوان ٣ /٢٠٤١ .

(١٠) انظر الديوان ١ / ٣٩٩ ، ٣/ ١٤٨٥ ، ١٧٤٤ ، ١٩٨٩ ، ٢٠٣٠ .

(١١) الديوان ٣ /١٧٤١ .

وشرابًا[١] وثيابًا[٢] وغلمانًا[٣] . وبذلك نستطيع أن نوفق بين شُحّه وما يقال من أنه كان يمشي فى موكب من غلمانه[٤] ، فقد كانوا جميعًا هبات من ممدوحيه ، وخصّ نسيمًا من بينهم بغزل كثير ، وكان قد أهداه إليه محمد[٥] بن عيسى القمى كاتب أبى سعيد الثغرى ، وفى الأغانى « أن البحترى جعله بابًا من أبواب الحيل على الناس فكان يبيعه ويتعمد أن يصيّره إلى ملك بعض أهل المروءات ومن يَنْفُقُ عنده الأدب ، فإذا حصل فى ملكه شبّب به وتشوّقه ومدح مولاه حتى يهبه له ، ولم يزل ذلك دأبه حتى مات نسيم فكُفِى الناس أمره »[٦] . وقد يكون أبو الفرج مبالغًا فى ذلك ، فإنه لم يثبت أن أحداً اشتراه سوى إبراهيم بن الحسن بن سهل ، وقد مدحه بأشعار كثيرة يصور فيها ندمه ، فرده عليه[٧] ، ولعل فى ذلك كله ما يصور مدى ثراء البحترى من جانب وشدة طمعه من جانب آخر ، وقد ظلّ يُلْحِفُ فى سؤال العطاء والضياع فكان طبيعيًّا أن يلفت إليه أنظار معاصريه ، وحتى الخراج أو عشر الثمار كان ما ينى يحتال فى التخلص منه بالتضرع إلى وزير أن يدفعه عنه أو إلى كاتب كبير مثل إبراهيم بن المدبر . ويفكر فى الإفادة من أحمد بن طولون — كما مرّ بنا فى غير هذا الموضع — فيمدحه لسنة ٢٦٩ ويمدح بعض كتابه وقواده مثل عفاص ويونس بن بُغَا وجعفر بن عبد الغفار ومحمد بن العباس الكلابى . ويُتَوَفَّى ويخلفه ابنه أبو الجيش خمارويه لسنة ٢٧٠ ونرى البحترى فى بعض قصيده[٨] يجمع بين مديحه ومديح أبى الصقر إسماعيل بن بلبل وزير المعتمد . وفى سنة ٢٧٢ يغضب الموفق على صاعد كاتبه ويقبض عليه وعلى ابنيه أبى عيسى العلاء وأبى صالح وعلى أخيه عبدون ويصادر جميع أموالهم وأسبابهم[٩] ، ويتوفّى أبو عيسى العلاء فى الحبس بعد ثلاثة عشر يومًا ويكتئب البحترى ، ويرثيه بقصيدة يقول فيها[١٠] :

---

(١) الديوان ١/٤٠٧ ، ٤٢٧ ، ٤٩١ ، ٥٥٩ ، والأغانى ١٨/١٧١ .

(٢) الديوان ٢/٨٣٧ ، ٨٩٢ وأخبار البحترى ص ١١٥ .

(٣) انظر مثلا ٢/٩٨٦ ، ١٠٦٧ ، ١٤٨٥/٣ .

(٤) راجع الأغانى ١٨/ ١٧٠ وقابل بالعمدة لابن رشيق ٢/١٥٠ .

(٥) الديوان ١/٥٢٧ .

(٦) الأغانى ١٨/١٧١ .

(٧) أخبار البحترى ص ١٢٧ وما بعدها .

(٨) الديوان ٢/٩٠٩ .

(٩) تاريخ الطبرى ١٠/١٠ .

(١٠) الديوان ٣/١٥٥٣ .

ولم أرَ كالدنيا حَليلةَ وامق محبٍّ متى تحسُنْ بعينيه تَطْلُقِ
تراها عِياناً وهْي صنعةُ واحدٍ فتحسبها صُنْعَىْ لطيفٍ وأخرقِ

وحين سمع بعض خصومه البيتين شنّعوا عليه بأنه ثَنَوِىّ يؤمن بإلهى النور والظلمة ، وشاع ذلك فى عامة بغداد وكانت غالبة عليها حينئذ ، فخافهم البحترى على نفسه وخرج إلى منبج . ويبدو أن إقامته بها لم تطل وأنه عاد منها إلى سامراء وبغداد بعد حين إذ يحكى الصولى أن أول ما رأى البحترى سنة ٢٧٦ بمجلس المبرد فى مسجده ببغداد . ونظن ظنًّا أن رحلاته إلى العراق لم تنقطع إلا بعد قبض الموفق على صديقه إسماعيل بن بلبل سنة ٢٧٧ وكأنما كانت هذه الحادثة سبباً فى أن يصمم على مبارحة العراق إلى الأبد . وربما ولّى وجهه حينئذ نحو مصر وصاحبها خمارويه[1] ، ويبدو أنه كان يلقاه فى رحلاته بالشام ، ثم مدّها إلى مصر للقائه . ويؤكد نزوله بها كثرة مدائحه لكاتب خمارويه إسحق بن نصير . غير أنه كانت علّته كَبْرة فلم يقم بمصر طويلا وعاد إلى منبج ، وظل بها سنواته الأخيرة حتى لبّى نداء ربه لعام ٢٨٤ .

وكان البحترى يأخذ بحظوظ مختلفة من الثقافة الإسلامية والعربية فى عصره ، وليس معنى ذلك أنه تخصص فى أحد فروعها ، ولكنه كان يلم بها ، إذ كانت حلقاتها مفتوحة للصادر والوارد فى جميع أنحاء العالم العربى حينئذ ، ويرمز إلى ذلك فى شعره أننا نراه فيه يعرض لبعض اصطلاحات علم الحديث ، إذ يقول فى مديحه لإبراهيم بن الحسن بن سهل[2] :

خُلُقٌ أَتيتَ بفضله وسَنائه طبعاً فجاءَ كأَنه مصنوعُ
وحديثُ مجدٍ عنك أفرط حُسْنُهُ حتى ظننَّا أنه موضــوع

وفى ذلك ما يؤكد صلته بالدراسات الإسلامية لعصره من حديث نبوى وتفسير وفقه ، وبالمثل كان على صلة بالدراسات العربية من تاريخية ولغوية ونحوية ، وهذا طبيعى لأنه أعد نفسه ليكون شاعراً مرموقاً ، فكان لا بد له أن يتزوّد من اللغة ومن

(١) النجوم الزاهرة ٣ /٩٧ .
(٢) الديوان ٢ /١٣١٦ .

النحو ومن التاريخ العربى الإسلامى ، ونراه فى بعض شعره يعرض لعالم لغوى فى عصره هو الفضل بن محمد اليزيدى ، رآه يزرى على جميل وكثيِّر ، فيقول إنه لا علم له بالشعر ، وكل علمه إنما هو التعمق فى الفاعل والمفعول[1] .

وكان لا يبارَى فى ثقافته بالشعر ، مما جعله يضع فيه ديوان حماسة مشاكلةً ومشابهةً لأستاذه أبى تمام فى حماسته المشهورة ، ويقول ابن النديم إن له كتاباً ثانياً فى معانى الشعر ، غير أن هذا الكتاب سقط من يد الزمن . والكتاب الأول كاف فى تصور إكبابه على الشعر القديم إكباباً منقطع النظير . وبالمثل كان يكبّ على دواوين الشعراء المحدثين ، مما أتاح له ثقافة شعرية واسعة . ولكن هل نستطيع بذلك كله أن نقول إن البحترى كان متقفاً بالثقافة الحديثة لعصره وما يتصل بها من علوم الأوائل ؟ حقاً له قصيدة ، كما أسلفنا ، أكثر فيها من ذكر النجوم ، ولكن هذا لا يعنى أنه كان ملماً بعلم الفلك والنجوم لعصره ، فقد كان منصرفاً عن هذا العلم وغيره من علوم الأوائل . وكان إذا ألم بها يلمّ من الظاهر إن صح هذا التعبير ، فهو لا يتعمقها أو هو بعبارة أدق لا يستطيع أن يتعمقها إذ كانت نشأته نشأة بدوية كما لاحظ القدماء ، وإن كان قد تحضّر فيما بعد ، ولكنه ظل بعيداً عن الفقه بالثقافة الحديثة ، وخاصة الثقافة الفلسفية والمنطقية .

وكانت قد أخذت تتكوّن فى النقد والبلاغة — كما أشرنا إلى ذلك فى غير هذا الموضع — ثلاث بيئات : بيئة محافظة مسرفة فى المحافظة ترى أن الشعر ينبغى ألا يقاس إلا بالمقاييس العربية الخالصة ، وهى بيئة اللغويين ، وبيئة مجددة مسرفة فى التجديد ترى أن يقاس الشعر بمقاييس البلاغة اليونانية ، وهى بيئة المتفلسفة ، ممن كانوا يترجمون عن اليونان أو يقرءون ما ترجم عنهم ، وبيئة معتدلة ، فهى لا تحافظ محافظة اللغويين ولا تجدد تجديد المتفلسفة ، بل تقف موقفاً وسطاً ، فهى تقرأ ما يترجم وهى تنظر فيما أُثر عن العرب من ملاحظات بلاغية ، ثم تحاول أن تنفذ من ذلك إلى مقاييس للبلاغة العربية تَزِنُها موازين دقيقة ، وهى بيئة المتكلمين ، على نحو ما نعرف عن الجاحظ فى كتابه البيان والتبيين ، وانحاز الشعراء غالباً إلى البيئتين المحافظة والمعتدلة ، وقلما انحاز أحد منهم إلى البيئة الثالثة

---

(١) الديوان ٣ /١٨١٧ وما بعدها .

لأنها كانت تجافى الذوق العربى . غير أن هذه البيئة أخذت تشنّ حملات شعواء على بيئة المحافظين وخاصة على ممثلها البحترى الذى لم يكن يتقن الثقافة الفلسفية ، ونرى بعض من يمثلون البيئة المعتدلة ينضمون إلى هذه الحملة بعامل المنافسة بينهم وبين البحترى وفى مقدمتهم ابن الرومى . وكانت قد ساءت العلاقة بين البحترى وعبيد الله بن عبد الله بن طاهر صاحب شرطة بغداد ، ونظن ذلك حدث فى بعض فترات عـزْله عن وظيفته ، وسارع البحترى فلمـّح إليه فى بعض شعره بما يشبه الذم ، وردّ عليه عبيد الله يمدّه صديقه ابن الرومى بأشعار ملتهبة ، ويبدو أنهما ندّدا بضعف ثقافة البحترى وأنه لا يعرف فلسفة ولا منطقا ، مما جعله يهجو عبيد الله ببائية يقول فيها[1] :

كلّفتمونا حـدودَ مَنْطقكم والشعرُ يغنى عن صدقه كَذِبُهْ

ولم يكن ذو القُرُوح يَلْهَجُ بالـ مَنْطق ما نَوْعُهُ وما سَبَبُهْ

والشِّعْرُ لَمْحٌ تكفى إشارتُه وليس بالهَذْر طُوِّلَتْ خُطَبُه

وحقـًا لم يكن امرؤ القيس الملقّب بذى القُروح يعرف فلسفة ولا منطقـًا لا لأنه صدّ عن ذلك ، ولكن لأن عصره كله لم يكن يعرفهما ، ولو أنه تأخر به الزمن إلى عصر البحترى لعكف على الفلسفة والمنطق كما عكف ابن الرومى وأضرابه وغذّى بهما شاعريته غذاء رفيعـًا . وهو يلمـّح فى الشطر الأخير إلى ابن الرومى وما اشتهر به من مطولات شعره .

وقد ساعد الذوق المحافظ الذى ساد فى العصر — كما أشرنا إلى ذلك مراراً — إلى أن ترجح كفـّة البحترى المحافظ كفـّة ابن الرومى المجدد، وأن يقف فى صَفـّه لا علماء اللغة وحدهم من أمثال المبرد بل كثرة كثيرة من الشعراء ، على حين كان ابن الرومى يعيش لعصره فيما يشبه عـُزْلة من معاصريه مع تفوقه على زميله تفوقـًا واضحـًا بملكاته الشعرية الخصبة ، ولكنه لم يكن يحتفظ للشعر بصياغته الموروثة وتقاليدها على نحو ما يحتفظ البحترى ، فوقع بعيداً عن ذوق الكثرة الغالبة من الشعراء والنقاد .

---

(١) الديوان ١ /٢٠٩ .

وليس معنى ذلك أن البحترى انفصل تماماً عن روح العصر ، فقد كان يلائم بين شعره وبين تلك الروح عن طريق ثقافة واسعة بشعر أستاذه أبى تمام وشعر من سبقوه ... أمثال مسلم وأبى نواس وبشار، المرة تلو المرة ، والمرات تلو المرات ، حتى أصبح ذلك جزءاً لا يتجزأ من جوهر شعره ، ولذلك نعته معاصروه طويلا بأنه يغير على أشعار من سبقوه فيسلبها لنفسه ، وفى ذلك يقول ابن الرومى لأبى عيسى العلاء بن صاعد حين نشر الأمن فى ربوع بغداد[1] :

أيسرق البحترىُّ الناسَ شعرهمُ جَهْرًا وأنت نكالُ اللِّصِّ ذى الرِّيَبِ

وأهم ديوان ألحَّ على تمثله ديوان أستاذه أبى تمام ، ولاحظ ذلك كله القدماء فأفردوا سرقاته بالبحث، وكان أول من عُنى بذلك عنده معاصره أحمد بن أبى طاهر ؛ إذ استخرج له ستمائة بيت ردها إلى أصولها عند الشعراء وخاصة عند أبى تمام ، وقد بلغ ما سلبه منه فى رَأى ابن أبى طاهر مائة بيت . وتلاه بشر بن تميم بمصنف ذكر فيه سرقاته من أبى تمام ، وعليه اعتمد الآمدى فى الفصل الذى عقده لهذا الجانب من سرقات البحترى . وفى رأينا أنه استطاع بذلك أن يتلافى نقص ثقافته الحديثة ، فقد خالط الشعراء المحدثين وخاصة أبا تمام مخالطة نادرة ، بحيث تمثل المعانى والأخيلة الحديثة ، بل قل بحيث استخلصها لنفسه ، وأخذ يَصدر عنها كما يصدر الضوء عن الشمس والشذى عن الزهرة . وحقًّا أنه يوجد بون بعيد بين عرض هذه الأخيلة والمعانى عنده وعند أبى تمام ، فقد كان أبو تمام يغمس أفكاره وأشعاره فى ليقة المنطق، فإذا القصيدة عنده توشك أن تتحقق فيها الوحدة العضوية، فالمعانى والصور يتولد بعضها من بعض ولا خنادق ولا ممرات بين الأبيات ، على حين تكثر هذه الممرات والخنادق عند البحترى ، ولاحظ ذلك القدماء فقالوا إنه لا يحسن الخروج من موضوع إلى موضوع فى الشعر[2]، لسبب بسيط وهو أنه لم يكن يخضع فى شعره للمنطق على نحو ما صرح بذلك آنفاً . وظاهرة ثانية هى أنه جارى أستاذه فى

---

(١) ديوان ابن الرومى (نشر كامل كيلانى) ص ٣٥ .

(٢) العمدة لابن رشيق ١ /١٥٩ .

الاحتفال بألوان البديع واستظهارها فى أشعاره ، ولكن حين نقرن أى لون عنده إلى أصله عند أبى تمام سنجد مفارق واسعة ، فأبو تمام مثلا يجنح إلى استخدام نوافر الأضداد فى أشعاره كما مر بنا فى كتاب العصر العباسى الأول ، ولم يكن البحترى يستطيع أن يتعمق هذا التعمق ولذلك نراه يكتفى بالطباق بحيث إذا ذُكر الوصل مثلا ذُكر معه الهجر ، وإذا ذكر الذل ذكر معه الكبر ، وإذا ذكرت السهولة ذكرت معها الوعورة ، وإذا ذكرت الحرية ذكرت معها العبودية . ولون آخر يتعمقه أبو تمام هو الاستعارة على نحو ما مر بنا أيضًا فى حديثنا عن العصر العباسى الأول ، ولم يكن البحترى يتعمق هذا اللون تعمقًا من شأنه أن يبعده عن الذوق القديم ، ولذلك كله قال النقاد إنه يحافظ على عمود الشعر العربى[1] ، يريدون محافظته على أصوله الموروثة ، ومن تتمة ذلك عنده أنه لم يكن يكثر من ألوان البديع إكثار أبى تمام ، ولا كان يستطيع أن يتغلغل فى دقائق الفكر والأخيلة على نحو ما كان يتغلغل أبو تمام بحكم ثقافته الفلسفية ومواردها التى لا تنضب فى أشعاره ، ولذلك كان يشيع فى أشعاره الغموض ، مما جعل القدماء يختلفون فى فهم كثير من أبياته وتفسيرها وتأويلها ، لكثرة ما توحى به من معان ، وهو اختلاف لا يضيع منك هباء ، بل إنك تجد فى أثنائه ما يشبه أقواس قزح ممتدة فى أشعاره ، وهى أقواس بهيجة ، تزهى بالفكر العميق والخيال الواهم البعيد .

ولكن إذا كان البحترى لم يستطع أن يحقق لنفسه هذا المدى الرائع من الشعر والفن ، بسبب ضعف ثقافته الفلسفية ، فإنه استطاع أن يحقق لنفسه مدى مقابلا لا يقل روعة ، وهو مدى الجمال الصوتى البديع ، بحيث استطاع أن يرتفع باصطفاء الكلمات والملاءمة بينها فى الجرس بل بين حروفها وحركاتها ملاءمة رفعته إلى مرتبة موسيقية لم يلحقه فيها سابق ولا لاحق ، وكأنما كانت له أذن داخلية مرهفة ، تقيس كل حرف وكل حركة وكل ذبذبة صوتية ، فإذا به ينظم شعراً مصفى مروقًا ، شعراً يلذ الألسنة والآذان والأذهان لذة لا تعادلها لذة . وقد وقفنا طويلا عند هذا الجانب فى الفصل الثانى من كتابنا « الفن ومذاهبه فى الشعر العربى » وأوضحنا مدى مشاكلته بين أصوات الألفاظ والقوافى فى بعض القصائد وموضوعاتها كما أوضحنا

---

(١) الموازنة للآمدى (طبعة الجوائب) ص ٢ .

مدى التوافق الصوتى عنده بين الحروف والكلمات والحركات والسكنات ، وكأنما أعطت الموسيقى الشعرية كل مفاتيحها وكل أسرارها للبحترى ، فإذا هو يوقع على قيثارته أروع ألحان عرفتها العربية[1]. وبذلك استطاع أن يتلافى بقوة قصوره الثقافى ، فإذا هو يوضع على قدم المساواة مع أبى تمام ، وإذا النقاد يتقابلون فى صَفّين : صَفّ يرفع أبا تمام إلى الذروة ، وهم المتفلسفة ومن يعنون بالتعمق فى المعانى والأخيلة ، وصف يرفع البحترى إلى نفس المرتبة ، وهم أصحاب الآذان المرهفة الذين يُكبرون اللذة الصوتية ، وكان ينضم إليهم طوائف من المحافظين واللغويين ، وكان البحترى نفسه إذا سُئل عنه وعن أبى تمام قال : جيده خير من جيدى ورديئى خير من رديئه ، وهو يريد بجيد أبى تمام معانيه وأخيلته الدقيقة التى لم يكن أحد من أهل زمانه يستطيع أن يحلق فى آفاقها ، أما رديئه فيريد به بعض أبياته التى يضطرب فيها اللفظ لأنه لم يكن يُعْنَى بألفاظه وأصواته عناية البحترى .

والمديح أهم موضوع استنفد شعر البحترى ، فقد عاش ، كما مرّ بنا ، يمدح الخلفاء العباسيين من المتوكل إلى المعتضد ووزراءهم وولاتهم وقوادهم وكتّابهم ، وكأنما وقف نفسه على الإشادة بالدولة ورجالاتها ، بحيث يُعَدُّ الشاعر الرسمى لها ، وكان طبيعيًّا لذلك أن ينتصر للعباسيين ضد خصومهم العلويين ، وأن يتغنى بذلك فى أشعاره ، حتى يثبت ولاءه لهم وأنه يقف فى صفوفهم مدافعًا عنهم مناضلا بمثل قوله للمتوكل[2] :

شَرَفاً بنى العباس إن أباكمُ ... عَمُّ النبىِّ وعِيصُه المتفرِّعُ
إن الفضيلة للذى استَسْقَى بهِ ... عُمَرٌ وشُفِّع إذ غدَا يَسْتَشْفِـعُ
وأرى الخلافة وهْى أعظم رتبة ... حَقًّا لكم ووراثةً ما تُنْزَعَ
أَعطاكموها الله عن علمٍ بكم ... واللهُ يُعْطى مَنْ يشاءُ ويَمْنَـعُ

فالعباس جد العباسيين وعم الرسول صلى الله عليه وسلم من العِيص ومنبت الشجر الضخم ، يريد أنه من الأصول بينما على بن أبى طالب من الفروع ، ويستدل على

(١) الفن ومذاهبه فى الشعر العربى (الطبعة السابعة — نشر دار المعارف) ص٧٧ وما بعدها .

(٢) الديوان ٢ /١٣١١ .

فضله بأن عمر استسقى به فى عام الرمادة حين أصاب الجزيرة القحط مستشفعًا به لربه ، ولم يَسْتَسْقِ بابن أبى طالب ، ويشير إلى حكم الميراث فى الإسلام وما فرضه من حَجْب العم لابن أخيه ، فالخلافة حق من حقوق العباسيين ، كما تقرر ذلك الشريعة الإسلامية ، وليس لأبناء على وحفدته أى حق فى منازعتهم . ويكرر البحترى فى مديحه للمتوكل وغيره من الخلفاء العباسيين تقواهم ، وعدلهم الذى ينشرونه فى ربوع الدولة ، ومدى رعايتهم للأمة ورفقهم بها ورقتهم لها وكيف يقومون على حمايتها بجنودهم وجموعهم الجرَّارة . وكان ينتهز كل فرصة ليدبج قصائده فيهم ، فمن ذلك قصيدته فى وصف موكب المتوكل فى أثناء خروجه لأداء الصلاة فى عيد الفطر ، وقد صوَّر فى فاتحتها قوة الإسلام حينئذ مجسمة فى جيش ضخم كان يحفّ بالمتوكل وكأنه جبال تتحرك ، فترجف الأرض وتهتز لضخامته وعدده الكثيفة ، ويتحدث عن جلال الموكب وما استدار حول المتوكل من هالات قدسية ومن محبة للشعب وإعظام ، يقول[1] :

افتنَّ فيك الناظرون فإِصْبَعٌ ... يُومِى إليك بها وعَيْنٌ تَنْظُرُ

يجدون رويتك التى فازوا بها ... من أنعم الله التى لا تُكْفَرُ

ذكروا بِطَلْعتك النبيَّ فهلَّلوا ... لما طلعتَ من الصفوف وكبَّروا

حتى انتهيتَ إلى المصلَّى لابساً ... نورَ الهدى يبدو عليك ويظهر

فلو أنَّ مشتاقاً تكلف فوق ما ... فى وسعه لسعى إليك المِنْبُرُ

ولعل أهم وزير استصفاه لنفسه الفتح بن خاقان ، فله ألف ديوانه الحماسة ، وقد عاش نحو خمسة عشر عامًا يمدحه منوهًا بسياسته وحزمه وشجاعته وأناته فى تسديد الأمور ، وعونه للضعيف ورده للمظالم ونشره للعدل الذى لا تصلح حياة الناس بدونه وبُعْد غَوْره ويقظته وكفايته لحمل أمانة الحكم على خير وجه ممكن ، مع تقواه وتواضعه ومع صيانته للثغور وحَطْمه بجيوشه للثوار والأعداء حطما لا يبقى ولا يذر ، ومع أخلاقه الرفيعة التى تتحلَّى بها نفسه الأبية ، وكان ربما بدر منه ما يجعل الفتح ينصرف عنه . فكان يعتذر له بأشعار رائعة ، سبق أن صورناها فى الفصل الماضى . ومديحه

---

(١) الديوان ٢ / ١٠٧٢ .

فيه يكتظ بعاطفة حقيقية ، فقد كان يكنّ له ودًّا وحبًّا وإخلاصًا ، وكان ما ينى يتغنّى بمديحه ، ومن طريف قوله فيه مصوراً هيبته(١) :

إذا ما مَشَى بين الصفوف تقاصرتْ رءوسُ الرِّجال عن طُوالٍ سَمَيْذَعِ(٢)
وإن سار كُف اللحظُ عن كل منظرٍ سواه وغُضَّ الصوت عن كل مَسْمَعَ
فلستَ ترى إلا إفاضةَ شاخصٍ إليه بعينٍ أو مشيرٍ بإصْبَعِ(٣)

ومرَّ بنا أن أول نابه اتصل به وخصه بمديحه محمد بن يوسف الثغرى ممدوح أبي تمام الذى كان فى مقدمة من قمعوا ثورة بابك الخرمى ، كما كان فى مقدمة جيوش المعتصم فى غزوه لعمورية ، وقد ظل ينازل الروم ويمحق جموعهم حتى وفاته سنة ٢٣٦ . وقد سجل البحترى حروبه وانتصاراته القديمة والحديثة جميعًا ، مجسمًا بأس جيوشه ، وكيف كانوا يتهافتون على الوغى كما يتهافت الفراش على النار ، إنهم أبناء موت يطرحون أنفسهم تحت رَحَاه ، فلا تطحنهم وإنما تطحن أعداءهم طحناً ، وله فى تمجيد شجاعة محمد بن يوسف الثغرى أشعار وقصائد كثيرة ، ومن طريف ماله فى تصوير رباطة قلبه وسكون نفسه فى الحرب قوله(٤) :

لقد كان ذاك الجَأْشُ جَأْش مسالمٍ على أَن ذاك الزِّىَّ زِىُّ محاربِ
تسرَّع حتى قال من شهد الوَغَى لقاءُ أعادٍ أَم لقاء حبائبِ
وصاعقة فى كفِّه يَنْكفِى بها على أَرْؤُسِ الأَقران خمسُ سحائبِ

فَجأْشُهُ مطمئنٌّ ونفسه هادئة ، حتى ليظن من يراه أنه فى سِلْم وأمن ودعة مع أن الزى زى محارب باسل ، وإنه ليُقبل على ميادين الحرب إقبال المحب على حمى معشوقته هانئًا مغتبطًا ، وإن السيف فى يده ليشبه أدق الشبه صاعقة تسقط على الأعداء بشواظها من أصابعه الخمس ، وكأنها خمس سحائب ماتنى ترسل عليهم الصواعق المدمرة . والبطل الثانى فى ديوان البحترى هو أحمد بن دينار ، وقد سجَّل بطولته فى معركة بحرية دمَّر فيها بأسطوله الأسطول البيزنطى تدميراً ذريعًا ، ومن عجب أن الطبرى وغيره من مؤرخى العرب لم يدونوا هذه المعركة الخطيرة ،

---

(١) الديوان ٢ /١٢٣٩ .
(٢) السميدع : السيد الكريم الشجاع .
(٣) الإفاضة : الاتجاه بالبصر .
(٤) الديوان ١ /١٧٨ .

ولا أشاروا إليها ، والمظنون أنها كانت لعهد المتوكل ، ولعل فى تسجيل البحترى لها ما يؤكد ما قلناه مراراً من أن شعر المديح عند العرب يُعَدّ فى بعض جوانبه وثائق تاريخية مهمة ، وفيها يقول البحترى مصوراً زحف ابن دينار بمركبه « الميمون » ومن حوله المراكب تغص بجنوده البحريين الذين محقوا الأسطول البيزنطى وجنوده محقًا[١] :

غدوتَ على الميمون صُبْحاً وإنما ... غدا المَرْكَبُ الميمونُ تحت المظفَّرِ

وحولك رَكَّابون للهول عاقروا ... كئوسَ الردَى من دارعين وحُسَّر[٢]

صَدَمْتَ بهم صُهْبَ العَثَانين دونهم ... ضرابٌ كإيقاد اللَّظَى المتسعِّرِ[٣]

يسوقون أسطولا كأَن سَفينه ... سحائبُ صَيْفٍ من جَهامٍ ومُمْطرِ[٤]

فما رِمْتَ حتى أَجْلَت الحربُ عن طُلًى ... مقطَّعةٍ فيهم وهامٍ مطيَّرِ[٥]

وكل شيء يشهد بأن الشعر كان لا يستصعب على البحترى ، فقد كان يتدفق على لسانه تدفقًا ، ومع ذلك يقال إنه نقل كثيراً من مدائحه ، حتى ليبلغ ذلك عشرين قصيدة ، إلى مدح أناس جدد[٦] . وقد يكون فى ذلك مبالغة ، على أننا نجد فى الديوان رائية مرددة بين أبى الصقر إسماعيل بن بلبل ، والخضر بن أحمد والى الموصل ، واختلفت لذلك رواية بعض أبياتها[٧] . ويدخل فى هذه الظاهرة عند البحترى ما قيل من أنه هجا كثيرين ممن مدحهم ، حتى ليبلغ بهم بعض الرواة أربعين شخصاً[٨] ، وقد عرضنا لذلك فى غير هذا الموضع ، ولا شك فى أن فى العدد مبالغة .

وفى ديوانه أهاج مختلفة ترجع إما إلى حرمانه من جائزة ، وإما إلى كفران صنيعة عند بعض معاصريه ، وإما إلى منافسة بينه وبين الشعراء وخاصة من كان منهم

---

(١) الديوان ٢/ ٩٨٢ .

(٢) الردى : الموت . الدارع : لابس الدرع . الحاسر : عكس الدارع .

(٣) صهب العثانين : شقر اللحى ، ويريد بهم الروم .

(٤) السحاب الجهام : الذى لا ماء فيه .

(٥) رام يريم عن المكان : زال عنه وفارقه . الطلى : الأعناق . الهام : الرءوس .

(٦) الموشح ص ٣٣٦ .

(٧) الديوان ٢/ ٨٧٠ وما بعدها .

(٨) الموشح ص ٣٣٦ .

يتعرض لشعره بالذم والنقد اللاذع . ويلاحظ أبو الفرج الأصبهانى فى ترجمته أن بضاعته من هذا الفن قليلة ، ويُرْوَى عن ابنه أبى الغوث أن السبب فى ذلك أن أباه أحرق هجاءه فى الناس خوفاً من مغبة عداوتهم له ولأبنائه ، وكأن هذه الرواية لم تعجب أبا الفرج ، فقد عاد يؤكد أن أكثر هجائه ساقط غث الألفاظ ركيك لا يشاكل طبعه ولا يليق بمذهبه[١] .

وبالمثل الفخر عند البحترى ضعيف ، هو حقًّا يفخر فى بعض قصائده بآله وعشيرته بحتر وقبيلته طيئ ناعتاً لهم بالكرم والشجاعة والكثرة والحصافة ، ولكنه لا يصدر فى ذلك عن إيمان قوى بالمجد ، وكأنما كانت عصبيته القبلية ضعيفة ، بل لقد كان إحساسه بعروبته أيضاً ضعيفاً ، ومرت بنا فى الفصل السالف قصيدته فى إيوان كسرى وبكاؤه لأمجاد الفرس ، وكأنما لم يكن يستشعر شيئاً من الإحساس العميق بالأمجاد العربية فى مقابل الأمجاد الفارسية ، ولعله من أجل ذلك كان كثيراً ما يسترسل فى إشادته بالأصول الفارسية لبعض ممدوحيه ، على نحو ما يلقانا فى مديحه للحسن بن سهل بمناسبة عيد المهرجان ، وله يتوجه بالخطاب قائلا[٢] :

إن للمِهْرَجان حقًّا على كـ ... ـل كبيرٍ من فارسٍ وصغيرِ
عيدُ آبائكِ الملوكِ ذوى التيـ ... ـجانِ أهل النُّهَى وأَهل الخِير[٣]

ويعدّد طائفة من هؤلاء الملوك فى مقدمتهم يَزْدَجرْد ، وكسرى ، وأرْدَشير ، ويصور ما كان لهم من أبهة الملك وما كانوا يغدون ويروحون فيه من السندس والحرير . وحتى العاطفة الإسلامية بدورها نجدها ضعيفة عند البحترى ، إذ امتدح كثيرين من النصارى على نحو ما مر بنا فى غير هذا الموضع .

وذكرنا فى الفصل السالف مرثيته للمتوكل ، وأوضحنا كيف أعلنها ثورة مدوية على قاتليه وولى العهد الذى ناصرهم ، وقد استهلها بوصف قصر الجعفرى الذى قُتل به الخليفة وما حلّ عليه من سواد وكآبة ، حتى غدا كأنه مأتم كبير ،

---

(١) الأغانى (طبعة الساسى) ١٨/١٦٧ .
(٢) الديوان ٢/ ٨٨٦ .
(٣) الخير : الكرم والشرف .

ويصور فزع سيداته الجميلات حين علمن بالخبر الفاجع وكيف انتهكت حرماته ثم يصف القتل والقتلة وصفًا مؤثراً . وله مرثية رائعة يرثى بها طائفة من بنى حميد الطوسى خرّوا صرْعَى فى ميادين الثغور دفاعًا عن العرين العربى ، وفيهم يقول[1] :

قبورٌ بأطراف الثُّغور كأنما مواقعُهم منها مواقعُ أنجمِ
مضوا يستلذّون المنايا حفيظةً وحفظاً لذاك السؤدد المتقدِّمِ
وكلُّهم أفضى إليه حِمَامُـــه أميرًا على تدبير جيشٍ عَرَمْرَمِ[2]
مساعٍ عظامٌ ليس يَبْلَى جديدها وإن بَلِيَتْ منهم رمائمُ أعظمِ

والمرثية بكاء حار لهؤلاء الأبطال الذين استشهدوا تحت ظلال السيوف فداء لوطنهم بأرواحهم واستبسالا بعد أن أذاقوا الأعداء كئوس الموت دهاقًا .

واشتهر البحترى بإجادته للغزل ، ومرَّ بنا أنه أحبَّ فى شبابه علْوة الحلبية وظلت ذكراها لا تبارحه ، وظلت تستولى على قلبه ، وكانت قد صبت إليه كما صبا إليها وبادلته وداً بود ، ثم تزوجها الذفافى كما أسلفنا ، فسلت عنه ، ولكنه لم يسل عنها ، وفى ديوانه مقطوعة يهجوها بها قد يكون نظمها فيها ساعة غضب انتابته ، وإن كنا نظن ظنًّا أنها منحولة عليه ، فقد ظل قلبه لها فى سامرّاء وبغداد كما ارتحل عنها ، فهو لاينى يذكرها بمثل قوله فى مقدمة مدحه للمعتز[3] :

كم ليلةٍ فيكِ بِتُّ أَسْهَرُها ولوعةٍ فى هواكِ أُضمرها
وحرقةٍ والدموعُ تُطْفئها ثم يعود الجَـوى فيُسْعِرها
يا عَلْوُ عَلَّ الزمانَ يُعْقبنا أيامَ وصلٍ نظلُّ نشكرها

وكأن السنوات الطويلة التى مضت بين حبه لها فى شبابه ومديحه للمعتز وهو فى نحو الخمسين من عمره لم تطفئ لوعته وحرقته ، فقد ظلت نار شوقه وحبه

---

(١) الديوان ٣/١٩٤٥ .
(٢) عرمرم : كثيف .
(٣) الديوان ٢/١٠٧٤ .

لها مشتعلة بين جوانحه ، وظل يصدر عنها فى قطع مفردة وفى مقدمات مدائحه من مثل قوله[١] :

وخلافُ الجميل قولُك للذّا كر عهدَ الأَحباب صَبْرًا جميلا
لا تَلُمْه على مواصلة الدَّمـ ـع فلومٌ لَوْمُ الخليل الخليلا
عل ماءَ الدموع يُخمد نارًا من جَوَى الحبِّ أَو يبلُّ غليلا

وكانت لدى البحترى قدرة بارعة فى وصف مظاهر العمران ، بما أتيح له من دقة فى التصوير والتعبير ، ولم يكد يترك قصراً بناه المتوكل دون أن يصفه موجزاً أو مسهبًا ، وبالمثل وصف ما بناه الخلفاء بعده من قصور . ومرَّ بنا وصفه الرائع لإيوان كسرى ، ومن القصور التى أجاد فى وصفها قصر الكامل الذى بناه المعتز وفيه يقول[٢] :

ذُعِرَ الحَمامُ وقد ترنَّم فوقه من منظرٍ خَطِرِ المزلَّةِ هائل[٣]
رُفعتْ لمنْخَرِقِ الرِّياح سموكُه وزهتْ عجائبُ حسنه المتخايلِ[٤]
وكأَن حِيطان الزجاج بجَوِّهِ لُجَجٌ يَمُجْنَ على جُنوب سواحل
لبستْ من الذهب الصقيل سُقوفُه نورًا يضىء على الظلام الحافل[٥]

وقد مضى يصف رخامه وخطوطه المتقابلة وما امتد أمامه من بستان أنيق وما يجرى فيه من مياه دجلة المفضضة ومن نسيم الصَّبا الحانى . وكان القدماء يعجبون أشد الإعجاب بوصفه لبركة أقامها المتوكل بأحد قصوره فكانت فتنة للناظرين ، وفيها يقول البحترى[٦] :

يا مَنْ رَأَى البِرْكَةَ الحسناءَ رُؤْيَتُها والآنساتِ إذا لاحتْ مغانيها[٧]
تنصبُّ فيها وفود الماء معجلةً كالخيل خارجةً من حَبْل مُجْرِيها

(١) الديوان ٣/١٧٦٧
(٢) الديوان ٣ / ١٦٤٨ .
(٣) المزلة : المزلق .
(٤) منخرق الرياح : مهبها . سموكه : أعاليه .
(٥) الحافل : الكثير .
(٦) الديوان ٤ /٢٤١٦ .
(٧) الآنسات هنا جوارى المتوكل وكانت منازلهن تحفّ بالبركة .

كأنما الفضَّةُ البيضاءُ سائلةً من السبائك تَجْرى فى مجاريها
فرونقُ الشمس أَحياناً يضاحكها وريِّق الغيث أَحياناً يباكيها
إذا النجومُ تراءَتْ فى جوانبها لَيْلًا حسبتَ سماءً رُكِّبتْ فيها

ويتحدث عن السمك المحصور فى البركة والصحن الممتد فى أسفلها والبهو الممتد فى أعاليها وتمثال الدُّلْفَين الذى كان مقامًا عليها ، والبساتين والرياض التى تحف بها والأزهار التى تشبه ريش الطواويس فى تلاوينها العجيبة . ولعل فى كل ما قدمنا ما يصور شاعرية البحترى الرائعة وكيف أنه استطاع أن يتلافى بملكاته الخصبة القصور فى ثقافته الحديثة ، فإذا هو يملك من أدوات التعبير ما يستحيل به شعره إلى أنغام وألحان خالصة .

٣

ابن الرومى

هو على[١] بن العباس بن جريج ، ويبدو أن أول من أسلم من آبائه أبوه القريب العباس ، وقد نشأ على الولاء لعبد الله بن عيسى بن جعفر بن المنصور العباسي . وكان يونانى الأصل كما يشهد بذلك اسم جده ، ونراه فى شعره ينسب نفسه إلى اليونان مراراً وقد يسميهم الروم أحيانًا من مثل قوله :

ونحن بنو اليونان قومٌ لنا حِجًى ومجدٌ وعيدانٌ صِلابُ المعاجمِ

(١) انظر ترجمته وأشعاره فى مروج الذهب ٤ / ١٨٢ ، ١٩٤ ،وتاريخ بغداد ١٢/٢٣ والموشح للمرزبانى ص ٣٥٧ ، وابن خلكان والنجوم الزاهرة ٣ /٩٦ وشذرات الذهب لابن العماد الحنبلى ٢/١٨٨ ، ومرآة الجنان لليافعى ٢ /١٩٨ وابن داود فى كتابه الزهرة وديوان المعانى للعسكرى فى مواضع متفرقة (انظر الفهرس) وابن الرومى (حياته من شعره) للعقاد وحصادالهشيم للمازنى، ومن حديث الشعر والنثر لطه حسين ، والفن ومذاهبه فى الشعر العربى ص ٢٠٠ . واختيارات كامل كيلانى من ديوانه الضخم وقد نشرها باسم ديوان ابن الرومى ولايزال الديوان مخطوطاً لم ينشر . وانظر اختيارات روفون جيست منه مع دراسة عن حياة ابن الرومى وشعره ترجمة حسين نصار .

وقوله فى مواليه العباسيين :

مولاهمُ وغَذِىُّ نعمتهم والرُّوم — حين تنصُّنى — أَصْلى

ولم تكن أمه رومية ، بل كانت فارسية ، وعلى نحو افتخاره بأصوله من الروم يفتخر بأصوله وخئولته من الفرس ، حتى لينسب نفسه إلى ملوكهم الساسانيين ، وهى نسبة لم يكن عليها حجاب ، فكان كثير من الشعراء ذوى الأصول الفارسيّة يدّعونها ، ومن فخره بنسبه العريق — فى رأيه — من قِبَل أبيه وأمه قوله :

كيف أُغْضى على الدنيّة والفُرْ سُ خُئولى والرومُ هم أَعْمامى

وقد وُلد لأبويه ببغداد سنة ٢٢١ للهجرة نِضْوا ضئيلا نحيلا دميم الوجه تقتحمه العيون ، وظل طوال حياته يَنْعَى على نفسه دقة جسمه وضآلته وقبحه ، وله فى ذلك أشعار كثيرة يصرّح فيها بدمامته وما انضم إلى ذلك من صلعه الذى كان يأخذ معظم رأسه حتى اضطر ألا يخلع العمامة أبداً ، وله مقطوعة يصور فيها صلعه وقبح وجهه ، ونراه يختمها بقوله[1] :

شُغفت بالخرَّد الحسان وما يصلح وجهى إلا لذى ورعِ
كى يعبد الله فى الفلاة ولا يشهد فيها مساجدَ الجمعِ

ويبدو أن أباه كان على شيء من اليسار ، وحقًّا توفى فى مطالع حياته ، ولكن يظهر أنه ترك للأسرة ما يتيح لها على الأقل كفاف العيش . وكان له ابن آخر يسمى محمداً عمل فى الدواوين الحكومية ، كما كانت له فتاة ماتت قبل أمها ، وابن الرومى فى نحو الخمسين من عمره . على كل حال مكّن يسار هذه الأسرة لابن الرومى أن يتجه إلى التعلم فالتحق ببعض الكتاتيب ، وكانت تعنى بتحفيظ القرآن الكريم وتلقين الناشئة النحو وبعض الأشعار والخطب وشيئًا من الحساب ، فالتهم ذلك كله الصبى ، ثم مضى يختلف إلى حلقات العلماء فى المساجد تارة يستمع إلى محمد بن حبيب الراوية المعروف أو إلى زميله ثعلب ، وأخرى يستمع إلى بعض المحدّثين أو بعض الفقهاء أو بعض رواة التاريخ والأخبار . وكانت دار الحكمة التى عُنى

---

(١) الديوان (مختارات الكيلانى) ص ١ .

بها الرشيد والمأمون مدّ يده وعينه ، وكانت تكتظ بكتب الفلسفة وعلوم الأوائل فانقض عليها انقضاضًا يقرأ ويستوعب ويستسيغ ويتمثل تمثلا نادراً[١] . وتكثر فى أشعاره الإشارة إلى حكماء اليونان الأقدمين ، كما تكثر أسماء الكواكب والنجوم . ومما لا ريب فيه أنه كان — كما مر بنا فى غير هذا الموضع — يعتنق الاعتزال .

ويذكر معاصروه أنه كان ضيق الصدر سريع التغير والانقلاب ، وسنرى أثر ذلك فى أشعاره إذ كثيراً ما كان يضيق ببعض ممدوحيه فينقلب هاجيًا لهم ، ويذكر معاصروه أيضًا أن من كان يلقاه يراه كالمتوجِّس المذعور ، وكأنما كان فى أعصابه شىء من الاختلال ، ولعل ذلك هو الذى أعدَّه لأن يصبح أكبر شاعر متطيّر فى عصره . وكان إذا روجع فى كثرة تطيُّره احتج بقوله إن النبى صلى الله عليه وسلم كان يحب الفأل ويكره الطيرَة ، أفتراه كان يتفاءل بالشىء ولا يتطيَّر من ضده ، ويقول إن عليًّا لم يكن يغزو غزاةً والقمر فى برج العقرب ، وكان يزعم أن الطِّيَرَةَ موجودة فى الطباع قائمة فيها[٢] . ويقصُّ معاصروه عن طيرته أخباراً كثيرة ، من ذلك أنه أغلق باب داره ثلاثة أيام لما تصادف من أنه كان يصير إلى الباب والمفتاح معه فيضع عينه على ثقب فى خشب الباب فيرى جاراً له أحدب كان نازلا بإزائه يقعد على الباب . فإذا نظر إليه رجع عن عزمه على الخروج وخلع ثيابه وقال لا يفتح أحد الباب[٣] . وافتقده فى مجلسه بعض الأمراء ، وكان يعلم حاله من الطيرة ، فأرسل له غلامًا يسمى إقبالا ليتفاءل به عند سماع اسمه ، غير أنه لم يكد يعزم على المضى معه حتى بدا له اسمه معكوسًا هكذا : لا بقاء، فقال له امض إلى سيدك وأنبأه بما فى نفسه ! . وأرسل له بعض الأصدقاء غلامًا له يسمى حسنًا ، وكان حسن الوجه ، طالبًا إليه أن يزوره ، فخرج معه ، وإذا أمام داره دكان خياط درفتاه على هيئة اللام ألف ، هكذا : لا ، وحانت منه التفاتة فرأى تحت الدرفتين نوى تَمْر ، فتطير ، وقال إن هذا يشير إلى :

---

(١) أشار أبو العلاء فى رسالة الغفران إلى تفلسف ابن الرومى قائلا إنه كان يتعاطى الفلسفة . انظر طبعة كيلانى ٢/ ٧٤ .

(٢) زهر الآداب للحصرى ٢ /١٧٢ .

(٣) زهر الآداب ٢ /١٧٧ .

أن « لا تمرّ » ورجع إلى داره ولم يذهب مع الغلام[١]. ومن المؤكد أن هذه الأخبار وما يماثلها دخلتها مبالغة كثيرة ، وقد يكون بعضها اختُلق عليه اختلاقاً . ويتوقف القدماء عند قصيدة بائية مدح بها أبا العباس بن ثوابة الكاتب ، وكان قد دعاه لزيارته فى سامرّاء ، فتعلل على سبيل الفكاهة بتصوير مخاطر الرحلة إليها من بغداد برّاً وبحراً بمثل قوله[٢] :

لقيتُ من البَرِّ التباريحَ بعد ما لقيت من البحر ابْيِضاضَ الذوائبِ

وقد مضى يصف دجلة وبلاء الركوب فيه متفكها ، فأدخلوا ذلك فى باب طيرته ، ولا طيرة ولا ما يشبه الطيرة . وليس معنى ذلك أننا نريد أن ننفى تطيره ، إنما ننفى المبالغة فيه ، أما بعد ذلك فقد كان ابن الرومى يتطير حقّاً ، واشتهر بذلك بين معاصريه ، حتى لنرى الأخفش على بن سليمان النحوى ، وكان قد هجاه ، يقتصّ لنفسه منه ، بأن يقرع عليه الباب فى الصباح ، فإذا قال من القارع ؟ أجابه بمثل مُرَّة بن حنظلة أو حرب بن مقاتل وغير ذلك من الأسماء التى تملؤه طيرة ، فيحبس نفسه فى بيته ، ولا يخرج يومه أجمع[٣].

وقد تفتحت موهبته الشعرية مبكرة ، وهو لا يزال حَدَثاً فى الكتّاب ، إذ تُرْوَى له أبيات حينئذ فى هجاء غلام عباسى يسمى جعفراً كان زميلا له ، وكأن ذلك كان إرهاصًا بأن الهجاء سيغلب عليه طوال حياته . وقد مضى يتخذ الشعر — كلِداته — حرفة يتكسب بها ، فهو يعرضه على عِلْيَة أهل بغداد ، وكان طبيعيّاً أن يعرضه على كبار الموظفين ورجال الدولة وفى مقدمتهم أبو العباس محمدبن طاهر حاكم بغداد منذ سنة ٢٣٧ ، وأسرة الطاهريين معروفة كان طاهر بن الحسين قائداً للمأمون وهو الذى قضى على ثورة الأمين ، وكان ابنه عبد الله بن طاهر أميرًا لخراسان وخلَفَه عليها ابنه طاهر. وحاول ابن الرومى الزلفى إلى محمد بالمديح ، ويبدو أنه لم يكن يتسع فى ثوابه ومكافأته ، وكان على علم بالشعر ، فأخذ ينقد بعض أشعار ابن الرومى ، وغاظ الشاعر الشاب نقده . بل لقد أخذ يحرمه نواله ، مما جعل ابن

(١) انظر فى هذه الأخبار زهر الآداب وذيله ص ٢٤٢ والعمدة لابن رشيق ١/ ٤٠ ومعاهد التنصيص ١/ ١٤٣ .

(٢) انظر القصيدة فى الديوان ص ٢ .

(٣) ذيل زهر الآداب ص ٢٤٣ ومعاهد التنصيص ١/ ٤٣ .

الرومى يوجه إليه مثل قوله[١] :

مدحت أبا العباس أطلب رِفْده   فخيَّبَنى من رفده وهَجَا شعرى

ويبدو أنه كان بخيلا ، وأن بخله كان السبب الحقيقى فى انصرافه عن الشاعر ، متعللا بأنه لا يعجب بشعره ، مما جعل ابن الرومى يصبّ عليه سياطًا حامية من الهجاء ، وهو يعمم فلا يقف بهجائه له عنده وحده ، بل يعمّ به أسرة الطاهريين جميعًا من مثل قوله[٢] :

إذا حسنتْ أخلاق قوم ٍ فبئسما   خلقتم به أسلافكم آلَ طاهرِ
جنوا لكمُ أن تُمْدَحوا وجنيتمُ   لموتاكمُ أن يُشْتَمُوا فى المقابر

وترنو عينه إلى سامرَّاء حاضرة الخلافة ومجمع كبراء رجال الدولة ووزرائها وموظفيها العظام، ويقْدم عليها لعهد المنتصر سنة ٢٤٨، ويمدح أحمد بن الخصيب وزيره ، ويعود سريعًا إلى بغداد ويظهر أنه وجد الأبواب مغلقة أمامه . وقد يكون السبب الحقيقى فى ذلك أنه عزف عن سامراء لتشيُّع فيه كان يضمره فى نفسه ، فتركها وعاد إلى مسقط رأسه . ولا يلبث يحيى بن عمر العلوى أن ينهض بثورة عارمة فى الكوفة ضد الدولة ، ويجند جيشًا كثيفًا لحرب العباسيين ، ويلتقى به محمد بن عبد الله بن طاهر لسنة ٢٥٠، وتدور عليه الدوائر ، ويقتل فى ساحة المعركة ويغضب له ابن الرومى غضبًا شديداً ، ويرثيه بجيمية[٣] طويلة ، يندبه فيها ندبًا حارًّا ، مصوراً حرقة حزنه عليه بمثل قوله :

سلامٌ وريحانٌ ورَوْحٌ ورحمةٌ   عليك وممدودٌ من الظل سَجْسَجُ
ويا أسفى أن لا يردَّ تحيَّةً   سوى أَرَج ٍ من طيب نَشْرك يَأْرَجُ
ألا إنما ناح الحمائم بعد ما   ثويتَ وكانت قبل ذلك تهزج

ولا يبكيه وحده ، بل يبكى العلويين جميعًا منذ شهيدهم الحسين المقتول فى كربلاء ، ويتفجع على قتله مصوراً جزاءه فى عِلِّيين ، ويأسى أن يكون للعلويين

(١) الديوان ص ٤٣٨ .
(٢) الديوان ص ٣٩٦ .
(٣) الديوان ص ٢٢٤ .

دائماً قتيل مضرج بالدماء دون خوف من الله وانتقامه ودون أى رعاية للرسول عليه السلام وآل بيته ، ويتناول العباسيين فى جرأة ، ويتوعدهم أن يُرَدّ الأمر إلى نصابه وأن يرجع الحق إلى أهله ، على يد علوى ثائر ، يحطم العباسيين بجيشه الكثيف حطماً . ويتوجه إلى محمد بن عبد الله بن طاهر بالخطاب متمنياً أن تزول دولته ودولة آله فى خراسان ، ويعلن أنهم أعداء الرسول والإسلام جميعاً ، وأن دولتهم لا بد أن تدول وتُمْحَق محقاً فينطفئ غليل الصدور وتبرأ القلوب الكليمة .

وعلى هذا النحو أصبح ابن الرومى يجاهر بتشيعه ، ولعل هذا الجانب فيه هو السبب الحقيقى فى أنه لم يحاول المثول بين يدى الخلفاء مادحاً ، وبالتالى لم يظهر فى مجالسهم بسامراء ، ومع ذلك كان كثير التردد عليها ، ولكنه لم يكن يتجاوز عتَبة الوزراء ، ويلاحظ أنه لم يحاول أن يمدح قواد الترك ، وكأنهم كانوا أبعد من أن يفهموا الشعر أو يثيبوا عليه ، ويشير الطبرى إلى ذلك بقوله : إنهم لم يكونوا يعرفون حدود الكلام[1] . ونمضى مع ابن الرومى بعد مرثيته الشيعية الآنفة الذكر ، فنجده يقف مع عامة بغداد لسنة ٢٥١ حين لجأ إليها الخليفة المستعين ، ووقعت الحرب بينه — ومعه أهل بغداد — وبين المعتز الذى بايعه الترك والجند فى سامراء وينضم محمد بن عبد الله بن طاهر إلى عامة بغداد ، ويحارب معهم جند المعتز ، وتصفو العلاقة حينئذ بين ابن الرومى وابن طاهر ، وبدا فى نهاية الأمر رجحان كفة جند المعتز ، فجنح ابن طاهر إلى الصلح وخلع المستعين ، وانتهت الأمور بعزله ثم قتله فى سنة ٢٥٢ . ويغضب ابن الرومى ولكن كأنما ذلك كان سحابة عارضة ، فتظل صلته بابن طاهر وثيقة ، على نحو ما يتضح من دالية له يرثيه بها حين توفى سنة ٢٥٣ افتتحها بقوله[2] :

إن المنيَّة لا تُبقى على أحَـدِ   ولا تهاب أخا عزٍّ ولا حَشَدِ

وفيها يُشيد بكرمه وعدله فى الرعية واصفاً حزنها لفقده وألمها لموته وما سكبت عليه من عبرات . ويتولى مكانه حكم بغداد أخوه عبيد الله بن عبد الله بن طاهر ،

---

(١) الطبرى ٩/ ٢٨٤ .

(٢) الديوان ص ٥٠ .

وهو أكثر الطاهريين معرفة وأدبًا ، وله كتب مصنفة مختلفة وأغان مدوَّنة .
وهو أقرب ممدوحى ابن الرومى إلى نفسه ، فقد أغدق عليه جوائز وأموالا كثيرة ، وكان شاعراً ، يحسن فهم الشعر وتذوقه ، كما كان يحسن الفلسفة وفروعها المختلفة ، ومرَّ بنا تعرضه للبحترى ووقوفه ضده مع ابن الرومى ممثلا للذوق الجديد فى الشعر لعصره . ووجد فيه ابن الرومى راعيه الحقيقى ، راعيه المادى الذى يجزل له فى العطاء وراعيه المعنوى الذى ينوِّه بأشعاره ويصفق لطرائفه استحسانًا ، وراعيه ضد خصومه أصحاب الذوق الأدبى المحافظ من أمثال البحترى . وهكذا وجد عنده كل ما كان يبتغيه لنفسه ، وكان عبيد الله يذهب إلى سامراء كثيراً للقاء الخليفة ، فكان يصحب معه ابن الرومى . ونراه يمدح أحمد بن إسرائيل وزير المعتز لسنة ٢٥٣ ويتعرَّف فى هذه الأثناء بأبى العباس أحمد بن ثوابة كاتب القائد التركى بايكباك لعهد المعتز والمهتدى ، وأصبح فيما بعد رئيس ديوان الرسائل ، وهو كاتب نابه ، ومرَّت بنا إشارة إلى مدحة له نظمها حين دعاه لزيارته فى سامراء معتذراً بمخاطر الرحلة برًّا وبحراً ، آملا أن تصله مكافأته فى بغداد ، ولا تمضى صلته بابن ثوابة إلى نهاية الطريق[1] . وهكذا هو دائمًا سرعان ما يتغير على ممدوحيه ، إما لقلة الجائزة وإما لمنعها منه وحرمانه ، وإما لأنه تخيَّل أى شىء عارض جعله يظن بصديق الأمس الظنون . ويتعرف عنده على أبى الحسن بن على الباقطانى كاتبه ونراه يعاتبه لتقديمه البحترى عليه[2] . وأهم من ابن ثوابة وكاتبه أنه تعرف منذ سنة ٢٥٥ على أبى الصقر إسماعيل بن بلبل رئيس ديوان الضياع ، إذ نراه يهنئه برياسته لهذا الديوان ، وسنراه فيما بعد يكثر من مديحه حين أصبح وزيراً للمعتمد . ويتردد على واسط ليمدح آل أبى شيخ .

ويُعزَل عبيد الله بن عبد الله بن طاهر عن حكم بغداد سنة ٢٥٥ ويولَّى مكانه أخوه سليمان ، وكان أميراً لطبرستان فأخرجه منها الحسن بن زيد العلوى بعد حروب ومعارك طاحنة ، وكأنما أُعطى بغدادَ مكافأة له على هزيمته ! . ويقف ابن الرومى فى صف عبيد الله ، ويعجب كيف يُعزل ويولَّى مكانه هارب ، وكأنما يُجزَى بذلك خير الجزاء ، أو قل كأنما هى غنيمة نالها ببأسه وشجاعته ، وإنه

---
(١) انظر مدحته له فى الديوان ص ٦١ .
(٢) الديوان ص ٢١٧ .

الخذلان من شأنه أن يصرف الناس عن الإقدام فى الحروب ، ويسخر منه فى مقطوعات مختلفة من مثل قوله[١] :

هو الأَسدُ الوَرْدُ فى قَصْرِه ولكنه ثَعْلَبُ المعركه

ويحدث أن يُجْمع الأتراك أمرهم ويصمموا على خلع المعتز ، لإقدامه على قتل بعض رؤسائهم ، ويرسلوا إلى سليمان بن عبيد الله بن طاهر حاكم بغداد أن يبعث إليهم بمحمد بن الواثق ليبايعوه بالخلافة ، ويبعث به ، وكأنما يجد ابن الرومى فى فى ذلك نكثاً من سليمان لبيعته للمعتز ، فيُصليه بقطعة من هجائه قائلا[٢] :

جاءَ سليمان بنى طـــاهرٍ فاجتاح معتزَّ بنى المعتصمْ
كأَن بغداد لَدُنْ أَبصرتْ طلعتَه نائحةٌ تَلْتَدم
مستقبَلٌ منه ومستدبَرٌ وَجْه بخيلٍ وقفا منهزم

وتتطور الظروف ، ويجيب المعتز قواد الأتراك إلى الخلع ، ويُحْبَسُ ويقتل فى محبسه بعد خلعه بستة أيام ، وحينئذ نرى ابن الرومى يغيّر موقفه من المعتز فيحذّره حين حُبس من أن يعاوده التفكير فى الخلافة ، وينظم فى ذلك قصيدة بائية يقول فيها[٣] :

دَعِ الخلافة يا معتزُّ من كَثَبٍ فليس يكسوك منها اللهُ ما سَلَبا

ويتغيَّر تبعاً لذلك موقف ابن الرومى من سليمان بن عبد الله بن طاهر ، ويهديه بعض مدائحه، ويمنحه سليمان بعض الجوائز ، ثم يحدث أن جاراً ماكراً له من تجار بغداد كان يعرف باسم ابن أبى كامل تطمح نفسه إلى شراء داره ، ويحاول أن يجبره على بيعها باغتصابه لبعض جدرانها وإفساد بعض جوانبها ، ويَسْتعدى عليه سليمان[٤] بن عبد الله بكافية طريفة سبق أن أنشدنا منها فى الفصل الماضى تعليله المشهور فيها لمحبة الأوطان ، وهو يدور على كل لسان ، وفيها يقول مصراً على أنه لن يبيع داره :

ولى وطَنٌ آليتُ أَن لا أَبيعَهُ وأَنْ لا يُرَى غيرى له الدهرَ مالكا

---

(١) الديوان ص ٣٤١ .
(٢) الديوان ص ٢٨ .
(٣) الديوان ص ٤٥١ .
(٤) انظر زهر الآداب ٣/٩٩ .

ولوّح لسليمان بأنه يريد منه عوناً مالياً يصلح به داره ، ولكن سليمان لم يبادر إلى عونه ، فسخط عليه سخطاً شديداً وعاد إلى هجائه بالجبن والبخل ، وكان جده طاهر يلقب بذى اليمينين ، فقال فيما قال من هجائه :

له شِمالان حاز إرْثَهمــا عن ذى اليمينين شدَّ مــا اختلفا

ويدخل عصر المعتمد وأخيه الموفق الذى كان يُعَدّ الحاكم الحقيقى حينئذ ، إذ قلّم أظفار الجند الأتراك وقضى على ثورة الزنج قضاء مبرماً وهزم يعقوب الصفار هزيمة نكراء ، ودان له الولاة : الطولونيون وغيرهم مذعنين خاضعين ، وكان يتخذ صاعد بن مخلد كاتباً له ، ورفعه إلى مرتبة الوزارة سنة ٢٦٥ وامتد يُمْنه حينذاك إلى ابنه العلاء فأصبحت بغداد وواليها تابعين له ، وكان عبيد الله قد عاد إلى حكم بغداد سنة ٢٥٩ وظل يحكمها ثلاث سنوات ، ثم وليها محمد بن طاهر بن عبد الله ابن طاهر ثم عاد إليها عبيد الله تابعاً للعلاء بن صاعد سنة ٢٦٦ حتى سنة ٢٧١ . وأقبلت الدنيا على ابن الرومى مع إقبالها على صديقه عبيد الله . فكانت تلك السنوات أهنأ أيامه ، وأكثر فيها من مديح عبيد الله مع كل مناسبة : مع أعياد النيروز والمهرجان ومع عيدى الفطر والأضحى . وفى ديوانه مدائح مختلفة لصاعد وابنه العلاء ، ويغلب أن يكون اتصل بهما مبكراً ، حتى إذا أصبحت بغداد وعبيد الله ابن عبد الله بن طاهر تابعين للعلاء أكثر من الصلة بهما ومن مديحهما ، وله فيهما دالية[1] طويلة . وفيهما يقول :

وكل مديحٍ لم يكن فى ابن صاعدٍ ولا فى أبيه صاعدٍ فَهْوَ حابِطُ

وكانت قد أخذت المنافسة بينه وبين البحترى تمتدّ ، وانقسم الأدباء قسمين : قسماً هو الأكثر لما كان يؤازره من اللغويين ، وهم أنصار البحترى ، وقسماً مقابلا هو أنصار ابن الرومى وفى مقدمتهم عبيد الله بن عبد الله بن طاهر كما أسلفنا ، ونرى ابن الرومى يهجو خصمه ببائية طويلة[2] يقول فيها إن الحظ أعمى ولولا ذلك ما نال البحترى ما نال من الشهرة بشعره الغث فى رأيه ، ويزعم أنه ليس له فيه شىء فكله إغارات وسرقات ونهب من دواوين أسلافه ، ويستعدى عليه — كما مرّ بنا فى غير هذا الموضوع — العلاء بن صاعد الذى أمّن الطرق من اللصوص قائلا :

(١) الديوان ص ٣٩٠ .
(٢) الديوان ص ٣٤ .

أيسرقُ البحتريُّ الناسَ شعرهمُ جهرًا وأنت نكال اللصِّ ذى الرِّيب
يعيبُ شعرى وما زالت بصيرتُه عمياءَ عن كل نور ساطع اللَّهبِ

وفى البيت الثانى ما يدل على أن البحترى كان بدوره يبادله نقداً لشعره ، وغضب له عبيد الله بن عبد الله بن طاهر كما مرَّ بنا ، وأصلَى البحترى أشعاراً حامية ، نعى فيها عليه أنه غير مثقف بالثقافة الفلسفية الحديثة مثل ابن الرومى الذى لا يُلْحَقُ شأوه ، والذى تَعمق الفلسفة والمنطق . وردَّ عليه البحترى كما أسلفنا فى حديثنا عنه . وما زالت المنافسة مشتدة بين الشاعرين حتى جمع بينهما بعض الأدباء مثل سليمان بن الحسن بن مخلد وعبد الله بن الحسين القطربُّلىّ ، فتصافيا وتوادَّا واعترف كل منهما بفضل صاحبه .

ومن الغريب أن ابن الرومى لم يكن يستطيع أن يُبْقى على علاقة حسنة بوزير أو بابن وزير ، فقد كان يكفى كل منهما ألا يُنفذ إليه الجائزة أو يقالل منها ، فإذا هو خصم لَدُودٌ ، وإذا هو يَسُلُّ لسانه ويَبْرى شعره سهامًا مُدْمية . وهو ما حدث بينه وبين صاعد وابنه العلاء ، فقد أخذا يهملان نواله على مدائحهما بعض الإهمال واستشاط غضبًا ، وأخذ ينزل عليهما شُواظ هجائه من مثل قوله[1] :

لِيَهْنِكُم أنْ ليس يوجد منكمُ لبوسُ ثياب المجد لكن خَلُوعها

وظل يتشفَّى حتى بعد سقوطهما والإلقاء بهما فى غياهب السجون سنة ٢٧٢ . وكان يتصل ببعض كبار موظفى الدولة ، وكان منهم من يتعصب للبحترى فكانوا يردُّونه ردًّا قبيحًا ، وقد يهملونه ولا ينيلونه أى عطاء على ما يقدِّم إليهم من المدائح ومن خير الأمثلة على ذلك إبراهيم بن المدبر ممدوح البحترى وصديقه الذى ولى ديوان الرسائل حينًا وتولى ولايات مختلفة . وكان قد اشترك — كما مر بنا فى الحديث عن البحترى — فى حرب الزنج ، ومدحه ابن الرومى فلم يلتفت إليه ، وتصادف أن كان يلى خراج الأهواز سنة ٢٥٧ ودخلها بعض جنود صاحب الزنج فثبت لهم فيمن ثبتوا ، وأصابته شَجَّة فى وجهه ، وأسر ، واستطاع التخلص من أسره ، ونرى ابن الرومى يشمت به ، ويسجل عليه جبنه وبخله فى قصائد ومقطوعات مختلفة ، وله يقول[2] :

---

(١) الديوان ص ٥١ . (٢) الديوان ص ٦٦ .

قل لى بأَية حيلة أَعملتَها هتفوا بـأَنك ـ لاحُفظتَ ـ جوادُ
لقد استفاض لك الثناءُ بحيلة صعب الأُمور بمثلها ينقادُ

ومرَّ بنا أنه تعرف على أبى الصقر إسماعيل بن بلبل منذ عصر المعتز حين أصبح رئيس ديوان الضياع فى سامرَّاء ، وظل منذ هذا الحين موصولا به ، وكان الموفق قرَّبه منه واتخذه كاتبًا له ، فكان يغدو عليه ويروح سواء حين يكون فى سامرَّاء ، أو مع الموفق فى واسط فى أثناء معاركه مع الزنج . ورفعه الموفق إلى مرتبة الوزارة فترة لسنة ٢٦٥ حتى إذا نكَّل بصاعد سنة ٢٧٢ استوزره من بعده له ولأخيه المعتمد ، وفرح ابن الرومى بما ناله ، فدبَّج فيه قصيدة طويلة[1] ، استهلها بالغزل نافذاً إلى طريقة جديدة ، إذ عرض من خلال وصفه لصاحبته ما فى الحدائق من فواكه شهية ، حتى سماها عبيد الله بن عبد الله بن طاهر دار البطيخ أى حانوت الفواكه ، ومضى بعد ذلك فى مديح أبى الصقر مدحا رائعًا ، غير أنه لما استمع إلى قوله :

قالوا أبو الصقر من شيبان قلت لهم كلا لعمرى ولكن منه شيبانُ

ظن أنه يعرّض به ، لأنه كان يدعى نسبه من شيبان ولم يكن شيبانيًّا حقيقة فقال : هجانى ، وراجعه بعض الحاضرين قائلا له : إن هذا من أحسن المدح ، ألا تسمع ما بعده :

وكم أَبٍ قد علا بابنٍ ذُرَى شرفٍ كما علتْ برسول الله عدنانُ

فقال : أنا بشيبان ، وليست شيبان بى ، وملأه الغيظ والغضب على ابن الرومى ، فقيل له : ألم تسمعه يقول :

ولم أُقصِّر بشَيْبانَ التى بلغتْ بها المبالغَ أَعراقٌ وأَغصانُ
لله شيبانُ قومٌ لا يشوبهمُ رَوعٌ إذا الرَّوع شابتْ منه وِلْدان

فاستمر فى غـيِّـه وسوء فهمه ، وقال : والله لا أثيبه على هذا الشعر[2] . وواضح أن أبا الصقر لم يفهم معانى القصيدة ولامراد ابن الرومى فى البيت الأول وغيره من

(١) الديوان ص ٢٠ .
(٢) زهر الآداب ١/ ٢٤٤ وما بعدها .

الأبيات ، فكان طبيعيًّا أن يحرمه الجائزة ، وكأنه أيضًا لم يفهم قوله فى القصيدة مادحًا له :

فَرْدٌ جميعٌ يراه كلُّ ذى بصرٍ كأنه الناسُ طُرًّا وهْو إنسانُ

ولم يكن هذا وبالا على ابن الرومى بقدر ما كان حرباً على ابن بلبل فقد أخذ يهجوه ابن الرومى هجاء مرًّا ساخراً من ادعائه أنه شيبانى حقيقة ، مثبتًا عليه أنه دعىٌّ فى شيبان لصيقٌ بها ، يقول ساخراً هازئًا به(١) :

تَشَيْبَن حين همَّ بأَن يشيبا لقد غلط الفتى غلطاً عجيباً ؟

وقد مضى يذكر أن شيبان ستشيب من هذا الخطب الجسيم ، إذ يدعى النسب فيها أعجمى نبطى ، وينعى كيمياء الحظوظ التى أتاحت له مجد الوزارة . ويظل يهجوه حتى يزج به المعتضد فى السجن لعام ٢٧٩ وما يلبث أن يموت فى سجنه ، وابن الرومى فى أثناء هذه النكبة التى حلَّت به يهجوه أهاجى كثيرة من مثل قوله(٢) :

فلئن نُكبتَ لطالما نُكبتْ بك همةٌ لجأَتْ إلى سَنَدِكْ

يا نعمةً ولَّتْ غضارتُها ما كان أَقبحَ حُسْنها بيدكْ

وكان عبيد الله بن عبد الله بن طاهر قد عُزل عن حكمه لبغداد سنة ٢٦٢ ثم عاد إلى حكمها — كما مرَّ بنا — فى سنة ٢٦٦ فكان يكتفى بالمعيشة فى ظلاله . وكانت العلاقة بينهما — كما أسلفنا مراراً — وثيقة ، ووظَّف له أخوه محمد فى بعض فترات حكمه لبغداد ، ومات وهو فى خدمته وماتت قبله بمدة أمه ، وله فيهما مرثيتان .

وكان طبيعيًّا أن يكثر مديحه لبعض ذوى البيوتات فى بغداد وفيما حولها من المدن والضواحى ، وممن نراهم ماثلين فى ديوانه بنو فياض وهم يرجعون إلى أصول فارسية ، وكانت لهم إقطاعات وضياع واسعة فى دير العاقول بالقرب من بغداد ، وتَمثُلُ فى ديوانه أسرة بنى نوبخت الفارسية الأصل ، وهى تشتهر من قديم بثقافة

(١) الديوان ص ٤٨ .

(٢) زهر الآداب ١/٢٤٤ وما بعدها .

أبنائها وكثرة ما ترجموا من الفارسية إلى العربية ، وأهمُّ شخص يُكثر من مدحه بينهم أبو سهل إسماعيل بن على ، وكان من رءوس الشيعة ، ويقال إنه مؤسس الفرقة الإثني عشرية ، وفى صلته به ما يؤكد تشيعه وأن من الممكن أن يكون على مثاله إمامياً يعتنق مذهب الاثنى عشرية . ومن الأسر التى أكثر من مدحها أسرة بنى حماد قضاة بغداد ، خاصة منهم القاضى إسماعيل بن حماد المتوفى سنة ٢٨٢ ونراه يمدحه فى قصيدة بائية محاولا أن يبرئ نفسه من تهمته بالزندقة التى نُقلت إليه ، ويستشهد على صحة براءته بابنين عدلين للقاضى يعرفان حقيقة أمره ، ويستحثه على التنكيل بوشاة السوء الذين دبَّروا اتهامه بهذه التهمة النكراء ، ويقول إنهم هم الذين دبَّروا الثورة عليك وجعلوا العامة ترمى دارك بالحصى والحجارة ، يقول[1] :

حملوا حملةً على الدين تَحكى ... حملة الروم رافعين الصَّليبا

وأرادوا بك العظيمة لكنْ ... أوسع الله سعيهم تخييبا

وكأن الغوغاءَ لما تَغاووا ... فرموا داركم قضوا تحصيبا[2]

زعموا أن ذاك غزوٌ وحجٌّ ... تبَّب اللهُ أمرهم تَتْبيبَا

ولم تَرْوِ كتب التاريخ هذه الفتنة أو الثورة ضد القاضى ، ولعل فى ذلك ما يدل على أن الشعر فى هذا العصر يقدم إلى المؤرخين وثائق تاريخية قد لا يجدونها فى كتب التاريخ المعروفة ، على نحو ما مرَّ بنا عند البحترى وتسجيله لمعركة ابن دينار البحرية ضد الأسطول البيزنطى وحرقه ، فإن كتب التاريخ لم تشر إلى ذلك بحرف . وتتردد فى الديوان أسماء أصدقاء كثيرين فى مقدمتهم أبو عثمان الناجم راويته ، وقد حضر موته ، وابن المسيب الكاتب وأحمد بن عبيد الله وأحمد بن بشر المَرْثدى وكان كاتبًا فى ديوان الموفق وابن عمار[3] ، وكان شاعراً ومن نقدة الشعر فى عصره . وأكثر قصائده التى وجه بها إلى المرثدى يطلب إليه فيها بعض السمك ، ويقال إنه كان قد وعده أن يبعث إليه كل يوم بوظيفة منه لا يقطعها ، فبعث إليه يوم سبت

---

(١) الديوان ص ٣٠٩ .

(٢) التحصيب هنا : رمى الجمار بمنى .

(٣) انظر توصيته لأبى سهل بن نوبخت به فى الديوان ص ١٢٣ .

بهدية منه ، ولم يرسل السبت التالى . فكتب إليه قصيدة يقول فيها[١] :

ما لحيتاننا جَفَتْنا وأنَّى أخلفَ الزائرون منتظريهم
قد سَبَتْنَا وما أتَتْنا وكانوا يوم لا يسبتون لا تأتيهم

ومن الشخصيات التى ظل يمدحها طويلا على بن يحيى المنجم ، وهو من كبار المثقفين فى عصره ، وسبق أن تحدثنا عن مكتبته العظيمة ، وكان شاعراً ونديماً رفيعاً للخلفاء من المتوكل إلى المعتمد، ولا يُعْرف بالضبط بدء اتصال ابن الرومى به وله فيه قصائد ومقطوعات كثيرة ، واه يعاتبه[٢] :

لِتَهْنَأْ رجالٌ لا تزال تجودهم سحائبُ من كلتا يديك مواطرُ
عُنيت بهم حتى كأنك والدٌ لهم وهم - دونى - بنوك الأصاغر

وممن تدور أسماؤهم فى ديوانه جَحْظة ، وكان شاعراً ويحسن الضرب على الطبل، وكان ينادم المعتمد ، وهو نديم من نوع آخر غير نوع على بن يحيى المنجم ، نديم مضحك ، يتَّخذ للهزؤ به والفكاهة . وكان يصطدم بكثير من الشعراء فى عصره فيكويهم بأهاجيه ، وفى مقدمتهم مثقال وهو محمد بن يعقوب الواسطى ، وإبراهيم البيهقى شاعر عبيد الله بن عبد الله بن طاهر ، وأبو حفص الوراق، وابن أبى طاهر وابن الخبازة وخالد القحطبى ، فقد كان يُشبُّ مع كل شاعر منهم معركة حامية الوطيس ، وكان دائماً هو المنتصر لخصب ملكاته وخياله . وتعرض بالهجاء للمبرد لأنه كان يقف فى صف البحترى ضده ، وتبعه تلميذه الأخفش فى هذا التعصب ولم يكتف بإعلان رأيه فى شعره ونقده فقد كان يأتيه من قبل تطيره كما أسلفنا ، وممن كان يعيب شعره نفطويه النحوى ، ولذلك لم يسلم من أهاجيه .

ويُظلّه عصر المعتضد منذ سنة ٢٧٩، وكانت قد عادت الخلافة إلى بغداد حاضرتها السابقة منذ سنة ٢٧٦ ، ويحس كأن الحياة أقبلت عليه وعلى مسقط رأسه كليهما . ويكثر من ذكر المعتضد فى قصائد ومقطوعات مختلفة ، ويبدو أنه لم ينشد أمامه واحدة منها ، فقد كان تشيعه لا يزال يبعده عن القصر ، وفى رأينا أنه

---

(١) ذيل زهر الآداب ص ٢٣٩ .

(٢) الديوان ص ٣٤٢ .

هو السبب الأهم فى أن الوزراء كانوا يقبلون عليه ثم يزورُّون عنه اضطراراً لما ذاع من تشيعه. ونرى ابن الرومى يتعرض فى أشعاره له لبسالته فى حروب الزنج، ولتأخيره النيروز مفتتح الخراج إلى الحادى عشر من حزيران وسماه النيروز المعتضدى قاصداً بذلك إلى الرفق بالرعية — كما مرَّ بنا فى غير هذا الموضع — وكان عملا جليلا. ويذكر بسالته فى صيد الأسد، ويهنئه بالأعياد وبزواجه من قَطْر الندى الأميرة المصرية بنت خمارويه لسنة ٢٨١ وله يقول فى هذه المناسبة[1]:

يا سيد العُرْب الذى زُفَّتْ له ... باليُمْن والبركات سيدة العجَمْ
اسْعَدْ بها كسُعودها بك إنهـا ... ظفرتْ بما فوق المطالب والهمم
ظفرتْ بِمِلْئَىْ ناظريها بهجةً ... وضميرها نبلا وكفَّيها كرم
شمس الضحى زُفَّتْ إلى بدر الدُّجَى ... فتكشَّفت بهما عن الدنيا الظُّلم

وكانت الوزارة قد تحولت منذ سنة ٢٧٨ إلى آل وهب، ويبدو أن صلة الشاعر بهم ترجع إلى أمد أبعد من ذلك، وبمجرد وصولهم إلى الوزارة نراه يقدم مدائحه لعبيد الله بن سليمان بن وهب، وكان كاتبًا مجيداً، ومدبراً لشئون الدولة حصيفًا، وكان له أخ يسمى وهبًا مدحه ابن الرومى فى غير قصيدة كما مدح ابنيه الحسن والقاسم، وهو يهلل طويلا لمجىء دولتهم، وتارة يمدحهم مجتمعين باسم آل وهب، وتارة يفرد لكل منهم القصائد الطويلة، ومن قوله فى مديح عبيد الله[2]:

إذا أبو قاسمٍ جادتْ يداهُ لنـا ... لم يُحْمد الأَجودان: البحر والمطَرُ
وإن مضى رأيه أو حَدَّ عزمتهُ ... تأَخر الماضيان: السيفُ والقدر
وإن أَضاءتْ لنا أضواءُ غُـرَّتهِ ... تضاءَل النيِّران: الشمسُ والقمر
ينال بالظن ما يَعْيَى العِيانُ بهِ ... والشاهدان عليه: العَيْن والأَثَرُ

وكان القاسم الابن الأصغر لعبيد الله إلا أنه كان مقدماً عنده لذكائه، ولذلك

---

(١) مروج الذهب للمسعودى ١٨٢/٤.

(٢) ابن الرومى للعقاد (نشر المكتبة التجارية) ص ٢٦٥.

أخذ يولّيه بعض المناصب وهو صغير ، وكان إذا غاب أنابه عنه . وكان يعطف على ابن الرومى قبل تولى أبيه الوزارة ، ويقال إنه كان يجرى عليه راتبًا ، حتى إذا دانت الدنيا لأبيه أخذ يُجزل له فى العطاء ، مما جعل ابن الرومى يُصفيه مديحًا رائعًا . ولا نكاد نقبل على سنة ٢٨٢ حتى تُعاود ابن الرومى طبيعته، وكأنما ضاق القاسم وأبوه بكثرة شكواه وإلحاحه المتكرر على العطاء ، ويبدو أن بعض الوشاة الحساد أخذوا يدسون عليه عندهما ، فحاولا إبعاده ، وشعر بضيق شديد فأخذ يعاتبهما ، وازداد الأمر — فيما يبدو — سوءاً إذ منعا عنه الجائزة أحيانًا ، فأخذ يستعطفهما ، غير أنهما لم يصيخا له ، على الرغم من استصراخهما لبؤسه ، وعبثًا يناديهم ألا يضنوا عليه بالقوت وأن يعرفوا له حق الأديب[1] حينئذ يفزع إلى قوسه القديم ، قوس الهجاء المرير ، ويريش لهما سهامًا مصمية من مثل قوله[2] :

تسميتمُ فينا ملوكاً وأنتمُ ... عبيدٌ لما تَحْوى بطونُ المزاودِ
لكم نعمةٌ أَضحتْ بضيق صدوركم ... مبرَّأَةً من كلِّ مُثْنٍ وحامد
فإن هى زالت عنكمُ فزوالها ... يجدِّد إنعاماً على كل ماجد

ويفسد ما بينه وبين آل وهب فساداً لا يمكن رَأْبه .

وتتردد فى الديوان بأخرة من حياة ابن الرومى شخصيات من آل الفرات الذين سيسطع نجمهم فى عهد المقتدر ، كما تتردد أسماء شخصيات كثيرة مثل أحمد بن محمد الطائى والى الكوفة لعهد المعتمد ، ويبدو أنه ظل متصلا به حتى أواخر حياته . ويلقانا محمد بن داود بن الجراح الكاتب وأحمد بن محمد الواثقى صاحب شرطة بغداد وعيسى بن موسى المتوكل الذى نعى عليه بخله بمقطوعات ساخرة ، وكاتب مسيحى للقاسم يسمى عَمْراً ، وله فيه أهاج تقطر سمًا زعافًا ، وابن فراس وكان فيما يبدو لغويًا .

---

(١) الديوان ص ٢١٢ .

(٢) الديوان ص ٣٩٦ — ٣٩٧ وانظر مقطوعة فى كتاب ابن الرومى لروفون جيست ص ١٧٨ يدعى فيها أن آل وهب أحيوا دين الصليب وعنوا بتشييد الكنائس وهدم المساجد .

ويغـَص ّ الديوان بأسماء كثير من الجوارى القيان المطربات مثل بستان وجلنار وبدعة وشاجى ودُريرة وغنَّاء ووحيد ومظلومة وظلوم ، وأكثرهن كن لوزراء أو لأمراء مثل عبيد الله بن عبد الله بن طاهر والقاسم بن عبيد الله ، وكان بجوارهن قينات وجوار لا يعجب بأصواتهن ولا بسماعهن ، مثل شُنْطف ، وفيها يقول[1] :

وإن سكوتها عنـدى لبُشْرى   وإن غناءها عنـدى لمَنْعَى

فقرّطْهـا بعقرب شَـهْر زُورٍ   إذا غنَّت وطوّقهـا بأَفْعى

ومن أهم جوانب الضعف فيه أنه كان نهماً فى الأكل نهماً شديداً، ولذلك يكثر فى أشعاره وصف الأطعمة من كل لون حلو وحامض، كما يكثر وصف الأشربة ، ومن عجب أن القدماء وصلوا بين هذا النهم وموته لسنة ٢٨٣ أو ٢٨٤ فقالوا إن القاسم بن عبيد الله دسّ إليه السم فى خشكنانجة ، فلما ازْدَردَها أحسّ بالسم فى بطنه فقام مسرعًا ؛ فقال له القاسم إلى أين ؟ فأجابه إلى حيث أرسلتنى ، فقال له : سَلّم على والدى عبيد الله ، فأجابه : ما طريقى على النار . والصحيح أنه توفى عن نحو ستين عامًا نتيجة لعلله وأمراضه ، وهى على كل حال سن عالية .

ولابن الرومى ديوان ضخم لم ينشر حتى الآن ، إنما نشر منه الشيخ محمد شريف سليم جزءين ، ونشر منه كامل كيلانى مختارات باسم ديوان ابن الرومى ، وهو الذى نرجع إليه غالبًا . ومن يتصفح ما نُشر منه يلاحظ توًّا أنه يختلف عن دواوين الشعر العربى التى عاصرته وسبقته ، ففيه موضوعات متنوعة عن الحياة وشرورها وعن الناس وحرفهم وملابسهم وعن الموت وعن الأطعمة والأشربة ومُتَع الحياة، وعن طبائع الناس وعن النساء وأخلاقهن وعن الطَّرد والقَنص وعن المسرات والآلام ، بحيث يصبح من الصعب تشكيل موضوعاته بأعداد رقمية . ومع ذلك سنعرض شعره على الموضوعات الأساسية للشعر العربى ، مع ملاحظة ما يمتاز به من صفات خاصة به وبشخصيته الشعرية الخصبة . ومرّ بنا فى الفصل الماضى تصويرٌ من بعض الوجوه لذخائره العقلية ، وكيف أدّاه اعتزاله مبكراً إلى أن

---

(١) الديوان ص ١٠٥ .

يتمثل جميع الثقافات فى عصره فلسفية وغير فلسفية . وإذا هو يستقصى المعانى استقصاء نادراً حتى لايكاد يترك فى معنى شعبة دون عرضها والإلمام بها ، وإذا هو يوغل فى الأفكار ويستنبط منها مستوراتها الخفية ، وإذا هو يسلط عليها أشعة المنطق بكل أقيستها وعللها ، فتبدو فى أضواء واضحة وضوحاً مطلقاً ، وليس ذلك فحسب فإنه استطاع أن يغير فى سمات كل موضوع قديم بفضل ما ألقاه عليه من الأضواء والظلال العقلية . وهو بحق يمثل النزعة التجديدية فى العصر ، على حين كان البحترى يمثل النزعة التقليدية على نحو ما مرّ بنا فى غير هذا الموضع .

وأول ما نقف عنده المديح ، وبعض قصائده فيه يطول طولا مسرفاً حتى لتبلغ القصيدة نحو ثلثمائة بيت ، وعادة يقدم لمدائحه بما تعارف عليه الشعراء من قبله من مقدمات ، ولكنه ينوّع فيها ، فقد يختار النسيب مثلا ، ولكنه يتحوّل به كما فى قصيدته النونية[1] التى مدح بها أبا الصقر إسماعيل بن بلبل إلى تجسيد فواكه البستان فى المرأة ، حتى سَمَّى بعض معاصريه — كما أسلفنا — القصيدة باسم دار البطيخ وكانوا يطلقونها على دكان الفاكهة . وقد يختار وصف[2] الطبيعة والربيع ويُبْدع فى وصفه ، إذ كان مفتوناً بها فتنة العاشقين الواهين ، مما يميزه بحق عن شعراء العربية . وقد يدمج فى القصيدة وصف[3] مجلس سماع ؛ فيصور آلات الطرب ومن يَحْمِلْنَها من القيان فى صور بديعة على نحو ما يلقانا فى نونيته التى مدح بها عبيد الله بن عبد الله بن طاهر ، والتى يفتتحها بقوله[3] :

وقيـــانٍ كأنها أمهاتٌ عاطفاتٌ على بَنيها حَوانِ

وقد أنشدنا منها قطعة فى الفصل الماضى . ويضيف إلى وصف مثل هذا المجلس ذكر الخَمر . وقد يختار بكاء الشباب الذى طالما تغنَّى به الشاعر العربى ، ولكنه يعرضه عرضاً جديداً على نحو ما نرى فى مقدمة قصيدته البائية[4] التى مدح بها على بن يحيى المنجم ، فقد تحدث فيها عن الشيب والخضاب ودعاه حداداً كثيباً

(١) الديوان ص ٢٠ .

(٢) الديوان ص ٢٩٩ ، وقد دون كامل كيلانى المقدمة وحدها دون المديح .

(٣) الديوان ص ٨٤ .

(٤) الديوان ص ١٧٧ .

على الشباب من شأنه أن يبكى صاحبه بدموع غزار ، ثم أخذ يصوّر سخرية الفتيات بخضابه باكياً الشباب بكاء لاذعاً . ويحذف المقدمة أحياناً طلباً للاختصار والوقوف عند عشرات الأبيات لا عند المئات — وتبلغ بعض المقدمات عنده أحياناً نحو مائة بيت — ويتفنن بعد ذلك فى المديح ، ومن الطريف أنه كان يلاحظ أن الشعراء فيه يبالغون ويفرطون فى مبالغاتهم فينسبون إلى الممدوحين ما لا يفعلون ، مسبّة لا تمحى وعار ما بعده عار ، حتى ليصدق عليهم قوله تعالى : (والشعراء يتّبعهم الغاوون ألم تَر أنّهم فى كل واد يَهيمون وأنهم يقولون ما لا يفعلون) ويستوحى ابن الرومى الآيات قائلا[1] :

يقولون مالا يفعلون مسبّةٌ … من الله مسبوبٌ بها الشعراءُ

وما ذاك فيهم وحده بل زيادة … يقولون مالا يفعل الأُمراءُ

فهم يقولون ما لا يفعلون ، وليس ذلك فحسب ، بل يقولون أيضًا ما لا يفعل الأمراء ، كذبًا وبُهْتانًا . وكأن ابن الرومى أحسّ فى قوة ما كان يحمله المديح لعصره من كذب صراح . وإذا كنا لاحظنا أنه حاول التنويع فى مقدمات المديح فإننا نلاحظ أنه حاول التنويع فى المديح نفسه ، فإنه لم يقصره على المعانى المطروقة ، ويوضح ذلك مديحه لعلى بن يحيى المنجم فى بائيته التى أشرنا إليها ، آنفاً ، فإنه مضى فيها يمدحه على هذه الشاكلة :

لَوْذَعِىّ له فــؤادٌ ذكىٌّ … ماله فى ذكائه من ضَريبِ

ألمعىّ يرى بـأول ظَنٍّ … آخرَ الأمر من وراء المغيب

لا يروِّى ولا يقلِّب كفًّا … وأكفُّ الرجال فى تقليب

حازم الرأى ليس عن طول تجريـ … ـبٍ لبيب وليس عن تلبيب

يتغـــابى لهم وليس لموقٍ … بل للبٌّ يفوق لُبَّ اللبيب

ليِّنٌ عِطْفه فإن رِيم منه … مَكْسر العود كان جِدَّ صليب

وواضح أن هذا مديح من نوع غير مألوف ، مديح بالطباع والشمائل والملكات ؛

(١) الديوان ص ٣٧٦ .

فهو يمدحه بالذكاء وحسن البديهة والنظر الثاقب ، دون إبطاء فى الرأى أو ندم يلحقه ، وهو حازم لبيب بالفطرة ، يتغابى قصداً وسيد القوم المتغابى ، ويبدو ليّن الملمس وهو صلب العود صلابة شديدة . ومصدر هذا الجانب فى مديحه بدون ريب قدرته الخارقة على تحليل المعانى واستقصائها ، وكانت له قدرة خارقة أيضًا على النفوذ إلى كثير من الأخيلة المبتكرة من مثل قوله فى حُسَّاد صاعد مصوراً مجده الوطيد[1] :

وضدٍّ لكم لا زال يسْفُلُ جَدُّهُ ولا برحتْ أنفاسُهُ تتصعَّد
ولو قاس باستحقاقكم ما منحتمُ لأَطفأَ نارًا فى الحشا تتوقَّد
وآنق من عِقْد العَقيلةِ جيدُها وأحسن من سرْبالها المتجرِّد

وكانت لديه قدرة بارعة على عرض أخيلته فى مثل هذه الأقيسة ، فصاعد يستحق مجداً عظيما فوق ما مُنح من مجد الوزارة الذى أُسبغ عليه بفضل حزمه وحسن تدبيره ، وما مثل الوزارة بالقياس إليه إلا مثل العقد فى الجيد الجميل جمالا يفوقه ، بل مثل الثوب يُضفَى على الجسد الفاتن . ويجمع بين جمال الخلقة والأخلاق فى بعض ممدوحيه وينفذ إلى هذه الصورة البديعة[2] :

كلُّ الخصال التى فيكم محاسنكم تشابهتْ منكم الأَخلاق والخِلَقُ
كأَنكم شجر الأترجّ طاب معاً حمْلاً ونَوْرًا وطاب العود والورق

فهم مثل شجر الأترج يطيب عوده وورقه وزهره وثمره ، طيب على طيب ، وكثيراً ما تلقانا مثل هذه الأخيلة الدقيقة فى مديحه كقوله فى بعض ممدوحيه :

أوفى بـأَعلى رتبةٍ وتـواضعتْ آلاؤه فـأَحطْن بالأَعنــاقِ
كالشمس فى كبد السماء محلُّها وشعاعُها فى سائر الآفاقِ

والهجاء فنُّه الذى لا يبارى فيه ، وهو يتخذ عنده لونين : لونًا قاتمًا كله إقذاع وسَبٌّ وهتك للأعراض وقد يُطيل فيه إلى مئات من الأبيات ، ولونًا زاهيًا ينحو

---

(١) زهر الآداب ١ / ١٨٣ وانظر المختار من شعر بشار للتجيبى (طبع لجنة التأليف والترجمة والنشر) ص ٧٠ .
(٢) زهر الآداب ٤/ ١٤٦ .

فيه منحى السخرية والإضحاك ، وهو اللون الأهم فى هجائه ، لأن اللون السابق كثيراً ما نجده عند سابقيه ومعاصريه ، أما الهجاء الساخر فقد نَمَّاه إلى أبعد حد تُسْعفه فى ذلك قدرة بارعة على استغلال العيوب الجسدية فى مهجوّيه ، حتى ليصبح شبيهًا أدق الشبه بأصحاب الصور الكاريكاتورية ، فهم يستغلون العيوب الخلقية ويبرزونها بالطول أو بالعرض أو بالتضخيم أو بالتصغير إبرازاً مضحكًا فى كل صوره ، وكذلك كان ابن الرومى هَجَّاءً ساخراً يعرف كيف يصور العيوب الجسدية والمعنوية تصويراً مضحكًا ، ومرَّ بنا فى الفصل الماضى تصويره لشُحِّ عيسى بن موسى بن المتوكل وأنه لو استطاع لتنفس من منخر واحد أو فتحة واحدة من فتحتى أنفه بخلا وحرصًا ، وكذلك تصويره لبعض مهجويه بحيوانات مجترة ، ولم يعجبه بعض المغنين فصوَّره فى تحرك فكَّيه بالغناء بالبغل حين يحرك فكيه لأكل طعامه . ومرَّ بنا أنه كانت تؤذيه إيذاء شديداً رؤية جار له أحْدَب ، وانتقم لنفسه منه بقوله فيه(١) :

قَصُرتْ أخادعُه وغاب قَذَالُهُ ... فكأنَّه متربِّصٌ أنْ يُصْفعا
وكأنما صُفِعتْ قفـــاه مرَّةً ... وأحسَّ ثانيةً لها فتجمَّعا

فجعله الدهر مصفوعًا يحاول أن يتقى صَفْعه بتجميع قفاه إلى ظهره ، وكانت تؤذيه اللحى حين تخرج عن مقدارها الطبيعى فيهجوها ويهجو أصحابها هجاء ساخراً مضحكًا ، وله فيها مقطوعات هزلية قصيرة وطويلة ، ومن أطرفها وأجمعها للهزء والسخرية قوله فى لحية بعض مهجوّيه(٢) :

إن تَطُلْ لحيةٌ عليك وتَعْرُضْ ... فالمخالى معروفةٌ للحميرِ
علَّق اللهُ فى عِذاريْك مِخْـــلا ... ةً ولكنها بغير شعير
أَرْعِ منها المُوسَى فإنك منها ... يشهد الله فى أثامٍ كبير
ما تَلَقَّاك كَوْسجٌ قَطُّ إلا ... جورٌ الله أيما تجوير
لحيةٌ أهملتْ فطالتْ وفاضتْ ... فإليها تشير كفُّ المشير

---

(١) الديوان ص١٤٦ .

(٢) ديوان المعانى للعسكرى ١ / ٢١٠ .

ما رأتْها عينُ امرئٍ ما رأتْها قَطُّ إلا أهلَّ بالتكبيرِ
روعةٌ تستخفُّه لم يُرَعْهَا من رأى وَجْهَ مُنْكرٍ ونكير
فاتَّق الله ذا الجلال وغيِّر مُنْكَرًا فيك ممكن التغيير
أو فقصِّرْ منها فحسبك منها نِصْفُ شِبْرٍ علامة التذكير
لو رأى مثلها النبيّ لأجرى فى لِحىَ الناس سُنَّةَ التقصير
واستحبَّ الإحفاء فيهنَّ والحلـ قَ مكان الإعفـاء والتوفير

وقد استهل ابن الرومى المقطوعة بتشبيه تلك اللحية بمخلاة حمار ولكن بدون شعير ، ونصح صاحبها أن يجعل الموسى يرعاها ويأخذها من جميع أطرافها ، وجعل محافظته عليها إثمًا كبيراً فإن الكوسج خفيف اللحية إذا رآها نسب إلى الله الجور والظلم فى قسمة الأرزاق ، وقد طالت حتى غدت فرجة للرائحين والغادين يشيرون إليها بأكفهم وأصابعهم متعجبين ، بل إنهم ليصيحون الله أكبر ، للروعة الشديدة التى تأخذهم ، وإنها لأكثر هولا من وجه ملكى القبر : منكر ونكير ، ويدعوه أن يتقى الله ويغير هذا المنكر الذى يحمله على وجهه فى ذهابه وإيابه ، أو ليُقَصِّرْهَا ، فنصفُ شبر منها كاف على التذكير والرجولة ، ويقول إن الرسول عليه السلام لو رآها لأبدل السنَّة فلم يجعلها تطويل اللحى بل جعلها تقصيرَها ، بل لعله كان يجعل السنَّة قصَّها ومحوها محواً . وهو يشير فى البيت الأخير إلى الحديث النبوى : « احفوا الشوارب واعْفُوا اللِّحَى » . وكان كاتبٌ مسيحى للقاسم بن عبيد الله يسمى عمْراً كثيراً ما كان يحجبه ، فأصلاه ناراً حامية من أهاجيه[1] . وكان لا يزل يلمح العيوب الجسدية فى مهجويه ، عابثًا بهم عبثًا كله سخرية وفكاهة وتندير .

وكان ابن الرومى يجيد فن الرثاء ، بحكم قدرته على التعبير عن الأحاسيس والمشاعر ، وأيضًا فإنه كان يستشعر فى أعماقه حزنًا ممضًا ، لأنه لا يأخذ حقوقه فى عصره بالقياس إلى غيره من الشعراء الذين يتفوق عليهم تفوقًا واضحًا ، فكان شعوره

---

(١) الديوان ص ٢٤٠ .

بالبؤس والحرمان يضاعف حزنه ، وكأنما الحياة كلها أمامه كانت أحزانًا ومآتم ، وتصادف أن مات له ثلاثة أبناء، فبكاهم بكاء حارًّا ، ومرّ بنا فى الفصل الماضى بكاؤه على ابنه الأوسط الذى مات منزوفًا وهو لا يزال فى المهد طفلا صبيًّا ، وقد نصب بقصيدته له مأتمًا كبيراً صوّر فيه موته ونزيفه تصويراً محزنًا ، ثم بكاه بكاء مرًّا . ومن قوله فى رثاء ابنه الثالث [1] :

أَبُنَىَّ إنك والعزاء معاً   بالأَمس لُفَّ عليكما كَفَنُ

ما فى النهار – وقد فقدتك – من   أَنس ولا فى الليل لى سكن

ماأَصبحتْ دنيایَ لى وطناً   بل حيث دارك عندیَ الوطن

وله مرثية فى أمه وأخرى فى أخيه محمد ، وبجانب ذلك نجد له عزاء من حين إلى حين ، وأسلفنا فى الفصل الماضى عزاءه فى ابنة على بن يحيى المنجم ، وله عزاء مشابه للمسيّبى الكاتب صديقه يعزيه عن ابنته بأن أحداً لن يخلد فى الدنيا ، وأن تلك إرادة الله ولا راد لمشيئته ، يقول [2] :

أُصبتَ وما للعبد عن حكم ربه   محيصٌ وأَمرُ الله أَعلى وأَقْهَرُ

تعزَّيتَ عمن أَثمرتْك حياتُهُ   ووَشْكُ التعزى عن ثمارك أَجدرُ

فلا تَهلكنْ حزناً على ابنة جنَّةٍ   غدتْ وهْى عند الله تحيا وتُحْبَرُ

وكان ما نِى ينفذ إلى أخيلة ومعان طريفة حتى فى الموت ،ولعله أول من حبَّب الموت إلى غيره ، وكأنما كان يراه خلاصًا من حياته ومن الناس والأصدقاء الذين لا ينصفونه ، مما جعله يقول [3] :

قد قلتُ إذ مدحوا الحياة فأَكثروا   للموت أَلف فضيلةٍ لا تُعْرَفُ

فيــهِ أَمانُ لقائه بلقائه   وفــراقُ كل معاشرٍ لا يُنْصف

وتعبيره عن أن الموت أمان للإنسان من خوفه المروّع بلقائه من أدق ما يمكن ، وهو لا يبارَى فى النفوذ إلى كثير من المعانى والأحاسيس الدقيقة . وقد عرضنا فى

---

(١) الديوان ص ٣١ .
(٢) الديوان ص ١٠٤ .
(٣) ديوان المعانى ١٧٢/٣ .

الفصل الماضى مرثيته الملتهبة للبصرة حين حرقها الزنج ودمروها .

ويكثر العتاب فى ديوان ابن الرومى ، وقصيدته فى عتاب أبى القاسم التوزى الشطرنجى مشهورة ، ومرّ بنا فى الفصل السالف قطعة بديعة منها فى وصف لعب أبى القاسم بالشطرنج ، وكان أمهر معاصريه فى لعبه ، غير أنا نقف الآن عند عتابه ، وقد عرضه عرضًا طويلا طريفًا ، إذ أخذ يذكره بما كان بينهما من صفاء ، ثم نشأت بعد ذلك هنوات لا يرضاها الصديق ، يقول :

كشفت منك حاجتى هنوات ... غُطِّيَتْ برهةً بحسن اللقاء

تركْتَنى ولم أكن سَيِّئَ الظَّـ ... ـنِّ أُسِىءُ الظنون بالأصدقاء

قلت لما بدتْ لعينىَّ شُنْعاً ... رُبَّ شوهاءَ فى حَشَا حسناء

ومضى فى حوار طويل بينه وبين تلك الهنوات الصغيرة ، يقول لها ليتنى لم أهتك سِتْرَكُنَّ وهن يقلن له بل لقد صنعت حسنًا ، إذ لو لم تفعل ذلك لظللت فى ظُلَمِ الشك من صاحبك ضالا حائراً ، وإن من الخير أن ننكشف لك حتى تعرف أمكنة الداء منه وتطبَّ لها طبًّا يداويها دواء يشفى الصديق ، ويعتب على أبى القاسم أنه لم يُنِلْهُ نوالا ولا رَدًّا كريمًا ، ويظل يستعطفه طويلا . وقد أسلفنا فى الفصل الماضى قطعة بديعة له فى عتاب آل وهب .

ولابن الرومى غزل كثير يأتى به مستقلا تارة ، وتارة فى مقدمات قصائده ، وقلما يصوغه بصيغة المذكر مما يدل على أنه لم يكن صاحب غلمان مثل أبى نواس أو حتى مثل البحترى ، ومرت فى الفصل الماضى قطع مختلفة له فى وصف العناق وجمال العيون ومن بديع ماله فى وصف الشعر المسترسل حتى مواطئ القدم قوله[1] :

وفاحمٍ واردٍ يقبِّل مَمْـ ... ـشاكِ إذا اختال مسبلا غُدَرَهْ[2]

أَقبل كالليل من مفارقه ... منحدرًا لا يذمّ مُنْحَـدَرَه

حتى تناهى إلى مواطئـه ... يلثم من كل موطئٍ عَفَـرَه[3]

كأنه عاشقٌ دنا شغفاً ... حتى قضى من حَبيبهِ وَطَرَه

(١) زهر الآداب ٣ /١٦ .

(٢) الغدر : ذوائب الشعر وقطعه .

(٣) العفر : ظاهر التراب .

وهى صورة فريدة أسعفته بها قدرته على الاستقصاء فى وصف المحسوسات ، وكثيراً ما يفجأ قارئه بمثل هذه الصور النفيسة فى غزله ، وكأنما تحول عقاله إلى ما يشبه كنزاً سائلا بالدرر ، فهو لا ينى يُطْرِف قارئه بمعنى مُسْتَحْدَث أو خيال مبتكر من مثل قوله[١] :

لا شىء إلا وفيه أحسنه فالعين منه إليه تنتقلُ
فوائد العين منه طارفةٌ كأنما أُخْرياتها الأولُ

فكل شىء وكل عضو فى صاحبته فتنة من الفتن حسنًا وجمالا ، فالعين ما تزال تنتقل ، وكلما تركت عضواً عادت إليه مفتونة ، حتى لكأنما انمحت فكرة الأُوَلِ وأعقابها ، فكل شىء من الأوَلِ ، وكل شىء لا يكاد النظر يفرغ منه حتى يعود إلى التملىِّ به . وله قافية نظمها فى جارية سوداء لممدوح له من البيت العباسى هو عبد الملك بن صالح ، وفيها يقول معللا علة حسنة لسوادها :

أكسبها الحب أنها صُبغت صبغة حَبِّ القلوب والحدقِ

ويبدو أن بعض الجوارى عَبَثْنَ به وغَدَرْنه فى حبه ومَكَرْنَ مكراً خبيثًا ، ولذلك نراه فى نونيته المسماة بدار البطيخ يُصْدِر أحكامًا قاسية على النساء عامة ، من مثل قوله[٢] :

ومن عجائب ما يُمْنَى الرجال به مستضعفاتٌ لهم منهن أقرانُ
مناضلاتٌ بنَبْلٍ لا تقوم له كتائبُ التُّرْك يُزْجيهنَّ خاقانُ
ولا يدُمْنَ على عَهْدٍ لمعتقدٍ أنَّى وهن – كما شُبِّهْنَ – بستانُ
يميل طورًا بحمل ثم يُعْدَمه ويكتسى ثم يُلْفَى وهو عريانُ
يغدرن والغدر مقبوحٌ يزيِّنه للغاويات وللغاوين شيطانُ

وقد يكون دافع ابن الرومى إلى مثل هذه الأحكام القاسية على المرأة فى عصره شيوع دور القيان ببغداد وأن كثيرات من الجوارى لم تكن سيرتهن حسنة .

---

(١) ديوان المعانى للعسكرى ٢٣٢/١ .

(٢) الديوان ص ٢٠ وما بعدها .

وكانت الطبيعة تستأثر بكل مشاعره وعواطفه ، مما جعله يَكْلَفُ بها كَلَفاً شديداً ، بل لقد تَحَوَّل عاشقاً لها عشقاً لا نألفه عند شعراء العربية من قبله ، فهو يعيش فيها مع كل حركة وكل همسة وكل وسوسة معيشة قوية حارة ، معيشة محب واله ، يرى الطبيعة من حوله ، وقد تحولت وجوهاً فاتنة ناطقة ، وكل شيء فيها يُغريه بالنظر واللمس والشم ، حتى انحس كأنما يفنى فى الطبيعة فناءَ أصحابِ المنزع الرومانسى الغربى ، وكأنما الحجب تُرْفَعُ بينه وبينها فى كل يوم فيزداد بها ولهاً ويزداد سروراً وغبطة ، وقد عرضنا فى الفصل الماضى منظر الغروب وتجسيده لوداع الشمس للطبيعة وهى تلفظ أنفاسها الأخيرة . ونكتفى هنا بأن نسوق مثلا لتصويره الربيع ، يقول[1] :

ورياضٍ تخايَلُ الأَرض فيها	خُيَلَاءَ الفتاة فى الأَبْرادِ
ذات وَشْيٍ تناسجته سوارٍ	لبقاتٌ بحَوْكه وغوادى[2]
فهى تثنى على السماء ثناء	طيِّبَ النَّشْر شائعاً فى البلادِ
من نسيمٍ كأَن مسراه فى الأَر	واح مسرى الأَرواح فى الأَجسادِ
منظرٌ معجبٌ تحيَّةُ أَنْفٍ	ريحُها ريح طيِّب الأَولادِ
تتداعى بها حمائمُ شَتَّى	كالبواكى وكالقِيان الشوادى
تتغنَّى القِرانُ منهن فى الأَيْـ	ـكِ وتبكى الفِرادُ شَجْوَ انفراد

فالأرض تتراءى له كأنها فتاة حسناء تختال فى برود الربيع البهيجة ، ووشيها الذى نسجته السحب نسجاً بديعاً ، وهى تُثْنى على السماء ثناء عاطراً ، والنسيم يسرى فى الأرواح سريان الأرواح فى الأجساد ، وما أجمله من منظر وما أروعه من عطر للطبيعة يملأ النفس حناناً وعطفاً كرائحة الأولاد النجباء ، والحمائم تتناغى بين باكيات وشاديات ، أما الشاديات فيتغنين لرفقائهن ، وأما الباكيات فمنفردات ليس لهن قرين ، وكأنهن يبكين الانفراد . والقطعة تعجُّ بالحياة ، بل قل إنها تعج بالحب حب شاعر أُغرم بالطبيعة وملأت قلبه براً وحناناً ومودة . ولفت هذا الجانب

---

(١) الديوان ص ٧٥

(٢) تناسجته : اشتركت فى نسجه . السوارى والغوادى : السحب .

عند ابن الرومى العقاد، فقال إنه أثر من آثار وراثته اليونانية ، ولكن اليونان لمْ يـُعرف عندهم شعر الطبيعة ، هم ملأوها بالآلهة ،ولكنهم لم يفصحوا عن مشاعرهم إزاءها على نحو ما نجد عند ابن الرومى ، وأوربا نفسها فى عصرها الكلاسيكى فى أثناء القرنين السابع عشر والثامن عشر ، حين كانت تحاكى الآثار اليونانية ، لم يـُعـْرَفْ عندها هذا النوع من الشعر ، إنما عُرف فى العصر الرومانسى فى أثناء القرن التاسع عشر ، حين انفكَّت من محاكاة الآثار اليونانية [١] . على كل حال كان ابن الرومى يـُشْغـَفُ بالطبيعة ويـَكْـلـَفُ بها كـَلـَفـًا لم يعرف لشاعر قديم .

وجعلته قدرته على نقل المشاهد الحسية يـَبْرع فى وصف مجالس الأنس وما يجرى فيها من خمر وسماع . وهو لا يتورط فى المجون والإثم تورط أبى نواس وأمثاله ، وليس معنى ذلك أنه لم يكن يحتسى الخمر ، فقد كان شربها شائعـًا فى عصره ، ومرَّت بنا فى غير هذا الموضع الأبيات المشهورة التى يقول فيها إن أبا حنيفة أحلّ النبيذ . ودعا الخمر فى بعض شعره ريق الدنيا ، يقول :

فتًى هجر الدنيا وحرَّم رِيقَها ... وهل رِيقُها إلا الرَّحيقُ المبرَّدُ

وقد أكثر من وصف مجالس السماع ، وجعله ذلك يكثر من وصف المغنين والمغنيات ، وكانت أذنه مرهفة وشعوره حادًّا ، فإذا لم يقع المغنى أو المغنية من أذنه موقعـًا حسنـًا صبَّ عليهما شواظـًا من هجائه ، على نحو ما مرَّ بنا فى هجائه لشنطف ، ولعل أروع تصوير لمغنية محسنة تصويره لغناء وَحيد ، وكانت فتنة صوتـًا وحسنـًا ، وفيها يقول [٢] :

تتغنَّى كأنهـا لا تُغَنِّى ... من سكون الأَوصال وهى تجيد

لا تراها هناك تجحظ عَيْنٌ ... لك منها ولا يَدُرُّ وَرِيدُ [٣]

من هدوٍّ وليس فيه انقطاع ... وسُجُوٍّ وما به تبليد [٤]

مَدَّ فى شأْو صوتها نَفَسٌ كا ... فٍ كأَنفاس عاشقيها مديد

---

(١) انظر فى مناقشة هذه المسألة كتابنا الفن ومذاهبه فى الشعر العربى (طبع دار المعارف) ص ٢٠٨ وما بعدها .

(٢) الديوان ص ٩٨

(٣) يدر : ينتفخ ويتوتر . الوريد : عرق فى العنق .

(٤) الهدو : انخفاض الصوت . السجو : مده . التبليد : التقطع .

واشتهر بإكثاره من وصف ألوان الطعام والفاكهة ، وقد ذكرنا له فى الفصل الماضى قطعاً مختلفة فى وصف دجاج مشوىّ ومرققات وقطائف وعنب رازقى ، وديوانه زاخر بأمثالها ، وهى أثر من آثار نهمه فى الطعام ، وأيضاً من آثار براعته فى وصف كل ما يشاهده ويقع عليه حسه ، وله قطعة معروفة فى وصف الرّقاق وأخرى فى وصف قالى الزلابية يقول فيها [1] :

كأنما زَيْتُه المقلىُّ حين بدا ... كالكيمياء التى قالوا ولم تصبِ

يُلْقِى العجين لُجَيْنًا من أنامله ... فيستحيل شبابيكاً من الذهب [2]

وهذا الجانب عنده جعله قريباً من ذوق العامة ، وأدنى إلى أن يصبح شاعراً شعبيًّا ، ومن تتمة هذه الشعبية فيه أن نراه يصف الحمّالين والشوّائين ، كما يصف الثياب البالية ، وكان قد تعلق بوصفها الشاعر المعروف باسم الحمدونى ، فنزع منزعه فى هذا الجانب بمثل قوله [3] :

معمَّرٌ قال نوحٌ حين أبصره ... إنا محيُّوك فاسْلَمْ أيُّها الطَّلَلُ

أميل فى الطُّرْقِ خوفاً من مزاحمةٍ ... تهدُّه فكأنى شاربٌ ثَمِلْ

وأكبر الظن أن هذا الجانب الشعبى هو الذى جعله يهتم بالزهاد والوعاظ ، وليس فى حياته ما يصله بالوعظ والزهد ، وقد ذكرنا له موعظة فى الفصل الماضى ، وكأنما كان يتغنى مشاعر الشعب فى وعظه وتصويره للزهاد . وحقًّا أن ديوانه يجرى فيه تشاؤم واسع ، ولكن التشاؤم شىء والزهد شىء آخر ، فالزهد انصراف عن الدنيا ومتاعها الزائل ، والتشاؤم — وخاصة عند ابن الرومى — نقمة على فقدان المتاع بالحياة ، وهى نقمة صُبَّت على شاعر نابه امتاز بقلب ذكى وحس مرهف وشعور دقيق ، فمضى فى كثير من جوانب شعره يصور الحياة سوداء حالكة ، ويتخذها هى والناس وشرورهم وطباعهم موضوعاً لدرسه وشعره . وعلى نحو ما كانت لديه قدرة على وصف كل ما يقع عليه حسه بجميع جزئياته كانت لديه قدرة على النظرات الكلية الجامعة ، فإذا

---

(١) الديوان ص ٣٧١ .

(٢) اللجين : الفضة .

(٣) انظر مقطوعات أخرى فى الديوان ص ٣١٨ .

هو يضع لبعض الأخلاق الذميمة صوراً مجسمة كصورة المتكبر [١] والأكول [٢] والثقيل [٣]، وبالمثل الأخلاق المحمودة كالصبر والتجلد، وقد مثلنا فى الفصل الماضى لهما بقطعة من شعره .

وكان ابن الرومى لا يعود إلى أشعاره بتنقيح ولا تهذيب، وكان إذا نظم أكثر وامتد نفسه امتداداً بعيداً . فكان طبيعيًّا أن يكون فى أشعاره ما يهبط درجات عما حوله ، ففيها المصقول وغير المصقول، وفيها ما يرتفع إلى الأفق الأعلى وما يدنو إلى الآفاق الدنيا ، بحكم أنه لا يعاود عمله، ويؤكد ذلك ما يروى عن تلميذه أبى عثمان الناجم من أنه رآه ذات مرة قد غضب، فصنع قصيدة طويلة لساعته كلها هجاء، فسأله أين مسوَّدتها ؟ . فأجابه : هى هذه، فقال له الناجم : ما فيها حرف مصلح ، فقال: قد استوت بديهَتى وفكرتى فما أعمل شيئًا فأكاد أصلْحه. وليس معنى ذلك أنه يوجد فى أشعاره غَثّ كثير ، فقد تلافى ذلك عنده ما امتاز به من أفكار وأخيلة نادرة ، وما كان يحرص عليه من بث الفنون الجديدة فى أشعاره وخاصة الجناس ، وكانت له أذن موسيقية رائعة . وكل ذلك حمى الصياغة عنده من الهبوط عن المستوى الرفيع إلا ما كان يريد أن يقترب فيه من الذوق الشعبى ، لشعبية كانت متأصلة فى ذات نفسه. والحق أنه كان شاعراً بارعًا ، بل لا شك فى أنه أبرع شعراء العصر لما يحفل به ديوانه من الموضوعات والمعانى والأخيلة المبتكرة مما يملأ النفس إعجابًا متصلا به وبأشعاره .

٤

ابن المعتز [٤]

وُلد عبد الله لأبيه المعتز بسامرَّاء قبل مقتل جده المتوكل فى سنة ٢٤٧ للهجرة بأربعين يومًا ، فلم يكد يستقبل الحياة حتى صُرِع جده هذا المصرع الخطير ،

(١) الديوان ص ٩٥ .

(٢) الديوان ص ١٧٥ .

(٣) الديوان ص ٧٣ .

(٤) انظر فى ابن المعتز وحياته وشعره كتاب الأوراق : أشعار أولاد الخلفاء للصولى ص ١٠٧ وما بعدها وكتاب الأغانى (طبعة دار الكتب المصرية) ١٠/ ٢٧٤ والفهرست ص ١٧٤ وتاريخ بغداد ١٠/٩٥ ومروج الذهب ٤/ ٢٠٣ والطبرى ١٠ /١٤٠ ونزهة الألباء لابن الأنبارى وابن خلكان =

صرّعه جنده وقواده الأتراك الذين فَسَحَ لهم فى الحكم والسلطان والتسلط ، فإذا هم يسفكون دمه غير مراعين عَهْداً ولا ذِمَّة . وسرعان ما يتوفّى ابنه المنتصر الذى خلفه ، ويصبح الخلفاء لعبة فى أيديهم ، فيولّون المستعين ويخلعونه ويقتلونه ، ويولّون المعتز (٢٥٢ — ٢٥٥ ﻫ) وكان لا يزال فى نحو العشرين من عمره ، وكان جميل الوجه ، وكأنما ورث جمال أمه الرومية التى سماها المتوكل قبيحة لجمال صورتها ، من أسماء الأضداد ، وكان مرهف الحس رقيق الذوق دقيق المشاعر ، مما أنطقه بالشعر المصفّى . وكان يعكف على اللهو والصيد ، فمجالسه لا تزال غاصة بشارية وعَرِيب وزُنام وابن بنان وغير هؤلاء من المغنيات والمغنين ، ومواكبه لا تزال ذاهبة آيبة من الصيد . وفى مواضع مختلفة من كتاب الديارات للشابشتى نرى قصفه وشرابه وسماعه للغناء فى قصره وفى بعض الأديرة [١] ، ونطلع على جانب من ترفه فى قصريه « الزوّ » و « الكامل » بسامراء ، ومَرّ بنا وصف البحترى للقصر الأخير وبستانه الممتد أمامه ، ولعله نفس البستان الذى كان يزخر بالحيوانات ، والذى كان يتسلّى بالفرجة فيه هو وأصدقاؤه على السبع والفيل كيف يتواثبان [٢] .

وكانت أم عبد الله بدورها من الجوارى ، ولعلها كانت أيضًا رومية الأصل مثل جدته ، فقد كان جميل المحيّا ، وورث عن أبيه كل طباعه ، فهو مثله جميل السجايا رقيق المشاعر . وكان ذكى القلب صافى العقل ، فأضاف إلى ترفه الذى نشأ منغمسًا فيه إقبالا متصلا على الدرس منذ نعومة أظفاره ، حتى ليلفت ذلك البحترى ، وهو لا يزال فى التاسعة من عمره ، فيمدحه قائلا [٣] :

أَبا العباسِ بَرَّزْتَ على قَــوْمِـ ... ـك آداباً وأَخلاقاً وتبريزا

فأَما حَلْبَةُ الشعر فتستولى ... على السبق بها فَرْضاً وتمييزا

= وفوات الوفيات ١ / ٢٤١ ومرآة الجنان لليافعى ٢ /٢٢٥ وشذرات الذهب ٢ /٢٢١ والنجوم الزاهرة ٣/ ١٦٤ وفى مواضع مختلفة وعبد الله بن المعتز العباسى لمحمد عبد العزيز الكفراوى (طبع مكتبة نهضة مصر) بالقاهرة وديوانه طبعة بيروت ، وهى التى نرجع إليها وطبعة القاهرة ، وطبع بعض المستشرقين منه جزءين فى إستانبول . وتوجد منه مخطوطة برواية الصولى بدار الكتب المصرية .

(١) الديارات ص ١١٠ ، ١٦٤ .

(٢) الديارات ص ١١١ .

(٣) ديوان البحترى ٢/ ١١١٩ .

وقد يكون فى ذلك مبالغة على عادة الشعراء فى المديح، لكن على كل حال فى البيتين وقصيدتهما ما يدل بوضوح على أن ابن المعتز كان يكبُّ على القراءة وأن موهبة الشعر بدأت تستيقظ فى نفسه فى هذه السنّ الصغيرة. ويبدو أن أباه كان معجبًا به إعجاباً شديداً مما جعله يضرب باسمه الدنانير. ويسجل ذلك البحترى فى مدحة[1] طويلة له، يصور فيها جمال طلعته وشمائله الكريمة، ثم يقول:

وأَبهجنا ضَرْبُ الدنانير باسمِه ... وتقليده من أَمرنا ما تقلَّدا

وفى الشطر الثانى ما يصور إرهاص البحترى للمعتز بأن يولّى عبد الله العهد، ومضى يصرّح بذلك ويطالب به ويهتف فى وضوح. ونراه فى قصيدة[2] ثالثة يتشفع لعبد الله بأبيه كى يهب له من إقطاع أقطعه له ضيعة تجاور ضياعه بالشام، وفى ذلك يقول فى قصيدة رابعة[3]:

ومُلِّيتَ عبدَ الله إنَّ سَمَاحَهُ ... هو القَطْرُ فى إسْباله وأَخو القَطْرِ

شفعتَ إليه بالإمام وإنما ... تَشَفَّعْتُ بالشمس اقتضاءً إلى البَدْرِ

ولم يلبث الدهر أن قلب ظهر المجن للمعتز وابنه، فإن جند الأتراك طالبوه فى السنة الرابعة من خلافته برواتبهم وكانت خزائن القصر خالية من المال، فاعتذر، ولم يقبلوا عذره، وظلوا يفاوضونه حتى قبلوا أن يدفع إليهم خمسين ألفًا، ولكنه لم يجدها، فصمموا على خلعه، وهجموا عليه وضربوه بالدبابيس، ثم جعلوه فى بيت أوصدوا بابه حتى مات بعد أن أشهدوا عليه أنه خلع نفسه. وصادروا أموال أمه قبيحة كما مرّ بنا فى غير هذا الموضع، ونفوها إلى مكة ونفوا معها عبد الله ابنه وابنى عميه قُصَىّ بن المؤيد وعبد العزيز بن المعتمد. وهما محنتان قاسيتان أثّرتا فى نفس الصبى آثاراً بعيدة: محنته التى امتُحن بها فى أبيه الذى منحه الحياة والذى كان يغمره بِبرّه وحنانه وعطفه، ومحنته بالنفى وعذابه ونكاله وعنائه، وما مرّ به فى أثناء ذلك من أمل ويأس ورجاء وقنوط، مع ما صَلِىَ به من حزن عميق على أبيه، مما ظل له أثر بعيد فى نفسه، وهو أثر يتراءى بوضوح فى أشعاره، إذ يُطالعنا

---

(١) الديوان ٢ / ٦٧٠.

(٢) الديوان، ٢ /١٣٠٩.

(٣) الديوان ٢ /١٠٠٧.

فيها دائمًا الإحساس بآلام الحياة وما تكتظ به من كوارث وفواجع ، كبَّرها فى نفسه وخياله ما كان ينعم به فى صباه من ترف وحياة لاهية لم تلبث أن حفَّتْ بها الدماء المسفوكة ، دماء أبيه ، كما حفَّ بها النفى والتشريد ، فإذا النعيم يصبح جحيمًا ، وينقضى عهده إلى غير مآب ، وفى ذلك يقول ابن المعتز باكيًا صباه بدموع غزار (١) :

لَهْفى على دهر الصِّبا القصيرِ وغُصْنه ذى الورَقِ النَّضيرِ

وسُكْرِهِ وذَنْبه المغفورِ ومرَح القلوب فى الصُّدُورِ

وطول حَبْل الأَمَلِ المجرورِ فى ظِلِّ عَيْشٍ غافلٍ غريرِ

ودار عام وتولَّى المعتمد الخلافة لسنة ٢٥٦ فأرسل فى طلبه وطلب جدته وابنى عمه وردَّهم إلى سامرَّاء ، وكانت شئون القصر أخذت تستقيم ، فلم يعد للترك تسلطهم ولا استطالتهم على الخلفاء ، إذ جعل المعتمد الأمر والنهى والسلطان لأخيه الموفق طلحة ، وكان من أحزم بنى العباس وأشجعهم وأنبغهم فى إدارة السياسة والحرب وهو الذى قضى على ثورة الزنج وثورة الصفّاريين كما أسلفنا فى غير هذا الموضع . فاطمأن الغلام المروَّع وأخذت جدته قبيحة تُعْنَى بتربيته ، وأحضرت له المعلمين فى الفقه والحديث والأدب واللغة ، من مثل محمد بن عمران والحسن العنزى الإخباريين ، ومحمد بن هبيرة صاحب الفراء ، ويبدو أنه كان يلقى المبرد وثعلبًا فى أثناء زياراتهما لسامراء قبل انتقاله ونزوله ببغداد لسنة ٢٧٦ . وفى المختار من شعر بشار أن ثعلبًا كان أحد مؤدبيه فقطعه وقتًا ، فكتب إليه من قصيدة طريفة (٢) :

يا فاتحاً لكل علم مُغْلَقِ وصَيْرَفِيًّا عالمـاً بالمنطقِ

إنا على البعاد والتفرُّقِ لنلتقى بالذكر إن لم نَلْتَقِ

وكان يقصد فصحاء الأعراب ويأخذ عنهم (٣) . وأهم معلميه أحمد بن سعيد الدمشقى المحدِّث الإخبارى ، ويُرْوَى أن البلاذرى المؤرخ سعى عند جدته كى يصبح من معلميه ومؤدبيه ، فغضب ابن سعيد ولزم بيته ، وكانت سن ابن المعتز

---

(١) ديوان المعانى ٢/١٥٣ .

(٢) المختار من شعر بشار (طبع لجنة التأليف والترجمة والنشر) ص ٥٤ .

(٣) الفهرست ص ١٧٤ .

حينئذ ثلاثة عشر عامًا ، وعلم بغضب أستاذه فكتب إليه أبياتًا يترضاه بها ، وهى تصور ثقافته تصويراً دقيقًا ، إذ يخاطبه بقوله[١] :

أَصبحتَ يابن سعيدٍ حُزْتَ مكرمةً ... عنها يقصِّر مَنْ يَحْفَى وَيَنْتَعِلُ
سَرْ بَالُتَنِى حكمةً قد هذَّبتْ شِيمَى ... وأَجَّجَتْ غَرْبَ ذهْنِى فهْوَ مُشْتَعِلُ
أَكون إن شئتُ قُسًّا فى خطابتهِ ... أو حارثاً وهْوَ يوم الفَخْر مُرْتَجِلُ
وإن أَشَأْ فكزَيْدٍ فى فَرائضِهِ ... أَو مثل نعمانَ ما ضاقتْ بِىَ الحِيَلُ
أَو الخليل عروضيًّا أَخا فِطَنٍ ... أَو الكسائىِّ نحويًّا له عِلَلُ
عُقْباك شكرٌ طويلٌ لا نفادَ لهُ ... تَبْقَى مَعَالِمُهُ ما أَطَّتِ الإبلُ[٢]

وهو يقول إن ابن سعيد خرَّجه خطيبًا فصيحًا لا يقل عن قُسٍّ فى خطابته التى اشتهر بها بين الجاهليين، كما لا يقل عن الشاعر الجاهلى الحارث بن حلزة فى شعره وبداهته ، ولا عن زيد بن ثابت فى عمله بالميراث ، ولا عن أبى حنيفة فى علمه بالفقه، ولا عن الخليل بن أحمد فى علمه بالعروض، ولا عن الكسائى فى النحو واستنباط علله . وهذه هى مواد ثقافته فى سن الثالثة عشرة، ولم يذكر بينها فاسفة ولا منطقًا ، غير أنه ينبغى أن نحذر التعميم فى الحكم على ثقافته مما قاله عن نفسه فى تلك السن المبكرة، ومن الطبيعى — وكان نهما بالقراءة — أن يكون قد اطلع على شىء من الفلسفة وقرأ بعض كتب الفلك والتنجيم ، ففى أشعاره إشارات لهما[٣]، وإن كنا نظن ظنًّا أنه لم يلمّ بذلك فى مطالع حياته . ولعل من الطريف أن نجده يقول[٤] :

ولا تفزعنْ من كل شىءٍ مفزِّعٍ ... فما كل تربيع النجوم بضائرِ

وكأنه كان يتشكك فى حسابات المنجمين وما يزعمونه من طوالع السعد والنحس . ومضى يمنح أوقاته للشعر والأدب ،وكأنما قرر بينه وبين نفسه الانصراف عن السياسة وشئون السلطان ، فقد بلا منهما فى جده المتوكل وأبيه المعتز ما جعله يقرر فى حزم

(١) معجم الأدباء ١ / ١٣٣ .
(٢) أطت : أنّت تعبا أو حنينا .
(٣) الفن ومذاهبه فى الشعر العربى (الطبعة السابعة) ص ٢٦٣ .
(٤) الديوان ص ٢٤٩ .

الفراغَ للحياة الأدبية ، وأنفق فى ذلك أعوامًا كثيرة . وكان يقرأ كتابات سابقيه ويفكر فيما يقرأ منها ناقداً محللا ، وما نصل إلى سنة ٢٧٤ للهجرة حتى نجده يصنِّف كتابه « البديع » محاولا أن يضع من جهة لأول مرة فنونه وضعًا علميا دقيقًا ، وأن يثبت من جهة ثانية أن هذه الفنون قديمة فى الأدب العربى وكل ما للمحدثين العباسيين منها إنما هو الإكثار ، أما بعد ذلك فهى منثورة فى القرآن الكريم والحديث النبوى وأشعار الجاهليين والإسلاميين . وألف كتبًا أدبية أخرى كثيرة مثل كتاب الزهر والرياض ومكاتبات الإخوان بالشعر وكتاب الجوارح والصيد ، وكتاب فصول التماثيل فى الشراب وآدابه ، وكتاب السرقات ، وكتابه « طبقات الشعراء المحدثين » ذائع مشهور وهو يصور ثقافة واسعة بالشعر العباسي الحديث كما يصور نظرات نقدية طريفة وذوقًا مهذبًا صافيًا . وكان يُعْنَى منذ فواتح حياته بالغناء والموسيقى ، وفى ذلك يقول أبو الفرج الأصبهانى : «كان عبد الله حسن العلم بصناعة الموسيقى والكلام على النغم وعللها ، وله فى ذلك وفى غيره من الآداب كتب مشهورة ، ومراسلات جرتْ بينه وبين عبيد الله بن عبد الله بن طاهر وبين بنى حمدون وغيرهم تدل على فضله وغزارة علمه وأدبه[1] » . ويسوق أبو الفرج رسالة لعبيد الله إلى ابن المعتز ، ومنها نعرف أنه كان يميل فى الغناء إلى التجديد ولا ينكر أن يغير الإنسان بعض نغم الغناء القديم ، ثم يورد أبو الفرج من صنعته بعض أصوات أو أدوار تدل فى وضوح على أنه استطاع أن يتخطى دَوْرَ المتاع بالغناء لعصره إلى دور الإنتاج فيه إنتاجًا ممتازاً جعل العصور تحمله من بعده ، وكثيراً ما كان يزوره بعض المغنين والمغنيات ويغنونه فيما يصنع من الشعر . ومن الجوارى اللائى كن يكثرن من الاختلاف إليه والغناء فى شعره زرياب وبنت الكُرَّاعة وخزامى ، على نحو ما يحدثنا عنهن أبو الفرج فى ترجمته .

وكان ابن المعتز يأخذ بنصيب غير قليل من متاع الحياة [2] ، وكأنه ورث عن أبيه كل مزاجه ، أو قل هى حياة القصور المترفة التى تدفع من يعيشها إلى اللهو ، مما جعله يفتح بيته للندماء فى بعض الأيام وبعض الليالى يسمعون ويشربون ، وكان أكثرهم من الشعراء أمثال النميرى ، وبينهما مراسلات شعرية طريفة ، وعلى بن مهدى

---

(١) الأغانى ١٠ / ٢٧٦ .

(٢) الديارات ص ٧٢ .

الأصبهانى الكسروى وبينهما مكاتبات بالأشعار ومجاوبات[١] وجَحْظَة وهو الذى أعطاه لقبه الذى اشتهر به . وكان شغوفًا مثل أبيه بالصيد ، وسنعرض لبعض أشعاره فيه . وينبغى أن نلاحظ أن مجالسه لم تكن لهواً خالصاً ، فقد كان يختلف إليه نابهون كثيرون من علماء اللغة والأدب وفى مقدمتهم المبرد وثعلب أستاذاه وصديقاه ، ويقول الصولى فى ترجمته له بكتابه الأوراق : « كانت داره مَغاثًا لأهل الأدب وكان يجالسه منهم جماعة » .

ومرَّ بنا أن أباه وهبه إقطاعًا كبيراً بالشام ، ولا بد أن يكون قد وهبه إقطاعًا أو إقطاعات أخرى فى العراق ، ومن أجل ذلك كنا نخالف من زعموا أنه كان يعيش فى إقلال ، ثم كان عنده ما ورثه عن جدته قبيحة وإن كان القائد التركى صالح ابن وصيف صادر أموالها ، فقد كانت لها بقية عاشت منها حتّى توفيت سنة ٢٦٤ . ولا بد أنه كان ينال راتبًا كثيراً أو قليلا من الدولة لعهد عمه المعتمد الذى امتد حتّى سنة ٢٧٩ ، ويروى الصولى قصيدتين له مدحه بهما ، وفى إحداهما يقول[٢] :

أهلا وسهلا بالإمام ومرحباً   لو أستطيع إلى اللقاء سبيلا

ولعل ابن المعتز نظم هذه القصيدة بعد أن ردَّ الموفق أخاه المعتمد عن الموصل إلى بغداد لسنة ٢٦٩ وكان قد ظن بأخيه الموفق الظنون وعزم على اللحاق بمصر . وقد يكون فى ذلك ما يدل على أن الناس ومعهم ابن المعتز كانوا يخشون حينئذ لقاء الخليفة خوفًا من غضب أخيه وبطشه . وفى أخبار ابن المعتز أنه كان يروى أشعار عمه المعتمد ، مما يدل على أنه كان كثير الاختلاف إلى مجالسه، وكان عاكفًا على الملاذ والملاهى ،فكان طبيعيًّا أن يتصل الودّ بين العم وابن أخيه وخاصة إذا كان مثل ابن المعتز شاعراً وإخباريًّا ظريفًا .ونراه يسوق إلى عمه الموفق الذى أبلى بلاء عظيمًا فى محاربة الزنج والقضاء على صاحبهم قضاء مبرمًا غير مدحة ، ويبدو أنه

---

(١) معجم الشعراء ص ١٤٩ .

(٢) الديوان ص ٣٧٦ وفى أشعار أولاد الخلفاء ص ١٣١ أنها فى المعتضد .

أكثر حينئذ من تهانيه بظفره . من مثل قوله[١] :

ولما طغى أَمْرُ الدعيِّ رميتَهُ بعَزْمٍ يردُّ السيف وهو كليل
وأعلمته كيف التصافح بالقَنَا وكيف تروَّى البيض وهْى مُحول[٢]

ويتوفى الموفق فى سنة ٢٧٨ ويخلفه ابنه المعتضد وكان لا يقل شجاعة وحزماً عنه وكان عونه وظهيره فى حرب الزنج ، ويسلم عمه المعتمد مقاليد الأمور إليه ، ويتوفى سنة ٢٧٩ فيخلفه المعتضد ، وكان مهيباً شديد الوطأة ، فخافه قواد الترك ، وظلوا كما كانوا فى عهد أبيه خانعين . ويتحول بالخلافة إلى بغداد وتصبح حاضرة الدولة ، ونرى ابن المعتز يوجه إليه مدائح مختلفة يطلب فيها الإذن له بالتحول من سامراء إلى بغداد من من مثل قوله[٣] :

لعمرى لئن أَمسى الإمامُ ببلدةٍ وأَنت بأُخرى شائقُ القلب نازعُ
وما أَنا فى الدنيا بشىءٍ أَناله سوى أَن أَرى وجه الخليفة قانع

ويأذن له المعتضد وينزل بغداد، وتتحول داره إلى ندوة كبيرة للعلماء والأدباء، ويُكثر المبرد من الاختلاف إليه فيها ، وتَرْوِى كتب الأدب بعض ما كان يدور بينهما من محاورات فى الشعر والشعراء[٤] . ويصبح من ندماء ابن عمه ورفقائه على الشراب والسماع إلى الغناء ، وتُقْبل الدنيا عليه ، وتنعقد صداقة بينه وبين عبيد الله بن عبد الله بن طاهر حاكم بغداد القديم وصديق أبيه ، ويهنئه باختيار ابنه محمد لشرطة بغداد قائلا[٥] :

فرحتُ بما أَضعافه دون قدركم وقلت عسى قد هَبَّ من نومه الدَّهْرُ
فترجعَ فينـــا دولةٌ طاهريَّةٌ كما بدأَتْ والأَمر من بعده الأَمر

وتتوثق صداقة ثانية بينه وبين عبيد الله بن سليمان بن وهب وزير المعتضد، ويبدو أنها صداقة قديمة منذ وزر عبيد الله للمعتمد ، وهو يكثر من مدحه وشكره

---

(١) زهر الآداب للحصرى ٣ / ١٩٣ وفى أشعار أولاد الخلفاء ص ١٣١ أنها فى المعتضد .
(٢) البيض : السيوف - محول : مجدبة .
(٣) الديوان ص ٣٠٧ وأشعار أولاد الخلفاء ص ١٢٨ .
(٤) أخبار البحترى للصولى ص ١٦٤ .
(٥) أغانى ١٠ / ٢٨٦

على ما يصله به من أعطيات الدولة ، وتنشأ بينه وبين ابنه القاسم الذى وزر بعده صداقة ثالثة ومودة أكيدة ، وفى ذلك يقول منوّهًا بتلك الأسرة[١] :

لآل سليمان بن وهبٍ صنائعٌ إلىَّ ومعروف لدىَّ مُقدَّمَا
همُ علَّموا الأَيام كيف تبرُّنى وهم غسلوا عن ثوب والدىَ الدّما

ويتوفَّى المعتضد سنة ٢٨٩ ، وكان ابنه المكتفى غائبًا ، ويُضْطر رئيس الحرس مؤنس إلى حبس جماعة من وجوه العباسيين حتى تؤخذ البيعة للمكتفى ، وتمضى بسلام ، ويَسْلك فيهم ابن المعتز ، ونراه يجأر إلى القاسم بالشكوى من هذا الحبس الاضطرارى وسرعان ما يَرُدُّ إليه القاسم حريته ، كما يرد إليه أعطياته ويوالى له العطاء ، فيُكْثر ابن المعتز من مدحه ، معترفًا له بصنيعه من مثل قوله[٢] :

أصلح بينى وبين دهرى وقام بينى وبين حَتْفِى

ولا يلبث القاسم أن يلبى نداء ربه لسنة ٢٩١ ويظل المكتفى يفسح لابن المعتز فى مجالسه ، وابن المعتز يكثر من مدائحه ، وينوه بانتصارات جيوشه على قرامطة الشام وزعيمهم الحسين بن زَكْرَوَيْهِ القرمطى المعروف بصاحب الشامة ، وينادمه ويحضر مجالس سماعه وشرابه .

ويتوفَّى المكتفى لسنة ٢٩٥ للهجرة ويتولى الخلافة من بعده ابنه المقتدر وسنه لا تتجاوز الثالثة عشرة ، فيكثر اللغط حوله ويتكلم الناس فى شأنه ويقولون كيف يتولى الخلافة من لم يبلغ الحُلُمَ ، كما يقول كثيرون ينبغى خلعه . وتدخل سنة ٢٩٦ وما يوافى شهر ربيع الأول حتى يزداد اللغط والكلام لاستيلاء أمه شغب وقهرمانتها على الحكم كما مر بنا فى غير هذا الموضع ولقصوره الواضح عن تدبيره شئون الخلافة . وفى يوم السبت لإحدى عشرة ليلة بقيت من ربيع الأول اجتمعت جماعة كبيرة من القواد والقضاة واتفقت على خلع المقتدر وتولية عبد الله بن المعتز وبايعته فى اليوم التالى [٣] ، وكان الرأس المدبر لذلك محمد بن داود بن الجراح الكاتب ،

---

(١) مروج الذهب ص ٢٠٤ .

(٢) الديوان ص ٣١٩ .

(٣) انظر فى بيعة ابن المعتز ومقتله الطبرى ١٠ / ١٤٠ والنجوم الزاهرة ٣/ ١٦٤ وذيل زهر الآداب ص ٢٠٤ .

وقلّده ابن المعتز الوزارة وتكلم فى المقتدر قائلا : إنه لم يبلغ الحلم وإنه لاتصح للناس صلاة معه ولا حج ولا غزو وقد آن للحق أن يتضح وللباطل أن يفتضح . ولم يكد يمر يوم على هذه البيعة حتى هبَّ مؤنس الخادم فى جند كثيرين فنقضها وجدَّد للناس بيعة المقتدر وأخرج لهم الأموال وزاد فى الأعطية . ولم يبق مع ابن المعتز أحد فهرب إلى دار ابن الجصاص تاجر الجواهر المشهور وقبض عليه مؤنس وقتله ، وبذلك لم تتم له الخلافة إلا لمدة يوم وليلة ، وقيل بل لمدة نصف نهار فحسب. وما كان أحراه أن يبتعد عنها ، متعظًا بما أصاب أباه منها ، ولكن النفس أمارة بالسوء .

ولعل فيما سبق ما يوضح العناصر التى كونت شخصية ابن المعتز الأدبية ، فهو عربى عباسى يعتز بعروبته وأسرته ، وُلد فى القصر العباسى وفى كل ما انبثَّ فيه من لـهو وطرب ، على نحو ما هو معروف عن آبائه : الرشيد والمتوكل والمعتز ، إذ كانوا يفرغون للهوهم ومتاعهم كلما أتيح لهم الفراغ ، وقد يكون فى ذلك بعض البواعث عنده على الإحساس المادى للأشياء ، أو قل على وصفها وصفاً ماديًّا ، إذ كان هذا الوصف هو الذى يلائم مزاجه المترف ، كما كان يلائم عقله الذى يعيش فى النعيم فلا يستطيع أن يتعمق الأشياء ، وإنما يقف عند ظاهرها الحسى المكشوف ، وقديمًا أشار ابن الرومى إلى تأثير بيئته المترفة فى شعره ، وإن كانت إشارته من طرف آخر ولكنه يلتقى بما قدمنا ، فقد سأله شخص : لِـمَ لا تشبه تشبيه ابن المعتز وأنت أشعر منه ؟ فقال له : أنشدْنى شيئًا من شعره أعجز عن مثله ، فأنشده وصف ابن المعتز للهلال :

انْظُرْ إليه كَزَوْرَقٍ من فِضَّةٍ ... قد أثقلتْه حمولةٌ من عَنْبَرِ

فقال ابن الرومى له : زِدْنى ، فأنشده :

كأَن آذَرْيُونَهــا ... والشمسُ فيه كاليَهْ (١)

مداهنٌ من ذهب ... فيها بقايا غاليَهْ (٢)

وصاح ابن الرومى : واغَـوْثاه ! لا يُكـَلف الله نفسًا إلا وُسْعها ، ذلك إنما

(١) الآذريون : زهر أصفر فى وسطه حمل أسود.

(٢) الغالية : المسك ، وهو أسود.

يصف ماعون بيته ، لأنه ابن الخلفاء وأنا مشغول بالتصرف فى الشعر وطلب الرزق به ، أمدح هذا مرّة وأهجو هذا كرّة . وأعاتب هذا تارة وأستعطف هذا طوراً[١] . وابن الرومى يلاحظ التأثير المادى المترف للبيئة على ابن المعتز . وعنصر آخر اشترك فى تكوين شخصيته الأدبية بقوة ، وهو عنصر ثقافته العربية الإسلامية ، وقد جعله ذلك أقرب إلى ذوق المحافظين منه إلى ذوق المجددين ، حتى إذا انقسمت بيئات النقاد فى عصره إلى مجددين مسرفين فى التأثر بمقاييس البلاغة اليونانية وتحكيمها فى الشعر العربى من جماعة المترجمين ومن التف حولهم ، ومحافظين مسرفين فى رفض هذه المقاييس والتأثر بالمقاييس العربية الخالصة من جماعة اللغويين أمثال ثعلب والمبرد والبحترى من الشعراء ، ومعتدلين يتأثرون الضربين من المقاييس دون إفناء الشخصية الأدبية العربية فى المقاييس الأجنبية من أمثال أبى تمام وابن الرومى وجدناه يأخذ صف المحافظين لتعمق إحساسه بعروبته وتغلغل الثقافة العربية الإسلامية فى نفسه ، ويصرّح بذلك فى كتابه البديع الذى أنشأه ليثبت أن كل ما استحدثه العباسيون المستظهرون للثقافة اليونانية الفلسفية ليس محدثاً فى حقيقته ، بل هو يستمد من أصول قديمة فى الشعر الجاهلى والإسلامى والقرآن الكريم والحديث النبوى . وخصّ أبا تمام برسالة احتفظ بها فى ترجمته كتاب الموشح للمرزبانى ، وهى تحمل كل الأسس التى كوّن منها الآمدى حملته على أبى تمام . ومعنى ذلك أنه على الرغم من ذوقه المرهف وحسه الرقيق كان ينحو نحو المحافظين فى فهم الشعر ونقده ونظمه . وكتابه « طبقات الشعراء المحدثين » ، يدل على ثقافة واسعة بالشعر العباسى ولكنه استعان بتلك الثقافة نفسها على تأكيد الاتجاه المحافظ عنده ؛ إذ سخّرها كما يتضح فى كتابه « البديع » لإثبات أن العباسيين لم يأتوا بشىء ذى بال ، وأن كنوز الشعر العربى القديم لا تزال مفتوحة على مصاريعها ليشتق منها العباسيون كل بارع طريف .

ولا بد أن نلاحظ بجانب ذلك مؤثراً نفسيّاً أثر فيه وفى شخصيته وشعره آثاراً عميقة . ونقصد به مقتل أبيه وجده من قبله ، مما آذى نفسه إيذاء شديداً ، إذ نشأ لا يعرف الأمن ولا اطمئنان القلب ، وظل يرافقه هذا الإحساس طوال حياته ،

---

(١) النجوم الزاهرة ٣ / ٩٦ .

إذ يجلل شعره يأس عميق ، وحقًّا كان يُكِبُّ كثيراً على اللهو يُغْرق فيه أحزانه ، ولكنها كانت أعظم من أن تغرق أو تنمحى من نفسه ، ولعل ذلك ما جعله يكثر من الفخر بشجاعته ، وهو يخاف الترك وغير الترك ويتملق عمومته وأبناءهم خوفاً على حياته وإيثاراً لعافيته .

وتلك هى مكونات شخصيته ، بيئة مترفة ينغمس مَنْ فيها فى ضروب عدة من اللهو والمتاع بالحياة ، وثقافة عربية إسلامية محافظة ، وأحداث خطيرة جعلت الشر يلمّ به مبكراً ، وتدلهمّ من حواله الخطوب ، فيفكر فى الحياة والموت وما فى الدنيا من بؤس وآلام ، وكأنما كُتب عليه ألا يشرب كئوس الترف واللهو صافية ، فدائماً أو قل كثيراً ما تمتزج بها صور من الضيق بالحياة وما فيها من شر ونُكْر وما ينتظر الإنسان من مصيره المحتوم ، وابن المعتز مع ذلك كله غَزِل ظريف حلو الدعابة جميل المحضر يألفه كثير من الأدباء .

ويبدو أن أكبر شاعر محدث كان يعجب به هو البحترى ، فقد رُوِىَ عنه أنه قال : كان مما حبّب الشعر إلىّ أنى سمعت البحترى يُنْشد الماضى (يريد أباه المعتز) شعراً تشوّقه الناس واستحسنوه ووصفوه ، تصرّف فيه بغزل ووصف ومدح وشكر ، وعدّد أصناف ما أخذ ، وطلب خاتمَ ياقوتٍ ، وهو عندى من أحسن شعره ، وهو :

بودِّىَ لو يَهْوَى العَذولُ ويَعْشَقُ فيعلم أسباب الهوى كيف تَعْلَقُ (١)

والبحترى يستهل القصيدة بغزل ملىء بالشوق إلى علوة صاحبته الحلبية ، ويصف طيفها الذى ألمّ به فى حلمه ولهفته على لقائها ، وعناقها وصبابته بها ودموعهما وقبلاتهما والتصاق خدودهما حين يلتقيان ، حتى ليقول :

فلو فهم الناسُ التّلاقى وحُسْنَهُ لحُبِّبَ من أجــل التلاقى التفرّقُ

ويُفيض فى مديح المعتز وما أضفى عليه من عطايا ، ويستوهبه فى رقة ولطف خاتماً . ويلفتنا إعجاب ابن المعتز بهذه القصيدة التى أنشدها البحترى أباه وسنه

(١) أخبار البحترى ص ١٠٨ والتحف والهدايا للخالديين نشر الدكتور سامى الدهان ص ٧٣ وانظر الديوان ٣ / ١٥٣٤

لا تتجاوز التاسعة ، وتذوقه لها فى هذه السن الباكرة يدل ذلك على أنه كان قد حفظ كثيراً من الشعر ، حتى تكوّن له ذوق يستطيع به أن يفقه ما فى الشعر من جمال . ومرَّ بنا وصف البحترى له فى حياة أبيه بأنه يستولى على حلبة الشعر مما يدل على أن الشعر سال على لسانه وهو بعد فى الثامنة أو التاسعة من حياته .

ولم يكن البحترى وحده أستاذه فى مطالع حياته ، فأهم منه أبوه المعتز إذ كان شاعراً بارعًا ، ولو قُدّر له أن تمتد حياته لشغل النقاد بأشعاره على نحو ما شغلهم ابنه ، وكان ينفق كثيراً من أوقاته فى اللهو والمجون والصيد ، وينظم فى ذلك كله أشعاره ويطلب إلى هذا المغنى أو ذاك أن يتغنى فيما ينظم ، وكل ذلك ورثه ابن المعتز عن أبيه . وبذلك كان له فى أوائل حياته أستاذان : أستاذ من بيته هو أبوه الذى كان يدرّبه على نظم الشعر ، وأستاذ من غير بيته هو البحترى .

ومن المحقق أن نسيج صياغته لا يرتفع فى متانته وجزالته إلى مرتبة صياغة البحترى ، حقًّا كثيراً ما يرتفع ، ولكنه قد يهبط درجات عن صياغته الجزلة الرصينة ، مما جعل كثيرين فى عصره و بعد عصره يحملون عليه ، وتصدى لهم أبو الفرج ملوّحًا فى وجوههم بقوله : « شعره إن كان فيه رِقّة الملوكية وغزل الظرفاء وهلهلة المحدثين فإن فيه أشياء كثيرة تجرى فى أسلوب المجيدين ولا تقصر عن مدى السابقين وأشياء ظريفةً من أشعار الملوك فى جنس ما هم بسبيله ليس عليه أن يتشبّه فيها بفحول الجاهلية ، فليس يمكن واصفًا لصَبوح فى مجلس شَكِلٍ ظريف بين ندامى وقيان على ميادين من النَّوْرِ والبَنَفْسَج والنَّرْجس ومنضود من أمثال ذلك . . . أن يعدل عما يشبهه من الكلام السَّبْط (السهل) الرقيق الذى يفهمه كل من حضر إلى جَعْد الكلام ووَحْشيّه وإلى وصف البيد والمهامه والظَّبْى والظَّليم والناقة والجمل والديار والقفار والمنازل الخالية المهجورة ، ولا إذا عدل عن ذلك وأحسن قيل له مسىءٌ ، ولا أن يُغْمَط حقّه كلّه إذا أحسن الكثير وتوسّط فى البعض وقصّر فى اليسير ويُنْسب إلى التقصير فى الجميع لنشر المقابح وطىِّ المحاسن . فلو شاء أن يفعل هذا كلُّ أحد بمن تقدّم لوجد مَسَاغًا[1] » . وأبو الفرج بذلك أنصف ابن المعتز ، ووضعه فى مكانه الصحيح ، فهو فى أكثر شعره محسن ، وهو فى بعضه متوسط الإجادة ، وفى اليسير

---

(١) الأغانى ١٠ / ٢٧٤

منه مقصّر ، وأكبر الظن أن هذا اليسير من شعر الارتجال إنما كان فى أثناء سمره أو فى أثناء سماعه للغناء وشربه. على أنه لا بد أن نشير إلى مهارته فى الغناء والموسيقى وأن هذه المهارة جعلته من أصحاب الآذان الدقيقة التى تزن جرس الكلام ، ولذلك كنا نحس عنده دائمًا بأنه لا يهمل الأسماع فى شعره ، إذ كان يحاول أن يلذّها بأنغامه وألحانه . وظاهرة ثانية فى أشعاره هى عنايته فيها بالتشبيهات والاستعارات والجناس والطباق وهى ظاهرة طبيعية ، إذ كتب فى هذه الفنون كتابه « البديع » ونوّه بها ، غير أنه لم يفرط فى الجناس والطباق إفراطًا بعيداً ، وقد عاب أبا تمام بذلك فى كتابه ، لأنه يخرج فيه على طريقة القدماء . والمحافظون من أمثاله وأمثال البحترى كانوا يوازنون بين البديع المستحدث وصوره عند القدماء ، فلم يكونوا يُسْرفون فيه مثل أبى تمام ومسلم ابن الوليد .

ولعل من الواجب أن نستعرض فنون الشعر عنده ، لتتضح لنا شاعريته ، وأول ما نقف عنده من تلك الفنون المديح ، ومرّ بنا أنه مدح من الخلفاء المعتمد والمعتضد كما مدح عمه الموفق البطل المظفر ، ونحس ببهجة حقيقية ومشاعر صادقة فى مديحه لابن عمه المعتضد ، أما مديحه فى غيره ففاتر ، وكان المعتضد كما أسلفنا بطلا مغواراً واستطاع — كما استطاع أبوه الموفق — أن يخضد شوكة الترك ، بل أن يقلم أظفارهم ، وكأنما كان يشفى غليل ابن المعتز وضغنه القديم عليهم ، إذ هم قتلة أبيه وسافكو دمه ، وليس ذلك فحسب هو الذى جعل المعتضد يقرب من نفسه ، فقد اتخذه نديمًا وجليسًا وتوالت عطاياه عليه ، فكان إذا مدحه انبعث فى مديحه عن عاطفة صادقة حارة ، وربما كانت خير مدائحه فيه رائيته التى يستهلّها بقوله[1] :

سلمتَ — أَمير المومنين — على الدَّهْر ولا زلتَ فينا باقياً واسعَ العُمْر

حللت الثريّا خير دارٍ ومنزلٍ فلا زال معمورًا وبورك من قَصْرِ

فليس له فيما بَنَى النّاسُ مشبهٌ ولا ما بناه الجنُّ فى سالف الدَّهْرِ

والثريا مجموعة من الدور والقصور بناها المعتضد ، ويقال — كما مر بنا فى غير

---

(١) الديوان ص ٢١٥ .

هذا الموضع — إنه أنفق عليها أربعمائة ألف دينار وإنها كانت تمتد نحو ثلاثة فراسخ ، ومن حولها البساتين والرياض ، وقد صوَّرها ابن المعتز تصويراً رائعًا ، إذ يقول فى نفس القصيدة :

وأنهارُ ماءٍ كالسلاسل فُجِّرَتْ لتُرْضِعَ أولادَ الرياحين والزهر
جِنانٌ وأشجارٌ تلاقت غصونُها فأَوْرَقْنَ بالأثمار والورق الخُضْرِ
تَرى الطير فى أغصانهنَّ هواتفاً تَنَقَّلُ من وَكْرٍ لهنَّ إلى وَكْرِ

ويتحدث عن بأس المعتضد وجراءته وأنه يفوق فيهما ليث الغاب الذى يجرُّ إلى أشباله كل ليلة ذبيحة وحْش أو ذبيحًا من البشر ، والذى ما يزال يُفْزِع الناس بزئيره وبمن يفترس منهم ويَقْضمه قضمًا . وكان المعتضد حقًّا شجاعًا شجاعة خارقة ، ويصور ابن المعتز ما بسط فى البلاد من عدل ومن رفق بالعباد وجبروت شديد بمثل قوله فى القصيدة :

حكمتَ بعَدْلٍ لم يرَ الناسُ مِثْلَهُ وداويتَ بالرِّفق الجُمُوحَ وبالقهر

وليس فى أشعاره مديح أو تهنئات لولاة أو وزراء سوى عبيد الله بن عبد الله بن طاهر وعبيد الله بن سليمان بن وهب وزير المعتضد وابنه القاسم كما أسلفنا ، وخير مدائحه فيهم جميعًا ما مدح به عبيد الله بن سليمان بن وهب ،وهو على كل حال لا يبالغ فى إطرائه له على عادة الشعراء المتكسبين بأشعارهم ، إنما هى أبيات ينفث بها صدره من مثل قوله[1] :

أَيا موصل النُّعْمَى على كل حالة إلَىَّ قريباً كنتَ أو نازحَ الدَّارِ
كما يلحق الغيثُ البلاد بِسَيْلِهِ وإن جاد فى أَرضٍ سواها بأمطارِ
لقــد عمر الله الوزارةَ باسمه وردَّ إليها أهلها بعد إقْفارِ
وكانتْ زماناً لا يَقِرُّ قرارُها فلاقتْ نصابا ثابتًا غير خَوَّارِ

---

(١) الديوان ص ٢١٧ .

وفى ديوانه وبين أشعاره مراث قليلة وأهمها ما نظمه فى ممدوحيه السالفين وخاصة المعتضد صديقه فقد حزن عليه حزنًا شديداً ، إذ أحس كأنما انهار ركن العباسيين الوطيد وانقض من أساسه ، كما أحس أن أيام أنسه عادت ظلامًا ، فقد طوت المنية صديقه الحميم ، وطار قلبه فزعًا ، واسودّت الدنيا من حوله ، وقد مضى يرثيه ويتفجع عليه وعلى دولته وما بذله فى حمايتها ووقايتها من جهد جهيد وبأس له شديد ، يقول والدموع تنهمر من عينيه وتكاد تخنقه خنقًا[١] :

يا ساكنَ القبر فى غَبْراءَ مظلمةٍ بالطاهريَّة[٢] مُقْصَى الدَّار منفردا

أَين الجيوش التى قد كنت تَسْحَبُها أَين الكنوز التى لم تُحْصِها عَدَدَا

أَين السرير الذى قد كنت تملؤه مهابةً ، مَنْ رأَتْه عينُه ارتَعَدَا

أَين الرِّماح التى غَذَّيْتَها مُهَجًا مُذْ مِتَّ ما وردتْ قلباً ولا كبدا

ويتحسر على قصره الثريا ووصائفه وملاهيه، وكأنما أصبح طللا مهجوراً ، ولا أثر ولا عين ، كأنما لم يكن به المعتضد يومًا . ويحزن حين توفى قبله وزيره عبيد الله ابن سليمان بن وهب ، ولكنه لا ينظم فيه قصائد إنما ينظم أبياتًا قليلة يبكى فيها قدرته الكتابية أو قدرته السياسية فى الحكم والتدبير من مثل قوله[٣] :

هذا أَبو القاسم فى نَعْشِهِ قوموا انظروا كيف تسير الجبالْ

يا ناصر الملك بآرائِهِ بعدك للمُلْك ليالٍ طِوَالْ

وطبيعى ألا نجد عند ابن المعتز هجاء، فقد كان يرتفع بنفسه عن هذا الفن الذى يستحيل فى أيدى الشعراء سهامًا يسددونها إلى خصومهم ، ولم يكن له خصوم ، ولا كان يكنُّ لأحد خصومة إلا ما قد يقوله تندُّراً ودعابة من مثل قوله لعلى بن بسام هجّاء عصره[٤] :

يا قَذَى فى العيون يا حرقةً بيـ نَ التراقى حزازةً فى الفؤادِ

يا طلوع العذول ما بين إلفٍ يا غريماً وافى على ميعادِ

---

(١) النجوم الزاهرة ٣ / ١٢٧ .

(٢) الطاهرية : الدار التى دفن بها المعتضد غربى بغداد .

(٣) الديوان ص ٣٨٩ .

(٤) ذيل زهر الآداب ص ١٨١ .

يا ركودًا فى يوم غيم وصيفٍ   يا وجوه التجار يومَ الكسادِ
خَلِّ عنا فإنما أَنتْ فينا   واو عمرو أَو كالحديث المعاد

ويُكثر ابن المعتز فى شعره من الفخر بجوده وشجاعته ومضائه فى الحروب وفروسيته ، وهو يحاكى فى ذلك القدماء فى حماستهم ، فهو فخر مصطنع متكلَّف فى جمهوره ، ويفخر طويلا بأسرته وبجده العباس عم الرسول صلى الله عليه وسلم وبلائه فى موقعة حنين ، وبشجاعة آبائه وعمومته وبلاغتهم ، وفى ذلك يقول[١] :

إنا لننتاب العُداة وإن نـأَوا   ونَهُزُّ أَحشاء البلاد جموعا
ونقول فوق أَسرَّةٍ ومنابرٍ   عجباً من القول المصيب بديعا
قومٌ إذا غضبوا على أَعدائهم   جَرُّوا الحديد أَزِجَّةً ودروعا
وكأَن أَيدينا تنفِّر عنهمُ   طيرًا على الأَبدان كنَّ وقوعا

والصورة الأخيرة بديعة ، فهو يتصور رءوس الأعداء كأنها طير يتطاير بالسيوف مزايلا لمكانه من أبدانهن . ويمتزج الفخر عنده بشكوى كثيرة ، وهى شكوى مردُّها إلى ما كان يتعمق نفسه من حزن وألم منذ ألمت به محنته فى مقتل أبيه ، على نحو ما مرَّ بنا آنفًا ، فقد خلَّفت هذه المحنة فى نفسه ضيقًا شديداً ولعل ذلك ما جعله يشكو من إخوانه أحيانًا .

وكان كثيراً ما يوجه فخره بأسرته إلى العلويين ، مبينًا أن بيته أحق بالخلافة من بيتهم ، وقد ظلت ثوراتهم مشتعلة لا تخمد طوال عصره ، مما جعله يكثر من وعيدهم وتهديدهم ، مذكراً لهم بأن بيته هو الذى استطاع أن يثأر لهم من الأمويين قتلة الحسين وزيد حفيده[٢] ، ويحاول فى مقطوعات وقصائد مختلفة أن يستلَّ البغض والإحَنَ من نفوسهم على شاكلة قوله[٣] :

بنى عَمِّنا عودوا نَعُدْ لمودَّةٍ   فإنَّا إلى الحسنى سِراعُ التعطُّفِ
لقد بلغ الشيطان من آل هاشمٍ   مبالغَه من قبلُ فى آل يوسف

(١) الديوان ص ٣٠٠ وأشعار أولاد الخلفاء ص ١٦٥ .
(٢) الديوان ص ٥٠ .
(٣) الديوان ص ٣٢٧ .

فهم فى رأيه بيت واحد وإخوة وينبغى أن يتحابوا لا أن يتباغضوا ويتقاطعوا كما حدث بين إخوة يوسف عليه السلام وبينه ، حتى باعوه لسيَّارة بثمن بَخْس دراهمَ معدودة . ويبدو أن بعض معاصريه لامه على ما يوجه للعلويين من لوم وأشاعوا أنه يسب على بن أبى طالب، فنظم قصيدة طويلة فى مديحه والثناء عليه ، يقول فى مطالعها[1] :

أآكل لحمى وأَحْسُو دمى فيا قومِ للعجب الأَعجب[2]
علىٌّ يظنّون بى بُغْضَهُ فهلاَّ سوى الكفر ظنّوه بى

ومضى يقول إن الذى يُشيع ذلك هم القرامطة الذين حادوا عن جادَّة الدين باسم التشيع لعلى وهو منهم برىء وفضله لا ينكره أحد ، وأخذ يصور بسالته وبلاغته وأخوَّته للرسول عليه السلام ونفوذ بصيرته فى الحكم والقضاء وزواجه من السيدة فاطمة بنت الرسول ، وسَمَّاه بحر العلوم ، وذكر مواقفه العظيمة، وأشاد بالحسن والحسين وما كان من مقتل الأخير بيد الأمويين الغاشمة ، وبكاء العباسيين عليه وأخذهم لثأره . ولا بد أن نفصل بين شعر ابن المعتز الموجَّه إلى العلويين ، والآخر الموجه إلى القرامطة والروافض، فهو فى الأول يغلب عليه الاعتدال والميل إلى الإنصاف أما فى الثانى فيملؤه بإنذارات وتهديدات شديدة ، مع ما يسمهم به من الإلحاد والكفر والزندقة .

وتلقانا فى ديوانه مقطوعات غزلية كثيرة ، ولكنها لا تنبئ عن حب حقيقى كان يكتوى بناره ، فهى مقطوعات وقد تكون استهلالات لقصائد ، لا تصدر عن وجد شديد ، وإنما تصدر غالبًا عن ود ، وكأن مثله من أبناء القصور لا يستطيع الحب أن يتعمقه ، ولذلك كنا نفقد عنده الإلحاح فى الطلب والأمل والشوق المبرح والتضرع الحار، وكل ما نجد إنما هو حب الشباب المترف الذى لا ينبع من أعماق النفس والقلب ، أو قل هى أبيات ينظمها فيمن كن يغشين مجالسه من الجوارى أمثال نشر وشِرَّة على سبيل الدعابة من مثل قوله[3] :

---

(١) الديوان ص ٦٧ .

(٢) أحسو : أشرب .

(٣) الديوان ص ٥٢ وأشعار أولاد الخلفا ص ٢٢١ والأغانى ١٠ — ٢٧٨ .

وابلانى من محضر ومغيبِ وحبيب منى بعيد قريب
لم تَرِدْ ماءَ وَجْهه العينُ إلا شَرِقَتْ قبل رِيِّها برقيبِ

وقوله (١) :

زاحم كُمِّى كُمَّهُ فالْتَوَيَا وافق قلبى قلبه فاستويا
وطالما ذاقا الهوى فاكتويا يا قُرَّةَ العين وياهمى ويا

وهى أبيات لا تصور عذاباً فى الحب ولا ألمًا من ناره المحرقة، إنما هى أقرب ما تكون إلى الدعابة ، وختم البيت الرابع بقوله : « ويا » كما يقول الناس : يا أختى ويا ويا مستغنين بذلك عن الشرح . وقد تحولت هذه الصورة من التعبير فيما بعد إلى لون من ألوان البديع سمَّاه المتأخرون باسم الاكتفاء . واقرأ فى ابن المعتز فإنك لن تقف على حب لاهب ، إنما تقف على دعابات وصور وفَنّ من مثل قوله (٢) :

تقول العاذلات تعزَّ عنها واطفِ لهيبَ قلبك بالسُّلُوِّ
وكيف وقُبْلَةٌ منها اختلاساً ألذُّ من الشماتة بالعدوِّ

وقوله (٣) :

إذا اجتنى وَرْدةً من خَدِّها فمهُ تكوَّنتْ تحتها أخرى من الخَجلِ

وكان — كما أسلفنا — يُنْفق على شاكلة أبناء القصور — كثيراً من أوقاته فى اللهو والخمر ، وديوانه طافح بكئوسها ودنانها وسُقاتها وأديرتها ، فهو لا يشربها فى بيته ومجالسه مع أصدقائه فحسب ، بل يشربها أيضًا فى أمكنتها المعروفة لعصره وخاصة الأديرة مثل دير عبدون ، وهو يصرّح بأنه كان يغرق فيها همومه إذ يقول (٤) :

وليس للهمِّ إلا شُرْبُ صافيةٍ كأنها دمعةٌ من عين مهجور

(١) الأغانى ١٠ / ٢٧٩ .
(٢) مروج الذهب ٤ / ٢٠٣ .
(٣) مروج الذهب ٤ / ٢٠٥ .
(٤) الديوان ص ٢٣٠ .

فهو يقبل عليها لتنسيه همومه ، ولتمسح على كدر حياته بنصاعتها وصفائها ، وليتسلى ويتعزّى عن مقتل أبيه الذى لم ينسه يوما ، ومثله فى الخمر مثله فى الحب ، فهو لا يتعبَّد لها كما كان يتعبد أبو نواس ولا يسبِّح بآلائها مقدّمًا إليها قرابينه من الشعر ، إنما هو يتسلَّى بها ويتسلَّى بما ينظمه فيها بمثل قوله فى مديح الصبوح [١] :

اسْقِنِى الراحَ فى شباب النهارِ   وانْفِ هَمِّى بالخَنْدَرِيس العُقارِ [٢]

قد تولَّتْ زُهْرُ النجوم وقد بَشْـ   ـرَ بالصُّبْح طائرُ الأسحارِ

مـا ترى نعمةَ السماء على الأرْ   ضِ وشكرَ الرياض للأمطارِ

وغنـاء الطيور كلَّ صباحٍ   وانفتـاقَ الأشجار بالأنوارِ

فكـأَنَّ الربيع يجلو عروساً   وكأَنا من قَطْرِهِ فى نِثار [٣]

وهى أبيات تصور إحساسه بما ينعكس على بصره من جمال الطبيعة صباحًا فى الربيع ، ولكنها لا تصور حبًّا ولا تهالكًا على الخمر ، ولا عاطفة جامحة أو متقدة ، إنها ليست أكثر من أبيات يتسلى بها ويتعزى ويُظْهر مقدرته على النظم فى الخمر ، ولذلك يكون من السهل عليه أن ينقض هذا المدح للصبوح ويضع قصيدة بل قل مزدوجة [٤] فى ذمه امتدت إلى نحو مائة وعشرين بيتًا وفيها يقول :

فأىُّ فَضْل للصَّبُوح يُعْرَفُ   على الغَبوق والظلامُ مُسْدِفُ [٥]

ويطيل فى الأسباب التى من أجلها يذمه ذمًّا قبيحًا ، كأن يعرّض المصطبحين للبرد القارص شتاء والحر اللافح صيفًا. وقد يكون مصدر هذا الذم شيوع المناظرات لعصره وبيان محاسن الشيء ومساوئه ، كما مرَّ بنا عند ابن الرومى فى ذمه للورد ، ولكن من المؤكد أن ابن المعتز لم يصور فى ذلك عاطفة ، وإنما صور عبثًا عقليًّا ، وقد

---

(١) الديوان ص ٢٣٢ وأشعار أولاد الخلفاء ص ١٩٠ .

(٢) الخندريس العقار : الخمر.

(٣) النثار : ما ينثر على العروس من الدراهم الفضية .

(٤) الديوان ص ٤٧٣ وأشعار أولاد الخلفاء ص ٢٥١ .

(٥) مسدف : مرخى الستور.

يكون أهم من هذا العبث وصفه للبستان فى مزدوجة مشهورة له ، إذ يقول :

وياسمينٌ فى ذُرَى الأَغصانِ منتظمٌ كقطَعِ العِقْيانِ
والسَّرْوُ مثل قضب الزبرجدِ قد استمَدَّ العَيش من تُرْبٍ نَدِى
على رياضٍ وثَرًى ثَرِىٍّ وَجَدْولٍ كالمِبْرَدِ الجَلِىِّ
وجُلّنارٌ كاحمرار الخـــدِّ أَو مثل أَعراف ديوكِ الهندِ

ويستمر فى رصف مثل هذه التشبيهات والصور ، وكانت لديه مهارة خارقة فى اجتلابها ، والملاءمة بينها وبين ماعون بيته كما لاحظ ذلك ابن الرومى آنفًا . وقد لا يستمدها من ماعون بيته ، ولكن نحس كأنما عقله كان كنزاً زاخراً بالتشبيهات والصور . وأكثر من تصوير أضواء الصباح وهى تحسر عن الأفق خيوط الظلام وسواده، فتارة يشبه الظلام بحبشى أسود والصباح يفترّ عن أسنانه ضاحكًا من فراره، أو يشبهه بغراب قوادمه بيضاء أو مقصوص الجناح، أو بأسود عريان يمشى فى الدجى بسراج ، وقد يشبه الهلال بزورق من فضة مملوء بالعنبر ، ومن بديع تشبيهاته له تصويره بقوله[1] :

كمنْجَلٍ قد صِيغَ من فضَّةٍ يَحْصُدُ من زهر الدُّجَى نَرْجِسَا

وتكثر فى الديوان مثل هذه التشبيهات البارعة لعناصر الطبيعة ، ولم يقف عند الطبيعة المتحضرة وحدها فقدكان يلم بالطبيعة الصحراوية . ولعل أبا الفرج الأصبهانى لم يرد فى دفاعه عنه الذى مرَّ بنا أن ينكر عليه أنه نظم بعض شعره فى الأطلال والبيد وحيواناتها ، إنما أراد الإكثار من النظم فى الصحراء إذ له أشعار مختلفة فى وصفها ، وقد مرت بنا فى غير هذا الموضع أبيات طريفة له فى وصف الأطلال والديار الخالية ، وأخرى فى وصف ثور الوحش وبقره، ومن طريف ماله فى وصف الإبل قليلة اللبن وهى تُحْلَبُ قوله[2] :

رأَيت انهمار الدرِّ بين فروجها كما عصرتْ أَيدى الغواسل أثوابا

(١) الديوان ص ٢٧٨ .

(٢) الديوان ص ٣٦ .

وقوله فى أخرى وسُراه عليها طوال الليل ، كأنها هائمة تطلب شيئًا ضالا منها[١] :

فكأن أيديَهُنَّ دائبةً يَفْحَصْنَ ليلتهن عن صُبْح

وله فى الخيل أشعار مختلفة ، وطبيعى أن يُعْنَى بها ، إذ كان شغوفًا بالصيد ، حتى ليحتل الطَّرَدُ جزءاً كبيراً من ديوانه وأشعاره ، ومن طريف ما نعته بها قوله فى مقدمة إحدى طردياته يصف فرسًا له[٢] :

قد أغتدى والصبح كالمشيبِ فى أفقٍ مثل مداك الطيبِ[٣]
بقارحٍ مسومٍ يَعْبُوب ذى أُذن كخُوصة العَسِيبِ[٤]
أو آسة أوفتْ على قضيب يسبق شَأْوَ النظرِ الرحيب[٥]
أسرعُ من ماءٍ إلى تصويب ومن رجوع لحظة المريب

وينتقل من وصف الفرس إلى وصف الصقر أداته فى تلك الرحلة للصيد ، ويصف مهارته فى تعقب طرائده من الطير وانقضاضه عليها بمنسره ومخالبه ، يخزها ويطعَنها مسيلا لدمائها مزهقًا لأرواحها ، يقول :

وأجدلٍ أُحْكم بالتأْديبِ سَوْطِ عذاب واقعٍ مجلوبِ[٦]
يَهْوى هُوِيَّ الماء فى القَلِيب ما طار إلا لدمٍ مصبوب[٧]

وعلى نحو ما يصور الصقور الجارحة فى طرده وصيدها للطير يصور البزاة بأبصارها الثاقبة ومناسرها الحادة المرهفة كالأسنة المُشْرَعة ، ومن طريف ماله فى تصوير عين باز قوله[٨] :

ومقلة تَصْدُقه إذا رَمَقْ كأنها نَرْجِسَةٌ بلا وَرَقْ

---

(١) الديوان ص ١٤٠ .
(٢) الديوان ص ٨٦ وزهر الآداب ٢ / ٢٣ وأشعار أولاد الخلفاء ٢٠٩ .
(٣) المداك : الحجر الذى يسحق عليه الطيب .
(٤) قارح : مكتمل الخلق . مسوم : معلم حسن الخلق . يعبوب . سريع الجرى .
(٥) أوفت : أشرفت .
(٦) أجدل : صقر .
(٧) القليب : البئر .
(٨) أشعار أولاد الخلفاء ص ٢١٨ وديوان المعانى ٢ / ١٤٠ .

وله فى الكلاب طرديات كثيرة يأتسى فيها بأبى نواس ، بل هو فى طردياته جميعًا يأتسى به ويحاكيه حتى فى ألفاظه التى يفتتح بها تلك الطرديات ، من مثل : قد أغتدى . وقد مضى فى إثره يتحدث عن ضمورها ومتانة أعضائها وشدة سمعها وحدّة برائنها ونشاطها وسرعة عدوها على شاكلة قوله فى إحدى طردياته (٢) :

ومُخطَفٍ موثَّق الأَعضاءِ ذى أذنٍ ساقطةِ الأَرجاءِ (٣)
كوردة السَّوْسَنَة الشَّهْلاء وبُرْثنٍ كمِثْقَبِ الحذَّاء (٤)
ومقلةٍ قليلةِ الأَقذاءِ صافيةٍ كقطرةٍ من ماءِ
تنساب بين أكم الصحراء مثل انسياب حَيَّةٍ رَقطاءِ (٥)

وله طرديات أخرى فى الفهد ، وفى قوس البندق ، ويُكثر فيها جميعًا من التشبيهات والصور الطريفة ، ومن الحق أنه كان بارعًا فى تصوير أى شىء يلم به من كوكب فى السماء أو نجم أو سحابة أو رياض وأزهار فى الطبيعة المتحضرة أو حيوانات وأطلال فى الطبيعة المتبدية ، وليس بين المحدثين من وصف الحيَّة وصفه لها فى قوله (٦) :

كأَنى ساورتنى يوم بَيْنِهِمُ رقشاءُ مجدولةٌ فى لونهـا بَلَقُ
كأَنها حين تبدو من مكامنها غُصْنٌ تفتَّح فيه النوْرُ والوَرَقُ
ينسلّ منها لسانٌ تستغيث به كما تعوَّذ بالسَّبَّابة الغَـرِق

وله مراسلات بالشعر بينه وبين إخوانه وهى تكثر كثرة تجعلنا نظن ظنًّا أنه من أوائل من أعدوا لفتح باب الإخوانيات فى الشعر العربى ، وهو فى طائفة منها ينحو نحو الدعابة . ويكثر فى شعره — كما قدمنا — من التفكير فى الموت ومصير الحياة

---

(١) الديوان ص ١٨ وأشعار أولاد الخلفاء ص ٢٠٧ .

(٢) مخطف : ضامر . ساقطة الأرجاء : شديدة السمع .

(٣) السوسنة : الزنبقة

(٤) رقطاء : رقشاء أى بها نقط سود وبيض .

(٥) الديوان ص ٣٣٠ .

والشكوى من الدنيا ومن الأصدقاء ، وعللنا ذلك آنفاً بأنها طوابع طبعتها فى نفسه نكبته بأبيه ونفيه إلى مكة فى صباه ، وقد ظل يحنّ إلى سامراء بعد نزوله ببغداد وما لقى من بعوضها ونقيق ضفادعها [1] .

وقد تحدثنا فى غير هذا الموضع عن اهتمامه بالشعر التعليمى ونظمه فيه مزدوجة تاريخية صوّر فيها سيرة صديقه وابن عمه المعتضد والأحوال السياسية والاجتماعية والاقتصادية لعصره . ولعل فى كل ما أسلفنا ما يشهد ببراعته وامتيازه بين الشعراء لعصره .

٥

الصنوبرى [2]

هو أحمد بن محمد بن الحسن الضبى الصَّنَوْبرىّ ، وفى بعض المصادر أن اسمه محمد[3] ، وهو خطأ ، إذ ذُكر اسمه فى ديوانه غير مرة باسم أحمد، من مثل قوله معزيـاً نفسه فى بعض الظروف :

ارْضَ حكم الزمان يا أحمد ارْضَهْ   إن تَذُقْ ضَيْمَهُ فقد ذُقْتَ مَحْضَهُ [4]

وصُحِّف لقبه « الضبى » نسبة إلى قبيلة ضَبَّة فى فوات الوفيات، فصار « الصينى » ولا علاقة له بالصين ، إنما هو تصحيف النساخ . أما لقبه الثانى « الصنوبرى » فزعم هو نفسه أن جدَّه كان يعمل فى دار الحكمة لعهد المأمون فاشترك فى مناظرة بين يديه وأعجب به فقال له : إنك لصنوبرى الشكل دلالة على ذكائه وحدة مزاجه ، ولعل المأمون لم يرد بذلك إلا سَمْته وصورته وأن وجهه على

---

(١) الديوان ص ٤٠١ .

(٢) انظر فى ترجمته وأشعاره تهذيب تاريخ ابن عساكر ١ / ٤٥٦ وفوات الوفيات (طبعة محيى الدين عبد الحميد) ١/ ١١١ والوافى بالوفيات للصفدى ٧ / ٣٧٩ وشذرات الذهب ٣/٣٣٥ ومعجم البلدان لياقوت فى (حلب) وديوانه بتحقيق الدكتور إحسان عباس طبع الثقافة ببيروت .

(٣) الفهرست ص ٢٤٥ .

(٤) الضيم : الممزوج بالشوائب . والمحض : الخالص غير المشوب

هيئة ثمر الصنوبر المخروط الصورة ، ويفخر الصنوبرى بهذا اللقب لأسرته قائلا [١] :

إذا عُزِينا إلى الصَّنَوْبر لم نُعْزَ إلى خاملٍ من الخشبِ
لا بل إلى باسق الفروع عَلَا مناسباً فى أرومة الحسبِ

وهو من أهل أنطاكية ، ولكن منشأه ومَرْباه فى حلب ، ولا ندرى كيف تحوَّل أبوه به إليها ، وقد مضى مثل لداته يحفظ شيئًا من القرآن ويُكِبُّ على حفظ الشعر وتعلم العربية ، وكانت حلب مثلها مثل المدن الكبرى فى العالم العربى تزخر بعلماء اللغة والحديث والفقه وكان بها بعض الأطباء ، وكانت الكتب على رفوف المكتبات تحت أعين الصبية والشبان . وفى ديوانه إشارات مختلفة إلى بعض العلماء فى اللغة وإلى بعض القضاة وبعض الأسر المهتمة برواية الحديث النبوى وإلى بعض المتطببين ، ونراه يذكر أرسططاليس وبقراط فى بعض أشعاره [٢] . وقد يدل ذلك من بعض الوجوه على أنه عكف منذ نعومة أظفاره على الدرس والتحصيل ، وأنه قضى فى ذلك شطراً من حياته حتى تخرج شاعراً مثقفا ، على الأقل ملمًّا بالثقافات لعصره ، إن لم يكن إلمامًا عميقًا ، فإنه على كل حال معرفة واطلاع .

وقد عاش حياته فى حلب ، وكان يلم كثيراً بالموصل والرقتين ، وألم بدمشق ، ونجده لا يترك واليًا على موطنه إلا ويقدم له مدائح وأشعاراً كثيرة ، وهو يستهلُّ ذلك بمديحه لِذَكَا [٣] بن عبد الله الأعور والى حلب منذ سنة ٢٩٥ حتى سنة ٣٠٢ وتحتفظ بقية الديوان المنشورة باسم الصنوبرى بقصيدة فى مديح ابنه المظفر [٤] يصفه فيها بالكرم والشجاعة ، ويوصيه بشاعر يسمى الطبرانى أن يسبغ عليه من كرمه وجوده . وكان هذا الوالى يتخذ يحيى بن محمد التفرى وزيراً له وعوناً وظهيراً ، وللصنوبرى فيه قصيدة طنانة يصور فيها بلاغته وبعوثه لحروب القرامطة والروم ، ويخلف هذا الوالى على حلب أحمد بن كَيَغَلَغ القائد المشهور فى العصر ويظل

---

(١) الديوان ص ٤٥٦ .

(٢) الديوان ص ٢٧٩ .

(٣) انظر فى هذا الوالى ومن بعده كتاب زبدة الحلب لابن العديم بتحقيق الدكتور سامى الدهان طبع دمشق الجزء الأول ص ٩٢ وما بعدها .

(٤) الديوان ص ١٥٦ .

بها نحو سنة ويعود إليها فى سنة ٣١٧ ويظل بها سنة أخرى ، وكان عونه فى حكمه لحلب ابنه العباس ، ويضفى عليهما مدائح كثيرة ، ويبدو أن صلات العباس له كانت متوالية، ولذلك أكثر من مديحه . كما مدح محمود بن حبك الخراسانى الذى حكم حلب بعد ولاية ابن كَيَغْلَغ الأولى عليها وظل يحكمها حتى سنة ٣١٢ ونمضى مع الشاعر بعد ولاية ابن كيغلغ الثانية فنجده يمدح طريفًا السبكرى حتى إذا خلفه أحمد بن سعيد الكلابى سنة ٣٢٤ وجَّه إليه مدائحه . وتدخل حلب فى حكم ابن رائق صاحب دمشق ويعينه فى حكمها أبو الحسين بن مقاتل منذ سنة ٣٢٧ ويمدحه الصنوبرى مهنئًا له بشهر رمضان، وسرعان ما يستولى يانس المؤنسى من قبل الحسن بن عبد الله بن حمدان صاحب الموصل على حلب سنة ٣٣٠ ويمدحه الصنوبرى بمثل قوله[١] :

هو الفارسُ المُرْوِى من الدم سَيْفَهُ إذا لم يُطِق رىَّ السيوف الفوارِسُ

وتنشب حروب بين الإخشيد والحمدانيين أصحاب الموصل من جهة وبين الخليفة والبريدى من جهة أخرى ، وينزل الخليفة عند الحمدانيين وينصرونه على خصومه لسنة ٣٣٠ فيخلع على الحسن بن عبد الله بن حمدان لقب ناصر الدولة ، كما يخلع على أخيه على لقب سيف الدولة . وتشتعل الحروب بينه وبين الإخشيد فى سنة ٣٣٣ ولكنهما يفيئان إلى الصلح وتخلص حلب لسيف الدولة، وهو فى أثناء ذلك ينازل الروم ويكبدهم خسائر فادحة فى الأرواح . ومنذ قرّع سيف الدولة لأبواب حلب واستيلائه عليها نجد الصنوبرى يقدّم له مدائحه ، وأعجب به سيف الدولة ، فلم يكتف بما أجزل إليه من صلات إذ اتخذه أمينًا لمكتبته[٢] . ويبدو أن سيف الدولة لم يتعرف عليه قبل نزوله حلب ، وقد يؤكد ذلك أننا لا نجد فى ديوانه مديحًا لأخيه ناصر الدولة وآبائهما فى الموصل ، مع أن نجم الأسرة الحمدانية كان قد أخذ فى التألق منذ أواخر القرن الثالث الهجرى ، ومع أنها كانت أسرة شيعية ، وكان الصنوبرى نفسه شيعيًّا ، غير أنه ظل منحرفًا عنها ، حتى قدم سيف الدولة حلب وقد يرجع ذلك إلى اضطراب الأحوال فى بغداد واشتراك هذه الأسرة فى الفتن التى كانت تتعاقب

---

(١) الديوان ص ١٩٢

(٢) مطالع البدور للغزولى ٢ / ١٧٦ وآدم ميتز ص ٣٦٤ .

هناك ، ولعل هذه الفتن نفسها هى التى جعلته ينأى بنفسه عن بغداد وتقديم مدائحه لوزرائها وحكامها المختلفين . على أنه كان كثير المقام بالرقة ، وكان يمدح بعض ذوى الوجاهة والنباهة بها ولكنه لم يفكر فى مديح أمرائها الحمدانيين ، إلا إذا كانت هناك أشعار أخرى لم يحملها ديوانه خصَّها بمديحهم .

على أن هذا الجانب يجعلنا نفكر فى شأن تشيعه ، فديوانه يمتلئ بمراث لآل البيت وللحسين خاصة ، مما يؤذن بأنه كان متشيعًا حقًّا ، وهو يذكر فيه ما يؤمن به الشيعة من أن الخلافة ليست مفوضة للأمة وأنها تنتقل بالوصية من الرسول إلى على وأبنائه ، على نحو ما نرى فى مثل قوله [1] :

حبَاه بالوصيَّـــة إذ حَباه وهْو ذو دَنفِ

ويبدو أنه لم يكن غاليًا فى تشيعه ، بل يبدو أنه لم يعتنق مذهب الإمامية الاثنى عشرية الذى كان قد أخذ ينتشر فى بعض أركان العراق لعصره . وفى ديوانه قصيدة وجَّه بها إلى جعفر بن على صاحب الزاب فى المغرب الأوسط ، وصلة جعفر وأبيه على بالدعوة الإسماعيلية التى كانت قد أخذت فى الذيوع بتلك الديار مشهورة ، ولكن ينبغى ألا نفهم من ذلك أن الصنوبرى كان على صلة بتلك الدعوة لا فى مقرها الجديد بالمهدية فى المغرب ولا فى مقرها القديم بسَلَمْيَة فى الشام [2] ، وقد يؤكد ذلك أننا نجده يهاجم القرامطة [3] الذين كانوا متصلين بتلك الدعوة حين أغاروا على الحجيج يوم التروية لسنة ٣١٧ وقتلوهم قتلا ذريعًا ، كما مرَّ بنا فى غير هذا الموضع . وربما كان أكثر من ذلك تأكيداً أننا نجده يمدح زيادة الله بن الأغلب صاحب تونس ، بعد أن هزمه أبو عبد الله الشيعى داعية الفاطميين لسنة ٢٩٦ ، وخرج من بلاده إلى العراق وأقام — حسب أوامر الخليفة — بالرقة [4] ، وظل بها حتى توفى سنة ٣٠٤ للهجرة [5] . ونرى الصنوبرى حينئذ يمدحه بغير قصيدة [6] ولو أنه كان على صلة بالدعوة الفاطمية الإسماعيلية ما نظم فيه بيتًا مثنيًا عليه أو مادحًا . ونجده

---

(١) الديوان ص ٣٩٨ .

(٢) فى ديوانه مديح لصديق هاشمى من سلمية هو أبو إسحق السلمانى ، ولكن ليس فى مديحه له ما يصور شيئاً من الدعوة الإسماعيلية .

(٣) الديوان ص ٩٦ .

(٤) النجوم الزاهرة ٣ / ١٦٨ .

(٥) النجوم الزاهرة ٣ / ١٩٠ .

(٦) الديوان ص ٣١٧ ، ٤٠٩ .

حين يمدح آل البيت يمدح حمزة وجعفراً الطيار كما يمدح العباس[١] جد العباسيين. وهو يكثر من مديح بعض الهاشميين من سلالة على بن أبى طالب، ولكنه أيضًا يكثر من مديح الهاشميين من سلالة العباسيين أمثال أبى العباس أحد أحفاد الرشيد وله يقول[٢] :

أأبناءَ الخلافةِ من قريشٍ وساسةَ أمرِ عالمنا المسُوسِ

أَلَنتُمْ من حُزون الدهر حتى توهمتُ الحزونَ من الوعوس[٣]

وفى ديوانه ما يدل بوضوح على أنه كان لا يزال يرتحلُ من حلب إلى الرقة على الفرات، حتى لتُعَدّ كأنما كانت موطنه الثانى وخاصة فى أيام شبابه وإدمانه على اللهو وخَلْعه للعذار. وكان لا يزال يؤمّ فيها مع بعض الفتيان والرفاق دير زكّى بجمال متنزهاته، ولما كان يجاوره من أماكن الصيد برًّا وبحراً. وكثيراً ما كان يلمّ بمدينة الرّها هناك وكان بها دكان ورّاق يسمى سعداً، وكان يجتمع فيه بكثير من أدباء العراق والشام ومصر. ومن الرقة حتى دمشق كان ينزل فى كل ما بينهما من البلدان، ولم يدع جواداً أو حامياً من حماة الأدب فى تلك الأنحاء حتى قدم له مدائحه، ونستطيع أن نميز بين ممدوحيه عبد الرحمن الجلاّبى من أهل حرّان بالموصل وابن كوجلك فى طرابلس وعلى بن سهل بن روح فى حمص، أما الحلبيون فكثيرون من مثل أسرة السبيعيين، وكان منهم من يعنى برواية الحديث النبوى مثل الحسن بن أحمد السبيعى وله كتاب « التبصرة فى فضيلة العترة الطاهرة » ومثل القاضى أبى عبد الرحمن بن أخى الإمام ومثل على بن محمد بن حمزة العباسى الهاشمى وكان له قصر منيف وبساتين فى موضع يسمى فارث، وله فيه قصائد رائعة، ومثل أبى عبد الله الكرخى صاحب الخراج. وكثيرٌ هم العلويون الذين مدحهم مثل إسماعيل بن الفضل الهاشمى وابنه أبى بكر وحفيده أبى عيسى ومثل طاهر بن محمد ومحمد بن الحسين الهاشميين. وكان يختلط فى كل البلدان التى ينزل فيها بشعرائها وأدبائها، وكان من أقربهم إلى

---

(١) انظر الديوان ص ٣٣

(٢) الديوان ص ١٨٥

(٣) الحزون: جمع حزن وهو الأرض الصلبة، والوعوس جمع وعس وهو الأرض السهلة.

نفسه المعوج الرقى ويقال إنه أستاذه ، وقد توفى سنة ٣٠٧ وبكاه بمرثية طويلة يقول فيها[١] :

يا سماءَ الشعر التى لى عليها كلَّ يوم سماءُ دَمْعٍ تفيضُ
كيف تجنى الأَفهامُ زهرَ المعانى بعد ماجفَّ رَوْضُهنَّ الأَريضُ

ولعل أهم صداقة كانت بينه وبين شاعر الصداقةُ التى انعقدت بينه وبين كشاجم ، ونظن ظنًّا أنها بدأت فى الرقة، وكان كشاجم قد اتصل هناك بأبى الهيجاء عبد الله بن حمدان والد سيف الدولة، فرعاه وصار من حاشيته ، ثم صار من حاشية ابنه ، ورافقه حين ألقى عصاه بحلب ، حتى نهاية حياته ، وكان أصغر سنًّا من الصنوبرى ، وكأنه اتخذ منه معلمه ورائده فى الشعر ، فنسج على منواله ، فى وصف الرياض وفى الخمريات والغزل ، وبينهما مداعبات ومعابثات واستعطافات كثيرة ، وكأن الأستاذ دائمًا كان حريصًا على رضا تلميذه . وتمنى التلميذ يومًا لو أصهر إلى أستاذه فى ابنة[٢] له ، ولعل عالمًا لغويًّا لم يحظ بصداقة الصنوبرى كما حظى على بن سليمان الأخفش الصغير ، وكان قد رحل عن بغداد إلى مصر سنة ٢٨٧ ثم تركها سنة ٣٠٠ موليًا وجهه نحو حلب ، فظل فيها حتى سنة ٣٠٥ . وفى هذه السنوات الخمس انعقدت له حلقة كبيرة بالمسجد الجامع أمَّها الشباب للتثقف ، وكان بينهم الصنوبرى ، فملك الأخفش عليه لبَّه ، وإذا هو ينظم فيه قصيدة طويلة يصوِّر فيها نهله هو ورفاقه من ينبوعه العظيم ، بمثل قوله[٣] :

كَرَعْنا منه فى أَبْحُـ ـرِ علمٍ غير مَنْزوفه
وطالعْنا رياضَ العِلْـ ـم بالآداب محفوفه

وتضطره بعض ظروفه إلى أن يبرح محاضراته إلى أنطاكية مسقط رأسه ، فيكتب إلى الأخفش متشوقًا كما يقول ، واصفًا فراقه لهذا الفردوس العلمى ، متمنيًا لو دامت عليه ظلاله . وتمتد به الأيام بعد ذلك نحو ثلاثين عامًا يقضى معظمها فى اللهو ، ويفيق مرة من كئوسه فى نحو الستين من حياته فيتمنى لو زهد فى الدنيا ومتاعها الزائل

(١) الديوان ص ٢٦٢ .
(٢) ديوان كشاجم (طبعة بيروت) ص ٧٩ .
(٣) الديوان ص ٣٧٧ .

معلناً أنه بلغ السابعة والخمسين وآن له أن يزدجر ويرعوى ويكف عن اللهو وآثامه ، يقول[١] :

ألقتْ رداءَ اللهو عن عاتقى خمسٌ وخمسون مضَتْ واثنتانْ

وفى البيت ما يدل على أنه لم يمت وقد ناهز الخمسين كما يقول ياقوت[٢] ، بل مات وقد ناهز على الأقل الستين ، ولا ندرى هل هجر اللهو فعلا كما تمنى أو ظل يشرب كئوسه صافية وممزوجة حتى الأنفاس الأخيرة من حياته لسنة ٣٣٤ للهجرة . وكان يعيش على ما يظهر فى يسر دائماً ، إذ نراه يذكر — كما يذكر ذلك كشاجم — أن له بحلب ضيعة وبستاناً وقصراً حوله الأشجار والورود والرياحين[٣] . وكثيراً ما نراه يدعو صحابه ورفاقه لمآدب عنده[٤]

وأخذ كثيرون يروون أشعاره وهو على قيد الحياة ، وعُنى أحد تلاميذه من الشعراء وهو أبو العباس الصفرى برواية ديوانه وعنه رواه القاضى أبو عمر عثمان بن عبد الله الطرسوسى[٤] ، واهتم به معاصره أبو بكر الصولى فجمعه ورتبه على حروف الهجاء فى مائتى ورقة[٥] . ولم يلبث الديوان أن دخل الأندلس بعد وفاة صاحبه بنحو عشرين عاماً لعهد الحكم المستنصر (٣٥٠ — ٣٦٦ هـ) . على يد مواطن للصنوبرى ترجم له ابن الفرضى فى تاريخ[٦] علماء الأندلس ، هو محمد بن العباس الحلبى ، وعنه رواه اللغوى المشهور أبو بكر الزبيدى الإشبيلى ، وذاعت هذه الرواية بين أدباء الأندلس ، ونرى ابن خير يذكر طرقها فى فهرسته[٧] . ولم يصل إلى عصرنا من الديوان إلا جزء منه يشتمل على قصائده من قافية الراء حتى القاف . أما الجزء الذى يسبقه والآخر الذى يلحقه فمفقودان . وحقّق الجزء الباقى تحقيقاً علمياً الدكتور إحسان عباس وألحق به ما وجده فى المصادر المخطوطة والمطبوعة من أشعار الصنوبرى

---

(١) الديوان ص ٥٠٣ .

(٢) انظر حلب فى معجم البلدان .

(٣) الديوان ص ٣٤٧ وانظر ديوان كشاجم ص ٧٤ .

(٤) انظر مثلا ص ١٥٥ فى الديوان .

(٤) الديوان ص ١٨٧ .

(٥) الفهرست ص ٢٤٦ .

(٦) تاريخ علماء الأندلس لابن الفرضى رقم ١٤٠٢ .

(٧) فهرسة ما رواه ابن خير عن شيوخه ص ٤٠٨ .

ونشر هذا الملحق مع الجزء المذكور باسم ديوان الصنوبرى ومعه فهارسه فى نحو ٥٨٠ صفحة .

ومن يقرأ فى شعر الصنوبرى يلاحظ تـوًّا أنه كان يعنى بصناعة شعره وأنه أكبَّ على الشعراء من قبله يقرأ فيهم ويستوعب ويتمثل، وخاصة أبا تمام والبحترى وابن الرومى وابن المعتز ، فهو أحيانًا يكثر من الجناس ومن فنون البديع على طريقة أبى تمام ، وأحيانًا لا يذهب بعيداً فى استخدام هذه الفنون على طريقة البحترى ، وهو يكثر من التشبيهات والصور على طريقة ابن المعتز كما يكثر من وصف الطبيعة على طريقة ابن الرومى . وظل يمرن نفسه على نظم الشعر ويروضها على صناعته حتّى قال[١] :

ما حَلَّ بى منك وقتَ مُنْصَرفى ؟ ما كنت إلا فريسةَ التَّلَفِ
كم قال لى الشوق قِفْ لتلثمـــه فقال خوف الرقيب لا تقفِ
بسطت خطوى كرهاً وقد قبضتْ رجلى عن الخطو شدةُ الكلف
فكان جسمى فى زِىٍّ منطلقٍ وكان قلبى فى زى منعطفِ

فارتضى حينئذ أن يعلن عن شاعريته وأن يقدم أشعاره لمن حوله، والأبيات فيها غير قليل من التكلف فى التعبير ، وخاصة البيت الثانى، ومع ذلك تنمّ عن شاعرية جيدة ، وواضح فيها العناية بالطباق والمقابلة على نحو ما يلاحظ القارئ لبيتيه الثالث والرابع . وأخذ يسلس له الشعر وأسلم له قياده حتّى أصبح من المجلّين فيه البارعين .

وإذا أخذنا نستعرض موضوعات الشعر عنده لاحظنا أنه عُنى بالمديح عناية واسعة ، إذا اتخذ شعره متجراً له ومربحًا . فهو يقدّمه لولاة حلب ونوابهم وأبنائهم ومساعديهم ، وكثيراً ما يصرّح فيه بتنجز الوعود ، وأنه لا يزال ينتظر هبة الممدوح وجائزته ، وأكثر من مديح العباس بن أحمد بن كَيَغْلَغ ، وفيه يقول[٢] :

---

(١) الديوان ص ٣٨٨ .
(٢) الديوان ص ١٦٠ .

وكيَغْلَغِيٌّ المجد يُلْفَى مجدُه ثَبْتَ الدعائم محصدَ الأَمْراسِ[١]

فَرْدُ الكيان فكفه من رحمةٍ تَسَعُ الأَنام وقلبه من باسِ

أَعْدَى على صَرْف الليالي المعتدى وألان من طبع الزمان القاسى

يوماه ذا عيدٌ وذا عُرْسٌ وإن جَلاَّ عن الأَعياد والأَعراسِ

يـأْبى الحجابَ وليس يحجب بشره عن أَعين الندماء والجُلاَّسِ

والأبيات مليئة بالجناسات والمقابلات والتقسيمات، على نحو ما يلاحظ فى أعدى والمعتدى والحجاب ويحجب، وفى الكف والقلب واللين والقسوة والعيد والعرس. وكأنما كتب أشعاره على أضواء من ديوان أبى تمام، وإن كان لا يبلغ مبلغه فى اقتناص المقابلات والجناسات. فقد كان أبو تمام أكثر دقة وأنفذ بصيرة. ولا نبالغ إذا قلنا إن أجود ما صاغه من مدائح صاغه فى الهاشميين من عباسيين وعلويين، وأهم هاشمى عباسى أسبغ عليه مديحه على بن محمد بن حمزة الهاشمى، وكانت له – كما مرَّ بنا – ضياع يتوسطها قصر فى مكان يسمى فارث، وكان الصنوبرى كثيراً ماينزل عنده بهذا القصر وينعم بما فيه من ترف ومن أسباب النعيم ووسائله، وله فيه قصيدة عينية رائعة يصور فيها ما نعم به عنده من غناء بعض الجوارى ومن راح وخمر. كما يصور بستاناً حافلا بالورود والرياحين وبركة حسناء تنهل فيها النجوم ويتحول إلى مديح ابن حمزة هاتفاً[٢] :

ابْقُوا بنى العباسِ مابقىَ الحصَا لندًى يُؤَمَّلُ أَو لخَرْقٍ يُرْقَعُ[٣]

ويمدح كثيراً من العلويين المقيمين بحلب وغير حلب. ودائماً يذكر أنهم عترة المصطفى وأنهم الجوهر المصفَّى وسراج الدنيا. ومن خير مدائحه فى الهاشميين مدائحه لأبى إسحق السلدانى. ويصفه بالعلم الغزير والاطلاع الواسع على الثقافة اليونانية حتى ليرفعه درجات على أرسطاليس وبقراط، قائلا[٤] :

وأَدقُّ من رَسْطالِسٍ نظَرًا إذا ناظرْتَه وأَشفُّ من بُقْرَاط

---

(١) محصد : قوى متين .

(٢) الديوان ص ٣٢٧ .

(٣) يريد بالخرق : الفتنة .

(٤) الديوان ص ٢٧٩ .

فِكَرٌ غَدَتْ أقفالَ فكرٍ كلُّها لكنهنَّ مفاتحُ استنباط

والرثاء كثير في الديوان بصوره الثلاث من العزاء والتأبين والندب ، فهو يعزى جعفر بن طاروف عن أخيه[1] بأن تلك حال الزمان يعصف بكل الأحياء ، وقديمًا عصف بجرهم وطسم وأقيال حمير وكسرى وقيصر ، ويعزّى ابن حمزة الهاشمي العباسي صديقه عن زوجته[2] وأن طائراً لم يطر إلا كما طار وقع ، ولا شرب أحد في دنياه جرعة حلوة إلا أعقبتها جرعة مرة . وحزن طويلا على صديقه أبي إسحق السلماني حين وافاه القدر ، فأبّنه كثيراً واصفًا علمه وباكيًا عليه بمثل قوله[3] :

غاب أَبو إسحقَ في الأَرض بل غابَ سِراجُ الأَرض في الأَرضِ
بكتْه عيناىَ وفوق البكا حتى بكى بعضى على بعضى

ومن أروع مراثيه ندبه للنبي عليه السلام ولآله ، وهو فيه يتحدث عن ابنته فاطمة الزهراء وعن على واصفًا مقتله الأثيم ومؤكداً وصية الرسول له بالخلافة كما أسلفنا ، ويذكر حديثه له في غدير خم وأنه منه بمنزلة هرون من موسى ، ويعرض مقتل الحسين وما صبَّه في نفوس المسلمين من جزع وكمد . ويخصُّه بمراث كلها تفجع عليه ولوعات وزفرات ، ونراه في بعضها[4] يصوّر سيرة جده المصطفى العاطرة ليظهر مدى الإثم في مقتله ، كما يصور سيرة أبيه على ونصرته للإسلام وماله من حقوق على الأمة ، ويبكى مقتله في كربلاء بالقرب من الفرات ، وهو ساغب ، يريد بعض الماء ، فتلعق السيوف من دمه ودم شباب وصغار من بيته كانوا معه ، وتُعْوِل أم كلثوم ومن كان في ركبه من النساء عويلا مُرًّا ، ويندد بقاتليه وفظاعة جريمتهم وما يزال يئنُّ لمصرع الحسين وهتك حُرمه بمثل قوله[5] :

يومَ الحُسَيْن على الد ين كنت يوماً عسيرا
ملأْتِ والله كَرْباً يا كربــلاءُ الصدورا

---

(١) الديوان ص ١٠٦ .
(٢) الديوان ص ٣٤١ .
(٣) الديوان ص ٢٦٥ .
(٤) أنظر الديوان ص ٢١٨ .
(٥) الديوان ص ٩٥ .

والفاطميون تَقْرِي هم السيوفُ الطيورا
والفــاطميات يَنْحَرْ ن بالدموع النُّحُورَا

ونراه فى جوانب من تفجعه على الحسين وآل البيت يتوسل إلى الرسول عليه السلامُ وفاطمة الزهراء وعلى وابنيه الحسن والحسين أن يكونوا شفعاء له يوم القيامة ، حتى يغفر الله له ذنوبه ، وهو يضيف إلى شفاعة الرسول المقررة عند أهل السنة شفاعة آل البيت ، تشيعًا لهم ، كأنهم ورثوها فيما ورثوه عن النبى صلى الله عليه وسلم. ويلتقى فى الديوان تفجعه على الحسين بتفجعه على ابنته ليلى وحيدته كما يقول، ويندبها فى كثير من القصائد والمقطوعات ، وقد امتلأت نفسه شقاء وعناء ممضًّا وامتلأ قلبه حسرات ولوعات محرقة ، وما يزال يطلب إلى السحب أن تكسو الأرض من حول قبرها وشيًا بعد وشى وحريراً بعد حرير وأزهاراً وأنواراً فائحة العبير ، ويناجيها فى رمضان ذاكراً عبادتها فيه وعكوفها على القرآن الكريم ، وكيف تحوَّل العيد بعدها لغيابها عنه مأتمًا ، ويبكيها فى قصيدة ضادية ، ويبكى معها أختها التى ماتت منه فى الرقة ، وفى ذلك يقول[1] :

لنا فى الرَّقَّتين مضيضُ حزنٍ وفى حَلب المضيضُ على المضيض

وظل جُرْحه فى ليلى لا يرقأ ، وكانت عروسًا ، فانقلبت الفرحة حزنًا بل كارثة ، وانقلب الرحيق حريقًا يصطلى الصنوبرى بناره ، ويتعذب عذاباً شديداً ، ولا مغيث له ولا ملجأ سوى الدموع والأنات والزفرات وأن ينوح عليها بمثل قوله[2] :

يا ربة القبر المضىء الذى يضىء ضوءَ الكوكب السَّارِى
أشتاق رؤياكِ فآتى فلا أرى سوى تُرْبٍ وأحجارِ
قومى إلى دارك قد أنكــرتْ صبركِ عنها أىّ إنْكارِ
استوحشتْ دارُكِ من أهلها واستوحش الأَهــلُ من الدارِ

ومن أروع مراثيه مرثيته فى أمه ، وهو من أقدم من رثوا أمهاتهم إن لم يكن

---

(١) الديوان ص ٢٦٣ .
(٢) الديوان ص ١٠٠ .

أقدمهم ، وهو فى رثائه لها يصور شعوراً عميقاً بالحزن ، وقد استهله بقوله : (١)

قد صَوَّحَت روضتىَ المونقه وانتُزِعتْ دوحتىَ المورقه

ومضى يصور مرضها قبل موتها وكيف كان يئن لها أنيناً متصلا . وله مرثية طريفة لثوب أبلاه الدهر .

وهزَّته بل أثَّرت فى نفسه تأثيراً عميقاً فاجعة الحرم المكى الكبرى لسنة ٣١٧ حين هجم القرامطة على الحجاج ، وهم يُهلون ويُلَبّون يوم التَّرْوية فأعملوا فيهم السيوف فى طرق مكة وفى البيت الحرام وهم متعلقون بأستاره ، حتى ليقال إنهم قتلوا منهم نحو عشرة آلاف ، ونرى الصنوبرى يبكيهم بكاء حاراً ، هاتفاً (٢) :

دموعهمُ تجرى خشوعاً وخشية وأرواحهم تجرى على البيض والسُّمْر

وما غُسلوا بالماء بل بدمائهم وما حُنِّطوا إلا من التُّرْب لا العِطْرِ

ومضى يصف القرامطة بالكفر وأنهم لا يعرفون صلاة ولا سجوداً ولا طهراً ولا وضوءاً ولا صوماً ولا حجاً ولا شيئاً من فرائض الإسلام .

وله قصائد عدة فى الفخر ، وهو كثيراً ما يفخر فيها بقبائل قيس والقبائل المضرية عامة وبضبة قبيلته ، وأيضاً كثيراً ما يفخر فيها بالمصطفى وآله . ونراه فى قافية له يضيف إليه أبا بكر الصديق وعمر الفاروق وخلفاء بنى العباس ، إذ يقول فى عدِّ قومه لمناقبهم ومفاخرهم (٣) :

عَدُّوا النبىَّ الهاشمىَّ ورهطه ووزيرَهُ الصدِّيق والفاروقا

ولهم خلائفُ من بنى العباس قد أعيوا جميع العالمين لحُوقا

وفى ذلك ما يدل بوضوح على أنه لم يكن غالياً فى تشيعه ، إذ يرتضى خلافة الصديق والفاروق وخلفاء العباسيين ، بل يمجدها ويشيد بها فى قوة . وله أهاج كثيرة يملؤها بالفحش ، ومن أطرفها هجاؤه لزوج ابنته ليلى التى رثاها طويلا ، ويبدو

(١) الديوان ص ٤٤٢
(٢) الديوان ص ٩٧
(٣) الديوان ص ٤٠٤

أنها توفيت عقب إعراسه بها ، فعدّه طائر شؤم وطالع نحس بغيض ، وهجاه مراراً وتكراراً بمثل قوله [١] :

ألا يابنَ الجُنَيْد اسمع وما أنت بذى سَمْع
على التَّفْريق إمْلاكُ لكَ هَدًّا لا على الجَمْعِ [٢]
على التَّعْس عَلَى الغَمِّ على النَّحْسِ على الفَجْعِ
علىَّ تحــرُّقُ القلبِ علىَّ تحدُّرُ الدمْع

وله قصيدة [٣] فى هجاء بعض الشهامسة ، يصفه فيها بالشره فى الأكل وببعض العادات القبيحة ، وبالثقل حتّى إنه ليتفوق على جبل رَضْوَى فى ثقله ، وبالشؤم حتّى ليوازى البوم فى شؤمه ، ومن قوله فى ثقيل [٤] :

لو مَرَّ من ميلٍ توهمتَه قد مرَّ بين العَيْن والحاجبِ

وفى ديوانه معاتبات واستعطافات بينه وبين بعض أصدقائه ، وألطفها ما نظمه فى استعطاف صديقه ورفيقه الحميم كشاجم ، وكانا كأنهما روح واحدة فى جسدين أو جسد واحد فى ثوبين ، فقد جمعت بينهما لحمة الشعر ، ووثقت بينهما من الصداقة ما لا توثقه قرابة الدم ، وله يقول متودّداً مستعطفاً [٥] :

أَخٌ لى عاد من بعد اجتنابهْ وفَرَّقَ بين قلبى واكتئابهْ
وخاطبنى فخلتُ بأَن زهر الـ رُّبَى الموشِىَّ يُجْنَى من خطَابهْ
فقرَّب بين أَجفانى وغُمْضِى وباعد بين دَمْعِى وانسكابهْ
أَتانى أَرْىُ منطقه فعَفَّى على ما ذُقْتُه من طَعْم صَابهْ [٦]

وله غزليات كثيرة ، غير أن كثيراً منها فى الغلمان ، وحاولنا — فى غير هذا الموضع — أن نخفف من حِدّة هذه المثلبة السيئة عند الصنوبرى وغيره ، فقلنا إن

(١) الديوان ص ٣٤٦ .
(٢) الإملاك : الزواج .
(٣) الديوان ص ٢٠٠ .
(٤) الديوان ص ٤٥٩ .
(٥) الديوان ص ٤٥٧ .
(٦) الأرى : الشهد أو عسل النحل . والصاب : العلقم .

كثيراً من شعر الغلمان ، إن لم يكن جُلُّه ، كان يُقال على سبيل الدعابة والتندير فى أثناء السكر وشرب الخمر . وله غزل فى فتيات ونساء كثيرات ، ويغلب عليه التكلف إذ نراه يبحث غالباً عن تشبيه أو صورة ، ومن غزلياته الطريفة قوله(١) :

تزايد ما ألقى فقد جاوز الحَدَّا وكان الهوى مزحاً فصار الهوى جِدًّا
وقد كنت جَلْدًا ثم أوهننى الهوَى وهذا الهوى ما زال يستوهن الجَلْدَا
فلا تعجبى من غُلْبِ ضَعفك قوَّتى فكم من ظباءٍ فى الهوى غلبتْ أُسْدَا
جَرَى حبُّكم مجرى حياتى ففقدكم كفقد حياتى لا رأيتُ لكم فقْدَا

ومع ذلك فالقطعة لا تخلو من تكلف ، حين يحوِّل الهوى من المزح إلى الجد وحين يصبح واهنًا بعد أن كان جلداً ، وحين يغلب الضعف القوة ، كل ذلك ليأتى بالطباق . وأطرف من هذه المقطوعة مقطوعته التالية(٢) :

لا النومُ أدْرِى بهِ ولا الأَرَقُ يَدْرِى بهذين مَنْ به رَمَقُ
إن دموعى من طول ما اسْتَبَقَتْ كلَّتَ فما تستطيع تستبق
ولى مليكٌ لم تَبْدُ صورته مُذْ كان إلا صَلَّت له الحَدَق
نويتُ تقبيلَ نارِ وَجْنَتِهِ وخفت أدْنو منها فأحترق

والقطعة مع ما يترقرق فيها من جمال يتعمقها التكلف ، على نحو ما يلاحظ فى البيت الثانى وتعب دموعه من استباقها وتقاطرها على خديه ، وتعبيره عن عبادته لمليكه بصلاة الحدق فيه أيضًا غير قليل من التكلف، وواضح أن الشطر الأول فى البيت الأخير مجلوب اجتلابًا ليهيئ مكانًا للشطر الأخير . وله مقطوعة نظمها فى فتاة مسيحية ، تمضى على هذا النمط(٣) :

لا ومكان الصَّليب فى النَّحْرِ منكِ ومجرى الزنّارِ فى الخَصْرِ
والحلقِ المستديرِ من سَبَجٍ على الجبين المصوغ من دُرِّ(٤)

(١) الديوان ص ٤٧٢ .
(٢) الديوان ص ٤٣٦ .
(٣) الديوان ص ٦٣ .
(٤) السبج : قطع الشعر المرسلة على الجبين .

وسُكْرِ أجفانك التى حلف الـ فتورُ ألا تُفيق من سُكْرِ
وأقحوانٍ بفيك مُنْتَظِمٍ على شبيه الغدير من خَمْرِ
ما صبَر الشوقُ لى فأصبِرَ يا منْ حُسْنُهُ فيه قِلَّةُ الصَّبر

ويكثر الصنوبرى من الحديث عن الخمر ووصف كئوسها وسقاتها وندامها ومجالسها ، يفرد لذلك القصائد والمقطوعات . وقد يضع نعت الخمر فى مقدمة بعض مدائحه ، مضيفًا إليها نعت بعض ليالى الأنس وما كان فى مجالسها من غناء وقيان وجوار معقربات الأصداغ . وقد يضيف إلى ذلك وصف البستان وما فيه من أزهار ممتدة حول القصور ومجالسها . وكثيراً ما يقرن وصف الربيع إلى الخمر ، فهو ربيع الدنيا وهى ربيع الفرح والسرور فى رأيه . ويقرنها أيضًا دائمًا إلى الأمطار ، ولعله أول من قرنها بالثلج وانتثاره فى الطبيعة ، وعرف له القدماء ذلك فقالوا إنه أول من تغنى بالثلجيات على شاكلة قوله [1] :

ذَهِّبْ كئوسَك يا غلا مُ فإن ذا يومٌ مُفَضَّضْ
الجَوُّ يُجْلَى فى البَيَا ضِ وفى حلىٍّ الدُّرِّ يُعْرَضْ
أظننتَ ذا ثلجاً وذا وردٌ على الأَغصان يُنْفَضْ
وَرْدُ الربيع ملوَّنٌ والورد فى كانونَ أَبْيَضْ

وهو يفرح بهذا اليوم من أيام كانون شهر الشتاء القارس ، الذى يكسو الأشجار ثيابًا بيضاء ، وكأنها تُجْلَى فيها ، فهو يوم من أيام عرْسها ، وهو يعبّ فيه من كئوس الخمر المذهبة الصافية ، فرحًا بمنظر الثلج على الأغصان ، وكأنما قِطَعُهُ فى عينه ورودٌ تُنْفَضُ على الأغصان وعلى الأرض ، وورود بيضاء ، تكسو الطبيعة غلائل فضية بهيجة . وكان أكثر ما يفرغ لخمره ولهوه ولذاته فى الرقة ، وكان يختلف مع رفاقه إلى بساتينها ومتنزهاتها على جداول البليخ والهنىّ والمرىّ . وله رائية [2] يصور فيها نزهة فى بساتين تلك الجداول وفى دير زكّى الذى كان يجاوزها ، ذاكراً قُرَاها التى كان يتنقّل بينها من مثل هرقلة والصالحية

---

(١) الديوان ص ٢٥٥ .
(٢) الديوان ص ٥٤ .

وبِطْياس والرافقة وما كان يمتد فى المروج هناك من أنوار وأزهار ، ويصف عكوفه على الخمر وسُقاتـها من الغلمان والجوارى ، كما يصف صيده بالكلاب هناك من الغزلان ، وكذلك صيده بالجوارح من الصقور والبُزَاة للطير من مختلف الألوان ، ويصوّر من معه من الرفاق كما يصور نهر الفرات وسفنه المسرعة . وله وراء ذلك أشعار كثيرة فى دير زكىّ ونُزَهه فى بساتينه وخَلْعه مع بعض رفاقه للعذار فيه ولهوهم مع بعض فتياته ، على نحو ما يحدّثنا فى قوله[1] :

لو على الدّير عجتَ يوماً لألهتْ ... لك فنونٌ وأطربتك فنـــونُ
كم غزالٍ فى كفِّه الوردُ مبذو ... لٌ وفى الخدِّ منه وردٌ مصونُ

ويبدو أنه ارعوى حين تقدمت به السن بعد الخمسين ، وربما كان لموت ابنته ليلى أثر فى ذلك ، فقد صحا من خمره ولهوه على موتها فى سن البراعم الغضة ، ولعل ذلك ما جعله يعلن أنه كفّ عن النبيذ فى حزم وعزم أكيد ، حتى ليقول[2] :

كنت أُحبّ النبيذ جِدًّا ... فصـــار حُبِّى النبيذ بُغْضَا
فلست أرضاه لى شراباً ... والحمد لله لست أَرْضَى

وينظم بعض أشعار فى الزهد ، وله فيه قصيدة[3] طويلة ، يتحدث فيها عن الموت وعن ذنوبه ومعاصيه وأنه آن له بعد ما اقترف من الآثام أن يرعوى ويكف عن السير فى طريق اللهو ودروبه . ويتصل بهذا الموضوع عنده أن نجده يفرد بعض القصائد لنصائح خلقية وسلوكية فى الحياة ، وهو الباب الذى يسمَّى فى الشعر وأغراضه باسم باب الأدب ، حيث تتوالى النصائح للبصر بالحياة ومسالكها الصعبة ، من مثل قوله فى إحدى قصائده التى خصّها بهذا الباب[4] :

أضاع الحَزْمَ مَنْ أَمْسَى مُطِيعاً ... طوالَ الدهر ذا حَزْمٍ مضاعِ
وأكثرْ ما استطعت الحلم إنى ... رأيت الحلم من كرم الطباعِ
ولا تَتْبَعْ أخا سَفِه ودَعْـــهُ ... وكُنْ للحُرِّ ـ دهرَك ـ ذا اتباعِ

---

(١) الديوان ص ٤٩٥ .
(٢) الديوان ص ٢٥٨ .
(٣) الديوان ص ٣٩٣ .
(٤) الديوان ص ٣٢٣ .

ولم نتحدث حتى الآن عن الموضوع الأساسى فى شعره ، وهو وصف الطبيعة التى عاش لها وعاش بها وعاش فيها معيشة جعلته أستاذ هذا الموضوع فى العربية . وقد مضى معاصروه مِن حوله ومَن خلفهم فى العصور التالية لا فى المشرق وحده، بل أيضًا فى المغرب والأندلس يسيرون على هديه فيه ، حتى ضُرب المثل بروضياته . وحقًّا كان ابن الرومى مشغوفًا بالطبيعة ووصف الرياض فى الربيع ، ولكنه لم يعِش لهذا الموضوع معيشة الصنوبرى ولا اتخذ له بستانًا يزرع فيه الورود والرياحين والأزهار ويتعهدها تعهد المحب الوامق كما صنع الصنوبرى . فهو بحق شاعر من شعراء الطبيعة ، عاش يتغذى خياله وروحه منها ، واصفًا لحدائقها وبساتينها ورياضها ، حتى ليصبح ذلك كل شغله وكل وكْده من حياته ، وقديمًا عاش تلك المعيشة أبو نواس، ولكن فى الصهباء وكئوسها ودنانها، مما جعله يُعْلى وصفها على وصف الأطلال والديار العافية، وبالمثل نجد الصنوبرى يُعْلى وصف الطبيعة على وصف الديار والأطلال ، فى مثل قوله [1] :

وَصْفُ الرياض كفانى أن أقيم على وصف الطلول فهل فى ذاك من باسِ

يا واصف الروض مشغولا بذلك عن منازلٍ أَوْحَشَتْ من بعد إيناسِ

قُلْ للذى لام فيه هل تَرَى كَلِفاً بأَملح الروض إلا أملحَ الناسِ

فهو يُعْلِى وصف طبيعة بلاده على وصف الأطلال ، وكأنه أول تعبير قوى عن شغف شعراء الشام بطبيعة ديارهم الخلاّبة . ورأيناه فى غزله لا يهيم بالمرأة ، وكأنما استأثرت الطبيعة بكل ما فيه من عاطفة ، وشغلته بجمالها الهاجع فى الكون عن كل شىء ، حتى لكأنما يعيش لها كل لحظة من حياته ، وفى كل لحظة يصبو لها قلبه ويشتد وجده وتتتابع أنفاسه ، ويصور ذلك فى قصيدة الأبيات السالفة قائلا عن رِفاق له فى أحد البساتين :

ما كدتُ أكتمهم وَجْدى بِنرْجِسِهِ إلا استدلُّوا على وَجْدى بأَنفاسِى

فهو يجد بالرياض وجداً لا يكاد يشبهه وجد ، وكان يشتد به هذا الوجد فى الربيع ، حين تأخذ الأرض زخرفها ويعبق الجو بروائح الأنوار والأزهار ، وتتغنّى

(١) الديوان ص ١٨١ .

الطيور على الأشجار ، وكأنما تتحوّل الرياض فى عينيه إلى أعياد وأعراس ، حتى ليقول[١] :

ما الدهر إلا الربيعُ المستنير إذا أتى الربيع أَتاك النَّوْرُ والنُّور[٢]

فالأَرض ياقوتة والجو لؤلؤةٌ والنبت فيروزَجٌ والماءُ بَلُّورُ[٣]

تظلُّ تنثر فيه السُّحْبُ لُؤْلؤَها فالأَرض ضاحكةٌ والطير مسرورُ

حيث التفتَّ فقُمْرِىٌّ وفاختةٌ يغنِّيانِ وشِفنِينٌ وزُرْزورُ[٤]

إذا الهزارانِ فيه صَوَّتَا فهما السُّرْ نايُ والنَّاىْ بل عودٌ وطُنْبورُ[٥]

فالربيع كأنه دكانٌ ملىء بالجواهر ، والدنيا مليئة بالبشر والسرور والطيور تغنى ويشدو عندليبان بصوتهما الساحر ، وكأنما تجتمع جوقة موسيقية تخلب الألباب بأغانيها الجميلة . ويهتف بالناس أن يفتحوا عيونهم وأبصارهم فى الربيع ايروا مفاتنه ويهتف بصواحبه من النساء أن يتأملنَ فى جماله الذى يملأ القلوب غبطة وابتهاجاً ، يقول[٦] :

يا ريمُ قومى الآن ويحك فانظرى ما للرُّبَى قد أظهرت أعجابها[٧]

كانت محاسنُ وجهها محجوبةً فالآن قد كشف الربيع حجابها

وردٌ بدا يحكى الخدودَ ونَرْجِسٌ يحكى العيون إذا رأتْ أحبابها

وكأنّ خُرَّمَهُ البديعَ وقد بدا روسُ الطَّواوس إذ تدير رقابها[٨]

والسَّرْوُ تحسبه العيونُ غوانياً قد شَمَّرتْ عن سوقها أثوابها[٩]

فهو يوقظ صاحبته لترى الطبيعة وقد حسر الربيع نقابها ، فبدت خدودها وعيونها الرانية ورءوسها الزاهية ، وكأنما السرو غانيات أقبلت مشمرة عن سيقانها

---

(١) الديوان ص ٤٢

(٢) النوْر : الزهر .

(٣) الفيروزج : الفيروز وهو حجر كريم أخضر اللون .

(٤) القمرى والفاختة : من الحمام ، والشفنين اليمام ، والزرزور : من العصافير .

(٥) السرناى والناى : من آلات الطرب .

(٦) الديوان ص ٤٥٤ .

(٧) أعجاب : جمع عجب .

(٨) الخرم : زهر بنفسجى زاه .

(٩) السوق : السيقان جمع ساق .

تريد الرقص فى هذا الجو العطر البهيج . ويفرد كثيراً من مقطوعاته لوصف بعض الأزهار ، ولم يكن زهر يملك لُبَّه كما كان يملكه زهر النرجس ، وهو أعظم الأزهار فى الشام وأكثرها انتشاراً فيه ، وقد تغنى به طويلا على نحو ما نرى فى قوله[1] :

أرأيتَ أَحسنَ من عيون النَّرْجِسِ ... أم من تلاحظهن وَسْطَ المجلسِ
دُرٌّ تشقَّق عن يواقيتٍ على ... قُضُبِ الزمرُّدِ فوق بُسْطِ السُّنْدسِ
أجفانُ كافورٍ حُبِينَ بأَعْيُنٍ ... من زعفرانٍ ناعمات الملمسِ

وهو فى كثير من وصفه للنرجس يستهدى بابن الرومى ، إذ كان معجبًا به مثله ، ومرَّ بنا فى غير هذا الموضع أن ابن الرومى أدار مناظرةً فى شعره بينه وبين الورد ، وقف فيها مع النرجس مُورداً من الحجج ما يؤكدّ فضله على الورد وأنه يفوقه حسنًا وجمالا ، وكأنما أراد الصنوبرى أن يعارضه فنظم مقطوعة[2] نصر فيها الورد، ثم عاد فأقام معركة بين الأزهار ، حاول فيها أن ينتصر للنرجس ، وفيها يقول[3] :

خَجِلَ الورد حين لاحظه النرْ ... جِسُ من حُسْنِهِ وغارَ البَهارُ[4]
فعَلتْ ذاك حمرةٌ وعَلَتْ ذا ... حَيْرَةٌ واعترى البَهارَ اصفرارُ
وغدا الأُقْحُوَانُ يضحك عجباً ... عن ثنايا لِثَاتُهُنَّ نُضَارُ[5]
عندها أبرز الشَّقيق خدودًا ... صار فيها من لَطْمه آثارُ[6]
وأَضرَّ السَّقامُ بالياسمين الـ ... غَضِّ حتى أذابه الإضرارُ

ويمضى الصنوبرى على هذا النمط واصفًا القتال بين النرجس والأزهار المختلفة، وكل منها يبوءُ بالهزيمة أمام النرجس وما يسلط من سهام عيونه الساحرة. وكان كلما وصف بلدة من بلدان الشام وصف طبيعتها الجميلة ، وله فى دمشق والرقة قصائد بديعة ، وأبدع منها قصيدته فى موطنه حلب ، وهى أربعة أبيات ومئة استهلَّها

---

(١) الديوان ص ١٨٠ .
(٢) الديوان ص ٤٩٨ .
(٣) الديوان ص ٧٨ .
(٤) البهار : نبت أصفر .
(٥) الأقحوان : زهر أبيض فى وسطه اصفرار وأوراقه مفلجة ، ولذلك يشبهونه بالأسنان .
(٦) الشقيق : ورد كبير أحمر .

بالتشبيب ، ثم أخذ فى وصف متنزهاتها وقراها ونهرها قويق وبركها ، ثم وصف المدينة نفسها وجامعها وفيه يقول[١] :

حبذَا جامعُها الجا معُ للنفس تُقاها
ومـراقى مِنبَـرٍ أعْ ظمُ شىءٍ مُرْتقاها
وذُرَى مِئْـذنةٍ طـا لتْ ذُرَى النَّجم ذُراها
قُبـةٌ أَبْدَع بانيـ ـها بنـاءً إذ بناهـا
لو رآهـا مبتنى قُبَّـ ـةِ كسرى مابناهـا

وتحدث عن حلقاتها الأدبية والعلمية ، ووصَفَ الطبيعة حولها وأشجارها وأزهارها وصفًا رائعًا ، وتحدث مراراً عن نهر قويق مصرحًا بضحولة مياهه وأنه ليس فيه شىء من سفن الفرات ولا من تماسيح النيل وإنما فيه فقط نقيق الضفادع . وكان طبيعيًّا أن يصف الفستق أعظم نُقْل تشتهر به حلب وفيه يقول[٢] :

زبرجدةٌ ملفوفة فى حريرةٍ مضمَّنةٌ دُرًّا مُغَشًّى بياقوتِ

وكانت لديه قدرة على ملاحظة دقائق الأشياء، ولذلك كان يُحْسِن وصف أى شىء وصفاً دقيقاً ، ومما اشتهر به وعُرِف له وصفه لديك الصباح الذى ينبهه وينبه الرّفاق معه لخمر الصباح التى تسمى بالصَّبوح ، وكان الشعراء قبله يلمّون به أحيانًا ، أما هو فخصَّه بمقطوعة طريفة وفيها يقول[٣] :

مغرِّدُ الليل ما يأْلُوكَ تَغْريدا ملَّ الكَرَى فهْو يدعو الصُّبْحُ مجهودا[٤]
لما تطرَّب هزَّ العِطْفَ من طربٍ ومدَّ للصوت – لما مدَّه – الجِيدا
كلابسٍ مُطْرَفاً مُرْخٍ جوانبه تضاحك البيض من أَطرافِه السودا[٥]
رانٍ بِفَصَّىْ عقيقٍ يدركان له من حِدَّةٍ فيهما ما ليس محدودا
حالى المقلَّد لو قيستْ قلادتُه بالورد قصَّر عنها الورد توريدا

(١) الديوان ص ٥٠٦ .
(٢) الديوان ص ٤٦٤ .
(٣) الديوان ص ٤٧٣ .
(٤) الكرى : النوم .
(٥) المطرف : ثوب من حرير مخطط .

وكان كثيراً ما يخرج مع رفاقه للصيد والقَنَص ، وخاصة فى الرقة ، يصيدون بالكلاب الغزلان أو يصيدون بالجوارح طير الماء ، وقد يصيدون السمك من الفرات بالشباك ، وكل ذلك نجد وصفه فى أشعاره ، وله طائية[1] يصف فيها جواده الذى يركبه للصيد وقد جُنَّ جنونه من السرعة حتى لكأنه حاقد على الفضاء ، أما يده فكأنها منبر للشاهين الذى سيطلقه على بَطِّ الماء أو طَيْره ، وفيه يقول :

كأنما مِخْلَبُهُ لأُذن الطَّيْر قُرْطْ

ويصور سرعة مضيه حتى كأنه سهم يخرج عن قوس ، فلا يكاد يرتد البصر حتى يأتى بصيده . ويتركه إلى وصف ما معه من كلاب الصيد ، مصوراً سرعتها هى الأخرى وهيئتها وانقضاضها على فرائس الصيد من الغزلان وغير الغزلان ، وفيها يقول :

موكَّلات بالفلا يَطْوِينها طَىَّ البُسُطْ
كأنما آذانُهُ نَّ سَوْسَنٌ لم يُجْنَ قَطْ
كأنما أجفانُها عن قِطَعِ الجمرِ تُعَطْ[2]

وساعدته حاستة التصويرية على أن يصور كل ما حوله وكل ما يقع عليه نظره ، من ذلك تصويره للجُرْذان والهِرِّ[3] ، ونراه يقدم لذلك بتصوير هيئة كل منهما ، فالهر أحدب الظهر منتصب الرأس ، والجرذان دقيقة الخراطيم والآذان والأذناب حادة الأظفار والأنياب ، ثم يتحدث عن إفسادها لكل شىء وكيف تنقب الحيطان والجدران وتصيب من كل طعام وشراب ، والهِرُّ لها بالمرصاد ، يقول :

ناصبٌ طَرْفَهُ إزاءَ الزَّوايا وإزاءَ السقوف والأَبوابِ
يسحب الصَّيْدَ فى أقل من اللَّمْـ ح ولو كان صَيْدُه فى السحاب

ويصور لنا فرحه به حتى لقد ألبسه قُرْطًا وقلادة ، وخضبه بالحنَّاء ، وكأنه عروس مقلدة عقداً نفيسًا ، تمشى بأقدامها الحمراء على عُنَّاب ، وكل ذلك

---

(١) الديوان ص ٢٨٣ .
(٢) تعط : تشق .
(٣) الديوان ص ٤٥١ .

فرحٌ بهذا الليث الذى قضى له على الجرذان قضاءً مبرمًا . ومن تصاويره قوله فى شمعة[1] :

مَجْدُولَةَ فى قَدِّهــا تَحْكى لنا قَدَّ الأَسَلْ
كأَنهــا عُمْرُ الفَتَى والنــارُ فيها كالأَجَلْ

وهى صورة طريفة ، ولعل فى كل ما أسلفنا ما يشهد بخصب خيال الصنوبرى وأنه كان خيالا خالقًا ، لا يزال يرسل الصور الطريفة تلو الصور ، صور تحفل بما يملأ نفس قارئه إعجابًا ، وكان إلى ذلك شغوفًا بالرياض والطبيعة شغفًا ملك عليه حواسَّه ، حتّى أصبح فيه قدوة للعصور التالية .

(١) الديوان ص ٤٨٥ .

الفصل السادس

شعراء السياسة والمديح والهجاء

١

شعراء الخلفاء العباسيين

عرفنا فى كتاب العصر العباسى الأول أن حزب الخوارج الذى كان يصارع الأمويين مصارعة عنيفة خَمَدَ أُوَارُه ، ولم تَبْقَ منه حينئذ إلا أسراب قليلة حتى إذا كنا فى هذا العصر العباسى الثانى كادت تجفُّ هذه الأسراب ، ولم يَعُدْ من يُعْلن أنه خارجى أو يدافع عن الخوارج إلا أفراد قد نجدهم هنا أو هناك دون أن يكوّنوا حزبًا أو يعملوا على نشر دعوة ، إنما هى أفكار قد تَعِنّ لشخص ، وقد يتبنَّاها ، ولكن دون أن يَحْمل من أجلها السلاح ودون أن يتغنّى بها شعراً ، إلا ما كان من صاحب الزنج فإنه مزج فى دعوته بين التشيع ومذهب الأزارقة من الخوارج على نحو ما مر بنا فى غير هذا الموضع ، إذ كان يستحلّ قتل أطفال المسلمين ونساءهم ويرى المسلمين جميعًا كفاراً ينبغى استئصالهم ، بالضبط على نحو ما كان يذهب الأزارقة . ولكن حتى هذه الحركة الثائرة حركة الزنج لا نستطيع أن نسميها حركة من حركات الخوارج ، لأنها كانت تزعم أو يزعم صاحبها أنها حركة شيعية ناسبًا نفسه إلى فاطمة الزهراء كذبًا وافتراء . وكأنما كان اضمحلال مذاهب الخوارج هو الذى جعله ينسب دعوته إلى البيت العلوى .

أما حزب الشيعة فقد ظلت نيرانه لا تخمد فى هذا العصر ، بل لعلها ازدادت اشتعالا ، بكثرة من كانوا يثورون من العلويين فى الحجاز وفى طبرستان وشرقى الدواة ، وكان وراء هذه الثورات شعر كثير يؤازرها ويناصرها ويرمى بقذائفه وشعله على العباسيين . وكان كثير من الشعراء يقف مع العباسيين ، بل لقد كانت كثرتهم

الغامرة تقف معهم ؛ لأنهم أصحاب الدولة وفى أيديهم خزائنها وأموالها يكيلون لهم منها كَيْلا ، فكان طبيعيا أن يكثر مُدَّاحهم ودُعاتهم . بل إن كثيرين من شعراء الشيعة أنفسهم كانوا يُظْهِرون غير ما يُبْطِنون ، فيمدحون هذا الخليفة العباسى أو ذاك لقاء ما يُنْثَرُ عليهم من دراهم ودنانير . وكان منهم الخليفة المعتدل الذى لا يَحْمل على البيت العلوى ولا يضْطغن مثل المنتصر ، وكان منهم المتحامل المبغض مثل أبيه المتوكل أول خلفاء هذا العصر ، وقد مرَّ بنا أمره بِحَرْث قبر الحسين ومَحْو أرضه ومَنْع الناس من زيارة مكانه وكذلك زيارة قبر أبيه فى النجف ، وغدا آل أبى طالب فى محنة عظيمة طوال عهده يخافون على أنفسهم من القتل أو من الحبس . وتقرَّب إليه غير شاعر من مثل على بن الجهم بِشَتْم على رضى الله عنه كما أسلفنا ، إما نَصًّا وإما تعريضًا كقول الجمَّاز أحد ندمائه[١] :

ليس لى ذنبٌ إلى الشـ ـيعة إلا خَلَّتَين
حبُّ عثمانَ بن عفَّا ن وحبُّ العُمَرَيْن

يريد بالعمرين أبا بكر الصديق وعمر بن الخطاب ، ملوِّحًا بأنه من أهل السنَّة ، وأنه على مذهب المتوكل فى التَّسَنُّن ومَقْت الشيعة . وفتح المتوكل أبوابه للشعراء كى يمدحوه ويمدحوا بيته ويبرهنوا على أنه هو البيت الوارث حقًّا للخلافة ، ملوِّحين فى وجوه العلويين ومن يقفون معهم من الشيعة . وعرف الشعراء فيه هذا الجانب ، فاستغلوه يَتقدمهم ابن الجهم ومروان بن أبى الجنوب وغيرهما كثيرون ، وأتوه من كل فَجٍّ من الشام والموصل والكوفة والبصرة والجزيرة العربية . وكان ممن أقبل عليه من الكوفة أبو الشِّبْل البُرْجُمِىّ ، حتى إذا دخل عليه أنشده قصيدة مؤلفة من ثلاثين بيتًا استهلَّها بقوله[٢] :

أَقْبِلِى فالخَيْرُ مقبلْ واتركى قولَ المعلِّلْ
وثِقى بالنُّجْح إذْ أَبـ ـصرتِ وجهَ المتوكل

وما إن انتهى منها حتى أمر له بألف درهم لكل بيت ، فانصرف بثلاثين ألف

---

(١) معجم الشعراء للمرزبانى (طبعة الحلبى) ص ٣٧٥ .

(٢) الأغانى (طبع دار الكتب المصرية) ١٤ / ١٩٣ .

درهم . وكان يَغْدو ويَرُوح في ركابه البحترى يمدحه فى كل مناسبة مشيداً بآبائه ووراثته لنور النبوة وإمامته وعهده وعدله ، ويتحول إلى ما يشبه داعية له فى كل عمل من أعماله . ومن طريف ما نقرأ من مدائح للمتوكل عند غيره مدحة لإبراهيم بن المدبر وكان لا يزال شاباً يعمل فى دواوينه ، فمرض المتوكل ثم عوفى ، ودخل الناس على طبقاتهم يهنئونه بالإبلال من مرضه ، ودخل إبراهيم ، ولم يكد يقف بين يديه حتى أنشده قصيدة يهنئه فيها بسلامته مهللا مبتهجاً مع المبتهجين المهللين ، وفيها يقول[1] :

اليوم عادَ الدِّينُ غـ ضَّ العودِ ذا وَرَقٍ نَضِـيرِ
يا رحمـةً للعالمِيـ نَ ويا ضياءَ المستنيرِ
يا حجـة الله التى ظهرتْ له بِهُدًى ونورِ

والمبالغة واضحة وكأننا بإزاء غال من غلاة الشيعة يمدح إمامه ، وقد لعبت فيما بعد كلمة « حجة الله » دوراً كبيراً فى المذهب الإسماعيلى الفاطمى . وكان طبيعياً أن يَطْرَب المتوكل حين سمع القصيدة ، فيأمر له بخمسين ألف درهم ويتقدم إلى وزيره عبيد الله بن يحيى أن يوليه عملا جليلا ينتفع به . وكان كثيرون يسيل لُعابهم لمثل هذا العطاء الجزيل ، حتى كبار الكتَّاب من أمثال إبراهيم بن العباس الصولى ، وكانوا ما يزالون ينتهزون الفرص من الأعياد والمناسبات ، وكان من أكبر هذه المناسبات عقد المتوكل البيعة لولاة العهود أبنائه الثلاثة : المنتصر فالمعتز فالمؤيد ، وصنع لذلك موكباً ضخماً ، سار فيه مع أولاده حتى نزل القصر الذى سمَّاه العروس وأذن للناس فدخلوا إليه ، فلما تكاملوا بين يديه وقف الصولى بين الصَّفَّيْن ، واستأذن فى الإنشاد فأذن له فقال[2] :

أَضْحَتْ عُرَى الإسلام وَهْىَ منوطةٌ بالنَّصْر والإعزاز والتـأْييدِ
بخليفـةٍ من هاشمٍ وثـلاثة كَنَفُـوا الخلافة من وُلاة عهودِ

---

(١) أغانى (طبعة الساسى) ١٩ / ١١٤ .

(٢) أغانى (طبعة دار الكتب) ١٠ / ٦٤ وانظر الطبرى ٩ / ١٨١ والديوان (طبع لجنة التأليف والترجمة والنشر) مع مجاميع شعرية أخرى ص ١٣١ .

قمرٌ توافَتْ حوله أقمـــارُهُ فَحَفَفْنَ مَطْـلَعَ سَعْدِهِ بسعود
كَنَفَتْهُم الآباء واكتنفت بهم فَسَعَوْا بـأَكْرَمِ أنفُسٍ وجدود

فأمر له المتوكل بمائة ألف درهم وأمر له ولاة العهود بمثالها . ويتولى بعده المنتصر، فيرفع المحنة عن آل أبي طالب ويدفع عنهم الأذى ويردُّ عليهم الأمن ، ويتغنى شعراؤه بهذا الصنيع ، يتغنَّى البحترى ويتغنى غيره ، ويتغنى شعراء الشيعة من أمثال يزيد[١] بن محمد المهلبي . وسرعان ما يخلفه المستعين ، وفيه يقول أحمد بن يحيى البلاذرى [٢] :

ولو أنَّ بُردَ المصطفى إذ لِبِسْتَهُ يظنٌّ لظنَّ البُرْدُ أنك صاحبُهْ
وقال وقد أَعْطيته ولِبِسَتهُ نعم هذه أعطافه ومناكِبُهْ

ويتولَّى الخلافة بعده المعتز ، وكان شاعراً مجيداً ، ولو امتدت به الخلافة لكان مثل ابنه عبد الله فى خصب ملكاته الشعرية ، وقصده كثير من الشعراء ، ليأخذوا جوائزه أو ليصبحوا من ندمائه إذ كان صاحب لهو وقصف ، فلم يكد يتسلم مقاليد الخلافة حتى فتح أبوابه لهم ، وكان ممن دخل عليه وأنشده مهنئًا أبوعلى البصير قائلا [٣] :

آبَ أمرُ الإسلام خير مآبِهْ وغدا الملك ثابتاً فى نِصابِهْ
مستقرًّا قــراره مطمئنًّا آهلا بعد نَأْيِهِ واغترابِهْ

وتطول مدة المعتمد نحو عشرين عامًا أو تزيد سنوات ،وكان فيه لهو وانغماس فى الترف ، ولكن يده كانت مكفوفة عن المال ، كفَّها أخوه وولىّ عهده الموفق أشد بنى العباس شكيمة لعصره وأحزمهم بكل معانى الحزم وأروعه . وكأنما اختاره القدر فى عصر أخيه لينازل الزنج وصاحبهم فى ثورتهم العارمة ويقضى عليها قضاء مبرمًا . فكان طبيعيًّا أن ينصرف الشعراء عن الخليفة إلى ولى عهده وأمجاده الحربية فى وقائعه مع الزنج من جهة ومع يعقوب الصفَّار من جهة ثانية . وقد صورنا هذه

---

(١) مروج الذهب ٤ / ٥٢ .
(٢) النجوم الزاهرة ٣ / ٩٨ .
(٣) مروج ٤ / ٨٢ .

الوقائع فى غير هذا الموضع ، وفى وقائعه مع الصفار يقول ابن فَيَنْد الطائى مصوِّراً انتصاره (١) :

وولِىُّ عهد المسلمين موفَّقٌ بالله أَمضى من شهابٍ ثاقبِ
يافارسَ العُرْب الذى ما مثله فى الناس يُعْرَفُ آخَرٌ لنوائبِ

وتولَّى الخلافة المعتضد ، وكان مثل أبيه شجاعة وفروسية وحزماً ، ومرَّ بنا أنه كان من مدَّاحه ابن الرومى فهو يهنئه فى الأعياد المختلفة وينتهز كل مناسبة لينظم فيه أشعاره مهللا ممجداً . ونظم فيه ابن المعتز كثيراً من مدائحه ، كما أسلفنا ، وكان قُرَّة عينه ، وله صنع أرجوزته التاريخية التى صوَّر فيها عهده تصويراً بارعاً ، وفيها أصْلَى خصوم العباسيين ناراً حامية ، مصوراً بشاعة ثورتى الزنج والقرامطة ، وكأنما جَرَّد من نفسه محامياً أمام أبناء عمومته العلويين مدافعاً عن بيته وحقوقه فى الخلافة ، ومرَّ بنا ذلك فى حديثنا عنه . ويتولَّى المكتفى بعد أبيه المعتضد ويُسْبغ عليه ابن المعتز مدائحه ، كما يُسْبِغُها أبو بكر الصولى وغيره . ثم تكون خلافة المقتدر وتأخذ الدولة فى الانتكاس . ويظل الشعراء يقدمون مدائحهم للخلفاء طلباً للنوال من أمثال ابن بَسَّام (٢) وغير ابن بسام . ونحن نقف عند ثلاثة من شعراء العصر طالما مدحوا خلفاءه ، وهم مروان بن أبى الجنوب وعلى بن يحيى المنجم وأبو بكر الصولى .

مروان بن أبى الجنوب أبو السمط (٣)

حفيد مروان بن أبى حفصة شاعر الخليفة المهدى ، أصل موطنهم اليمامة ، وقد سلك مسلك جَدِّه فى الطعن على آل على بن أبى طالب ، فكان طبيعياً أن يفتح له جعفر المتوكل أبواب قصره وقد بلغ من حَنَقه على أبناء عمه العلويين

---

(١) طبرى ٩ / ٥٢٠ .

(٢) انظر أخبار الراضى والمتقى فى كتاب الأوراق للصولى .

(٣) راجع فى أخبار مروان وأشعاره الشعر والشعراء لابن قتيبة وطبقات الشعراء لابن المعتز ص ٣٩٢ ومروج الذهب ٤ / ٥٢ ، ٨٣ والطبرى ٩ / ٢٣٠ والأغانى (طبعة الساسى) ٩ / ٣٤ وتاريخ بغداد ١٣ / ١٥٣ والفهرست لابن النديم ٢٣٥ ومعجم الشعراء للمرزبانى ص ٣٢١ والموشح ص ٣٤٤ ووفيات الأعيان وخزانة الأدب للبغدادى ١ / ٤٤٧

، صورناه فى غير هذا الموضع . ويبدو أن الواثق لم يكن يُعْجَبُ به ولا بشعره فنفاه إلى اليمامة ، فلما ولى الخلافة بعده المتوكل بعث إلى ابن أبى دُؤَاد مستشاره بقصيدة يمدحه بها ، ذم فيها ابن الزيات وزير الواثق ذمًّا قبيحًا ، وكان المتوكل قد قبض على أمواله وعذَّبه فى تَنّور من خشب ملأه بمسامير من حديد حتى مات فقال فيه مروان :

وقيل لىَ الزَّيَّاتُ لاقى حِمَامَهُ ... فقلتُ أتانى الله بالفتح والنَّصْرِ
لقد حفر الزيات بالغدر حُفْرَةً ... فأُلْقِىَ فيها بالخيانة والغَدْرِ

وكان ابنُ الزيات أولَ من عمل هذا التنُّور ، وعذَّب به نفراً . وما إن صارت القصيدة إلى ابن أبى دؤاد حتى طار إلى المتوكل وأنشده البيتين السالفين ، فأمره بإحضاره . فقال له إنه باليمامة ، كان الواثق نفاه لمودَّته لأمير المؤمنين ، وعليه دَيْنٌ : ستة آلاف دينار ، فقال المتوكل : يُعْطاها . فأعطيت له ، وجىء به إلى سامرَّاء ، فدخل على المتوكل وأنشده قصيدة لامية يقول فيها :

كانتْ خلافة جعفرٍ كنبوَّةٍ ... جاءت بلا طَلبٍ ولا بتنحُّلِ
وهبَ الإلهُ له الخلافةَ مِثْلَمَا ... وهبَ النبوة للنبىِّ المرسلِ

فأمر له بخمسين ألف درهم . وأخذت هباتُ المتوكل الغدقة تنثر عليه نَثْراً ، فهو يغدو ويروح عليه بالمدائح . والمتوكل يُسْبِغ عليه عطاياه ، وكان مما أخذ فيه نوالا كبيراً قصيدته الدالية التى أنشدها المتوكل حين عقد ولاية العهد لأبنائه الثلاثة : محمد المنتصر وعبد الله المعتز وإبراهيم المؤيد ، وفيها يقول :

ثلاثة أمـلاكٍ فأما محمَّدٌ ... فنورُ هُدًى يهدى به اللهُ مَنْ يَهْدِى
وأمـا أبو عبد الإله فإنه ... شبيهك فى التقوى ويُجْدِى كما تُجْدى
وذو الفضل إبراهيمُ للناس عصمةٌ ... تَقِىٌّ وَفِىٌّ بالوعيد وبالوَعْدِ
فأولهم نـورٌ وثانيهمُ هُدًى ... وثالثهم رُشْدٌ وكلهم مَهْدِى

فلما أتمَّ إنشادها أمر له المتوكل بمائة وعشرين ألف درهم وخمسين ثوبًا وبغلة وفرس وحمار . فما برح حتى قال فى شكره :

تخيَّر رَبُّ الناسِ للناس جعفرًا فملَّكه أمـرَ العباد تَخَيُّرا

حينئذ رَدَّ عليه ضياعه التى كان ابن الزيات قد صادرها ، وجعل له راتبًا فى الديوان ، ولعل أهم من كل هذا المديح أنه دافع بحرارة فى جوانب من مديحه عن حقوق العباسيين فى الخلافة مؤتسيًا فى ذلك بجدّه مروان بن أبى حفصة ، وائتسى به أيضًا فى الرد على العلويين ونَقْض ما يدّعونه من وراثة الرسول فى الخلافة ، إذ هم أبناءُ السيدة فاطمة الزهراء والعمُّ مقدم على أولاد البنت فى الوراثة حسب حكم الشريعة . ومن خير ما يصور ذلك عنده قصيدته الميمية التى تمضى على هذا النمط :

مُلْكُ الخليفـة جعْفَرٍ للدين والدنيا سلامَهْ
لكم تراثُ محمَّدٍ وبِعَدْلكم تُنْفَى الظُّلامَهْ
يرجو التراث بنو البنا تِ وما لهم فيها قُلامَه
والصِّهْرُ ليس بِوارثٍ والبنتُ لا تَرِثُ الإمامَهْ
أخذ الوراثةَ أَهْلُها فعلامَ لَوْمُكُمُ علامه

وهو يشير بوضوح فى الأبيات إلى أن مصاهرة على بن أبى طالب للرسول عليه السلام لا توجب له وراثة ، كما يشير إلى أن السيدة فاطمة بنتٌ ، والبنت لا ترث الولاية على المسلمين ولا تحق لها الإمامة ، فكيف تُورَثُ الإمامة من قبلها ؟ والشريعة واضحة فى ذلك . وطار المتوكل حين سمع القصيدة ابتهاجًا ، وقلّده اليمامة والبحرين وخلع عليه أربع خلع ، وخلع عليه ولى عهده المنتصر . وأمر المتوكل له بثلاثة آلاف دينار فنُثِرت على رأسه ، وأمر ابنه المنتصر وسعداً الإيتاخىّ يلتقطانها له دون أن يلتقط هو منها شيئًا إكرامًا له ، ويقال إنه حشا فمه جوهراً . ومن طريف ماله فيه قوله :

تخشى الإله فما تنام عنايَةً بالمسلمين وكلهم بك نائمُ
لو كان ليس لهاشم فيما مضى سلفٌ سواك لقامَتْ بك هاشم

وقال بعض معاصريه إن المتوكل أعطاه مائتى ألف دينار من وَرِقٍ (فضة ،

وذهب، وكُسْوة . وكانت هذه العطايا الغامرة تملأ نفوس بعض الشعراء من حوله وحول المتوكل حسداً أن تعلو جائزته جوائزهم ، فكانوا يتبادلون معه بعض الأهاجى حتى شاعرٌ نابهٌ مثل على بن الجهم نراه يتهاجى معه ، ولم يكن مروان يَصْمت بل كان يبادر أحيانًا إلى الهجاء ، ويُرْوَى أن ابن الجهم قال فى فاتحة قصيدة له فى المتوكل :

اللهُ أكبرُ والنبىُّ محمَّدٌ والحق أَبْلَجُ والخليفة جعفرُ

ولم يكد يسمع مروان قوله ، حتى أعمل فكره ، وبادره يقول له ساخراً منه سخرية شديدة بل سخرية مرة شديدة المرارة :

أَراد ابنُ جَهْمٍ أَن يقول قصيدةً بمدح أَمير المومنين فأَذَّنا
فقلتُ له لا تعجلنْ بإِقامةٍ فلستُ على طُهْرٍ فقال : ولا أَنا

وكان يقدّم لمدائحه بنسيب رقيق يحيِّى فيه نجداً ويدعو لها ولأهلها بالسقيا ويتمنى زورةً لهم أو إلمامة قصيرة . وله أبيات جيدة يتحدث فيها عن الشيب ، والشباب وعهده وعهوده ، وحبه الماضى ، وفيها يقول :

شمسُ الشباب علىَّ اليومَ طالعةٌ وسوف تغرب إن الدهر ذو غِيَرِ
إذا الشبابُ مضَتْ عنا بشاشته فما نُبالى متى صِرْنا إلى الحُفَر
لنا من الشوق أكبادٌ مصدَّعــةٌ وأَعْيُنٌ كُحِلَتْ بالدَّمْعِ والسَّهَر
سَقْياً ورَعْيًا لأَظعانٍ مُوَلِّيَةٍ فيها خَرائدُ كالغزلان والبقر
ودَّعتهنَ وداعاً زادنى كَمَدًا ما كان إلا كوِرْدِ الطائر الحذِرِ

وله شعر فى المعتز رواه المسعودى فى المروج مما يدل على أنه عاش حتى عصره . ولعل فيما قدمنامن أشعاره ما يدل على خصب شاعريته وأنه كان مثل جدّه يعنى بصقل أشعاره وانتخاب ألفاظه حتى تروق سامعيه بما فيها من جزالة وطلاوة .

على [1] بن يحيى المنجم

من أصل فارسى أسلم أبوه يحيى على يد المأمون وخُصَّ به ، ويقال إن جَدَّ يحيى أبرسام البزُرُزْج كان وزيراً لأردشير وصاحب أمره . وشملته عناية المأمون هو وابنه على ، وتوالى عليهما بِرُّه ، وأخذ نجم الأسرة فى التألق ببلاط المأمون والمعتصم ، وتوثقت الصلة بين على ومحمد بن إسحق بن إبراهيم المصعبى ، ثم بينه وبين الفتح بن خاقان وزير المتوكل ، ووصَفه له وقدَّمه إليه ، وأعْجب به المتوكل وقرَّبه منه ، حتى صار أكبر ندمائه ، يساعده فى ذلك علمه الواسع بالرواية والأخبار . وكان أشبه بالموسوعيين فهو يأخذ من كل علم وكل أدب بطرف ، مع إحسانه اختيار الطرائف والنوادر ، حتى كان المتوكل لا يصبر على بعده . ويقال إنه بلغ مجموع ما وصله به ثلاثمائة ألف دينار ، وخلفه المنتصر فغلب عليه أيضاً ، وقدَّمه على جميع جلسائه ، وقلَّده أعمال الحضرة ، وأقرَّه المستعين على ما تقلده من تلك الأعمال . ثم خلص الأمر للمعتز ، فكان أول من طلبه لمنادمته على بن يحيى ، وحين قدم عليه تلقاه أجمل لقاء وخلع عليه ووصله ، وقلَّده الأسواق والعمارات ، وقدَّمه على جميع الندماء ووصله بثلاثة وثلاثين ألف دينار وقلَّده قصره الكامل فبناه ووصله عند فراغه منه بخمسة آلاف دينار ، وأقطعه ضيعة كبيرة . ثم أفضى الأمر إلى المعتمد ، فَحَظِىَ فى عهده حُظْوة كبيرة . ووصله صلات سَنِيَّة ، وقلَّده أعمال الحضرة ، وما زال يحظى برعايته ورعاية أخيه الموفق حتى نهاية حياته .

وابن المنجم نموذج رفيع لندماء الخلفاء ، فقد كان هناك ندماء كثيرون مضحكون كل همهم إضحاك الخلفاء وإدخال السرور على نفوسهم بما يوردون على أسماعهم من الأجوبة الهازلة أو ما يدخلون على ملابسهم وحركاتهم من الصور المضحكة . وكان ابن المنجم مع ظَرْفه وما يورد على الخلفاء من النوادر والأخبار والقصص المستحبَّة ، بل قل مع اكتمال خصال المنادمة فيه ومعرفته بضروب الثقافات ، حتى

---

(١) انظر فى حياة على بن يحيى وأشعاره معجم الأدباء ١٥ / ١٤٤ ومعجم الشعراء للمرزبانى ص ١٤١ والفهرست ص ٢١١ والأغانى (طبعة الساسى) ٩/٢٢ وتاريخ بغداد ١٢/١٢١ ومروج الذهب ٤/١٩١ والنجوم الزاهرة ٣/٧٣ .

قيل إنه طبيب ومنجم وأديب وشاعر ومغن وجليس ومضحك ، مع هذا كله كان فيه غير قليل من الوقار ، وكان يعد من رعاة الأدب فى عصره حتى كان بيته مألفاً للأدباء ، وكان يصل كثيراً منهم بالخلفاء والأمراء ، ويستخرج لهم منهم الصلات ، وكان يبلغ من عنايته بهم أن يهدى إلى الخلفاء والوزراء عنهم الهدايا الطريفة ، حتى ينفحوهم بالنوال السابغ ، وكان كثيراً ما يهب من ماله لمن يحرمون الصلات من الأدباء . وليس ذلك كل ما يرفع منه ، فقد ألهمه تفكيره الصائب أن يستغل الأموال الكثيرة التى كانت تُنْثَرُ عليه من المتوكل وغيره من الخلفاء فى إقامة مكتبة ضخمة ، مر بنا حديث عنها فى غير هذا الموضع ، وكان طلاب العلم يقصدونها من كل مكان والكتب مبذولة لهم ، وكذلك النفقة مهما طالت إقامتهم . وبذلك كان من رعاة طلاب العلم والأدب فى عصره ، بل لعله كان أكبر رُعاتهما ، ولا شك فى أن ما عُرف عنه من خبرة تامة بالكتب وثقافة واسعة بها هو الذى جعل الفتح بن خاقان يطلب إليه صُنْعَ مكتبة له يباهى بها معاصريه . ومن تتمة ثقافته أن يُذْكَرَ له من التصانيف كتاب الشعراء القدماء والإسلاميين ، وكتاب أخبار إسحق الموصلى وكتاب الطبيخ ، والكتابان الأخيران يتصلان بمنادمته لاتصالهما بأخبار المغنين وبتذوق الأطعمة .

وكان شاعراً ، وله شعر كثير كما يقول ياقوت فى ترجمته ، غير أنه لم يكن يُعْجَبُ بشعره ، ولذلك لم يكثر من الاستشهاد به إلا ما جاء فى سياق أخباره ، ولو أنه صنع لاطلعنا بوضوح على أشعاره فى الخلفاء والوزراء . ولعل أول شعر قاله ما نظمه فى رثاء المأمون ومديح المعتصم ، مما رواه ياقوت فى ترجمته ، وبدون ريب كانت له أشعار كثيرة فى المتوكل ومن تلاه من الخلفاء ، ونستطيع أن نتخذ صورة لهذه الأشعار قوله فى المعتز حين استولى على مقاليد الخلافة :

بَدَا لابساً بُرْدَ النبىِّ محمدٍ ... بأَحسنَ مما أقبل البدرُ طالعا
سَمِىُّ النبىِّ وابن وارثه الذى ... به استشفعوا أكرمْ بذلك شافعا
وكل عزيزٍ خشيةً منه خاشعٌ ... وأَنت تراه خشية الله خاشعا

وهو شعر متوسط . شعر يعتمد على المناسبة الحاضرة ، ولذلك كان يستساغ فى

وقتها كما تستساغ كلمات الندماء ونوادرهم وفكاهاتهم . وهكذا دائماً شعرهم ، فهو إنما يُعْجب فى لحظة قوله ، ولذلك كان يُرْوَى مع أخبارهم . ومن هذا الطراز نفسه قصيدته فى الفتح بن خاقان التى أنشد ياقوت منها بعض أبياتها ، وله وراء ذلك أشعار يصوّربها سمو نفسه ، لعل من أطرفها قوله :

سيعلم دهــرى إذ تنكَّر أننى　　صبورٌ على نكرانه غير جازعِ
وأنى أسوس النفس فى حال عُسْرها　　سياسةَ راضٍ بالمعيشة قانع
كما كنت فى حال اليسار أَسوسها　　سياسة عَفٍّ فى الغنى متواضع
وأَمنعها الوِرْدَ الذى لا يليق بى　　وإن كنت ظمآناً بعيد الشَّرائع

فهو يصوّر نفسه صابرة لا تجزع مهما ادلهمَّت الخطوب ، كما يصور نفسه لا تهون فى حال عسر او شدة ، بل تتقبَّلها راضية قانعة كما تقبَّلت اليسر قَبْلاً مزدرية مغرياته فى تواضع غير مسفّ دون أى إحساس باستعلاء ، وإنه ليمنع نفسه الإلمام بأى وِرْد دنىّ مهما كان ظمآن ، كاظماً لظمئه ، محتملا لحرارة عطشه . وله فى الطيف :

بـأَبى واللهِ مَنْ طَرَقا　　كابتسام الصبح إذ خفقا
زادنى شوقاً برؤ يتــه　　وحَشَا قلبى به حُرَقا
زارنى طَيْفُ الحبيب فما　　زاد أَن أغرى بىَ الأَرقا

وكأنما أراد أن يحاكى البحترى فى كثرة أشعاره التى نظمها فى الطيف . ولا شك أنه من طراز متوسط ، فأجنحته ليست من القوة بحيث تستطيع أن تحلق به فى الأفق الذى يحلق فيه البحترى . ومرَّت بنا آنفاً رعايته للأدباء والشعراء ، مما جعل غير شاعر ينظم فيه بعض مدائحه ، مصوراً كرمه الفياض من مثل قول أبى هفان :

لربيع الزمان فى الحَوْل وقتٌ　　وابنُ يحيى فى كل وقت ربيعُ
رجلٌ عنده المكارم سوقٌ　　يشترى دهره ونحن نبيعُ

ولذلك حين وافاه القدر سنة ٢٧٥ عن أربعة وسبعين عاماً بكاه كثير من الشعراء ، وفى مقدمتهم ابن بسَّام ، وقد أنشدنا فى غير هذا الموضع مرثيته له ، وهى مرثية جيدة .

أبو بكر الصولى[١]

هو محمد بن يحيى بن عبد الله بن العباس الصولى من بيت كتابة وشعر ، تقلد أصحابه كثيراً من الأعمال السلطانية ، مثل عمه إبراهيم بن العباس ، وكان أكبر كاتب فى دواوين المتوكل. وهما من أسرة صول تكين أحد أمراء جرجان . كان قد ظفر به يزيد بن المهلب فى بعض حروبه وهو وال على خراسان للحجاج ، فأسلم على يديه ، ولزمه وأصبح من رفاقه ، حتى إذا ثار يزيد على بنى أمية فى أوائل القرن الثانى للهجرة ثار معه عليهم محارباً فى صفوفه ، ودارت عليهما معاً الدوائر فسقطا قتيلين فى ميادين المعارك . وقد تتلمذ أبو بكر لعلماء عصره فى بغداد : أبى داود السجستانى وثعلب والمبرد ، وكذلك لأصحاب الأخبار والمؤرخين ولأصحاب الهندسة ، وتدل صلته بالأخيرين على معرفته بعلوم الأوائل . وكان يُحْسن لُعْبة الشَّطرنج حتى قالوا إنه كان أكبر حاذق لها فى زمنه . وأكبَّ على معارف عصره إكباباً منقطع النظير ، وجعله هذا الإكباب يُعْنَى بجمع الكتب ، وما زال يجمعها حتى كوَّن لنفسه مكتبة ضخمة تحدث عنها معاصروه ، كما أسلفنا ، وراعتهم فيها جلود الكتب المختلفة الألوان ، إذ جعل لكل صفّ من الكتب لوناً ، فصف أحمر وصف أخضر إلى غير ذلك . وفتحت له معارفه الواسعة ومهارته فى لعبة الشطرنج أبواب الخلفاء منذ عهد المعتضد ، وهو مع ذلك يغدو عليهم ويروح بمدائحه ، وهم ينثرون عليه أموالهم ، مما جعله يعيش معيشة رَغْدة . وكلَّفه المقتدر تعليم ولديه الراضى وهرون ، فأحسن تعليمهما ، وخرَّج أولهما شاعراً وأديباً لَسِناً ، حتى إذا ولى الخلافة اتّخذه نديمه ومستشاره . ويزورُّ عنه الخليفة المتقى بعده فيترك بغداد إلى

---

(١) انظر فى أخبار أبى بكر الصولى وأشعاره الفهرست ص ٢٢١ وتاريخ بغداد ٣ / ٤٢٧ ومعجم الشعراء للمرزبانى ص ٤٣١ وديوان المعانى للعسكرى (انظر الفهرس) وذيل زهر الآداب ص ٢٤٥ ومعجم الأدباء ١٩ / ١٠٩ ووفيات الأعيان والنجوم الزاهرة ٣ / ٢٩٦ وله فى كتابه أخبار الراضى والمتقى أشعار كثيرة .

بجكم التركى حاكم واسط سنة ٣٢٩ ويتوفى المتقى سنة ٣٣٣ فيعود إلى بغداد وسرعان ما تحل به ضائقة ، فيتركها إلى البصرة سنة ٣٣٥ حيث لبّى نداء ربه ويقال بل إن الخليفة المستكفى عرف تشيعه لآل على بن أبى طالب فطلبه ، وفرّ منه إلى البصرة .

وقد صنع الصولى دواوين كثيرة لطائفة كبيرة من الشعراء المحدثين فى مقدمتهم أبو نواس وأبو تمام وابن الرومى وابن المعتز . وصنّف كتبًا جليلة فى أخبار الخلفاء وسيرهم وأخبار من تقدم وتأخر من الشعراء والوزراء والكتّاب والرؤساء . ومن كتبه النفيسة كتابه « الأوراق » وقد نُشر منه ثلاثة أجزاء : جزء خاص بأخبار الشعراء المحدثين وجزء خاص بأشعار أولاد الخلفاء وأخبارهم وجزء خاص بالخليفتين : الراضى والمتقى . ونُشر له مصنفه أدب الكتّاب وكتاب أخبار أبى تمام وهو فيه ينتصر له ضد خصومه ، ولعل فى ذلك ما يصور بصره بالشعر العباسى ، وأنه كان يقف فى دقة على أساليبه ومذاهبه ؛ إذ نبّه على أن أبا تمام صاحب مذهب جديد فى الشعر ولامَ من يعيبونه ببعض أبيات فاته التوفيق فيها متناسين تحليقه فى آفاق الشعر العليا التى تنقطع من دونها الرقاب .

وعلى هذا النحو كان أبو بكر الصولى شاعراً ناقداً عالمًا ، وكان متقّفًا ثقافة واسعة بكل مواد المعرفة فى عصره . ولم يصل إلينا ديوانه ولكن وصلت طائفة من أشعاره التى كان يُنْشدها الراضى فى حفلات القصر وفى المناسبات المختلفة دوّنها بنفسه فى أخباره ، كما وصلت إلينا مقطوعات متنوعة احتفظت بها الكتب الأدبية والتاريخية . وسقطت من يد الزمن مدائحه فى المعتضد إلا بعض أبيات دالية ذكر المسعودى أنه أنشدها فى قصيدة مدحه بها ، وفيها يقول :

لَأَمِيرُ المؤمنين المعتضدْ بحرُ جودٍ ليس يَعْدوه أحدْ

ولم يصل إلينا من مديحه للمكتفى سوى قصيدة واحدة ، وقد اضطر — كما يقول — إلى أن ينشدها المتقى حين استولى على مقاليد الخلافة ، وكان قد طُلب إليه أن ينشده عاجلا قصيدة يهنئه فيها بالخلافة ، ويقول إنه وضع فيها كلمة المتقى بدلا من كلمة المكتفى ، وفيها يقول :

مددت على الإسلام أكنافَ نعمةٍ لأعطافها ظلٌّ عليه ظَلِيلُ
ولولا بنو العباس عمِّ محمَّدٍ لأصبح نور الحق فيه خُمول
لكم جبلا اللهِ اللذان اصطفاهما يقومان بالإسلام حين يميل
نبوَّته ثم الخـلافةُ بعدها وما لهما حتى اللِّقاء حَوِيلُ[1]

وكلٌّ ما فى القصيدة من صياغة وخيال يدلُّ على أن الصولى كان يتكلف هذا المديح تكلفًا . حقًّا هو يبالغ فيه ويغلو على عادة شعراء الدعوة العباسية ، ولكن نحس أن الكلام يفقد الروح وأنه لا يصدر عن عاطفة حقيقية ، وبالمثل ما رواه له عريب فى ذيل الطبرى من مديح للمقتدر ، وحتى الراضى تلميذه الذى أغدق عليه عطاياه حتى لكأنما تحولت إلى نهر فياض نجد فى مدائحه له نفس هذا الطراز المتكلف . وكان لا يترك مناسبة من عيد أو نيروز أو فتح إلا أنشده فيها قصيدة ، وقد تطول طولا مسرفًا ، ومع ذلك نفقد فيها الحرارة من مثل قوله يهنئه بانتصار جيوشه على مرداويج الثائر بأصبهان :

آنَسَ الله بالخليفة مُلْكاً مُوحِشَ الرَّبْعِ واهنَ التأسيسِ
يا نسيمَ الحياة أضحكت دهرًا كان لولاك دائمَ التَّعْبِيسِ
مرْدويجٌ بسيف حَظِّك مقتو لٌ فأَهْوِنْ بذاك من مَرْموسِ[2]
قَصَفَتْهُ رياحُ أيامك الغُـ رِّ فأَخْمَدْن منه نار المجوسِ
وتولَّتْ بمأتم الدَّهر أيا مٌ أتتنا تجرُّ ذيل العروسِ

والتكلف واضح فى الأبيات ، والصور لا تقع فى مكانها ، فالخلافة كانت موحشة وكانت واهنة ، والخليفة نسيم الحياة ، نسيم أضحك دهرا كان عبوسًا قمطريراً ومردويج لم يهزمه أبطال الدولة وإنما هزمه الحظ ورياح دولة الراضى الغراء ، وخلعت الأيام سواد الحزن ، وجاءت تجر ذيول الفرح . كلام متلاصق ، وليس شعراً حيًّا نابضًا بروح ، وربما كانت خير قصائده فيه قصيدته الدالية التى أنشدها فى مجلسه لسنة ٣٢٧ وفيها يقول :

---

(١) حويل : تحول .

(٢) مرموس : من الرمس وهو القبر .

خليفةٌ أُكمِلَتْ فضائلُهُ ففرْعُهُ طيِّبٌ ومَحْتِدُهُ
تعبَّــد المجد فهو يَمْلكه طــارفُه عنده ومُتْلَدُهُ
قد رضى الراضىَ الإلهُ لإصـ ـلاح زمان سِواه مفسدهُ
فهو بتفويضه الأمور إلى اللـ ـهِ بحسن التوفيق يعضدهُ

ولا يخفى ما فى هذه الأبيات من تكلف يتضح فى بناء الشطر الثانى من البيت الأول على سابقه ، كما يتضح فى جعل المجد عبداً للممدوح وكأنه استذلَّه ، والجناس بين رضى والراضى شديد التكلف ، وكلمة سواه نابية فى مكانها غير مستقرة والصياغة فى البيت الرابع تتنافر أجزاؤها تنافراً شديداً . ومن هذا الطراز نفسه عزاؤه للراضى فى أخيه هرون ، وهو يستهلُّه على هذا النمط :

تَعَزَّ يا خير الوَرَى عن أَخٍ لم يَشُبِ الإخلاص باللَّبْسِ
كان صديقاً وافرًا ودُّهُ صداقةَ الأَنفس والجِنْسِ
تعزَّ عنه بنبيٍّ الهُدَى محمَّدٍ إذْ حَلَّ فى الرَّمْسِ

والقصيدة مزيج من الندب والتأبين والعزاء ، مع أنه افتتحها بطلب التعزِّى والتَّسلى ، فكان ينبغى أن يقصرها على العزاء لا أن يندب فى هرون إخلاصه وصداقته لأخيه كما فى هذه الأبيات ، ولا يحاول أن يذكر همته وسؤدده مؤبناً له كما فى أبيات تالية . ونحس نبوًّا شديداً فى البيت الثانى إذ يذكر عن هرون أنه كان وافر الودِّ ، وكان يحسن أن يغير كلمة وافر بكلمة أخرى مثل صادق ، وأيضًا فإنه جعل صداقته لأخيه صداقة جنس . والتعبير عن الرسول عليه السلام بأنه حَلَّ فى الرمس خلو من رهافة الحس أو من الحس الأدبى الدقيق . وقد يكون مصدر التكلف فى العزاء والمديح جميعًا أنه كان مواليًا للعلويين كما قال بعض من ترجموا له ، وكأن هذا الرثاء والمديح لم يكونا يتصلان بروحه وقلبه ، فقلبه وروحه مع آل أبى طالب ، ولسانه وحده مع العباسيين ومع ما يغدقون عليه من صلات ثَرَّة . وقد يشهد لذلك أننا إذا تركنا مدائحه لبنى العباس ونظرنا فيما رُوى له من غزل لقيْتنا له مقطوعات كثيرة بديعة من مثل قوله :

أَحْبَبْتُ من أجله مَنْ كان يشبهه وكلُّ شيءٍ من المعشوق معشوقُ
حتى حكيتُ بجسمي ما بمقلتِه كأَن سقميَ من جفنيه مسروق

وقوله يصف الدموع فى ساعة الوداع ، وهى تسقط بيضاء سقوطًا متتابعًا على خدود حمراء حمرة الورد فى الربيع :

لو كنت يوم الوداع حاضرنا وهنَّ يطفئن لوعة الوَجْدِ
لم تر إلا الدموع جاريةً تسقط من مقلة على خَدٍّ
كأَن تلك الدموع قطر نَدًى يقطر من نَرْجس على وَرْدِ

وكان ينفذ فى أثناء ذلك إلى كثير من الصور النادرة الغريبة التى تنبىء عن شاعرية جيدة من مثل قوله فى بيان إعجابه بغناء إحدى القيان :

وغناءٍ أَرق من دمعة الصَّـ ـبِّ وشكوى المتيم المهجورِ

وله فى وصف أرمد ومحاولة تعليل رمده بعلة غريبة لا تقع إلا فى عقل واهم بعيد الخيال بيتان كان القدماء يعجبون بهما إعجابًا شديداً إذ يقول :

يكسر لى طرفاً به حمرةٌ قد خلط النرجس فى وردِهِ
ما احمرت العين ولكنه يكحلها من وَرْدتَىْ خَدِّهِ

وكأن هذه الأبيات وما وراءها من أبيات فى الخمر لم نَرْوها كانت تصدر عن نفسه ، مما جعل صياغتها سَوِيَّةً وأخيلتها بديعة بعيدة الغرابة فى بعض الأحيان . وله بجانب ذلك حِكَمٌ يصوِّر فيها عِبَرَ الدهر ومواعظه من مثل قوله :

يابانياً والدهرُ فى نقضه يا راكضاً يسرع فى رَكْضه
يلهو وأيدى الموت أَخَّاذةٌ من طوله طورًا ومن عرضه

فالإنسان يَبْنى . ولا يعرف أن داره ستنقضٌ بعد أيام ، بل هو نفسه سينقضُه الدهر ويحيله ضعفًا من بعد قوة ، يوهن عظمه وينحل جسمه ، ويَحْنى

ظهره ويأخذ من طوله ومن عرضه ، حتى يصبح أنقاضًا خالصة ، وكأنما الدنيا أضغاثُ أحلام . والصولى فى كل هذه المقطوعات الأخيرة شاعر بارع ، لا تنقصه جزالة الصياغة ولا روعة الخيال .

٢

شعراء الشيعة

ذكرنا فيما أسلفنا أن الخوارج خمدت دعوتهم وحروبهم منذ العصر العباسى الأول ، وعمّ هذا الخمود فى هذا العصر التالى بحيث لم يعودوا يكوّنون حزب معارضة حقيقيًّا للدولة العباسية ، وقد نهض بتلك المعارضة فى أحدّ صورها حزب الشيعة فكان كثير من العلويين يخرجون ويُعْلنون خروجهم ويشهرون هم وأنصارهم سيوفهم فى وجه الدولة ، وكانت تلقاهم بجيوشها وقلما كُتب لهم النصر ، ولكن ما كانت حرب لهم تكاد تخمد حتى تنشب حرب أخرى ويشتد أوَارها وبذلك ظلت المعارك بينهم وبين الدولة محتدمة طوال العصر . وتنبّه لذلك المتوكل ، فرأى أن يقف زيارة الشيعة لقبر الحسين وبكاءهم عنده وتفجعهم عليه ، ومضى يأخذهم بغير قليل من الشدة ، محرّضًا شعراءه على النَّيْل منهم ومن آل على عامة ، وأمر — فيما أمر — بحبس الطالبيين فى سامرّاء[1] وأخذ يُنْزِل بهم نكالا شديداً ، ومع ذلك لم يسلم عهده من خروج نفر منهم فى الحجاز على نحو ما سنرى عما قليل فى حديثنا عن محمد بن صالح العلوى .

ولا بد أن نلاحظ أن الكوفة كانت لا تزال أكبر مركز للشيعة وأن مذاهبهم التى عرفناها فى العصر العباسى الأول كانت لا تزال حية ، فكان كثيرون يؤمنون بالنظرية الزيدية ، وأكثر منهم من كان يؤمن بالنظرية الإمامية الاثنى عشرية ، وأخذت النظرية الإسماعيلية تجد لها أنصاراً ، واستغلها القرامطة فى ثورتهم ، دون أن تصبح عقيدة حقيقية لهم ، وبذلك كان ينبغى أن ننحيهم عن الشيعة . وملاحظة ثانية هى أن المذهب الشيعى الذى غلب على العراق حينئذ كان مذهب الإمامية ، وكان يجعل

---

(١) أغانى (ساسى) ١٩ / ١٤١ .

التقية أصلا من أصوله، فكان يعمل سرًّا وقلَّما عمل جهراً ، وكان يأذن لأنصاره أن يمدحوا العباسيين تقيَّة ، ومضى كثيرون منهم يمدحونهم طلباً لما فى أيديهم من أموال ، وهم يُسِرُّون لهم كرهًا وحَنَقًا ، ومن هنا كنا كثيراً ما نقرأ عن شاعر أنه مدح هذا الخليفة أو ذاك ويُقال إنه كان يتشيع . وهم أكثر من أن نسميهم أو نحصيهم . وملاحظة ثالثة هى أنه قيل شعر شيعى كثير فى العصر ، وهو موزَّع بين بعض آل البيت وبين أنصارهم ممن يَنْشُدون الشعر وينظمونه ، ومن أهم الشعراء العلويين حينئذ محمد بن صالح العلوى الآنف ذكره والحِمَّانى وسنخصه هو الآخر بترجمة قصيرة ، ومنهم محمد[1] بن على بن عبد الله أحد أحفاد العباس بن على بن أبى طالب ، وكان فى أيام المتوكل ، وهو يكثر من الافتخار بآبائه وبنسبه الطاهر إلى الرسول الكريم ، ويردّد فى أشعاره نظرية بيته العلوى فى الخلافة وأن الرسول عليه السلام أوصى بها إلى جده على حين نزل بغَدير خُمّ إذ قال له : « أنت منى بمنزلة هرون من موسى » وإلى ذلك يشير بقوله :

وجدِّى وزيرُ المصطفى وابن عمِّه — علىٌّ شهابُ الحرب فى كل ملْحَمِ
وأول من صَلَّى ووحَّد ربَّه — وأفضل زوَّار الحطيم وزمزمِ
وصاحب يوم الدَّوح إذ قام أحمدٌ — فنادى برفع الصوت لا بِتَهمْهُمِ
جعلتك منى يا علىٌّ بمنزلٍ — كهرون من موسى النجىِّ المكلَّمِ

وما نصل إلى سنة ٢٥٠ فى عصر المستعين حتى تثور ثائرة الشعراء الشيعيين ، وذلك أنه كان قد أعلن الثورة فى الكوفة يحيى بن عمر الطالبى ، وكان قد تورَّع عن أخذ أموال الناس ظلمًا وأمر بحقن الدماء ، وكان ورعًا زاهداً ناسكًا ، فتبعته ألوف ، ونشب القتال بينه وبين جيوش محمد بن عبد الله بن طاهر حاكم بغداد وجنوبى العراق . وتمزَّقت جموعه ، وخرَّ قتيلا ، وحُمِل رأسه إلى بغداد . وضَجَّ الناس لمقتله وصَلْب رأسه ، ويُرْوَى أنه لما جلس محمد بن عبد الله بن طاهر للشعراء يستقبل تهانيهم بالفتح دخل عليه أبو هاشم الجعفرى ، وقال له : أيها الأمير إنك لتهنَّأ بقتل رجل لو كان رسول الله صلى الله عليه حيًّا لعُزِّى به ، فلم يجبه

---

(١) انظر فيه معجم الشعراء ص ٣٨١ .

الأمير ، فولّى وجهه خارجًا ، وهو يقول[١] :

إن وِترًا يكون طالبَه اللـ ه لِوِتْرٌ نجاحُه بالحرىّ

ونصب له الشيعة مأتمًا كبيرا ناح فيه الشعراء وبكوا طويلا ، ومرت بنا فى غير هذا الموضع مرثية ابن الرومى له ، وهى صرخة من أعماقه تناول فيها العباسيين تناولا ذميمًا ، واصفًا لهم بالظلم والطغيان هم وولاتهم ، ومنذراً برجوع الحق إلى نصابه ، بل متوعداً بجيش يأخذ بثأر يحيى ويدمر خصومه تدميراً . وكثر رثاؤه وندبه والنواح عليه بمثل قول أحمد بن أبى طاهر[٢] :

سلامٌ على الإسلام فهو مودِّعٌ إذا ما مضى آلُ النبيِّ فودَّعوا
فقدنا العُلا والمجد عند افتقادهم وأَضحتْ عروش المكرمات تَضَعْضَعُ
لقد أقفرتْ دارُ النبى محمَّدٍ من الدين والإسلام فالدارُ بَلْقعُ
وقُتِّل آلُ المصطفى فى خلالها وبُدِّد شَمْلٌ منهم ليس يُجْمعُ

وسرعان ما يثور فى نفس السَّنَة بطبرستان الحسن بن زيد العلوى سَليل الحسن بن على بن أبى طالب ، ويغلب عليها وعلى جرجان بعد حروب ومعارك كثيرة ، ويظل مسيطراً عليها إلى أن يلبى نداء ربه لسنة ٢٧٠ وطبيعى أن يصبح مقصداً للشعراء ، وأن يتغنى غير شاعر باسمه فى المناسبات المختلفة ، ونجد شاعراً من جرجان يسمى محمد بن إبراهيم يهنئه حين افتصد بقوله[٣] :

قد رأينا مجالساً عطراتٍ هُيِّئَتْ عندنا لفَصْدِ الإمامِ
إنما غيَّب الطبيبُ شَبا المِبْـ ضَع عندى فى مهجة الإسلام
سُرَّتِ الأَرض حين صُبَّ عليها دمُ خَيرِ الوَرَى وأَعلى الأَنام

والنزعة الشيعية واضحة فى الأبيات . وكان من الشعراء حينئذ من يستر تشيعه ماكراً برجال الدولة العباسية ، إذ ينزل عليهم بسياط هجائه ، لا لشىء إلا لأنهم

(١) الطبرى ٩/ ٢٧٠ والمروج ٤ / ٦٤ .
(٢) مروج الذهب ٤ / ٦٤ .
(٣) معجم الشعراء ص ٣٩٧

يخاصمون آل على ، وربما اتخذ لذلك وسائل ماكرة ، وممن اشتهر بهذه الطريقة أبو نعامة الدقيق الكوفى ، إذ قال الرواة إنه استنفد شعره فى هجاء رجال الجيش العباسى ، يرميهم بالأبنة ، وصنع فى قُوَّادهم ورؤساء الدولة قصيدة مزدوجة سماها السنيَّة ، رماهم فيها بالقبائح الشنيعة . وما زال هذا شأنه ، حتى تصادف أن دخل بغداد مفلحٌ القائد التركى فى طريقه إلى حرب صاحب الزنج ، فدلَّه عليه قوم من أهل بغداد ، وقالوا إنه يتشيع وشهدوا عليه بالرَّفض ، فضربه مفلح بالسياط حتى تلفت نفسه ومات لسنة ٢٦٠ .

وكان قد خَلَفَ الحسنَ بن زيد على طبرستان حين توفى أخوه محمدٌ ، واستقام أمره فيها وعظم شأنه ، فدخل ديار الدَّيْلم ودانت له ، حتى إذا كانت سنة ٢٨٧ جهَّز جيوشاً كثيرة من الديلم وغيرهم لغزو جرجان ، فلقيته جيوش إسماعيل بن أحمد السامانى صاحب خراسان من قبل العباسيين ، ودارت عليه الدوائر وأُثْخِنَ بالجروح ، وتوفى ، فدُفن بباب جُرْجان ، يقول المسعودى : وقبره هناك معظم إلى اليوم . ويبدو أنه كانت له بطانة كبيرة من الشعراء تنصر دعوته من مثل محمد بن حبيب الضبىِّ القائل فيه[1] :

إن ابن زيدٍ كلَّ يوم زائدٌ علا علوًّا لا يساويه أَحَدْ
لو صال بالطود إذن أَذلَّه أَو زجر البحر إذن صار زَبَدْ

وأهم من هذا الشاعر شاعر يسمى أبا المقاتل نصر بن نصير الحُلْوانى ، نراه يغلو فى مديحه ، حتى لنصبح وكأننا بإزاء بعض غلاة الشيعة وما يحيطون به أئمتهم من هالة قدسية ترفعهم عن البشر درجات ، وفيها يقول[2] :

لا تقل بُشْرَى وقُلْ لى بُشْرَيانِ غُرَّة الداعى ويوم المهرجان
ابن زَيْدٍ مالكٌ رِقَّ الزمانِ بالعطايا والمنايا والأَمانى
خُلِقَتْ كفَّاه مَوْتاً وحياةً وحوتْ أَخلاقُه كُنْهَ الجنانِ
مختفٍ فكرتُه فى كل شىءٍ فَهْوَ فى كل مَحَلٍّ ومكان

(١) معجم الشعراء ص ٣٩٧ .
(٢) مروج الذهب ٤ / ٢٥١ .

يتناءى لفظنا عنه ولكن هو بالأَوصاف فى الأَذهان دان
كافرٌ بالله جَهْرًا والمثانى كلُّ من قال : له فى الخلق ثانِ

ويبدو أن محمد بن زيد كان قد خطا فى الدعوة الشيعية خطوات فسمَّى نفسه الداعى ، وأخذ يوحى إلى الشعراء أن يُسْبغوا عليه صفات إلهية ، فهو ظاهر فى العيان ، وهو مختف فى كل مكان ، وهو لا تحدُّه الألفاظ ، وإنما تقرّبه الأوصاف وليس له ندٌّ ولا شبيه ، وكافر بالله والمثانى السبع أو القرآن من يقول له فى الخلق ثان . ونحن نعرض ثلاثة من شعراء الشيعة منهم اثنان علويان والثالث من الأنصار المخلصين ، وهم محمد بن صالح العلوى والحِمّانى والمفجَّع البصرى .

محمد بن صالح العلوى (١)

من فتيان البيت العلوى وشجعانه وشعرائه، امتعض لبيته حين أنزل به المتوكل ما أنزل من سخطه وغضبه ، وما كان من هدمه لقبر الحسين ومنعه الناس من زيارة قبره وقبر أبيه على بالنجف . وكان موطنه سُوَيْقَة فى بادية الحجاز كان ينزلها مع أسرته من الحسنيين أحفاد الحسن بن على بن أبى طالب ، فعزم على الخروج وأخذ يجمع الناس لذلك ، وتصادف أن حَجَّ بالناس فى نفس السنة أبو الساج أحد قواد المتوكل الترك فسمع بنيَّته وأنه لبس البياض مع كثير من أنصاره ، وكأن البياض كان حينئذ يتخذ شعاراً للعلويين ضد العباسيين المسوّدين أو الذين يتخذون السواد شعاراً لهم . وفاجأه هو وأنصاره أبو الساج فأخذهم وقيَّدهم وقتل نفراً منهم وأخرب سويقة وحرق منازلهم بها واستأصل كثيراً من نَخْلها وأثر فيها آثاراً سيئة ، وحمل محمد بن صالح فيمن حمل منهم إلى سامرّاء ، فحُبس ثلاث سنوات ، ثم عفا عنه المتوكل بسبب شعره وبفضل وساطة وزيره الفتح بن خاقان له ، وذلك أنه نظم أبياتًا جيدة يعزّى فيها نفسه عن حبسه ، ويتجمَّل بالصبر قائلا :

---

(١) انظر فى محمد بن صالح الأغانى (طبع دار الكتب المصرية) ٣٦١/١٦ ومقاتل الطالبيين للأصبهانى (طبعة الحلبى) ص ٦٠٠ ومعجم الشعراء ص ٣٨٠ .

طَرِبَ الفؤادُ وعاودَتْ أحزانُه ... وتشعَّبَتْ شُعَباً به أشجانُهُ
وبَدا له من بعد ما اندمل الهَوَى ... بَرْقٌ تـألَّق مَوْهِناً لمعانُهُ
فدنا لينظر كيف لاح فلم يُطِقْ ... نظرًا إليه وردَّه سَجَّانُهُ
فالنارُ ما اشتملتْ عليه ضاوعُه ... والمــاء ما سحَّتْ به أجفانُه
ثم استعاذ من القبيح وردَّه ... نحو العَزاء عن الصِّبا إيقانُه
وبَدَا له أن الذى قد ناله ... ما كان قدَّره له دَيَّانُه

والشعر جزل مصقول ، والشاعر يبثُّ فى أوائله حنيناً لأيامه الماضية وكأنها عهود هوى وحب سقطت منه، وينظر إلى البرق متطلعًا لليوم الذى تُرَدُّ إليه فيه حريته، فيعنف به السجَّان، ويحس كأن نار الوجد اندلعت فى ضلوعه ظمَـأً إلى أهله وموطنه . وتسحُّ الدموع وتنهل لا تجفّ ،ويرده إيمانه ويقينه، فيستسلم للقضاء محزون الفؤاد شجيَّه . وتشيع الأبيات وتصل إلى سمع الفتح بن خاقان ومغنى المتوكل بنان ، ويصنع بنان فيها صوتًا يلحنه أمام المتوكل فيستحسن الشعر واللحن ويسأل عن قائله ، فيُذْكَرُ له،ويكلمه الفتح فى أمره وما يزال يرقق قلبه حتى يعفو عنه، غير أنه يشترط أن يظل عند الفتح وفى يده وألا يبرح سامرَّاء حتى لا تحدثه نفسه بالعودة إلى الثورة. وتُرَدّ إليه حريته فيمدح المتوكل ويُغْدق عليه من صلاته ، كما يمدح المنتصر . ونراه يبالغ فى التقية من المتوكل فلا يكتفى بمديح له عام ، بل يسوق الدليل والبرهان على أن العباسيين أحق من العلويين بالخلافة ، يقول :

يابنَ الخلائف والذين بِهَدْيهمْ ... ظهر الوفاء وبانَ غَدْرُ الغادرِ
وابنَ الذين حَوَوْا تُراثَ محمَّدٍ ... دون الأقارب بالنصيب الوافر
نطق الكتابُ لكم بذاك مصدِّقاً ... ومضَتْ به سُنَنُ النبيِّ الطاهر

وهو يشير فى البيت الأخير إلى قوله تعالى ذكره فى سورة الأنفال : (وأولوا الأرحام بعضُهم أوْلَى ببعضٍ فى كتاب الله) يريد أن العباسيين مقدَّمون فى وراثة الخلافة على أبناء بنت الرسول عليه السلام، لأن العم يتقدمهم فى الميراث كما تنصُّ

على ذلك شريعة الإسلام فى القرآن الكريم ، وكما مضت بذلك السنة النبوية الطاهرة . ولم يتورّط فيما كان يتورط فيه شعراء بغداد من التعلق بالجوارى والإماء ، فقد كان يَكْلَفُ بزوجه وحدها ، وكانت تَحتلّ قلبه بجمالها ، ويُشْغَفُ بها شغفًا شديداً وفيها يقول :

لعمرُ حمدونةَ إنى بهـا لمُغْرَمُ القلب طويلُ السَّقَامِ

مجاوزٌ للقدر فى حبها مباينٌ فيها لأَهل الملام

جشَّمنى ذلك وجدى بها وفَضْلُها بين النساءِ الوِسام

زَيَّنها الله وما شانهـا وأُعطيتْ مُنْيَتَها من تمام

وكان جميل المحضر حلو الحديث رقيق الشمائل ، فانعقدت الصداقة بينه وبين نفر من الأدباء ، فى مقدمتهم سعيد بن حميد أحد كتَّاب الديوان المجيدين وممَّن كانوا يحسنون صنع الشعر بجانب إحسانهم لفن الكتابة ، وكان محمد بن صالح يمنحه وُدًّا حقيقيًّا وفيه يقول :

أصاحبُ من صاحبت ثُمَّتَ أنثنى إليك أبا عثمانَ عطشانَ صادِيا

وكنا إذا جِئْناك لم نَبْغِ مشرباً سواك ورَوَّينا العظام الصَّواديا

وتصويره لمودته له وأن عطشه للقائه يبلغ منه عظامه تصوير جيد ، وكان إبراهيم ابن المدبر زميل سعيد فى الدواوين يُوليه فضلا كثيراً ، وانعقدت بينهما صداقة وثيقة حتى كانا يُمْضيان كثيراً من الليالى والأيام معًا لا يفترقان ، وله رائية طويلة فى مديحه ، وفيها يقول :

أَخٌ واساك فى كَلَبِ الليالى وقد خَذَل الأَقاربُ والنَّصيرُ

فإن تشكر فقد أَولى جَميلاً وإن تكفر فإنك للكفورُ

وله مقطوعة يصور فيها جوارى يندبن ويلطمن عند قبر لبعض ولد المتوكل ، وهو فيها يتحدث عن فتور عيونهن وجمالها ، ويخال كأنما سينفخ هذا الجمالُ

الفاتن فى العظام الهامدات ، فتعود مرة ثانية إلى الحياة الدنيا ، يقول :

رأيت بسامرًا صبيحةَ جُمْعَةٍ عيوناً يروق الناظرين فتورُها
تزور العظامَ الباليات لدى الثَّرَى تجاوزَ عن تلك العظام غفورُها
فلولا قضاءُ الله أن تَعْمُرَ الثَّرَى إلى أن ينادَى يوم يُنْفَخُ صُورُها
لقلتُ عساها أن تعيش وأنهــا ستُنْشَرُ من جرًّا عيونٍ تزورها

ولعل فى كل ما قدمنا ما يصوّر شاعرية محمد بن صالح العلوى الفذّة ، ويُظِلّه عصر المنتصر فيصيبه فيه جُدَرِىٌّ ويلبى نداء ربه ،[1] ويرثيه غير صديق باكياً خِصالَه الحميدة .

الحِمّانى العَلَوِىّ

سُمى الحِمّانى نسبة إلى حى بالكوفة نشأ وعاش فيه ؛ وهو على بن محمد بن جعفر العلوىّ ، خرج أبوه محمد الملقب بالديباجة فى المدينة لأوائل عصر المأمون قبل تحوله من خراسان إلى بغداد ، غير أن ثورته ضد العباسيين لم تنجح ، وحُمل إلى بغداد ، ونُفى منها إلى خراسان ، فنزل بساحة المأمون هناك ، وسرعان ما وافاه الموت ويقال إنه لما حمل الرجال نعشه دخل المأمون بين عموديه ، فاشترك فى حَمْله حتى نزوله فى لحده ، وكان مما قال : هذه رَحِمٌ مجفوّة منذ مائتى سنة .

وانتقلت أسرة الديباجة بعده إلى الكوفة ، وبها نشأ ابنه على ، وعُنيت الأم والأسرة بتثقيفه ، فلم يُحْسِن صنع الشعر فحسب، بل أحسن صنوفًا من الآداب وعلوم الشريعة ، مما جعل العلويين فى تلك البلدة يختارونه نقيبهم ومدرّسهم ولسانهم ، كما يقول المسعودى . ونُمى إلى المتوكل أن فى داره سلاحًا وأن الشيعة يجتمعون عنده ، وقيعة فيه من بعض حساده ، فوجّه إليه جنداً اقتحموا عليه داره فجأة ، فوجدوه يتعبّد ربه فى غرفة مغلقة مرتدياً ثوباً بسيطًا من الصوف ،

---

(١) انظر فى الحمانى وأشعاره مروج الذهب ٤ / ٢٩ ، ٦٥ ومقاتل الطالبيين ص ٦٦٢ وكتاب الزهرة نشر نيكل طبع بيروت سنة ١٩٣٢ (انظر الفهرس) وكتاب الديارات ص ٢٣٧ والمختار من شعر بشار للخالديين ص ١٦ ، ٢٥١ وديوان المعانى ١ / ١٠٩ ، ٢ / ٦٥٨

ولا بساط فى البيت إلا الرمل والحصى ، وهو يتلو القرآن مترنمًا بآيه . فحملوه إلى المتوكل ووصفوا له ما يعيش فيه من شظف ، فرقّ له ، وسأله : ما يقول آل بيتك فى العباس بن عبد المطلب (جد العباسيين) ، فأجابه بقوله : وما يقول آل بيتى يا أمير المؤمنين فى رجل افترض الله طاعة نبيه على خلقه وافترض طاعته على نبيه ؟ ولان قلب المتوكل له فأمر بإعطائه أربعة آلاف دينار ، وقيل بل مائة ألف درهم . ولم يُرِدِ الحِمّانى فى إجابته ظاهرها من طاعة العباس على نبيه كما يتضح فى الشطر الثانى من الجواب ، وإنما أراد طاعة الله على نبيه .

ومرّ بنا أن الشعراء أكثروا فى عصر المتوكل من ذَمّ العلويين إرضاء له ، وكان من أكثرهم قَدْحًا فى على وآله على بن الجَهْم وكان ينتسب إلى بنى سامة بن لؤىّ القرشيين ، وافتخر مراراً بهذا النسب فى أشعاره ، وكان طبيعيًّا أن لا يسكت الحِمّانى على هذا القَدْح ، وخاصة أنه تتداوله الألسنة وتعمل بغداد على نشره ، فطعن على بن الجَهم طعنة بطعنات ، ولكن لا بالقدح فى خلقه وعِرْضه على عادة الشعراء فى عصره ، وإنما بالقدح فى نسبه إلى سامة ، فهو ليس من أحفاده ، وبالتالى ليس قرشيًّا ولافيه من القرشية شىء يقول :

وسامةُ مِنَّا فأما بنوه فأَمرهمُ عندنا مظلمُ
أناسٌ أتونا بأَنسابهم خـرافةَ مضطجعٍ يَحْلُمُ

وعرف على بن الجهم له فضله وحقه وحق أسرته العلوية ، فلم ينبس ببنت شفة واجداً عليه ولا هاجياً ، وإنما اكتفى بأبيات ينوّه فيها بفضله ، ويعترف له فيها بحقه وحقوق بيته .

وقد حزن الحِمّانى حزنًا شديداً على ابن عمه يحيى بن عمر حين خرج لعهد المستعين داعيًا لنفسه بالخلافة ، وقُتل دون أمنيته ، وحدث أن الحسن بن إسماعيل قائد الجيش الذى نَكَّل به دخل الكوفة عقب انتصاره مهدّداً متوعداً ، ولم يمض الحمانى للسلام عليه ، وكان الوحيد الذى تَخلَّف من العلويين عن لقائه ، ولاحظ ذلك الحسن بن إسماعيل ، فبعث إليه بجماعة أحضروه حتى إذا دخل مجلسه أظهر شجاعة

وجلَداً وأنه لا يخشى سطوة القائد ، ولم يلبث أن أنشده :

قتلت أعزَّ مَنْ ركب المطايا وجئتك أَسْتلينك فى الكلامِ
وعزَّ علىَّ أن أَلقاك إلا وفيما بيننا حَدُّ الحِسَامِ

وهو موقف كريم إذلم يتملق القائد كما كان يظن ولا داراه ، بل جاهره بما فى نفسه دون خوف أو وجل . وله مراث كثيرة فى يحيى ، يبكيه فيها ويندبه ، ويصور أنه مات موتاً كريماً ، موت البطل الشجاع الذى لا يرهب الموت بل يلقاه فى قوة وصلابة مهما ادلهمت الخطوب من حوله ، ومهما أظلمت الدنيا فى عينيه ، حتى لتهول بطولته خصومه ، وحتى ليطلبون لقبره السُّقْيا وله الرحمة ، يقول :

فإن يَكُ يحيى أَدرك الحتفُ يومه فما مات حتى مات وهْو كريم
وما مات حتى قال طلاَّب روحه سقى اللهُ يحيى إنه لصميم

ويصوّر فى مراثيه له مأساة البيت العلوى وأن أفراده دائماً بين قتيل وجريح . وللحِمَّانى مراث كثيرة — بجانب مراثيه لابن عمه يحيى — فى أهله ، وفى أخيه لأمه إسماعيل وهو لا يرثى فيه الأخ والرحم القريبة فقط ، بل أيضاً يرثى الصديق شقيق النفس والروح ، ويتفجَّع عليه تفجعاً شديداً بمثل قوله :

هذا ابن أمى عديل الروح فى جسدى شَقَّ الزمانُ به قَلْبى إلى كبدى
مَنْ لى بمثلك يا روحَ الحياة ويا يمنى يدىَّ التى شُلَّتْ من العَضُدِ
قد ذُقْتُ أَنواعَ ثُكْلٍ أَنت أَبلغها على القلوب وأَخناها على الجَلِدِ
فاليوم لم يبق شىء أَستريح له إلا تفتَّت أَحشائى من الكمد
قل للرَّدى لا يغادرْ بعده أَحدًا وللمنيَّة مَنْ أَحْبَبْتِ فاعتمدى
إن السرور تقضَّى بعد فُرْقتهِ وآذن العيشُ بالتكدير والنَّكدِ

والمرثية مؤثرة وهى سيل من الدموع والزفرات والأنين الموجع . وللحِمَّانى

غزليات كثيرة تتداولها بعض كتب الأدب وهى تنُمُّ على شعور رقيق وخيال خصب من مثل قوله :

متى أرتجي يوماً شفاءً من الضَّنَا   إذا كان جانيه علىَّ طبيبي

وله فخر يتحدث فيه عن آبائه . ويصوِّر سمو نفسه وارتفاعها عن النقائص ، كما يصور كبر همته وأنها ملء قلبه بل أكبر من قلبه ، يقول :

قلبي نظير الجبل الصعبِ   وهمتى أكبر من قلبى
فاستخرِ اللهَ وخُذْ مُرْهفاً   وافتك بأَهل الشرق والغرب
ولا تمتْ إن حضرت ميتةٌ   حتى تميتَ السيف بالضرب

وهو ممن أكثروا من ذم الشيب وكراهته ، وصوَّر ذلك فى أشعار كثيرة كأن نراه يكره الشيب ويكره مفارقته لأنها تعنى فقده للحياة ، وكأنه — على بغضه له — يود أن لا يفارقه ، يقول :

بكى للشيب ثم بكى عليهِ   فكان أعزَّ فقدًا من شبابِ
فقل للشيب لا تَبْرَحْ حميدًا   إذا نادى شبابُك بالذهاب

وبجانب ذمه للشيب يأسى كثيراً على الشباب وأيام لهوه ومتاعه بالنظر إلى الغانيات فقد ضل ذلك منه، أضله الشيب ، وهل من غانية تنظر إلى شيخ فان ، يقول :

لقد كنت تملك أَلْحَاظَهُنَّ   فصِرْنَ يُعِرْنَك لحْظاً مُعارا
وأَصْبحْنَ أَعْقَبْنَ بعد الودادِ   بِعادًا وبعد السكون النِّفارا

وله وصف كثير فى سُرَى الليل وفى اعتساف الفلوات بالإبل والخيل نجد منه مقتطفات فى كتب الشعر ، ومن طريف نعته لطول الليل وسكونه وجثومه على الكون دون أى حركة قوله :

كأَن نجوم الليل سارت نهارَها   ووافَتْ عِشاء وهْى أَنضاءُ أَسفارِ
فخَيَّمْن حتى تستريحَ رِكابها   فلا فلكٌ جارٍ ولا كوكبٌ سارِ

وكان يكثر من ذكر المنازل والديار ، وله قصيدة بديعة يتحدث فيها عن المنازل القريبة من الكوفة مثل آثار قصْرى الخَوَرْنَق والسَّدير ، وكانا من قصور الحيرة ، وديارات الأساقف المطلة على نهر الغدير هناك وما حول هذه المنازل من رياض نضرة ترفّ فيها الأنوار والأزهار ، ومن قوله فى تلك القصيدة :

كم وقفةٍ لك بالخوَرْ نقِ لا توازَى بالمواقف
بين الغدير إلى السَّديـ ـر إلى ديارات الأَساقف
دِمَنٌ كأن رياضَها يُكْسَيْنَ أعلامَ المطارف
تلقى أوائلَها أوا خرُهـا بألوان الزخارف

وواضح من هذه الأشعار التى وقفنا عندها للحمانى أنه كان شاعراً مجيداً ، فعنده كثير من الخواطر والأخيلة البارعة ، وبالغ بعض الشيعة المتحمسين له فقالوا إنه كان أشعر شعراء قَرْنه . وقد توفى سنة ٢٦٠ للهجرة .

المفجَّع البَصْرِىّ[١]

هو أبو عبيد الله محمد بن أحمد الكاتب ، عالم أديب ، وتدل كلمة الثعالبى فى اليتيمة أنه حين توفى ابن دريد العالم اللغوى الإخبارى المشهور سنة ٣٢١ قام مقامه فى التأليف والإملاء ، على أنه كان واسع الرواية وصاحب معرفة دقيقة باللغة والأخبار ، ويشهد لذلك أنه ترك مصنفات مختلفة مثل كتاب سماه كتاب الترجمان فى الشعر ومعانيه . وفى كتاب الفهرست لابن النديم بيان كامل بأسماء مصنفاته . ويلفت النظر أنه شيعى وليس من أهل الكوفة بل من أهل البصرة ، ومعروف أن الكوفة كانت حتى القرن الثالث الهجرى مركز التشيع وداره . بينما كانت البصرة بعيدة عن التشيع وأهله[٢] ، وكأنما امتد تيار التشيع مع نهاية القرن الثالث وأوائل الرابع إلى البصرة ، وأخذت تتحول إلى مركز من مراكزه .

---

(١) انظر فى المفجع وأخباره وأشعاره اليتيمة للثعالبى (طبعة محيى الدين عبد الحميد) ٢/ ٣٦٣ والفهرست ص ١٢٩ ومعجم الأدباء لياقوت ١٧ / ١٩٠ ومعجم الشعراء ص ٣٨٠ والوافى بالوفيات (طبعة إستانبول) ١/ ١٢٩ .

(٢) ثلاث رسائل للجاحظ (طبعة فان فلوتن) ص ٩

ويبدو أن المفجع كان شيعيًّا إماميًّا ، فقد شاع مذهب الإمامية فى العراق من قديم ، ويقولون إن لقبه المفجع لزمه ببيت قاله ، وأكبر الظن أنه لُقب بهذا اللقب إشارة إلى تفجعه الكثير على قتلى العلويين ، وكان — على ما يظهر — يكثر من مديح الهاشميين ، وخاصة أبا الحسن محمد بن عبد الوهاب الزينبى الهاشمى البصرى وفيه يقول :

للزينبيِّ — إلى جلالة قدره — خلقٌ كطعم الماء غير مزنَّدِ
وشهامةٌ تَقِصُ الليوث إذا سطا ونَدًى يفرِّق كل بحر مزبدِ[1]
يحتلُّ بيتاً فى ذؤابة هاشمٍ طالت دعائمه محل الفرقدِ
بضياء سنَّته المكارمُ تقتدى وبجـود راحته السحائب تهتدى

وله قصيدة طويلة يمدح فيها عليًّا — رضى الله عنه — سماها « ذات الأشباه » إشارة إلى أثر مسند إلى أبى هريرة ذُكر فيه أن رسول الله صلى الله عليه وسلم ، قال وهو فى محفل من أصحابه : « إن تنظروا إلى آدم فى علمه ونوح فى همه وإبراهيم فى خلقه وموسى فى مناجاته وعيسى فى سِنِّه ومحمد فى هَدْيه وحلمه فانظروا إلى هذا المقبل . فتطاول الناس فإذا هو على بن أبى طالب» . وعلى هُدَى هذا الأثر نظم المفجع قصيدته مصوراً فيها مناقب على وهى تطَّرد على هذا النمط :

أيها اللَّائمى لحبِّى عَلِيًّا قُمْ ذميماً إلى الجحيم خَزِيًّا
أشبه الأنبيـاء كهلا وزَوْلا وفطيماً وراضعاً وغَذِيًّا[2]
كان فى علمه كآدم إذ عُلِّـم شَرح الأسماء والمكنيًّا
وكنوح نَجَّى من الهُلْكِ مَنْ سَيِّـر فى الفُلْك إذ علا الجُودِيًّا[3]
وجَفَا فى رضا الإله أباهُ واجتواه وعَـدَّه أجنبيًّا
كاعتزال الخليل آزَرَ فى اللـه وهجرانه أباه مَلِيًّا[4]
ولو أنَّ الوصىَّ حاول مَسَّ النَّـجْم بالكف لم يجده قَصِيًّا

(١) تقص : تدق وتحطم .
(٢) الزول : الفتى .
(٣) الجودى : جبل بشمالى العراق .
(٤) آزر : أبو إبراهيم .

وطبيعى أن تفقد القصيدة العذوبة لأنها إلى الشعر التعليمى أقرب منها إلى الشعر الغنائى وافر النغم والألحان . وليس معنى ذلك أن شعره جميعه يجرى على هذا المنوال فالأبيات السابقة فى مديح الزينبى أسلوبها مستو وليس فيه استواء فقط ، بل أيضًا فيه جزالة ورصانة . ويقول الثعالبى إن شعره كثير الحلاوة يكاد يقطر منه ماء الظرف من مثل قوله :

زفراتٌ تعتادنى عند ذكرا ... ك وذكراك ما تريم فؤادى
وسرورى قد غاب عنىَ مذ غب ... تِ فهل كنتما على ميعادِ
ليس لى مَفْزعٌ سوى عبرات ... من جفونٍ مكحولة بالسُّهادِ
وبحسبى من المصائب أنى ... فى بلاد وأنتمُ فى بلادِ

وكان مثل أستاذه ابن دريد لا يجد بأسًا فى أن يُقْبل أحيانًا على الشراب ، إذا صح ما رُوى عنه من احتساء الخمر ، ونراه يصف مجلسًا من مجالسها فى ليلة من ليالى الأنس بها ، يقول :

أداروها ولِلَّيْل اعتكارُ ... فخلتُ الليل فاجأه النهارُ
فقلتُ لصاحبى والليل داجٍ ... ألاحَ الصُّبْحُ أم بَدَتِ العُقارُ
فقال : هى العُقار تداولوها ... مُشَعْشَعَةً يطير لها شَرارُ
ولولا أننى أَمتاح منها ... حلفتُ بأَنها فى الكأس نارُ

وبين أشعاره مقطوعات فى بعض الغلمان ، ومرَّ بنا ما قلناه من أن أكثر ما كان ينظمه الشعراء فيهم إنما كانوا ينظمونه دعابة وفكاهة على مجالس الخمر بقصد التندير والضحك ، ولذلك كان ينبغى ألا نصنع صنيع المستشرقين فى تضخيمهم لهذه السَّوْءة سواء عند المفجع البصرى أو عند غيره . ورآه « متز » ينظم قصيدة فى الجامع الكبير بالبصرة ومن فيه من الغلمان قائلا :

ألا يا جامع البَصْر ... ةِ لا خَرَّبك اللهُ
وسقَّ صحنَك المُزْنُ ... من الغيث فـــروَّاه

فكم ظبي من الإنسِ مليح فيك مَرْعــاه
نَصَبْنا الفَخَّ بالعلم له فيك فصِدْناه
وكم من طالبٍ للشِّعْـ ـرِ بالشعر طلبنـــاه

فظن أنه وقع على وَصْمة كبرى ، وذهب يقول إن الشاعر يحكى كيف كان يُغْوِى الصبيان فى الجامع المذكور ويستنزل العاصى الصعب منهم[1] . والدليل على أنه لم يكن خالص النية فى حكمه أنه أنشد القصيدة وأسقط منها هذين البيتين :

ألا يا طالبَ الأَمر دِكْذْبٌ ما ذكرناهُ
فلا يَغْرُرْك ما قلنا فما بالجِدِّ قُلنـــاه

فالمفجَّع إنما قال ما قال من هذه القصيدة كذبًا وبهتانًا وعبثًا ودُعابة ، فكان يحسن بمتز أن لا يسوقها فى مجال الحديث عن التولع بالغلمان ونصب الشباك لهم وأين ؟ فى المساجد الطاهرة ، فالمفجع إنما أراد إلى أن يدفع سامعيه إلى الفكاهة والضحك العريض . ولم يطل به المقام فى مكان أستاذه ابن دريد يُملى ويحاضر الطلاب ، فما هى إلا ست سنوات بعد وفاة ابن دريد حتى لبَّى نداء ربه سنة ٣٢٧ للهجرة .

٣

شعراء الثورات السياسية

لم تكن ثورات الشيعة بزعامة العلويين وحدها هى التى أقضَّت مضاجع الخلفاء فى هذا العصر ، فقد اشتعلت بجانبها ثورات أخرى ، كان بعضها يزيف لنفسه شعاراً علويًّا حتى يجمع العامة فى صفوفه وتحت لوائه . وكان من زعماء هذه الثورات من ينظم الشعر ، فهو ثائر من جهة ، وهو شاعر من جهة ثانية . ويهمنا الوقوف

(١) انظر الحضارة الإسلامية فى القرن الرابع الهجرى ٢ / ١٣١

على هؤلاء الشعراء الثوار ومن كان يُعينهم أحياناً بأشعاره من أنصارهم . ونلاحظ أن هؤلاء الشعراء من الأنصار لم تهتم بهم كتب التاريخ ، فهى دائماً تسوق ما قيل فى انتصارات العباسيين على الثوار ولا تُعْنَى أى عناية بما قاله أصحاب هؤلاء الثوار فى قليل ولا كثير .

ومن أوائل من ثاروا فى العصر محمد بن البعيث لعهد المتوكل سنة ٢٣٤ وكان يحسن الشعر ، وسنعرض له فى موضع آخر . وما نصل إلى رمضان لسنة ٢٥٥ للهجرة حتى يُشْعل فارسى ثورة الزنج بالبصرة متزعماً لها ، وفصّلنا فى الفصل الأول القول فى هذه الثورة وكيف دوّخت الدولة العباسية وعرّضتها لكارثة عظيمة ، إذ استطاع أن يستثير الزنج ويجعلهم يستشعرون سُخْطاً هائلاً على كبار الملاّك الإقطاعيين الذين كانوا يُسخرونهم فى كَسْح أرض البصرة وزرعها دون أى رحمة أو شفقة وبأجور زهيدة لا تكاد تحقق لهم غذاء ولا كساء . وتجمّع حوله الزنج واستحالوا إلى جيش لَجِبٍ اجْتَاحَ جنوبىّ العراق وكاد يجتاح العراق كله فى بعض الأوقات لولا أن تجرد لهم ولزعيمهم الموفق ولى عهد الخليفة المعتمد ، كما مرّ بنا فى غير هذا الموضع ، وكان بطلا مغواراً لا يُشَقّ غباره ، وكانت الجيوش توالت فى حرب هذا الثائر وأصحابه ، وكان يمزقها شر ممزّق ، حتى تولى قيادتها الموفق ، فاستحالت الهزيمة نصراً ، ولكن أى نصر ؟ لقد كان نصراً بطيئاً ، إذ كانت تقف بينه وبين الثوار مستنقعات البصرة ، وظل يأخذها منهم قطعة قطعة .

ومن المحقق أن هذه الثورة أقدم ثورة عرفها العرب فى المطالبة بالحرية ونقض الاسترقاق وتحقيق العدل الاجتماعى ، ولكن زعيمها لم يمض بها فى السعى إلى هذه الغايات كما كان يَعِدُ فى أول ثورته ، فقد استباح فى حروبه استرقاق الأحرار ، وكأنما ألغى ردّه الحرية على الزنج بفرضه الاسترقاقَ على غيرهم ، فانعكست صورة الاسترقاق ، ولكنها ظلت كما هى وظلت طبقات من الناس تسترقُ طبقات أخرى . وكان قد رأى إنجاحاً لثورته أن يُضْفِى عليها مسحة دينية ، كما مر بنا فى الفصل الأول ، فأشاع فى الناس أن اسمه على بن محمد وأنه من سلالة زيد بن على بن الحسين ، حتى يؤمنوا بأنه صاحب حق شرعى فى الخلافة وأن من حقه الثورة على العباسيين ، بل من حقه عليهم أن ينصروه ويؤازروه . وانضم إليه كثيرون من

الأحرار وأعراب البوادى بجانب من انضموا إليه من الزنج وعبيد العراق ، ولكن ثورته باءت — بعد أربعة عشر عاماً من المعارك العنيفة — بالإخفاق الذريع .

ولا نريد أن نقف عند هذه الثورة الآن وما كان من صاحبها الذى ظلت ثورته أربعة عشر عاماً أو تزيد ، والذى كان يُسْرِف فى القتل وسفك الدماء ، حتى قالوا إنه قتل فى البصرة فى يوم واحد من غاراته الكثيرة ثلاثمائة ألف ، وإنه كان يُنْهِب أصحابه الأموال ويَحْرِق الدور والقصور . كل ذلك لا نريد أن نقف عنده ، ولا عند ما يقال من أنه كان دائماً يخطب فى أنصاره[1] . إنما نريد أن نقف عند ما بقى لنا من بعض أشعاره[2] . يقول المرزبانى : « تُرْوَى له أشعار كثيرة فى البسالة والفتك » ، ويذكر أن ابن دريد كان يؤكد أنها من نظمه وأنها قُرِئت عليه أمامه ، فشهد بأنها له ، ولم يُنْكرها ، وكأن من معاصريه مَنْ كان يشكُّ فى أنه شاعر يحسن صنع الشعر ونظمه ، مما جعل ابن دريد يؤدى الشهادة السالفة . وكان من قرية تسمى وَرْزَنِين بإيران ، وكأنه تلقَّن فيها من الآداب العربية ما جعله يحسن الخطابة والشعر جميعاً ، وله يخاطب بنى العباس :

بَنِى عَمِّنا لا توقدوا نارَ فتنةٍ ... بَطِىءٍ على مَرِّ الليالى خمودُها
بنى عمنا إنا وأنتم أنامـلٌ ... تضمَّنها من رَاحَتَيْها عقودُها
بنى عمنا ولَّيْتُم التُّرْكَ أمرنا ... بديئاً وأعقاباً ونحن شهودُها
فأُقسم لا ذُقْتُ القَراحَ — وإنْ أَذُقْ ... فبُلْغَةُ عَيْش — أو يُبَارَ عميدُها[3]

وهو يسوق كلامه إلى العباسيين كأنه حقاً ابن عمهم على بن أبى طالب أو حفيده ، ويزعم أنهم يوقدون ضده نار فتنة ، وكان ينبغى أن يستسلموا له فليسوا جميعاً إلا أنامل يد هاشمية واحدة . ويلومهم أن أسلموا قيادة الدولة للأتراك ، وأنه سيجاهدهم جهاداً مريراً . وكان يكثر من تصوير ما يجرى فى قصورهم من خمر ومجون ينبغى أن تبرأ منه

(١) الطبرى ٩ / ٤١٤ وما بعدها .

(٢) انظر فى أشعار صاحب الزنج معجم الشعراء للمرزبانى ص ١٤٨ وذيل زهر الآداب ص ١٥٥ وما بعدها .

(٣) الماء القراح : البارد العذب . بلغة العيش : أقل ما يكفى . يبار : يهلك .

قصور الخلافة وأن تكون قصور نسك وطهارة لا قصور إثم وعصيان ، وفى ذلك يقول :

لَهْفَ نَفْسى على قصورٍ ببغدا دَ وما قد حوتْه من كلِّ عاصِ
وخمورٍ هناك تُشْرَبُ جَهْرًا ورجالٍ على المعاصى حِراصِ
لستُ بابن الفواطم الزُّهر إن لم أُقْحِمِ الخيلَ بين تلك العِراصِ

وهو يسجل على العباسيين انصرافهم عن حياة الدين والعبادة إلى حياة اللهو والمجون والعبث واقتراف الآثام ، حتى يستثير الناس معه . وينسب نفسه إلى فاطمة الزهراء ، بل إلى الفواطم الزهر ، حتى يستهوى القلوب. ويعلن أنه سيجاهد العباسيين ويستمر فى جهاده حتى تسقط بغداد . وظل ثابتًا فى جهاده مخلصًا له فى أحلك الظروف ، حتى بعد أن فقد الأمل ، فإنه لم يستسلم للموفق بعد أن استسلمت عامة أنصاره ، ولا رضى الأمان حين عرضه عليه كما رضيه أكثر جنده والبقية الباقية منهم ، بل ظلّ يقاتل حتى سُفِكَ دمه أمام منزله وهو ينشد :

عليك سلامُ الله يا خير منزلٍ خرجنا وخلَّفناه غير ذميمِ

وتلقانا بعد ثورة صاحب الزنج ثورة بكر بن عبد العزيز بن أبى دُلَف فى الكرج وكان شاعراً ، وسنعرض له عما قريب . ونشبت ثورة القرامطة ، وكان دعاتها يَصِلونها بالدعوة الإسماعيلية الشيعية ، كما مرَّ بنا فى الفصل الأول . وكان غير ثائر من هؤلاءِ الدعاة يصِلُ نفسه مباشرة بمحمد بن إسماعيل بن جعفر الصادق ، مزيفًا لذلك سلسلة نسب كاذبة ، على نحو ما صنع صاحب الزنج لنفسه نسبًا يصله بزيد بن على زين العابدين . وكان داعيتهم الأول قرمط مكوّن الفرقة قد التقى فى سواد الكوفة بأحد دعاة الحركة الإسماعيلية ، فانضم إليه ، وأخذ فى تنظيم حركته القرمطية واضعًا لها من المبادئ الاشتراكية العادلة ما استهوى به قلوب العامة ، فتبعه خلق كثير أخذ يُغير بهم على سواد الكوفة . وما نصل إلى سنة ٢٨٩ حتى نجده يختفى فى ظروف غامضة ، ويتولى زعامة حركته زِكْرَوَيْه الدّنْدانى ، ويرى — كما مرَّ بنا — الدولة بالمرصاد له ولجماعته ، فيرسل بأبنائه : يحيى والحسين ومحمد إلى قبيلة كلب ببادية السماوية بين العراق والشام ، لعلهم يستجيبون إلى دعوتهم ، ويتبعهم كثيرون ، ويبايعون أكبرهم يحيى بن زكرويه الذى زعم لهم أنه من سلالة

محمد بن إسماعيل بن جعفر الصادق !، وتسمَّى لهم باسم أبى عبد الله على بن محمد ، وقيل بل تسمى باسم محمد ، وتكهَّن لهم مدعيا أنه يُوحَى إليه ، وكشف لهم عن عَضُد له ناقصة وزعم أنها آيته أو معجزته ، كما زعم أن ناقته التى يركبها مأمورة وأنهم إذا ساروا وراءها فى لقاء أى عدو جاءهم نصر الله والفتح المبين . ومضى بجموعه فى سنة ٢٩٠ يهاجم المدن السورية ويَعيثُ فى الأرض فساداً . وكانت الشام حينئذ تتبع الدولة الطولونية ، ولقيه أحد قوادها فتغلب عليه ومضى إلى الرقة يقتل ويسفك الدماء ، ودَحرَ جيشاً للعباسيين ، وعاد يحاصر دمشق ، غير أنه قُتل على أبوابها . وكان شاعراً ، ترجم له المرزبانى فى معجمه[1] . ونراه فى بعض أشعاره على شاكلة صاحب الزنج ينسب نفسه إلى الفواطم من بنى هاشم ، يقول :

أنا ابنُ الفواطم من هاشمٍ وخيرُ سُلالةِ ذا العالَم
وطئتُ الشامَ برغم الأنامِ كوَطءِ الحِمام بنى آدم

وهى نسبة كاذبة . ومن المؤكد أنه لم يكن يقصد بثورته نصرة العلويين ولا كان فيها متشيعاً لهم ، إنما كان متشيعاً لنفسه يريد أن يصل إلى الملك والسلطان ، ولذلك فصلناه مثل صاحب الزنج — على نحو ما مرَّ بنا — عن العلويين وثوراتهم ودعواتهم السياسية ، وله أبيات يذكر فيها النجوم والكواكب : المريخ والعيُّوق وسعد الذابحين ملوِّحاً للعامة التى تتبعه بأن علم التنجيم قد كشف له عن نصر عظيم يلقاه فى الموصل ومدينة الرَّحبة التى بناها طوق بن مالك ومدينة الرافقة ، بل إنه سيدمر بغداد تدميراً وينهب كل ما فى قصورها من أموال يقول :

تقاربت النجومُ وحان أَمرٌ قرانٌ قد دَنا منه النذيرُ
فمرِّيخُ الذبائح مستهلٌّ قَوِىٌّ ما لِوَقْدَتِهِ فتورُ
مُعَيُّوقُ الحروب له احمرارٌ وسَعْدُ الذابحين له بدورُ
فبَشِّرْ رَحْبَتَىْ طَوْقٍ بيومٍ من الأَيام ليس له نظيرُ
ورافقةُ الضلالةِ ليس يُغْنى إذا ما جئتها بابٌ وسورُ

(١) معجم الشعراء للمرزبانى ص ١٥٣ .

وبغدادُ فليس بها اعتياصٌ على أمرى وليس لها نكيرُ
أُصبِّحها فأَتركها هَشيماً وأَحْوِى ما حوتْه بها القصُور

ومن ثوار القرامطة الشعراء أبو طاهر الجَنَّابى صاحب الأحساء والبحرين، وكان أبوه أبو سعيد من أنصار قَرْمط، وكلفه بنشر الدعوة فى جنوبى إيران، وأخفقت مساعيه، وعاد إلى قرمط، فأرسله إلى البحرين والأحساء، وسرعان ما استجابت له قبيلة عبد القيس. ودخلت المنطقة فى سلطانه منذ سنة ٢٨٦ للهجرة، وقتله غلام صقلبى فى سنة ٣٠١ فخلفه ابنه أبو طاهر، وعظم أمره، إذ واقع عساكر الخليفة المقتدر مراراً كما مرَّ بنا فى الفصل الأول وفتك بغير جيش من جيوشه، واتسع ملكه فى شرقى الجزيرة العربية، وكثر أتباعه وجنوده، ونال ما لم ينله قرمطى قبله. وكان يزعم أنه داعية عبيد الله المهدى الخليفة الفاطمى الإسماعيلى، وكان شأنه قد أخذ يعظم فى إفريقية، ولم يكن يدعو له حقيقة، بل كان يتخذه ستاراً لخروجه على الخلافة العباسية. وكان كثيراً ما يُغير على البصرة وينكِّل بأهلها، ويسفك دماءهم، ويحرق دورهم كما يحرق المساجد. وكثيراً ما كان يُغير على قوافل الحجاج يفتك ويقتل وينهب، وجيوشه تَغْدُو وتروح إلى عاصمته «هجر» محمَّلة بالأموال، فكان طبيعيًّا أن يمتدّ به طمعه وطموحه إلى أن يستولى على بغداد، بل إلى أن يستولى على العالم الإسلامى كله وبلغ به تهويله على العامة أن كان يزعم لها أنه سيظلَ حيًّا حتى ينزل عيسى من السماء بأخرة، وفى ذلك كله يقول من قصيدة طويلة مهدداً متوعداً [1]:

فمَنْ مبلغٌ أهلَ العراق رسالةً بأَنى أنا المرهوبُ فى البَدْوِ والحضَرْ
فيا ويلهم من وقعةٍ بعد وقعةٍ يُساقون سَوْقَ الشَّاء للذَّبْحِ والبقَرْ
سأَصرفُ خيلى نحو مصرَ وبَرْقةٍ إلى قَيْرَوانِ التُّرْكِ والرُّومِ والخَزَرْ
أَكيلُهمُ بالسيف حتى أُبِيدَهم فلا أُبْقِ منهم نَسْلَ أُنثَى ولا ذَكَرْ
أُعمَّر حتى يأْتِ عيسى بن مريم فيحمدَ آثارى وأَرضى بما أَمَرْ

وعزم فى سنة ٣١٥ على غزو بغداد، فخرج إليها فى ألف فارس وخمسة

(١) النجوم الزاهرة ص ٢٢٥/٣

آلاف راجل ، فجهز المقتدر لحربه جيشاً بقيادة يوسف بن أبى السَّاج ، والتقى الجيشان ، ودارت الدوائر على ابن أبى الساج وجيشه ، وأُخذ أسيراً ، وأسرع مؤنس بجيش كثيف فى نحو أربعين ألفاً ، وانضم إليه الحمدانيون وغيرهم من عرب العراق والموصل ، والتقى بأبى طاهر وجيشه عند الأنبار ، غير أن أبا طاهر انصرف راجعاً إلى بلاده ، ولم يواقعه مؤنس مع ما اشتهر به من شدة بأسه ، وكأنما خشى على نفسه مغبَّة الحرب ، مما جعل أبا طاهر يرسل له بالأبيات التالية ساخراً منه سخرية شديدة [1] :

قُولُوا لمُؤْنسكم بالرَّاح كُنْ أَنِساً   واستتبع الراحَ سُرْناياً ومزمارا
وقد تمثلتُ عن شوقٍ تقاذف بى   بيتاً من الشعر للماضين قد سارا
نزوركمْ لم نؤاخذكم بجفوتكم   إن الكريم إذا لم يُسْتَزَرْ زارا

وهو يهزأ به وبشجاعته التى عُرِف بها ، ويقول له إنك لست من أهل الحرب والبأس ، وإنما أنت من أهل الكاس والطاس وآلات الطرب من السرْناى وغير السرناى ، ويستمر فى هزؤه ، فهو سيزوره ويزور بلاده للفتك به وبجنوده .

وتُطْغى أبا طاهر الجنَّابى انتصاراتُه على جند الخلافة ، ويَغُرُّه بالله الغرور ، ويشتهر عنه أنه لا يصلى ولا يصوم ولا يعرف حدود الله . وما يوافى شهر ذى الحجة فى سنة ٣١٧ حتى ينقل غاراته على الحجَّاج من قوافلهم إلى البيت الحرام ، وإذا السيوف تنوشهم وتسيل دماؤهم أنهاراً يوم التَّرْوية ، وهم يهللون لربهم ويُلَبُّون ، وهو وأنصاره يَنْحرون فيهم ، كأنهم كباشٌ أُعِدَّتْ للذبح ، دون أى شفقة أو رحمة . ولم يكتفوا بمن ذبحوهم فى فجاج مكة ، فقد دخلوا المسجد الحرام ينحرون ويذبحون والناس يتعلقون بأستار الكعبة وهم يمزقونها ويمزقون جلودهم بسيوفهم ، ولا شفيع لهم ولا نصير من هذا الشيطان الرجيم . وبلغ من سفهه وخُرقه أن أمر بطرح القتلى فى بئر زمزم ، واقتلع الحجر الأسود من موضعه ، وأخذه معه إلى هجر وظل بها حتى سنة ٣٣٩ إذ أعاده القرامطة إلى مكة خوفاً من الخليفة المطيع وخَشْية من بأسه وبأس البويهيين . وجرَّد أبو طاهر الكعبة من كل ما كان بها من تحف

(١) تكملة تاريخ الطبرى للهمدانى ص ٥٥ .

أهداها الخلفاء على مرّ السنين . وروى المؤرخون أنه كان فى أثناء هذا العمل الوحشى الفظيع يترنَّم بأشعار له مبتهجًا ؛ وكأنما كان يشفى غليل نفسه من الإسلام وصاحبه وأهله بما ارتكبه من هذه الخطايا الموبقات ، وبما كان يُنْشده من هذه الأشعار التى يحادّ بها الله ورسوله من مثل قوله(١) :

ولو كان هذا البَيْتُ بيتاً لربِّنا لصبَّ علينا النارَ من فوقنا صَبًّا
لأنا حَجَجْنا حِجَّةً جاهليَّـةً محلَّلةً لم تبق شرقاً ولا غرْبا
ولكنَّ ربَّ العرش جَلَّ جلالُه ولم يتخذ بيتاً ولم يتخذ حُجْبَا

وكأنه بذلك يعلن كفره ، صريحًا غير موار ، بفريضة الحج إلى بيت الله ، التى تُعَدّ ركنًا أساسيًّا من أركان الإسلام . وبذلك يتضح أن أبا طاهر لم يكن ثائراً عنيفا فحسب مثله مثل يحيى بن زكرويه وصاحب الزنج ، بل إنه يتقدمهما خطوات فى الثورة الدامية والعنف والانفصال عن العلويين ، إذ خلع الإسلام كله من عنقه ومضى يحارب أهله ويسيل دماءهم ويذبحهم ذبحًا حيث لا يحل صيد الحيوانات ولا الطيور ، غير ما انتهكه من حرمات بيت الله المقدس انتهاكًا ليس له سابقة ولا لاحقة فى التاريخ . ولعل من الخير أن نبسط القول قليلا فى شاعرين ثارا على الخلافة العباسية فى القرن الثالث الهجرى ، وهما محمد بن البعيث وبكر بن عبد العزيز بن أبى دُلَف .

محمد(٢) بن البعيث

من فتيان بنى أسد نزلت عشيرته فى أذْرَبيجان ، واشتهر أبوه بأنه كان من الفُتَّاك الصعاليك ، واستطاع محمد أن يمتلك فى تلك الديار قلعتين : قَلْعة تسمى شاهى وأخرى تسمى بكدُر ، وكانت شاهى أشد مناعة فكان يقيم فيها كثيراً . واشتهر أمره فى عصر المعتصم وحروب بابك ، فإنه كان يحاول أن يكون محايداً بين الطرفين المتخاصمين ، فإذا نزلت سَرَايا أحدهما أضافها وأحسن الضيافة ، وهو فى أثناء ذلك يراوغ ، وقد ينقل للجيش العباسى وقواده أخبار بابك، وقد ينقل إلى بابك

---

(١) تكملة تاريخ الطبرى للهمدانى ص ٦٢ .

(٢) انظر فى ثورة محمد بن البعيث وأخباره الطبرى ٩/ ٢٥ ، ٢٧ ، ١٦٤ ، ١٦٥ ، ١٧٠ ، ١٧١ ومروج الذهب ٤/ ٤١ ومعجم الشعراء ص ٣٨٥ .

أخبار الجيش العباسى . وكان هواه مع العباسيين ، غير أن وقوفه متفرجًا دون أن يُقْحم نفسه فى تلك الحروب وينصر العباسيين جعل إسحق بن إبراهيم المصعبى أحد قواد المعتصم يقبض عليه ويُلْقى به فى غياهب السجون . ويتوسط له بعض القواد ، فيُفْرج عنه ، على ألا يبرح سامرّاء حتى إذا كانت سنة ٢٣٤ لعصر المتوكل هرب إلى دياره وحصونه فيها ، واختار حصن مَرَنْد ، فجمع فيه عُدَده وأسلحته وأنصاره وزادهم ، ورمّ ما كان وَهَى من سورها ، وكان فى داخلها وخارجها بساتين ، تدور من حولها أشجار كثيرة . ووجّه إليه المتوكل بعض الجيوش فلم تستطع أن تصل إليه ، ثم وجّه إليه بُغا الشرابى ، فزحف إلى الحصن وقطع ما حوله من الشجر نحواً من مائة ألف شجرة ، ونصب عليه المجانيق ، ويئس ابن البعيث من مطاولة الحصار ، ففرّ على وجهه وهو ينشد :

كم قد قضيتُ أمورًا كان أهملها ... غيرى وقد أَخذ الإبْلاسُ بالكَظَمِ[1]

لا تعذلينىَ فيما ليس ينفعنى ... إليكِ عنى جَرَى المقدارُ بالقَلَمِ

سأتلف المال فى عُسْرٍ وفى يُسُرٍ ... إن الجواد الذى يعطى على العدمِ

وتبعه نَفَرٌ من الجيش العباسى ، فلحقوه ، وهو راكب دابة متقلد سيفًا يريد أن يصير إلى نهر عليه رَحًى ليستخفى فى الرَّحى ، وأخذوه أسيراً ذليلا ، وانتهب الجند داره ودور أصحابه وبعض دور المدينة ، ونادى مناد بالامتناع عن النهب . وأُتِىَ بابن البعيث إلى المتوكل ، فأمر بضرب عنقه ، فطُرح على نِطْع ، وجاء السيّافون فلوّحوا له بسيوفهم ، وقال له المتوكل حانقًا غاضبًا : ما دعا يا محمد إلى ما صنعت ؟ فأجابه : الشقْوة وأنت الحبل الممدود بين الله وبين خلقه ، وإنّ لى فيك لظنّين أسبقهما إلى قلبى أولاهما بك ، وهو العفو ، ثم اندفع ينشده :

أَبَى الناسُ إلا أنك اليوم قاتلى ... إمامَ الهدى والصَّفْحُ بالحُرِّ أَجْمَلُ

وهل أنا إلا جُبْلَةٌ من خطيئة ... وعفوُك من نور النبوة يُجْبلُ[2]

تضاءل ذنبى عند عفوك قِلَّةً ... فَمُنَّ بعَفْوٍ منك والعَفْو أفضلُ

فإنك خير السابقين إلى العُلا ... ولا شك أَنْ خَيْرُ الفَعالين تَفْعَلُ

---

(١) الكظم : مخرج النفس من الحلق . الإبلاس : انقطاع الحجة .

(٢) الجبلة : الخلقة والطبيعة .

فقال المتوكل : أفعل خيرهما وأمُنُّ عليك ، ارجعْ إلى منزلك ، وخفَّف عنه الحكم من الإعدام إلى الحبس وظل فيه حتى وافاه الموت . وفى الطبرى أنه كما كان ينظم بالعربية بعض أشعار له كان ينظم بالفارسية أشعاراً أخرى . وكان جواداً ممدَّحاً طالما قصده الشعراء بمدحهم ، وأجزل لهم فى عطائه ، وممن ذكر منهم المرزبانى فى معجمه يحيى[1] بن أحمد من أهل مدينة الرَّحْبة فى الموصل ، وفيه يقول : «كان فى ناحية محمد بن البعيث ، ومدحه مدحًا كثيراً» منه قصيدة أولها :

لا زال محسودًا على أفعــالهِ ... وحَسوده فى الناس غيرُ محسَّدِ

شطراه بين معاقبٍ أو غافرٍ ... أو عائدٍ متفضِّلٍ أو مُبْتَدِى

شَفْعاً ووِتْرًا كلّ ذاك فَعاله ... كالدهر إلا أنه لا يعتدِى

فالناسُ تحت لوائه من راغبٍ ... أو راهبٍ أو رائحٍ أو مُغْتدِى

وكان ابن البعيث يستخدم يحيى فى الدعاية له ، وهو يصوره فارسًا رائحًا غاديًا على أعدائه ، والناس بين راهب من بطشه وراغب فى كرمه الفياض ، وتارة يعاقب أعداءه عقابًا أليمًا ، وتارة يعفو عفواً رحيمًا ، ويدعو له أن يظل محسوداً متسنمًا لذروة المجد الرفيعة . ومن قوله فيه :

متى أَلْقَ منْ آل البَعيث محمَّدًا ... أَحلُّ رياضاً للعُلا بمحمَّدِ

وتضحك أم البِشْرِ عنى بنَيْلِهِ ... فأَرجــع محسودًا بِنَيْلٍ محسَّدِ

ويبدو أن ابن البعيث كان شخصية ممتازة ، فهو جواد ، وهو شجاع من أهل البأس والفتوة ، وهو أديب يحسن العربية والفارسية . وبلغ من ثبات جأشه وجنانه أن أنشد المتوكل الأبيات السالفة وهو على النطْع والسَّياف شاهر سيفه يريد أن ينقضَّ عليه وأن يحزّ رأسه ويُزْهق روحه ، وشَرَرُ الغضب يتطاير من عينى المتوكل وقد انتفخت أوداجه . وكأن ذلك كله لم يملأ نفسه خوفًا ولا هلعًا ، فظل رابط الجأش مجتمع القلب ، لا تخونه الكلمة فى اللحظة الحرجة ، بل لا يخونه البيت

---

(١) انظر فى ترجمته وأشعاره معجم الشعراء ص ٤٩١ .

الذى يستلُّ الغضب من نفس المتوكل . وقد بلغ منه مبلغاً خطيراً ، حتى أوشك أن يقضى عليه قضاء مبرماً . وهى قدرة نفسية كانت تمتزج بقدرته البيانية .

بكر [١] بن عبد العزيز بن أبى دلف

حفيد أبى دُلَف القاسم بن عيسى العِجْلى الشيبانى البطل المغوار الذى أبلى بلاء عظيماً فى حروب بابك لعهد المأمون والمعتصم ، وكان هرون الرشيد ولاَّه — وهو حَدَث السنّ — أعمال الجبل فى إيران ، ولم يزل عليها إلى أن تُوُفِّى سنة خمس وعشرين ومائتين . وكان أديباً شاعراً وله مقطوعات تتردَّد فى كتب الأدب ، وهو ممدوح أبى تمام وعلى بن جَبَلَة الذى قال فيه :

إنما الدنيا أبو دُلفٍ بين باديه ومحتَضَرِهْ
فإذا وَلَّى أبو دُلَفٍ وَلَّت الدنيا على أَثَره

وقد تولَّى إقليم الجبل ابنه عبد [٢] العزيز وكان شاعراً ، وشجاعاً باسلا ، وعزله عنه المعتز وولى عليه موسى بن بغا ، فثارت ثائرة عبد العزيز وفَرَّ إلى قلعة له ولعشيرته فى الكَرَْج بين همذان وأصفهان ، وظل ينازل الدولة العباسية . ونراه فى سنة ٢٥٤ يَجْبِى همذان . ويخلفه ابنه أحمد ، فيتولى زعامة أسرته ويمدّ سلطانه إلى أصبهان ويتوفى سنة ٢٨٠ فيتنازع الرياسة بعده أخواه عمر وبكر ، ويتمّ لعمر القيام بالأمر ، ولا يرسل إليه الخليفة المعتضد بالولاية ، حتى لا يثور بكر ، غير أنه عاد فولَّى فى سنة ٢٨٣ عيسى النُّوشَرِىّ على أصبهان ، وغضب بكر ومن كانوا ينضوون تحت لوائه من الأعراب ، فولَّى وجهه معهم نحو الأهواز ، وخرج فى طلبه القائد التركى وصيف حتى بلغ حدود فارس . ولحقه ، ولكنه لم يحاول أن يبادره بالحرب ، وباتا كلٌّ واحد منهما قريب من صاحبه ، وارتحل بكر ليلا ولم يتَتَبَّعه وصيف ، وعاد بكر إلى أصبهان ورجع وصيف إلى بغداد . وكتب المعتضد إلى بدر غلامه المعروف باسم بدر المعتضدى يأمره بطلب بكر بن عبد العزيز وعَرَبِه .

وكان بكر شاعراً انحدر إليه الشعر من أبيه وجده ، وله ديوان صغير نُشر فى

---

(١) انظر فى بكر وأشعاره ديوانه وتاريخ الطبرى ١٠ / ٤٧ ، ٥١ ، ٦٣

(٢) انظر فى عبد العزيز وولايته على الجبل الطبرى ٩ / ٣٧٢ ، ٣٧٣ ، ٣٨١ .

دهلي باسم شعر بكر بن عبد العزيز وهو يتغنى فى أشعاره بفتوته وفروسيته ، وله ميمية طريفة نظمها حين سمع بأن المعتضد أمر بدراً غلامه أن يتعقبه، وفيها يتوعده ويتهدده بمثل قوله :

أَلْقَى الأَحِبَّةُ بالعراقِ عِصِيَّهُمْ وبقيت نُصْبَ حوادث الأيامِ
وتشعَّب العرب الذين تصدَّعوا فذببتُ عن أحسابهم بحُسامى
فلأقرعَنَّ صَفَاة دَهْرٍ نابَهم قَرْعًا يهدُّ رواسىَ الأعلامِ
ولأتركنَّ الواردين حياضَهم بقرارةٍ لمواطئ الأقدامِ
يا بَدْرُ إنك لو شهدتَ مواقفى والموت يلحظ والصِّفاحُ دوامى
لذممتَ رأيك فى إضاعة حُرْمَتِى ولضاقَ ذَرْعُك فى اطِّراح ذِمامى
حرَّكْتَنى بعد السكون وإنما حَرَّكتَ من حِضْنِى جبالَ تِهام

وواضح من حديثه فى مطالع هذه الأبيات أنه يأسى للعرب فى عصره ، فقد تشعَّبوا وتفرَّقوا شيَعًا وطرائق شتّى ، فعضَّهم الدهر بنابه وأصبحت حياضهم مباحة يَرِدُها الأعاجم وغير الأعاجم، وها هو وحده يقف للدفاع عن عَرينهم ، ولا معين له غير عزيمته الماضية وسيوفه القاطعة . وإنه ليتهدد الدهر أن ينزل به أشد النكال كما يتهدد من استباحوا حِمىَ العرب والعروبة بالذل والهوان حتى ليصبحون موطئًا للأقدام، ويتحول إلى بدر المعتضدى واصفًا له مواقفه البطولية حين تُسَلّ السيوف وتسدَّد الرماح ويلتقم الموت الأبطال ، حتى يستشعر الندم على تضييعه لذمامه وتحريكه للحرب المبيرة بعد سكونها . ويبدو أن بدراً رأى أن يَكِلَ أمره إلى غيره ، فكلَّف عيسى النُّوشَرِيّ بمهاجمته ، وصَدَع لتكليفه ، ولكنه لم ينجح سريعًا فى مهمته ، واضطر فى بعض المواقف أن ينسحب بجيشه ، فقال بكر يذكر فراره من بين يديه ، ويتهدد بدراً صاحبه ، من قصيدة طويلة :

ليس كالسيف مؤنس حين يَعْرُو حــادثٌ معضلٌ ويَفْدح أَمْرُ
أَوقدوا الحرب بيننا فَاصْطَلَوْهَــا ثم حاصوا فأين منها المَفَرّ[1]
وبَغَوْا شَرَّنا فهذا أَوانٌ قد بدا شَرُّه ويتلوه شَرّْ

(١) حاصوا : حادوا .

قد رأى النُّوشَرِىُّ لما التقينا مَنْ إذا أُشْرِعَ الرماحُ يَفِرُّ
جاءَ فى قَسْطَلٍ لُهامٍ فَصُلْنَا صَوْلَةً دونهـا الكماةُ تَهِرّ
غرَّ بَدْرًا حلمى وفَضْلُ أناتى واحتمالى وذاك مما يَغُـرّ

على أنه سرعان ما اضطُرّ إلى الفرار أمام جيوش الخلافة سنة ٢٨٤ إذ التقى به النوشرى فى حدود أصفهان ، فقتل رجاله واستباح عسكره . وأفلت فى نفر يسير ، وغادر إقليم الجبل متجهًا إلى محمد بن زيد العلوى صاحب طبرستان ، فأكرم وفادته عليه ، وقرّبه منه ، وولاه على إقليم رويان ، غير أنه مات مسمومًا فى طريقه إليها لسنة ٢٨٥ .

٤

شعراء الوزراء والولاة والقواد

لا نبالغ إذا قلنا إن جميع وزراء العصر وأكثر ولاته وقواده داروا على ألسنة الشعراء يمدحونهم طلبًا للنوال ، إذ كانت بأيديهم أموال الدولة ، وكانوا ينثرونها نَثْراً على الدعاية لهم ، ولم يكن للدعاية حينئذ لسانٌ سوى الشعر ، فالوزير وكذلك الوالى والقائد حين يُطْريه شاعر ويثنى عليه يطير اسمه فى الناس ، ولذلك كان كثيرون يَتجمَّعُون الشعراء من حولهم ، لكى يعدّدوا مناقبهم ، ويصوّروا كفاءتهم وأنهم من الصفوة المختارة للأمة . وكان من بينهم شعراء وأدباء يقدرون الشعر وأصحابه ، ويرفعون منزلتهم عالية . وكان فى مقدمتهم لعصر المتوكل وزيره الفتح بن خاقان وكان كثيرون يكادون يقصرون أنفسهم على مديحه وما يصلهم من نواله[1] ، وهو من ممدوحى البحترى كما مر بنا فى غير هذا الموضع ، وكان شاعراً مرهف الذوق ، وله البيت المشهور[2] :

ليس يُسْتَحْسَنُ فى شَرْعِ الهَوَى عاشقٌ يُحْسِنُ تـأليفَ الحُجَجْ

(١) انظر مثلا ترجمة ابن أبى فنن الشاعر فى تاريخ بغداد ٤ / ٢٠٢ .

(٢) معجم الشعراء ص ١٩١ .

ومثله من وزراء المتوكل فى كثرة مادحيه عبيد الله بن يحيى بن خاقان ، وهو أيضًا ، من ممدوحى البحترى ، ومن مادحيه [١] محمد بن غالب الأصبهانى والقنبرى [٢] ، وفيه يقول أبو هِفَّان يوم النَّيْروز وفيه تقدَّم هدايا كثيرة [٣] :

إذا نحن مدحناك رَعَيْنا حُرْمَةَ المجدِ
وما استطرفتُ للإهدا ء إلا طُرَفَ الحَمْدِ

وكان يَزِرُ للمنتصر أحمد بن الخصيب ولم تكن له رصانة صاحبيه، بل كان فيه حمق كثير ، ومع ذلك مدحه غير شاعر طلبا للربح والنوال ، من مثل قول محمد بن غياث الكاتب فيه [٤] :

سَمَّوْهُ أحمد فالإسلامُ يحمدُه والدهر كاسم أَبيه ممرعٌ خَصِبُ
فلا فضائل إلا منه أَوَّلُها ولا مواهبَ إلا دون ما يَهبُ

ووزر للمستعين أبو محمد صالح بن يزداد ، ويردِّد البحترى فى ديوانه مدحه ، وتلقانا مدائح فى وزراء المعتز مثل عيسى بن فرخانشاه وجعفر بن محمود الإسكافى. ويتولى وزارة المهتدى سليمان بن وهب ، وهو كما يقول الفخرى أحد كتَّاب الدنيا وأحد عقلاء العالم ، وكان يُحْسن الشعر كما كان يحسن الكتابة ، وهو من ممدوحى البحترى ، وفى كتاب الأغانى ترجمة طويلة له ، وكثير من المدائح قُدِّمت إليه من مثل قول هرون بن محمد البالسى [٥] :

أَسفرَ الشَّرْقُ منك والغرب عن ضو ء من العَدْل فاق ضوءَ البدورِ
أَنشر الناسَ غيثُكُم بعدما كا نوا رُفَاتاً من قبل يوم النُّشورِ [٦]

ووزر للمعتمد الحسن بن مَخْلد ، وكان ماهراً فى الكتابة ، وهو أيضًا من ممدوحى البحترى ، وكان مقصداً للشعراء . ويخلفه إسماعيل بن بلبل ، وهو كسابقه

---

(١) معجم الشعراء ص ٤٠٩ .
(٢) نفس المصدر ص ٤٢٣ .
(٣) طبقات الشعراء لابن المعتز ص ٤٠٩ .
(٤) معجم الشعراء ص ٣٧٨ .
(٥) أغانى (ساسى) ٢٠ / ٦٧ ومعجم الشعراء ص ٤٦٤ .
(٦) أنشر : أحيى.

من ممدوحي البحتري ، ومدائح ابن الرومي وأهاجيه فيه مشهورة . ويُكثر البحتري وابن الرومي معًا من مديح وزير المعتمد صاعد وابنه العلاء وأخيه عبدون ، كما يكثر ابن الرومي من مديح عبيد الله بن سليمان بن وهب وزير المعتمد وابنه القاسم وزير المعتضد ، وفي ديوان ابن المعتز مدائح لهما مختلفة . وتدور أسماء وزراء المكتفي والمقتدر على ألسنة الشعراء ، وفي ابن الفرات وزير المقتدر يقول ابن العلاف[1] :

يتلقَّى النَّدَى بوجهٍ حَيِيٍّ ... وصدورَ القَنَا بوجهٍ وَقَاحِ
هكذا هكذا تكون المعالى ... طُرُقُ الجِدِّ غير طُرْقِ المِزَاحِ

ولأبي بكر يحيى بن محمد الصولي أشعار ومدائح كثيرة في وزراء العصر المتأخرين منذ عصر المقتدر ، وكان يدمج مديحهم في مديح الخلفاء ، وقد يمدحهم مدحًا مستقلا من مثل قوله في أبي عبد الله البَرِيديّ وزير الخليفة المتقي[2] :

ما رأى الناسُ بالوزير البريد ... يِّ كذا اليومِ منه حُسْناً وفخرا
الذى يعشَق المكارم والمج ... دَ ويَشْرِي بالمال حمدًا وشكرا

ولعل أكثر الولاة مديحًا في هذا العصر آل طاهر ، وفي مقدمتهم طاهر بن عبد الله بن طاهر والي خراسان ، ومحمد بن عبد الله بن طاهر حاكم بغداد وأخواه عبيد الله وسليمان ، وعرضنا فيما أسلفنا مدائح البحتري وابن الرومي فيهم ، وممن كان منقطعًا إليهم أبو الأشعث المروزي[3] . وفي طاهر يقول مدرك بن غزوان الجعفري من قصيدة[4] :

حَمَى طاهرٌ شرقَ البلاد بيُمْنِهِ ... وشعثُ النواصي لا تجفُّ لبودها[5]
يُنيخ بها أرضَ العدو ويبتنى ... مآثر مَجْدٍ كان قِدْماً يَشِيدها

---

(١) طبقات الشعراء لابن المعتز ص ٣٥٩ مقابلة على ص ٤٥٤ .

(٢) أخبار الراضي والمتقي بالله للصولي ص ٢٠٢ .

(٣) معجم الشعراء ص ٣٩٢ .

(٤) معجم الشعراء ص ٣٣٤ .

(٥) شعث النواصي : الخيل .

وممن كان يخصّ محمد بن عبد الله بن طاهر بمدائحه ابن أبى فَنَن ، وتصادف أن كانت له ضيعة بجوار إقطاع له ، وكان عامل الخراج والعشور يلحّ عليه فى طلب عُشوره وخراجه ، وربما آذاه ، فكتب إلى محمد يستغيث به من قصيدة طويلة[1] :

أَبنى حُسَينٍ إننى أَصبحتُ فى كنف الأَميرِ
ولنا معاشٌ فى قطيـ ـعتهِ على الماءِ النَّمِيرِ
لولا تردُّد عـامـلٍ كالكلب فى يومٍ مطيرِ
فهل الأَميرُ بجوده من قبْح طلعته مجيرى

فلما قرأ محمد القصيدة وَقّع تحتها قد أجرناك أبا عبد الله وأمرنا لك باحتمال خراجك – وكان فى كل سنة ستة آلاف درهم – وحمل إليه ألف دينار ، وحلف عليه أن يقبلها . قال ابن أبى فنن : وصرت منذ هذا الحين أمدحه فى كل عام بقصيدة . ومن الولاة الذين طالما مدحهم الشعراء أبو جعفر أحمد بن محمد الطائى والى الكوفة ، وهو من ممدوحى البحترى وابن الرومى ، ومثله إبراهيم بن المدبر الذى ولى الدواوين فى سامرّاء وبغداد وولى فى بعض السنوات البصرة فأغرق الشعراء بأمواله وأغرقوه بمدائحهم ، وهو ممدوح البحترى . ونرى شاعراً يكاد يخصه بمديحه وخاصة طوال مقامه فى البصرة ، وهو أبو شُرَاعَة شاعرها ، وكان لا يفارقه أيام تقلده لها ولا يمنعه حاجة ولا شفاعة يسألها إلا حققها له ، وفيه يقول[2] :

إنما لذّتاك فى المال شَتَّى صَوْنُكَ العِرْضَ وابتذال المالِ
ما نبالى إذا بقيتَ سليماً من تولّتْ به صُرُوفُ الليالى

ومرّ بنا فى حديثنا عن البحترى أنه مدح أحمد بن طولون أمير مصر وابنه خمارويه وبعض قواده ، وأنه كان يمدح الهيثم بن عبد الله التغلبى والى الموصل وسيما الطويل والى حلب ورافع بن هرثمة والى الرىّ ، كما مدح بعض قواد الترك مثل وصيف الصغير وأذكوتكين . ولا بد أن شعراً كثيراً نُظم فى مديح القواد ، إذ تشير

---

(١) طبقات الشعراء لابن المعتز ص ٣٩٦ والديارات ص١٢٥ .

(٢) أغانى (طبع الساسى) ٢٠ /٣٦ .

نصوص كثيرة إلى أن هذا الشاعر أو ذاك كان من شعراء العسكر ، ومع ذلك نفتقد الشعر الذى يصوّر بطولة قواد العصر إلا ما نُظم فى الموفق وابنه المعتضد ، مما مرّت بنا الإشارة إليه عند البحترى وابن الرومى وابن المعتز . ويتعرض أبو بكر الصولى لبعض القواد فى عصره وخاصة فى مديحه لبعض الخلفاء من مثل محمد بن ياقوت القائد فى عصر الراضى ، وكان يتحكم فى شئون الدولة حتّى أصبح ابن مقلة الوزير معه كالعارية وله فيهما ضادية طويلة [١] . وامتدح الشعراء كثيرين من الكتاب ورؤساء الدواوين ــ وأكثر من سميناهم من الوزراء عملوا فى الدواوين أولا ــ وممن كان ممدَّحًا منهم آل ثوابة ، وقد توارثوا ديوان الرسائل منذ عصر المعتمد ، وكان من أكثرهم جوداً وكرمًا أبو العباس أحمد بن محمد بن ثوابة ، وهو ممدوح البحترى ، وكان يمدحه شعراء كثيرون دَبَّجُوا فيه أشعاراً بديعة من مثل قول أبى هِفان [٢] :

الثوابىّ فتىً ليس له فى سوى السؤددِ والمجد وَطَرْ

وقوله [٣] :

نفسى فداءُ أبى العباس من رجلٍ لم يَنْسنى قَطُّ فى نَأْىٍ ولا كَثَبِ
يقرى وبالرَّقة البيضاء منزلُه من بالعراقين من عُجْمٍ ومن عربِ

ولعل من الخير أن نعرض ثلاثة من شعراء هؤلاء الرؤساء ليتضح لنا مديحهم فى أضواء أكثر وضوحًا ، وهم أبو على البصير وأحمد بن أبى طاهر وابن دُرَيْد .

أبو على [٤] البصير

اسمه الفضل بن جعفر بن الفضل بن يونس ، أصل أسرته من الأنبار ، انتقلت إلى الكوفة فنزلت فى حى النَّخَع ، وهى أسرة فارسية الأصل . وكان أبو على ضريراً

(١) أخبار الراضى والمتقى للصولى ص ١٠.
(٢) طبقات الشعراء لابن المعتز ص ٤١٠.
(٣) ديوان المعانى ١ / ٦٥.
(٤) انظر فى أخبار أبى على البصير وأشعاره كتاب طبقات الشعراء لابن المعتز ص ٣٩٨ ومروج الذهب للمسعودى ٤ / ٦٢ ، ٨٤ ومعجم الشعراء للمرزبانى ص ١٨٥ ونكت الهميان ص ٢٢٥ وزهر الآداب للحصرى ٣ / ٩٥ ، ١٩٣ والديارات ص ٨١ ، ٢٤٨ والفهرست ص ١٨٤

ولُقِّب البصير على العادة فى التفاؤل أو لذكائه وفطنته . وكان شيعيَّ الهوى على مذهب أهل بلدته الكوفة ، وأكبر الظن أنه كان إماميًّا يؤمن بالتقيَّة ، ولذلك لم ير بأسًا فى أن يترك الكوفة إلى بغداد وسامرَّاء . ونزل الأخيرة فى خلافة المعتصم ومدحه ومدح جماعة من قواده ، ولزم المتوكل والفتح بن خاقان يمدحهما وينال جوائزهما ، ولحق زمن المعتز وهنأه بالخلافة كما مر بنا فى غير هذا الموضع . ولم يكن شاعراً فحسب ، بل كان أيضًا صاحب رسائل نثرية بارعة ، وفى الجزء الرابع من جمهرة رسائل العرب لأحمد زكى صفوت قطعة منها بديعة . ويقول المسعودى : « كان من أطبع الناس فى زمانه لا يزال يأتى بالبيت النادر والمثل السائر الذى لا يأتى به غيره ، وله فى الفضل حفيد الحسن بن سهل :

ملكٌ ندفع – ما نخشى – بهِ ... وبه – نُصْلح منا ما فَسَدْ

ينجز الناس إذا ما وعــدوا ... وإذا ما أنجز الفضلُ وعد

ودقة العبارة واضحة ، وواضح معها دقة الفكرة فى البيت الثانى ، فالفضل لا يزال يؤدى وعوده وكلما أدَّى وعداً وعد ثانية ، فهو بحر من الجود لا ينقطع فَيْضه ، ومن طريف ماله فى الفتح بن خاقان قوله واصفًا بلاغته وشعره :

سمعنا بأَشعار الملوك فكلُّها ... إذا عضَّ مَتْنيه الثِّقافُ تأَوَّدا

سوى ما رأينا لامرىء القيس إننا ... نراه متى لم يشعر الفَتْحُ أَوحدا

أَقام زماناً يسمع القول صامتاً ... ونحسبه إن رام أَكْدَى وأَصْلدا[1]

فلما امتطاه راكباً ذلَّ صعبه ... وسار فأَضحى قد أَغار وأَنْجدا

فأشعار الملوك قبل الفتح لا تثبت عند الثقاف والتمحيص ولا تستقيم بل تتأوَّد وتتثنى إلا ما كان من شعر امرئ القيس ، ولكن بشرط ألا ينظم الفتح وكأنه يعلو به على أبى الشعر العربى كله . وصوَّره يطيل إرهاف سمعه لمادحيه ، حتى ليظن الرائى أنه لا يحسن قول الشعر ولا نظمه ، حتى إذا رامه ونظمه ذاع فى طول البلاد وعرضها وفى حَزْنها وسهولها ونجادها وأغوارها . ويقول الرواة إنه كان يتشيع وإن له فى ذلك أشعاراً ، ولم يصلنا من هذه الأشعار شىء ولعل كثيراً منها كان فى مدح آل البيت .

---

(١) أكدى وأصلد : أعطى قليلا .

وروى له الحصرى تهنئة بمولود ، نظن ظنًّا أنه قدمها لأحد أفراد البيت العلوى ، وفيها يقول :

أتانى البشير بأَن قد رُزقتَ غلاماً فأَبهجنى ما ذكَرْ
فعمَّرك اللهُ حتى ترا ه قد قارب الخَطْو منه الكِبَرْ
وحتى ترى حوله من بَنيه وإخوته وبَنيهم زُمَــرْ
وأوزعك الله شكرَ العطاءِ فإن المزيدَ لعبدٍ شكر
وصَلَّى على السَّلف الصَّالحين منكم وبارك فيمن غَبَرْ

وكان يؤذى نفسه إيذاء شديداً أن يقدّم شعره أحيانًا لبعض الرؤساء أو بعض رجال الدولة فلا يأبه له أو لا يعطيه ما يستحقه ، وتصادف أن أفراداً مختلفين وقفوا منه هذا الموقف فى صور مختلفة ، فعزَّت عليه نفسه وكرامته ، وأنشأ يقول :

وإنى قد بلوتكمُ جميعــاً فما منكم على شكرى حريصُ
وأَرخصتُ الثناءَ فعِفْتموه وربَّما غلا الشَّىْءُ الرخيص
فعفتُ نوالكم ورغبتُ عنه وشَرُّ الزاد ما عاف الخَصِيصُ(١)

ولعل شخصًا لم يؤذ نفسه وكبرياءه كما آذاه المعلَّى بن أيوب أحد قواد الجيش ، ولعل ذلك ما جعله يخصّه ببيتين كأنهما سَهْمان مُصْميان ، إذ يقول فيه :

لعمرُ أَبيك ، ما نُسب المعلَّى إلى كرمٍ وفى الدنيا كريمُ
ولكن البلاد إذا اقشعرَّتْ وَصَوَّح نَبْتُها رُعِىَ الهَشيم(٢)

وكان يحس فقده لبصره إحساسًا عميقًا ، ولكن ذلك لم يكسر نفسه ولا أصابه بهوان ، إذ نراه يُدِلّ بأن غيره من المبصرين يستمدّون علمهم من الكتب المخلَّدة ، أما علمه فدَفْتَرُه القلب وحِبْرُه السمع ، ويعتذر اعتذارات طريفة عن أنه لا يستطيع شيئًا إلا بغيره كما نرى فى مثل قوله :

(١) الخصيص : من الخصاصة ؛ وهى الفقر والاحتياج .
(٢) اقشعرت : أجدبت . وصوَّح : يبس .

لئن كان يهدينى الغلام لِوِجْهَتى ويقتادنى فى السير إذ أنا راكبُ
لقد يستضيء القومُ بى فى أمورهم ويخبو ضياءُ العين والرَّأىُ ثاقب

وهو كثير السخرية فى أشعاره . وله مداعبات ومجاوبات تدل على بديهة حاضرة حضوراً شديداً ، وكثير منها كان يدور بينه وبين أبى العيناء الضرير ويُرْوَى أنه قال له: إننى وُلدت وقت طلوع الشمس، فقال له توًّا: لذلك خرجت مُكْدِيًا (شحاذاً) لأنه وقت انتشار المساكين . وله غزل بارع من مثل قوله :

ألمتْ بنا يومَ الرَّحيل اختلاسَةً فأَضْرَم نيرانَ الهوى النَّظَرُ الخَلْسُ[1]
تـأَبَّتْ قليلا وهْىَ تُرْعَدُ خِيفةً كما تتـأَبَّى حين تعتدل الشَّمْسُ
فخاطبها صَمْتى بما أنا مضمرٌ وأَنبسْتُ حتى ليس يُسْمَعُ لى حِسُّ[2]
وولَّتْ كما وَلَّى الشبابُ لِطيَّةٍ طوت ـ دونها كَشْحاً على نفسها ـ النَّفْسُ

والقطعة بديعة وتدل على رهافة الحس ودقة الشعور وخصوبة التفكير ، وكأن البصير روى لنا قصة لامجرد خطرات فى الحب والوجد. وكان يشارك أحيانًا فى الخمر والمجون واللهو ، وله دعابة نظمها وهو يريد الحج ، صوَّر فيها نفسه ألمَّ بالكوفة والأديرة القائمة حولها فى الحيرة ، فنازعته نفسه أن يشرب فى أحد الأديرة ويتزوَّد من خمرها ما يكفيه حتى العودة ، فقال لصاحبه : حُطَّ أثقالنا ، وسار الناس وأقاما ، يقول :

خرجنـــا نبتغى مكـ ـة حُجَّاجاً وزُوَّارا
فلما شارف الحِيـرَ ةَ حَادِى جَملى حارا
فقلت : احْطُطْ بها رَحْلِى ولا تحفِلْ بمن سارا
فقضَّينا لُبَاناتٍ لنا كانَتْ وأوطــارا
وما ظنك بالحَلْفا ءِ إنْ أَشْعَلْتها نارا

(١) الخلس : المختلس .

(٢) أنبس : همس بكلامه .

ويقال إنه تغيَّر عقل أبى على البصير قبل موته بقليل ، وكان يثوب إليه عقله ، فيأسى على نفسه وما أصابه من خرف الشيخوخة ، وفى ذلك يقول :

خَبَا مصباحُ عقلِ أَبى علىٍّ وكانتْ تستضيىء به العقولُ

إذا الإنسان مات الفهم منه فإن المــوت بالباقى قليل

ولعل فى كل ما ذكرناه من شعره ما يدل على حذقه حقًّا وأنه كان خِصْب الذهن . وكان لا يزال يعرض على معاصريه ما يزيدهم به إعجابًا وبشعره استحسانًا .

أحمد [1] بن أبى طاهر

اسم أبى طاهر طيفور ، وأحمد ابنه رُزق به فى بغداد لسنة ٢٠٤ ، وأصل الأسرة من مَرْو ، ويقال إنها من سُلالة ملوك خراسان . أخذ عن علماء بغداد ، حتى إذا استوى عوده جلس للتعليم فى بعض الكتاتيب ، ثم ترك التعليم واحترف الوراقة ، مما جعله يقرأ كثيراً من مصنفات عصره والعصر السابق له ، وسرعان ما تحوَّل إلى مؤرخ كبير ، كما يشهد بذلك كتابه تاريخ بغداد فى أخبار الخلفاء والأمراء وأيامهم ، وهو أحد المصادر الأساسية التى اعتمد عليها الطبرى فى تأليف كتابه تاريخ الرسل والملوك : أهم مرجع تاريخى للخلفاء حتى أوائل القرن الرابع الهجرى . وله بجانب ذلك كتاب المنثور والمنظوم الذى يشتمل على أبرع الرسائل المدوَّنة فى العصر . وله كتاب فضائل الورد على النرجس وكأنه صنعه ردًّا على ابن الرومى وأمثاله ممن كانوا يفضلون النرجس على الورد . وكان يتشيَّع ، ولكن ليس لدينا من شعره الشيعىّ سوى القصيدة التى أشرنا إليها فى غير هذا الموضع والتى رثى بها يحيى بن عمر الطالبى المقتول بالكوفة فى زمن المستعين . ويبدو أنه كان إماميًّا يأخذ بالتقيَّة، ولا يجد بأسًا فى مديح الخلفاء العباسيين ورجال دولتهم ،

(١) انظر فى أخبار أحمد بن أبى طاهر طبقات الشعراء لابن المعتز ص ٤١٦ ومروج الذهب ٤ / ٦٤ والفهرست ص ٢١٥ حيث ذكر له ثمانية وأربعين كتاباً وتاريخ بغداد ٤ / ٢١١ ومعجم الأدباء ٣ / ٨٧ وكتاب الزهرة لابن داود (انظر الفهرس) وديوان المعانى ١ / ٤٨ ، ٩٤ والموشح للمرزبانى ص ٣٥١ .

وفتحوا له جميعاً أبوابهم . وربما كان من أهم الأسباب فى فتحها كتابه السالف « تاريخ بغداد » الذى أرّخ فيه للدولة وخلفائها . وفتح له كتاب المنثور والمنظوم أبواب الأدباء لا فى بغداد وحدها ، بل أيضاً فى سامرّاء طوال اتخاذها حاضرة للخلافة. وبجانب تصنيفاته كان شاعراً بارعاً ، ولكن قبل أن نعرض لشعره يحسن أن نقف عند ما قاله بعض معاصريه من أنه « كان مؤدّب كُتّاب عامياً ثم تخصص وجلس فى سوق الوراقين فى الجانب الشرقى ببغداد ، وليس فيمن شُهر بمثل ما شُهر به من التصنيف للكتب وقول الشعر أكثر تصحيفاً منه ولا أبلد علماً ولا ألحن ، قال : ولقد أنشدنى شعراً يعرضه علىّ فى إسحق بن أيوب لحنَ فى بضعة عشر موضعاً منه وكذا قال لى البحترى فيه » . وشهادة البحترى فيه مردودة ، لأنهما كانا يتهاجيان ولا يرضى كل منهما عن صاحبه ، ونفس أبى طاهر — كما فى كتاب الموشح للمرزبانى — يصف البحترى باللحن فى شعره . وبالمثل شهادة هذا المعاصر له مردودة لأنه كان يخاصمه على ما يبدو . وليس فى شعره الذى بين أيدينا ما يصوّر هذا اللحن ، ونرى معاصريه ومن جاءوا بعدهم يشهدون له بالفصاحة والبلاغة ، فالخطيب البغدادى — ومثله ياقوت — يقولان : « كان أحد البلغاء الشعراء الرواة » . وشعره يشهد ببلاغته ، وأخباره تدل على إعجاب معاصريه به وبشعره . وكان يغدو به ويروح على الوزراء ، فيُسْبغون عليه جوائزهم من مثل قوله فى أبى الصقر إسماعيل بن بلبل وزير المعتمد يهنئه بأحد أعياد النيروز أوائل الربيع :

أبا الصَّقْرِ لا زالتْ من اللهِ نعمةٌ ... تجدِّدها الأَيامُ عندك والدَّهْرُ

ولا زالتِ الأَعيادُ تمضى وتنقضى ... وتَبْقَى لنا أَيامُك الغُرَرُ الزُّهْرُ

فإنك للدنيا جمالٌ وزِينَــةٌ ... وإنك للأَحرار ذُخْرٌ هو الذُّخْرُ

رأَيت الهدايا كلها دون قدركم ... وليس بشىءٍ عند مقداركم قَدْرُ

فأَهديتُ من حَلْىِ المديح جواهرًا ... مفصَّلةً يُزْهَى بها النظم والنَّثْر

وكانوا يتقدمون للوزراء وعلية القوم فى أعياد النيروز بالهدايا كل حسب قدرته من الجواهر أو من الرياحين ، ورأى ابن أبى طاهر أن خير ما يهديه لإسماعيل بن بلبل عقود أشعاره المرصوفة بالجواهر واللآلىء . والأبيات قوية جزلة مصقولة ، وتدل

على أن يَدَ شاعر صَنَاع هى التى كتبتها وصاغتها هذه الصياغة المتينة . وأروع من هذه القصيدة قصيدته فى أبى أحمد عبيد الله بن عبد الله بن طاهر نائب أخيه محمد فى حكم بغداد ، ثم حاكمها بعد وفاته سنة ٢٥٢ ، وهى تلتقى بقصيدة تُرْوَى لابن الرومى سبق أن أنشدنا منها فى ص ٣١٠ بعض أبيات . ولعل القصيدتين اختلطتا فى أذهان الرواة ؛ ومن قصيدة ابن أبى طاهر فى مديح أبى أحمد كما جاءت عند بعض الرواة :

مَنْ لم يكن حَذِرًا من حَدِّ صَوْلَتِه ... لم يدر ما المزعجان : الخوف والحَذَر
حُلْوٌ إذا أَنتَ لم تبعثْ مرارته ... فإن أَمرَّ فحُلْوٌ عنده الصَّبِرُ
سهلُ الخلائق إلا أَنه خَشِنٌ ... لَيْنٌ المهزَّة إلا أَنه حَجَرُ
إذا الرجال دَجَتْ آراوهم وعَمُـوا ... بالأَمر رُدَّ إليه الرَّأْىُ والنظر
الجودُ منه عِيانٌ لا ارتياب بهِ ... إذْ جودُ كلِّ جوادٍ عنده خَبَرُ

وبلغ من إعجاب القدماء بهذا المديح أن قال بعض أدبائهم : لو استُعمل الإنصاف لكان هذا أحسن مدح قاله متقدم ومتأخر . وهى أبيات — إن صَحَّ أنها لابن أبى طاهر — تدل على بصر بالشعر وروعة فنونه البديعية ، وله رسالة فى سرقات البحترى تدل من بعض الوجوه على ثقافته الشعرية ، بل لقد اتسعت دراسته للشعر العربى على نحو ما يصور ذلك كتابه المنظوم والمنثور . وقد مضى يُحْكم فى القصيدة التقسيم كما فى الأبيات الأربعة الأولى ، كما أحكم الطباق والتقابل بين المعانى والألفاظ على نحو ما يتضح فى الأبيات الأربعة الثانية . وكان يُحْكم — بجانب المديح — الهجاء اللاذع الذى يلسع كما تلسع الإبر دون فحش من مثل قوله فى أبى العيناء الضرير نديم المتوكل والخلفاء ومضحكهم بإجاباته ونوادره :

كُنَّـا نخاف من الزمـا ... ن عليك إذ عمىَ البَصَرْ
لم نَدْرِ أَنك بالعَمَى ... تَغْنَى ويَفْتَقِرُ البَشَرْ

وكان يتعرض أحيانًا للمبرِّد ، فيخشى معرَّة لسانه ، ويقال إنه استقباله فى

يوم صيف شديد الحرارة فأكرمه وبالغ فى إكرامه ، فأطعمه غذاء طيبًا ، وسقاه بارداً ، وأخذ يباسطه فى الحديث ، مؤملا أن يمتدحه ببعض شعره ، وإذا هو ينشده :

ويومٍ كحرِّ الشَّوْقِ فى صَدْرِ عاشقٍ ... على أنه منهُ أَحرُّ وأَرْمَدُ
ظللت به عند المبرِّد قائلا ... فما زلتُ فى أَلفاظه أَتبرَّد[1]

فقال له المبرّد : قد كان يسعك إذا لم تحمد أن لا تذم ، ومالك عندى جزاء إلا أن تَغْرُبَ عن عينى . فتركه وهو يضحك من أثر دعابته فى نفس المبرد شيخ العربية لعصره . وأنشد له ابن داود طائفة كبيرة من غزلياته ، من مثل قوله :

حبيبى حبيبٌ يكتم الناسَ أنه ... لنا – حين ترمينا العيونُ – حبيبُ
يباعدنى فى الملتقى وفؤادُه ... – وإن هو أبدى لى البعادَ – قريبُ
ويُعرض عنى والهوى منه مقبلٌ ... إذا خاف عَيْناً أَو أَشار رَقيبُ
فتخرَسُ منا أَلسنٌ حين نلتقى ... وتنطق منا أَعْيُنٌ وقلوبُ

فهما يتناكران أمام الناس ، وكل منهما شديد الكَلَفِ والولَع ، يتجرع غصص الهوى وآلامه ، ولا يستطيع البوح بما فى ضميره ، وهما لذلك يصطنعان التحفظ والاحتشام ، وقلوبهما تحترق وجداً ، وقد خرست منهما الألسنة ونطقت العيون بمكنون الضمير . وهو مع ذلك يكثر من الاختلاف إلى دارها ومجلس مولاها وليس من رسل بينه وبينها سوى لغة العيون ، يقول :

إذا ما التقينا والوشاةُ بمجلسٍ ... فليس لنا رُسْلٌ سوى الطَّرْف بالطَّرْفِ
فإن غَفَلَ الواشون فُزْتُ بنظرةٍ ... وإن نظروا نَحْوى نظرتُ إلى السَّقف

فهو يسارقها النظر ويختلس منها النظرة فى الحين بعد الحين ، حتى لا يفتضح أمرهما للواشين ويجعلهم يقفون على حبه للمرأة وحبها له وأنها لا تفرّط فيه ، بل شديدة الحرص عليه . ومع ذلك يجرى بينهما حديث صامت لا أول له ولا آخر

(١) قائلا : مستريحا وقت القيلولة ؛ وهى نصف النهار .

عن عذابهما فى الحب وما يصطليان من ناره ، على الرغم من الرقباء والوشاة ، يقول :

عرفتْ بالسَّلام عَيْنَ الرَّقيبِ وأشارتْ بلحظِ طَرْفٍ مُرِيبِ
وشكتْ لوعةَ النَّـوَى بجفونٍ أعربتْ عن ضمير قَلبٍ كئيب
رُبَّ طَرْفٍ يكون أفصحَ من لَفْـ ظٍ وأبْدَى لمُضْمَرَاتِ القلوبِ

فهى تلفته بلحظها الفاتن إلى الرقيب ، وتشكو لوعة النَّوَى وحرقة الحب بعيونها ، واصلة نظرها الشَّزْرَ إلى الرقيب بنظرها اللَّيِن إليه مُعْرِبة عن ضميرها وما يخفى فى صدرها من الحب له والكلَف به . وهو يحدثها بنفس اللغة ، فيفهم قلبها عن قلبه وضميرها عن ضميره ، وتبادله بنفس اللغة أنها على الوفاء له مقيمة ، يقول :

ألاحظُها خوفَ المراقب لحظةً فأشكو بطَرْفى ما بقلبى من الوَجْدِ
فتفْهَمُهُ عن لَحْظِ عينى بقلبها فتومى بِطرْفِ العين أنى على العَهْدِ

فهما دائمًا يتكلمان بلغة الطرف ، لغة يصمت فيها اللسان ، وتنطق القلوب بما تضمنت من الوجد ولوعاته ، وهما يتغامزان بالنظرات ويتلاحظان ، وكأنما لا يتكلمان بتلك اللغة الصامتة الفصيحة فقط بل يتراسلان بها ويتكاتبان مكاتبات حارة ، يقول :

كتبتُ إلى الحبيب بكسر عينى كتاباً ليس يَقْرَؤُهُ سِـوَاهُ
فأخبرنى تورُّدُ وَجْنَتَيْهِ وكَسْرُ جفونه أن قد قَراهُ

ولعل فى كثرة رسوم ابن أبى طاهر لهذا الموقف ما يدل على دقة حسِّه من طرف وثراءخواطره وأفكاره من طرف آخر ، وفى كثير من هذه الرسوم براعة فى التصوير كما نرى فى البيت الأخير ، ومن بديع تصويره قوله فى إحدى المحجَّبات اللائى شُغف بهن :

حجابٌ فإن تبدو فللدَّمع جـولةٌ يكون له من دون رؤْيتها سِتْرَا

فهو دائمًا منها فى حجابين، حجاب حين لا يلقاها . وحجاب من دموعه حين يلقاها ، وكأنها محجبة دائمًا ، وراء أستار من الحجاب صفيقة وأستار أخرى رقيقة من الدموع الغزار . ويحدثنا ياقوت نقلا عن أحد الرواة أنه كان يلمّ ببعض الأديرة أحيانًا فى طريقه إلى سامرّاء أو بعد رجوعه منها ، ويُنْشد له خمرية ، ويبدو أن الخمر لم تكن من متاعه إلا فى بعض أحوال عارضة . وما زال يُعْنَى بالتصنيف ونظم الشعر حتى توفى سنة ٢٨٠ للهجرة .

ابن [١] دريد

هو أبو بكر محمد بن الحسن بن دريد، من أزد عُمان ، كانت أسرته على شيء من اليسار ، وقد استوطن أبوه البصرة، وفيها وُلد له سنة ٢٢٣ وعُنى عمه الحسين بتعليمه فألحقه منذ نعومة أظفاره بالكتاتيب ثم بحلقات العلماء ، وكانت له ذاكرة عجيبة لا يكاد شيء يسمعه يفلت منها ، مما أعدّه لأن يكون من كبار اللغويين فى عصره . وقد أكبَّ على محاضرات الرّياشي وأبى عثمان الأشْنَانْدانِيّ وأبى حاتم السجِستانى وغيرهم من علماء البصرة ، فأخذ كل ما عندهم . ولما استباح الزنج البصرة سنة ٢٥٧ ونكّلوا بأهلها تنكيلا شديداً فَرَّ مع عمه الحسين إلى عُمان وطن قبيلته الأزد ، وظل بها اثنى عشر عامًا إلى أن قضى الموفق على ثورة الزنج قضاء نهائيًا ، وحينئذ يعود إلى البصرة حين عاد إليها الأمن والسلام . ويظل بها إلى أن يستدعيه عبد الله بن محمد بن ميكال والى الأهواز وفارس لتأديب ابنه أبى العباس إسماعيل وتثقيفه . ويلبىّ الدعوة ، ويرحب به الوالى ترحيبًا عظيمًا ، ويقلده ديوان إمارته فارس وتقبل عليه الدنيا إذ تنهال عليه الأموال . وينظم فى الوالى وابنه قصيدته الطويلة المشهورة باسم المقصورة ، التى عرضنا لها فى حديثنا عن الشعر التعليمى وتطير شهرتها وتتكاثر شروحها ، وتُطْبَعُ فى عصرنا بشرح التبريزى وبشروح

---

(١) انظر فى ترجمة ابن دريد وأشعاره معجم الشعراء ص ٤٢٥ وتاريخ بغداد ٢/ ١٩٥ وابن خلكان ومعجم الأدباء ١٨/ ١٢٧ ونزهة الألباء . والفهرست ص ٩٧ وشذرات الذهب ٢/ ٢٨٩ ولسان الميزان ٥ / ١٣٢ وتكملة تاريخ الطبرى للهمدانى ص ٧٦ والوافى بالوفيات للصفدى ٢ / ٣٣٨ ومروج الذهب للمسعودى ٤ / ٢٢٩ وطبقات الشافعية ٣ / ١٣٨ والنجوم الزاهرة ٣ / ٢٤٠ روضات الجنات ٦٠٥ وقد طبع ديوانه فى القاهرة .

أخرى وتكثر تخميساتها على مَرّ القرون . وفى أثناء عمله عند ابن ميكال ألّف الجمهرة لابنه إسماعيل ، وهى معجم لغوى بدأ فيه على طريقة معجم العين المنسوب إلى الخليل بالثنائى ثم بالثلاثى ثم بالرباعى ثم بملحقه ثم بالخماسى والسداسى وملحقاتهما ، وجمَعَ النوادر فى باب منفرد . أملاها أولا فى فارس ، ثم أملاها فى البصرة ثم فى بغداد ولذلك اختلفت نسخها اختلافات كثيرة . وكان من أهم ما ألفه لإسماعيل، كى يحسن العربية، كتاب الأربعين حديثًا ، قَصّ فيه حكايات عربية قديمة تقوم على الحب غالبًا كما تقوم على التاريخ ، ويقول الحُصْرى عن هذه الأحاديث إنها هى التى ألهمت بديع الزمان مقاماته[1] . ويبدو أنه ألّف عند ابنى ميكال كثيراً من مصنفاته ، ومما نُشر له منها فى عصرنا كتاب الاشتقاق وكتاب السَّرْج واللجام وكتاب صفة السحاب والغيث وكتاب الملاحن ويشتمل على ألغاز لغوية . وما زال يعيش فى رحاب ابنى ميكال حتى عُزلا عن فارس، فانتقل إلى مسقط رأسه ، ثم تركها إلى بغداد سنة ٣٠٨ وكان صيته وشهرته العلمية سبقاه، فاستقبلته بغداد استقبالا حافلا ، وأجرى عليه المقتدر خمسين ديناراً شهرياً إلى أن توفى سنة ٣٢١ عن نحو ثمانية وتسعين عامًا . وأهم مدائحه وأشعاره مقصورته التى ذكرناها آنفًا ، وقلم حـلّـلناها فى حديثنا عن الشعر التعليمى ، ونقف منها الآن عند مديحه للأمير عبد الله بن محمد بن ميكال وابنه أبى العباس إسماعيل ، وفيهما يقول :

تلافيا العَيْشَ الذى رَنَّقَــهُ	صَرْفُ الزمان فاستساغ وصَفَا [2]
وأجــريا ماء الحَيَا لى رغَــدًا	فاهتزَّ غُصْنِى بعد ما كان ذَوَى [3]
إن ابن ميكال الأَميرَ انتاشنى	من بعد ما قد كنت كالشىءِ الَّلقَا [4]
ومَدَّ ضَبْعَىَّ أبو العباسِ من	بعد انقباض الذَّرْعِ والباع الوَزَى [5]

(١) انظر زهر الآداب ١ / ٣٠٧ وكتابنا الفن ومذاهبه فى النثر العربى (طبع دار المعارف — الطبعة السادسة) ص ٢٤٨ .

(٢) رنقه : كدره .

(٣) الحيا : الغيث والخصب .

(٤) انتاشنى : تناولنى . واللقا : المرمىّ فى عرض الطريق لا يعبأ به .

(٥) الضبع : وسط العضد . ومد ضبعيه : بسطهما ، كناية عن اتساع حاله . وانقباض الذرع والباع كناية عن ضيق الحال .

ذاك الذى ما زال يسمو للعلا بفعله حتى عَلا فوق العُلا
لو كان يَرْقَى أَحدٌ بجودِهِ ومجده إلى السَّماء لا رْتَقَى
ما إن أَتى بحرَ نَدَاهُ مُعْتَفٍ على أُوارَى عَلَمٍ إلا ارْتَوَى[1]
نَفْسِى الفِداءُ لأَميرىَّ ، ومَنْ تحتَ السماء لأَميرى الفِدا

وطبيعي أن يُعْنَى ابن دريد فى هذا المديح بإدماج شيء فيه من الألفاظ الغريبة ، لأنه أراد بالقصيدة أن تكون متنًا لغويًّا ، وتحققت له إرادته ، لا بما وضع فيها من ألفاظ غريبة فحسب ، بل أيضًا بما حشد فيها من الألفاظ المقصورة . ومع ذلك فقد استطاع فيها أن يوازن بين ما جمع من الألفاظ الغريبة ولغة الشعر العذبة ، فاختار لها أسلوبًا وسطًا بين الإغراب والسهولة ، كما أشرنا إلى ذلك فى غير هذا الموضع . وهذه الأبيات نفسها تصور هذا المسلك . فهى لا تتعمق فى الإغراب ، بل تظل فيها نضرة الشعر وجماله . وله وراءها مدائح مختلفة لا يغمسها فى الغريب وألفاظه من مثل قوله فى أبى أحمد حُجْر الجويمىّ أحد رجالات فارس النابهين :

حُجْرُ بن أحمد فارعُ الشرف الذى خضعتْ لعزَّته طُلَى الأَعناقِ[2]
انظرْ أناملَه فلسنَ أَناملاً لكنهن مفاتحُ الأَرْزَاقِ
وانظرْ إلى النور الذى لو أَنه للبدر لم يُطْبَعْ بِرِيْن محاقِ[3]

وكان يجيد فن الرثاء ، وله مرثية بديعة فى عمه الحسين بن دريد الذى تعهد تربيته ، ومن خير مراثيه مرثية فى محمد بن جرير الطبرى عَلَم الدراسات الدينية والكتابات التاريخية فى عصره ، وفيها يقول :

إن المنية لم تُتْلف به رجلا بل أتلفتْ علماً للدين منصوبا
كان الزمان به تصفو شاربُه والآن أصبح بالتَّكدير مَقْطوبا[4]
كلا وأَيامِه الغُرِّ التى جُعلتْ للعلم نورًا وللتقوى محاريبَا

(١) الندى : الكرم . المعتفى : طالب النوال والأوارى : النار . العلم : الجبل .
(٢) طلى : جمع طلية ، وهى أصل العنق .
(٣) الرين : الأذى . يطبع : يدنس .
(٤) مقطوباً : ممزوجاً .

وتُنْسب له قصيدة فى ذكرى الرسول عليه السلام نشك فى نسبتها إليه لأن قصائد هذه الذكرى إنما ذاعت وشاعت فى عصر متأخر . وله قصيدة طويلة فى رثاء الإمام الشافعى ، أو بعبارة أدق فى بيان مكانته العلمية الخطيرة ، وفيها يقول :

لرأيِ ابنِ إدريسَ ابن عمِّ محمَّدٍ ضياءٌ – إذا ما أظلم الخطبُ – صادعُ
إذا المعضلاتُ المشكلات تشابهتْ سما منه نور فى دُجَاهُنَّ ساطع
أَبَى اللهُ إلا رَفْعَهُ وعلوه وليس لما يُعليه ذو العرش واضع

وهى قصيدة بديعة . وبحقٍّ يقول المسعودى إنه كان يذهب فى الشعر كل مذهب ، فطوراً يجزل وطوراً يرقّ ، وطوراً يصبح بدويًّا متعمقًا فى الفلوات وفى وصف الإبل والخيل ، وطوراً يصبح حضريًّا يصف الرياض والزهور ، ومن قوله فى النرجس :

عيونٌ ما يلمّ بها الرُّقَادُ ولا يمحو محاسنَها السُّهادُ
لها حَدَقٌ من الذهب المصفَّى صياغةَ مَنْ يدين له العباد
وأَجْفانٌ من الدُّرِّ استفادتْ ضياءً مثلُه لا يستفاد

ومن تمام هذا الإحساس الحضارى عنده أن نجده يتغزل أحيانًا غزلا رقيقًا ، من مثل قوله واصفًا مدى فتنة الناس بمحبوبته ، حتى كأنهم جميعًا شركاء له فى الحب وضَنَاه :

أُعاد من أجلك لا من ضَنًى وسائر العُوَّاد أَشراكى
ولست أشكوك إلى عائدٍ أخاف أن أشكو إلى شاكى

فالناس يزورونه من ضَنَاه فى حب صاحبته لا من ضَنا مرضٍ ألمَّ به ، وهو لا يشكو لهم من عذابه فى حبها ولا من وصَبَه فيه ، لأنه يراهم جميعًا مثله ، يعانون ما يعانيه من لوعات الحب وآلامه . وكان يتورط فى الخمر وإثمها ، كما كان يتعلق بالغناء وآلاته ، حتى ليقول بعض معاصريه ممن كانوا يزورونه فى شيخوخته إنه كان يستحى مما يرى من الشراب والعيدان المعلقة ، ومن قوله يصف الخمر قبل المزج وبعده :

وحمراء قبل المَزْج صفراء بعـــده أَتتْ بين ثَوْبَىْ نَرْجِسٍ وشقائقِ
حكتْ وجْنَةَ المعشوق صِرْفاً فَسَلَّطوا عليها مِزاجاً فاكتستْ لونَ عاشِقِ

ويقال إنه عرض له فى أواخر عمره فالج (شلل) وسُقِى الدرياق فبرئ ، ورجع إلى أفضل أحواله وإملائه على تلامذته . ثم مرض به ثانية ، وظل سنتين توفِّى فى نهايتهما ، وتصادف أن كانت وفاته فى نفس اليوم الذى توفى فيه أبو هاشم الجُبَّائى المتكلم المعتزلى المشهور ، ودُفنا معًا ببغداد فى مقبرة الخيزران .

٥

شعراء الهجاء

مرَّ بنا فى كتاب العصر العباسى الأول أن شعر العصبيات القبلية خبت ناره فيه وخبت معه نار النقائض، وحل محله شعر شعوبى أحيانًا . ولكن الكثرة الكثيرة كانت هجاءً شخصيًّا يتعرض للأعراض مزريا بالمهجوِّين محقِّراً لهم ومهوِّنًا . ونستطيع أن نطرد هذا الحكم فى العصر العباسى الثانى ، مع ملاحظة أن الشعر الشعوبى خبت ناره بدوره . ويبدو أن الفرس هم الذين كانوا يمدون تلك النار بوقود جزل ، فلما ضعف شأنهم فى العصر وحل الترك محلهم فى السلطان ولم يعد لهم حول ولا قوة خفَّت حدَّة شعوبيتهم ولم يعد شعراؤهم يتغنون بها إلا نادراً . وحتى هذا النادر لم تحتفظ به المصادر إلا قليلا جداً ، لأنه لم يكن لشعراء نابهين إنما كان لشعراء مغمورين قلما عُنى بهم أحد مثل محمد بن أبان الذى كان يكثر من الافتخار بالعجم [1] ، ولم يبق من افتخاره شىء . وبذلك كان الهجاء الشخصى هو اللون العام فى العصر ، وسبق أن لاحظنا فى كتاب العصر العباسى الأول أن شعراءه أكثروا فى هجائهم من القول الفاحش المقذع فى الأمهات والأخوات وظل ذلك فى هذا العصر وظل معه ذكر العورات مما ينبو عن الذوق هو وكل ما يتصل به من بذاءة ، لن نقف عندها ، إنما نقف عند الهجاء غير البذىء ، وكانت نيرانه مضطرمة طوال العصر ، فالشعراء

---

(١) معجم الشعراء ص ٣٧٩ .

يسارعون إليه كلما حجبهم وزير أو قصَّر فى عطائهم ، وكذلك كلما لقيهم قائد أو وال أو كاتب أو شخص نابه أو عالم لقاء غير حميد . وكثيراً ما كانت تجرُّهم المنافسة إلى الدخول فى معارك هجاء حامية الوطيس . ومرَّ بنا فى غير هذا الموضع ، ما قيل عن البحترى من أنه هجا كثيراً من ممدوحيه ، وبالغ بعض القدماء فقالوا إنه هجا نحواً من أربعين رئيساً ممن مدحهم ، منهم خليفتان هما المنتصر والمستعين ، وساق بعدهما الوزراء ورؤساء القواد ومن جرى مجراهم من جلة الكتاب والعمال ووجوه القضاة والكبراء[1] . وإذا صح هذا عن البحترى الذى كانت تُفْتَحُ له الأبواب الموصَدة ، وكان يمشى — بفضل جوائزه الكثيرة — فى موكب من عبيده فضلا عما كان يملك من الضياع فإن كثيرين غيره تورطوا فى الهجاء للرؤساء بأكثر من تورطه . ومرَّ فى حديثنا عن ابن الرومى إكثاره من الهجاء ونفوذه فيه إلى لون من التصوير الهزلى الساخر يكبرِّ فيه عيوب المهجوين الجسدية والمعنوية . وابن الرومى والبحترى أكبر شعراء العصر ، وعلى غرارهما كان الشعراء جميعاً يُسْهمون فى هذا الفن ، وكثيراً ما كانوا يخصُّون به الوزراء حين يَحْرمونهم الجائزة ، ولن ينفع الوزير عندهم أن يكون ممدَّحاً ، بل لعل ذلك أدعى إلى أن يسلِّط عليه الشاعر سهام هجائه ، من مثل قول دَنْدن فى عبيد الله بن يحيى بن خاقان وزير المتوكل وكاتبه ابن يزداد[2] :

وإن ابن يَزْدادٍ لأحولُ حُوَّلٌ ... ولكنه يَقْرَا (إذا الشمسُ كُوِّرَتْ)
فقُلْ لعبيد الله أحييتَ دولتىْ ... مكاسير زَمْنَى (عُطِّلت) فتحيَّرتْ
وأنت — إذا مُيِّزْت — أبلدُا منهمُ ... فصوتكمُ : حَىَّ المنازلَ أقفرتْ

ومجيئه بالآية القرآنية وكلمة (عُطلت) الواردتين فى سورة التكوير يريد أن يشير بذلك إلى خراب الدولة ، لأن السورة فى وصف نهاية العالم وما يكون بعد ذلك من البعث والنشور . وكان الشعراء كثيراً ما يتعرضون لأحمد بن إسرائيل وزير المعتز بالهجاء من مثل قول محمد بن مكرم[3] :

(١) الموشح للمرزبانى ص ٣٣٦ .
(٢) معجم الشعراء ص ٣٩٦ .
(٣) معجم الشعراء ص ٣٩٧ .

إن زماناً أَنت ، مستوزرٌ فيه زمانٌ عَسِرٌ أَنْكَدُ
يذمّك الناسُ جميعاً فما يلقاك منهم أَحدٌ يَحْمَدُ

ولما انتكست الوزارة فى عصر المقتدر وكثرت الرشوة وعم الفساد فى الحكم وعم معه الظلم كما عمت مصادرة الأموال ، توالى على الوزارة اثنا عشر وزيراً ، ومنهم من تولى الوزارة مرتين وثلاثاً ، وكل وزير يصادر الذى قبله ويعمل كل ما فى وسعه لينهب أكثر ما يمكن من أموال الدولة ، لما حدث كل هذا الانتكاس لأداة الحكم كثر هجاء الوزراء من مثل قول بعضهم فى هجاء الخاقانى الوزير [١] :

للدواوين – مذ وليتَ – عويلُ ولمال الخراجِ سقمٌ طويلُ
يتلقى الخطوبَ حين أَلمَّتْ منك رأىٌ غَثٌّ وعقلٌ ضئيلُ
إن سمنتم من الخيانة والجَوْ رِ فللإرتفاع جسمٌ نحيلُ

وكان الخاقانى معروفاً بسوء السيرة والتدبير ، وأخذ الرشوة ممن يولّيهم الأعمال ، ولذلك كثرت فى أيامه الولاية والعزل ، وكأن الدولة أصبحت دولة لصوص وقُطّاع طرق . ومن هؤلاء اللصوص وقطاع الطرق ابن البريدى الوزير بأخرة من العصر وفيه يقول أبو الفرج الأصبهانى من قصيدة طويلة [٢] :

يا سماءُ اسْقُطى ويا أَرضُ مِيدى قد تولّى الوزارةَ ابنُ البَرِيدى
هُدَّ ركنُ الإسلام وانهتك المل ك ومَحَّتْ [٣] آثاره فهْو مُودى
فاستهلّى ياعينُ بالدمع سَحًّا وقليلٌ أَن تَذْرِفى وتجودى

ومرَّ بنا آنفاً أن المنافسة بين الشعراء كثيراً ما دفعتهم إلى التهاجى ، وممن تعرَّضوا له بالهجاء كثيراً مروان بن أبى الجنوب شاعر المتوكل ، إذ كانوا ينفسون عليه الجوائز الطائلة التى كان يخصُّه بها المتوكل ، حتى من كانت تصلهم منه جوائز مماثلة ، وكأنه تحاسد أهل الحرفة الواحدة ، على نحو ما حدث بينه وبين على بن

---

(١) الفخرى ص ١٩٨ .
(٢) تكملة تاريخ الطبرى للهمدانى ص ١١٣ .
(٣) محت : درست .

الجهم ، وكان أكثر توقراً منه فى هجائه ، إذ لم يكن يُسِفُّ فيه إلى ذكر الأعراض. ويتهاجى مع أبى نعامة الدقيق ، ويكويه بمثل قوله فى نعت شعره (١) :

رأينـــا البَرْدَ مشتَدًّا فساءلْنا عن القصَّه
فقالوا مُنْشِدٌ يُنشِـ ـد شعرَ ابن أَبى حَفْصَه

وكان أبو نعامة كما مرَّ بنا شيعيًّا وكان خبيث اللسان ، فقصر شعره على هجاء القواد ورؤساء الدولة فى أيام المتوكل ورماهم بأشنع القبائح ، وهو هجاء كانت بواعثه سياسية. وكانوا ربما يهجون بالتزندق والانحراف عن الدين والإلحاد من مثل قول الجَمَّاز فى الجاحظ (٢) :

يا فتى نفسُـــه إلى مِلَّة الكُفْر تائِقَـــهْ
لك فى الفضل والتزهـ ـدِ والنُّسْك سابِقه
فدَعِ الكفرَ جانباً يا دَعِيًّ الزنادقه

وهو كذب وبهتان على الجاحظ أحد الحامين عن الإسلام فى عصره المدافعين المناضلين ، ولكنه الهجاء يصمُ الناس بوصمات كاذبة افتراء وبهتانًا . ومن مثل هذا الافتراء والبهتان قول شاعر فى محمد بن يزيد المبرّد العالم النحوى المشهور (٣) :

سألنا عن ثُمالةَ كلَّ حَيٍّ فقال القائلون ومَنْ ثُمالَهْ
فقلت محمد بن يزيد منهم فقالوا زدتنا بِهِمُ جَهَالَهْ

وثمالة هى عشيرة المبرد ، والبيتان يحملان تحقيراً شديداً وتهوينا بعيداً للمبرد وأنه خامل الذكر، وكان قد طبّق آفاق البلاد العربية شهرة فى عصره وقصده الطلاب من كل بلد يحملون عنه علمه . وبلغ من شيوع الهجاء حينئذ وانتشاره فى كل الأوساط أن المرأة شاركت فيه ، وكان لها قديماً مشاركة فى رثاء أهلها وندبهم والتفجع عليهم والنواح ، وكذلك كان لها مشاركة فى الغزل والتعبير عن عواطف الحب ومشاعره ، حتى إذا كان هذا العصر رأيناها تضيف إلى هذين الموضوعين مشاركة فى الهجاء من

---

(١) طبقات الشعراء لابن المعتز ص ٣٩٢ .
(٢) معجم الشعراء ص ٣٧٥ .
(٣) ديوان المعانى ١/١٧٨ .

مثل قول الخنساء جارية هشام المكفوف فى أبى الشبل الشاعر الماجن ، تهوّن من رجولته طاعنة له فى الصميم[1] :

ما ينقضى عجبى ولا فكرى ... من نعجةٍ تكنى أبا الشِّبْلِ
لما اكتنيْتَ لنا أبا الشِّبْل ... ووصفتَ ذا النقصان بالفضل
كادتْ تميد الأَرضُ من جَزَعٍ ... وترى السماءَ تذوب كالمُهْلِ

وهى تصوره متمرداً على حقيقته ، فهو من النعاج ويزعم أنه من الآساد ، وكأنما الدنيا انقلبت صورها وأوشكت على الزوال ، فالأرض تميد جزعًا ، وكأن يوم القيامة حل موعده ، فالسماء تذوب كالمُهْل أو الزيت المغلى . ولعل من الخير أن نعرض ثلاثة من كبار الهجائين فى العصرهم الصَّيْمرى والحَمْدونى وابن بَسَّام .

الصيمرى[2]

هو أبو العَنْبَس محمد بن إسحق ، أصله من الكوفة ، وتولى القضاء بالصَّيْمُرة فنُسب إليها ، وهى نهر بالبصرة عليه قرى وبلد وزروع ، قدم سامرَّاء فى عصر المتوكل فقرَّبه منه واتخذه نديمًا له ، لما كان يمتاز به من الفكاهة والتندير ، وكأنما أتيح له مبكراً أن يفرغ للتأليف ، إذ روى له ابن النديم فى الفهرست طائفة كبيرة من المصنفات ، ونجد بينها ما يتصل بالمنادمة ، ككتب الأطعمة وكتاب الجوابات المسكتة . وكان عالماً بالنجوم ، وله فيها كتابان . ولم يكن يجمع بين الهزل والعلم ، فقط ، فقد كان يضيف إليهما الشعر ، ويقولون إنه كان خبيث اللسان ، هاجى أكثر شعراء زمانه ، ومع ذلك لم يصلنا من هجائه إلا أشعار قليلة من مثل قوله فى إبراهيم بن المدبر ، وكان قد تولى الولايات الكثيرة وترأس بعض الدواوين ، فى سامرَّاء وبغداد :

---

(١) طبقات الشعراء لابن المعتز ص ٤٢٥ .

(٢) انظر فى الصيمرى وأخباره وأشعاره كتاب الأغانى (طبعة الساسى) ١٨/١٧٣ والفهرست ص ٢٢٢ وتاريخ بغداد ١/ ٢٣٨ ومروج الذهب ٤ / ٩ ومعجم الأدباء ١٧ / ٨ والنجوم الزاهرة ٣ / ٧٤ والوافى بالوفيات ٢ / ١٩١ .

أَسَلُ الذى عطَف المــوا ... كبَ بالأَعنَّة نحو بابكْ
وأَذلّ مــوقفَ العزيـ ... زَ على وقوفى فى رِحابكْ
وأَراك نفسَك مالــكا ... مالم يكن لك فى حسابكْ
أَلاَّ يُطيل تجرُّعى ... غُصَصَ المنيَّة من حجابكْ

وله خبر طويل مع البحترى هجاه فيه وسخر منه سخرية مرة ، إذ حدَّث الرواة أنه كان من عادة البحترى إذا أنشد المتوكل شعره أن يتشادق ويتزاور فى مشيه مرة متقدمًا ومرة متأخراً ويهز رأسه مرة ومنكبيه مرة أخرى ويشير بكمه ويقف عند كل بيت ويقول : أحسنت والله . ثم يقبل على المتوكل ومَنْ فى مجلسه فيقول : مالكم لا تقولون أحسنت ؟ هذا والله ما لا يحسن أحد أن يقول مثله . وكان المتوكل يضجر من ذلك . فأقبل على الصيمرى والبحترى ينشده مدحته فيه :

عن أىِّ ثغرٍ تبتسمْ ... وبأَى طَرْفٍ تحتكمْ

وقال له : أما تسمع ما يقول ؟ فقال له الصيمرى : بلَى . فمُرْنى فيه بما أحببت . فقال: اهْجُه على هذا الرَّوِىِّ ، فحضرتْه على البديهة قصيدةٌ هجاءٍ طويلة من نفس الوزن والقافية ، وفيها يقول :

يا بُحْتُرِىُّ حذار وَيْـ ... لك من قُضاقضة ضَغِمْ[1]
فبِأَىِّ عِرْضٍ تعتصم ... وبهتكه جَفَّ القَلَمْ
ولقد أَسلتَ بوالديـ ... ـك من الهِجا سَيْلَ العَرِمْ
يا بن الثقيلة والثَّقيـ ... ـل على قلوب ذَوِى النِّعم

ومضى يُفْحش فى القصيدة ويُقْذع فيها إقذاعًا قبيحًا . ولا ريب فى أن نَظْمه قصيدة طويلة بهذا النمط على البديهة يدل على شاعرية قوية . وظل خفيفًا على قلوب الخلفاء . يسلكونه فى ندمائهم حتى عصر المعتمد . أو بعبارة أخرى حتى توفى فى عصر هذا الخليفة لسنة ٢٧٥ . وله يهجو طبَّاخه المسمى صالحًا :

---

(١) القضاقضة : الأسد . ضغم : مفترس .

يا طيبَ أيامى بمعشوقٍ ونحن فى بُعْدٍ من السُّوقِ
إذا طلبت الخبز من فارسٍ ينفخ لى صالحُ بالبُوقِ

وله بجانب أهاجيه مدائح لبعض الوزراء ورؤساء الدواوين . ومما احتفظت له المصادر به قطعة فى مديح الحسن بن مخلد وزير المعتمد حين كان يتولى ديوان الضياع للمتوكل ، وهى تطرد على هذا النمط :

زارنى بدرٌ على غُصُنٍ قابلا وَصْلى يقبِّلنى
خلتــه لما أتى حُلُماً وهْو روحى رُدَّ فى بدنى
إن لى عن مثله شُغُلا بمقال الشعر فى الحَسنِ
وأبيه مخلَدٍ فبــهِ قد لبسنا سابغ المِنَنِ
كاتبٌ قَــلَّ النَّظيرُ له فاضلٌ فى العلم واللَّسَنِ

وشعره يسيل عذوبة ، وكأنما كان يقول أكثره ارتجالا . فلا تكلف فيه ولا تعمُّل ، ومع ذلك لا نجد فيه هلهلة فى النسيج ، إنما نجد المتانة التى تجعله سائغًا فى الآذان والأسماع . وله بعض نظرات وتأملات جيدة من مثل قوله :

كم مريضٍ قد عاش من بعد يأسٍ بعد مــوت الطبيب والعُوَّادِ
قد يُصاد القَطَا فينجو سليماً ويحــلُّ القضاءُ بالصيَّادِ

وهى فكرة دقيقة ، فقد يعيش المريض الميئوس من شفائه المبكىّ عليه من محبيه وأودّائه . ويموت الطبيب الصحيح المعافى . وبالمثل قد يصاد طائر ، ويخطف الموت صائده ، بينما تُردّ له حريته ويعود إلى رفرفته فى الهواء طليقًا .

الحمدونى (١)

اسمه إسماعيل بن إبراهيم الحمدونى ، جدّه حَمْدَوَيْه صاحب الزنادقة لعهد الرشيد الذى كان يتعقبهم ويأمر بحبسهم أو محاكمتهم ، ونجد أبناءه وأحفاده فى أواخر العصر العباسى الأول وفى هذا العصر يخدمون الخلفاء ويتخذونهم ندماء لهم . وعُرف إبراهيم أبو اسماعيل بأنه كان ينادم المعتصم ثم الواثق ثم المتوكل ، وكان ابنه أحمد على غراره نديمًا للمتوكل ثم للمستعين . ولا نشك فى أن إسماعيل كان على شاكلة أخيه وأبيه ينادم الخلفاء ، وكل شىء فيه كان يُعِدُّه لهذه المنادمة ، إذ كان فكهًا خفيف الروح ، وكان شاعراً ، وصاحب قصص وأخبار ونوادر مضحكة ، واتجه بشعره إلى الهجاء ، ولكن أى هجاء ؟ الهجاء الذى يَلْسَعُ لَسْعَ الإبَر من مثل قوله فى سعيد بن حميد حين ولى رياسة ديوان الرسائل سنة ٢٤٩ ساخراً منه ومن ملابسه الديوانية الجديدة :

لبس السيفَ سعيدٌ بعد ما ... عاش ذا طِمْرين لا نَوْبَةَ لَهْ
إن لله لآيـــاتٍ وذا ... آيةٌ لله فينا مُنْزَلَـــهْ

فقد جرّده من كل استحقاق للوظيفة وزيِّها والسيف الذى كان يتقلده مَنْ يشغلها لعصره ، فهو خلو من كل كفاءة ، حتى ليعد تعيينه فيها معجزة لله لا يعلم سرها سواه . وكان سعيد ممن أتقنوا فن الكتابة لعصره وبلغوا فيه شأواً بعيداً . ومن هجائه اللاذع قوله فى بَغيض :

سألتك بالله إلا صدقتَ ... وعلمى بأنك لا تصـــدقُ
أَتُبْغِض نفسَك من بُغضها ... وإلا فأنت إذنْ أَحْمَقُ

(١) انظر فى الحمدونى وأخباره وأشعاره طبقات الشعراء لابن المعتز ص ٣٧١ وفوات الوفيات ١ / ٢٤ والأغانى ١٢ / ٦١ وترجمة أخيه أحمد فى معجم الأدباء ٢ / ٢١٧ وتاريخ الطبرى ٩ / ٢٦٤ والعقد الفريد (طبعة لجنة التأليف والترجمة والنشر بالقاهرة) ٢ /٢٩٨ و٣/ ٢٤ ، و ٥ / ٣٤٣ و٧ / ٢٨٧ وديوان المعانى ١ / ٢٧٨ وزهر الآداب ٢٣٣ م وما بعدها

فهو خليق بأن يشترك مع مبغضيه فى بغض نفسه . وكأنما أصبح تمثالا للبغض الكريه ، لا عند الناس فحسب ، بل أهم من ذلك عند نفسه . ويا ويل من كان يسلِّط عليه سهام هجائه ، فإنه كان ما ينى يُرْسلها عليه . وحدث أن ممدوحه أحمد بن حرب المهلبي الذى طالما دبَّج فيه مدائحه وهب له طَيْلَسانًا أخضر لم يرضه ، فمضى ينظم فى طيلسانه مقطوعات . وكلما فرغ من مقطوعة نظم مقطوعة جديدة حتى أكملها خمسين مقطوعة طارت على ألسنة الأدباء والناس فى عصره كل مطار منها :

يا بنَ حَرْبٍ كسوتنى طَيْلساناً ... مَلَّ من صحبة الزمان وَصَدَّا

إن تنفَّسْتُ فيه ينشقُّ شَقًّا ... أَو تَنَحْنَحْتُ فيه ينقدُّ قَدَّا

طال تَرْداده إلى الرَّفْوِ حتى ... لو بعثناه وحده لتهدَّى

وألذع الأبيات البيت الأخير . بل كلها لاذعة . فالطيلسان أكل الدهر عليه وشرب ، حتى لكأنما ملَّ صحبة الدهر ، فقد آن له أن يَبْلَى ويستريح ، وإن أى حركة فيه لتمزِّقه إربًا ، وكل يوم ينخرق فيه خرق ويذهب به إلى دكان الرَّفاء ، حتى لو بعث به إليه لعرف الطريق من طول ترداد سيره فيه . وتنوَّع هجاؤه لهذا الطيلسان القديم البالى ، فهو تارة يضمنه بعض ألفاظ قرآنية من مثل قوله :

طيلسانٌ لابن حربٍ جاءنى ... خلعةً فى يوم نَحْسٍ مستمرّْ

فإذا ما الريحُ هَبَّتْ نحوه ... طيَّرتْه كالجراد المنتشر

وقوله :

فيما كسانيه ابنُ حربٍ مُعْتَبَرْ ... فانظر إليه فإنه إحدى الكُبَرْ

قد كان أَبيض ثم ما زلنا بهِ ... نرفوه حتى اسودَّ من صَدَإِ الإِبَرْ

وتتوالى ألفاظ القرآن فى الأبيات كما هو واضح فى ألفاظ : (فى يوم نحس مستمر) و (كالجراد المنتشر) و (إحدى الكبر) . وكان يعرف كيف يضع اللفظة والآية القرآنية فى مكانها السوىّ. وتارة كان يضمّن هذا الهجاء بعض أبيات شعرية من مثل قوله :

وهبتَ لنا ابن حربٍ طَيْلَسَاناً … يزيد المرءَ ذا الضَّعَةِ اتِّضاعا
ولست أَشكُّ أَنْ قد كان قِدْماً … لنــوحٍ فى سفينته شِرَاعا
وقد غَنَّيْتُ إذ أَبصرت منه … جــوانبه على بدنى تَداعَى
« قِفِى قبل التفرُّق يا ضُباعا … ولا يكُ موقفٌ منك الوداعا »

وسخرية مرة أن يزعم أن هذا الطيلسان العتيق كان شراعًا لسفينة نوح فى أعتق الأزمنة ، وصوَّر نفسه ملتاعًا إزاء تداعيه على جسده نفس لوعة القطامى التى اشتعلت فى صدره عند فراقه لصاحبته « ضُباعة » . وقطع كثيرة كان يتغنى فى نهايتها بأبيات على شاكلة بيت القطامى تصور أساه ، ودائمًا يعرف كيف يختارها ، مما جعل القدماء يقولون إنه كان يحسن التضمين فى شعره سواء لأبيات الشعر أو للألفاظ والآيات القرآنية . ومرَّ بنا فى غير هذا الموضع أن سعيد بن أحمد بن خوسنداذ أهداه شاة هزيلة فمضى يكثر من نظم مقطوعات كثيرة فى تلك الشاة مصوراً هُزالها وبؤسها ، صانعًا نفس ما صنعه بهجاء طيلسان ابن حرب من التضمين لأبيات الشعر المشهورة فى الغزل والحب ، من مثل قوله :

مَــرَّتْ على عَلَفٍ فقامتْ لم تَسِرْ … عنه وغَنَّتْ والمدامعُ تَسْجُمُ
« وقف الهوى بى حيث أنتِ فليس لى … متــأَخَّرٌ عنه ولا متقدَّمُ »

والبيت الثانى من قطعة فى الغزل مشهورة لأبى الشيص كان يعجب بها معاصره أبو نواس إعجابًا شديداً . وعلى الرغم مما كانت منادمة الخلفاء توفّره له من أموال كان يدعى الحاجة وأنه مقتَّر عليه فى الرزق ، واه يشكو ضيق عيشه ، بينما غيره موسَّع له فى الرزق ينعم بأسباب الترف والنعيم :

مَنْ كان فى الدنيـا له شارةٌ فنحن من نَظَّارة الدُّنْيَـا
نَرْمقهـا من كَثَبٍ حَسْرَةً كأَننـا لفظٌ بلا مَعْنَى

وله قصيدة رواها ابن عبد ربه فى العقد الفريد نظمها معارضة للامية تأبط شراً المشهورة ، وفيها يتحدث عن حبه وفتوته وعزمه ومضائه وبأسه وشجاعته من مثل قوله :

هو سيفٌ غِمْدُهُ بُرْدَتَاهُ يَنْتضيـه الحزمُ حين يُسَلُّ
لا يشك السمع حين يراه أنه بالبِيد سِمْعٌ أَزلُّ (١)

وألفاظه فى القصيدة وقوافيه تلتقى مع قوافى تأبط شراً وألفاظه ، وكأنما قصد إلى ذلك قصداً يريد تضمين قصيدته نفس كلماته . وله فى الغزل قطع تصور حبه واوعته فيه وظمأه إلى رؤية محبوبته وما قد يصلاه من عذاب الهجر ونيرانه ، وله فى وصف طروق طيف الخيال فى المنام قطعة جيدة يقول فى تضاعيفها :

وصلَ الحلمُ بيننا بعد هَجْرٍ فاجتمعنا ونحن مفترقـانِ
وكأَن الأَرواح خافتْ رَقِيباً فطـوتْ سِرَّها عن الأَبدانِ

ولعل فى كل ما قدمنا ما يصور خصب شاعريته . ومن أكبر الدلالة على ذلك القطع الكثيرة التى أنشدها فى هجاء شاة سعيد وطيلسان ابن حرب ، وكأنه كان يستمد من نبع لا ينضب رصيده .

---

(١) السمع : الذئب . الأزل : المتولد بين ذئب وضبع

ابن بسام (١)

هو على بن محمد بن نصر بن منصور بن بسام ، من بيت كتابة وأدب ، كان جده نصر يتولى دواوين الخاتم والنفقات والأزمَّة فى أيام المعتصم وهو من ممدوحى أبى تمام ، بينما كان أبوه محمد من ممدوحى البحترى . ويقول المسعودى إنه كان مترفاً حسن الزىّ ظاهر المروءة مشغوفًا بالبناء ، ويَرْوِى عن بعض معاصريه ما يصوّر بذخه فى بناء داره وفى ثيابه وطعامه وشرابه . وكان قد تزوج أمامة بنت حمدون النديم ، والحديث عن بنى حمدون فى المصادر مضطرب ، ويبدو أنها كانت أخت إسماعيل المترجم له آنفًا ، ومنها أنجب ابنه عليًّا ، وقد عُنِى بتربيته أبوه ، حتى أصبح شاعراً ، وحتى أصبح التأليف إحدى هواياته . ويروى له ابن النديم ومترجموه كتبًا مختلفة عن عمر بن أبى ربيعة والأحوص ومناقضات الشعراء ، ويذكرون له ديوان رسائل ، مما يدل على أنه كان كاتبًا كما كان شاعراً . ونراه يتجه منذ نشأته بشعره نحو الهجاء ، وقد يكون لخاله الحمد وفى أثر فى ذلك . وكان شيعيا ، وربما كان لتشيعه أثر فى ذلك أيضًا ، فقد كان الشيعة ناقمين على الدولة والناس انصرافهم عنهم ، بل كانت نقمتهم على الدولة أشد وأدهى ، للزجّ بهم فى السجون وتقتيلهم ، وكأنما اتخذ الهجاء سلاحًا له ضد الخلفاء والمجتمع ويبدو أن أباه كان مواليًا للعباسيين ، ولعل هذا هو السر فى كثرة أهاجيه له ، حتى عُدّ فى العققة الذين لا يبرّون آباءهم بل يجحدون فضلهم ، وله فى أبيه أهاج كثيرة من مثل قوله فيه وكان يكنى أبا جعفر :

بَنَى أبو جعفرٍ دارًا فشيَّدها ومثلُه لخيار الدُّور بَنَّاءُ
فالجوع داخلَها والذلُّ خارجَها وفى جوانبهــا بُؤْسٌ وضَرَّاءُ

وكانت قصراً عظيمًا يدور من حوله بستان وتلمع أمامه بركة ويموج بالغزلان والطيور البهيجة الألوان . ويتمادى فى هجائه له حتى ليقول فيه وفى داره أيضًا :

---

(١) انظر فى ابن بسام وأخباره وأشعاره الفهرست ص ٢٢٠ ومعجم الشعراء ص ١٥٤ وتاريخ بغداد ٢ / ٦٣ ومروج الذهب للمسعودى ٤ / ٣٠٦ وما بعدها وزهر الآداب ٣ / ٨٧ وما يليها وذيل زهر الآداب ص ١٨٠ وديوان المعانى ٢ / ٢٣ ، ٢٣٤ والنجوم الزاهرة ٣ / ١٨٩

شِدْتَ دارًا خِلْتَها مكرُمَةً ... سلَّط اللهُ عليها الغَرَقا
وأرانيك صريعاً وَسْطها ... وأرانيها صَعيدًا زَلَقا[1]

صورة سيئة من العقوق أن يتلقى من أبيه الحياة ، فلا يشعر بأن له عليه دَيْناً إذ منحه الوجود وقام على تربيته، بل لكأنما جَنَى عليه جناية لا تغتفر، ولا يمكن أن يزيلها عن نفسه ويمسح أوضارها عن جسده إلا اللعنات يصبُّها على أبيه . ومضى يصبها على الخلفاء والوزراء والكتَّاب وكبار رجال الدولة غير هيَّاب ولا وجل، بل لكأنما كان يبحث عمن ينتقم منه ويطير به طيرة بطيئًا سقوطها . وكان من أوائل من تعرض لهم بالهجاء الموفق صاحب البلاء العظيم فى حروب الزنج والصفار . ونراه ينظم فيه وفى ولاته ووزرائه وموظفيه قصيدة يستهلُّها بقوله :

أيرجو الموفَّقُ نصرَ الإلٰهِ ... وأمــرُ العبادِ إلى دَانِيَــهْ

ويأخذ فى هجاء ولاته من مثل الطائى أمير البصرة وإسحق بن عمران أمير الكوفة ووزرائه من مثل إسماعيل بن بلبل ، وصاعد بن مخلد وكان نصرانيًّا وأسلم واستوزره الموفق ، ويصيح :

فخلِّ الزمــانَ لأوغادِهِ ... إلى لعنة الله والهــاويه

ويُظلُّه عصر المعتضد المعروف بجبروته وأنه كان يلقى الأسد وحده وأنه إذا غضب على قائد أمر أن تُحفَر له حفيرة ويُلقَى فيها وتُطَمّ عليه ، ومع ذلك نراه لا يخاف بطشه ولا يخشى بأسه . إذ نراه يتعرض له بالهجاء ، وتارة يقذع فيه وتارة يخز وخز الإبر من مثل قوله فى احتفاله بختان ابنه المقتدر :

انصرف الناس من ختانٍ ... يَرْعَــون من جُوعهم خُزامى[2]
فقلت لا تعجبوا لهذا ... فهكــذا تُخْتَنُ اليتامى

وهو يصفه بالبخل الشديد وأن احتفاله بهذا الختان كان بائسًا ، حتى لكأنما هو ختان بعض اليتامى الذين لا يجدون من يتيح لهم احتفالا عظيمًا بختانهم .

---

(١) صعيداً زلقا : أرضا ملساء .

(٢) الخزامى : من أزهار البادية

وتراه يكثر من هجاء إسماعيل بن بلبل ، على نحو ما أكثر من هجاء صاعد ابن مخلد ، وفيه يقول :

سجدنا للقرود رجـــاءَ دُنْيا حَوَتْها دوننا أَيدى القرودِ
فما نالت أَناملُنا لشيءٍ عملناه سوى ذل السجودِ

وكان نصيب عبيد الله بن سليمان بن وهب وزير الموفق وأخيه الخليفة المعتمد من أهاجيه كبيراً ، تارة يصفه بخطل الرأى ، وتارة يهدده بسوء المصير . وتراه ينتهز فرصة وفاة ابنه الحسن فيهجو ابنه القاسم ، مادحاً للحسن حتى يملأ نفس القاسم غيظاً وحنقاً إذ يقول :

قُلْ لأَبى القاسم المرجىّ قابلك الدهرُ بالعجائبْ
مات لك ابنٌ وكان زَيْناً وعاش ذو الشَّيْن والمعايب
حياة هذا كموت هذا فلستَ تخلو من المصائب

ولاكت الألسنة البيت الأخير وسمعه المعتضد فنصح وزيره القاسم أن يوظفه فى عمل وأن يبرّه ويصله حتى يكفّ عن هجائه ، فولاّه بريد الصَّيْمَرة وما والاها ، وقيل بل ولاه بريد قنَّسْرين والعواصم ، وبقى فى عمله إلى آخر أيام المعتضد ، ويبدو أن العباس بن الحسن وزير المكتفى رأى الاستغناء عنه ، ولعله لذلك أكثر من هجائه ، ومرّ بنا بعض هذا الهجاء فى حديثنا عن نشاط الشعر ، وفيه يقول :

تحمَّل أَوزارَ البريَّةِ كلَّها وزيرٌ بظلم العالمين يُجاهِرُ

واتخذ من شعره سياطاً يلهب بها ظهور ابن الفرات والخاقانى وزيرى المقتدر وله فى الأخير أهاج كثيرة تصور خياناته لأموال الأمة وما كان يدفع إليه الناس من تقديم الرشوة فى كل عمل يحققه لهم ، وسبق أن عرضنا بعض هذا الهجاء فى حديثنا عن فساد الحكم حينئذ . وكانت له مناقضات مع الشعراء يقصد بها إلى الدعابة ، ومرّ بنا فى حديثنا عن ابن المعتز أنه نظم فيه مقطوعة دالية داعبه فيها واصفاً ثقله ، ونرى ابن بسام يردّ عليه بقوله على نفس طريقته :

فقدتُك يا قَذاةً فى شرابِ　　دخلتَ من الدناءة كلَّ بابِ
وأثقل — حين تبدو — من رقيبٍ　　وأكذب — حين تنطق — من سَرابِ
وأغدر للصديق من الليالى　　وأنْكَى للقلوب من العتاب

وكان يناقض جحظة البرمكى كثيراً . وكان على غراره كثير الهجاء ، وكان قبيح الخلقة تقتحمه العيون ، وصوَّر ذلك ابن بسام عابثًا به وبقبحه ، إذ يشكره على إقباله عليه بدابّته وانصرافه عنه بوجهه الذميم ، يقول :

لِجَحْظةَ المحسنِ عندى يَدٌ　　أشكرهـا منه إلى المحشَرِ
لما أرانى وجه بِرْذَونه　　وصـانـنى عن وجهه المنكر

وعلى هذا النحو لم يسلم من هجاء ابن بسام خليفة ولا وزير ولا أمير ولا صغير ولا كبير ، بل لم يسلم منه أبوه وأهل بيته . وله وراء هذا الهجاء مديح لبعض الوزراء مثل ابن مُقْلة ونعت لبعض الأزهار مثل النرجس ، وله فى الزهد وفناء الحياة أبيات طريفة تجرى على هذا النمط :

أَقْصَرْتُ عن طلب البَطالة والصِّبا　　لمـا علانى للمَشِيب قِناعُ
لله أيامُ الشـباب ولهـوه　　لو أن أيام الشبـاب تُبَاع
فدَعِ الصِّبا يا قلبُ واسْلُ عن الهَوَى　　ما فيك بعد مشيبك استمتاع
وانظرْ إلى الدنيا بعين مودِّع　　فلقد دنا سَفَرٌ وحان وداع
والحادثاتُ موكَّلاتٌ بالفتَى　　والنـاسُ بعد الحادثات سماعُ

والأبيات تصوِّره قد وخَطَه الشيب وأخذ يفكر فى غَده ويستعدّ لمصيره ، بعد تلك الرحلة الطويلة التى كان يجاهد فيها مجتمعه بأهاجيه حتى وفاته سنة ٣٠٣ للهجرة . ومن المؤكد أن أهاجيه تصور العصر فى صورة أدق من تلك التى يصورها المديح ، وأن الحياة فيه لم تكن صافية ولا رائقة ، بل كانت كدرة قاتمة ، اختلّت فيها الموازين والقيم اختلالا شديداً .

الفصل السابع

طوائف من الشعراء

١

شعراء الغزل وشاعراته

ظل تيَّار الغزل حادًّا فى العصر ، وظل الشعراء ومن كان ينْطق به من الجوارى ينظمونه ، مضيفين فيه كثيراً من الخواطر والمعانى ، ويخيَّل إلى الإنسان كأن كل من شدَا بالشعر نظم فيه ، مصوِّراً ألوانًا من هذا الحب الذى كان يستأثر بالنفوس ويملك عليها من أمرها كلَّ شىء . وكانوا ينظمونه فى نفس الاتجاهين اللذين عرضنا لهما فى العصر العباسى الأول ، ونقصد اتجاه الغزل الصريح واتجاه الغزل العفيف ، وكان الاتجاه الأول هو الغالب على الشعراء ، بسبب كثْرة الإماء ودور النخاسين التى كانت تزخر بالجوارى من كل جنس : روميات وفارسيات وغير فارسيات وروميات . ويصور الجاحظ فى رسالته الخاصة بالقيان مدى ما كنَّ يُشِعْن فى جوّ بغداد من التحلل الخلقى ، فكان طبيعيًا أن تَنْفُقَ سوق الغزل المادى ، وخاصة أن القيان والجوارى كن يُكْثِرن من التغنّى به على إيقاعات الطبول والآلات الموسيقية ، فسَعَّرْن قلوب الشعراء شبانًا وكهولا ، ولم يعودوا يستطيعون أن يردُّوا أنفسهم إلى شىء من القَصْد ، فقد أخذ الحب الصريح يثور فى نفوسهم وأخذوا يعبرون عنه تعبيراً صريحاً حُرًّا ، بل حارًّا له حرارة الحُمَّى .

وظل اتجاه الغزل العفيف النقى الطاهر حَيًّا بجانب هذا الاتجاه ، وكانت تمده أسراب كثيرة من غزل العُذْريين فى العصر الأموى ومن غزل مَنْ ساروا فى دروبهم من شعراء العصر العباسى الأول أمثال العباس بن الأحنف ، غزل له حُمَّاه ولكن بثوره لا تظهر على الجسد ، غزل قوى حار ، لا يعرف المتاع المادى ولا اقتطاف زهرات الحب وثماره ، إنما يعرف ناره المحرقة كما يعرف الحرمان والشقاء به ، مهما أمَّل صاحبه ومهما استعطف ومهما تضرَّع ، فليس

هناك إلا العذاب وإلا تجرُّع الغصص واحتمال الأهوال والآلام ، ولا مشفق ولا رحيم .

وعلى هذا النحو ظل الغزل الصريح بجوار الغزل العفيف ، يَحْيَى معه هذه الحياة التى تضيف إليه خصبًا فوق خصب . إذ كان الغزلون الماديون يستمدون دائمًا من مخازن الغزل العفيف كثيراً من المعانى التى تصور لوعات الحب وعذابه . ولن نستطيع أن نعرض طرائف النوعين . فقد مرت من ذلك لمحة ، إنما يكفى أن نذكر شيوعهما على ألسنة الناس جميعًا من خلفاء ووزراء وولاة وكتّاب ورجال ونساء ، مكتفين ببعض النماذج والأمثلة . وأكبر شاعر بين الخلفاء — وإن لم تبق خلافته سوى يوم وليلة — هو ابن المعتز . ومرّ بنا حديث مفصّل عنه . وكان عمه المنتصر شاعراً . وله قطع مختلفة فى الحب ، كان يطرحها على المغنين ويوقعونها على آلات الطرب . وفى مقدمتهم مغنيه بنان . ومما غنّاه به قوله[1] :

رأيتك فى المنام أقلَّ بُخْلاً وأَطوعَ منك فى غير المنـــامِ
ولو أن النعاسَ يُباع بَيْعاً لأَغليتُ النعاسَ على الأَنام

وكان أشعر منه الخليفة الراضى ، وكان له ديوان شعر سقط من يد الزمن ، وروى له الصولى فى كتابه : « أخبار الراضى بالله والمتقى بالله » طائفة كبيرة من أشعاره . وله قطعة تداولتها الكتب فى ترجمته وهى فى وصف جارية مغنية كان يُفْتَتَنُ بها ، وتجرى على هذا النمط[2] :

قد أَفصحتْ بالوتَر الأَعْجَمِ وأَفهمتْ مَنْ كان لم يَفْهَمِ
جاريةٌ تحبُّ من لُطْفِها مخاطَباً ينطق لا من فَمِ
جَسَّتْ من العود مجارى الهوى جَسَّ الأَطباءِ مجارى الدَّمِ

وكثير من الوزراء كانوا شعراء ، ومعروف أنهم كانوا يُخْتارون من صفوة كتّاب الدواوين . وكان كثير منهم يسيل الشعر على لسانه ، فيعبِّر به عن عواطفه

---

(١) مروج الذهب ٤/ ٤٨ .
(٢) معجم الشعراء ص ٤٣١ وفوات الوفيات ٢/٣٧٦ .

ومشاعره وأهوائه ، وطبيعى أن يوقد الحب فى نفوسهم الجذوة التى طالما أوقدها فى نفوس المحبين ، فإذا هم ينظمون قطعًا من الأبيات يسجلون بها بعض خواطرهم ، من مثل قول الفتح بن خاقان وزير المتوكل[١] :

أيها العاشقُ المعذَّب صَبْرًا   فخطايا أخى الهوى مغفورَهْ
زفرةٌ فى الهوى أحطُّ لذنبٍ   من غزاةٍ وحِجَّةٍ مَبْرُورَه

وكان سليمان بن وهب وزير المهتدى يحسن الشعر ونظمه ، وله فى الأغانى ترجمة طويلة ومثله القاسم حفيده وزير المعتضد كان يصوغ بعض خواطره شعراً، وروى له المرزبانى مقطوعات متعددة فى الحب من مثل قوله[٢] :

كئيبٌ حزينٌ واكفُ الدَّمعِ هامِلُهْ   تخوَّنه من آجلِ البَيْنِ عاجِلُهْ
جريحُ صدودٍ قد أضرَّ به الهَوَى   ورقَّ له عُوَّادُه وعَوَاذِلُه

واشتهر بعض كبار رجال الدولة من الولاة ورؤساء الدواوين ممن كانوا يحسنون الشعر بحب عنيف كان يحتل أفئدتهم ويستأثر بكل ما فيهم من عواطف ومشاعر ، وفى مقدمتهم إبراهيم بن المدبر وسعيد بن حميد وعبيد الله بن عبد الله بن طاهر ، وقد تولى إبراهيم — كما مرَّ بنا — ولايات مختلفة منها ولاية البصرة ورأس بعض الدواوين التى كان يعمل بها منذ زمن المتوكل وكان يهوى عَرِيب ولهما أخبار كثيرة ساقها أبو الفرج الأصبهانى فى ترجمته لكل منهما[٣] . كما ساق كثيراً مما كان بينهما من المعاتبات والمحاورات ، ومن قوله فيها[٤] :

زعموا أنى أحب عَرِيبَا   صدقوا والله حُبًّا عجيبا
حلَّ من قلبى هواها محلاًّ   لم تَدَعْ فيه لخلقٍ نصيبا
هى شمسٌ والنساءُ نجومٌ   فإذا لاحتْ أَفَلْنَ غيوبا

وهو فى هذه الأبيات يصرِّح بأنه لا يشرك معها جارية فى حبه وهيامه ، ولكن

---

(١) معجم الشعراء ص ١٩١ .
(٢) معجم الشعراء ص ٢٢٠ .
(٣) أغانى (طبعة الساسى) ١٨ / ١٧٥ ، ١٩ / ١١٤ .
(٤) أغانى ١٩ / ١٢٤ .

يبدو أنه كان يشرك معها من حين إلى حين أخريات ، كن يأسرنه بجمالهن وفتنتهن وما يزرعن فى القلوب من الهوى مثل جارية تسمى نبتا ، كانت من الجوارى القيان ، وفيها يقول[١] :

نَبْتٌ إذا سكتتْ كان السكوتُ لها زَيْناً وإن نطقت فالدرٌّ ينتثرُ
وإنما أقصدتْ قلبى بمقلتها ما كان سهمٌ ولا قوسٌ ولاوتَرُ

وكان سعيد بن حُمَيْد يعمل فى الدواوين ، وأُسندت إليه رياسة ديوان الإنشاء فى عهد المستعين ، واشتهر بتبادله الحب مع فضل الشاعرة ، وسنعرض فى ترجمتها لما كان بينهما من محاورات شعرية طريفة ، وله فيها غزل كثير بديع من مثل قوله يشكو السهاد وطول الليل[٢] :

يا ليل بل يا أَبَدُ أنائمٌ عنك غَدُ
يا ليل لو تلقى الذى ألقى بها أو تَجِدُ
قصَّر من طولك أو ضُعِّفَ منك الجلَدُ
أشكو إلى ظالمةٍ تشكو الذى لا تجد
وَقْفٌ عليها ناظرى وَقْفٌ عليه السُّهُدُ

وعُرف عبيد الله بن عبد الله بن طاهر حاكم بغداد بأن قينة تسمى شاجى شَغَفَت قلبه حبًّا ، فنظم فيها شعراً كثيراً ، وتزوجها وظل يهيم بها ويشملها بحبه وعطفه وحنانه ويكْلف بها كلفًا شديداً ، كما كان يكلف بها قبل زواجه وفى شبابه ، وإلى ذلك يشير بقوله[٣] :

زرعتُ وشاجى بيننا فى شبيبتى غِراسَ الهوى فاعتمَّ بالثمر العَذْبِ

وماتت قبله ، فظل يبكيها بكاء مرًّا ، جازعًا عليها جزعًا لم يُرَ مثله ، وظل يزور قبرها وهو ينوح عليها ويتفجع بمثل قوله[٤] :

---

(١) أغانى ١٩ / ١١٧ وأقصدت : جرحت .
(٢) المختار من شعر بشار ص ١٨ .
(٣) كتاب الديارات ص ١١١ .
(٤) الأغانى (طبعة الساسى) ٨ / ٤٣

يميناً بأنى لو بُليتُ بفَقْـدها　　وبى نَبْضُ عِرْقٍ للحياة وللنكْسِ
لأوشكتُ قتل النفسِ عند فراقها　　ولكنها ماتتْ وقد ذهبتْ نفسى

وكثير من الجوارى فى العصر كن ينظمن الشعر ويحسنّ نظمه ، وكُنّ — كما مرّ بنا فى غير هذا الموضع — يكتبن أبياتًا منه على طُررهن وعصائبهن وجوانب ثيابهن ، فيوقدن الحب فى قلوب الرجال ويشعلنه إشعالا . ونرى ابن المعتز يفرد لمجموعة منهن صحفًا فى كتابه طبقات الشعراء المحدثين ، ويذكر بينهن عريب وفضلا الشاعرة ، والخنساء جارية هشام المكفوف . ومن الجوارى اللائى كن يحسنّ الشعر إحسانًا بعيداً محبوبة جارية المتوكل ، وكانت قد أُدّبت وثُقفت ، وتمرنت على قول الشعر حتى أحسنته . وكانت تلحّنه وتغنى به على العود . وكانت تحلّ من قلب المتوكل محلا رفيعًا ، ويُرْوَى أنه غاضبها ذات يوم ، ولم يلبث قلبه أن نازعه إليها ، فاقترب من حجرتها ، فإذا هى تضرب على عود وتغنّى على ضَرْبها مصوّرة لوعتها من خصامه ومغاضبته و أنها لا تطيق الصبرعن لمائه[١] :

أدور فى القصر لا أرى أحدا　　أشكو إليه ولا يكلمنى
حتى كأنى أتيت معصيةً　　ليس لها توبةٌ تخلّصنى
فمَنْ شفيعٌ لنا إلى ملكٍ　　قد زارنى فى الكرى وصالحنى
حتى إذا ما الصباح عاد لنا　　عـاد إلى هجره وقاطعنى

فصفّق المتوكل طربًا ، ودخل إليها ، وتصالحا . ويُرْوَى أنه رأى ذات يوم جارية من جواريه كتبت على خدها بالمسك اسمه : « جعفراً » . فأعجبه ذلك وتمنى لو صوّر ذلك شاعر من شعرائه : البحترى أو على بن الجهم أو مروان بن أبى الجنوب ، وبادرت محبوبة ممسكة بعودها ، وتغنّت[٢] :

وكاتبةٍ فى الخدّ بالمسك جعفرًا　　بنفسى محطُّ المسك من حيث أثّرا

---

(١) مروج الذهب ٤ / ٤٣ والأغانى (طبعة الساسى) ١٩ / ١٣٤ .

(٢) مروج الذهب ٤/٤٢ .

لئن أودعتْ خطًّا من المسك خدَّها لقد أودعتْ قلبي من الوجد أسطُرا

فيا من لمملوكٍ يظلُّ مليكـــه مطيعاً له فيما أسرَّ وأظهرا

وهى من أبيات قالتها على البديهة مما يدل على شاعرية جيدة . وكانت محبوبة وأضرابها يتطارحن مع الشعراء خواطرهن الرقيقة ، وليس من ريب فى أنهن عملن على أن يعبر الشعراء فى الحب عن حس دقيق وذوق مرهف . ونعرض بالتفصيل ثلاثة : شاعرين وشاعرة اشتهروا بكثرة ما نظموا من الغزل فى العصر ، وهم خالد ابن يزيد الكاتب، ومحمد بن داود، وفضل .

خالد[1] بن يزيد الكاتب

كان أحد كتَّاب الجيش ، وأصله من خراسان ، وليس بين أيدينا عنه أخبار كثيرة ، وأول ما يلقانا من أخباره أنه كان على ديوان النفقات فى الجيش الذى خرج بقيادة على بن هشام أحد قواد المأمون للقضاء على فتنة بمدينة « قم » الفارسية وفى الطريق بلغ عليًّا أنه شاعر فأحضره وأنس به واتخذه فى ندمائه . ولما وزر الفضل بن خالد للمعتصم قَرَّبه منه ، حتى إذا أخذ المعتصم فى بناء سامرًّا بادر خالد ينظم مقطوعة يشيد فيها بالخليفة وبناء تلك المدينة العظيمة ، ونقلها الفضل إلى المعتصم فسُرَّ بها ، وأمر لخالد بخمسة آلاف درهم . وينظم فيه وفى المدينة أشعاراً أخرى ويغنِّى المغنون المعتصم بها ، وينثر على خالد جوائزه . وظل قريباً منه ومن وزيره محمد بن عبد الملك الزيات . ولا نقرأ له أشعاراً فى مديح الخلفاء فى العصر مع أنه عاصر منهم المتوكل والمنتصر والمستعين والمعتز والمهتدى والمعتمد، إذ يقال إنه توفى سنة ٢٦٢ وقيل بل سنة ٢٦٩ . ويقول مترجموه إنه قصر نفسه على الغزل فكان لا ينظم إلا فيه، ولا يُعْنَى بمديح ولا هجاء ، ومع ذلك نجد له بعض الهجاء القليل فى بعض منافسيه من الشعراء ، غير أنه لم يبرز فيه فانصرف عنه ، وقصر نفسه على الغزل ، ويقال إنه وسوس واختلط عقله

---

(١) انظر فى ترجمة خالد وأشعاره الأغانى (طبعة الساسى) ٢١ / ٣١ وطبقات الشعراء لابن المعتز ص ٤٠٥ وتاريخ بغداد ٨ / ٣٠٨ والديارات (انظر الفهرس) ومعجم الأدباء ١١ / ٤٧ والنجوم الزاهرة ٣ / ٣٦ وله ديوان مخطوط بالمكتبة العمومية بدمشق

فى أواخر حياته . ويُجْمع من ترجموا له على أنه لم يكن يتجاوز فى الغزل أربعة أبيات ، وكأنه كان يرى الزيادة عنها فضلا ، ويقول ابن المعتز : شعره حسن جداً ، وليس لأحد من رقيق الغزل ماله ، وينشد من غزله قوله :

وضَع الدموعَ مواضعَ الحُزْنِ   حَىٌّ السهاد وميِّتَ الجَفْنِ
عَبَراتُه نُطُقٌ بما ضَمِنَتْ   أحشـــاؤه ولسانُه يَكْنى
فى كل جارحةٍ له مُقَلٌ   تبكى على قلبٍ له رَهْنِ
لم يَدْرِ إلا حين أسلمه   قَدَرٌ للحظة واحدِ الحُسْنِ

والأبيات فيها دقة فى التفكير وفيها خيال بعيد، وتعبيره بميت الجفن تعبير غريب، ومثله فى الحسن تعبيره عن الجوارح بأن لها مقلا تبكى على قلبه الذى رهنته منه صاحبته ، وأيضاً تعبيره عن صاحبته بأنها واحدة الحسن ، وكأنه كان يحاول أن يأتى بأفكار مبتكرة ، من مثل قوله :

كيف خانتْ عينُ الرقيب الرقيبا   أخطـــأتنى لما رأيتُ الحبيبا
رحمتْنى فساعـــدتنى فقبَّلْـ   ـتُ بعينى مع الحبيب الرقيبا

فهو لا يشكو من الرقيب على عادة الشعراء ، فالرقيب قد رحمه وساعده ، وقلبَ الشكوى المنتظرة شكراً ، وإذا كان الشعراء ألموا بالليل ووصف استطالته شاكين من ذلك متبرمين فإنه يعترف بأن ليل المحبين دائماً طويل لسهادهم المستمر ، يقول :

رقدتَ ولم تَرْثِ للسَّاهرِ   وليلُ المحب بـــلا آخرِ
ولم تَدْرِ بعد ذهاب الرقا   دِ ما صنع الدمعُ بالناظـــر

وهو ليس سهاداً فحسب ، بل هو سهاد ودموع وإحساس عميق بظلام لا ينتهى ، وصاحبته بجانبه ولا تدرى ما يعانى من عذاب الحب المبرّح ، وهو يتجرع غصص حبه محتملا مقاوماً ، والصباح كأنما ضل طريقه ، فعم الكون ليل لا آخر له ، ومن قوله :

قد استعار الحسنُ من وجههِ   والغصْنُ الناعمُ من قَـدِّهِ
وقد تعاتبنـا بأَبصـارنا   فيما جناه الخُلْف من وعدهِ
حتى تجارحنا بتكرارنا   للَّحْظ فى قلبى وفى خدِّهِ
فأَدرك الثأْر وأَدركتـه   وسرَّنى بالصَّدِّ عن صَدِّه

فمنها يستعير الحسن جماله والغصن قدّه وقوامه ، وهما يتعاتبان عتابًا رقيقًا ، ويكرران النظر ، وكأنما يؤلم طرفه خدّ صاحبته ويترك فيه أثراً من طول تكراره ، أما طرفها فيؤلم قلبه بما يرسله من سهامه التى تجرحه فى الصميم . وكأنما كل منهما ظفر من صاحبه بثأره ، ولكن شتان ما بين الثأرين : ثأر يجرح الخدود وثأر يجرح القلوب . ويختم الأبيات بفكرة طريفة إذ يقول إنها صدّت عن الصد وانصرفت عن الهجر . وكان يلمّ أحيانًا ببعض الأديرة أو يفضى إلى تعاطى بعض كئوس الخمر ، أو لعله كان يذكر ذلك على سبيل الدعابة ، وكان يمزج هذا الحديث بغزله على عادته ، فالغزل دائمًا مبتغاه من شعره على نحو ما نرى فى قوله :

رأتْ منه عينى منظرين كما رأت   من البدر والشمس المضيئة بالأَرضِ
عشيَّة حيَّانى بوردٍ كأَنَّه   خدودٌ أُضيفتْ بعضُهن إلى بَعْضِ
وناولنى كأْساً كأَنَّ رُضَابَها   دموعىَ لما صَدَّ عن مقلتى غُمْضى
وولَّى وفعلُ السُّكْر فى حركاتهِ   من الراح فعلُ الرِّيح بالغصُن الغَضِّ

وتشبيه الورود المجتمعة بخدود المحبين ، وقد تلاصقت وسرى فيهم الخجل ، نوَّه به القدماء طويلا . وهذه الكأس التى ناولها صاحبته كأس المحبين التى طالما شربوا منها لا الخمر وإنما الدموع ، دموعهم التى لا تجف والتى ماتنى تسقط فتمتلئ منها كئوسهم التى لا يعرف الناس أتمتلئ شرابًا أم ناراً . وله :

إذا كنت فى كُلِّى بكُلِّك مُفْرَغاً   فأَىُّ مكانٍ من مكانك أَلطفُ
فمِنِّى إذا ما غِبْتَ فى كل مَفْصِلٍ   من الشوق داعٍ كلما غِبْتَ يهتف

فهما روحان فى جسد ، وهو يحس فراغًا لا حدّ له إذا غابت عنه ، وكأن كل

جزء فيه ينفقد تمامه ، فهو ماينى يهتف بها حتى يستكمل وجوده ، فقد غاب نصفه وهويتبعه ،ويتبعه قلبه من ورائه؛ قلبه الممزق مثل مفاصله ،ومثل كبده الجريح ، يقول :

كبدٌ شفَّها غليلُ التَّصابى بين عَتْبٍ وَسَخْطَةٍ وعَذابِ
كلَّ يوم تَدْمَى بجرحٍ من الشو ق ونوعٍ مجدَّدٍ من عــذاب
ياسقيمَ الجفون أسقمتَ جسمى فاشْفِنِى كيف شئت ،لابك مابى

فهو يَصْلَى نيران العتاب والسخط ، وكل يوم يتجدد جرحه ويتجدد عذابه ، وقد أعداه مريض الجفون ولكن لا فى جفونه وإنما فى جسمه بما أصابه به من نحول وذبول وهزال وضَنًا . ومن أرق الدعاء قوله فى آخر الأبيات : «لا بك ما بى» . وتدور له فى كتب الأدب أبيات مفردة تروع بخفتها وطرافة فكرتها من مثل قوله :

كيف تُرْجَى لذاذة الإغماضِ لمريضٍ من العيــون المراضِ

وقوله :

ليت مــا أصبح من رقّـ ـة خــدَّيك بقلبك

وقوله :

وبكى العاذلُ من رَحْمتى فبكائى لبُــكا العاذلِ

ولعل فى كل ما أسلفنا مايدل أوضح الدلالة على صدق كلمة ابن المعتز عنه من أنه يبلغ الغاية فى رقة الغزل . وجعله ذلك مألفًا لكثير من معاصريه أمثال على بن المعتصم . وكان كثيرون يدعونه إلى مجالسهم ليسمعوا منه غزله ويطرحوه على المغنين والمغنيات ، ليكتمل الأنس والطرب ، ونحس دائمًا أنه ظامئ إلى لقاء محبوبته ، ويقال إنه فعلا أحب جارية فى مطالع حياته ، ولم يستطع لقاءها وقد ظل ظامئًا إلى هذا اللقاء حتى مماته .

محمد[١] بن داود الظاهرى

أبوه داود بن على بن خلف الأصفهانى مؤسس المذهب الظاهرى فى الفقه ، أصله من الكوفة ودرس ببغداد ، واعتنق مذهب الإمام الشافعى ، ومضى يجتهد حتى استطاع أن يؤسس له فى الفقه مذهبًا مستقلا عن المذاهب الأربعة : المذهب الحنفى والمالكى والشافعى والحنبلى . وقد أقامه على رفض القياس والرأى والتقليد للأئمة المذكورين واشتقّ الأحكام الفقهية من ظاهر الكتاب والسنة ، ولذلك سُمى مذهبه باسم المذهب الظاهرى . وعُنى بتربية ابنه محمد ، وبدأ من ذلك بتحفيظه القرآنَ ، ويقال إنه حفظه وله سبع سنوات . ثم دفعه إلى التأدب على ثعلب الإمام اللغوى والنحوى المشهور ، وهو يروى فى كتاب الزهرة كثيراً من الأشعار عنه . ولزم حلقة أبيه وتمثَّل مذهبه ولما توفى سنة ٢٧٠ كان لا يجاوز السادسة عشرة من سنه ، فخلفه على رياسة المذهب ، ومضى يحاور ويجادل فيه العلماء وخاصة ابن سريج إمام المذهب الشافعى فى عصره . وكانت حلقة تدريسه تغصّ بالطلاب ، وله مصنفات مختلفة فى المذهب الظاهرى . ومن أهم مصنفاته كتاب الزهرة الذى عُنى نيكل وإبراهيم طوقان بنشر جزئه الأول . والكتاب كله مائة باب جعلها فى جزءين خصّ الأول منهما بالحب العذرى العفيف ، وهو يتضمن خمسين بابًا فى كل باب مائة بيت من الشعر . وبالمثل أبواب الجزء الثانى الخمسون . فكل منها يشتمل على مائة بيت . وأهمها ما دار فى تعظيم أمر الله عز وجل والتنبيه على نعمه وقدرته والتحذير من سطوته . ويهمنا فى حديثنا عن الغزل الجزء الأول ، وهو فى الأبواب الأولى منه يتحدث عن أسباب الهوى ، ثم يتلوها بأحواله من الفراق والشوق ويخص الأبواب الأخيرة بالحديث عن الوفاء ، وعادة يضع للباب عنوانًا مسجوعًا مثل « مَنْ كثُرتْ لحظاته دامت حسراته » و « ليس بلبيب مَنْ لم يصف ما به لطبيب » و « التذلل للحبيب من شيم الأديب» . وهى عناوين غير مضبوطة ،

---

(١) انظر فى حياة ابن داود وأشعاره تاريخ بغداد ٥/ ٢٥٦ ومروج الذهب للمسعودى ٤ / ٢٠٥ وابن خلكان والوافى بالوفيات للصفدى ٣ / ٥٨ ومرآة الجنان لليافعى ٢ / ٢٢٨ وطبقات الشافعية للسبكى فى ترجمة ابن سريج ٣ /٢٣ وما بعدها ، وطُبع له الجزء الأول من كتاب الزهرة ببيروت .

وبالمثل ما يليها من الأشعار، ولاحظ هو نفسه ذلك فقال إنه اضطُرَّ لأن يضيف إلى البيت المتصل بموضوع الأبيات أبياتًا أخرى حتى لا يكون مبتوراً . والأبيات أو قل الشواهد فى الأبواب تمتد على طول الزمن من العصر الجاهلى حتى عصره . وقد بدأ بتأليف الكتاب فى حياة أبيه وهو لا يزال حَدَثًا ، وفى ذلك يقول : « بدأت بعمل كتاب الزهرة وأنا فى الكُتَّاب ونظر فى أكثره » . وكان فطنًا ذكيًّا نافذ البصيرة كما كان شاعراً . ويُرْوَى أن شخصًا سأله فى حلقته عن حد السكر متى هو؟ ومتى يكون الإنسان سكران؟ فأجابه: إذا عزبت عنه الهموم، وباح بسره المكتوم . وفى هذه الإجابة ما يدل على أنه كان ظريفًا . ويُرْوَى أيضًا أن رجلاجاء إلى حلقته فدفع إليه ورقة ، فأخذها وتأملها طويلا ، وظن تلامذته أنها مسألة فقهية، وقلبها وكتب فى ظهرها الإجابة ، فراجعوها . وخاصة حين عرفوا أن الرجل هو ابن الرومى الشاعر المشهور ، وإذا فى الرقعة مكتوب :

يا بنَ داودَ يا فقيهَ العراقِ ... أفْتِنا فى قواتل الأَحداقِ

هل عليهن فى الجروح قصاصٌ ... أَم مباحٌ لها دمُ العشاقِ

وإذا الجواب :

كيف يفتيكمُ قتيلٌ صريعٌ ... بسهام الفراق والإشتياقِ

وقتيلُ التلاق أَحسنُ حالا ... عند داودَ من قتيلِ الفراقِ

ويقال إنه كان يهوى فتى من أصبهان يقال له محمد بن جامع الصيدلانى العطار وكان طاهراً فى هواه . فهو إن صح كان هوى نقيًّا . أو قل إنه كان تعلقًا أوشك أن يكون هوى أو ظنه الناس هَوًى . وكان ترجمانًا للهوى العذرى فى عصره كما كان مؤلفًا فيه، إذ صنَّف فى أشعاره الجزء الأول من كتابه الزهرة كما أسلفنا . وله فيه أشعار كثيرة يعزوها أو ينسبها إلى أهل عصره كما لاحظ ذلك المسعودى . من مثل قوله :

عى كبدى من خيفة البَيْنِ لوعةٌ ... يكاد لها قلبى أَسًى يتصدَّعُ

يخاف وقوعَ البَيْن والشملُ جامعٌ ... فيبكى بعينٍ دمعُها متسرِّع

فلو كان مسرورًا بما هو واقعٌ كما هو محزونٌ بما يتوقَّع
لكان سواءً بُرْءُهُ وسَقَامُهُ ولكنَّ وشْكَ البَيْن أَدْهَى وأَوجع

وهو يشكو من لوعات الحب التى تكاد تمزّق قلبه حسرات . وهو يخاف البين قبل وقوعه، فيبكى بدموع غزار، فما باله والبين يوشك أن يقع؟ إنه يُمْعن فى البكاء ويمعن فى الالتياع ويمعن فى الألم والعذاب ، ومن قوله :

تمتَّعْ من حبيبك بالوَداعِ إلى وقت السرور بالاجتماعِ
فكم جرَّبتُ من وَصْلٍ وهَجْرٍ ومن حال ارتفاعٍ واتِّضاع
وكم كأسٍ أمرّ من المنايا شربتُ فلم يَضِقْ عَنْها ذِراعى
ولم أرَ فى الذى لاقيتُ شَيْئاً أمرّ من الفــراق بلا وداعِ
تعالَىْ الله كلّ مواصـــلاتٍ وإن طالتْ تؤول إلى انْقطـــاعِ

وهو يدعو إلى ألا يشكو المحب من الفراق ولحظة الوداع التى طالما عصرت قلوب المحبين ، ويقول إنها ليست آخر لحظة يلقى فيها الحبيب ، فستأتى بعدها لحظات لقاء ، وهكذا الحب أحوال من وصل وفراق ولقاء وهجر . ويقول كم شرب من الحب كئوسًا مرة أمر من الموت ، فتحمَّلها صابراً . وليس أمر من الفراق بلا وداع ولا سلام ولا حتى تحية من بعيد ، فإن هذا عذاب لا يطاق ، عذاب كأنه الجحيم. ويثوب الفقيه إلى رشده فالله قد كتب على كل شيء الزوال والفناء . ومن تتمة ذلك عند الفقيه أن يرضى بالقدر المقدور وما كتبه القضاء المحتوم ، كأن يقول فى بعض غزله :

أفوِّض أسبابى إلى الله كلَّها وأَقنعُ بالمقدور فيها وأرتضى

فهو دائمًا يسلِّم — فى عذابه بالحب وآلامه فيه وما يَصْلَى من هجر وبعد وفراق — بما أرادته له المقادير. وتشيع فى شعره كلمات فقهية كثيرة مثل كلمات الحلال والحرام والتوبة ، ويعلن غير مرة أن حبه عفيف نقى طاهر لا تشوبه أدنى شائبة ، يقول :

لا تُلزمنِّىَ فى رَعْىِ الهَوَى سَرَفاً ... وما أُوفِّيه إلا دون مــا يجبُ
فى عِفَّةٍ نتحامى أن يُلم بها ... سُوءُ الظنون وأن تغتالها الرِّيَبُ

ويُكْثِر فى غزله من ذكر المنازل والديار والفيافى والقيعان والرُّكْبان والمطايا ، وهو يتساءل والمنازل لا تجيب. فقد رحل الأحبة وخلفوا له وَجْداً ما مثله وجد ، وعبثًا يخفيه فكل ما حوله يبصره ، يقول :

يُخْفِى هواه وما يَخْفَى على أَحدٍ ... حتى على العِيس والرُّكْبان والحادى

ويَذيع شعره فى بغداد ويغنىّ فيه المغنون والمغنيات ، وهو لا يدرى من أمره شيئًا فقد كان منكبًا دائمًا على حلقات الدرس وعلى التصنيف والتأليف . ويساير ذات يوم القاضى محمد بن يوسف فَيَسمع جارية تغنىّ بقوله :

أَشكو غليلَ فؤادٍ أنت متلفُه ... شكوى عليلٍ إلى إلْفٍ يعلِّلُهُ
سقمى تزيد على الأَيام كثرتُه ... وأَنت فى عُظم ما أَلقى تقلِّله
اللهُ حَرَّم قتلى فى الهوى سلفاً ... وأَنت يا قاتلى ظلماً تحلِّله

ويلتفت إلى صاحبه قائلا : كيف السبيل إلى ارتجاع مثل هذا الشعر الذى تلوكه أفواه المغنين والمغنيات ، فيؤنسه من ردّه قائلا : هيهات سارت به الركبان . ومن طريف ما يُرْوَى له :

فلا تُطْفِ نارَ الشوق بالشوق طالباً ... سُلُوًّا فإن الجَمْر يُسْعَر بالجَمْرِ

ولم تمتد حياته طويلا . فقد توفى سنة ٢٩٧ وهو فى الثانية والأربعين من عمره ، ويقال إنه لما مات جلس ابن سريج مناظره المذكور آنفًا فى مجلسه وبكى وجلس على التراب . وقال : ما آسى إلا على لسان أكله التراب من ابن داود . وحزن عليه تلاميذه حزنًا شديداً. ويقال إن نفطويه جزع عليه جزعًا عظيمًا . ولم يجلس فى حلقته للناس يحاضرهم سنة كاملة .

فضل[1]

كانت أمها من مولَّدات اليمامة ، وكانت هى من مولَّدات البصرة ، نشأت فى دار رجل من قبيلة عبد القيس أدَّبها وثقفها ثم باعها ، ووقعت ارجل من النخَّاسين فى الكرخ ببغداد يقال له حَسْنويه ، فاشتراها منه محمد بن الفرج الرُّخَّجى ، وأهداها إلى المتوكل سنة ٢٣٣ للهجرة . ولم يكن بين الجوارى فى زمانها أفصح منها ولا أشعر ، ويقول فيها بعض النخاسين : كانت فى نهاية الجمال والكمال . ولما دخلت على المتوكل سألها أشاعرة أنت ؟ فقالت : كذلك زعم من باعنى واشترانى ، فضحك ، وقال لها : أنشدينا شيئاً من شعرك ، فأنشدته تمدحه :

استقبل المَلْكُ إمامُ الهُدَى   عـــامَ ثلاثٍ وثلاثينـــا
إنا لنرجو يا إمامَ الهدى   أن تملك النـــاس ثمانينا
لا قدَّس اللهُ امرءًا لم يَقُلْ   عند دعـــائى لك آمينا

فاستحسن الأبيات ، وأمر لها بجائزة وأمر عَريب أن تغنيه بها ، فغنت وطرب طرباً شديداً . وكانت حاضرة البديهة فكان الشعراء من حاشية المتوكل ومن غيرها يتعرضون لها ببعض أبيات يُلْقونها عليها ، فتجيزها فى سرعة شديدة ، وكان المتوكل نفسه يلقى عليها أحياناً بعض الأبيات فتُسْرع فى إجازتها ببديهتها الحاضرة ، من ذلك قول بعض الشعراء :

تعلمتُ أَسبابَ الرِّضا خوفَ عَتْبها   وعلَّمهـــا حُبِّى لها كيف تغضبُ

ولم يكد يلفظ بالبيت حتى قالت :

تصدُّ وأَدنو بالمـــودَّة جاهدًا   وتبعد عنى بالوصال وأَقربُ

---

(١) انظر فى فضل وأخبارها وأشعارها الأغانى (طبعة الساسى) ٢١ / ١١٤ ، ٢/١٧ وفوات الوفيات للكتبى وطبقات الشعراء لابن المعتز ص ٤٢٦ والنجوم الزاهرة ٣ / ٢٨ وزهر الآداب للحصرى ٤ / ١٦٥

وكما كان لها مديح كان لها هجاء خصّت به معاصرتها الخنساء ، ولكن جمهور أشعارها كان فى الغزل ، وهو غزل رقيق رقة شديدة من مثل قولها :

عَلَم الجمال تركتنى ... فى الحب أشهرَ من علَمْ
ونصبتَنى يا مُنْيتى ... غرضَ المظنة والتّهم
فارقتنى بعد الدنوّ ... فصرت عندى كالحلم
ما كان ضَرَّك لو وصلتَ ... فخفَّ عن قلبى الألم

وهى تقول لصاحبها إنك وصلتنى وشهرتنى بحبك ثم هجرتنى وأنزلتنى هذه المنزلة المخزية من القطيعة ، حتى صرت وصارت أيام وصلك كأنها حلم وخيال ، وهى تود لوظفرت بحبه ثانية وظفرت بوصله ، فخرجت من آلامها المبرّحة . وأكثر غزلها فى معشوقها سعيد بن حُمَيْد رئيس ديوان الرسائل لعصر المستعين ، وله فيها بدوره غزل كثير ، وبينهما محاورات ومكاتبات شعرية طريفة . من ذلك أنه عتب عليها يومًا أنها لا تُقْبل عليه فى مجلسها ولا تذكره باسمه فى غزلها ، فكتبت إليه :

وعيشك لو صرَّحت باسمك فى الهوى ... لأَقْصَرْت عن أشياءَ فى الهزل والجدِّ
ولكننى أُبْدِى لهذا مودتى ... وذاك وأخلو فيك بالبثّ والوجد

فكتب إليها سعيد :

تنامين عن ليلى وأسهره وحدى ... وأَنْهَى جفونى أن تبثَّكِ ما عندى
فإن كنت لا تدرين ما قد فعلتِه ... بنا فانظرى ماذا على قاتل العَمْدِ

وكان لا يقلُّ عنها كَلَفًا ولا غرامًا . وكانا كثيراً ما يتغاضبان ويتعاتبان ويعودان إلى الرضا بعد أن يصف كل منهما هيامه بصاحبه ودموعه المتحدرة ، وكانت لا تنى الرقاع والرسائل بينهما ذاهبة راجعة . ومما كتبته له فى إحدى الرقاع :

الصَّبْرُ ينقصُ والسَّقامُ يزيدُ ... والدارُ دانيةٌ وأنت بعيدُ
أشكوك أم أشكو إليك فإنه ... لا يستطيع سواهما المجهود

وكان حريًّا بصاحب الأغانى أو قل بمعاصريهما أن يحتفظوا للأجيال التالية بهذه الرسائل التى اتصلت بينهما ، ولكنهم لم يحتفظوا منها إلا بالقليل مع أنها تُعَدُّ من طرائف الشعر العباسى . ويقال إنه بلغها أنه واصل جارية من جوارى القيان وملأت قلبه فتونًا ، فكتبت إليه غاضبة ساخطة :

يا عالىَ السِّنِّ سَيِّئَ الأَدبِ ... شِبْتَ وأنت الغلامُ فى الأَدبِ

وَيْحَكَ إن القِيانَ كالشَّرَك الـ ... منصوب بين الغرور والعَطَب

لا يتصدَّيْنَ للفقير ولا ... يَتْبَعْنَ إلا مواضعَ الذهب

فالجارية لا تحبه لشخصه وإنما تحبه لذهبه ودنانيره ، وكأنها تريد أن تقطع أوصال هذه العلاقة الناشئة ، حتى لا يعود إلى التفكير فى تلك الجارية أبداً . ويقال إنها كانت فى الغاية والنهاية من التشيع . فلما هويت سعيداً انتقلت إلى مذهبه من الانحراف عن آل الرسول عليه السلام . وكانت منذ مقتل المتوكل تمر بها أوقات حزينة تشعر فيها بالبؤس فكانت تنفِّس عن نفسها بمثل قولها :

إن الزمان بِذَحْلٍ كان يطلبنا ... ما كان أغفلنا عنه وأسْهانا[1]

مالى وللدهر قد أصبحتْ همَّته ... مالى وللدهر . ما للدهر ، لا كانا

والبيتان رائعان ، ويدلان كما تدل الأبيات السابقة على نبع شعرى غزير . واختُلف فى زمن وفاتها ، فقيل سنة ٢٥٨ وقيل سنة ٢٦٠ ، ويقال إن سعيد بن حميد كان يقول بعد موتها : ما رسائلى المدوَّنة عند الناس إلا من إنشائها تجلّةً لها ولأدبها وملكتها الشعرية .

٢

شعراء اللهو والمجون

ظل كثيرون من الشعراء ينغمسون فى اللهو والمجون كما انغمس أسلافهم فى العصر الماضى ، وكان بعض هذا الانغماس يرجع إلى تحلل فى الأخلاق ، وبعضه يرجع إلى الهروب من الحياة والتخفف من أعبائها الثقيلة ، وساعد على ذلك اختلال فى الموازين

(١) ذحل : ثأر

وفساد فى القيم شاعا فى حياة الدولة وفى حياة الناس . وكان الشك يتسلط على نفوس كثيرين وتتسلط معه ألوان الإلحاد والزندقة ، وكان الكَرْخ مليئاً بالحانات وبدور النخاسين ، والشعراء المجّان يغدون ويروحون ليل نهار ، وبعض الجوارى لم يكنّ يعرفنَ حشمة ولا وقاراً إنما كنّ يعرفن اللهو والابتذال . وكانت هناك الديارات متناثرة حول بغداد وعلى طول الطرق إلى البصرة والكوفة جنوباً والموصل شمالا ، وكانت مفتوحة الأبواب للشعراء دائماً لا فى الأعياد المسيحية فحسب ، بل طوال العام ، فهم يلمّون بها ويتناولون الخمر منها ، وقد يعكفون على الشرب فيها أياماً متصلة . وكل ذلك عمل على أن يكثر بين الشعراء أصحابُ الخلاعة والمجون فى أسوأ صورهما ، حتى لنجد كثيرين يتغزلون غزلا شاذّاً بالغلمان ، وَصْمَةٌ ظلت فى هذا العصر كما كانت فى العصر الماضى ، وكثير من هذا الغزل كان يُنْظَمُ فى أثناء السكر وشرب الخمر ، للضحك والفكاهة ، ولكن تبقى بقايا وراء ذلك تصوّر الفساد الخلقى فى أبشع صوره . وحقاً لا نجد خليفة تورط فى حب غلام ، ولكن أيضاً كان كثيرون منهم يعكفون على الملاهى والملذات ، وكانت قصورهم تطفح بجماعات المجان فى صورة ندماء ومضحكين ، وأكثرهم كانوا مُجّانا محترفين . وفى كل مكان نلتقى بهذه الجماعات أو العصابات ، وكانوا يتعاشرون ويترافقون تارة فى الديارات وتارة فى دور النخاسين أو فى الحانات أو فى بيوتهم ، ومن أهمهم جماعة أو عصابة أبى هفان ومحمد بن الفضل ومحمد بن مكرم وأبى على البصير وأبى العيْناء ، وفيهم يقول المرزبانى : كانوا يتعاشرون وكانوا شياطين العسكر فى الظرف والمجون[1] . ومنهم جماعة أبى السفاح الأنصارى وعبد الله بن رضا وإسماعيل بن يوسف ، وقد تعاهدوا ألا يقولوا شعراً إلا فى صفة الخمر ، ويقول ابن المعتز إنهم ظلوا على ذلك إلى أن ماتوا[2] . وكان لشيوع مجالس الخمر حينئذ أثرها فى ظهور كتابات كثيرة عن آداب المنادمة والنديم ، ومما اشترطوه لها قلة الخلاف والمعاملة بالإنصاف والمسامحة فى الشراب والتغافل عن رد الجواب وإدمان الرضا واطّراح ما مضى وإسقاط التكليف وستر العيب وحفظ الغيب . ونعرض لبعض هؤلاء الشياطين وخمرياتهم فمنهم أبو العيناء الضرير ، وكان ظريفاً لسناً سريع الجواب ، واتخذه

---

(١) معجم الشعراء ص ٣٩٨ .
(٢) طبقات الشعراء لابن المعتز ص ٣٣٩ .

المتوكل فى ندمائه . وكان ينزل مع رفاقه الأديرة ويستطيب خمرها المعتقة ، وقد يبقى فيها أياماً لا يفيق من سكره . وله فى دير باشَهْرا ، وكان بين سامراء وبغداد قوله[1] :

نزلنا ديرَ باشَهْرَا على قِسِّيسِهِ ظُهْرَا
وسقَّانا وروَّانا من الصَّافية العَذْرا
وطاب الوقتُ فى الدَّيْرِ فرابطْنا به عَشْرا
ونِلْنا كلَّ ما نهوا ه من لذَّاتنا جَهْرَا

ومن كبار الشياطين فى العصر مصعب الوراق . وكان من أشد المجان تهتكاً وأكثرهم خلاعة وتطرحاً فى الحانات والديارات ، وكثيراً ما كان يلم بدير الزعفران من ديارات الموصل ، وفيه يقول[2] :

عمرتُ بقاعَ دَيْرِ الزَّعفرانِ بفتيانٍ غطارفةٍ هِجانِ[3]
بكل فَتًى يحنّ إلى التصابى ويَهْوَى شُرْبَ عاتقةِ الدِّنان
بكل فتى يميل إلى الملاهى وأصواتِ المثالثِ والمثانى[4]
ظَلِلْنا نُعمل الكاساتِ فيه على روضٍ كنقش الخُسْروانى
وأغصانٍ تميل بها ثمارٌ قريباتٌ من الجانى دوانى

وممن كانوا يتورطون حينئذ فى الخمر وآثامها أبو عثمان الناجم راوية ابن الرومى ، إذ روى عنه أكثر شعره وكان يلزمه ولا يكاد يفارقه ، وله كثير من المعانى الدقيقة فى الخمر وغير الخمر ، وكأنما كان يتأثر بأستاذه ، وفيها يقول[5] :

مشمولةٌ كشعاع الشمس فى قَدَحٍ مثل السَّراب يُرَى من رِقَّةٍ شَبحا
إذا تعاطيتها لم تدر من لُطُفٍ راحاً بلا قدحٍ عاطتْك أم قدحاً

وكثيراً ما كان يلمّ بدير الخوات ، وهو دير كبير شمالى سامراء وسط البساتين والكروم ، وكانت تسكنه نساء مترهبات ، وكان من منازل القَصْف ومواطن اللهو .

---

(١) الديارات للشابشتى ص ٨٠ .
(٢) الديارات ص ١٩٢ .
(٣) غطارفة هجان : سادة كرام .
(٤) المثالث والمثانى : من أوتار العود .
(٥) المختار من شعر بشار ص ١٢٧ وانظر الديارات ص ٩٣ .

وذكره كثيراً فى أشعاره . ومثله دير العذارى وكان قريباً من بغداد ، وواضح من اسمه أنه كان ينزله جوار متبتلات عذارى ، ونزل به عبيد الله بن عبد الله بن طاهر حاكم بغداد . فأقام به يومين واستطابه وشرب فيه . وله مقطوعة يصوّر فيها ما امتد حول الدَّيْر من بساتين فاتنة وعكوفه على الشرب فيه بمثل قوله[1] :

ورياضٍ كأنهن بُرودُ ... كلّ يوم لهن صِبْغٌ جديدُ
وكأن الشَّقِيقَ فيها عشيقٌ ... وكأن البَهار صَبٌّ عَميد[2]
وكأن الثمار والورقَ الخُضْـ ... ـرَ ثيابٌ من تحتهن نهودُ
فاسقنيها راحًا تريح من الهـ ... ـمِّ وتُبْدى سرورنا وتُعيد
وانتهز فرصة اللذاذات فى دَيْـ ... ـرِ العَـذارى فعلَّها لا تعود

وكان كثيرون لا يَغْلون فى المجون ولا يغرقون فى اللذات . وإنما يلمون بالخمر من حين إلى حين ، وقد يكون فى حياتهم ما دفعهم إلى ذلك ، إما سخط شديد على الحياة السياسية . وإما شك واستهانة بكل شىء . وإما محنة نزلت بهم أو إحساس بضرب من ضروب الإخفاق . وبذلك نستطيع أن نعلل إقبال بعض المتكلمين على تناولها أحيانًا أو قل بعبارة أدق على وصفها ، إذ ربما وصفوها مجاراة للشعراء فى عصرهم ، على نحو ما نجد عند أبى العباس الناشئ إذ يقول[3] :

ومُدَامة يَخْفَى النهـارُ لنورها ... وتَذِلّ أكنافُ الدُّجَى لضيائها
صُبَّتْ فأَحْدق نورُها بزجاجها ... فكأنها جُعِلَتْ إناءَ إنائها
وتكاد إن مزِجَتُ لرقّة لونهـا ... تمتـاز عند مِزاجها من مائها
صفراء تَضْحَى الشمسُ إن قِيستْ بها ... فى ضوئها كالليل فى أَضـوائها
وإذا تصفحتَ الهواء رأيتـه ... كَدِر الأَدمـة عند حُسْن صفائها
لا شىء أَعجبُ من تولُّد بُرْئِها ... من سُقْمها ودوائهـا من دائهـا

---

(١) الديارات ص ١٠٩ .
(٢) الشقيق : ورد أحمر . والبهار : زهر أصفر ، والكناية واضحة.
(٣) زهر الآداب ١٤٩/٢ .

وهى خمرية بديعة لعب فيها خيال الناشئ بفكرة ضوء الخمر ، فهى تارة تحيل الشمس ظلامًا ، وتارة ترُى وكأنما لا يحملها إناؤها أو قل كأسها الزجاجى . وهى متناهية فى الرقة حتى لتكاد تتميز من الماء حين يُمزَج بها ، وهى أيضًا متناهية فى الصفاء حتى ليُرَى الجو الصافى كدراً بالقياس إليها ، وهى داء ودواء وسقام وشفاء . ونقف عند ثلاثة اشتهروا باللهو والمجون فى العصر . وهم الحسين بن الضحاك وأبو الشبل البُرْجمىّ وعبد الله بن العباس بن الفضل بن الربيع .

الحسين [1] بن الضحاك

من كبار الخلعاء المجان ، وُلد بالبصرة ونشأ بها ، ثم تركها إلى بغداد لعصر الأمين ، وربما قبل عصره ، فقد عاش دهراً طويلا ، وكان ظريفًا ، فاتخذه الأمين نديمًا له ، ونادم من بعده المعتصم والواثق والمتوكل والمنتصر ابنه . وقد جزع جزعًا شديداً حين توفى الأمين ، ورثاه مراثى كثيرة ، وكان مما قال فيه باكيًا متفجعًا .

هلا بقيتَ لسَدِّ فاقتنا ... فينا وكان لغيرك التَّلَفُ

قد كان فيك لمن مضى خلفٌ ... فاليوم أَعْوز بعدك الخلف

فلما جاء المأمون من خراسان إلى بغداد علم بموقفه منه ، وأنه طالما نظم أشعاراً ضد طاهر بن الحسين قائده فى حرب الأمين كما نظم أشعاراً يبكى بها بغداد حين ضربها طاهر بالمجانيق ، وكان أشد ما أسخطه عليه البيتان السالفان ودعاؤه فيهما عليه بالتلف . فلما ذُكر له فى الشعراء قال : لا حاجة لى به ولا يرى وجهى إلا على قارعة الطريق أى فى مواكبه العامة . وظل لا يَقْرب القصر طوال خلافة المأمون ، بل لقد بارح بغداد إلى البصرة ، حتى إذا خلفه المعتصم استقدمه من موطنه وقرَّبه منه . فمضى يمدحه وينال جوائزه . وقد أقطعه كما أقطع رجال

---

(١) انظر فى ترجمة الحسين بن الضحاك وأشعاره ابن المعتز ص ٢٦٨ وتاريخ بغداد ٨ / ٥٤ والأغانى (طبع دار الكتب) ١٤٣/٧ ومعجم الأدباء وابن خلكان ومرآة الجنان ٢ / ١٥٦ وشذرات الذهب ٢ / ١٢٣ وأشعار الخليع الحسين بن الضحاك جمع وتحقيق عبد الستار فراج (طبع دار الثقافة ببيروت) .

حاشيته داراً فى سامراء ، واتخذه الواثق نديماً له ، وله فيه مدائح كثيرة ، وخلفه المتوكل فسلكه فى ندمائه ، وكذلك صنع ابنه المنتصر ، وله فيه مدائح مختلفة مثل أبيه ، ومن قوله فى تهنئته له بالخلافة :

هَنَتْكَ أميرَ المؤمنين خلافةٌ جمعتَ بها أهواءَ أمةِ أحْمد

وأعْجب المنتصر بالقصيدة ، فقال له : إن فى بقائك بهاءً للملك ، ولحق بعده عصر المستعين ، وفيه توفى سنة ٢٥١ للهجرة .

وكان يُعْرَفُ باسم الخليع لكثرة مجونه وعكوفه على الخمر ، حتى أصبح اسمه مقرونا باسم أبى نواس أكبر ماجن فى العصر السابق ، وهو مثله فارسى الأصل ، وكان يصحبه فى شبابه ، ويبدو أنه تمثل أشعاره تمثلا نادراً وخاصة أشعار الخمر والمجون ، حتى اختلط الأمر على القدماء فنسبوا كثيراً من أشعاره إلى أبى نواس ، وزعم نفر منهم أن أبا نواس كان يحاكيه فى بعض أشعاره . والصحيح أن الحسين هو الذى كان يحاكى أستاذه وأستاذ الخمر والمجون فى العربية عامة . ويقول ابن المعتز إنه كان أنقى من أبى نواس شعراً وأقل تخليطاً منه ، وهى ملاحظة صحيحة غاية الصحة ، فإن أبا نواس كان يختلط بأبناء الشعب البغدادى من المجَّان وغيرهم فى الحانات بالكرخ وغير الكرخ وفى الأديرة ، وكان لا يرتفع بلغته وألفاظه عنهم ، بل كان يدنو منهم دنواً شديداً . وكان ينظم كثيراً من خمرياته فى أثناء سكره ، فبدا فى أشعاره تخليط كما لاحظ ابن المعتز ، فهو تارة يرتفع حين ينظم فى مجلس الأمين أو فى مجلس بعض الوزراء والنابهين ، وتارة يُسِفّ حين ينظم فى مجالس العامة ، وخاصة حين يخاطب غلمان الحانات وكانوا أخلاطاً من الفرس ممن لا يحسنون العربية الفصيحة . أما الحسين فكان فى جمهور حياته يعيش فى قصور الخلفاء والوزراء وأبنائهم ، فكان يُعْنَى أشد العناية بلغته وألفاظه ، ولا يكتفى فيها بالفصاحة بل يطلب أيضاً الرصانة والجزالة حيناً ، وحيناً العذوبة والنعومة وما يلائم الأذواق الرفيعة فى المجتمع ، لذلك قل التخليط عنده كما يلاحظ ابن المعتز ، بل كاد ينعدم انعداماً ، ولذلك أيضاً شاع فى أشعاره النقاء والصفاء إذ كان يطلب فيها دائماً أن تلذ الأسماع والأفئدة . وظاهرة ثانية يختلف فيها عن أستاذ المجون والخمر فى عصره هى شىء من الحشمة المصطنعة فى مجونه ، فهو لا يذيع فيه ما يذيعه

أبو نواس من الفحش، لأنه كان يعيش فى أوساط الخلفاء والوزراء وأبنائهم ، فكان يحتشم وقلما يعلن أنه يقترف إثمًا منكراً ، أما أبو نواس فلم يكن يعرف شيئًا من الحشمة ولا كان يخفى شيئًا من آثامه . وليس معنى ذلك أن الحسين كان أقل من أبى نواس مجونًا وشغفًا بالخمر ، فقد كان مثله مفتونًا بها فتنة شديدة ، وكان يطلبها فى الحانات وفى الأديرة وكان دائم الاختلاف إليها ، ومن طريف ما نظمه فى دَيْر سابر بقرب بغداد وخمره المعتقة قوله :

وعــواتقٍ باشرتُ بين حدائقٍ ففضَضْتُهُنَّ وقد حَسُنَّ صِحَاحَا[1]
أَتبعت وَخْزَةَ تلك وَخْزة هذه حتى شربتُ دماءَهن جِرَاحَا
أَبرزتُهنَّ من الخدور حَوَاسِرًا وتركت صَوْنَ حريمهنَّ مُبَاحا

وهو يصور فتنته بزقاق الخمر الممتلئة التى لم يمسسها أحد قبله ، وقد ضحكت الطبيعة فى دير سابر من حواله ، وهو يفتح الزقاق ويشرب من دمائها أرطالا . وكان يختلف إلى ديارات العراق عامة ، وله فى دير سَرْجِس بالقرب من الكوفة قصيدة بديعة ، يقول فيها :

أخوىَّ حَىَّ على الصَّبوح صَباحا هُبَّا ولا تَعِدا النديم رَواحا
مهما أَقام على الصَّبوح مساعدٌ وعلى الغَبُوق فلن أُريد بَراحا[2]
عُودَا لعادتنا صبيحةَ أَمْسِنا فالعَوْدُ أَحمدُ مُغْتَدىً ومَرَاحا
هل تَعْذِران بِدَيْر سَرْجِسَ صاحباً بالصَّحْو أَو تريانِ ذاك جُناحا
إِنى أُعيذكما بأَلفة بَيْننـــا أَنْ تشربا بقرى الفُرات قَراحا[3]
عَجَّتْ قَوَاقِزُنَا وقَدَّس قَسُّنا هَزَجاً وأَصخبنا الدَّجاج صِياحا[4]

وهو يتلطف إلى صاحبيه فى آخر الليل ويدعوهما أن يتناولا معه الصبوح كما تناولاه بالأمس، ويعْذراه ولا يريا فى ذلك جُناحًا ولا إثمًا ، ويستحلفهما بما

(١) العواتق : زقاق الخمر.
(٢) الصبوح : شرب الصباح ، والغبوق : شرب المساء .
(٣) الماء القراح : الماء الصافى .
(٤) القواقز : القداح . وقدس القس : رتل بعض التراتيل .

بينهما وبينه من ألفة ومودة وأخوة ألا يشربا ماء الفرات النمير ، بل يشربا معه صبوحه المسكر المحبب إلى نفسه . وكان أبو عيسى بن الرشيد يدفع غلامه « يُسْرا » إلى معابثته فكان ينظم فيه بعض غزله ، وكذلك كان المتوكل يدفع غلامه « شفيعًا » إلى العبث به ، وكان وضيءُ الوجه مثل يسر فكان ينظم فيه أيضًا بعض الغزل ، وواضح أنه غزل كان يُرَاد به إلى الهزل وإضحاك المتوكل وأبى عيسى . وله فى الغزل عامة شعر كثير من مثل قوله :

وَصَفَ البَدْرُ حُسْنَ وجهك حتى خلتُ أنى — وما أراك — أراكا

وإذا ما تنفَّس النَّرْجِسُ الغَضُّ توهَّمته نسيمَ شَذَاكا

خُدَعٌ للمنى تعلِّلنى فيـــك بإشراق ذا وبهجةِ ذاكا

لأدومنَّ يا حبيبى عــلى الوُدِّ لهذا وذاك إذ حَكَيَاكا

والقطعة رائعة التصوير وتسيل عذوبة ، وهى عذوبة تشيع فى كثير من أشعاره الغزلية والخمرية ، وهى طبيعية لشاعر كان يعيش فى قصور الخلفاء ومجالسهم ، ويسمع فى كل ليلة أوتار العيدان والطنابير والمعازف من كل لون ، مما جعل أذنه الموسيقية تُرْهَفُ إرهافًا شديداً ، فإذا كثير من شعره يتحول ألحانًا وأنغامًا خالصة على شاكلة قوله :

عالمٌ بِحبِّيـــهِ مُطْرِقٌ من التِّيـــهِ

يوسفُ الجمالِ وفر عـــونُ فى تعدِّيه

وهْو غيرُ مكترثٍ للذى ألاقيـــه

لا وحقِّ ما أنا من عَطْفـــه أُرَجِّيـــه

ما الحياة نافعةٌ لى على تـأَبِّيـــه

النعيمُ يشغله والجمـــالُ يُطغيه

والقطعة من وزن عباسى حديث هو وزن المقتضب ، وهى تطير عن الفم بخفة . ولم يقف تأثير الغناء وآلات الطرب لعصره فى شعره عند الملاءمة بين

جرس الكلمات ، بل تجاوز ذلك إلى الأوزان ، فكان يفزع إلى مجزوءاتها كثيراً إرضاءً لآذان السامعين ، وحتى يتيح للمغنين والمغنيات فى شعره الفُرَص كى يجهروا بألفاظه ويهمسوا بها حسب حاجاتهم الغنائية .

أبو الشبل[1] البُرْجُمِىّ

اسمه عاصم بن وهب ، وُلد بالكوفة ونشأ وتأدّب بالبصرة ، يقول أبو الفرج : «قدم إلى سامرّاء فى أيام المتوكل ومدحه ، وكان طَيِّبًا نادراً ، كثير الغزل ، ماجنًا فنفق عند المتوكل بإيثاره العبث ، ونادمه وخُصَّ به فأثرى » ثم يذكر بعض مديحه للمتوكل وما أسبغ عليه من عطاياه . ويبدو من اصطفاء المتوكل له أنه كان ظريفًا خفيف الروح ، ويقصّ ابن المعتز بعض نوادره ، مما يدل على أنه كان فكه المحضر . وكان خليعًا مثل الحسين بن الضحاك يسرف على نفسه فى المجون ويتهالك على اللذات ، ويطلبها فى الحانات وفى الديارات ، ويقول من ترجموا له إنه كان عاكفا على الشراب لا يفارقه ، ولا يوجد إلا سكران قد أخذ منه السكر مأخذاً شديداً ، ويقولون إنه كان يتطرّح فى الديارات والحانات ومواطن اللهو ، لا يُغيِّبها ولا يتأخر عنها ، بل دائمًا فى حانة أو فى دَيْر أو فى بستان أو متنزّه وقد شرب وأغرق فى الشرب حتى لم يعد يستطيع أن يقف على قدميه ، بل لم يعد يستطيع حراكًا . وكان كثير الاختلاف إلى دير أشمونى بقرية قُطْرَبُّل شمالىّ بغداد وكانت القرية أشبه بحانة كبيرة يختلف إليها أصحاب البطالة والمجون . وكان عيد هذا الدير فى اليوم الثالث من أكتوبر ، وكان يجتمع فيه كل من ببغداد من أهل الطرب واللهو ، يخرجون إليه جماعات ، منهم من يركب السفن النهرية بدجلة ، ومن يركب الخيل المطهمة ، وينزلون فى أكناف القرية وحاناتها ودَيْرها الكبير ضاربين خيامهم وفساطيطهم ، وكلٌّ قد أعدّ ما استطاع لقَصْفه ولهوه ، والقيان تعزف عليهم ، وآلات الطرب تُسْمَع فى كل مكان ، والناس يطربون ويشربون وقد يرقصون طربًا واستحسانًا لما يسمعون . وطبيعى أن يتأثر الماجن الكبير أبو الشبل

---

(١) انظر فى أبى الشبل وأخباره وأشعاره طبقات الشعراء لابن المعتز ص ٣٨٠ والأغانى (طبع دار الكتب المصرية) ١٤ / ١٩٣ ومعجم الشعراء للمرزبانى ص١٢٣ والديارات للشابشتى ص ٥٠ وما بعدها .

بمناظر هذا العيد ، وقد أخذ الشراب منه مأخذاً عظيماً فيتغنّى بمثل قوله :

شهدْتُ مواطِنَ اللّذّاتِ طُرًّا ... وجُبْتُ بِقاعَها بَحْرًا وبَرًّا
فلم أر مثلَ أشمونى مَحَـلاً ... ألذَّ لحاضريه ولا أَسَرًّا
به جيشان من خَيْلٍ وسُفْنٍ ... أناخا فى ذُراه واستقـرًّا
كأنهما زحوفُ وَغىً ولكنْ ... إلى اللذات ماكرًّا وفـرًّا
سلاحُهما القَواقزُ والقَنانى ... وأكواسٌ تدور هلمَّ جَـرًّا(١)
وضَرْبُهما المثالثُ والمثانى ... إذا ما الضربُ فى الحرب استحرًّا

وكان مثل الحسين وعامة مجّان عصره يُكثر من الغزل ، وكان يستهتر فيه أحيانًا ويتهتك ويتمدح بالتهتك والاستهتار مسفًّا فى شعره ، وكأنما كان ينظم مثل هذا اللون من الغزل للمجان من أمثاله مُشيعًا فيه غير قليل من الفحش . وكان ينظم بجانبه غزلا آخر لا يسفّ فيه هذا الإسفاف ، بل يُبْقى فيه على مروءته وكرامته إن كان للمجان من أضرابه فضل من كرامة ، على شاكلة قوله :

بأَبى ريمٌ رمى قَلْـ ... ـبى بألحاظٍ مِرَاضِ(٢)
وحَمَى عينىَ أن تَذْ ... تَذَّ طيبَ الإغماضِ
كلما رُمت انبساطاً ... كفَّ بَسْطِى بانقباض
أَو تعالَى أملى فيـ ... ـه رماه بانخفاضِ
فمتى ينتصف المظ ... لومُ والظالمُ قاضى

والأبيات خفيفة ،ولكنه لا يلحق الحسين بن الضحاك فى عذوبة نغمه وخفة روحه وحرارة عاطفته . وكان الحسين أعف منه لسانًا إذ لم يكن يسف إلى الفحش إسفافه ، وقد عُمِّر عمراً طويلا حتى وهن العظم منه واشتعل الرأس شيبًا وبلغ من الكبر عِتِيًّا ، وكان طبيعيًّا أن ينصرف عنه حينئذ الجوارى ، وفى ذلك يقول :

عذيرى من جـوارى الحَـىِّ إذ يرغبْن عن وَصْلِى

---

(١) القواقز : القداح كما مر . والأكواس : الكئوس .

(٢) الريم : الظبى خالص البياض .

رأين الشيب قد ألبـ سنى أُبَّهَةَ الكَهْــلِ
فأعــرضْنَ وقد كُنَّ إذا قيل أبو شِبْلِ
تساعَيْنَ فرقَّعن الـ كُوَى بالأَعْيُنِ النُّجْلِ[1]

ومرَّ بنا هجاء الخنساء جارية هشام المكفوف له ، وله فيها هجاء مسف إسفافاً شديداً ، وهو فى هجائه يفحش إلى درجة بعيدة تؤذى الأذواق السليمة . وكان قد اشترى كبشاً لعيد الأضحى فظل يعلفه ويسمِّنه ، وأفلت يوماً منه على قنديل كان يُسرجه بين يديه وعلى سراج وقارورة للزيت ، فكسر القنديل وانصبَّ الزيت على ثيابه وكتبه وفراشه ، فلما رأى منه ذلك ذبحه قبل الأضحى ، ونظم قصيدة فى رثاء قنديله يقول فيها :

يا عَيْنُ بَكِّى لفقد مَسْرَجةٍ كانتْ عمودَ الضياء والنورِ
صينيَّةِ الصين حين أَبْدعها مصوِّرُ الحسن بالتصــاوير
مَسْرَجتى كم كشفتِ من ظُلَم جَلَّيتِ ظلماءَها بِتَنْوِيرِ
إن كان أَوْدَى بك الزمانُ فقد أبقيتِ منك الحديثَ فى الدُّورِ

ومضى يصور كيف انتقم للمسرجة ، فذبح الكبش ومزقه بالمُدَى وأتى به فى القدور وكيف أن السَّنانير والحِدأة والغربان والكلاب طعمت من لحمه وعظامه ، وكان ذلك عُرساً لها جميعاً بدون مزامير ومغنين . وتلك عاقبة البغى ، مصرعه وخيم . ودخل داره بعضُ أصدقائه ورأى أن يعبث به ، ولفته ثلث قرطاس كان يحتفظ به أبو الشبل ، فأخذه ولم يُعلمه بما صنع ، فلما مرت بعض أيام جاء صديقه ، فأنشده مرثية طويلة لذلك الجزء من القرطاس ، وفيه يقول :

فِكَرٌ تَعْتَرِى وحُزْنٌ طويلُ وسقيمٌ أَنْحَى عليهِ النُّحولُ
ليس يَبْكى رسماً ولاطللاً مَـ حَّ كما تُنْدَبُ الرُّبى والطُّلولُ[2]
إنما حزنه على ثُلُثٍ كا نَ لحَاجاتهِ فغالَتْه غولُ[3]

(١) الكوى : الخروق فى الأبواب والنوافذ.
(٢) مح : عفا ودرس.
(٣) غالته : أهلكته .

كان للسرِّ والأمانة والكِتْـ ـمان إنْ باحَ بالحديث الرسولَ

وضحك صديقه طويلا ، واعترف له بأخذه ، وردَّه عليه . وهذا هو أبوالشبل ماجن خليع ، يسرف فى الخلاعة والمجون ، بل فى الاستهتار والتهتك ، وهو مع ذلك صاحب نوادر ، لا نوادر يحكيها فحسب ، بل نوادر حدثت له كان يحكيها وينظم فيها أشعاره .

عبد الله[1] بن العباس بن الفضل بن الربيع

حفيد الفضل بن الربيع وزير الرشيد والأمين ، نُشِّئ فى الحلية والترف والنعيم ، وقدعُنى أبوه بتعليمه وتثقيفه حتى أحسن الشعر ،وكان يقوله على الطبيعة مُرْسلا نفسه على سجيتها ، لا يتكلف فيه ولا يتعمَّل . ويقول أبو الفرج شعره مطبوع ظريف مليح المذهب من أشعار المترفين وأولاد النعم ، ويقول : كما كان شاعراً مطبوعًا كان مغنيًا محسنًا جيد الصنعة . ويقال إن سبب تعلمه الغناء أنه تعلق بجارية لعمَّته رقَّية كانت تتقن الغناء ، تسمى عَسَاليج ، شغفت قلبه حبًّا ، فكان يلزمها بعلة الغناء ، وكان يأخذ عنها وعن صواحبها ما أحسنَّه من الأصوات والأدوار ، حتى أقررن له بالحذق . وصار يلازم من يختلفون إلى بيته من المغنين أمثال إسحق الموصلى ، وكاد لايترك لهم صوتًا دون أن يأخذه . وكان جوارى الحارث بن بسخنَّر وابنه محمد يدخلن إلى داره فيطرحن على الجوارى بها ما ليس عندهن من غناء . وكل ذلك أتاح له أن يتثقف بالغناء ، بل أن يصبح ماهراً فيه . وترتفع شهرته فى إحسانه إلى آذان الخلفاء ، فيطلبونه لسماع أغانيه ، وكان أول من طلبه الواثق ، وله فيه أصوات مدحه بها ، وغنَّاه فيها فملأه طربًا ، من ذلك ما يُرْوَى من أن الواثق عوفى من مرض ألمَّ به فطلبه مع طائفة من المغنين ، فلما صار قريبًا من مجلسه بحيث يسمع صوته ضرب على عود مغنيًا ببيتين قالهما فى طريقه إليه على هذا النمط :

---

(١) انظر فى عبد الله وحياته وأشعاره الأغانى (طبعة الساسى) ١٧ / ١٢١ وتاريخ بغداد ١٠ / ٣٦ والديارات ص ٦٣ وما بعدها وذيل زهر الآداب ص ١١٥ .

اسلمْ وعمَّرك الإلهُ لأُمـــة بك أصبحتْ قهرتْ ذوى الإلحادِ
لو تستطيع وَقَتْكَ كلَّ أذيَّةٍ بالنفس والأمـــوال والأولادِ

وكان الواثق يغمره بجوائزه وصلاته ، وغمره من بعده المتوكل بالأموال ، ويقصُّ صاحب الأغانى من ذلك بعض أخبار ، وله فيه أيضًا مدائح قصيرة كان يغنيه بها فيهتز طربًا ، وفيه يقول :

أكرمَ اللهُ الإمامَ المرتضى وأطال اللهُ فينا عُمُرَهْ
سَرَّه اللهُ وأبقـــاه لنا ألفَ عامٍ وكفانا الفَجَرَه

وكان يغنى الخليفتين والمنتصر من بعدهما فى غزل كثير من أشعار السابقين وفى كثير من غزله الذى نظمه فى عساليج وفى غيرها من الجوارى اللائى فتنَّ قلبه وفى مقدمتهن مصابيح جارية الأحدب المقيِّن وكانت تغنى فى كثير من شعره . وهى جارية نصرانية هام بها قلبه هيامًا شديداً ، ويقال إنه كان يلزم بِيَعَ النصارى فى أعيادهم من أجلها شغفا بها ، وفيها يقول :

تتثنَّى بحسنِ جِيدِ غزالٍ وصليبٍ مفضَّضٍ آبنوسِ
كم رأيتُ الصليبَ فى الجِيد منها كهلالٍ مكلَّلٍ بشموسِ

وتتردَّد فى غزله أسماء الأعياد المسيحية كما يتردد ذكر كثير من الديارات مثل دير سَرْجِس ودير قوطا القريب من بغداد ، وكان ينزل فيهما أيامًا مع بعض رفاقه ، يشربون ويقصفون ويَمْجنون ، وله يصوِّر ما كان من هذا المجون والقصف والشراب مع بعض صَحْبه فى دير قوطا ، إذ يقول :

يا دَيْرَ قُوطا لقد هيجتَ لى طربًا أزاح عن قلبىَ الأحزانَ والكُرَبا
كم ليلةٍ فيك واصلتُ السرور بها لما وصلتُ لها الأدوار والنُّخَبا
فى فتيةٍ بذلوا فى القَصْف ما ملكوا وأنفقوا فى التَّصابى المالَ والنَّشَبا[1]

---

(١) النشب : المال والعقار .

وهو يكثر من الحديث عن صاحبته النصرانية وعن جوارى البِيَع والأديرة ، وكأنما كان قلبه يتبعهن جميعًا ويتمنى او استطاع أن يجنى معهن زهرات الحب ، أو او أتيح له ذلك من حين إلى حين ، ومن قوله فى إحدى جوارى الدير السالف :

وشادنٍ ما رأَتْ عينى له شَبهاً فى الناس لا عَجَماً منهم ولا عَربا
إذا بدا مقبلا ناديتُ واطَرَبا وإن مضى مُعْرِضاً ناديتُ : واحَرَبا

ويصرّح مراراً بأنه لا يحب سوى خمر الأديرة المعتقة ، لما كان يخامره فيها من سكرين : سكره بالخمر الحقيقية وسكره برؤية الراهبات المتبتلات ومن يراهن هناك من العذارى الفاتنات . وله يتحدث عن خمر قرية من قُراهن تسمى كركين وعن يوم الشعانين وهو العيد المسيحى الذى يقع فى يوم الأحد قبل عيد الفِصْح :

ألا اصْبحانى يومَ الشّعانينِ من قهوةٍ عُتِّقت بِكَرْكينِ
عند أُنَاسٍ قلبى بهم كَلِفٌ وإن تولَّوا دِيناً سوى دينى

ومن الحق أنه لم يكن يُبْقِى لنفسه شيئًا من الحشمة فى مجونه،وهو من هذه الناحية شبيه بأبى الشبْل، بعيد الشبه من الحسين بن الضحاك مع أنه كان مثله يعاشر الخلفاء والأمراء ، وكأن هذه العشرة كانت شيئًا سطحيًّا ، وهو نفسه كان حفيد وزير ومن أسرة رفيعة أو أرستقراطية . وربما جاءه ذلك من أنه كان لا يفيق من الخمر ، إذ يقول أبو الفرج إنه كان يشرب الصَّبُوحَ كل يوم من دهره ما عدا أيام الجمع وشهر رمضان ، فهو نهاره سكران ، وكذلك كان ليله . ومثله يسفّ ويهبط إلى الدنيَّات ، لذلك لا نعجب إذا رأينا الشابشتى يقول عنه : «كان صاحب غزل ومجون كثير التطرح فى الديارات والحانات والاتّباع لأهل اللهو والخلاعة» . ومع ذلك له غزل كثير رقيق اشتهر به بين معاصريه،ويُرْوَى أن ابن الزيات وزير الواثق وكان أديبًا بارعًا فى الشعر والنثر قال له : أنشدنى شيئًا من شعرك ، فقال إنما أعبث ببعض الأبيات ، ولست بمكان من ينشدك شعره ، فقال له : أتقول هذا وأنت القائل :

يا شادناً رامَ إذ مَـ ـرَّ فى الشعانين قَتْلى
تقول لى كيف أَصْبَحْـ ـت كيف يُصْبِحُ مثلى

أنت والله أغزل الناس وأرقهم شعراً ، ولو لم تقل غير البيت الأخير لكفاك ولكنت شاعراً مجيداً . وروى له الأغانى أشعاراً كثيرة كان يغنى فيها هو وعساليج ومصابيح وغيرهما من مغنيات العصر ومغنيه . ومن الأصوات التى طرب لها الواثق طرباً شديداً حين غنَّاه بها قوله :

بأبى زَوْرٌ أتانى بالغَلَسْ قمت إجلالاً له حتى جَلَسْ
فتعانقنا جميعاً ساعةً كادت الأرواحُ فيها تُختَلَسْ
قلتُ يا سُؤْلى ويا بَدْرَ الدُّجَى فى ظلام الليل ما خفتَ العَسَسْ
قال : قد خفتُ ولكنَّ الهوى آخذٌ بالروح منى والنَّفَسْ
زارنى يَخطِر فى مِشْيته حوله من نور خَدَّيْه قَبَسْ

والقطعة بديعة فى خواطرها وفى تصويرها للهيام بالمعشوق، وللمعشوق نفسه وجماله الساحر الوضيء، وأيضاً فى صياغتها وموسيقاها . وشعر عبد الله كله شعر وافر الموسيقى ، وهو شيء طبيعى لأنه كان يغنيه ويوقعه على آلات الطرب ، وكان الجوارى والمغنون من حوله يغنون فيه ، فكان يضعه فى نسق موسيقى ، تشترك فيه آذانه الداخلية : أذن الشاعر وأذن المغنى وأذن الموسيقىّ ، شركة تصفيه من كل الأدْران ، فإذا ألفاظ الشعر متلاحمة مع قوافيه تلاحماً إلى أبعد حدود الدقة ، فلا عوج ولا انحراف لا فى لفظ بل لا عوج ولا انحراف فى حرف ولا فى حركة ، إذ يعمّ الانسجام والإحكام . وهذا الأثر الموسيقى فى الألفاظ والحروف والحركات كان يرافقه أثر آخر فى الأوزان إذ نرى عبد الله يشغف بالأوزان المجزوءة والأخرى القصيرة حتى يوفر لأغانيه أو قل لبعضها كل ما يريد من خفة ورشاقة موسيقية .

٣

شعراء الزهد والتصوف

هذه الموجة من اللهو والمجون إنما كانت مقصورة على البيئات المترفة التى أفسدها الترف وعلى الحانات والأديرة ومن كان يختلف إليها من الناس والشعراء؛ ولم يكونوا يؤلفون إلا شطراً ضئيلا من الجمهور. أما شطور الجمهور الأخرى فلم تكن تعرف الترف ولا كانت تنغمس فى الخمر والإثم، إنما كانت تعرف شظف العيش وتعرف تقوى الله وتجد فيها ما يعينها على احتمال أعباء الحياة، مما جعلها تنصرف إلى سماع الوعاظ فى المساجد ببغداد وغير بغداد وسماع أهل الحديث والفقه والتفسير. وكانت دائمًا تدوّى فى آذانهم كلمات الوعاظ والنسّاك وما يدعون إليه من رفض الدنيا ومتاعها الآثم والتفكير فى مصير الإنسان وما ينتظره من ثواب وعقاب فى الآخرة. وكان هؤلاء النساك والوعاظ كثيرين كثرة مفرطة، وكان لكثير منهم حلقات فى المساجد يستدير الناس من حولهم فيها لسماع ما يتحدثون به عن الوعد والوعيد وعذاب النار ونعيم الجنان والمحشر وما يكون فيه من أهوال. وفى كل مكان نجد بينهم قُصّاصًا يقصّون على الناس من سير الأنبياء والأمم الداثرة ما يدفعهم دفعاً إلى العمل الصالح. وتقرأ ترجمات هؤلاء القصاص والوعاظ فتحس فيهم إيمانًا صادقًا وورعًا مخلصًا، وكانوا كلما عرض خليفة أو وال على شخص منهم عملا أو منصباً رفضه فى إصرار، مؤثراً حياته الخشنة على اللباس الليّن والطعام الطيب والماء البارد، حياة كلها خشوع وزهد واحتقار لمتاع الدنيا فى جانب ما أمّل من متاع الآخرة. وظل نفر منهم يرافق الجيوش فى الثغور واعظًا وقاصًّا ومذكراً بما أعدّ الله للمجاهدين والمستشهدين من ثواب عظيم، على نحو ما هو معروف عن أبى العباس الطبرى المتوفى سنة ٣٣٥، وكان من أخشع الناس قلبًا إذا قصّ، ويُروَى عن موته أنه قص على الناس بطرسوس (من ثغور الشام) فأدركته روعة مما كان يصف من جلال الله وعظمته وملكوته فخرّ مغشيًّا عليه من الموت[١].

---

(١) طبقات الشافعية للسبكى ٣/٥٩.

ولا نبالغ إذا قلنا إن القصاص والوعاظ جميعًا كانوا من هذا الطراز ، وكانوا لذلك قريبين من قلوب العامة ، وقد استطاعوا أن ينشروا موجة حادة من الزهد ، لافى الطبقة العامة وحدها ، بل أيضًا فى الطبقات الأرستقراطية ، على الأقل من حين إلى حين ، كأن نرى واعظًا يقف بين يدى هذا الخليفة أو ذاك محذراً من الظلم وعواقبه وداعيًا إلى الإقبال على ما عند الله ونَبْذ متاع الحياة الزائل ، أو مخوفًا منذراً بالموت وما بعده من العذاب الأليم والنعيم المقيم . وطبيعى — والزهد قوت العامة فى حين كان المجون قوت الخاصة — أن يتعلق بالنظم فيه أكثر الشعراء ، حتى شعراء المجون أنفسهم نرى لهم شعراً زاهداً كثيراً على نحو ما هو معروف عن أبى نواس فى العصر الماضى فقد كان الشعرَ الذى تتطلبه العامة والذى تجد فيه غذاء مشاعرها وعواطفها ، مما جعل الشعراء ينظمون فيه قصائد ومقطوعات كثيرة . وكان الخلفاء إذا سمعوا منه شيئًا غلبهم التأثر حتى لو كانوا فى مجلس شراب على نحو ما يُرْوَى عن المتوكل فإن الحِمَّانى نقيب العلويين فى الكوفة الذى ترجمنا له فى الفصل الماضى دخل عليه وهو فى مجلس شراب ، فأنشده[1] :

باتوا على قُلَلِ الأَجْبال تحرسهم غُلْبُ الرِّجال فما أَغْنَتْهُمُ القُلَلُ
واستُنْزِلوا بعد عِزٍّ من معاقلهم فأُودِعُوا حُفَرًا يابئسَ مانزلوا
ناداهمُ صارخٌ من بعد ما قُبِروا أين الأَسرَّة والتِّيجان والحُلَلُ
وأفصح القَبْرُ عنهم حين ساءلهم تلك الوجوه عليها الدودُ يَقْتتل
قد طالما عَمروا دورًا لتُحصنهم ففارقوا الدور والأَهلين وانتقلوا

ومضى فى موعظته وبكى المتوكل بكاء طويلا حتى بَلَّتْ دموعه لحيته وبكى مَنْ حضره ، وأمر برفع الشراب ، وكأنما ثاب إلى رشده . وممن كان يكثر فى العصر من الوعظ فى شعره العتاهية وأشعار أبيه الزاهدة مشهورة . ويقول ابن المعتز عن الأب إنه كان ناسك الظاهر وكان خبيث الدين يذهب مذهب الثَّنَوِيَّة ، أما الابن فكان صحيح الدين ورعًا وولى القضاء برهة ، ويُرْوَى له موعظة حائية يستهلها بقوله[2] :

---

(١) مروج الذهب ٤ / ١١ .
(٢) طبقات الشعراء لابن المعتز ص ٣٦٤ .

أراعك شَيْبٌ فى السوادِ يلوحُ   يبثّ بأسباب البِلا وينوحُ

والموعظة تدور على أن الشيب ناقوس الموت . وقد بدأ يدق بقوة ، فعما قليل ستزهق الروح . ويذكر المرزبانى شاعراً معاصراً للمعتز من المعتزلة ، ويقول إن له أشعاراً يحض فيها على القول بالعدل والتوحيد المبدأين المعروفين فى الاعتزال ، ثم يذكر له أشعاراً[١] كلها مواعظ ودعوة إلى التقوى، وتخويف من الموت وما بعده . وقد قلنا آنفاً إن شعراء اللهو ومن وراءهم من شعراء الخمر كثيراً ما نظموا فى الزهد ، ولا يكاد شاعر ممن ترجمنا لهم يخلو ديوانه أو تخلو أشعاره من بعض أبيات زاهدة ، وفى ديوان ابن المعتز والصنوبرى وابن الرومى زهد كثير ، ولعل أحداً لم يرسم صورة الزاهد فى هذا العصر كما رسمها ابن الرومى فى قصيدة بديعة من قصائده ، نكتفى منها بالأبيات التالية[٢] :

بات يَدْعو الواحد الصمدا   فى ظلام اللَّيْل منفــردا
فى حَشَــاه من مَخافتِهِ   حُرُقاتٌ تَلْذع الكَ
كلمـــا مَرَّ الوعيد بهِ   سَحَّ دَمْعُ العَيْن فاطَّردا
قائلٌ : يا منتهى أمـــلى   نَجِّنى مما أخاف غَدا
وخطيئاتى التى سَلَفَتْ   لستُ أُحصى بعضها عددا
وَيْحَ عينى ساءَ ما نظرتْ   وَيْحَ قلبى ساءَ ما اعتقدا

وهذه الموجة الحادة من الزهد أخذت تلتقى بها منذ أواخر القرن الثانى الهجرى موجة صوفية ، تعد وليدة الموجة السابقة ، ومرّ بنا فى الفصل الثانى حديث مفصل عن نشأتها وتطورها ومقوماتها وكيف أنها قامت على فكرة المحبة الإلهية وما يتصل بهذه الفكرة من إنكار الذات ومن التوكل على الله توكلا خالصاً . ونمضى فى العصر ويلقانا ذو النون المصرى الذى يُعَدّ الأب الحقيقى للتصوف ، وهو أول من تكلم عن المعرفة الصوفية فارقاً بينها وبين المعرفة العلمية والفلسفية التى تقوم على

---

(١) معجم الشعراء ص ٤٠٨

(٢) ديوان ابن الرومى (نشر كامل كيلانى) ص ٧١ وانظر ٤٩ .

الفكر والمنطق ، على حين تقوم المعرفة الصوفية على القلب والكشف والمشاهدة ، فهى معرفة باطنة تقوم على الإدراك الحدْسى ، ولها أحوال ومقامات ، ومن قوله يخاطب ربه[١] :

أَموتُ وما ماتتْ إليك صَبابتى ولا قُضِيَتْ من صِدْق حُبِّك أَوْطارى

تحمَّل قلبى فيك ما لا أَبثُّه وإن طال سقمى فيك أوطال إضرارى

ويخلفه أبو يزيد البسطامى فيذيع فكرة الفناء فى الذات الإلهية ، كما مر بنا فى غير هذا الموضع ، ويقصد بها تجرد النفس عن رغباتها وقَمْعها لشهواتها وانمحاء إرادتها فى الإرادة الإلهية . ونمضى حتى نلتقى بالجنيد رأس الطبقة الثانية من المتصوفة ونراه يعبِّر عن فنائه فى الذات الربانية بمثل قوله[٢] :

أَفْنَيْتَنِى عن جَمِيعى فكيف أَرْعَى المحلاَّ

وهو الذى عمل على ترسيخ نظام الطرق والمريدين فى التصوف ، وكان يكثر من العبارات والشطحات الموهمة فى مواعظه . وكان يعاصره أبو الحسن النورى ، وكان شاعراً ، ويكثر فى أشعاره من التعبير عن الحب الإلهى وفكرة الفناء فى الذات العلية بمثل قوله[٣] :

تـأَمَّلْ بعين الحق إن كنت ناظرًا إلى صِفَةٍ فيها بدائعُ فاطرِ

ولا تُعْطِ حظَّ النفس منها لما بها وكُنْ ناظرًا بالحق قدرةَ قادر

ويلقانا أبو الحسين سَحْنون الخَوَّاص ، وله شعر كثير فى المحبة الربانية وما يصحبها من وجد لا يماثله وجد وشوق لا يماثله شوق ، وكذلك فى فكرة الفناء المطلق فى الله بحيث لا يصبح فى المتصوف أى فضل لإحساس أى شىء من حوله ، فقد فنيت فيه جميع الصفات والرغبات ولم تبق إلا رغبة واحدة هى رغبة الانمحاء فى الذات الربانية التى تملك عليه كل شىء من أمره ، يقول[٤] :

---

(١) طبقات الصوفية للسلمى ص ٢٧ .
(٢) السلمى ص ١٥٦
(٣) السلمى ص ١٥٥
(٤) السلمى ص ١٨٩

وكان فؤادى خالياً قبل حبكم   وكان بذكر الخلقِ يلهو ويمزحُ
فلما دعا قلبى هــواك أجابه   فلست أراه عن فِنائك يبرح
رُميتُ ببينٍ منك إن كنتُ كاذباً   وإن كنتُ فى الدنيا بغيرك أفرح
وإنْ كل شىء فى البلاد بأَسْرها   إذا غبتَ عن عَيْنى بعينىَ يَمْلُحُ

ومن تلامذة الجنيد المهمين أبوعلى الرُّوذْبارى ، وكان يقول : المريد الذى لا يريد لنفسه إلا ما أراد الله له ، يريد أنه هو الذى تفنى إرادته فى الإرادة الإلهية ، بحيث لا يحس المريد أو المتصوف شيئًا فى الكون سوى الله ، وكان شاعراً ومن شعره فى فكرة الفناء وغياب روحه عن حِسٍّ أى شىء من أشياء الكون(١) :

روحى إليك بكلِّها قد أجمعتْ   لو أنَّ فيها هُلْكها ما أقلعتْ
تبكى عليك بكلِّها عن كلِّها   حتى يُقال من البكاء تقطَّعتْ

والبيتان يحملان فكرة الفناء وفكرة المحبة التى تخلِّص النفس لربها . والفكرتان تتداخلان فى التصوف . فالمحبة التى تنكر الذات تنتهى إلى فكرة الفناء والغياب عن كل حسٍّ وكل خاطرة إلا الذوبان فى الذات العلية . ونعرض لاثنين من كبار المتصوفة بشىء من التفصيل وهما الحلاَّج والشِّبْلى .

الحلاج (٢)

أشهر تلاميذ الجنيد هو الحسين بن منصور المعروف باسم الحلاَّج ويقال إن أباه هو الذى كان حَلاَّجًا يحلج الصوف أو القطن أما جَدّه فكان مجوسيًّا أسلم ودخل فى الدين الحنيف ، وقد نشأ فى مدينة تُسْتَر ، فلزم سهلا التسترى

(١) السلمى ص ٣٦٧

(٢) راجع فى ترجمة الحلاج وأخباره وأشعاره السلمى ٣٠٨ وتاريخ مسكويه ١ / ٧٦ والفهرست ص ٢٨٣ والفخرى فى الآداب السلطانية ص ١٩٢ وتاريخ بغداد ٨/ ١١٢ والطبرى ١٠/ ١٤٧ وابن الأثير وتكملة تاريخ الطبرى ص ٢٣ وابن خلكان والنجوم الزاهرة ٣/ ٢٠٢ وشذرات الذهب ٢/ ٢٥٣ وكتاب أخبار الحلاج (طبع باريس) وكتاب فى التصوف الإسلامى لنيكلسون (طبع لجنة التأليف والترجمة والنشر) وكتابه الطواسين نشر ماسينيون بباريس وكتاب ماسينيون عنه .

الصوفى ، الذى أضاف إلى التوبة عند المتصوفة عنصر الندم ، والذى أخذ عن الشيعة فكرة عمود النور محل نفوس المؤمنين . وكأن الله يتجلّى فيهم منذ البدء . وقدم بغداد بعد أن أصبح مزوّداً بكثير من المعارف وصحب الجنيد وأخذ عنه شطحاته وعباراته الطنانة الموهمة ، وبالغ فيها وأسرف إسرافاً شديداً ، ووقع فى نفسه أنه أعلى من الجنيد فى عالم التصوف وأرفع ، وأنه رقى مرتبة الكمال التى طالما حلم الجنيد ببلوغها دون أن يدركها . وفارقة متجهاً إلى أداء فريضة الحج وأقام بمكة سنة ، ثم أخذ يطوف فى البلدان وتعرّف فى طوافه على أبى بكر الرازى أشهر أطباء العصر وتخرج عليه فى الفلسفة اليونانية وعلم الكيمياء ، وتعمق فى طوافه ورحلاته حتى بلغ الهند ، وتعرف فيها على ما يشيع بها من السحر والشعبذة والنيرنجيات . وفى عودته التحق بالقرامطة وتمثّل عنهم عقيدتهم . وأدى فريضة الحج للمرة الثانية ، وعاد إلى بغداد سنة ٢٩٥ للهجرة وأخذ ينشر بها آراءه فى أن الزاهد إذا تحمل المشاق والآلام وظل يصفّى نفسه بالمجاهدات والرياضات المضنية انتهى إلى الدرجة الرفيعة التى يبتغيها إذ يتمثّل فى نفسه حقيقة الصورة الإلهية التى سوّاها الله فيه ، وبذلك يصبح هو والحق بمنزلة سواء . وجادله أستاذه الجنيد فى هذه الفكرة طويلا ، غير أن كثيرين من المريدين اجتمعوا حوله ، وأخذ يكثر من الشطحات ومن الكلام الموهم للكفر والخروج حتى على متصوفة عصره من مثل «أنا الله» ، ويقال إن الشبلى قال له : بل أنت بالله ، ومثل «أنا الحق» ، ويقال إن الجنيد قال له : بل أنت بالحق. ويبدو أنه كان يضيف إلى ذلك بعض الشعبذات والمخلوطات الكيمائية التى تعلمها على الرازى والنيرنجيات التى تعلمها فى الهند ، وأحاطت به ريب المعتزلة واتهموه بالزندقة ، وأثار الفقهاء عليه رجال الدولة ، فسيق إلى السجن لسنة ٣٠١ وظل فيه ثمانى سنوات ، كان يُسْمَح له فيها بأن يزوره مريدوه وأن يتراسل مع من يشاء . وحاولت «شغب» أم الخليفة المقتدر وحاجبه نصر أن يخلصاه من السجن ، فدعا الوزير حينئذ حامد بن العباس قضاةَ المذاهب الأربعة لمحاكمته ، وانعقدت جلسات المحاكمة ، وتقدم الشهود ، وشهدوا بأنه ادعى الربوبية والنبوة ، ولكنه أنكر ذلك ، وثبت عليه أنه يقول بأن الحج ليس من الفرائض الواجب أداؤها شرعاً . ولعل هذه التهمة هى التى دفعت الفقهاء إلى الفتوى بصلبه ، فقد أنكر ركناً أساسياً من أركان الدين . ويبدو أنه لم يكن يُحيلّ المتصوف الذى بلغ مثل منزلته بالمجاهدات

الشاقة من فريضة الحج وحدها ، بل كان يحلُّه من جميع الفرائض رافعًا عنه التكليف إذ أصبح مساويًا للحق. ومن الممكن أن يكون دعا سرًّا للقرامطة وأن تكون هذه الدعوة من الأسباب فى سجنه وصلبه . وقد نُفِّذ الحكم عليه فى الثانى عشر من ذى القعدة لسنة ٣٠٩ فضُرب ألف سوط ثم قُطعت يداه ورجلاه ، وحُزّ رأسه ونُصب يومين على الجسر ، ثم حُمل إلى خراسان فطِيف به هناك ، أما جثته فأُحرقت وأُلقى برمادها فى دجلة . وهرب مريدوه إلى خراسان وأخذوا يُحيُون بها ذكراه ، وظلت خالدة على مرّ الأجيال بين متصوفة العرب والفرس والترك .

وكان أهم ما جعل بعض العلماء والناس فى عصره حتى اليوم يذهبون إلى زندقته نظريته فى الخالق وخَلْقه فقد كان يظهر أنه يؤمن فى الخالق بتنزيهه كما يبدو ذلك فى كلمات كثيرة له مثل : «إن الله تعالى لا تحيط به القلوب ولا تدركه الأبصار ولا تمسكه الأماكن ولا تحويه الجهات ولا يتصوَّر فى الأوهام ولا يتخايل للفكر ولا يدخل تحت كيف ولا يُنْعت بالشرح والوصف » وهذا تنزيه مطلق عن التشبيه بالمخلوقات ولكنه كان يعود فيقول إن الإنسان إذا أقبل على تحمل المشاق والآلام انطبعت فى نفسه الصورة الإلهية ، فالله يُرَى فيه ، مع إيمانه بأنه غير مخلوقاته وأنه فوق كل شيء ، وهذا هو معنى قوله : أنا الله وأنا الحق ، فهو صورة له ، وليس هو بعينه ، وكأنما الأثر القديم : «إن الله خلق آدم على صورته» ، هو الذى جعله ينطق بالكلمتين السابقتين ، وهو لا يريد ظاهرهما ، إنما يريد أن الله يتجلّى فيه ، كما يتجلّى فى خلقه ومن هنا أُثر عنه أنه كان يقول : ما رأيت شيئًا إلا ورأيت الله فيه . وهو لم يستمد النظرية من الأثر السابق وحده فقد استمدها أيضًا من نظرية الناسوت واللاهوت اللذين يؤلفان الطبيعة الثنائية للمسيح ، إذ آمن باتحاد الناسوت وهو الروح الإنسانى فى اللاهوت وهو الروح الإلهى ، وبذلك يظهر الله بصورته فى الإنسان ، ونراه يصرح بذلك إذ يقول فى الطّواسين :

سُبْحانَ من أظهرَ ناسوتُه ... سِرَّ سَنَا لاهوتِه الثاقبِ
ثم بدا لخلقه ظاهـرًا ... فى صورة الآكل والشارب
حتى لقد عايَنه خَلْقُهُ ... كلَحْظـةِ الحاجب بالحاجبِ

وهو يشير فى البيت الأول إلى آدم وفى البيتين الثانى والثالث إلى ذريته ؛ فهم جميعاً ناسوت يُظْهر أسرار اللاهوت ، ويصدق ذلك على الحلاج كما صدق عند المسيحين على عيسى ، ومن هنا قال عن نفسه كما قدمنا : أنا الحق أو أنا الله ، ومثّل ذلك فى عبارات طنانة ، وهو فيها تارة يشعر بالانفصال بين الطبيعتين وأنهما لا تمتزجان فى مثل قوله : « اللهم إنك المتجلى من كل جهة المتخلى من كل جهة ، بحق قيامك بحقى وبحق قيامى بحقك ، وقيامُك بحقى يخالف قيامى بحقك ، فإن قيامى بحقك ناسوتية وقيامك بحقى لاهوتية » . وتارة ثانية يشعر بأنهما ممتزجتان امتزاجاً تامًّا ، يقول مخاطباً ربه :

مُزِجَتْ روحُك فى روحى كما   تُمْزَجَ الخمرةُ بالماء الزُّلالْ
فإذا مسَّك شىء مَسَّنى   فإذا أنت أنا فى كلِّ حال

وكأنه يشاهد الله فى ذاته ، أو كأنما حَلّ اللاهوت فيه بالضبط كما آمن المسيحيون فى المسيح ، فالروح الإلهية أو اللاهوت يحلّ فيه حتى لتشعّ أنواره فى كل كيانه ، ويصور ذلك بمثل قوله :

حويتِ بكُلِّى كلَّ كلِّك ياقُدْسِى   تكاشفنى حتى كأنَّك فى نفسى

وقوله :

أَنت بين الشَّغاف والقلب تجرى   مثل جَرْىِ الدموع من أَجفانى
وتَحُلُّ الضميرَ جوفَ فؤادى   كحلول الأَرواح فى الأَبدانِ

وهكذا تجرى على لسانه كلمة الحلول ، وكل ذلك يؤكد أنه تثقف بالثقافة المسيحية وعرف ما قيل فيها من طبيعة المسيح معرفة بيِّنة واستقر فى نفسه أن كل ما قيل عن اللاهوت والناسوت فيه يصدق على كل متصوف جاهد جهاداً عنيفاً فى الاتصال بربه ومحبته محبة تملك عليه الشغاف من قلبه ، حتى ليحس فى قوة بالاتحاد معه ، مما جعله يقول :

أَنا مَنْ أَهوى ، ومَنْ أَهوى أَنا   نحن روحان حَلَلْنَا بدَنَا
فإذا أَبْصَرْتنى أَبْصَـرْتَهُ   وإذا أَبْصَرْتَـهُ أَبْصَرْتَنَـا

وقد رفع الرسولَ صلى الله عليه وسلم مراتبَ فوق جميع الخلق ، ويبدو أنه أول من أعدَّ لفكرة الحقيقة المحمدية ، وأن محمداً بتلك الحقيقة لا بصورته الجسادية يُعَدّ مبدأ العالم ، إذ هو النور الذى تَفجَّرت من ينابيعه جميع أنوار النبوات ، بل هو مبدأ الوجود كله ونَبْعُه الفيَّاض السابق لكل موجود ، أو بعبارة أخرى هو الحقيقة الإلهية السارية فى الوجود .

وتكثر عنده كلمات الوجد ولهيبه المشتعل فى القلب والسكر ونشوته التى تفقده وَعْيه والفناء الذى تفنى فيه جميع حواسه ، حتى ليرى كأن وجوده هو نفس وجود الذات العلية ، وفى ذلك يقول :

إذا بلغ الصَّبُّ الكمالَ من الهوى وغاب عن المذكور فى سطوة الذكرِ
فشَاهَدَ حَقًّا حين يشهده الهوى بأَن صلاة العارفين من الكفر

فكمال الحب الصوفى عنده أن يجاهد المتصوف ويعانى ويلقى الأمرَّين فى حبه بمداومة ذكر محبوبه وتسبيحه حتى ليغيب عند ذكره حين تأخذه نشوته به ، فيغيب عن ربه ويغيب عن الوجود كله . وحينئذ يصل المتصوف إلى حال تجعله يؤمن بأن صلاة أمثاله من الكفر ، وهو يريد أنه حين يصل إلى هذه الحال يرتفع عنه التكليف . وبذلك يتضح أنه هو الذى أعدَّ للانفصام بين أهل الحقيقة من المتصوفة وأهل الشريعة من الفقهاء . وظل هذا الانفصام قائماً بعده عند الغلاة من المتصوفة حتى رتق فتقه القشيرى والغزالى فى القرن الخامس الهجرى . ويُبْدِئ ويُعيد فى تصوير مجاهداته وما يحتمل فيها من أهوال طوال وآلام ثقال ، كقوله فى بعض مناجاته للذات العلية : « أنت تَعْلم ولا تُعْلَمُ ، وتَرَى ولا تُرَى . . . وأنا بما وجدت من روائح نسيم حبِّك وعواطر قربك أستحقر الراسيات ، وأستخفّ الأرضين والسموات ، وبحقك لو بِعتَ منى الجنَّة بلمحة من وقتى أو بطرفة من أحرّ أنفاسى لما اشتريتها ، ولو عرضتَ علىَّ النارَ بما فيها من ألوان عذابك لاستهونتُها فى مقابلة ما أنا فيه من حال استتارك عنى » . ومن قوله فى وصف مجاهداته :

لقد ركبتُ على التغرير واعجَبا ممن يريد النَّجا فى المسلك الخَطِرِ
كأَننى بين أَمواجٍ تقلِّبنى مقلَّبٌ بين إصعادٍ ومنحدَر

الحزنُ فى مهجتى والنارُ فى كِبدى والدَّمْعُ يشهد لى فاستشهدوا بَصَرِى

ولعلنا لا نُبْعد إذا قلنا إنه هو الذى وضع فى التصوف الإسلامى فكرة أن الأديان جميعًا تؤدّى إلى الله . وفقط تختلف شعائرها ، ولكنها تتحد فى الغاية . وبذلك تخطّى حدود الإسلام إلى حدود الديانات جميعًا ، مما جعله يقول :

أَلا أَبلغْ أَحبَّائى بأَنّى ركبتُ البحر وانكسرَ السَّفينه

ففى دِين الصَّليبِ يكون موتى ولا البَطْحَا أُريد ولا المدينه

وهو لا يريد أن يقول إنه انسلخ عن الإسلام وأصبح لا يريد الموت فى بطحاء مكة ولا فى المدينة المقدسة . إنما يريد أن يقول إنه يرى الله فى المسجد وفى الدَّير وفى كل معبد من معابد الديانات . فالديانات جميعًا عنده سواء . وفى الحق أن أشعاره وأقواله تحمل كثيراً من الإبهام والغموض حتى لتصبح أحيانًا — كما فى كتابه الطواسين — ألغازاً خالصة .

الشبلى[1]

كنيته أبو بكر . واسمه دُلَف بن جَحْدر . وقيل : جعفر بن يونس ، وقيل جعفر بن دلف ، وقيل غير ذلك . وأصل أهله من أشْروسنة جنوبى طَشْقَنْد الحالية . فهو تركى العِرْق . رقى أبوه فى قصر الخلافة حتى أصبح حاجب الحجّاب ، وكان خاله يلى إمرة الإسكندرية بمصر . ويبدو أنه استعان به فى عمله لعدة سنوات إذ يزعم بعض من تحدثوا عنه أنه كان مصريًّا وأنه ورد بغداد من مصر . وقد تركت مصر والإسكندرية فيه بعض طوابعهما . إذ نراه يعتنق مذهب

(١) انظر فى الشبلى وحياته وأشعاره السلمى ص ٣٤٠ وتاريخ بغداد ١٤/ ٣٨٩ وابن خلكان ونشوار المحاضرة للتنوخى ١٧٢ والديباج المذهب لابن فرحون ص ١١٦ وصفة الصفوة ٢/ ١٦١ والأنساب للسمعانى الورقة ٣٢٩ وتذكرة الأولياء لفريد الدين العطار ٢/ ١٢٧ وحلية الأولياء لأبى نعيم ١٠/ ٣٦٧ وتلبيس إبليس لابن الجوزى ٣٤٧ وشذرات الذهب ٢/ ٣٣٨ وروضات الجنات ص ١٦٠ وديوانه (طبع المجمع العلمى العراقى) بتحقيق كامل مصطفى الشيبى وما ذكر فيه وفى تقديمه من مراجع

المالكية الذى كان يعتنقه أهل الإسكندرية ومحافظة البحيرة القريبة منها . وعاد إلى العراق ، فقرَّبه منه الموفَّق – ولى عهد المعتمد وصاحب الأمر من دونه فى خلافته – واتخذه حاجبًا له ، ثم ولاَّه دُنْباوند بالقرب من الرَّىّ ويَحدُثُ منه ما يجعل أمير الرى التابع له يصرفه عن عمله . وكان ذلك نعمة كبرى عليه ، فإنه انصرف إلى مجالس المتصوفة وخاصة مجلس خير النسَّاج تلميذ السَّرِىّ السقطى ، وأبى حمزة البغدادى وعلى يديه تاب وأناب . ولم يلبث أن لحق بالجُنَيْد أستاذ الصوفية ببغداد حينئذ ، ويقال إنه عاد إلى ولايته يستسمح الناس ويطلب منهم العفو إن كان قد أساء إلى أحد منهم وفرَّق أمواله فى الفقراء ، ورجع إلى الجنيد فأخذه برياضات ومجاهدات عنيفة ، ويذكرون أنه قال له فى أول سلوكه الطريق : « لقد حدثونى أن عندك جوهرة العلم الربَّانى . فإما أن تمنحنيها ، وإما أن تبيعنيها ؟ فقال له الجنيد : لا أستطيع أن أبيعكها فما عندك ثمنها ، وإن منحتها لك أخذتها رخيصة فلا تعرف قدرها ، ألْقِ بنفسك غير هَيَّاب فى عُبابِ هذا المحيط مثلما فعلتُ ، فعلَّك – إن صبرت – أن تظفر بها » . ومضى الشبلى يجاهد ويَضْنَى فى جهاده ويَشْقَى طوال حياة شيخه الجنيد حتى إذا توفى سنة ٢٩٧ صحب الحلاج ، وكان يزوره فى سجنه ، ولكنه لم يعتنق مذهبه الذى صوَّرناه آنفًا وما اتصل به من أفكار اللاهوت والناسوت والحلول والاتحاد ورفع التكاليف الشرعية ، فقد كان يصل بقوة بين الحقيقة أو الحقائق الصوفية والشريعة متابعًا أستاذه الجنيد فى اتباع الكتاب والسنة ، بل فى التفقه ورواية الحديث النبوى ، وبذلك لم يترك الحلاج فيه أى أثر . ويزعم بعض من تحدثوا عنه من القدماء أنه كان شيعيًّا ، وقد عرفنا آنفًا أنه كان مالكى المذهب ، وهو لذلك يُسْلَك مع أهل السنة . ويقال إنه لما قُتل الحلاج خشى على نفسه لتردده عليه ، فتظاهر بالخبل لئلا يُمْتَحن ، وأُدْخل المارستان ، ثم خرج منه ، وتفرَّغ للوعظ ، فكان ينعقد له مجلس أيام الجمع ، يحضره الناس على تفاوت طبقاتهم ، وكان يحضره على بن عيسى وزير المقتدر ، وذاع صيته ، فكان يقصده الطلاب والمتصوفة من كل فجّ . وما زال يحتلّ ببغداد هذه المكانة العليَّة حتى توفى سنة ٣٣٤ للهجرة عن سبعة وثمانين عامًا .

وكان الشبلي في تصوفه دائمًا سُنيًا ، فلم يكن يزعم لنفسه حال غيبة ولا ابتعد عن ظاهر الشريعة ، ويقال إنه سُئل مَنْ أسعدُ أصحابك بصحبتك؟ فقال : أعظمُهم لحرمات الله وألهجهم بذكر الله وأقومهم بحق الله وأسرعهم مبادرةً في مرضاة الله وأعرفهم بقضائه وأكثرهم تعظيمًا لما عظَّم من حرمة عباده . وكان يقول إن الله موجود عند الناظرين في صُنْعه مفقود عند الناظرين في ذاته ، وسأله سائل : هل يتحقق العارف بما يبدو له ؟ فقال : كيف يتحقق بما لا يثبت ؟ وكيف يطمئن إلى ما لا يظهر ؟ وكيف يأنس بما يخفى ؟ ولم يلبث أن قال :

فمَنْ كان في طول الهَوَى ذاقَ سَلْوَةً ... فإنيَ من لَيْلَى لها غَيْرُ ذائقِ

وأَكثَرُ شيءٍ نلتُه مِنْ نَوَالها ... أَمانيُّ لم تَصْدُقْ كلَمْحَةِ بارقِ

فهو لم يكن يقول حتى بالشهود فضلا عن الحلول والاتحاد . وكان ينكر كل ما قيل ، أو بعبارة أدق كل ما قاله الحلاج عن تجلى الله في عبيده ومخلوقاته ، فالله واجب الوجود وخالق العالم شيء والعالم بكل ما فيه من مخلوقات شيء آخر ، وهو يخاطَبُ ولكن لا يُرَى ولا يشاهد ، يقول :

وخاطبتُ موجودًا بغير تكلُّمٍ ... ولاحظتُ معلوماً بغير عِيانِ

وكان يقول : « تعززت به وما افترقنا وكيف نفترق ولم يَجْرِ علينا حال الجمع أبداً » . وكان يتحدث كثيراً عن الأحوال والمقامات ، ويُبْدئ ويعيد في الحديث عن حبه ، ومن قوله : « أُدْخِلْتُ المارستان كذا وكذا مرة ، وأُسْقِيت الدواء كذا وكذا مرة ، فلم أزدد إلا جُنونًا » ، وكثيراً ما كان ينشد قوله :

جرى حبّك في قلبي ... كجَرْى الماء في العودِ

وقوله :

هذه دارهم وأنت محبٌّ ... ما بقاءُ الدموعِ في الآماقِ

ويطيلُ الحديث عن عذابه في حبه وما يتحمل فيه من أهوال وما يسكب من دموع غزار ، حتى في العيد ، فالناس فيه يفرحون ويُعِدّون الراح والريحان وآلات الطرب ، أما هو فيُفْضي إلى حزن شديد ونوح وتعديد ، حتى لكأنما يحمل تحت

ثيابه قبراً ، فهو دائم البكاء دائم النواح ، يقول :

قبورٌ الوَرَى تحت الترابِ وللهوى رجالٌ لهم تحت الثيابِ قبورُ

وعندى دموعٌ لو بكيتُ ببعضها لفاضتْ بحورٌ بعدهن بحورُ

وكان يؤمن بالفناء فى الذات الإلهية مثل أستاذه الجنيد ، ولكن لم يكن يَفْنَى فيه عن نفسه الواعية، فتصوفه دائمًا تصوف صَحْو لا تصوف غَيْب، وإن بدا فى كلامه أحيانًا أن فناءه إنما يكون فى حال غيبة من مثل قوله وقد سُئل : متى يكون العارف بمشهد الحق ؟ فأجاب : إذا بدا الشاهد وفنيت الشواهد وذهبت الحواس واضمحلّ الإحساس » ، وذُكر عنه أنه كان يقول : « هذا مجنون بنى عامر كان إذا سُئل عن ليلى يقول: أنا ليلى ، فكان يغيب بليلى عن ليلى حتى يبقى بمشهد ليلى ويغيِّبه عن كل معنى سوى ليلى، ويشهد الأشياء كلها بليلى » . ولكن ينبغى ألا نظن من مثل هذا القول أنه كان يؤمن بانمحاء التفرقة بين الشاهد والمشهود مثل الحلاّج ، إنما يريد الإحساس بالفناء فى الذات العلية ، ومن طريف ماله من ذلك قوله :

تَسَرْمَدَ وقتى فيك فهو مُسَرْمَدٌ وأفْنَيْتنى عنى فعُدْتُ مُجَدَّدًا

وكُلِّى بكلٍّ الكلِّ وَصْلٌ محقَّقٌ حقائقُ حَقٍّ فى دوامٍ تخلَّدَا

وقوله :

تَغَنَّى العـودُ فاشْتَقْنا إلى الأَحباب إذ غَنَّى

وكُنَّا حيثما كانُوا وكانوا حيثما كُنَّـا

وكان ينكر كل ما تورط فيه الحلاج من شعوذات ونيرنجيات مما رواه عنه بعض مريديه، وتتردد على لسانه كثيراً كلمة السكر ، وسأله سائل : هل شاهد اللهَ أحدٌ بحقيقته ؟ فقال : الحقيقة بعيدة ، ولكن ظنون وأمانىّ وحُسْبان .

---

(١) السرمد : الدائم ، وتسرمد : خلد

٤

شعراء الطرد والصيد

مَرَّ بنا فى كتاب العصر العباسى الأول أن الخلفاء والوزراء وعِلْية القوم شُغفوا بالصيد والطَّرَد حينذاك وأن الشعراء وفى مقدمتهم أبو نواس نظموا طَرَدِيَّات كثيرة، اختاروا لها وزن الرجز، ولأبى نواس نحو خمسين طَرَدِيَّة أحسن فيها غاية الإحسان. واستمر الخلفاء وأبناؤهم وكثير من الناس فى هذا العصر يُوَاعُون بالصيد، وممن كان يولع به من الخلفاء وَلَعًا شديداً المتوكل، إذ كان يُولَعُ بالفهود والصيد بها كما كان يولع بالشباك. ولعل خليفة فى العصر لم يُشْغَفْ بالصيد كما شُغف المعتضد ومَرَّ بنا فى الفصل الثانى أنه كان يخرج لصيد الأسود، ويقال إنه كان يتقدَّم لها وحده، وفى ذلك يقول له بعض معاصريه[1]:

يا صائد الأُسْد إن صَيْدَكها   لجامعٌ خَلَّتين من رَشَدِ
فَلذَّة تُجْتَنَى ومنفعــةٌ   للسالكين السَّبيلَ والقَعَد[2]

ويذكر الصابى أنه كان يُنْفق يوميًّا سبعين ديناراً لأصحاب الصيد من البازياريين والفهَّادين والكلاَّبين[3]. وورث ابنه المكتفى عنه هذه الهواية، فكان يولع بالفهود والعقبان والصيد بهما. وكان المعتز مثلهما يخرج للصيد فى مواكب حافلة. وانتشر ذلك بين ذوى الوجاهة انتشاراً واسعًا، مما أهَّل لازدهار شعر الطرد فى العصر، حتى كاد لا يكون هناك شاعر نابه لا ينظم فيه طَرَدِيَّة بل طرديات، وقد مضوا ينظمونها فى بحور وأوزان مختلفة غير مكتفين بالرجز، إذا نحن استثنينا ابن المعتز، وكأنه رأى أن يظل متمسكًا بوزنها القديم، أما معاصروه فرأوا الاتساع بها، بحيث تُنْظَمُ فى أى وزن حسب مشيئاتهم الفنية، ولم يتركوا ضاريًا من ضوارى الصيد إلا وصفوه ولا جارحًا من جوارحه إلا نعتوه، نعتوا الكلاب

---

(١) المصايد والمطارد لكشاجم ص ١٧٣.

(٢) القعد: جمع قاعد.

(٣) كتاب الوزراء ص ١١ وما بعدها.

والفهود والبُزاة والشواهين والصُّقور والعقْبان ، ونعتوا الصيد من حُمر الوحش وأتُنه وثيرانه وبقره وظبائه ونعامه وكذلك من الأرانب والثعالب والذئاب والآساد والطير والإوزّ ، وألموا بآلاته من النَّبْل والسهام والنشَّاب والفِخاخ والشباك والحبال المسماة بالأوْهاق التى تُجعَل فى أطرافها أنشوطة وتُرْمَى على الحيوان فتمسك بعنقه ، والجُلاهق وهو بندق مدوَّر من طين يُرْمى به. وكان لهذا النشاط الواسع فى الصيد وما يتصل به من الشعر أثر فى أن أخذت تؤلَّف كتب مختلفة فى البَيْزرة وفى المصايد والمطارد . تفصِّل القول فى الصيد وآلاته وضواريه وجوارحه . وقد نُظمت حينئذ طرديات كثيرة . لا نستطيع أن نستقصيها ولا أن نستقصى شعراءها لكثرتهم المفرطة ، ونكتفى بالوقوف عند أعلامهم ، وأول من نقف عنده على بن الجهم ، وكان قد خرج يوماً مع طاهر بن عبد الله بن طاهر أمير خراسان إلى الصيد واتفق لهما فى مَرْج للزعفران كثيرٌ من الطير والوحش . فاصطادا منهما كثيراً بالبزاة والصقور والشواهين والكلاب . وفى ذلك يقول[1] :

وَطِئْنا رياضَ الزَّعْفَران وأَمسكتْ — علينا البُزَاةُ البِيضُ حُمْرَ الدَّرَارجِ[2]

ولم تَحْمِها الأَدْغالُ منا وإنَّما — أَبَحْنَا حِمَاها بالكلاب النَّوَابِج[3]

بِمُسْتَرْوِحاتٍ سابحاتٍ بطونُها — على الأَرض أَمثال السهام الزَّوَالج[4]

ومستشرفاتٍ بالهوادى كأَنها — وما عَقَفَتْ منها رُءُوس الصوالج[5]

ومن دالعاتٍ أَلْسُنًا فكأَنها — لِحىً من رجالٍ خاضعين كَوَاسج[6]

فَلَيْنَا بها الغِيطانَ فَلْيًا كأَنها — أَناملُ إحدى الغانيات الحوالج[7]

قَرَنَّا بُزَاةً بالصقور وحوَّمتْ — شواهِيننا من بعد صيد الزَّمامج[8]

وهو يصور الصقور والكلاب تصويرات بديعة . فمنقار الصقر كأنه صَوْلجان ،

---

(١) ديوان على بن الجهم ص ١٢٠ .

(٢) الدرارج : جمع دراج وهو طير ملون الريش .

(٣) النوابج : النوابح .

(٤) مستروحات : تشم آثار الصيد . سابحات : مسرعات . الزوالج : التى تنزلق بسرعة .

(٥) الهوادى : الأعناق . عقفت : تعوجت . الصوالج : جمع صولجان .

(٦) دالعات : مخرجات . الكواسج : جمع كوسج وهو من لحيته على ذقنه دون عارضيه .

(٧) فلينا : فحصنا . الحوالج : اللائى يخلصن البذور من القطن .

(٨) الزمامج : جمع زمج : طير جارح أصغر من العقاب

والكلاب حين تَدْلَعُ ألسنتها لاهثات كأنما ألسنتها لِحَىً مرسلة على الذقون ، وقد فحصت المرج البُزاة والكلاب فحصًا دقيقًا حتى لكأنها أنامل دقيقة لسيدة تفلى القطن وتخلّص الحبَّ منه ، فلا تبقى حبة مختبئة ، بل كل الحب يُستَخْلَص ، تستخلصه أنامل مرهفة . ومرَّ بنا فى الفصل الرابع تصوير البحترى لصيد الأسد وكذلك تصويره لصيده الذئب وقد لقيه فى فلاة موحشة ، وهما لوحتان رائعتان .

ولابن الرومى غير قصيدة فى الطَّرْدِ والصيد ، ونكتفى من طردياته بالقطعة التالية التى يصور فيها صَيْدَ صحابه للطير . وقد تقلَّدوا أوعية حمراء من جلد أودعوها كثيراً من البُنْدق الذى يُرْمَى به . وأشرعوا أقواسهم مسدّدين البندق منها للطير الهاجع وقت السحر ، يقول[1] :

وجَدَّتْ قِسِىُّ القَوْمِ فى الطير جِدَّها ... فظلَّتْ سجودًا للرُّماة ورُكَّعَا

طرائحَ من بِيضٍ وسُودٍ نَوَاصِعٍ ... تخال أديمَ الأَرض منهن أبْقَعَا[2]

فكم ظاعنٍ منهن مُزْمعٍ رِحْلَةٍ ... قَصَرْنا نَواه دون ما كان أَزْمعا[3]

وكم قادمٍ منهنّ مُرْتادِ منزلٍ ... أناخَ به منا مُنِيخٌ فجعْجَعَا[4]

هنالك تَغْدو الطيرُ ترتَادُ مَصْرَعاً ... وحُسْبانها المكذوبُ ترتاد مَرْتَعا

مباحٌ لراميها الرَّمايا كأنما ... دعاها له داعى المنايا فأسمعا

لها عَوْلَةٌ أَوْلَى بها ما تُصيبه ... وأجدرُ بالإعوال مَنْ كان موجَعــاً

وما ذاك إلا زَجْرُها لِبناتهــا ... مخافةَ أَن يذهبن فى الجوِّ ضُيَّعَا

وظلَّ صِحابى ناعمين ببؤسها ... وظلَّتْ على حَوْض المنيَّة شُرَّعا[5]

ويبثُّ ابن الرومى فى وصفه حيوية خافقة ، فالطير ما تنى ساقطة ساجدة راكعة ، منها ما هبط إلى الأرض جُثَّةً هامدة ، ومنها ما هو فى سبيله إلى الهبوط ، وهى مطروحة فى الأرض أبيضها وأسودها ، وكأنما أصبحت الأرض أديمًا مخطَّطًا ،

---

(١) الديوان ص ٣٠٠ .

(٢) الأبقع : ما به سواد و بياض .

(٣) يريد بالنوى وجهته فى الارتحال . مزمع : عازم .

(٤) الجعجعة : صوت البعير ورغاؤه عند إناخته .

(٥) شرعاً : واردة الماء .

وكم طائر كان يريد الارتحال فحالوا بينه وبين وجهته ، وكم طائر كان يريد المقام سقط دون أمنيته ، وهو يصرخ صراخ البعير عند إناخته ، لقد كان يريد المرتع الخصب فإذا هو يجد المصرع الذى لم يكن له على بال ، وكأنما دعاه ودعا رفاقه من الرمايا داعى الموت فأسمع وأصْمَى ، والطير تُعْوِل غير متنبهة للرمى والرماة ، خيفة على بناتها من أن تضل الطريق فى الجو ، على حين تترامى على حياض الموت ، بؤس ما بعده بؤس والصائدون ناعمون نعيماً ما بعده نعيم . وقد عرضنا فى غير هذا الموضع بعض طرديات لابن المعتز . ولعلنا لا نبالغ إذا قلنا إنه أكبر شاعر نظم طرديات فى العصر . ويذكر مترجموه أنه صنّف كتاباً فى جوارح الصيد وضواريه ، ولا يكاد ضار أو جارح يُفْلت منه فى شعره أو قل فى طردياته ، فمنها ما يصف فيه كلاب الصيد وفهوده ومنها ما يصف فيه بُزاته وصقوره ، ومنها ما يصف شباكه وبندقه ، ودائماً تجرى الكلاب وراء الظباء والأرانب حتى تصيدها وقلما أفلتت منها . ومن قوله فى كلبة ماهرة فى الصيد(١) :

قد أَغْتَدِى والليلُ كالغُرابِ دَاجِى القِناع حالكِ الخِضابِ
بكلبةٍ تاهتْ على الكـلابِ تفوت سبقاً لَحْظة المرتابِ
تنساب مثل الأَرقم المنسابِ كأَنما تنظر من شهاب
بمقلةٍ وَقْفٍ على الصوابِ

فهو يخرج بكلبته وقت السحر ، والليل لا يزال فى دُجاه وحلوكته ، تصحبه كلبة تيّاهة على الكلاب بسرعتها حتى لتسبق لحظة من وقعت فى نفسه الريبة ، فهو ينظر خِلْسَةً وفى سرعة يريد أن يتحقق من صحة رَيْبه . وهى تنساب زاحفة كأنها أفعى ، مسرعة لا تلوى ، ناظرة لا بعين لمّاحة ، وإنما بشهاب قبس ، مقلة لا تخطئ الصيد ، بل دائماً تصيب وتصيد . ومن قوله فى وصف باز من بُزَاته(٢) :

---

(١) الديوان وأشعار أولاد الخلفاء ص ٢٠٩ . والمصايد والمطارد الكشاجم ص ٦٧ .

(٢) أشعار أولاد الخلفاء للصولى ص ٢٠٩ .

ذو مقلةٍ تَهْتِك أستار الحُجُبْ كأَنها في الرأس مسمارُ ذَهَبْ
يعلو الشمالَ كالأَمير المنْتَصِبْ أمكنه الجودُ فأَعطى ووَهَبْ
ذو مِنْسَرٍ مثل السِّنان المُخْتَضِبْ وذَنَبٍ كالذيل ريَّان القَصَبْ[1]
كأَن فوق ساقهِ إذا انتصَبْ من حُلل الكَتَّان رَاناً ذا هُدُبْ[2]

وتشبيه مقلة البازى الصفراء بمسمار الذهب تشبيه بديع ، ويقول إنه يقف رافع الرأس كالأمير يفرّق عطاياه ويهب ما يصيد ، ثم يصف منسره بأنه كسنان الرمح المخضب بالدماء من كثرة ما يصيد ، ويقول إن ذنبه كالذيل الزاهى بريشه ، وكأن فوق ساقه ثوباً أبيض من الكتان تسترسل أهدابه ، وله فى باز آخر[3] :

فارسُ كفٍّ ماثلٌ كالإِسْوَارْ ذو جُؤْجُؤٍ مثل الرخام المَرْمارْ[4]
أَو مصحفٍ مُنَمْنَمٍ ذى أَسْطارْ ومقلةٍ صفراءَ مثل الدينارْ
ترفع جفناً مثل حرف الزُّنَّار ومخلبٍ كمثل عطف المسمارْ

وهو فارس كف لأنه يُحْمَلُ على الكف عادة . ويقول إن صدره مثل الرخام الناعم أو مثل المصحف المزخرف بالسطور ، أما مقلته فصفراء مثل الدينار ، وأما جفنه فكحرف الزنّار الذى يضعه النصارى فى أوساطهم تمييزاً لهم ، وأما المخلب فكعطفة المسمار . وله يصف فهدة[5] :

ولا صَيْدَ إلا بوثَّابةٍ تطيرُ على أَربعٍ كالعَذَبْ[6]
فإِن أُطْلِقَتْ من قِلاداتها وطــار الغبارُ وجَدَّ الطَّلَبْ
فزوبعــةٌ من بناتِ الرياحِ تُريك على الأَرض شيئاً عَجَبْ
تضمُّ الطَّريدَ إلى نَحْرِها كضَمِّ المحبَّة من لا يحبّ

فأرجلها كالخيوط من خفتها ، وحين تطلق من قلائدها ويجدُّ طلبها لطرائدها

(١) المنسر لسباع الطير بمنزلة المنقار لغيرها .
(٢) رانا : ثوباً .
(٣) الديوان وديوان المعانى ٢/ ١٤٠ .
(٤) الجؤجؤ : الصدر . المرمار : الناعم . الإسوار : الحاذق فى الرمى .
(٥) المصايد والمطارد ص ١٩٢ وأشعار أولاد الخلفاء ص ١٢١ .
(٦) العذب : خيوط ترفع بها الموازين.

ويعلوها الغبار لسرعة عَدْوها تصبح كأنها زوبعة أو عاصفة من بنات الرياح ، مما يملؤك عجباً ، وإذا هى قد صادت الطريد وضمته إلى نَحْرها وصدرها لا ضمَّ حنان ولكن ضم عُدْوان ، كضم المحبة من لا يحبها . وهو تصوير رائع . وللصنوبرى طرديات مختلفة ، منها قوله فى باز[1] :

ذو مِنْسَرٍ أَقْنَى ورُسْغٍ كَزٍّ ومِخْلَبٍ لم يَعْدُ إِشْفَا[2] الخَرْزِ

مُسَرْبَلٌ مثل حَبِيك القَزِّ أو مثل جَزْعِ اليمن الأَرْزِّى[3]

لما لَزَزْنا الطير بعد اللَّزِّ بأَسفل القاع وأَعلى النَّشْزِ[4]

آبَ لنا بالقَبْجِ والإِوَزِّ من جَبَلٍ صَلْدٍ ومَرْجٍ نَزِّ[5]

وهو يصور منسره ومخالبه الحادة التى يَنْقَضُّ بها على الطير انقضاضاً فلا تستطيع منه خلاصاً ، ويصور ثيابه من الريش كأنها الحرير أو كأنها الجزْع أو الخرز اليمانى الذى تغنّى به امرؤ القيس ، والطير مبثوثة فى القيعان وعلى المرتفعات وقد آب منها بكثير من الحجل والإوز . ومن قوله فى الطَّرَدِ ووصف كلابه وما صادت من الوحش[6] :

يا روضةً من حُلَلٍ ما خاطَهـا خَيَّاطُ

الوحشُ فى أَرجائهـا قبـائلٌ أَخْـلاطُ

غادَيْتُهَـا ولم يُقِمْ أَعـلامها الغَطَاطُ[7]

بأَكلابٍ لو لم تَطِرْ أَطـارَها النشـاطُ

فجِئْنَ والطَّـلُّ عـلى آذانهـا أَقـراط

انبسطتْ كالشُّهْبِ لا يُعْجِـزُها انبسـاط

---

(١) ديوان الصنوبرى ص ١٣٣ .

(٢) إشفا : مخرز .

(٣) حبيك : محبوك . القز : الحرير . والجزع اليمانى : خرز . أرزى : أبيض كالأرز .

(٤) النشز : المرتفعات .

(٥) القبج : الحجل . نز : به بعض المياه .

(٦) الديوان ص ٢٨٧ .

(٧) الغطاط : القطا .

وطفقتْ والوحشُ فى مجالهـا بســاطُ
صَرْعَى تُشَقُّ قُمْصُها عنهـا ولا تُخـاطُ

وهو يبدأ بالحديث عن الروضة مكان الصيد وما انتشر عليها من حُلَل الأزهار والأنوار ، ويذكر كثرة الوحش بها وأنه باكرها قبل أن يستيقظ القَطَا وغيره من الطير مُرْسلا عليها كلابه المسرعة التى تكاد تطير طيرانًا ، غير آبهة ببرودة الطَّقْس وما قرَّط به آذانها من النَّدَى ، فقد زحفت وانتشرت كالشهاب الساطع ، تصرع كثيراً من الوحش وتشق عنه جلده وأديمه وتمزّقه تمزيقًا لا يمكن رتقه . وكما يعرض لصيد البَرّ يعرض لصيد البحر بصنانيره الشبيهة بالأظفار وبالشبكة وعيونها الكثيرة ، وفى ذلك يقول[1] :

أَفضَلُ ما أعددتهُ من العُدَدْ وما حَوَى صَحْبِى بهِ غِنَى الأَبَدْ
بناتُ قَيْنٍ حاز فى الحذق الأَمَـدْ على مقاديرِ مخاليبِ الصُّرَد[2]
لها رءوسٌ فى أعاليها أَوَدْ كمثل أنياب الأَفاعى وأَحَدّ[3]
عُجْنَا بها من حيث ما عاج أحد فى ظل صَفْصاف علينا قد بَرَدْ[4]
شاطئْ نَهْرٍ لابسٍ دِرْعَ زَبَدْ ولم تزل تُرْسَلُ طورًا وتُمَدّ
ثم بعثنا ألف عَيْنٍ فى جَسَدْ فجئننا بمثلهنَّ فى العَـدَدْ
أَلفٍ من الحِيتان بيضٍ كالبَرَدْ

وواضح أنه صوَّر الصنانير والصيد ثم الشبكة وماصوَّر أفاء الله عليهم من الحيتان الكثيرة . ولعل من الخير أن نكتفى بهذا العرض عند أعلام الشعراء ، وأن نتركهم إلى شاعر اشتهر بكثرة طَرَدِيَّاته فى العصر هو أبو العباس الناشئ فقد كان مولعًا بالطَّرَد والصيد ، وله طرديات كثيرة .

(١) الديوان ص ٤٧٥ .
(٢) القين : الحداد صانعها . الصرد : طائر ضخم الرأس والمنقار وهو من الجوارح .
(٣) أود : عوج إذ تشبه حرف الراء .
(٤) عجنا : عرجنا وانعطفنا .

أبو العباس[١] الناشئ الأكبر

هو عبد الله بن محمد المعروف بابن شرشير ، من أهل الأنبار وفيها وُلد ونشأ ، ثم تركها إلى بغداد ، واستقر بها طويلا ، وفيها تلقّن علم الكلام كما تلقن كثيراً من العلوم ، وكان ذكيًّا ذكاء حادًّا ، وصرف ذكاءه فى مناهضة العباقرة من عالمه والعالم الخارجى ، إذ ألف كتابًا ينقض به منطق أرسطو وكتابًا ثانيًا ينقض به آراء الخليل ابن أحمد فى العروض ومثّل لقواعده بغير أمثلته . وحاول أن ينقض علل النحويين . ونظم قصيدة طويلة فى فنون العلوم والآداب بلغت أربعة آلاف بيت فى روىّ واحد وقافية واحدة لم تصلنا ، وربما كانت منها الأبيات التى أنشدها الحصرى له فى موضوعات الشعر وصفاته اللفظية والمعنوية . وكان شيعيًّا ، وربما شيعيته هى التى جعلته يترك بغداد عاصمة الدولة العباسية إلى مصر ويتوفّى بها سنة ٢٩٣ للهجرة .

وله كتاب فى تفضيل الشعر مما يدل على أنه لم يكن شاعراً ولا عالمًا فقط بل كان أيضًا ناقداً ، ولعل هذا الكتاب هو الذى جعل أبا حيان التوحيدى يعجب به وبنقده للشعر إذ يقول : « ما أصبت أحداً تكلم فى نقد الشعر وترصيفه أحسن مما تكلم به الناشئ المتكلم ، وإن كلامه ليزيد على كلام قُدامة وغيره ، وله مذهب حلو وشعر بديع واحتفال عجيب » ، وينقل أبو حيان فى تضاعيف كتابه بعض ما قرأه له ، فمن ذلك حديثه عن دواعى الشعر وبواعثه ، وهو يجرى على هذا النمط : « أول الشعر إنما يكون بكاءً على دِمَن ، أو تأسفًا على زمن ، أو نزوعًا لفراق ، أو تلوعًا لاشتياق ، أو تطلعا لتلاق ، أو إعذاراً إلى سفيه ، أو تغمداً لهفوة ، أو تنصلا من زَلّة ، أو تحضيضا على أخذ بثأر ، أو تحريضًا على طلب أوتار ، أو تعديداً للمكارم ، أو تعظيمًا لشريف مقام ، أو عتابًا على طويّة أو متابًا من مقارفة ذنب ، أو تعهداً لمعاهد أحباب ، أو تحسراً على مشاهد أطراب ، أو

---

(١) انظر فى الناشئ وحياته وأشعاره طبقات الشعراء لابن المعتز ص ٤١٧ وتاريخ بغداد ١٠ / ٩٢ وابن خلكان والنجوم الزاهرة ٣/١٥٨ وشذرات الذهب ٢/ ٢١٤ والبصائر والذخائر لأبى حيان ٢/ ١١٧، ٢٦٠ ، ٢٧٣ ، ٦١٩ ومقالات الإسلاميين ص ١٨٤ ، ٥٠٠ وزهر الآداب ١ / ١٧٧، ٣ / ٥٠ ، والمصايد والمطارد لكشاجم (انظر الفهرس) والعمدة لابن رشيق ١ / ٧ والديارات ص ٢٦ والفهرست ص ٢٥٥ وديوان المعانى ١ / ٢٥٤ و٢ / ٢٢٨ .

ضربًا لأمثال سائرة ، أو قَرْعًا لقوارع زاجرة ، أو نظمًا لحكم بالغة ، أو تزهيداً في حقير عاجل ، أو ترغيبًا في جليل آجل ، أو حفظًا لقديم نَسب أو تدوينًا لبارع أدب » . والقطعة تلمُّ في دقة بالبواعث النفسية لنظم الشعر ، فهو شاعر بصير بفنه وبصناعته وقد روى له الحصرى قطعة في وصفه لشعره يقول فيها :

يتحيَّر الشعراءُ إن سمعوا به في حُسْن صَنْعتِه وفى تـأليفهِ
شَجَرٌ بدا للعين حُسْنُ نباتهِ ونَأى عن الأيْدِى جَنَا مَقْطُوفه

ويذكر من ترجموا له أنه كان شاعراً بارعًا غزير الشعر ، وسلكه ابن خلكان في طبقة ابن الرومى والبحترى ، ويبدو من بقايا أشعاره أنه نظم في موضوعات شتى ، منها ما يتصل بعلم الكلام وافتخاره بالمتكلمين عامة لما ينيرون من المشكلات الصعبة ، يقول :

مطالعُ الحق ما من شُبْهةٍ غَسَقَتْ إلا ومنهم لديها كوكبٌ يَقِدُ[1]

ومنها ما يتصل بالطبيعة وبالغزل ومجالس الأنس ، وصبَّ أكثر عنايته على وصف الطرد والصيد وجوارحه وضواريه ومَصيداته وآلاته . ويكفى لبيان كثرة هذا الجانب عنده واستنفاده لأكثر شعره أن نجد « كشاجم » يجعل أشعاره ركنًا أساسيًّا صنع « كتابه المصايد والمطارد » فقد اعتمد فيه على طَرَدياته اعتماداً شديداً ، وأول ما نقف عنده في هذا الكتاب طردية له في صيد أحد الكلاب يستهلُّها على هذا النمط :

قد أَغْتدى والفَجْرُ فى حِجابهِ لم يَحْلُلِ العُقْدَةَ من نِقابهِ
بأَغْضَفٍ عَيْشُهُ من عذابهِ من صَوْلةٍ بظُفْره ونابه[2]
يَرَاح أَن يُدْعَى ليُغْتَدى بهِ روحةَ ذى النَّشْوة من شرابهِ[3]
يَخُطُّ بالبُرْثن فى ترابه خطَّ يد الكاتب فى كتابهِ[4]

والطريف فى هذا الاستهلال أنه جعل الكلب كادحًا لا يقيم أوده إلا بعرق جبينه وصولاته بظفره ونابه ، وأيضًا فإنه جعله يشعر بنشوة ما بعدها نشوة حين

---

(١) غسقت : دجت وأظلمت . يقد : يشتعل .
(٢) أغضف : مسترخى الأذن .
(٣) يراح : يجد خفة ونشاطا .
(٤) البرثن : المخلب

يندبه صاحبه للصيد ، وتستحيل الأرض كأنها مَشْق أو صحيفة وهو يخطّ فيها ببراثنه ، ويتْبع كشاجم هذه الطَّرْدية بطردية أخرى تطّرد على هذا السياق :

يا ربَّ كلبٍ ربُّه فى رزقِهِ ... يَرَى حقوقَ النفس دون حَقِّهِ

متَّبعاً بِخُلْقه لِخُلْقِهِ ... كأنما يملك عَقْدَ رِقِّه

يَصُونُه بِجُلِّهِ ودِقِّهِ ... كآملٍ من مالك لِعتْقِهِ[1]

تراه فى تَسْريحهِ ورَبْقِهِ ... كعاشقٍ أَضناه طولُ عشقهِ[2]

أَصفر يُلْهِى العينَ حسنُ خَلْقِهِ ... كذهبٍ أبرزتَه من حُقِّهِ

ذو غُرَّةٍ فارقة لفَرْقِهِ ... وذو حُجول بَيَّنَتْ عن سَبْقِهِ[3]

وقد جعل الناشئ رَبَّ هذا الكلب وصاحبه يقدِّمه على نفسه فى غذائه ، ويتأسى به ، حتى لكأنما يشتق أخلاقه من أخلاق هذا الكلب أو قل السيد المطاع الذى يملك رقه . وإنه ليرعاه فى كل كبيرة وصغيرة . وكأنه عبد يتقرب لمالكه بكل ما يصونه ويحفظه حتى يفك رقبته ويرد عليه حريته . ويعود إلى فكرة عشق الكلب للصيد ، فيجعله حين يكون فى ربقته وحبله كعاشق طال عليه البَيْنُ والهجران ، حتى أصابه ضَنًى شديد ، ويتحدث عن حسنه وجمال صفرته الأخاذة وغُرَّته فى جبهته وحجوله فى سيقانه ، وبياضها يلمع فى أثناء عدوه كأنه ضوء ساطع . وله فى البازى طرديات مختلفة يصور فيها حسنه وما خلع عليه الخالق من ريشه وجماله ، وفيه يقول :

أَلبسه الخالقُ من ديباجهِ ... ثوباً كفى الصانعَ من نِسَاجه

حالٍ من السَّاق إلى أوداجهِ ... وَشْياً يحار الطَّرْف فى اندراجه[4]

فى نَسَقٍ منه وفى انعراجهِ ... وزانَ فَوْدَيْه إلى حِجَاجِه[5]

بزينةٍ كفتهُ عـزَّ تاجهِ ... وظُفْرُهُ يخبر عن علاجه

لو استضاءَ المرء فى إدلاجه ... بعينه كفته عن سراجه

فالخالق جَلّ شأنه كساه ثوباً من الديباج يملأ النفس إعجاباً بوشيه وخطوطه

---

(١) الجل والدق : الكثير والقليل .

(٢) الربق : من الربقة وهى حبل يشد منه الكلب .

(٣) الحجول : بياض فى سيقان الكلب .

(٤) الأوداج : عروق فى العنق .

(٥) الحجاج : عظم الحاجب .

ونقوشه من ساقه إلى مفرقه وعلى رأسه ، وكأنما حلاّه بتاج كتاج الملوك المتألق بحليه وزينته ، ويذكر مخالبه الحادة حدة الإبر ، وعينه المضيئة ضياء السراج فى الليالى الداجية . وينظم فى الصقر غير طردية ، وفى إحداها يقول :

سَباه مَنْ كان به خليقا   فَرْخاً صغيرًا ما أَقلَّ موقا
زيَّنه برأيه شفيقـــا   كما يصون العاشق المعشوقا
حتّى انتهى وحملَ الحقوقا   ونفَع الصاحبَ والصديقا

وهو يصوِّر تدريب صاحبه له ، وكيف أنه ربَّاه صغيراً وما زال يرعاه محبًّا له حب العاشق لمعشوقه ، وما زال يثقفه ويدرِّبه على الصيد ، حتى مهر فيه ، وحتى أصبح يجتلب من الإوزّ وغيره ما ينفع به أصدقاء صاحبه وأحبَّاءه . ومن قوله فى وصف شاهين :

يَظَـــلُّ من جناحه المَزينِ   فى قُرْطُقٍ من خَزِّه الثَّمينِ[1]
يشبه فى طرازه المصونِ   بُرْدَ أَنُو شِرْوانَ أَو شِيرِينِ
ذو مِنْسَرٍ محدَّدٍ مَسْنُونِ   وافٍ كشطر الحاجب المقرون
منعطفٍ مثل انعطاف النونِ

وهو يتحدث عن جمال هذا الشاهين وتلاوين ريشه التى تجعله يلبس قرطقًا أو قباء مفوفًا من الحرير كأنه ثوب أنوشروان أو ثوب شيرين زوج كسرى أبرويز . وإن منسره أو مخلبه المنحنى كحرف الراء ليشبه شطر حاجب مقرون أو كأنه انعطاف حرف النون . وله طردية طريفة فى وصف صيد الطير بالجلاهق أو البندق ، تحدَّث فيها عن صيد الكراكى . وهى طير طويل المنقار والرجلين ، مفرده كركىّ . ويسمَّى الغرنيق وجمعه غرانق . ويطرِّد وصفه عند الناشئ على هذا النمط :

ومَوْرِدٍ يُجْذِلُ قلبَ الوامقِ   منظَّم بالغُـــرِّ والغَرانقِ[2]

---

(١) القرطق : قباء ذو طابق واحد . الغر : طير الغرانق : الكراكى .

(٢) يجذل : يسر . الوامق : مديم النظر .

وكلِّ طيرٍ صافرٍ أو ناعقِ　　　مكتهلٍ وبالـغٍ ولاحقِ
مَوْشِيَّةِ الصدور والعواتقِ　　　بكل وَشْيٍ فاخرٍ وفائقِ[١]
تختال فى أجنحةٍ خوافقِ　　　كأنمـا تختال فى قَرَاطِقِ
يَرْفُلْنَ فى قُمْصٍ وفى يَلامقِ　　　كأنهن زَهَرُ الحـدائقِ[٢]
حُمْرِ الحِداق كُحُلِ الحَمالقِ　　　كأنما يَجُلْنَ فى مَخانقِ[٣]

وهو يصوّر مورداً عذباً يسر قلب الناظر إليه رُصّع بالطير والكراكى من صافرة وناعقة وكبيرة وصغيرة، إذ وُشِّيت فى صدورها وكواهلها بوشى بديع، وقد اكتست أجنحتها بقراطق وأقبية أنيقة، بل إنها لترفل فى كُسْوَة ذات تلاوين حتى لكأنها زهر حدائق مختلفُ الأصباغ والنقوش. وهى هناك بأحداقها الحمر وجفونها المكحولة، تطوّق أعناقها القلائدُ الباهرة. وفى كتاب المصايد والمطارد بجانب الطرديات السابقة طرديتان فى صيد الأسد، ونرى الناشئ يصوره فى إحداهما بهذه الصورة الفذة:

رُبَّ ذِى شِبْلَيْنِ قَسْوَرَةٍ　　　قد أَحمَّ الحَيْنُ فى أَجَمِهْ[٤]
لا ترى حَيًّا يُطِيفُ به　　　لا، ولا يَدْنو إلى حَـرَمِهْ
كَمِجَنٍّ الحرب هامَتُهُ　　　وكَغَوْرِ الغارِ رَحْبُ فَمِهْ[٥]
وكأَن البرق ما قدحتْ　　　عَيْنُـــه باللَّحْظِ من ضَرَمِهْ
وكأَن الموتَ مُعْتَرِضٌ　　　بين لَحْيَيْهِ ومُلْتَثَمِهْ

وهو يقول إن هذا الأسد القَسْـوْرة هبط به القضاء فى عرينه، إذ حان حينه، بعد أن كان الناس لا يلمّون بحَرَمه مخافة بأسه وسطوته، لما ملأهم به من الرعب والفزع والهلع، ويقول إن هامته كانت مثل تُرْس حرب صلابة وقوة، وكان فمه كالغار

(١) العواتق: الكواهل.
(٢) اليلامق: جمع يلمق وهو نوع من القباء.
(٣) الحمالق: جمع حملاق، وهو باطن جفن العين. المخانق: القلائد.
(٤) أحم: نزل. الحين: الموت. الأجم: بيت الأسد
(٥) المجن: الترس.

يسقط فيه كل ما يقضمه، أما عينه فمن شدة توقدها كانت كأنها البرق الخاطف، وكأن الموت كان يجثم على فمه بين لحييه وملتثمه .

وللناشئ وراء طردياته أشعار كثيرة تدل على أنه حقًّا كان صاحب شاعرية خصبة ، وقد رفدها مبكراً بثقافته الكلامية التى أعدته ليحاور ويداور أرسطو والخليل بن أحمد وعلماء النحو واللغة ، ولا ريب فى أنها وصلته بكل ينابيع الثقافة فى عصره يونانية وغير يونانية ، ويقول من ترجموا له إنه كان يقول فى خلاف كل معنى قالت فيه الشعراء ، غير أنهم لم يوردوا لنا شيئًا من هذا القول ، إنما أوردوا له هنا وهناك بعض أبيات رائعة الصور من مثل بيتيه اللذين أنشدناهما فى الفصل الرابع وهما فى وصف سحاب هاطل .

وفى الحق أنه كان يعرف كيف يولِّد الصور وكيف يستخرجها من مكامنها وكيف ينظمها شعراً عذبًا ، يحفل بكل ما يملأ النفس إعجابًا به على شاكلة قوله :

متعاشقان مُكاتمان هواهمـــا ... قد نام بينهما العتابُ فطابا
يتناقلان اللحْظَ من جَفْنَيْهما ... فكأنما يتدارسان كتابا

وقوله :

يلوح فى خدِّه وَرْدٌ على زهرٍ ... يعود من حسنه غَضًّا إذا قُطِفا

والزهر فى البيت طبعًا هو زهر النرجس الذى تشبه به العيون ، وعبَّر عن القبلة بأنها اقتطاف لورد الخدود ، وجعلها تثير فيها من الحمرة ما يعود بها غَضَّةً إلى أول مُجتناها وباكورته . وله :

ليس شىء أَحرُّ فى مُهْجة العا ... شق من هذه العيون المراضِ
والخدودِ المضرَّجات اللــواتى ... شِيب جِرْيالُها بِحُسْن البياضِ
وطروق الحبيبِ والليلُ داجٍ ... حين هَمَّ السُّمَّار بالإغماضِ

فهذه العيون مع مرضها وفتورها تَدْلَع فى قلب العاشق قطعاً من النار ، وتدلع فيه نفس القطع الخدودُ المشربة بالحمرة، ويشعله إشعالا، زيارةُ المحبوبة ليلا ، وقد همّ السُّمّارُ بالنوم . والقطعة جيدة، ويبدو أنه كان قريبًا من نفوس الجوارى فى بلدته ، فابن المعتز يروى أنه اجتمع مع بعض رفاقه على الشراب فى بعض المتنزهات ومعهم قينة محسنة طيبة الصوت، وما زالت تغنيهم حتى إذا أنشدها مقطوعة له ختمها بقوله :

وقد آذنونا بوقت الرحيلِ فإن كنت تهوينني فارْحَلى

يقول ابن المعتز : فلما سمعت الجارية هذا البيت وقعت فى قلبها النيران ، وكانت تهواه ويهواها ، فقامت وارتحلت معه ، لكلفها به . واجتمع مع رفاق آخرين ، ودعوا مغنية ، فجاءت ومعها رقيبة جميلة ، فلما أخذ الشراب منه ومن صحبه طلب رقعة وكتب فيها ، موجهًا حديثه إلى تلك الرقيبة :

فديتكِ لو أَنهم أَنصفوكِ لردّوا النواظرَ عن ناظـريكِ
تردّين أَعْيُنَنَا عن سِواكِ وهل تنظر العينُ إلا إليكِ
وهم جعلوكِ رقيباً علينا فمن ذا يكون رقيباً عليكِ
أَلم يقرءوا ـ وَيْحهم ـ ما يَروْ نَ من وَحْيِ حُسْنكِ فى وَجْنَتَيْكِ

ولعل فى كل ما أسلفنا ما يدل بوضوح على روعة الملكة الشعرية عند الناشئ ، وهى ملكة استطاع أن يَغْذُوَها بالثقافات المعاصرة له ، فإذا هى تُصْقَلُ وإذا هى تزداد خصبًا ، وإذا الناشئ لا يزال يُطْرِف سامعيه بخواطر وأخيلة طريفة رائعة .

٥

شعراء شعبيون

لا نغلو إذا قلنا إن الشعر العربى دائمًا كان موصولا بالشعب ، اتصل به فى العصر الجاهلى ، فقد كان الشاعر وشعره صورةً لقبيلته ، وظلتْ له هذه الصلة

فى العصر الأموى، وإن تحولت أحيانًا من الشعور القبلى إلى الشعور الجماعى؛ أما منذ العصر العباسى الأول فقد أخذ يغلب الشعور بالروح الجماعية ويقلّ الشعور بالروح القبلية، حتى إذا كان هذا العصر نضب هذا الشعور جدًّا بينما ظل الشعور بالروح الجماعية حيًّا مشتعلا . وكان من أهم العوامل فى ذلك أن جمهور الشعراء كان من الطبقة العاملة ، وقلما نبغ شاعر من الطبقة الأرستقراطية. حتى مَنْ عاش مِنْ هؤلاء الشعراء حول موائد الخلفاء وفى قصورهم ظلّ موصولا بروح الشعب، فهو يتغنّى بتقوى الخليفة وبما ينشر من العدالة التى لا تصلح حياة الرعية بدونها. وكانوا يمدحون أبطال المعارك الحربية معبّرين عن روح الشباب والحمية الوطنية والإسلامية . وإذا كان المديح يتصل بروح الشعب على هذا النحو فأولى لغيره من أغراض الشعر أن تكون صلته أوثق وأقوى . وحتى حياة المجون وما اتصل منها بوصف الأعياد الإسلامية والمسيحية والفارسية وملاهيها كان يُحسُّها الشعب وتعيشها على الأقل فى تلك الأعياد أسراب منه . أما شعر الزهد والتصوف فكان يُلقَى على العامة وكان من وَحْى حياتها وما يسرى فيها من شظف وضنك وإعسار . وبهذا الأسلوب نفسه يمكن الوصل بين الغزل والفنون الأخرى وبين الشعب ، ولكن ليس هذا ما نريده من الشعر الشعبى الذى نتحدث عنه ، فنحن نريد منه نوعًا خاصًّا ، هو النوع الذى يصوّر ما كانت عليه الرعية من تعاسة وبؤس ، فالخلفاء والوزراء والأمراء وذوو الوجاهة ومَنْ لحق بهم من بعض المغنين والشعراء يعيشون فى النعيم وأدواته ووسائله مستمتعين بالحياة أقصى ما يكون الاستمتاع دون أن يبذلوا أى جهد ودون أن يحتملوا أى عناء ، على حين تَرْزَحُ عامة الشعب تحت أثقال البؤس الممضّة جائعة ظامئة ، غير آمنة من العبث والطغيان اللذين صورناهما فى فصل الحياة الاجتماعية . وكان طبيعيًّا أن يكثر الشعراء الذين يصورون ما يتجرّعونه ويتجرعه الشعب من الفقر والإمعان فى البؤس والتعاسة . ومن المؤكد أن جُلّ ما نظموه ضاع ، لأنهم من أبناء الشعب ، وهم عادة لا يهمهم تسجيل ما ينظمونه ، بل هم آخر من يهتم بمثل هذا الشرف ، وحتى ما سُجِّل من هذا الشعر لم يسجَّل معه اسم صاحبه إلا نادرًا[1] .

---

(١) انظر المحاسن والمساوى للبيهقى (طبعة مكتبة نهضة مصر) بتحقيق محمد أبو الفضل إبراهيم ١ / ٤٤٨ وما بعدها .

وقد هيَّأ هذا البؤس لظهور طائفة بين الناس تُعرَف بالمُكْدين، وأولُ من تحدث عنهم الجاحظُ فى مطالع كتابه البخلاء، وهو يورد فيه أسماءهم وحيلَهم فى اقتناص الدراهم من الناس ويصوّر البيهقى أعمالهم ونوادرهم[1]، وهم جماعات من المتسولين وكان ينضم إليهم كثير من الأدباء والشعراء، وهم يكوّنون فى العصر طبقة كبيرة، طبقة تتكسب بالتحامق وإضحاك الناس.

وخير من يصوّر طائفة الشعراء المكدين حينئذ أبو العِبَر[2] العباسى الذى عاش فى هذا العصر إلى خلافة المنتصر وكان قد ظل خمسين عامًا يَحْيَا حياة جادّة إلى أن ولى المتوكل فترك الجِدّ وعدل إلى الحمق والشهرة به، ويقال إنه لم يكن فى عصره صناعة إلا وهو يعملها بيده حتى العجين والخَبْز؛ وفى بعض أحاديثه ما يدل على أنه كان ببغداد لعصره معلمون يعلمون الأحداثَ الهزل، وأنه أخذ عن معلم منهم ما عُرف به من قلب الكلام رقاعة إذ كان يقول له ولرفقائه: أول ما تصنعون قلبُ الأشياء فكنت أقول إذا أصبح كيف أمسيت؟ وإذا أمسى كيف أصبحت؟ وإذا قال لى: تعال، تأخرت إلى الخلف. ويقال إنه حاول أن يَلْفت المتوكل إليه فقلب زِيَّه إذ جعل فى رجليه قلنسوتين وعلى رأسه خُفًّا (حِذاء) وجعل سراويله قميصًا وقميصه سراويل. فلما لمحه المتوكل قال علىّ بهذا المُثْلة ودخل عليه فقال له: أنت شارب إنى أضع الأدهم (القيد) فى رجليك وأنفيك إلى فارس، فقال توًّا: ضعْ فى رجلى الأشهب وانفنى إلى راجل، فقال المتوكل أترانى فى قتلك مأثوم؟ فقال: بل ماء بصل، فضحك المتوكل. ويقال إنه أخذ منه أكثر مما أخذه أى شاعر بالجِدّ، وقد اتخذه فى مجلسه أضحوكة، فكان يرمى به فى البركة التى وصفها البحترى فى بعض مدائحه، وتُطْرَحُ عليه الشباك ويُصاد، ويخرج وهو يقول:

ويأمــر بى ذا الملكْ   فيطــرحنى فى البِرَكْ

ويصطادنى بالشَّبكْ   كأَنِّىَ بعضُ السَّمك

---

(١) المحاسن والمساوى ٢ / ٤١٣

(٢) انظر فى أبى العبر وحياته وأخباره وأشعاره طبقات الشعراء لابن المعتز ص ٣٤٢ وأشعار أولاد الخلفاء للصولى ص ٣٢٣ والأغانى (طبع الساسى) ٢٠/ ٨٩ والفهرست ص ٢٢٣ والوافى بالوفيات (طبع إستانبول) ٢ / ٤١.

وسأله ثعلب العالم النحوى المشهور : الظَّبْىُ معرفة أو نكرة ؟ فأجابه : إن كان مشويًّا على المائدة فمعرفة وإن كان فى الصحراء فهو نكرة، فقال ثعلب له : ما فى الدنيا أعرفُ منك بالنحو . وكان يتجلس الغلمان « الأدباتية » إليه ليسجلوا كلامه ، مما جعله يصنِّف لهم كتابَ جامعِ الحماقات ومأوى الرقاعات وكتاب نوادره وكتاب المنادمة ، ويُروَى أن غلامًا سأله : لم صار نهر دجلة أعلى من نهر الفرات والقطن أبيض من الكمْأة (ثمرة صحراوية أرضية) فأجابه : لأن الشاة ليس لها منقار وذنب الطاووس أربعة أشبار . وكان بهذا وأشباهه تروج بضاعته عند المُكْدِين من الأدباتية وغير المكدين ، وسُئل عن لغته التى يتكلم بها وما فيها من استحالات أىُّ شىء أصلها ؟ فقال : إننى أبكِّر فأجلس على الجِسْرِ ومعى دواة وقرطاس فأكتب كل شىء أسمعه من كلام الذاهب والجائى والملاحين والمُكارين حتى أملأ القرطاس من الوجهين ، ثم أقطعه عرضًا وألصقه مخالفًا فيجىء منه كلام ليس فى الدنيا أحمق منه . وكان ما يزال يُغْرِب فى كل ما ينظم من شعر ، ملتزمًا للغة العامَّة وما يشبهها ، ومن قوله فى بعض غزله :

وباضَ الحبُّ فى قلبى فوَاوَيْلى إذا فَرَّخْ

ويستمر فى مثل هذا الهزل ، وكان ينصح بعض شباب الشعراء من حوله أن يقولوا الشعر جيداً جيداً وإلا فليكن بارداً بارداً مثل شعره ، ومما رواه له ابن المعتز من كلامه الهزلى البارد المضطرب الوزن قوله :

أنا أنا أَنت أَنا أَيا أَبــو العبرنَّهْ
أَنا الفتى الحمقوقو أَنا أَخــو المجنَّه
أَنا أحــرّر شعرى وقد يجى بَرْدَنَّــهْ

وواضح أنه أضاف إلى أبياته النون المشددة الهاء هزلا وطلبًا لإضحاك من حوله . وله أشعار من هذا النمط كلها هزل ودعابة ، وقد اتخذه الشعراء « الأدباتية » الذين خلفوه إمامًا لهم فى مثل هذا الهزل وما كان يَسْلُكه فى أشعاره من ألفاظ العامَّة وأساليبهم الركيكة .

ومن شعراء الكُدية الذين ذهبوا مذهب أبي العبر في التحامق والهزل أبو العجل[١] وله أشعار كثيرة يدعو فيها إلى اتخاذ التحامق حرفة ، وأي حرفة ، لقد درَّتْ عليه خيراً كثيراً وأموالا وبغالا وغلمانًا . يقول :

أيا عاذلي في الحُمْق دَعْني من العَذْلِ ... فإني رَخِيُّ البالِ من كثرة الشُّغْلِ
ومُرْني بما أحببتَ آتِ خلافَه ... فإن جئتَني بالجِدِّ جئتُك بالهزلِ
وإن قلتَ لي : لِمْ كان ذاك؟ جوابه ... لأني قد استكثرت من قلّة العقلِ
فأصبحتُ في الحَمْقَى أميرًا مؤمَّرًا ... وما أحدٌ في الناس يمكنه عَزْلي
وصيَّر لي حُمْقِي بِغَالاً وغِلْمَةً ... وكنت زمانَ العقل ممتطياً رِجْلي

فلا داعي للعذل واللوم فإن حرفة الكُدْية جعلته سيداً مطاعًا وأثْرته ثَرَاءً واسعًا ، وأصبح الناس لا يضيقون به ، بل يرحّبون به في كل مكان . وكان الشعراء المكدون حينئذ يطوفون في بلدان العراق وغير العراق ، جوّالين مكثرين من الأسفار في الاحتيال لجلب الأموال . وفي ذلك يقول أبو العجل لبعض من عذلوه على كُدْيته وحرفته :

أعَلَى الحماقة لُمْتَنِي ... قد كنت مثلَك أولا
فدخلت مصرَ وأرضها ... والشامَ ثم المَوْصلا
وقُرَى الجزيرة لم أدَعْ ... فيها لِحَيٍّ منزلا
إلا حَلَلْتُ فِنَـاءَهُ ... بالعقل كي أتمـوَّلا

وممن اتخذ الكُدْية حرفةً في العصر أبو عبد الله اليعقوبي وكان كثير الوصف لنفسه بالجوع والفقر والتطفيل ، وروى له المرزباني أشعاراً[٢] تدخل في الزهد . ونقف قليلا عند جحظة والخبز أرْزي وتصويرهما لبعض جوانب النزعة الشعبية .

---

(١) انظر فيه وفي أشعاره طبقات الشعراء لابن المعتز ص ٣٤٠ .

(٢) معجم الشعراء ص ٣٩٩ .

جحظة[1]

اسمه أحمد بن جعفر من نَسْل البرامكة ، كان شاعراً حسن الشعر ، وكان يحسن الغناء على الطُّنْبور كما كان يحسن فنوناً مختلفة مثل الطبيخ والنجوم ، وله فى الطُّنْبُوريين كتاب غير كتب أخرى فى عدة فنون ، وكان من ظرفاء عصره وصاحب أخبار ومنادمة حاضر النادرة . وابن المعتز هو الذى لقبه بجحظة لقبه الذى اشتهر به إذ كان فى عينيه نتوء شديد ، وكان قبيح الوجه تقتحمه العيون ، وفى ذلك يقول ابن الرومى :

وارَحْمَتــا لمناديه تحمَّلوا ألَمَ العيونِ للذَّةِ الآذانِ

وكان الخليفة المعتمد يقرّبه منه ، ولكن بيوت الخلفاء لم تُفْتَحْ له بعده ، وفُتِحت بعض بيوت الوزراء مثل العباس بن الحسن وزير المكتفى وابن مقلة وزير المقتدر . وكان لا يُبْقى على شىء يَصله من خليفة أو أمير أو وزير ، فأكثر أيامه كانت بائسة ، ولولا صنعته الطنبورية لعاش معدماً . وهو من خير من يمثلون حياة الشعب التعسة . فقد كان كثير من الحكام والوجهاء يزورُّون عنه لا لدمامته فقط ، بل أيضاً لما قيل من أنه كان دائماً وسخ الثياب ، وكان شيعيًّا ، فانصرف عنه كثيرون وأغلقوا أبوابهم فى وجهه . وكل ذلك كان يدفعه دفعاً للاختلاط بأبناء الشعب وكانوا يتعلقون بشعره ، فما إن ينظم شعراً حتى يدور فى بغداد وحتى تتناقله المجالس ويرويه الشباب وغير الشباب ، حدَّث هو نفسه ، قال : كنت يوماً عند عبد الله ابن المعتز فطلبت نَعْلِى فلم أجده ، فجعلت أقول :

يا قومُ مَنْ لِى بنَعْلى أَو فى مصحَّف نَعْلِ

يقصد بَغْلا يركبه . يقول : فسار هذا البيت حتى رواه الصبيان . وكان كثير من أشعاره الأخرى يرويها الصبيان أيضاً ، وكثير منها يحكى قصة بؤسه من مثل قوله :

---

(١) راجع فى جحظة وأخباره وأشعاره تاريخ بغداد ٤ / ٦٥ والفهرست ص ٢١٤ ومعجم الأدباء ٢ / ٢٤١ وابن خلكان والديارات ص ٢١ ، ٤٧ ، ٩٧ وزهر الآداب ٢ / ١٣٧ وذيل زهر الآداب ص ١٤٩ وتكملة الطبرى ص ٨ ، ١٩ والنجوم الزاهرة ٣ / ٢٥٠ .

أَنا الذى دينُه إِسعافُ سائلهِ والضُّرُّ يعرفه والبؤُس والعَدمُ
أَنا الذى حُبٌّ أَهلِ البيتِ أَفقرَه فالْعَدل مستعْبِرٌ والجَوْرُ مُبْتَسِمُ

وهو يعلل لبؤسه من بعض وجوهه بتشيعه لأهل البيت كما أسلفنا ، وكأنما عملت عوامل كثيرة على أن يعيش معيشة بائسة أكثرُ جوانبها ضيقٌ وإقلال فى الرزق ، وليس المهم أن يعيش تلك المعيشة ، ولكن المهم أن تتعمق أحاسيسه وأن يَصْدُرَ عنها بمثل قوله :

أَحْمَدُ الله لم أَقلْ قطُّ. يا بَدْ رُ ويا مُنْصفاً ويا كافورُ
لا ، ولا قلت أَين أَين الشواهِـــينُ ووزَّانُنا وأَين البذور[1]
لا ، ولا قيل : قد أَتاك من الضَّيْـ عة بُرٌّ موفَّرٌ وشَعير
أنا خلْوٌ من المماليك والأَمْـ لاك جَلْدٌ على البَلا وصَبُور
ليس إلا كُسَيْرةٌ وقُدَيْحٌ وخُلَيْقٌ أَتتْ عليه الدهورُ

فهو ليس ممن يخدمهم الغلمان وتكتظُّ بهم داره من مثل بَدْر ومُنْصف وكافور ، وهو ليس ممن يحتاج إلى ميزان ووزّان يزن الحصاد ، لأنه ليس من أصحاب الضياع الذين يَجْنون من ضياعهم البُرَّ والشعير . ليس عنده أملاك ولا مماليك إنما عنده الجلد والصبر على احتمال حياة الشظف والحرمان ، عنده ما يَقُوته من كِسْرة وقدح ماء وثوب خَلَقٍ أكل الدهر عليه وشرب ، وقلبه يمتلئ حسرة ولوعة ، فغيره يتقلب فى أعطاف النعيم وهو يتقلب فى أشواك الحسرات والشقاء والعناء ، يقول :

الحمد لله ليس لى كاتبْ ولا على باب منزلى حاجبْ
ولا حمارٌ إذا عزمتُ على ركوبه قِيلَ جحطةٌ راكبْ
ولا قميصٌ يكون لى بدلا مخافةً من قَميصىَ الذاهب
وأجرةُ البيتِ فهْى مُقْرِحةٌ أَجفانَ عينى بالوابل الساكب

(١) الشاهين هنا : عمود الميزان .

إن زارنى صاحبٌ عزمتُ على بَيْعِ كتابٍ لشَبْعةِ الصاحبْ

فهو ليس من أصحاب الجاه والسلطان فلا كاتب له ولا حاجب ، بل ليس من أصحاب الوجاهة والثراء فلا حمار له يركبه لقضاء مهمَّاته كُسِيَ كسوة حسنة ، ولا قميص له جديد بدلا من قميصه البالى ، وما أشد كدره ، فأجرة البيت وعجزه عن سدادها ينغصانه ، بل يُبْكيانه ، حتى لقد تقرّحت أجفانه الكثرة بكائه ، ولا من رحيم يرقّ قلبه له أو يعطف عليه . وحتى إن زاره صاحب لم يجد ما يغذوه به ويطعمه له إلا أن يبيع كتاباً من كتبه يشترى له به بعض ما يقيم أوَدَه . فيا للبؤس ويا للظلم الصارخ الذى جعل أبناء الشعب يَكْدَحون ويَضْنون والحكام يَجْنُون ويقطفون ثمار أعمالهم ولا يُبْقون لهم منها إلا الذلّ والهوان . وينتابُه مراراً الشك فى حرفته الأدبية وتآليفه وما ينظم من أشعار ، فيقول :

حسبى ضَجِرْتُ من الأَدَبْ ورأيتــه سببَ العَطَبْ
وهجرتُ إعرابَ الكلا مِ وما حفظت من الخُطَبْ
ورهنتُ ديوان النَّقــا ئضِ واسترحتُ من التعب

فهو قد صمم على أن يهجر حِرْفة الأدب التى لم يجن منها سوى الشقاء والعناء أما كتاب النقائض بين جرير والفرزدق فمع نفاسته رَهَنه ليَسُدّ به رَمَقه ، وكأنما أحسّ فيه وفى غيره من كتب الأدب التى صمّم على هجرانها أعباء ثقالا كانت تَبْهظ كتفيه ، فهو يتخلص منها ليريح ويستريح .

وكان طبيعيًّا أن يشتد سخطه — مع أبناء الشعب — على فساد الحياة السياسية فى عصر المقتدر وأن يصبّ جام غضبه على الوزراء الذين كانوا يعتصرون الشعب ليعيشوا هم والخلفاء والقواد فى النعيم ، ولا ضَيْرَ من أن يعيش الشعب فى الجحيم ، لذلك كان طبيعيًّا أن يتمنى للوزراء أن تَحيق بهم الكوارث حتى يتخلص الشعب من ظلمهم وفساد حكمهم . ويُرْوَى أن بعض أصدقائه دخل عليه فى عصر المقتدر ، فقال له : ما تتمنّى ؟ فقال تَوًّا : لم يبق لى مُنًى غير نكبات الوزراء ، فقال له : قد نُكب ابن الفرات ، فقال جحظة على البديهة :

أَحسنُ من قهوة معتقة تخالها فى إنائهـــا ذهبا

من كفٍّ مَقْدودةٍ منعَّمة تَقْسِمُ فينا ألحاظُها الوَصَبا[1]
نعمةُ قومٍ أزالها قَدرٌ لم يَحْظَ حُرٌّ فيها بما طلبا

فقد أفرحته نكبة ابن الفرات وانتشى بها كما ينتشى السكارى بالخمر نشوة لا تَعْدِلها نشوة . ويشمت به لأن أحداً لم يُصب شيئاً مما كان فيه من نعمة ، وإنه ليضيق به كما ضاق به الشعب ، إذ كان يملأ الأرض ظلماً وشرًّا ونُكْراً ، وإنه ليبغضه ويبغض دولته التى حرمت الأحرار كل بِرٍّ وكل خير .
وكان يكثر من هجاء البخلاء الأشحاء الذين يقدمون الطعام للضيوف على كره منهم ، وكثيراً ما يصوغ هذا الهجاء فى قالب فكه من مثل قوله فى صديق :

دعانى صديقٌ لى لأكل القطائفِ فأمعنتُ فيها آمناً غير خائفِ
فقال وقد أوجعتُ بالأكل قلبه رُوَيْدَك مَهْلاً فهْىَ إحدى المتالفِ
فقلت له : ما إن سمعنا بهالكٍ ينادَى عليه : يا قتيلَ القَطَائفِ

وكانت القطائف صادفت منه مسغبة وجوعاً شديداً ، فأكل منها أكل النَّهِم وصديقه ينظر إليه شَزْراً ، فقال له : إنى أخاف عليك التخمة ، بل التلف والهلاك ، فردّ عليه هذا الرد الظريف . وله فى قوم بخلاء يحفظون القرآن :

قد حفظوا القرآن واستعملوا ما فيه إلا سورةَ المائِدَه

وتُرْوَى له أبيات مختلفة من هذا الطراز تدل على أنه كان حلو الدعابة على الرغم من قبح وجهه ورثاثة ثيابه . وله هجاء كثير لاذع يدل على أنه كان سريع الإحساس طويل اللسان . ولم يكن يخشى أحداً فهو يهجو الوزراء والحجّاب وغير الحجاب والوزراء ، وخاصة البخلاء منهم ، وكانوا يتحامونه لما يعلمون من شيوع شعره على ألسنة الصبيان فى الشوارع والأزقة . ومن قوله فى ثقيل :

يا لفظةَ النَّعْىِ بموت الخليلْ يا وَقْفَةَ التَّوْدِيع بين الحُمولْ

---

(١) مقدودة : رشيقة القد . الوصب : التعب

يا طلعة النَّعْشِ ويا منزلا أَقفرَ من بعد الأَنيسِ الحلولْ
يا نعمةً قد آذنتْ بالرَّحيلْ ونكسةً من بعد بُرْءِ العَليل

ويستمر طويلا فى وصف الثقيل بمثل هذه الصفات التى تجعله تمثالا لكل شر ، وكأنما تجمعت له شرور الحياة فى أسوأ صورها ، لكى يَـصمه بما يشاء منها ، وتتوالى الشرور فى أبشع هيئاتها ، ويضع بينها طلعة النعش ونكسة العليل . وكان يلم بالديارات ، وقد روى الشابشتى له بعض أشعار فى الخمر كان يغنيها على طُنْبُوره من مثل قوله فى دَيْر أُشْمونى ولهوه فيه :

سَقْياً لأُشمونى ولذَّاتهــا والعيشِ فيها بين جَنَّاتهــا
سَقْياً لأَيامٍ مضتْ لى بها ما بين شَطَّيْها وحاناتها

ويبدو أن إلمامه بالأديرة كان قليلا لقلة أشعاره فيها ، وربما كان الذى أقعده عنها بؤسه الذى كثيراً ما كان يرافقه . وله فى الغزل بعض قطع وأبيات طريفة من مثل قوله :

فقلتُ لها : بَخِلْتِ علىَّ يَقْظَى فجُــودِى فى المنام لمستهامِ
فقالتْ لى : وصرتَ تنام أَيضاً وتطمــع أَن أَزورك فى المنام

وقد توفى سنة ٣٢٣ عن سن عالية ، ويقال إنه عاش نحو قرن ، ولعل فيما أسلفنا من أشعاره ما يصوّر شاعريته الخصبة . وقد أسقطنا من أشعاره ما كان يستخدمه من الألفاظ والأساليب العامية ، وهى أثر من آثار شعبيته واختلاطه بالعامة فى بغداد .

الخُبْزُ أُرْزِىّ[١]

اسمه نصر بن أحمد ، شاعر بصرى ، كان أميًّا لا يكتب ولا يقرأ ، وكان يَخْبِزُ خُبْزَ الأرْزِ فى دُكَّانه بِمِرْبَد البصرة يتكسب بذلك معاشه ، وفى أثناء عمله كان يُنْشِد أشعاره المقصورة على الغزل ، والشبابُ والناس يزدحمون عليه لاستماع شعره ، ويتعجَّبون من حاله وأمره ، وشعره يذيع فى الناس لقرب مأخذه وسهولته . وعُنى بعض معاصريه ممن كانوا ينتابون دُكَّانه بجمع أشعاره ، وجمعوا له ديوانًا ، وفى معهد المخطوطات بالجامعة العربية نسخة مصورة منه ، ويقول المسعودى فيه : « أحد المطبوعين المجوِّدين فى البديهة المعروفين بالغزل » . ويقول أيضًا : « أكثر الغناء المحدث فى وقتنا هذا من شعره » . والخبز أرزى بكل ما قدمنا شاعر شعبى بالمعنى الكامل ، فهو من بيئة شعبية ، صاحب صناعة وحرفة ، وهو أمى لا يعرف القراءة ولا الكتابة ، وشعره يدور على كل لسان فى بلدته والشباب والصِّبْية ينشدونه فى كل مكان والمغنون يغنُّون فيه على جميع آلات الطرب . وقدم بغداد فاستقبله أدباؤها وشبابها استقبالا حسنًا لما كان قد سبقه إليهم من أشعاره الخفيفة السهلة العذبة . ومن الغريب أن نجد الثعالبى فى اليتيمة يقول إنه كان على وشك إهماله وَطىّ أشعاره لسفسفة كلامه ، لولا أن وجد من معاصريه من اهتم بجمع ديوانه ، فرأى أن يضمِّن كتابه « اليتيمة » لُمَعًا من شعره علقت بحفظه ، وفى الوقت نفسه رأى الإعراض عن التصفح لباقى شعره وترك الفحص فيه عما لا يصلح لإلحاقه باليتيمة من مُلَحه . وبذلك فوَّت على نفسه عملا أدبيًّا ونقديًّا جليلا كان يمكن أن يضيفه لكتابه ولا ينقص منه ، بل لعله يرفعه درجات ، إذ يحتوى مادة شعرية شعبية كان جديراً أن تُعْرَض كاملة ، حتى يُرَى مدى ما حدث من تطور فى اللغة الشعبية البصرية بالقياس إلى الفصحى ، سواء فى جوانبها اللغوية أو الأسلوبية ، ويُرَى أيضًا مدى ما ظل بينهما من تواصل . ولكن هذا غاب عن

---

(١) انظر فى الخبز أرزى وحياته وأشعاره اليتيمة ٢/٢٦٧ ومروج الذهب ٤/٢٥٩ وابن خلكان فى نصر بن أحمد والنجوم الزاهرة ٣ / ٢٧٦ وديوان المعانى ١ / ٢٧٢ ، ٢٩٧ وزهر الآداب ٢ / ١٣٧ وذيل زهر الآداب ص ١٤٩ .

ذهنه ، وأكبر الظن أنه إنما اختار أشعاراً ليس فيها عامية . ومع ذلك فنحن نؤمن بأن الفوارق حينئذ بين العامية والفصحى لم تكن واسعة . ومن مُلَحه التى رواها له قوله :

خليليَّ هل أبصرتما أو سمعتُما ... بـأكرم من مولًى تمشَّى إلى عَبْدِ
أتى زائرًا من غير وَعْدٍ وقال لى ... أصونُك عن تعليق قلبك بالوَعْدِ
فما زال كأْسُ الوصل بينى وبينه ... يدورُ بـأفلاك السعادة والسَّعْدِ
فطورًا على تقبيل نَرْجِسِ ناظرٍ ... وطورًا على تَعْضيض تفاحة الخَدِّ

وفى كلمة أصونك عن تعليق قلبك ما يصور رقَّتَه وأنه يخْشَى عليه من تعلق قلبه بالانتظار ، والبيتان الثالث والرابع جيدان فى التصوير . ومما روى له الثعالبى أيضًا من مُلَحه قوله :

كم أناسٍ وَفَوْا لنا حين غابوا ... وأناسٍ جَفَوْا وهم حُضَّارُ
عرَّضوا ثم أعرضوا واستمالوا ... ثم مالوا وجَاوَرُوا ثم جاروا
لا تَلُمْهم على التجنِّى فلو لم ... يتجنَّوا لم يَحْسن الإعتذارُ

والأبيات زاخرة بجناسات وطباقات تدل على أنه كان يَفْقَهُ صنعة الشعر وصناعة البديعيين فيهافقها حسنًا . فوفوا تقابل «جفوا» وغابوا تقابل «حُضَّار» وبين كل كلمتين متعاقبتين فى البيت الثانى جناس وطباق محكمان ، وحسن التعليل واضح فى البيت الأخير . والكلمات عذبة حلْوة خفيفة . ومن مُلَحه قوله :

رأيت الهلالَ ووجهَ الحبيبِ ... فكانا هلالين عند النَّظَرْ
فلم أدْرِ من حَيْرتى فيهما ... هلالَ الدُّجَى من هلال البشَر
ولولا التورُّد فى الوَجْنَتَيْنِ ... وما راعنى من سواد الشَّعَرْ
لكنتُ أظن الهلال الحبيبَ ... وكنت أظن الحبيبَ القَمَرْ

والخيال جميل ، وأحاله إلى طرفة نفيسة حقا بتلك الحيرة التى انتابته ، فلم يدْر أين هلال الدُّجَى وأين هلال البشر ، ثم أخذ يتأمل ، وبعد أناة طويلة لاحظ

تورُّد الوجنتين وسواد الشعر فعرف أين الهلال وأين الحبيب وإلا ظل غارقًا فى حيرته . ومن مُلَحه :

قد كان لى فيما مضى خاتمٌ فاليوم لو شئتُ تمنطَقْتُ بِهْ
وذُبْتُ حتى صِرْتُ لو زُجَّ بى فى مُقْلة النائم لم ينْتَبِهْ

وهى مبالغة واضحة فيما أصابه من ضَنًا بسبب حبه وشقائه فيه وعذابه . فحتى المبالغة التى كانت قد أخذت تشيع بين الشعراء نجدها عنده ، وكأنه توفَّر على الشعر فى عصره وقبل عصره حتى استقامت له ملكته ، وحتى تمثَّله بجميع مقوماته وخصائصه . وكان خفيف الروح فكهًا مما جعله محبوبًا عند أهل البصرة فى حياته وبعد مماته . ومن طريف ماله قولُه فى قلة الطعام على مائدة أحد أصدقائه :

ولعمرى كان الخِوانُ ولكنْ لم يكن ما يكون فوق الخِــوانِ
وجفانٍ مثل الجَوابى ولكنْ ليس فيهن ما يُرَى بالعِيانِ[1]
فإذا ما أدرتُ فيها بَنــانى لم أَجِدْ ما أَمسُّه بِبَنانِ
إننى ما ضغٌ على غَيْر شيء غير صَكِّ الأَسنان بالأَسنانِ
ترجع الكفّ وِهْى أفرغ منها عند مَدِّى لها فَدأْبى وشانى

والأبيات تدل على روح الدعابة عنده وأنه كان جميل المحضر عذب الفكاهة خفيف الظل على نفوس مواطنيه وعارفيه وعلى الشباب البصرى خاصة مما جعلهم يتعلقون به تعلقًا شديداً . ويبدو أنه نظم بجانب مقطوعاته التى كان ينشدها فى خبزه للأرز قصائد طويلة ، فقد أشار من ترجموا له إلى قصيدة طويلة طنانة استهلَّها بقوله :

بات الحبيبُ منــادمى والسُّكْرُ يَصْبغُ وَجْنَتَيهِ

وواضح مما أنشدناه له أنه كان عذب الشعر رقيقه وهو شعر شعبى بالمعنى الدقيق ، فقد نظمه صانع من صناع الشعب، لم يكن يحترف صنع الشعر للتكسب

---

(١) الجوابى : أحواض الماء

به وعَـرْضه على الخلفاء وغير الخلفاء ليمنحوه الجوائز المالية الضخمة ، فهو ليس ممن يقدمون شعرهم للطبقة الأرستقراطية إنما هو شاعر شعبي يقدِّم أشعاره للجمهور ، متبغيًا إرضاءه بتصويره لأحاسيسه فى الغزل ، وباتخاذه لُغَتَـه السهلة التى لا تجد فى فهمها أى عسر أو مشقة . وقد لبَّى نداء ربه سنة ٣٣٠ للهجرة ، ويقول المسعودى أُشيع أن الوزير البريدى غـرَّقه لأنه كان هجاه ، وقيل : بل فـرَّ من البصرة إلى هجر والبحرين وتوفى هناك ، ومهما يكن فقد حزنت البصرة وشبابها لوفاته ، وظلت ذكراه ماثلة لأهلها طويلا .

الفصل الثامن

نشاط النثر

١

تطور النثر

رأينا فى كتاب العصر العباسى الأول كيف أن النثر العربى تطوَّر تطوراً خطيراً ، فقد حملت أوانيه الثقافات الأجنبية المختلفة من يونانية وفارسية وهندية وسريانية حَمْلاً لا يزال يروع الباحثين ، وكأنما كان فى اللغة العربية طاقات مستكنَّة لكى تحمل فى يُسْر هذه الثقافات ولا تتأبَّى عليها ، واشتهر كثيرون بالنهوض بهذا العمل وفى مقدمتهم ابن المقفع. ثم رَعَت الدولة الترجمة ، وأنفقت عليها إنفاقات هائلة ، بحيث كاد أن لا يبقى كتاب نفيس فى الثقافات المذكورة إلا نُقل إلى العربية وبحيث يمكن أن يسمَّى العصر العباسى الأول عصر النقل والترجمة . وظلت من ذلك بقايا إلى هذا العصر ، وتحول المترجمون فيه يعيدون النظر فى كثير مما تُرْجم فى العصر الماضى ، وكانت عامةُ الترجمة فيه حرفية ، فالفقرة من الفقر فى كتاب تُتَرْجَمُ حرفياً ، اللفظة مقابل اللفظة ، مما قد يصيب الكلام بشىء من الالتواء أو التعثر أو الاضطراب فى التعبير . وكان ذلك دافعاً للمترجمين أن يعيدوا النظر فى كثير مما تُرْجم وأن يترجموه ثانية على أساس جديد ، هو ترجمة المعانى لاالترجمة الحرفية ، بمعنى أن المترجم يقرأ الفقرة وينقل معناها كما ارتسم فى ذهنه دون التقيد الحرفى حتى َ يطَّرد نسق الكلام ولا يظهر فيه شىء من الاختلال الذى كثيراً ما تدفع إليه الترجمة الحرفية. وحقاً من المترجمين الأوائل من استطاعوا أن ينفذوا إلى هذه الطريقة الثانية للترجمة مبكرين ، على نحو ما هو معروف عن ابن المقفع وترجماته ، ولكنه كان يُعَدُّ شاذاً وعُدَّ فى الوقت نفسه من بلغاء العربية ، لأننا قلما نحس عنده نشازاً أو التواء أو انحرافاً من شأنه إفساد التعبير ،

إلا ما قد يكون أصاب بعض رسائله لطول المسافة بيننا وبينه ، وما أدخلته أيدى النسَّاخ على مر العصور فى كتاباته، من بعض الخلل . وهو على كل حال خلل قليل جدًّا، وبين أيدينا ترجمته لكليلة ودمنة ، وهى من أروع الترجمات القديمة ، وتَدُلُّ بحق على أنه كان أحد بلغاء العربية لعصره . ولكن ابن المقفع يُعَد شخصية نادرة بين مترجمى العصر العباسى الأول ، إذ لم يكن لكثرتهم بلاغته ولا فصاحته ، لذلك أحسّ المترجمون فى العصر العباسى الثانى عندهم غير قليل من الانحراف فى التعبير ، وتنبَّهوا إلى أن ذلك جاءهم من الترجمة الحرفية ، فأخذوا يعيدون ترجمة كثير مما نقلوه . وكان هذا كَسْبًا للنثر العربى فإن الضَّيْمَ الذى كان يداخل الترجمات أخذ يزايلها . واتبع حنين بن إسحاق — أكبر مترجمى العصر — منهجًا فى ترجمته أن يجمع للكتاب المترجَم كلَّ ما يمكنه من مخطوطاته، وأن يعارضها بعضها على بعض مقابلا بين عباراتها، محاولا أن يستخلص منها المعانى بكل دقة . وهو أستاذ المترجمين والترجمة فى العصر العباسى الثانى الذى وضع بقوة فكرة ترجمة المعانى لا ترجمة الألفاظ أو الترجمة الحرفية . وكان يَعْمَل بين يديه كثير من الشباب فى مقدمتهم ابنه إسحق وابن أخته حبيش ، يترجمون حسب منهجه ، وهو يراجعهم ويُصْلح لهم بعض ما ترجموه على هدى طريقته الجديدة . وكان من الكتب التى أعادت ترجمتها هذه المدرسة كتابُ الخطابة لأرسطاليس ، ترجمه إسحق بن حنين ويَنص ابن النديم فى الفهرست على أنه كان قد نُقل قبل ذلك نقلا آخر ، ولا يعيِّن صاحبه ، غير أنه يسميه « النقل القديم » . وقد يقال إذا كانت الترجمة فى هذا العصر أصلحت الترجمات القديمة ، وبَدَتْ فى أسلوب عربى مستقيم ، فلماذا يبدو الخلل والاضطراب الشديد فى ترجمة مَتَّى بن يونس لكتاب أرسطاليس عن الشعر ؟ وأكبر الظن أن هذا الاضطراب والخلل مصدرهما أن موضوع الكتاب وهو المأساة وما اتصل بها من الشعر القصصى لم يرتسما فى ذهن مَتَّى رسما بَيِّنًا ، إذ كان السريان — مثل العرب — لا يعرفون شيئًا عن الشعر اليونانى وفنونه التى ظهرت عندهم القصصية والغنائية والتمثيلية ، وهذا هو السبب فيما أصاب ترجمة كتاب الشعر لأرسطو عند مَتَّى من تعثر وخلل . وقد يكون الخلل والعثر موجودين فى الأصل السريانى الذى نُقل عنه الكتاب .

على كل حال انتقلت الترجمة فى هذا العصر نقلة واسعة ، فقد أخذ المترجمون يتمثلون المعانى التى ينقلونها ويُسيغونها ثم يترجمونها إلى لغة عربية فصيحة لا تشوبها شوائب الترجمة الحرفية القديمة . والذى لا ريب فيه أن معرفتهم بخصائص العربية كانت أدق من معرفة أسلافهم، إذ ذلّلها لهم علماء اللغة والبيان ، وكانت قد ألفت كتب كثيرة فى بيان طوابعها ومقوماتها ، مما عرضنا له فى غير هذا الموضع ، فطبيعى أن يتقنها غير مترجم . وهذا نفسه يُلاحَظُ فيما أخذ ينشأ منذ العصر العباسى الأول من الأساليب الفلسفية والعلمية ، فإن هذه الأساليب لانت وأخذ يزايلها الالتواء ، بل أخذ يجرى فيها الاستواء والتناسق ، وكأن الفلاسفة والعلماء أخذوا أنفسهم بإرادة قوية فى التثقف بالعربية . وليس ذلك فحسب ، بل أيضاً بالسيطرة على أساليبها سيطرة تقيم تلاؤماً وتوازناً دقيقين بين الألفاظ والمعانى التى تؤديها ، بل إن منهم من شارك فى الشعر والنثر مثل الكندى أول فيلسوف بالمعنى الكامل ظهر عند العرب، فقدُ أثرت عنه بعض أشعار ، كما أثرت عنه بعض رسائل جيدة، سنعرض لها فى موضع آخر ، فهو قد أتقن العربية وفَقِهَ أسرارها وخصائصها فقهاً جيداً ، ونضرب لذلك مثلا من أسلوبه الفلسفى ، وفيه يتحدث عن صانع الكون ومدبره والشواهد العقلية على وجوده، يقول[1] :

« إن فى الظاهرات للحواس ، أظهرَ الله لك الخفيات ، لأوضحَ الدلالة على تدبير مدبِّر أول ، أعنى مدبراً لكل مدبر ، وفاعلا لكل فاعل ، ومكوّناً لكل مكوّن ، وأولا لكل أول ، وعلة لكل علة ، لمن كانت حواسه الآلية موصولة بأضواء عقله ، وكانت مطالبه وجدانَ الحق وخواصه (معرفة) الحق وغرضه الإسنادَ للحق واستنباطَه والحكمَ عليه . والمُزكّى عنده — فى كل أمر شَجَر بينه وبين نفسه — العقل . فإن مَنْ كان كذلك انهتكت عن أبصار نفسه سُجوفُ[2] سُدَفِ الجهل ، وعافت نفسه مشارب عَكَر العُجْب ، وأنِفَتْ من ركاكة معالجة الزهو ، واستوحشتْ من تولُّج[3] ظُلَمِ الشبهات ، وخرجت من الرَّيْب على غير تبين ، واستحيت من الحرص على

---

(١) رسائل الكندى الفلسفية تحقيق الدكتور عبد الهادى أبى ريدة (طبع مطبعة الاعتماد بمصر) ص ٢١٤ .

(٢) سجوف : أستار . سدف : ظلمات.

(٣) تولج : دخول .

اقتناء ما لا تجد ، وتضييع ما تجد، فلم تضاد ذاتها ولم تتعصب لأضدادها . فكن كذلك ، كان الله لك ظهيراً ، أيها الصورة المحمودة والجوهر النفيس يتضح لك أن الله ، جل ثناؤه ، وهو الإنية (الموجود) الحق التى لم تكن ليساً أبداً ، لم يزل — ولا يزال — أيس أبداً ، وأنه هو الحى الذى لا يتكثر بتة ، وأنه هو العلة الأولى التى لا علة لها ، الفاعلة التى لا فاعل لها ، المتممة ، التى لا متمم لها . . . وإن فى نظم (انتظام) هذا العالم وترتيبه وفعل بعضه فى بعض وانقياد بعضه لبعض وتسخير بعضه لبعض وإتقان هيئته على الأمر الأصلح فى كون كل كائن وفساد كل فاسد وثبات كل ثابت وزوال كل زائل لأعظم دلالة على أتقن تدبير » .

والقطعة تدل بوضوح على مهارة الكندى البيانية ، وأنها لا تقف عند فصاحة التعبير ، بل تتعدى ذلك إلى إدخال تلاوين من التكرار ومن الصور البيانية ، وما المعنى الذى يريد أن يوضحه الكندى ؟ إنه يريد أن يقول إن ما يبصره الإنسان من ظواهر الكون ويحسه من مشاهده ويراه من نظامه واتساق أجزائه دليل على أن هناك مدبراً أعلى للكون ، وضع له قوانينه ، التى تحول بينه وبين أى اختلاط أو اضطراب ، كما يشهد بذلك نظامه الذى يخلو من كل عوج وخلل وفساد ، ولكنه أخرج هذه الفكرة فى صورة فلسفية مطنبة ، وهو فى إطنابه لا ينسى خصائص الأسلوب الأدبى وجمال الترادف فيه على نحو ما نرى فى قوله : « أعنى مدبراً لكل مدبر ، وفاعلا لكل فاعل ، ومكوناً لكل مكون ، وأولا لكل أول ، وعلة لكل علة » ، فقد عبر عن معنى واحد بخمس كلمات متوالية ، ليقوى المعنى ، وليضيف إليه شيئاً من الجمال الذى يلاحظ فى التكرار الصوتى . وهو لا ينسى أيضاً ما فى الأسلوب الأدبى من روعة التصوير التى تخلب ألباب السامعين ، على نحو ما نقرأ فى قوله : « فإن من كان كذلك انهتكت عن أبصار نفسه سجوف سدف الجهل ، وعافت نفسه مشارب عكر العجب ، وأنفت من ركاكة معالجة الزهو ، واستوحشت من تولج ظلم الشبهات » ، والصور متلاحقة فى هذه العبارات ، وكأننا بإزاء كاتب أدبى لا كاتب فلسفى . وفى ذلك ما يدل بوضوح على التقاء الفلسفة بالأدب بل على امتزاجهما ، فهذا الكندى الفيلسوف يعرض فلسفته فى أسلوب أدبى يشتمل على غير قليل من الروعة البيانية . وتلقانا فى أسلوبه اصطلاحاته الفلسفية كاصطلاح (الإنية) بمعنى

(الموجود) واصطلاح (ليس) بمعنى المعدوم و (أيْس) بمعنى الموجود . وهذه الاصطلاحات لا تجور على العبارات فى الأسلوب ، بل يندمج فيها لقدرة الكندى كما قلنا آنفاً على المزج بين العبارة الفلسفية والعبارة الأدبية .

وحقاً لم يكن مَنْ وراء الكندى من المتفلسفين يبلغون مبلغه فى العربية والوقوف على أسرارها وخصائصها الأدبية ولكن من الحق أنهم جميعاً عُنوا بفصاحة عباراتهم وسلامتها بقدرما استطاعوا حتى عند من كان منهم ينادى باتخاذ مقاييس البلاغة اليونانية معياراً للفن البيانى فى النثر . ومَرَّ بنا فى غير هذا الموضع أنه كانت هناك ثلاثة أذواق : ذوق ينادى بالرجوع إلى اليونان ومعاييرهم البلاغية ، وكان يمثله المترجمون السريان ومن التفَّ حولهم من الكتّاب الذين كانوا يعكفون على النظر فى علم النجوم وفى المنطق والفلسفة والذين كانوا يتحدثون دائماً عن الكَوْن والفساد ، وسَمْع الكيان ، والكيفية والكمية ، والجوهر والعرض ، ورأس الخط النقطة ، والنقطة لا تنقسم مما كانوا يقرءونه فى الكتب المترجمة ، على نحو ما يصور ذلك ابن قتيبة فى مقدمة كتابه « أدب الكاتب » . وكان يقابل هذا الذوقَ المجدد إلى أبعد حدود التجديد حتى ليرفض المقاييس العربية ذوقٌ كان يرتضى هذه المقاييس ، بل كان يرى خَطَل الاحتكام إلى سواها ، فالأدب أدب عربى له ملكاته الراسخة ، وله أساليبه الموروثة المصفّاة . وينبغى ألا نعدل عن معاييره الذاتية إلى معايير أخرى ليست من طبيعته ولا من بيئته . وكان يمثل هذا الذوقَ علماء اللغة المحافظون ومن سار فى فلكهم . وبين الذوقين كان هناك ذوق ثالث معتدل ، لا يغلو غلو الأولين فى رفض المقاييس العربية ولا غلو الأخيرين فى رفض المقاييس الأجنبية ، بل يقف موقفاً وسطاً بين الطرفين المتعارضين ، فهو يعتدّ بالمقاييس العربية ويأخذ منها ما يوافق العصر ويلائمه ، وهو ينظر فى المقاييس الأجنبية ويأخذ منها ما يتفق وروح البيان العربى . وكان يمثل هذا الذوق المتكلمون على نحو ما يلاحَظ فى كتاب « البيان والتبيين » للجاحظ ، وهو فيه يَعْرض ملاحظات العرب منذ الجاهلية عن البيان ومقوماته ولا يكاد يترك ملاحظة هنا أو هناك لخطيب عربى إلا ويسجّلها ، وينقل عن الهند واليونان والفرس آراءهم — التى استطاع الحصول عليها — فى البلاغة دون أن يُعْلى فريقاً على فريق أو ينصر فريقاً ضد فريق .

وكانت بيئة المتكلمين أسبق من البيئتين الأخريين فى وضع قواعد البلاغة النثرية ، إذ أخذت تحاول منذ العصر العباسى الأول وضع هذه القواعد ، وكان من أهم ما دفعها إلى ذلك تدريبُ الشباب على المهارة فى الخطابة والبيان وكيف يتغلب على الخصوم فى حِجاجه وجدله. وكانت المناظرات مندلعة بينها وبين أصحاب الفرق الأخرى ، وكانت تندلع أحيانًا فيما بين أفرادها ، فكثر كلامهم عن صفات الخطيب وجهارة صوته ووضوح عبارته وخلابتها وملاءمة كلامه للسامعين وما يحسن من حركاته وإشاراته ودقة أدلته وبراهينه ، وكيف يَقْرع حجة الخصم بالحجة الناصعة وكيف ينقض كلامه نقضًا . وأخذوا يحاولون مبكرين التعرف على مقومات البيان العربى ، ودار بينهم كلام كثير عن البلاغة وقواعدها البيانية وما ينبغى فى ألفاظ العبارات أحيانًا من رشاقة وعذوبة وأحيانًا أخرى من جزالة ورصانة ، وما ينبغى للمعانى من وضوح مهما دقَّت مسالكها . وبحق لاحظ ابن تيمية أن هذه البيئة هى التى فرَّقت بين الحقيقة والمجاز وأعدَّت لمباحث البيان العربى المعروفة[1]. ويلقانا فى هذا العصر الجاحظ وكتابه البيان والتبيين الذى ذكرناه آنفًا ، وهو يشتمل على كل الملاحظات البيانية والبلاغية التى أوصى بها المتكلمون الأدباء، حتى يحوزوا لأنفسهم بيانًا ناصعًا رائعًا . وتهمنا ملاحظات الجاحظ نفسه ، لأنه هو الذى عايش العصر ، وترك آثاراً واضحة فيه، ومن أهم ما ردَّده طويلا فكرة مطابقة الكلام للسامعين ، فلا يصح لمتكلم أن يكلم العامة بمصطلحات علم الكلام أو يكلم علماء الكلام بكلام الأعراب الممتلئ بالغريب أو بكلام العوام المبتذل المسف يقول : « قبيح بالمتكلم أن يفتقر إلى ألفاظ المتكلمين فى خطبة أو رسالة أو فى مخاطبة العوام أو فى مخاطبة أهله . . . أو فى حديثه إذا حدث أو فى خبره إذا أخبر وكذلك من الخطأ أن يجلب ألفاظ الأعراب وألفاظ العوام فى صناعة الكلام ، ولكل مقام مقال ولكل صناعة شكل[2] » . ولا يمل الجاحظ من الدعوة إلى الوضوح ، وألا يوجز كاتب ولا عالم فى كلامه حتى يصبح ألغازاً ، وقد حمل على كتب الأخفش لما فيها من صعوبة وغموض ، كما حمل على كل تكلف ، يقول : « متى شاكل — أبقاك الله — اللفظُ معناه ، وأعرب عن فَحْواه ، وكان لتلك الحال وَفْقًا ، ولذلك القدر

---

(١) كتاب الإيمان لابن تيمية ص ٣٤.

(٢) الحيوان ٣٦٨/٣ والبيان والتبيين ١٤٤/١ .

لِفقًا ،وخرج من سماجة الاستكراه وسلم من فساد التكلف كان قمينًا بحسن الموقع وبانتفاع المستمع »[١] . وتحدث كثيراً عن جزالة الألفاظ وعذوبتها وعن تلاحمها وتنافرها وعن حسن موقعها فى مكان وسوئه فى مكان آخر ، كما تحدث عن دقة استخدام الكلمات ، يقول : « قد يستخف الناس ألفاظًا ويستعملونها ، وغيرها أحق بذلك منها ، ألا ترى أن الله تبارك وتعالى لم يذكر فى القرآن الجوع إلا فى موضع العقاب أو فى موضع الفقر المدقع والعجز الظاهر ،والناس لا يذكرون السَّغب ويذكرون الجوع فى حال القدرة والسلامة . وكذلك ذكر المطر ، لأنك لا تجد القرآن يلفظ به إلا فى مواضع الانتقام، والعامة وأكثر الخاصة لا يَفْصلون بين ذكر المطر وبين ذكر الغيث»[٢] . ويتوقف مراراً ليشيد بجمال اختيار الألفاظ وجودة الصياغة والسبك وحسن الرَّصْف والنظم ، ونراه ينوّه بالسجع وأثره فى نفوس السامعين[٣] ، كما ينوه بالازدواج وما فيه من جمال[٤] صوتى ، وكأنه هو الذى أعدّ لهذين الأسلوبين كى يشيعا على ألسنة الأدباء منذ عصره ،وكان هو نفسه يستخدم الازدواج كثيراً فى أسلوبه ، واستخدم السجع قليلا ، وتردّدت على لسانه فنون بديعية وبيانية كثيرة ، مثل : الأسلوب الحكيم والاحتراس ، وكان يسميه إصابة المقدار ، والاعتراض ، والكناية والحقيقة والمجاز والاستعارة والتشبيه والتمثيل . وبذلك هيَّأ فيما بعد لابن المعتز أن يكتب كتابه البديع مصوراً فيه المحسنات البيانية والبديعية وفيه ينص على أن الجاحظ اكتشف بين تلك المحسِّنات محسِّنا عقليًّا هو « المذهب الكلامى» ويريد به الجاحظ دقة حِيَلِ المتكلمين فى الغوص على الحجج والعلل والمعاذير . وظلت كتابات الجاحظ فى البيان والتبيين وكذلك فى الحيوان مخازن لا تنفد للبلاغيين المتأخرين ، كل يأخذ منها حسب ذوقه وقدرته العقلية .

وقدّمت بيئة اللغويين كتبًا مختلفة ، منها ما يعتمد على رواية الأشعار الغريبة وبعض أخبار عن الأعراب مثل مجالس ثعلب ، ومنها ما يُعْنَى بضبط ألفاظ وتفسيرها مثل كتابه «الفصيح» ، وأهم كتاب قدمته هذه البيئة كتاب الكامل للمبرد ، وهو معرض جيد لنماذج من الشعر والنثر ، لا تبلغ فى الغرابة مبلغ نماذج ثعلب فى

---

(١) البيان والتبيين ٢ /٧ .
(٢) البيان والتبيين ١ /٢٠ .
(٣) البيان والتبيين ١/٢٨٤، ٢٩٧، ٤٠٨ .
(٤) البيان والتبيين٢/١١٦ .

مجالسه ، ولذلك شُغف الأدباء فى عصر المبرد وبعد عصره بهذا الكتاب ، وعدُّوه أحد كتب الأدب الأربعة الأساسية . ونراه يتأثر بما كتبه الجاحظ عن فنون البيان ، فيشير إلى الحقيقة والمجاز والاستعارة ، ويتحدث عن الكناية ويوزّعها على ثلاثة أنواع ، فهى إما للتعمية وإما لتحاشى اللفظ الخسيس وإما للتفخيم[1] ، ويجعل التشبيه أربعة أضرب ، فهو إما تشبيه مفرط ، وإما تشبيه مصيب ، وإما تشبيه مقارب ، وإما تشبيه بعيد[2] . والكتاب يمثل ذوقًا محافظًا ، فليس فيه أى شىء يتصل بآراء الأجانب فى البيان والبلاغة ، وليس فيه أىُّ استضاءة بهذه الآراء . ومن الغريب أن نجد ابن قتيبة ، وسنعرف فى موضع آخر أنه كان مثقفًا بالثقافات الأجنبية المعاصرة ، يجنح فى ذوقه إلى هذه البيئة اللغوية المحافظة فى كتابه « أدب الكاتب » وقد مضى فيه يعرّف الكُتَّاب بالاستعمالات اللغوية الصحيحة للكلمات ، فمن ذلك الطَّرب يذهب الناس إلى أنه فى الفرح دون الجزع ، وليس كذلك إنما الطرب خفَّةٌ تصيب الرجل لشدة السرور أو لشدة الجزع[3] ، ومن ذلك المأتم يذهب الناس إلى أنه المصيبة ، يقولون كنا فى مأتم ، وليس كذلك إنما المأتم النساء يجتمعن فى الخير والشر ، والجمع مآتم ، والصواب أن يقولوا كنا فى مناحة ، وإنما قيل لها مناحة من النوائح لتقابلهن عند البكاء[4] . ويظل يفتح نحو خمسين بابًا لتعليم الكُتَّاب ألفاظًا يجب أن يعرفوا دقة استخدامها ، منها ما يتصل بأسماء الحيوان ومنها ما يتصل بأسماء الأفلاك ، ومنها ما يتصل بأسماء النبات ، ومنها ما يُعْرَفُ واحده ويُشْكل جمعه ، ومنها ما يتصل بالطعام أو الشراب أو الثياب أو السلاح . ويخرج من ذلك إلى أبواب تتصل بكتابة الكلمات من ذوات الألف أو الواو أو الياء إلى غير ذلك . وينتقل إلى أبواب تقويم اللسان ناصًّا فيها على ما يسبِّبه السماع للعامة من الوقوع فى الخطأ كأفعال تُهْمَزُ والعامة تدع حذفها وما هو بالسين ويقولونه بالصاد وما جاء مفتوحًا وهم يكسرونه إلى جمّ من مثل هذه المسائل . ويمضى إلى أبنية الأفعال ومعانيها وأبنية الأسماء ومعانيها ، وفى أثناء ذلك يعقد بابًا طريفًا[5] لما يتكلم به العامة من الكلام الأعجمى ، سواء

---

(١) الكامل للمبرد (طبعة رايت) ص ٤١٢ .

(٢) الكامل ص ٥٠٦ .

(٣) أدب الكاتب لابن قتيبة (طبعة ليدن) ص ٢٢ .

(٤) أدب الكاتب ص ٢٤ .

(٥) أدب الكاتب ص ٥٢٦ .

أكان أصله روميًّا أم نبطيًّا أم فارسيًّا أم سريانيًّا . والذوق العام فى الكتاب ذوق لغوى محافظ شديد المحافظة .

وعلى ضوء الذوقين اللذين وصفناهما للبيئتين السالفتين صنَّف معاصر لابن قتيبة هو إبراهيم بن المدبر المتوفى سنة ٢٧٨ رسالة[١] بديعة فى موازين البلاغة وأدوات الكتابة ، سماها الرسالة العذراء ، وهى أول رسالة تناولت بدقة صناعة النثر ، وهو يستهلها بأن شخصًا طلب إليه أن يعرّفه بجوامع أسباب البلاغة وآداب الكتابة ، ويُشيد بهذه الصناعة ، ويطلب ممن يريد حِذْقها طول الاختلاف إلى العلماء ومدارسة كتب الحكماء ورسائل المتقدمين والمتأخرين والوقوف على الأشعار والأخبار والسير والأسمار والخطب ومحاورات العرب ومعانى العجم وحدود المنطق وأمثال الفُرْس ورسائلهم وعهودهم وسيرهم ، مع التزود بالنحو والتصريف واللغة والفقه . وابن المدبر بذلك كله يلتقى بذوق علماء الكلام كما يمثلهم الجاحظ فيما حكاه من الثقافات الأجنبية ، كما يلتقى بعلماء اللغة والتصريف ، فهو يستضىء بهم جميعًا . ويدعو من يريد التخصص بهذه الصناعة أن يمهر فى نَزْع آى القرآن الكريم ووضعها فى مواضعها ، وكذلك الأمثال والأشعار وإن كانت الأخيرة لاتُستَحسَن فى مخاطبة الخلفاء ، وهو فى هذه الملاحظة يستمد من الجاحظ مباشرة[٢] وقد استمد منه كثيراً فى رسالته . والمهم أنه يشيد فى تكوين ثقافة الأديب بالثقافة العربية ، ويضعها جنبًا إلى جنب مع الثقافات الأجنبية ، مما يدل بوضوح على أنه كان يتأثر ببيئة المتكلمين تأثراً عميقًا . ويتحدث عن زِىّ الكاتب وحسن هندامه ، ويطالب — فى إلحاح — كما طالب الجاحظ من قبله بالملاءمة الدقيقة بين الكلام وطبقات الناس من الخلفاء والوزراء والكُتَّاب وولاة الثغور وقواد الجيوش والقضاة والعلماء وذوى النباهة والظَّرْف . ويقول إن لكل طبقة من هذه ما يناسبها من الألفاظ والمعانى ، حتى لا يُجْرِى الأديب شعاع بلاغته فى غير مساربه ولا ينْظم جوهر كلامه فى غير سِلْكه . ولا بد — كما قال الجاحظ مراراً وتكراراً — من المشاكلة الدقيقة بين الألفاظ والمعانى ، حتى توضع الألفاظ فى مواضعها وتنزل

(١) جمهرة رسائل العرب لأحمد زكى صفوت ٣ / ١٩٩ .

(٢) البيان والتبيين ١/ ١١٨ .

مواطنها . ثم يتوقف — مهتديًا بابن قتيبة — إزاء أبنية ينبغى تركها واستعمال أبنية أخرى ، فمثل الدعاء : « أبقاك الله طويلا » ليس مُسْتَحَبًّا ، إنما المستحب « أطال الله بقاءك » مع أنه لا فرق فى المعنى بين العبارتين ، ولكنهم جعلوا الثانية أرجح وزنًا وأنبه قدراً . وكذلك الدعاء : « جُعلت فداك » يرى أنه قد ابتُذل حتى مَجَّتْهُ الأفواه ، إلى غير ذلك من أدعية كانت تنبو عن ذوق الأدباء من أمثاله .
ويقول إن مديح الخلفاء والوزراء فى الرسائل ينبغى ألا يكون بالفروض الواجبة مثل : يصدق فى وعده ويفى بعهده ، لأن ذلك من الواجبات التى ينبغى أن تكون فى كل شخص . ولا بد أن يعرف الأديب لكل كلمة مكانها ، ويضرب مثلا لذلك أن شخصًا كتب إلى داود بن خلف الأصبهانى معاصره صاحب مذهب الظاهرية عن شخص آخر على هذا النمط : «وإن قال كذا فقد خرج عن الملة ، والحمد لله » وردّ عليه داود متعجباً عن وضع الحمد فى هذا المكان قائلا : «تحمد الله على أن تُخرج امرءاً مسلمًا من الإسلام ، هذا موضع استرجاع ، وللحمد مكان يليق به ، وإنما يقال فى المصيبة : إنا لله وإنا إليه راجعون » . ويَطْلُبُ ابن المدبِّر أن يوضع مع ذكر الشكوى مثل : « والله المستعان ، وحسبنا الله ونعم الوكيل » ، ومع ذكر البَلْوَى : « نسأل الله دفع المحذور ، ونسأل الله صَرْفَ السوء » ومع ذكر النعم مثل : « الحمد لله خالصًا ، والشكر لله واجبًا » . ويمضى فى إثر الجاحظ ، فيقول إنه لا يجوز فى الرسائل الإيجاز المفرط ولا استعمال الألفاظ المشتركة أو المبهمة ولا محاكاة الشعر فيما يجرى فيه من حذف أو ضرورات . ويحذّر من استعمال كلمة « إياك » ويحسُّ ثقلها فى مثل « كلمت إياك » . ويُبْدِئُ ويُعيد — على ضوء الجاحظ — فى أن الألفاظ ينبغى أن توضع فى مواقعها بدقة . ويدعو إلى الاستهلال فى مقدمات الرسائل بحيث تشير فى صدرها إلى المراد منها ، ويوصى بعدم إطالة المقدمات فى الكتابة ، ويقول إنها ينبغى ألا تزيد عن سطرين أو ثلاثة . ثم يُفيض فى أوصاف القلم واختيار مادته وطريقة بَرْيه وأنواعه وأجودها ، ويوصى بعدم إغفال الصلاة على الرسول عليه السلام . ويَلْفت إلى كيفية كتابة التاريخ بالقياس إلى الشهر ، فإن كان الماضى أقل من نصف الشهر قال الكاتب : لكذا ليلةً مضت من شهر كذا ، وإن كان الباقى أقل من النصف قال : لكذا ليلةً بقيت . ويتحدث عن القراطيس والكتابة فيها وطَيِّها . ويشير — على هدى ابن قتيبة — إلى العناية

بميزان التصريف . ويعود إلى وضع الألفاظ فى أماكنها ، وينْهَى — كما نهى المتكلمون من قبل — مَنْ ليست له موهبة أدبية عن محاولة الانتظام فى هذه الصناعة . وينقل عن أحد المتكلمين ، وهو العتّابى ، رأيه فى اختيار الألفاظ وصعوبته . وينصح الكاتب بعرْض ما يكتبه فى باكورة حياته على المختصين ليروا مقدار صلاحيته للصناعة . وينْهى — على هدى الجاحظ — عن الألفاظ الحوشية والمبتذلة ، وينقل عنه إعجابه بالكتّاب إذ قال: « ما رأيت قومًا أمثل طريقة فى البلاغة من الكُتّاب ، فإنهم التمسوا من الألفاظ ما لم يكن متوعّراً وحشيًّا ولا ساقطاً سوقيًّا » . ويعود إلى فكرة الوضوح الجاحظية . وينقل عنه بعض كلامه . ويذكر أرسطو وينقل عنه بعض ما قاله فى النِّصْبة التى تدل على اللفظ والإشارة والخط والعقد كأعلام الأفراح ، وينقل أيضًا عنه حَدّه للإنسان وأنه الحى الناطق ، وهو بذلك يقترب من ذوق المتكلمين وانتفاعهم ببعض ما تُرجم دون الذوبان فيه . ويبيّن أهمية الكتب المحبّرة تحبيراً جيداً فى استنزال الجبابرة وأنها قد تصنع ما لا تصنعه الجيوش اللّجبة . ثم يسوق صفحات جلَبها من البيان والتبيين عن تعريف اليونان والروم والفرس للبلاغة . ولا يكتفى بذلك بل ينقل أيضًا الصحيفة التى دوّنها الجاحظ عن الهنود فى البلاغة ، ويتلوها بما دوّنه عن بعض بلغاء العرب والمتكلمين مثل خالد بن صفوان وعمرو بن عبيد والخليل بن أحمد ، وكل ذلك دليل واضح على أن ابن المدبر وضع نُصْبَ عينه فى كتابته لرسالته العذراء ابن قتيبة والجاحظ ، ولكن أثر الجاحظ وكتابه البيان والتبيين أبعد مدى وأعمق أثراً .

وحتى الآن لم نتكلم عن كتاب يمثل بيئة المترجمين والمتفلسفة ومن كان ينهج نهجهم فى الدعوة لمعايير البلاغة اليونانية ، ولعل خير كتاب قدمته هذه البيئة فى مجال النثر والكتابة هو الكتاب الذى نُشر باسم نقد النثر منسوباً إلى قدامة بن جعفر ، وقد تبيّن فيما بعد أنه جزء من كتاب البرهان فى وجوه البيان لإسحق بن إبراهيم بن سليمان ابن وهب ، وهو من أسرة ظلت تعمل فى دواوين الخلفاء العباسيين منذ المأمون ، وكان جده وزيراً للمهتدى والمعتمد ، وتوفى سنة ٢٧٢ فبينه وبين حفيده جيل واحد مما يدل على أنه ممن عاشوا بأخرة من هذا العصر . ونراه فى مستهل كتابه يُزْرى على كتاب الجاحظ : « البيان والتبيين » ، وهذا طبيعى لأنه يمثل بيئة المتفلسفة

والمترجمين التى كانت تعارض المتكلمين فى مقاييسهم البلاغية ، لأنهم لم يستوعبوا فى رأيه كتابات أرسطو فى المنطق والجدل والخطابة . وهو يفتتح كتابه بمباحث فى العقل تدل على أنه شيعى إمامى ، ويعقد فصلا للقياس يحلله فيه على طريقة أرسطو ، ويقول إنه جُعل عماداً وعياراً على العقل كما جُعل البركار لتقويم الدائرة والمسطرة لتقويم الخط . ويفيض فى مباحث تتصل بالأخبار وبالفقه . ويتكلم عن بعض خصائص التعبير كما يتكلم عن الرمز ويقول إنه أتى منه كثير فى كتب المتقدمين من الفلاسفة وكان أكثرهم استعمالا له أفلاطون . ويعود إلى الحديث عن بعض خصائص العبارات وعن الأمثال والالتفات وعن المبالغة ويرتضيها متأثراً بأرسطو ، ويعرض لمبحث الفصل والوصل بين العبارات وكذلك لمبحث التقديم والتأخير . ويقسم الكلام المنثور إلى خطابة وترسل واحتجاج وحديث ، وينوّه بالإيجاز الذى حذّر الجاحظ منه ، ويقول إن أرسطو وأوقليدس كانا شديدى الإيجاز ، بينما امتاز بالإطناب جالينوس ويوحنا النحوى . ويعقد فصلا فى نحو عشرين صحيفة ، أجمل فيه كتاب الجدل لأرسطو . وواضح أنه توسّع فى تشريعه للنثر العربى ووضْعه لمعاييره فى الأخذ عن كتابى أرسطو فى المنطق والجدل . وهو أخذٌ يبدو فيه الجفاف وأنه ينبو عن الذوق العربى ، ولذلك لم يلْقَ هذا الكتاب ترحيباً من المتأدبين . وكان لذلك أثره فى أن نقاد العرب لم ينقلوا عنه شيئاً فى كتاباتهم عن الخطابة والنثر . إذ رأوه يحتكم إلى أشياء غير وثيقة الصلة بأدبهم ، ومن أجل ذلك ظل الكتاب وصاحبه مجهولين من عامة النقاد . ولا نبعد إذا قلنا إن بيئة المتكلمين هى التى سيطرت بما وضعته من معايير على أذواق الكتاب والأدباء فى العصر ، وظل ذلك حقباً متطاولة ، وهى كما قلنا بيئة معتدلة كانت تزاوج بين المعايير العربية والمعايير الأجنبية بحيث ظلت أوضاع العربية قائمة ، كما ظلت مقوّماتها حيّةً ، مقومات تعتمد على التراث القديم وتتطور بما يلائم العصر والثقافات الحديثة ، تطوراً لا يَجْنِى على العربية ، بل تجنى منه ثماراً رائعة ، غذاء للعقول وشفاء للقلوب والأرواح .

وعلى هذا النحو كان ذوق بيئة المتكلمين هو الذوق الأدبى العام ، وكان لذلك أثره فى أن ازدهر النثر العربى وأخذت موضوعاته تتنوّع تنوعاً واسعاً ، وقاد هذا الازدهارَ الجاحظُ المتكلم المشهور ، إذ نراه يُعْنَى بتصوير الطبقات فى مجتمعه ، فهو يكتب عن الأتراك والسودان والموالى والعرب والنصارى واليهود ، ويتفسّحُ

للطبقات العامة ، فيكتب عن اللصوص والمُكَدِّين وحِيَلِهِم والقيان والمرأة .
وكأنما أحدث موضوعات جديدة لكتب السَّمَر التي كانت تُقْرَأ في كل مكان .
وكانت قبله لا تعدو بعض كتب الآداب الفارسية وبعض قصص الحب العربية
وقصص البطولة والإسرائيليات . وظل الاتجاه إلى ترجمة بعض القصص الفارسية
قائمًا ، وكان أهم ما تُرجم في هذا العصر حكايات ألف ليلة وليلة واسمه بالفارسية
هزار أفسان أي ألف حكاية . ويُفْهَمُ من كلام المسعودي عنه أن حكايات
السنْدباد لم تكن جزءاً منه في عصره ، بل كانت مستقلة . ويقول إن مؤلفها حكيم
هندي يسمى السندباد ، وهي تشتمل على كتاب الوزراء السبعة ، والمعلم والغلام ،
وامرأة الملك . ويذكر المسعودي أنه كانت هناك حكايات مماثلة تُرْجمت عن
الرومية[1] . ومما تُرجم حينئذ أو قل مما استمدَّ من أصول فارسية كتاب التاج
المنسوب إلى الجاحظ ، وقد ألَّفه أحد معاصريه وقدَّمه إلى الفتح بن خاقان وزير
المتوكل ، وهو يصور نُظُمَ الساسانيين حُكَّام الفرس قبل الإسلام وتقاليدهم .
ومعنى ذلك أن النقل عن الفارسية ظل محتدمًا في هذا العصر ، ولكن أخذت
الشخصية العربية تُثْبت وجودها في قوة ، فبمجرد أن تُرْجم كتاب ألف ليلة وليلة
ألف محمد بن عبدوس الجهشياري المتوفى سنة ٣٣١ للهجرة كتابًا على نسقه به ألفُ
حكاية من حكايات العرب وغيرهم . وظهرت في العصر كتب أسمار كثيرة ، كانت
تتلهف عليها العامة ، وخاصة ما دار منها حول الحب وأقاصيصه أو حول الجن
أو حول بعض النساء . وكثرت كتب النوادر والكتب التي تصوّر أحوال الحمقى
وأقوالهم وأفعالهم ، وكتب الندماء والمنادمة ، وكذلك الكتب التي تصور أخلاق العامة
مثل كتابات مساوئ العوام وأخبار السفلة والأغتام للصَّيْمَري .

وكثرت كتب الأدب التهذيبي ، وممن أكثر منها ابن أبي الدنيا المتوفى
سنة ٢٨١ وقد نُشر في القاهرة مختصر صنعه السيوطي لكتابه الفرج بعد الشدة ،
وكانت له كتب مختلفة في مكارم الأخلاق . ومثله محمد بن خلف بن المرزبان

---

(١) انظر في ذلك كله مروج الذهب
١/ ٩٧ ، ٢/ ٢٥١ .

المتوفى سنة ٣٠٩ وقد ترجم كتبًا كثيرة عن الفارسية وله تصانيف حسان فى الأخلاق وأحوال الناس ، منها كتابه : « تفضيل الكلاب على كثير ممن لبس الثياب » ، ومثلهما أبو بكر الخرائطى السامرى المتوفى سنة ٣٢٥ ، وله مكارم الأخلاق ومعاليها ومحمود طرائقها ومراضيها ، نُشر بالقاهرة .

وبجانب كتب الأدب والسمر فتح الجاحظ موضوعًا جديداً ، هو وصف البلدان ، إذ ألّف كتابًا فيه سماه كتاب الأمصار وعجائب البلدان تحدث فيه عن مكة وقريش والمدينة ومصر والبصرة ، وذكر خصائص كل بلدة وطباع أهلها وأثر البيئة فيها[1] . ويبدو أنه اعتمد فى وصف بعض البلدان على بعض الإخباريين مما جعله يخطئ فى جوانب من كلامه على نحو مالاحظ المسعودى إذ يقول : « وقد زعم عمرو بن بحر الجاحظ أن نهر مهران الذى هو نهر السند من نيل مصر ، ويستدل على أنه من النيل بوجود التماسيح فيه ، ولست أدرى كيف وقع له هذا الدليل ، ذكر ذلك فى كتابه المترجم بكتاب الأمصار وعجائب البلدان . . . لأن الرجل لم يسلك البحار ولا أكثر الأسفار . . إنما كان ينقل من كتب الورّاقين[2] » . وملاحظة المسعودى صحيحة ، ولكنها لا تغضّ من أهمية هذا الكتاب الذى فتح به الجاحظ لمعاصريه موضوعًا جديداً للكتابة ، وكان ممن تابعه فيه معاصره اليعقوبى أحمد بن أبى يعقوب بن واضح ، وكتابه البلدان منشور . وتعاقبت بعد ذلك الكتب فى هذا الموضوع . والمهم أن الجاحظ أثار فى كتابه بقوة فكرة البيئة وطوابعها فى السكان ، وقد كتبه بأسلوبه الأدبى البارع .

٢

الخطابة والمواعظ والنثر الصوفى

ضعفت الخطابة السياسية فى هذا العصر ، كما ضعفت الخطابة الحفلية ، فكلاهما أصبح شيئًا نادراً ، وحتى ما بقى منهما إنما هو شظايا قليلة كتلك الشظايا

---

(١) راجع كتاب الجاحظ للدكتور طه الحاجرى (طبع دار المعارف) ص ٣٨٩ وما بعدها .

(٢) انظر مروج الذهب ١/١١٤ .

التى حكاها الطبرى عن صاحب الزنج ، بل لقد أجمل ما رواه من خطبه[1] بحيث لا نكاد نتبينها فى وضوح . وضعفت الخطابة الدينية على ألسنة الخلفاء وإن ظلت مزدهرة فى المساجد وفى خطب الجمع والعيدين ، فقد أصبح من المعتاد ألا يخطب الخليفة يوم الجمعة إلا ما كان من الخليفة المهتدى الوَرِع الذى ظل فى الحكم نحو عام ، فإنه كان يذهب إلى المسجد الجامع بسامرَّاء فى كل جمعة ويخطب الناس ويؤمّهم[2] ، ويُرْوَى أن الخليفة المعتضد حاول أن يخطب فى بعض الأعياد ، فأُرتِجَ عليه ولم تُسْمَعْ خطبته[3] ، ولم يخطب خليفة بعده فى العصر سوى الراضى ، ولم تُؤْثَرْ خطبه .

ولكن الخطابة الدينية إن كانت قد ضعفت على ألسنة الخلفاء فإنها نشطت نشاطًا عظيمًا فى المساجد فقد كانت تُعْقَدُ حلقات للوعاظ والقُصَّاص وكان الناس يتحلَّقون من حولهم فيما يشبه احتفالات الأعياد ، وكان منهم الرسميون الذين تعيِّنهم الدولة للخطابة فى أيام الجمع ومنهم غير الرسميين ، وهم الجمهور الأكبر . وكانوا يستمدُّون فى وعظهم وقصصهم من القرآن الكريم والحديث النبوى وقصص الأنبياء والمرسلين ، ومنهم من كان يقرأ القرآن الكريم ويفسره ، وكانوا يُعْنَوْنَ بعَوْن الضعفاء والمَساكين واليتامى وبالجهاد وحرب الأعداء مستعينين فى ذلك بأعمال البِرّ . وكثير منهم كان يذهب مع الجيوش المجاهدة للوعظ فى الحرب وبَثّ روح الحماسة الدينية فى نفوس المجاهدين من مثل أبى العباس الطبرى الذى مَرّ ذكره والذى كان يعظ ويقصّ على المجاهدين فى طَرَسُوسَ . ولم يكن يخلو يوم من أيام رمضان من واعظ أو قاصّ بعد الصلاة . وكانت العامة تشغف بهم شغفًا شديداً ، حتى ليُحْكى عن الطبرى أنه تعرَّض لقاصّ ببغداد يُنْكر عليه بعض ما يقوله ، فصاحت به العامة ورموا باب داره بالحجارة . ولا بد أن نفرق بين هؤلاء القصاص الوعاظ وبين قُصَّاص آخرين كانوا يجلسون للشباب والغلمان فى الطرقات ببغداد ويقصُّون عليهم نوادر الأخبار والحكايات الهزلية ، وكانوا يُسْلَكون فى المشعوذين ، ويضطرب بعض المستشرقين فيخلط بينهم وبين القصَّاص الوُعَّاظ ،

---

(١) الطبرى ٩ / ٤١٤ وما بعدها .

(٢) مروج الذهب ٤ / ٩٦ .

(٣) طبرى ١٠ / ٣١ .

ولا صلة بين الطرفين إلا فى الاسم ، وهؤلاء هم الذين كانت الدولة تطاردهم أحياناً كما مرّ بنا فى غير هذا الموضع ، أما قُصّاص المساجد الوعّاظ فكانوا موضع رعاية الدولة منذ عصر بنى أمية ، وظل ذلك بعدهم ، حتى لنجد بعض من يُسْنَد إليهم القصص فى المساجد يُسْنَدُ إليهم القضاء[1] . أما الوعّاظ فكان منهم دائماً خطباء المساجد فى الجمع والأعياد وأئمتها فى الصلاة ، وكان منهم كثيرون فُصَحاءَ بُلغاءَ ، فكان الناس يحتشدون حولهم ، مُكْبِرين لهم إكباراً عظيماً .

وكانت المساجد دائماً مفتوحة ليلا ونهاراً ، ودائماً يوجد فيها الناس للصلاة وتوجد فيها حلقات التدريس ، فكان الواعظ يختار أى وقت يشاء لموعظته ، وإن كان عادة يجعلها تالية لبعض الصلوات . ومن كبار الوعاظ الذين شهدتهم بغداد فى العصر أبو الحسن على بن محمد الواعظ المصرى المتوفى سنة ٣٣٨ وكان يحضر مجلس وعظه الرجال والنساء .

وأخذت تنشأ منذ أوائل العصر طبقة جديدة من الوعّاظ ، كانوا يسمّون بالمذكِّرين ، ويسمّى مجلسهم باسم مجلس الذكر أى ذكر الله وتسبيحه ، وكانوا من الصوفية ، بل كانوا خطباءهم ووعّاظهم الممتلئين صلاحاً وتقوى وورعاً ، وكانوا يعظون الناس فى المساجد وفى الزوايا ، خالطين الخوف بالرجاء ، مستشهدين ببعض آى القرآن وبعض الحديث ، وقد يفسرونهما ويعلقون عليهما ، مضيفين من حين إلى حين عباراتهم الصوفية التى تأسِرُ العقول والقلوب . ومن وعّاظهم فى العصر يحيى بن معاذ الرازى المتوفّى عام ٢٥٨ ويُرْوَى أنه جاء إلى شيراز ، فصعد المنبر ، واجتمع إليه الناس فأول ما بدأ به قوله :

مواعظُ الواعظِ لَنْ تُقْبَلاَ حتى يَعِيها قَلْبُهُ أَوَّلاَ

وانهال الناس عليه بعد ذلك انهيالا . ومن أكبر وُعّاظهم فى العصر أبو حمزة الصوفى المتوفى سنة ٢٦٩ وهو — كما مرّ بنا فى الفصل الثانى — أول من تكلم على رءوس المنابر ببغداد خالطاً مواعظه باصطلاحات

(١) الولاة والقضاة للكندى (طبعة جيست) ص ٤٢٧ .

الصوفية وأفكارهم من صفاء الذكر وجمع الهمِّ والمحبة والعشق والأنس . وكان هؤلاء الوعَّاظ يَجْذبون إليهم الناس بأكثر مما يجذبهم الوعَّاظ العاديون لقيام حياتهم على الزهد والتقشف ورَفْض كل متاع .

وتكوَّنت حول هؤلاء الوعَّاظ من المتصوفة سريعًا حكاياتٌ كثيرة تصوِّر جهادهم العنيف فى قَمْع شهوات النفس والذاتها وكيف كان الصوفىُّ يَفْرض على نفسه عَنَاءً شاقًّا مُضْنيًا لا يُطيقه إلا أولو العَزْم . وعادة تحتوى القصة أو الحكاية ما يلفت الصوفى إلى تقصيره وأن عليه أن يتحمل أهوالا ثقالا ، فمن ذلك ما يُرْوَى عن بشر الحافى المتصوف المتوفى قبيل هذا العصر سنة ٢٢٧ من أنه مرَّ ببعض الناس فسمعهم يقولون : هذا الرجل لا ينام الليل كله ولا يُفْطر إلا فى كل ثلاثة أيام مرة ، فبكى حين سمعهم يردِّدون هذا الكلام ، وسأله سائل : ما يُبْكيك ؟ فقال : إنى لا أذكر أنى سهرت ليلة كاملة ، ولا أنى صمت يومًا ولم أفْطر من ليلته ، ولكن الله سبحانه وتعالى يلقى فى القلوب أكثر مما يفعله العبد لطفًا منه سبحانه[1] وكرمًا . ويُحْكى عن السَّرِىِّ السَّقطى المتوفى سنة ٢٥١ أنه كان إذا أفطر كل ليلة ترك لقمة ، فإذا أصبح جاءت عصفورة ، وأكلت تلك اللقمة من يده ، وذات يوم اشتهى أن يأكل الخبز بالقديد (لحم مقدَّد) فامتنعت العصفورة من أكل اللقمة التى تعودت أكلها ، فعاهد نفسه ألا يتناول أبداً شيئاً من الإدام[2] ! . ويَرْوى ابن أخته الجُنَيْد أنه دخل عليه يومًا ، فوجده يبكى ، فقال له : ما يُبْكيك ؟ فقال : جاءتنى البارحة الصبية ، فقالت : يا أبَتِ هذه ليلة حارة ، وهذا الكوز أعلِّقه ههنا ، ثم إنى نمت فرأيت جارية من أحسن الخلق نزلتْ من السماء فقلت لها : لمن أنت ؟ فقالت : لمن لا يشرب الماء المبرَّد فى الكيزان ، فتناولت الكوز ، فضربت به الأرض فحطمته[3] . وهما خبران رمزيان يصوران ما كان يأخذ به السَّرِىُّ نفسه من الشظف فى العيش والحرمان الشديد . ويحكى عن رُوَيْم بن أحمد المتوفى سنة ٣٠٣ ، وكان مجرداً من الدنيا زاهداً ورعًا ، أنه اجتاز فى بغداد وقت الهاجرة ببعض الطرقات وهو عطشان ، فاستسقى من دار ، ففتحت

---

(١) رسالة القشيرى (طبعة سنة ١٣٤٦ هـ بمصر) ص ٢٠ .

(٢) القشيرى ص ١٠ .

(٣) القشيرى ص ١١ .

الباب صبيّة ومعها كوز ماء ، فأخذه منها وشرب ، فاستدارتْ له قائلة : صوفيّ يشرب بالنهار ! فما أفطر بعد ذلك اليوم قط[١] .

وهذه الحكايات الصوفية أخذت تكوّن ضرباً من ضروب الآداب الشعبية العربية ، إذ كان الناس يتداولونها رجالا ونساء وشيباً وشبّاناً ، وكأن التصوف كان عاملا قويًّا فى ظهور تلك الآداب وَطبْعها بطوابع الشعب ولغته وألفاظه . وتتصل بها الحكايات التى أخذت تُؤْثَرُ عن كرامات المتصوفة ، ومرّ بنا فى الفصل الثالث أن الحكيم الترمذى المتوفى سنة ٣٢٠ صنّف فى تلك الكرامات كتاباً سمّاه « ختم الولاية » يريد ولاية الصوفية وأنهم أولياء الله فى أرضه ، ولذلك تظهر على أيديهم كرامات كثيرة . وممن تكثر إضافة الكرامات إليه فى هذا العصر بُنان الحمّال المصرى المتوفى سنة ٣١٦ ، فقد قيل إن خمارويه أمر بأن يُطرَحَ بين يدى سَبُع ، فطُرح وبقى ليلته ، وجعل السبع يشمه ولا يضره ، فلما أصبحوا وجدوه قاعداً مستقبل القبلة والسَّبعُ بين يديه . وعجب خمارويه ، فأطلقه واعتذر إليه[٢] . وحُكى أنه كان لرجل على آخر دين : مائة دينار ، بوثيقة ، فطلب الرجل الوثيقة فلم يجدها ، فجاء إلى بُنان ليدعو له ، لعله يجد الوثيقة الضائعة ، فقال له بنان : أنا رجل قد كبرتُ وأحب الحلواء ، اذهب إلى قريح (حلوانى) فاشتر رطل حلواء وائتنى به ، أدعو لك ، ففعل الرجل ، وجاءه . فقال له بنان : افتح ورقة الحلْواء ، ففتحها ، فإذا هى الوثيقة ، فقال : هذه وثيقتى ، فقال بنان : خُذْها ، وأطعم الحلواء صبيانك . ولم يكن يؤمن بمثل هاتين الكرامتين إلا عوامُّ المتصوفة ، وهو ما يعنينا ، إذ دارت حكايات هذه الكرامات على ألسنة العامة ، وبذلك كان التصوف عاملا قويًّا فى العصر على ذيوع لون شعبي جديد من الأدب ، وهو لون قصصى ، وقد أخذت تؤلف فيه المصنَّفات مثل كتاب « ختم الولاية » الآنف ذكره ، وكانت بدورها مصنفات شعبية تتداولها كثرة من الأيدى . ولعله من المهم أن نعرف أن خاصة المتصوفة وكبارهم فى العصر كانوا ينكرون هذه الكرامات إنكاراً باتًّا ، فيُحكَى عن أبى يزيد البسطامى المتوفى سنة ٢٦١ أنه قيل له إن فلاناً يمشى فى ليلة إلى مكة ، فقال :

---

(١) القشيرى ص ٢١ .

(٢) انظر فى هذه الحكاية وتاليتها النجوم الزاهرة ٣ / ٢٢١ .

الشيطان يمشى فى ساعة من المشرق إلى المغرب فى لعنة الله . وقيل له : فلان يمشى على الماء ويطير فى الهواء ، فقال : الطير يطير فى الهواء والسمك يمر على الماء[١].
وجاء رجل إلى سهل التسْتَرى المتوفى سنة ٢٧٣ ، فقال له : إن الناس يقولون إنك تمشى على الماء ، فقال له : سَلْ مؤذّن المحلَّة ، فإنه رجل صالح لا يكذب ، قال : فسألته ، فقال المؤذن : لا أدرى هذا ، ولكنه نزل حوض الماء فى بعض الأيام ليتطهر، فوقع فى الماء ، فلو لم أكن أنا لبقى فيه[٢] . ويُرْوى عن بعض الصوفية أنه قال : كان فى نفسى شيء من هذه الكرامات ، فأخذت قصبة من الصبيان وقمت بين زورقين ، ثم قلت : وعزّتِك لئن لم تخرج لى سمكة قدرها ثلاثة أرطال لأغرقنّ نفسى ، قال : فخرجت لى سمكة قدرها ثلاثة أرطال ، فبلغ كلامه الجُنَيْد ، فقال : كان حقه أن تخرج له أفعى تلدغه .

والمهم أن التصوف نشرَ بهذه الحكايات المتصلة باحتمال المتصوفة لأثقال الشظف وما اعتقدته العامة فيما جرى على أيديهم من الكرامات أدبًا شعبيًا قصصيًا كان يدور بين الناس . ولون ثالث من هذه الحكايات كان يقص أخبار المتصوفة لعل خير ما يصوره كتاب أخبار الحلاج ، وهو أخبار وحكايات عنه بألسنة تلاميذه ، تحمل أحواله وآراءه ومُعتقده ، فمن ذلك ما رواه تلميذه إبراهيم الحلوانى . قال[٣] :

« دخلت على الحلاج بين المغرب والعشاء ، فوجدته يصلى ، فجلست فى زاوية البيت ، كأنه لم يحسّ بى لاشتغاله بالصلاة ، فقرأ سورة البقرة فى الركعة الأولى ، وفى الركعة الثانية آل عمران ، فلما سلَّم سَجَد وتكلَّم بأشياء لم أسمع بمثلها ، فلما خاض فى الدعاء رفع صوته كأنه مأخوذٌ عن نفسه ، ثم قال : يا إله الآلهة ويا ربَّ الأرباب ويا من (لا تأخذه سِنة ولا نوم) رُدَّ إلىَّ نفسى لئلا يفتتن بى عبادك . يا هو أنا ، وأنا هو ، لا فرق بين إنِّيَّتى (وجودى) وهُويَّتك إلا الحدوث والقِدَم . ثم رفع رأسه ونظر إلىَّ وضحك فى وجهى ضحكات . ثم قال : يا أبا إسحق أما ترى أن ربى ضرب قِدمه فى حدوثى حتى استهلك حدوثى فى قِدمه ، فلم

(١) القشيرى ص ١٦٣ .
(٢) القشيرى ص ١٦٤ .
(٣) أخبار الحلاج ص ٢٠ .

يبق لى صفة إلا صفة القديم ، ونُطْقى فى تلك الصفة . والخلق كلهم أحداث ينطقون عن حدوث . ثم إذا نطقتُ عن القدم ينكرون علىّ ويشهدون بكفرى ويسعون إلى قتلى . وهم بذلك معذورون ، وبكل ما يفعلون بى مأجورون » .

والحكاية تصور عقيدة الحلاج فى أنه بتحمله للآلام الثقال أصبح — كما يزعم — فى مرتبة عليا ، بحيث ارتسمت الصورة الإلهية فيه ، إذ ظهر فيه اللاهوت ، وأصبح لا يفرّق بين نفسه وربه . فقد امتزج الحدث أو الحداثة فيه بالقدم ، بل إنه لم تبق فيه صفة إلا صفة القدم ، بخلاف من حوله من الناس . فهم جميعًا يستشعرون الحدوث ، أو قل كلهم حادثون ، وهو وحده الذى أصبح يستشعر القدم ، فلماذا ينكرون عليه التكلم عن القدم . مع أنه هو — كما يزعم — والقديم شىء واحد ! .

وله عبارات تدل على أنه كان فى بعض أحواله يؤمن بتنزيه الذات العلية عن التشبيه بالمخلوقات وفى أخباره عن أحمد بن سعيد الإسبينجانى قال[1] :

سمعت الحلاج يقول : ألزم (اللهُ) الكلَّ الحدوث لأن القدم له . والذى بالجسم ظهوره العرضُ يلزمه . والذى بالإرادة اجتماعه قُواها تُمْسكه . والذى يؤلفه وقت يفرّقه وقت . والذى يقيمه غيره الضرورة تمسُّه . والذى الوهمُ يظفر به التصويرُ يرتقى إليه . ومن آواه محل أدركه أيْنٌ . ومن كان له جنس طالبه كَيْفٌ . إنه تعالى لا يظلّه فَوْقٌ ولا يقلّه (يحمله) تَحْتٌ . ولا يقابله حَدٌّ ولا يزاحمه عِنْدٌ ، ولا يأخذه خَلْفٌ ولا يحدُّه أمامٌ . ولا يظهره قَبْلٌ ولا يُفنيه بَعْدٌ . ولا يوجده كان ، ولا يفقده ليس (عدم) . وَصْفُه لا صفة له . وفِعْلُه لا علّة له . وكونه لا أمَدَ له . تنزّه عن أحوال خلقه . ليس له من خَلْقه مزاج ، ولا فى فعله علاج ، باينهم بقدمه كما باينوه بحدوثهم » .

ويستمر الحلاج فى مثل هذا التنزيه لله ، فهو لا يشبه الكائنات فى شىء ولا يشبهونه فى شىء ، تفرّد بذاته وصفاته عن ذواتهم وصفاتهم فهم حادثون وهو قديم ، لا يلزمه شىء ولا يمسكه شىء ، كلٌّ واحد لا أجزاء له ، لا تمسه ضرورة ولا يلحقه وهم . ولا يؤويه مكان ولا تحتويه صفة ، لا شىء فوقه ولا آخر تحته ، لا يحدّه حَدّ ولا جهة من الجهات . موجود قبل كل وجود ، ولا يلحقه عدم

---

(١) أخبار الحلاج ص ٣١ .

ولا فناء ، ولا يصفه وصف لا يُسْأل عما يفعل ، أزلىّ أبدىّ ، ليس كمثله شىء ، قديم والخلق جميعًا حادثون . ومرّ بنا أنه ربما كان أول صوفى دعا للانفصام بين الحقيقة (التصوف) والشريعة ، وفى أخباره أنه . قال فى رسالة له أرسل بها إلى بعض تلامذته[1] :

« اعلم أن المرء قائم على بساط الشريعة ما لم يصل إلى مواقف التوحيد ، فإذا وصل إليها سقطت من عينه الشريعة واشتغل باللوائح الطالعة من معدن الصدق ، فإذا ترادفت عليه اللوائح وتتابعت عليه الطوالع صار التوحيد عنده زندقة والشريعة عنده هَوَسًا ، فبقى بلاعين ولا أثر . إن استعمل الشريعة استعملها رسمًا . وإن نطق بالتوحيد نطق به غلبة وقهراً » .

وواضح أنه يجعل الشريعة للناس العاديين ، أما أهل الحقيقة من أمثاله فإنهم يُسْقطون الشريعة ويسقطون معها الفروض الدينية ! فلا صلاة ولا صوم ولا حج ولا زكاة ، بل إن المتصوف إذا ظل راقيًا فى مراقى الحقيقة العليا ، سقطت عنده لا الشريعة وحدها ، بل كل شىء حتى التوحيد ! . ولعل فى الفقرة الأخيرة من كلامه ما يشير إلى لون رابع من ألوان النثر الصوفى ، هو تصوير الصوفية لمعتقداتهم فى مصنفات خاصة ، على نحو ما يلقانا فى كتاب الطواسين له ، ويحسن أن نعرض منه قطعة أو فقرة تصورّ كتابته الصوفية ، ولتكن القطعة التى كتبها عن شخصية الرسول صلى الله عليه وسلم فى مستهل الفصل الأول من كتابه ، وهى تجرى على هذا النمط[2] :

« طس سراج من نور الغيب بَدَا وعاد . وجاوز السراج وساد ، قمر تجلَّى من بين الأقمار ، برُجُه فى فلك الأسرار ، سَمَّاه الحق أميًّا لجمع همته ، وحَرَمِيًّا لعظم نعمته ، ومكيًّا لتمكينه عند قربه ، شرح صدره ، ورفع قدره ، وأوجب أمره ، فأظهر بدره . طلع بدره من غمامة اليمامة ، وأشرقت شمسه من ناحية تهامة . . . (الذين آتيناهم الكتاب يعرفونه كما يعرفون أبناءهم وإن فريقًا منهم ليكتمون الحق وهم يعلمون) . أنوار النبوة من نوره برزت ، وأنوارهم من نوره ظهرت ، همّته سبقت الهمم ، ووجوده سبق العدم ، واسمه سبق القلم ، لأنه كان قبل الأمم . . . وهو سيد البرية الذى اسمه أحمد ، ونَعْته أوحد ، كان مشهوراً

---

(١) أخبار الحلاج ص ٧٣ .

(٢) الطواسين ص ٩ — ١٤ .

قبل الحوادث والكوائن والأكوان ولم يزل ، كان مذكوراً قبل القبل وبعد البعد ، هو الذى جلاَ الصَّدَأ عن الصدر المغلول ، وهو الذى أتى بكلام قديم لا مُحْدث ولا مقول ولا مفعول . . . فوقه غَمامة برقت ، وتحته برقة لمعت وأشرقت وأمطرت وأثمرت . العلوم كلها قطرة من بحره ، والحكم كلُّها غَرْفة من نهره ، الأزمان كلها ساعة من دهره ، هو الأول فى الوصلة ، والآخر فى النبوة ، والباطن بالحقيقة ، والظاهر بالمعرفة » .

و«طس» تبتدئ بهاسور معروفة فى القرآن الكريم ، وقد اختار جمعها اسمًا لكتابه! وهو يشيد بالرسول عليه السلام متمثلا فيه فكرة اللاهوت ، بل إنه ليجعل نوره المحمدى أول شيء خلقه الله . وقد ظل يظهر فى نبوات الأنبياء منذ آدم ، وليس ذلك فحسب ، فهو مبدأ الوجود وروحه ، وهو منبع العلم والعرفان والحكمة ، أو هو الأول السابق فى الوجود لكل وجود ، وهو الآخر فى النبوات وبين الأنبياء ، وكأنه الحقيقة الإلهية السارية فى الوجود كله ، فمنها يستمد الكون وجوده وكل نبى نوره . بل إنه هو المشاهد فى كل نور . وذكر أن الرسول عليه السلام أتى بكلام قديم ، وبذلك خالف المعتزلة مخالفة صريحة فى قولهم بأن القرآن كلام الله ليس قديمًا بل هو مخلوق وحادث .

وواضح أن الحلاج كان يستخدم فى كتابه الطواسين السجع ، وبذلك لاءم بين أسلوبه وأسلوب الكتابة فى أواخر القرن الثالث وأوائل الرابع فإن السجع أخذ يعم فى الكتابات الأدبية . وربما كان فى اختياره لهذا الأسلوب ما يدل على أنه أراد أن يرتفع بكتابه الطواسين عن الطبقة العامة إلى الطبقة الخاصة محاولا أن يؤثر فيها بما حشده فيه من السجع تارة ومن الشعر تارة ثانية ، وكأنه كان يعرف قبل غيره أن العامة لن تفهم أفكاره الصوفية المعقدة . فقدّمها إلى الطبقة الخاصة مُودِعًا فيها من السجع والشعر ما يتَفَسَّحُ للرمز والتأويل .

٣

المناظرات

مرّ بنا فى كتاب العصر العباسى الأول ما يصور اندلاع المناظرات بين المعتزلة وطوائف المتكلمين وبينهم وبين أصحاب الملل والنحل اندلاعاً هيّأ لظهور كثير من كبار المناظرين فى شئون الدين والعقل كما هيأ لبسط المعانى ومدّها بذخائر جديدة من توليد الأفكار وتشعيبها والتعمق فى مساربها الخفية، وقد أسلفنا أن مجد المعتزلة سقط فى هذا العصر منذ وقف المتوكل قولهم القائل بخلق القرآن وفسح لآراء أهل السنة ، وقد غضب غضباً شديداً على ممثل المعتزلة فى بلاط المعتصم والواثق من قبله ، ونقصد أحمد بن أبى دؤاد .

لم يعد للمعتزلة مجدهم القديم ، ولكنهم لم يتراجعوا عن الوظيفة التى ندبوا لها أنفسهم إزاء أصحاب النحل والملل ، فكانوا بالمرصاد للملاحدة ، ومرّ بنا كتاب الانتصار للخياط المعتزلى الذى ردّ ردّاً مفحماً على ابن الراوندى الملحد . وظل الجدل عنيفاً بين المعتزلة وغيرهم من المتكلمين ،على نحو ما يصور لنا ذلك الجاحظ فى كتاباته وخاصة فى كتابه « فضيلة المعتزلة » وتلاه فى رياسة المعتزلة بالبصرة أبو يعقوب الشحّام ، وكان يعاصره فى بغداد جعفر بن حرب المعتزلى ، وحكى الخياط مناظرة بينه وبين السكّاك الرافضى فى علم الله جلّ جلاله وحدوثه وقدمه وإثباته ونفيه[١] ، وفى موضع آخر يحكى المناظرات التى انعقدت بين هذا الرافضى وأبى جعفر الإسكافى المعتزلى قائلا : « وهذه مجالسة مع أبى جعفر الإسكافى معروفة يعلم قارئها والناظر فيها مقدار الرجلين وفرق ما بين المذهبين[٢] » . وكانت تدور فى مجالس أبى على الجُبّائى المتوفى سنة ٣٠٣ مناظرات كثيرة أهمها ما دار بينه وبين ربيبه وتلميذه أبى الحسن الأشعرى المتوفى سنة ٣٢٤ ، وكانت ترجح كفّة الأشعرى غالباً . من ذلك مناظرتهما فى الصلاح والأصلح إذ كانت المعتزلة ومعهم أبو على الجُبّائى يوجبون على الله فعل الأصلح ، وقد سأله الأشعرى فى أثناء احتدام

---

(١) الانتصار للخياط ص ١١٠ .

(٢) الانتصار ص ١٤٢ .

المناظرة عن عاقبة ثلاثة : مؤمن وكافر وصبى ماتوا جميعًا ، فأجابه بأن المؤمن من أهل الدرجات والكافر من أهل الهلكات والصبى من أهل النجاة . وأخذ الأشعرى يراجعه إلى أن قال له : فلو قال الكافر : يا رب علمتَ حال الصبى وأنه لو بقى لعَصَى وعوقب فراعيتَ مصلحته ، وعلمتَ حالى مثله ، فهلاَّ راعيت مصلحتى . حينئذ انقطع الجُبَّائى وألزمه الأشعرى أن الله يخصُّ من شاء برحمته ومن شاء بعقابه وأن أفعاله غير معلَّلة[1] .

وكان الخلاف واسعًا بين بعض أصحاب المذاهب الفقهية ، فكثرت المناظرات بينهم ، وفى طبقات الشافعية للسبكى أطراف من هذه المناظرات ، ومما يذكره أن أبا العباس بن سريج القاضى رئيس الشافعية ببغداد كان مشغوفًا بمناظرة داود الظاهرى ، حتى إذا توفى داود مضى يناظر ابنه محمداً فى المذهب الظاهرى ، يقول : ولهما المناظرات المشهورة والمجالس المروية ، ويَحْكى أن ابن داود قال لابن سريج يومًا : أبلعْنى ريقى ، فقال له : أبلعتك نهر دِجْلة ، وقال له يومًا : أمهلنى ساعة ، فقال له : أمهلتك من الساعة إلى قيام الساعة[2] . وبالمثل كان اللغويون والنحاة يتناظرون ، وشائعةٌ معروفةٌ مناظرات المبرد مع ثعلب بدار محمد بن عبد الله بن طاهر حاكم بغداد فى مسائل اللغة والنحو[3] . وكان تلاميذ ثعلب يتعرضون أحيانًا للمبرد فى محاضراته بالمسجد ، فما يزال يناظرهم ويجادلهم ويحاورهم حتى ينتزعهم من أستاذهم ثعلب ويلحقهم بتلامذته وحلقته[4] .

ومن المناظرات التى اشتهرت بأخرة من العصر مناظرة السيرافى ومَتَّى بن يونس المترجم المتفلسف فى مجلس الوزير الفضل بن جعفر بن الفرات لسنة ٣٢٠ وكان السيرافى من علماء النحو النابهين ، وله كتاب كبير فى شرح كتاب سيبويه . وكان موضوع المناظرة النحو والمنطق أيهما أكثر نفعًا فى معرفة صحيح الكلام من سقيمه . وقد روى المناظرة أبو حيان التوحيدى ونقلها عنه ياقوت فى معجمه[5] ، والطريف أنه يذكر فى فاتحتها من كان فى المجلس من العلماء والفضلاء ، ويذكر

---

(١) طبقات الشافعية للسبكى ٣ / ٣٥٦ وما بعدها .
(٢) السبكى ٣ / ٢٣ .
(٣) تاريخ بغداد ٥ / ٢٠٨ وإنباه الرواة ١ / ١٤١ ومعجم الأدباء ٥ / ١٣٧ .
(٤) معجم الأدباء ١٩ / ١١٧ .
(٥) معجم الأدباء ٨/ ١٩٠ .

أنهم كتبوا المناظرة فى ألواح وبمحابر كانت معهم ، مما يعطى صورة عن مجلس المناظرات حينئذ . وتبدأ المناظرة بسؤال السيرافى لمتَّى بن يونس عن المنطق ما يَعْنى به ، حتى يكون كلامه معه فى قبول صوابه ورَدّ خطئه على سَنَن مرضىّ وطريقة معروفة، ويجيبه متى : أعْنِى به أنه آلة من الآلات يُعْرَفُ بها صحيح الكلام من سقيمه وفاسد المعنى من صالحه كالميزان فإنه يُعْرَفُ به الرجحان من النقصان والشائل من الجانح . ويقول السيرافى :

« أخطأتَ لأن صحيح الكلام من سقيمه يُعرف بالعقل . هَبْكَ عرفتَ الراجح من الناقص من طريق الوزن مَنْ لك بمعرفة الموزون أهو حديد أو ذهب أو شبه (نحاس) أو رصاص ؟ وأراك بعد معرفة الوزن فقيراً إلى معرفة جوهر الموزون وإلى معرفة قيمته وسائر صفاته التى يطول عَدُّها ، فعلى هذا لم ينفعك الوزن الذى كان عليه اعتمادك ، وفى تحقيقه كان اجتهادك ، إلا نفعاً يسيراً من وجه واحد ، وبقيتْ عليك وجوه ، فأنت كما قال الأول : « حفظت شيئاً وضاعت منك أشياء » وبعد فقد ذهب عليك شىء ههنا ، ليس كل ما فى الدنيا يُوزَنُ ، بل فيها ما يوزن ، وفيها ما يُكال ، وفيها ما يُذْرع (يقاس بالذراع) وفيها ما يُمْسح ، وفيها ما يُحْزر . وهذا وإن كان هكذا فى الأجسام المرئية فإنه أيضاً على ذلك فى المعقولات المقروءة ، والإحساس ظلال العقول ، وهى تحكيها بالتبعيد والتقريب مع الشبه المحفوظ والمماثلة الظاهرة . ودَعْ هذا إذا كان المنطق وضعه رجل من يونان على لغة أهلها واصطلاحهم عليها وما يتعارفونه بها من رسومها وصفاتها من أين يلزم الترك والهند والفرس والعرب أن ينظروا فيه ويتخذوه حكماً لهم وعليهم وقاضياً بينهم ما شهد له قبلوه وما أنكره رفضوه . قال متَّى : إنما لزم ذلك لأن المنطق يبحث عن الأغراض المعقولة والمعانى المُدْركة ويتصفّح الخواطر السانحة والسوانح الهاجسة والناس فى المعقولات سواء ، ألا ترى أن أربعة وأربعة ثمانية عند جميع الأمم ؟ وكذلك ما أشبهه » . قال السيرافى :

« لو كانت المطلوبات بالعقل والمذكورات باللفظ ترجع مع شعبها المختلفة وطرائقها المتباينة إلى هذه المرتبة البينة فى أربعة وأربعة أنهما ثمانية زال الاختلاف

وحضر الاتفاق ، ولكن ليس الأمر هكذا ، ولقد موهتَ بهذا المثال ، ولكم عادة فى مثل هذا التمويه . ولكن ندع هذا . إذا كانت الأغراض المعقولة والمعانى لا يوصَلُ إليها إلا باللغة الجامعة للأسماء والأفعال والحروف أفليس قد ازمت الحاجة إلى معرفة اللغة ؟ » .

ويناقش السيرافى متّى فى ترجمة المنطق من اليونانية إلى السريانية ثم إلى العربية وأنه ربما حدث حَيْف على المنطق فى أثناء هذا الطريق الطويل الذى سلكه إلى الفصحى ، ويقول له : كأنك تقول لا حجة إلا عقول يونان ولا برهان إلا ما وضعوه . ويقول متّى إنهم أصحاب عناية بالحكمة ولولاهم ما نشأت العلوم وأصحاب الصناعات . وهو تعميم أكثر مما ينبغى . ويحتدّ الجدال ، ويسأله السيرافى عن حرف واحد من الحروف التى يهتمّ بها النحو يدور فى كلام العرب وهو حرف الواو ومعانيه المتميزّة عند النحاة ، ويقول له استنبطْها من ناحية منطق أرسطاليس الذى تُدِلّ به وتباهى بتفخيمه وعرّفْنا ما أحكامه وكيف مواقعه وهل هو على وجه واحد أو وجوه . ويُبْهَتُ متّى ، ويقول : هذا نحوٌ ، والنحو لم أنظر فيه ، لأنه لا حاجة بالمنطقى إلى النحو ، أما النحوى فحتاج إلى المنطق ، لأن المنطق يبحث عن المعنى والنحو يبحث عن اللفظ ، فإن مرّ المنطقى باللفظ فبالعَرَض وإن عبّر النحوىّ بالمعنى فبالعرض ، والمعنى أشرف من اللفظ ، واللفظ أوضع من المعنى . وينكر عليه السيرافى قوله ويحاول أن يثبت أن النحو يدور على المعانى ويسأله عن معانى الواو وكيف أنه يجهلها ، وهى حرف واحد ، فما باله لو سأله عن معانى جميع الحروف ، ويصوّر له معانيها وأن المنطق الذى يزْهى به متّى لا يستطيع بيانها . ثم يعرض عليه قولهم : « زيد أفضل الإخوة » ، ويسأله أيجوز أن يقال : زيد أفضل إخوته ، ولا يستطيع متّى التفرقة بين العبارتين فيقول له إن العبارة الثانية لا تصح فى الكلام لأن إخوة زيد هم غير زيد، وزيداً خارج عن جملتهم ، ويُقحمه فى متشابكات نحوية وعبارات موهمة لا يحلّها سوى النحو . ويعرض عليه طائفة من مصطلحات المناطقة والفلاسفة ، ويقول له إن كل ذلك لا حاجة للعقل السليم به . وفى الحق أن لَسَنَ السيرافى وفصاحته وقدرته على التعبير كل ذلك هو الذى أتاح له الظفر بخصمه فى تلك المناظرة الطويلة التى امتدت إلى أكثر من عشرين صحيفة ،

وقد أردنا بعرضها أن نصور احتدام المناظرات فى العصر وأنها تناولت كل جوانب المعرفة .

وحتى الكتب المؤلفة فى العصر نجد عليها مسحة المناظرة والجدل واضحة ، حتى على عنواناتها ، إذ كثيراً ما تُعنَوْن بكلمة الرد أو كلمة النقض ، فالكتاب يؤلَّف رداً أو نقضاً لكتاب آخر ، وكأن المناظرات لم تقف عند المجالس والمحاضرات فى المساجد ، بل امتدت إلى الكتب والمصنفات . ويوضح ذلك الجاحظ فى بعض كتبه ورسائله . فقد بُنيت فى جمهورها على فكرة المناظرات إذ نرى « الحيوان » يُبْنَى على مناظرة امتدت إلى أكثر من مجلد بين معبد والنظام فى الكلب والديك أيهما أفضل ؟ . وله كتاب افتخار الشتاء والصيف وهو مناظرة واضحة بين الفصلين ، وكتاب الفخر ما بين عبد شمس ومخزوم ، وهو مناظرة بين العشيرتين القرشيتين ، وكتاب فخر القحطانية والعدنانية وهو مناظرة بين اليمنية والمضرية . وقد يمدح الشىء فى رسالة ثم يذمه فى أخرى ، وكأنه يكتب مناظرة فى رسالتين مثل رسالته فى مدح النبيذ ورسالته فى ذم النبيذ ومثل رسالته فى مدح الكتّاب ورسالته فى ذم الكتّاب ، ومثل رسالته فى مدح الورّاق (بائع الكتب) ورسالته فى ذم الوراق. وله كتب مختلفة يجعل عنوانها كلمة الرد مثل كتاب الرد على المشبّهة وكتاب الرد على النصارى وكتاب الرد على اليهود ، وله كتاب العثمانية وكتاب الرد على العثمانية ، وله كتاب نقض الطب. ومن رسائله التى أدارها على المناظرة رسالته «فخر السودان على البيضان » ورسالته « مفاخرة الجوارى والغلمان » . وقد لا توضع فكرة المناظرة أو الرد والنقض أو المدح والذم على الكتاب والرسالة ، فإذا قرأنا فيهما وجدناهما يأخذان شكل مناظرة كبيرة مثل كتاب التربيع والتدوير ، نراه فيه ينتصر للقصر تارة وللطول تارة ثانية ، وتارة ثالثة للتوسط بين الطرفين المتناقضين .

وكأنما كانت المناظرات والمحاورات لغة العصر الفكرية ، فدائماً مناظرات ومجادلات فى كل مكان وفى كل موضوع علمى أو فلسفى أو أدبى ، والمناظر ينتصر تارة ، وتارة ينهزم فى تلك الساحة الفكرية الكبيرة : بغداد ، وهم لا يكلّون ولا يملُّون ولا يتوقفون فدائماً جدل وحوار وتشعيب لدقائق المعانى وغَوْصٌ على خفيّاتها وكوامنها

المستورة ، ولا يمنع الانهزام يوماً صاحبه من التجمع للمناظرة والتحفز للحوار فى يوم ثان أو لقاء ثان ، بل قد ينهزم المناظر وينتصر فى المجلس الواحد مراراً ، وفى هذا الحوار الواسع ومعاركه الدائرة دون توقف يقول ابن الرومى مشيراً إلى المتناظرين وجدالهم العنيف :

لذوى الجِدال إذا غَدَوْا لجِدالهم حُجَجٌ تَضِلُّ عن الهدى وتجورُ

وهمُ كآنيةِ الزجاجِ تصادمتْ فهَوَتْ وكلٌّ كاسِرٌ مكسورُ

ويبدو ابن الرومى نفسه فى شعره مناظراً كبيراً ، إذ تَطْبَعُ جوانب من شعره — كما أسلفنا — بطوابع الجدال وما يُطْوَى فيه من قدرة وبراعة على نَسْج الأدلة تارة ونقضها تارة أخرى . ومرَّ بنا ذمه للورد ونقضه لمحاسنه وقلبها مساوئ ذميمة فى قصيدته « النرجس والورد » وهى مناظرة شعرية طريفة .

وتسرى هذه الروح فى قصص وحكايات وأخبار جُمعت ونُسِّقت فى الكتاب المسمى بكتاب المحاسن والأضداد المنسوب خطأ إلى الجاحظ . لأنه يُفْتَتَح بكلمة : « قال أبو عثمان عمرو بن بحر الجاحظ » وتتوالى نقول عنه فى فضائل الكتب ووصف فوائدها ، نجدها مبثوثة فى كتاب الحيوان . ولعل هذا الاستهلال هو الذى جعل القدماء يظنون أن الكتاب من تأليف الجاحظ ، وأيضاً فإنه ينقل عنه فى بعض فصوله نقولا مختلفة . ولكن من يعرف أسلوب الجاحظ المطَّرد فى كتبه يعرف تَوًّا أن الكتاب ليس له ، والطريف أن صاحبه ذكر فى مستهله عن الجاحظ قوله فى بعض رسائله : « إنى ربما ألفت الكتاب المحكم المتقن فى الدين والفقه والرسائل والسيرة والخطب والخراج والأحكام وسائر فنون الحكمة وأنسبه إلى نفسى فيتواطأ على الطعن فيه جماعةٌ من أهل العلم بالحسد المركَّب فيهم ، وهم يعرفون براعته ونصاعته ، وأكثر ما يكون هذا منهم إذا كان الكتاب مؤلفاً لملك معه المقدرة على التقديم والتأخير والحطّ والرفع والترهيب والترغيب فإنهم يهتاجون عند ذلك اهتياج الإبل المغتلمة . . . وهم قد ذموه وثلبوه لما رأوه منسوباً إلىّ وموسوماً بى . وربما ألفت الكتاب الذى هو دونه فى معانيه وألفاظه فأترجمه باسم غيرى وأحيله على من تقدمنى عصره مثل ابن المقفع والخليل وسَلْم صاحب بيت الحكمة ويحيى بن

خالد والعتَّابى ومن أشبه هؤلاء من مؤلفى الكتب فيأتينى أولئك القوم بأعيانهم الطاعنون على الكتاب الذى كان أحكمَ من هذا الكتاب لاستنساخه وقراءته علىَّ ، ويكتبونه بخطوطهم ويصيِّرونه إمامًا يقتدون به ويتدارسونه بينهم ويتأدبون به ويستعملون ألفاظه ومعانيه فى كتبهم وخطاباتهم ويروونه عنى لغيرهم من طلاب ذلك الجنس فتثبت لهم به رياسة . ويأتمّ بهم قوم فيه لأنه لم يترجم باسمى ولم يُنْسَبْ إلى تأليفى » . وقد يكون فى ذلك ما يدل على أن المؤلف رأى أن يحاكى الجاحظ فى إنكاره لاسمه أحيانًا على بعض آثاره . فنسبه إليه . ليرى رأى الناس فيه وحكمهم عليه . وربما كان هو نفس مؤلف كتاب المحاسن والمساوى الذى سنعرض له عما قليل . ومما يشهد بأن الكتاب ليس للجاحظ وإنما هو لمؤلف تال لعصره أن نجد فيه نقولا عن عبد الله بن المعتز[1] ، وكان فى الثامنة من عمره حين توفى الجاحظ .

والكتاب مجموعة كبيرة من المناظرات فى الأخلاق والشمائل، فكل خلق أو كل شىء تُعْرَضُ محاسنه ثم تعرض معايبه ، وتصوَّر المعايب والمحاسن فى أخبار وأقاصيص وحكايات ، تلتقى فيها الثقافات المعروفة حينئذ وما كان يتسرب منها إلى كتب السمر . وفى مقدمتها الثقافة الإسلامية ، وهى تتضح فى الاقتباس أحيانًا من الذكر الحكيم[2] والاستشهاد الدائم بالأحاديث النبوية[3] . وتتسع الثقافة الدينية لتجلب بعض أقوال الزهاد أو بعض قصص الأنبياء أو بعض وصايا من التوراة من مثل : « اشكر من أنعم عليك ، وأنعمْ على من شكرك ، فإنه لا زوال للنعم إذا شُكرتْ ولا إقامة لها إذا كُفِرتْ . والشكر زيادة فى النعم وأمان من الغِيَرَ »[4] وبجانب ذلك تلقانا عناصر كثيرة من الثقافة العربية فى مقدمتها الأمثال[5] ، والأشعار وهى أكثر من أن ندلّ عليها فى موضع معين من الكتاب . وتكثر أخبار الجاهليين وأقاصيصهم المصوّرة لمكارم أخلاقهم أو مذامها . وبالمثل أخبار حكَّام العرب وحكاياتهم على توالى الحقب من إسلاميين وعباسيين وخاصة حكام بنى أمية والرشيد والمأمون ، وتكثر أخبار الأعراب وأقاصيصهم ويلمع فيها اسم الأصمعى .

(١) المحاسن والأضداد (طبع دار مكتبة العرفان ببيروت) ص ١٣٨ ، ١٦٩ .

(٢) المحاسن والأضداد ص ٣٩ ، ٤٢ .

(٣) انظر مثلا ص ٣٢ .

(٤) المحاسن والأضداد ص ٣١ .

(٥) انظر مثلا ص ٥٥ ، ١٠٤ ، ١٧٥ .

وتلقانا حكم وأقاصيص منقولة عن بعض كتب الهند من مثل : « ليس لكذوب مروءة ولا لضجور رياسة ولا لملول وفاء ولا لبخيل صديق »[١] ، وبالمثل تلقانا أقاصيص وأخبار وحكم منقولة عن اليونان من مثل : « كلَّم رجل سقراط عند قتله بكلام أطاله ، فقال أنساني أولَ كلامك طولُ عهده وفارق آخرَه فهمي لتفاوته ، ولما قُدِّم بكت امرأته فقال لها : ما يبكيك ؟ قالت : تُقْتَلُ ظلماً قال : وكنت تحبين أن أُقتَل مظلوماً أو أقتل ظالماً »[٢] . ولملوك الفرس ووزرائهم شطر كبير من الأقاصيص والأخبار . ونختار باباً من أبواب المحاسن نسوق منه ما يصور سيول هذه الثقافات ، وهو باب محاسن السخاء ، ومما جاء فيه[٣] :

« رُوِى عن نافع قال : لقى يحيى بن زكريا عليه السلام إبليس لعنه الله فقال له : أخبرنى بأحب الناس إليك وأبغضهم ، قال : أحبهم إلىَّ كل مؤمن بخيل وأبغضهم إلىَّ كل منافق سَخِيّ قال : ولم ذاك ؟ قال إبليس : لأن السخاء خُلُقُ الله الأعظم فأخشى أن يطلع عليه فى بعض سخائه فيغفر له . وقال النبى صلى الله عليه وسلم : السخىّ قريب من الناس بعيد من النار ، والبخيل بعيد من الله بعيد من الجنة قريب من النار ، والجاهل السخى أحب إلى الله عزَّ وجل من عابد بخيل ، وأدوأ الدواء البخل . وقال صلى الله عليه وسلم : ما أشرقت شمس إلا ومعها ملكان يناديان يُسْمِعان الخلائق غير الجن والإنس وهما الثقلان : اللهم عجل لمنفق خلفاً ولممسك تلفاً ، وملكان يناديان : أيها الناس هلموا إلى ربكم فإن ما قلَّ وكفى خير مما كثر وألهى . وعن الشعبى قال : قالتْ أم البنين ابنة عبد العزيز أخت عمر بن عبد العزيز وزوجة الوليد بن عبد الملك : لو كان البخل قميصاً ما لبسته أو طريقاً ماسلكتها ، وكانت تعتق فى كل يوم رقبة (عبداً) وتحمل على فرس مجاهداً فى سبيل الله . . . وقال بهرام جور : من أحب أن يعرف فضل الجود على سائر الأشياء فلينظر إلى ماجاد الله به على الخلق من المواهب الجليلة والرغائب النفيسة . . . وقال الموبذان لأبرويز (ملك فارس) : أكنتم تَمُنُّون أنتم وآباؤكم بالمعروف وتترصَّدون عليه المكافأة ؟ قال : ولا نستحسن ذلك لعبيدنا ، فكيف

(١) المحاسن والأضداد ص ٣٨ .
(٢) المحاسن والأضداد ص ٢٢ .
(٣) المحاسن والأضداد ص ٦٢ وما بعدها .

نرى ذلك وفى كتاب ديننا (كتاب زرادشت : الأفستا) من فعل معروفاً خفياً وأظهره ليتطوّل به على المنعم عليه فقد نبذ الدين وراء ظهره واستوجب ألا نعدّه من الأبرار ولا نذكره فى الأتقياء والصالحين . وسُئل الإسكندر : ما أكبر ما شيّدت به ملكك ؟ قال : ابتدارى إلى اصطناع الرجال والإحسان إليهم . وكتب أرسطاليس فى رسالته إلى الإسكندر : اعلم أن الأيام تأتى على كل شيء فتُخلقه (فتبليه) وتخلق آثاره وتميت الأفعال إلا ما رسخ فى قلوب الناس ، فأوْدِعْ قلوبهم محبةً بأثرك تُبقى بها حُسْنَ ذكرك وكريم فعالك وشريف آثارك . ولما قُدّم بزرجمهر (وزير فارسى) إلى القتل قيل له : إنك فى آخر وقت من أوقات الدنيا وأول وقت من أوقات الآخرة ، فتكلم بكلام تُذْكَرُ به ، فقال : أى شيء أقول ، الكلام كثير ولكن إن أمكنك أن تكون حديثاً حسَنًا فافعل . وتنازع رجلان أحدهما من أبناء العجم والآخر أعرابى فى الضيافة فقال الأعرابى : نحن أقْرَى للضيف ، قال : وكيف ذلك ؟ قال : لأن أحدنا ربما لا يملك إلا بعيراً فإذا حلّ به ضيف نحره له ، فقال له الأعجمى : فنحن أحسن مذهباً فى القِرَى (الضيافة) منكم ، قال : وما ذاك ، قال : نحن نسمى الضيف : مِهْمان ، ومعناه أنه أكبر مَنْ فى المنزل وأملكناله . وقال المأمون : الجود بذل الموجود والبخل سوء الظن بالمعبود . وشكا رجل إلى إياس بن معاوية (قاضى البصرة المشهور فى العصر الأموى) كثرة مايهب ويصل وينفق ، فقال : إن النفقة داعية إلى الرزق ، وكان جالساً بين بابين فقال للرجل : أغلقْ هذا الباب ، فأغلقه ، فقال : هل تدخل الريح البيت قال : لا ، قال : فافتحْه ، ففتحه ، فجعلت الريح تخترق البيت ، فقال : هكذا الرزق أغلقتَ البيت فلم تدخل الريح ، فكذلك إذا أمسكت لم يأتك الرزق . ونزل على حاتم ضيف ولم يحضره القِرَى فنحر ناقة الضيف وعشّاه وغدّاه ، وقال له : إنك أقرضتنى ناقتك فاحتكمْ علىّ ، قال الرجل : راحلتين قال حاتم : لك عشرون أرضيتَ ؟ قال : نعم وفوق الرضا . . . وقيل فى المثل هو أجود من كعب بن مامة الإيادى ، وبلغ من جوده أنه خرج فى رَكْب فيهم رجل من بنى النَّمِر فى شهر قَيْظ . فضلّوا وتَصافنوا (تقاسموا بالحصص) ماءهم ، فجعل النمرى يشرب نصيبه ويُظْهر أنه عطشان ، فكان كعب إذا أصاب نصيبه قال للساقى : آثِر أخاك النَّمَرِىّ حتى أضرّ به العطش فلما رأى ذلك استحثّ راحلته وبادر حتى وصل

إلى وِرْد ماء ، وقيل له : رِدْ كعب ، إنك وارد ، ولكن العطش غلبه فمات . . .
ومن قول أبى تمام :

ولو لم يكن فى كفه غير نفسه لجاد بها فليتّق الله سائِلُهْ »

وإنما سُقْنا ذلك كله لندل على المزيج الثقافى الذى يتكوّن منه كتاب المحاسن والأضداد ، وهو مزيج به عناصر قصصية عن الأنبياء وعناصر إسلامية من الحديث النبوى وعناصر عربية من أخبار العرب رجالا ونساء ، وعناصر فارسية من أخبار الفرس وحكاياتهم وعناصر يونانية من أخبار الإسكندر المقدونى وكلام أرسطاليس . وبين السطور نحسُّ شعوبية المؤلف حين يُعْلى ضيافة الفرس وكرمهم على ضيافة العرب وما عُرِف عنهم من خصلة الكرم والجود . ولم يكفه ذلك فقد جعل حاتمًا يذبح ناقة ضيفه ليقدّم له الغداء والعشاء ، وإن عاد يقول إنه أعطاه بدلا منها عشرين ناقة ، فكأنه يريد أن يستر شعوبيته . ولعل هذا الجانب فى الكتاب هو الذى جعل المؤلف لا يُظهر اسمه ، حتى لا يؤخذ به . وفى هذه الفقرة الطويلة ما يصور سيول الأخبار وما قد يكون فيها من قَصص . ودائمًا نلتقى فى الكتاب بطرائف من الحكم والأخبار ، على نحو ما جاء فى محاسن حفظ اللسان إذ قيل : إنه تكلم أربعة من الملوك بأربع كلمات كأنما رُميتْ عن قوس واحد ، قال كسرى : أنا على رَدّ ما لم أقل أقدر منى على ردّ ما قلت . وقال ملك الهند : إذا تكلمت بكلمة ملكتْنى وإن كنت أملكها . وقال قيصر : لا أندم على ما لم أقل وقد ندمت على ما قلت . وقال ملك الصّين : عاقبة ما قد جرى به القول أشد من الندم على ترك القول[1] . وفى الكتاب قصص كثير متنوع فى موضوعاته وفى مصادره وموارده ، ويكثر فيه القصص عن المرأة العربية ، وكذلك عن المرأة الفارسية ، فمما جاء فيه عن المرأة العربية قصة رواها العُتْبى على هذا النمط[2] :

« قال العتبى : كنت كثير التزوج فمررتُ بامرأة فأعجبتنى ، فأرسلتُ إليها ألك زوج ؟ قالت : لا فصرت إليها ، فوصفت لها نفسى ، وعرّفتها موضعى فقالت : حَسْبُكَ قد عرفناك ، فقلت لها : زوّجينى نفسك ، قالت نعم :

(١) المحاسن والأضداد ص ٢١ .

(٢) المحاسن والأضداد ص ١٨٤ .

ولكن ههنا شيء هل تحتمله ؟ قلت : وما هو ؟ قالت : بياض فى مفرق رأسى . قال : فانصرفت ، فصاحت بى ارجعْ ، فرجعت إليها ، فأسْفَرَتْ عن رأسها : فنظرتُ إلى وجه حسن وشعر أسود ، فقالت : إنا كرهنا منك ، عافاك الله ، ما كرهت منا ، وأنشدتْ :

أرى شَيْبَ الرجال من الغَوانى بموضع شَيْبهنَّ من الرجالِ »

وهى قصة طريفة ، وفى الكتاب قصص عن النساء ووفائهن وكيدهن ، تكثر فيها عناصر التشويق ، مما يجعلها قصصاً بديعة من ذلك قصة أضيفت إلى شيرين الملكة الفارسية المشهورة ملخصها أن زوجها كسرى أبرويز أتاه صياد بسمكة كبيرة[1] فأُعجب به وأمر له بأربعة آلاف درهم ، فقالت له شيرين: أمرت لصياد بأربعة آلاف درهم فإن أمرت بمثلها لرجل من وجوه حاشيتك قال : إنما أمر لى بمثل ما أمر به للصياد . فقال لها كيف أصنع وقد أمرت له بما أمرت ؟ قالت إذا أتاك فقل له : أخبرنى عن السمكة أذكر هى أم أنثى ؟ فإن قال : أنثى فقل : لا تقع عينى عليك حتى تأتينى بالذكر ، وإن قال : ذكر ، فقل له : لا تقع عينى عليك حتى تأتينى بالأنثى ، فلما غدا الصياد على الملك قال له : أخبرنى عن السمكة أذكر هى أم أنثى ؟ قال : بل أنثى قال : فأتِنى بذكرها ، قال : عمَّر الله الملك إنها كانت بكراً لم تتزوج بعد ، فقال له الملك : حسناً ، حسناً ، وأمر له بأربعة آلاف درهم ، وأمر أن يُكْتَبَ فى ديوان الحكمة : إن الغدر ومطاوعة النساء يورثان الغُرْم . وبعض قصص النساء بها غير قليل من الفحش ، وقد تذكر أشياء غريزية تنبو عن الأذواق[2] على نحو ما يجرى فى بعض قصص ألف ليلة وليلة ، وكانت قد تُرْجمت ، فربما تأثر المؤلف بها ، وربما تأثر المؤلف فى ذلك بالشعر المفحش الكثير الذى كان موجوداً فى العصر . وقد يكون ذلك من أسباب تنكر المؤلف وإخفائه لاسمه . ويلقانا قصص دينى عن بعض الزهاد ، وقد نلتقى بحكايات صوفية ، بل قد نلتقى بما يصور كرامات المتصوفة التى سبق أن تحدثنا عنها التى كان ينكرها وشيوخهم الأجلاء ، فمن ذلك ما رواه الكتاب ،

---

(١) المحاسن والأضداد ص ٢٠١ .

(٢) انظر مثلا القصة فى ص١٩٣ و ص٢١٤ .

قال[١] : « عن أبى مسلم الخولانى قال : إنه خرج إلى السوق بدرهم يشترى لأهله دقيقًا ، فعرض له سائل ، فأعطاه بعضه ، ثم عرض له سائل آخر فأعطاه الباقى ، فأتى درب النَّجَّارين ، فملأ جرابه أو مِزْوده من نشارة الخشب ، لتنتفع بها امرأته فى إيقاد التَّنُّور وأتى منزله ، فألقاه ، وخرج هاربًا من زوجته . وأخذتْه فإذا هو دقيق أبيض حُوَّارَى (فاخر) لم تر مثله ، فعجنته وخبزته ، فلما جاء ووجد الخبز سألها : من أين لك هذا الخبز ، قالت له : من الدقيق الذى جئتنا به » ! . ويذكر الكتاب كرامة لسفيان الثورى لا تقل غرابة عن الكرامة السابقة . ولا نريد أن نسترسل فى نقل هذا القصص الكثير الذى يزخر به كتاب المحاسن والأضداد ، إنما نريد أن نوضح كيف أن هذا القصص يحتوى على عناصر مشوقة كثيرة ، وأنه كان يدخل فى الأدب الشعبى العام ، ولذلك يخلو من استعمال السجع والأساليب المنمقة ، والطريف أنه عُرِض ليجسّم وجهين متقابلين فى كل خُلق وكل خصلة ، فمثلا الصدق له محاسنه، ولهذه المحاسن أقاصيصها وله معايبه ، ولهذه المعايب أقاصيصها . وبالمثل كل فضيلة ، فوفاء النساء لمحاسنه أقاصيصها ولمعايبه أقاصيص تقابلها وتناقضها أشد المناقضة . وبذلك يأخذ عرض هذه الأقاصيص وما يتصل بها من الأخبار والأقوال والأشعار شكل مناظرات أدبية لا تعتمد على الجدال والحوار بالدليل ضد الدليل والحجة العقلية ضد الحجة العقلية ، وإنما على الحوار والجدال بالخبر ضد الخبر والشعر ضد الشعر والقصة ضد القصة والحكاية ضد الحكاية .

ويلتقى بهذا الكتاب فى موضوعاته وأكثر مادَّته كتاب المحاسن والمساوى لإبراهيم بن محمد البيهقى ، وقد أغفلتِ الحديثَ عنه كتبُ التراجم ، غير أنه يُفْهم مما ذكره عن الخليفة المقتدر فى آخر حديثه[٢] عن محاسن المسامرة أنه ألف كتابه فى زمنه . وهو يستهلّ كتابه بالحديث عن فضائل الكتب ووَصْف محاسنها مثل المحاسن والأضداد ، ويماثله أيضًا فى النقل كثيرا عن الجاحظ . ثم يفتتح طائفة من الفصول لم ترد فى الكتاب السالف يتحدث فيها عن محاسن الرسول صلى الله عليه وسلم

---

(١) المحاسن والأضداد ص ١٤١ .

(٢) انظر المحاسن والمساوى (نشر مكتبة نهضة مصر ومطبعتها) ٢ / ٢٣٨ .

وفضائله ومساوئ المتنبئين ومحاسن الخلفاء الراشدين ومناقبهم ومساوىء مَن عادى علي بن أبي طالب ومحاسن ابنيه الحسن والحسين ومساوئ قتلة الأخير ومحاسن السابقين إلى الإسلام ومساوئ المرتدين ومحاسن كلام الحسن بن علي وعبد الله بن العباس وفضائل بني هاشم ومحاسن الافتخار بالرسول . وكل هذه المقدمات ينفرد بها هذا الكتاب بالقياس إلى كتاب المحاسن والأضداد ، وبمجرد أن نفرغ منها نجد الكتابين يلتحمان ، حتى ليصبح كتاب المحاسن والمساوىء كأنه نسخة جديدة لكتاب المحاسن والأضداد ، مما يؤكد أن مؤلفهما واحد ، وكأن البيهقي ألَّف الكتاب الأول ، وأقحم فيه ما أقحم من أفكار الشعوبية والفحش في القصص ، ثم رأى أن يخرجه إخراجًا جديداً وينسبه إلى نفسه ، مُنَحِّياً منه ما يصور شعوبيته وما ينبو عن الأذواق السليمة من القصص المفحش مع وضع المقدمات آنفة الذكر . ويبدو منها أنه كان يُكِنُّ نزعة شيعية ، وإن لم يُبْرِزْها بقوة خوفًا على نفسه من المقتدر وحواشيه . وهو في هذه النسخة الجديدة للكتاب يذكر ابن المعتز[1] على نحو ذكره له في النسخة القديمة أو بعبارة أخرى في المحاسن والأضداد .

وطبيعي أن تكون مصادر هذا الكتاب هي نفسها مصادر الكتاب الأول المنحول للجاحظ ، لأنه ليس أكثر من نسخة مجدَّدة له ، وغاية ما هناك أنه دخله تنقيح وتهذيب كثير ، وإذن فكل ما قلناه عن المزيج الثقافي في المحاسن والأضداد ينطبق بحذافيره على هذا الكتاب ، ففيه بعض آي القرآن والأحاديث النبوية وأقوال بعض الصحابة والزهاد ، وفيه أخبار وأقاصيص منقولة عن الأنبياء وعن عيسى وحوارييه ، ومن طريف ما نقله عنه ، قوله[2] :

« إن ابن آدم خُلق في الدنيا في أربع منازل ، هو في ثلاثة منها واثقٌ بالله عزَّ وجلَّ ، وهو في الرابعة سَيِّىء الظن ، يخاف خذْلان الله عزَّ وجَلَّ إياه ، فأما المنزلة الأولى فإنه خُلق في بطن أمه خَلْقًا من بعد خلق في ظلمات ثلاث : ظلمة البطن وظلمة الرَّحِم وظلمة المَشِيمة ، يُنْزِل الله جَلَّ وعزَّ عليه رزقه في جوف ظلمة البطن . فإذا خرج من ظلمة البطن وقع في اللبن لا يخطو إليه بقدم

---

(١) راجع المحاسن والمساوى ص ١/٢٧٦ ، ٢/٤٤ ، ٤٥ .

(٢) المحاسن والمساوى ١ / ٤٥٩ .

ولا ساق ولا يتناوله بيد ولا ينهض بقوة ويُكْرَه عليه إكراهًا ، حتى ينبت عليه عظمه ودمه ولحمه . فإذا ارتفع من اللبن وقع فى المنزلة الثالثة فى الطعام بين أبوين يكتسبان عليه من حلال وحرام ، فإن مات أبواه من غير شيء عطف عليه الناس ، هذا يُطْعمه ، وهذا يسقيه ، وهذا يُؤْويه . فإذا وقع فى المنزلة الرابعة واشتدّ واستوى وكان رجلا خشى ألا يُرْزَق ، فيَثِب على الناس ، فيخون أماناتهم ، ويسرق أمتعتهم ويكاثرهم على (يغصبهم) أموالهم مخافة خذلان الله عزّ وجلّ إياه » .

والنص موجود فى المحاسن والأضداد[1] ، ولكن العبارة هنا نُقحت وهُذّبت بصور مختلفة ، وكذلك النصوص الأخرى حين نعارض الكتابين فيها بعضهما على بعض نجد دائمًا هذا التنقيح ، مما يشهد بأن يداً واحدة هى التى كتبتهما ، وأن أولهما كان أشبه بمسوّدة واتخذ الثانى شكل نسخة مهذبة منقحة قد صُفِّيت وأخْليت من كل الشوائب اللغوية وغير اللغوية ، ودخلتها إضافات من الأمثال والأحاديث النبوية والأشعار والأخبار والأقاصيص ، كهذه الأقصوصة التى تلقانا فى الحديث عن محاسن الولايات ، وهى تمضى على هذا النمط[2] :

« دخل محمد بن واضح دار المأمون ، وخلْفه أكثر من خمسمائة راكب ، كلهم راغب إليه وراهب منه ، وهو إذ ذاك يلى عملا من أعمال السَّواد (الأرض المزروعة) فى العراق . فدعا به المأمون فلما حضر بين يديه قال : يا أمير المؤمنين أعْفِنِى من عمل كذا وكذا ، فإنه لا قوة لى عليه ، فقال له المأمون : قد أعفيتك . واستعفى من عمل آخر . وهو يظن أنه لا يُعْفيه . فأعفاه ، حتى خرَج من كل عمل فى يده فى أقل من ساعة ، وهو قائم على قدميه . فخرج وما فى يده شيء من عمله . فقال المأمون لسالم الحوائجى : إذا خرج فانظر إلى موكبه وأحْصِ من بقى معه — وكان المأمون قد رآه من مستشرَف له حين أقبل — فخرج سالم وراء محمد بن واضح وقد استفاض الخبر بعزله عن عمله . فنظر فإذا هو لا يتبعه أحد إلا غلام له بغاشية[3] . فرجع سالم إلى المأمون فأخبره ، فقال : ويلهم

---

(١) المحاسن والأضداد ص ١٢٨ .

(٢) المحاسن والمساوى ١ / ٢٧٣ .

(٣) غاشية : غطاء .

او تجمّلوا له ريثما يرجع إلى بيته كما خرج منه ، ثم تمثل فيهم :

ومَنْ يجعلِ المعروف فى غَيْرِ أَهلِهِ   يلاقِ الذى لاقى مجيرُ أمِّ عامِرِ[١]

ثم قال : صدق رسول الله وكان للصدق أهلا حين قال : لا تنفع الصنيعة إلا عند ذى حَسَبٍ أو دين » .

ويُفيض هذا الكتاب كما تفيض مسوّدته : « المحاسن والأضداد » بكثير من أحوال العصور العربية السياسية والاقتصادية والحضارية ، وخاصة العصر العباسى ، ونرى البيهقى يفتح فيه ــ كما أشرنا إلى ذلك فى غير هذا الموضع ــ فصلا طويلا عن أصناف[٢] المكدين وأفعالهم وهو فيه ينقل عن الجاحظ وما كتبه عنهم فى مصنّفه البخلاء ، وقد عرض فيه حيَلهم وتَجْوالهم فى البلدان ونوادرهم ، فمن ذلك[٣] :

« أنه أتى سائل داراً يسأل منها ، فأشرفت عليه امرأة من غرفة ، فقال لها : يا أمةَ الله بالله أنْ تصدّقى علىّ بشىء ، قالت : أى شىء تريد ؟ قال : درهمًا ، قالت : ليس عندى ، قال : فدانقًا (جزءاً من درهم) ، قالت : ليس عندى ، قال : ففلْسًا (جزءاً من دانق) ، قالت : ليس عندى ، قال : فكُسوة ، قالت : ليس عندى ، قال : فكفًّا من دقيق ، قالت : ليس عندى ، قال : فزيتًا . . . حتى عدّ كل شىء يكون فى البيوت ، وهى تقول ليس عندى ، فقال لها : فما يُجلسك عندك ، مُرّى ، اسألى معى » .

وواضح أننا لا نعثر فى المادة الأدبية التى يحتويها هذا الكتاب وسالفه على شىء من السجع أو التكلف لألوان البديع أو لأى زخرف أو تنميق ، فهى مادة سهلة ، ليس فيها أى حليات لفظية ولا غير لفظية ، وليس فيها أى صعوبات لغوية ، وهى لذلك تُعَدّ مادة شعبية ، أو قل إن الكتابين مصنفان كبيران من الأدب الشعبى فى العصر ، وضعهما أديب ممتاز فى شكل مناظرات ومحاورات ، حتى يشوّق إلى قراءتهما . ولم يكتف بهذا التشويق العام ، فقد أدخل فى الأخبار والأقاصيص عناصر كثيرة منه تدفع العامة والخاصة إلى الشغف بقراءة الكتابين .

---

(١) أم عامر : الضبع .
(٢) المحاسن والمساوى ٢ / ٤١٣ .
(٣) المحاسن والمساوى ٢ / ٤١٧ .

٤

الرسائل الديوانية

مرَّ بنا فى العصر العباسى الأول كيف أن الدواوين كانت كثيرة ومتنوعة ، فديوان للخراج ، وديوان للنفقات وديوان للضياع وديوان للرسائل وديوان للخاتم وديوان للجيش أو دواوين ، ودواوين لشرقىّ الدولة وغربيّها ، ولكل ولاية ديوان وأحيانًا دواوين . وفوق كل هذه الدواوين ديوان الزمام الذى يُشْرِف عليها . وهذه الصورة العامة للدواوين فى سامرَّاء وبغداد كانت تقابلها دواوين أخرى فى حاضرة كل ولاية . وكان لأولياء العهد والوزراء دواوين بدورهم ، وكذلك لكبار القواد ، وحتى نساء الخلفاء كان لهن دواوين يقوم عليها كُتَّاب ينظرون فى الدَّخْل والخرج والنفقات .

وكان ذلك عاملا قويًّا فى نشاط الكتابة إذ اشتغل بها كثيرون ، وخاصة أنها كانت تعود عليهم برواتب وأرزاق ضخمة . وكان الكاتب فى دواوين الدولة إذا أظهر نبوغًا ارتقى سريعًا ، وما يزال يرتقى حتى يصبح رئيس مجموعة من الدواوين وقد يصبح وزيراً يدبِّر أمور الدولة كلها ، فإن فاتته الوزارة أصبح واليًا لمدينة كبيرة مثل إبراهيم بن المدبر الكاتب إذ ولى — فيما ولى — البصرة . وكثير من الولاة كانوا يُسْتَقنون الكتابة مثل محمد بن عبد الله بن طاهر وأخيه عبيد الله حاكمى بغداد بالتعاقب .

وكانت الدواوين فى سامرَّاء وبغداد لذلك أشبه بمدرسة فنية كبيرة ، يَفِدُ عليها الشباب ، ويُخْتَبَرون اختباراً دقيقًا ، فمن نجح فى الاختبار وُظِّفَ فيها ، ولزم غيره من الكتاب القدماء وعمل بين أيديهم . ويدبِّج بعض الرسائل . فإذا نالت رسالةٌ حُظْوَةً من رئيس الديوان تمَّ له سَعْده . وربما ألحقوهم ببعض الولاة أو العمال ، وقد يقفزون بهم قفزاً إلى القيام على أحد الدواوين . ولا ريب فى أن ذلك جعل التنافس على النهوض بالكتابة فيها يبلغ الذروة ، وهو تنافس دفع إلى التثقف

الواسع بكل ألوان الثقافات ، وفى مقدمتها الثقافة اللغوية ، ومرَّ بنا كيف أن ابن قتيبة ألَّف لهم فى ذلك كتابه « أدب الكاتب » . ولا بد من إتقان الفقه لحاجة الكاتب إليه فى شئون الخراج ، وأيضًا لا بد من إتقان الحساب لنفس الغاية . وكانوا يُكِبُّون خاصة على علوم التنجيم والمنطق والهندسة وعلى الفلسفة مما جعل ابن قتيبة يظن بهم الظنون وأنهم يغرقون إلى آذانهم فى علوم اليونان وفلسفتهم حتى ليفوتهم إتقان العربية . وتوفَّروا على ما تُرْجم من الثقافة الهندية من الحكم والقصص وكذلك على ما ترجم من الثقافة الفارسية مما يتصل بتقاليد الساسانيين وأنظمة الحكم وآداب السياسة وأخبار ملوكهم ووزرائهم . فكل ذلك كانوا يعكفون عليه ويتزوَّدون به ، حتى يستمدوا منه فى معانيهم ومنطقهم . وكانوا يلتزمون الوضوح لأن رسائلهم توجَّه إلى العامة ولا بد أن تَفْهَم ما تسمع دون حاجة إلى شرح أو بيان . كما كانوا يلتزمون فيها شيئًا من التنميق حتى تنال استحسان مَنْ يكتبون عنه من الخلفاء والوزراء والولاة والأمراء والقواد . وكانت الرسائل تتناول جميع شئون الدولة من منشورات تتصل بأهل الذمة أو الرعية ومن ولاية عهود أو بيعة لخليفة أو خلْع أو دعوة إلى الجهاد فى سبيل الله أو تولية وزير أو وال أو تنويه بموسم حج أو عيد أو أخبار الولايات أو أمر بمعاقبة بعض الجناة . وتفنَّنوا فى المقدمات وخاصة فى التحميدات وما اتصل منها برسالة الخميس التى كانت تُكْتَبُ إلى الولايات حين يستولى خليفة على مقاليد الحكم .

ونحن نعرض طائفة من الكتاب مرتَّبين على عهود الخلفاء لنتبين من خلال كتاباتهم روعة بيانهم من جهة وما حدث من تطور فى الكتابة الديوانية وأساليبها فى العصر . ومعروف أن أول كاتب نابه يلقانا فى العصر هو إبراهيم بن العباس الصولى الذى حرَّر أكثر ما صدر عن المتوكل من منشورات وكتب ورسائل فى الفتوح ، ولن نقف عنده لأننا سنخصه بحديث مفصل فى الفصل التالى . ومن كتَّاب المتوكل عبيد الله بن يحيى بن خاقان الذى استكتبه سنة ٢٣٦ ، ثم جعله وزيره وللبحترى فيه مدائح مختلفة ، وقد احتفظ له الطبرى برسالة كتب بها عن الخليفة إلى محمد بن عبد الله بن طاهر حاكم بغداد يأمره بضرب رجل ألفَ سَوْط لِمَا صَحَّ من شهادة شهود كثيرين عليه بشتمه لأبى بكر وعمر والسيدة عائشة والسيدة

حفصة زوجى الرسول ، والرسالة تخلو من السجع ومحاولة التنميق[١] .

ويدخل عصر المنتصر ، ويستوزر أحمدَ بن الخصيب ، وكان كاتباً أديباً ، مما جعله يتعهد إليه بكتابة الكتب التى تصدر عنه ، وكان من أوائلها كتاب فى الجهاد كتبه لسبع ليال خلَوْن من المحرم سنة ثمان وأربعين ومائتين حين اتجه وصيف إلى الغزو فى أرض الروم ، وفيه يقول[٢] :

« قال عزَّ وجلَّ آمراً بالجهاد مفترضًا له : (انفِروا خِفافاً وثِقالاً وجاهدوا بأموالكم وأنفسكم فى سبيل الله ذلكم خيرٌ لكم إن كنتم تعلمون) . وليست تمضى بالمجاهد فى سبيل الله حالٌ لا يكابد فى الله نَصَباً ولا أذًى ، ولا يُنْفق نفقة ولا يقارع عدوًّا ، ولا يقطع بلداً ، ولا يطأ أرضًا ، إلا وله بذلك أمر مكتوب وثواب جزيل وأجْر مأمول ، قال الله عزَّ وجلَّ : (ذلك بأنهم لا يُصيبهم ظَمَأ ولا نَصَبٌ ولا مَخْمَصَةٌ[٣] فى سبيل الله ولا يَطَئُونَ مَوْطِئًا يغيظ الكفار ولا ينالون من عدوٍّ نَيْلاً إلا كُتب لهم به عَمَلٌ صالح إن الله لا يضيع أجر المحسنين ولا يُنْفقون نفقة صغيرةً ولا كبيرة ولا يقطعون وادياً إلا كُتب لهم ليجزيهم اللهُ أحسن ما كانوا يعملون) . . وليس من شىء يتقرَّب به المؤمنون إلى الله عزَّ وجلَّ من أعمالهم ، ويَسْعَوْن به فى حَطِّ أوزارهم وفَكاك رقابهم ، ويستوجبون به الثواب من ربهم إلا والجهادُ عنده أعظم منه منزلةً ، وأعلى لديه رتبةً ، وأولى بالفوز فى العاجلة والآجلة ، لأن أهله بذلوا لله أنفسهم ، لتكون كلمة الله هى العليا ، وسمحوا بها دون مَنْ وراءهم من إخوانهم وحريم المسلمين وبَيْضتهم ووقَمُوا (قمعوا) بجهادهم العدو » .

وصياغة الكتاب جزلة رصينة ، وفيها محاولة واضحة للدقة فى التعبير وأن يروق السمع والذهن ، ولكن لا بسجع ، وإنما بعبارات متوازنة متقابلة . مما يشهد لابن الخصيب بأنه كان كاتباً مجيداً . واحتفظ الطبرى له بكتاب ثان خلع فيه المنتصر أخويه المعتز والمؤيد[٤] ، نحا فيه منحى الكتاب السابق فى الصياغة .

ويتولى المستعين الخلافة ، ويتخذ سعيد بن حميد أحدَ الكتاب البلغاء على

---

(١) طبرى ٩ / ٢٠٠ .

(٢) طبرى ٩ / ٢٤١ .

(٣) مخمصة : جوع شديد .

(٤) طبرى ٩ / ٢٤٧ .

ديوان رسائله ، وسنخصه بحديث مستقل فى الفصل التالى . وسرعان ما يتولّى المعتز الخلافة ، ويستوزر أحمد بن إسرائيل ، ويقول الفخرى إنه أحد الكتاب الحذّاق الأذكياء[١] . وكان من كبار ولاته وأقربهم إلى نفسه محمد بن عبد الله بن طاهر حاكم بغداد ، وكان أديبا بارعا ، وفى الطبرى رسالة له وجّه بها إلى عمّال النواحى حين أعطاهم المعتز الحق فى التنكيل بأعدائه ، وهى تمتلئ وعيداً وتهديداً على هذا النمط[٢] :

« أما بعد فإن زَيْغَ الهوى صَدَفَ بكم عن حَزْم الرأى ، فأقحمكم حبائلَ الخطأ ، ولو ملّكتم الحق عليكم وحكمتم به فيكم لأوردكم البصيرة ونفى غيابة[٣] الحيرة ، والآن فإن تجنحوا للسَّلْم تحقنوا دماءكم وتُرْغِدوا عيشكم ويصفح أمير المؤمنين عن جريرة جارمكم[٤] ، ويُسْبغ النعمة عليكم ، وإن مضيتم على غلوائكم وسوّل لكم الأمل أسوأ أعمالكم فأْذَنوا بحرب من الله ورسوله بعد نَبْذ المعذرة إليكم وإقامة الحجة عليكم . ولئن شُنَّت الغارات وشُبّ ضِرام[٥] الحرب ، ودارتْ رحاها على قُطْبها وحسَمت[٦] الصوارمُ أوصال حماتها ، واستجرّت[٧] العوالى من نَهَمها ، ودُعِيَتْ نَزال[٨] ، والتحم الأبطال ، وكَلَحت[٩] الحرب عن أنيابها أشداقَها ، وألقتْ للتجرّد عنها قناعها . واختلفت أعناقُ الخيل ، وزحف أهل النجدة إلى أهل البَغْى لتعلمُنّ أىُّ الفريقين أسمحُ بالموت نفساً ، وأشدّ عند اللقاء بطشاً ، ولات حينَ معذرة ، ولا قبول فدية ، وقد أعذر من أنذر (وسيعلم الذين ظلموا أىّ منقلب ينقلبون) » .

وصياغة الرسالة صياغة مضبوطة محكمة ، ويكثر فيها التقابل بين العبارات ويكثر التفاصح واستخدام كلمات القرآن الكريم وبعض آيه مثل : (فإن تجنحوا للسلم) ومثل : (فأذنوا بحرب من الله ورسوله) و (وسيعلم الذين ظلموا أى منقلب ينقلبون ،) مما يدل على تمكن الكاتب من العربية والثقافة الإسلامية القرآنية ، وقد استخدم كلمة :

---

(١) الفخرى ص ١٨٢ .

(٢) طبرى ٩ / ٣٦٧ .

(٣) غيابة : غشاوة .

(٤) جريرة جارمكم : جريمة مذنبكم .

(٥) ضرام : وقود .

(٦) حسمت : قطعت .

(٧) استجرت : اجترت .

(٨) دعيت نزال : كناية عن احتدام الحرب .

(٩) كلحت : كشرت .

« واستجرت » بدلا من كلمة : « واجترت » دلالة على قدرته فى القياس والتصريف ، وأتى بأمثال مختلفة مثل : « ودعيت نزالِ » وهو مثل يضرب لاحتدام الحرب ، ومثل : « من أعذر فقد أنذر » . وشىء أهم من ذلك كله واضح فى الرسالة وضوحاً بيِّناً ، وهو كثرة الصور فيها مثل غيابة الحيرة وإسباغ النعمة وضرام الحرب و « دارت رحاها على قطبها ، وحسمت الصوارم أوصال حماتها واستجرّت العوالى من نَهمها . . . وكلحت الحرب عن أنيابها أشداقها وألقت للتجرد عنها قناعها » . صور متراكمة ، قصد إليها الكاتب قصداً ليدل على براعته الفنية ، وأنه ليس الشعر وحده الذى يستطيع أن يحمل حشود الصور ، فالنثر بدوره يمكن أن يحمل منها ما يحمل الشعر ، بل يمكن أن يزداد حمله وأن يصبح صوراً خالصة يأخذ بعضها بزمام بعض .

ويخلف المعتز المهتدى ، وهو أعظم خلفاء العصر سيرة حميدة وتقوى وورعاً وعبادة ، وكان كما مرّ بنا يخطب فى الناس كل جمعة يعظهم ويذكرهم الآخرة ، وكان يعمل فى دواوينه سعيد بن عبد الملك ، ويقول صاحب الفهرست : البلغاء الحديثون ثلاثة : الحسن بن وهب وإبراهيم بن العباس الصولى وسعيد بن عبد الملك[1] ، وله كتاب فى التنويه بخليفة وخطابته فى عيد الفطر . ولا نرتاب فى أنه يريد المهتدى ، لأن من وليه من خلفاء القرن الثالث كانوا يندبون عنهم من يخطب يوم الجمع ، ومرّ بنا ما أصاب المعتضد من حَصَرٍ حينما حاول الخطابة فى أحد الأعياد ، فالمهتدى المقصود بتلك الرسالة ، وفيها يقول[2] :

« أدام الله صلاح الأمة ولا أخلاها من بركة رعايته ، ومن ولايته وسياسته ، ولا زالتْ فى كنف السلامة بسلامته ، وظلّ العافية بعافيته ، وعلى سبيل نجاة هدايته . وقد كتبتُ إلى أمير المؤمنين فيما وَلِيَهُ الله به فى مخرجه إلى عيده من يوم فطره وما وفّقه له من التقرب إليه بوسائل التذلل فى طاعته والاجتهاد فى شكره والمناصحة فى مخاطبة من حضره وإنصاتهم لوعظه وتذكيره ، وما وليه الله به من العافية والسلامة الشاملة ، والنعمة الكاملة ، والعز الموصول بالسكينة . . . منّاً من الله خصّ به

---

(١) الفهرست ص ١٨٨ .
(٢) جمهرة رسائل العرب لأحمد زكى صفوت ٤ / ٣٠٠ .

خليفته وأعطاه فضل مزيَّته بما وفَّقه له من العدل والنَّصَفة ، والبر والمرحمه ، والعطف والرأفة » .

وفى هذه الفقرة ما يصوّر كيف أخذ كتَّاب الرسائل الديوانية منذ أواسط القرن الثالث الهجرى يصطنعون السجع فى جوانب من رسائلهم على نحو ما نرى الآن عند سعيد بن عبد الملك ، وحقًّا أخذ السجع يدخل فى الرسائل الشخصية منذ القرن الثانى كما صوَّر ذلك كتابنا العصر العباسى الأول على نحو ما يلقانا فى رسالة ابن سَيابة المشهورة ، ولكن الرسائل الديوانية ظلت تُكتب بأسلوب مرسل ، يشيع فيه أحيانًا الازدواج ، أما السجع فيندر أن نلتقى به فى تلك الرسائل ، وكأن الأذواق أخذت تستعد لشيوعه وانتشاره فى الكتابة الديوانية لهذا العصر .

ويخلف المهتدىَ المعتمدُ. ويظل وزيراً له ، كما كان وزيراً لسابقه، سليمانُ بن وهب، ويقول الفخرى[1] عنه : أحد كتَّاب الدنيا ورؤسائها فضلا وأدبًا وكتابة وأحد عقلاء العالم وذوى الرأى منهم ، ويُرْوَى عنه أنه كان يكتب، فى أول عهده بالعمل، بدواوين الدولة بين يدى محمد بن يزداد وزير المأمون . وكان إذا انصرف فى الليل إلى داره ناب عنه فى دار المأمون أحد الكتاب الصغار بالنوبة لمهمّ عساه يعرض فى الليل . يقول سليمان : وبينما أنا نائب عنه فى إحدى الليالى إذ طلبنى المأمون ، فقال لى : اعملْ نسخة فى المعنى الفلانى ، ووَسِّعْ بين سطورها وأحضرْها لأصلح منها ما أريد إصلاحه ، فخرجتُ سريعًا وكتبت الكتاب وبيَّضته وأحضرته إليه ، فلما رآنى قال : كتبت مسوَّدة ؟ قلت : بل كتبت الكتاب ، فقال : بيَّضته ؟ قلت : نعم ، فزاد فى نظره إلىّ كالمتعجب منى ، فلما قرأه تبينت الاستحسان على وجهه ، وقال : يا صبىّ لا أدرى من أى شىء أعجب أمن سرعة فهمك أم من من حُسْن خطِّك ، بارك الله فيك . ونعجب أن يظل سليمان بن وهب يعمل فى الدواوين ويكتب رسائل ديوانيه مختلفة حتى عصر المعتمد ومع ذلك لا تحتفظ له كتب الأدب برسالة واحدة من تلك الرسائل ، وحتى رسائله الشخصية لم تحتفظ منها إلا بما كتبه شعراً على نحو ما يلاحظ قارئْ ترجمته فى الأغانى ، وإلا فقرة نثرية من كتاب اعتذار على هذا النحو[2] :

---

(١) الفخرى ص ١٨٣ .

(٢) جمهرة رسائل العرب لأحمد زكى صفوت ٤ / ٣٢١ .

« أنا مقرٌّ معترف ، فما تُراك صانعًا بمن أعْلقك زِمامَه ، وأمكنك من قِياده ، وحكّمك فى أمره ، معاقبًا له أو متفضّلا عليه بالعفو عنه ؟ لكنى أرجو أن أستقبل طاعة لا تمتنع من شكرها ، واغتفار كل تقصير خلا فى جَنْبها ، فالأيامُ بما تحبُّ أمامك » .

والقطعة قصيرة ، ولكنها على كل حال تصوّر صياغةً جزلة رصينة ، كما تصوِّر ذوقًا مهذبًا فى الاعتذار والاستعطاف ، حتى ليجعل زِمامه وقياده بيد صديقه ويحكّمه فى أمره ، وله الخيار إما أن يعاقب ، وإما أن يتفضل بالعفو . وكان يكتب بين يديه حين وزر للمعتمد أبو العباس أحمد بن ثوابة ، وهو من أعلام الكتّاب فى العصر ، وسنخصه فى الفصل التالى بحديث مستقل .

وكان يلى وزارة المعتضد عبيد الله بن سليمان بن وهب ، وفيه يقول الفخرى [1] : « من كبار الوزراء ومشايخ الكتاب ، وكان بارعًا فى صناعته حاذقًا ماهراً لبيبًا جليلا ، ماتت للمعتضد جارية كان يحبها فجزع عليها ، فقال له عبيد الله بن سليمان : « مثلك — يا أمير المؤمنين — تهون المصائب عليه ، لأنك تجد من كل مفقود عِوَضًا ، ولا يجد أحد منك عوضًا ، وكأن الشاعر عنَاك بقوله :

يُبْكَى علينا ولا نَبْكى على أحدٍ   لنحن أغلظُ أكباداً من الإبلِ »

وليس بين أيدينا من رسائل عبيد الله الديوانية إلا رسالة كان قد أمره المعتضد بإنشائها فى لَعْن معاوية ، حتى يقرأ بها الخطباء بعد صلاة الجمعة على المنابر ، وقد استهلّها عبيد الله بالتحميد قائلا [2] :

« بسم الله الرحمن الرحيم : الحمد لله العلى العظيم ، الحليم الحكيم ، العزيز الرحيم ، المنفرد بالوحدانية ، الباهر بقدرته ، الخالق بمشيئته وحكمته ، الذى يعلم أسرار الصدور وضمائر القلوب لا تَخْفَى عليه خافية ، ولا يَعْزُب عنه مثقال ذَرَّة فى السموات العُلا ، ولا فى الأرضين السُّفْلَى ، قد أحاط بكل شىء علمًا ، وأحصى كل شىء عدداً ، وضرب لكل شىء أمداً ، وهو العليم الخبير . والحمد لله الذى بَرَأ خلقه لعبادته ، وخلق عباده لمعرفته ، على سابق علمه فى

---

(١) الفخرى ص ١٨٩.

(٢) طبرى ١٠ / ٥٥ .

طاعة مطيعهم ، وماضى أمره فى عصيان عاصيهم ، فبيّن لهم ما يأتون وما يتّقون ، ونهج لهم سبلَ النجاة ، وحذّرهم مسالك الهلكة ، وظاهرَ عليهم الحجة ، وقدّم إليهم المعذرة ، واختار لهم دينهم الذى ارتضى لهم وأكرمهم به . وجعل المعتصمين بحبله والمتمسكين بعُرْوته أولياءه وأهل طاعته ، والعاندين عنه والمخالفين له أعداءه وأهل معصيته (ليَهْلك مَنْ هلك عن بيِّنة ويحْيَا مَنْ حيَّ عن بيِّنة وإن الله لسميع عليم) . والحمد لله الذى اصطفى محمداً رسوله من جميع بريّته ، واختاره لرسالته ، وابتعثه بالهدى والدين المرتضى إلى عباده أجمعين ، وأنزل عليه الكتاب المبين المستبين ، وتأذّن له بالنصر والتمكين ، وأيّده بالعز والبرهان المتين ، فاهتدى به مَن اهتدى ، واستنقذ به مَن استجاب له من العمى ، وأضلّ مَنْ (أدبر وتولّى) حتى أظهر الله أمره ، وأعزّ نصره ، وقهر مَنْ خالفه ، وأنجز له وعده ، وختم به رُسله ، وقبضه مؤدّيًا لأمره ، مبلغًا لرسالته ، ناصحًا لأمته ، مرضيًّا مهتديًا إلى أكرم مآب المنقلبين ، وأعلى منازل أنبيائه المرسلين ، وعباده الفائزين ، فصلّى الله عليه أفضل صلاة وأتمّها ، وأجلّها وأعظمها ، وأزكاها وأطهرها ، وعلى آله الطيبين » .

ويكثر السجع فى مقدمة هذه الرسالة التى كتبت لسنة ٢٨٤ وهو شىء طبيعى ، فقد دخل السجع الرسائل الديوانية ، وحقًّا لم يطّرد فيها بعد ، حتى فى هذه الرسالة نفسها فإن عبيد الله تخلص بعد ذلك منه فى الرسالة . وقد مضى يصور استجابة بنى هاشم للرسول عليه السلام حين دعا قومه للهدى ومؤازرتهم له ومناصرتهم بينما كان ممن عانده ونابذه وكذبه وحاربه أبو سفيان بن حرب وأشياعه من بنى أمية ، حتى علت كلمة الله وهم لها كارهون . ثم يذكر آثاراً فى ذم أبى سفيان وابنه معاوية وما كان من حربه لأفضل المسلمين فى الإسلام مكانًا وأقدمهم إليه سبقًا وأحسنهم فيه أثراً وذكراً على بن أبى طالب . ويذكر أعمال معاوية وكيف أنه أباح المحارم ومنع الحقوق أهلها وقتل صبراً نفراً من خيار التابعين ويعرض أعمال يزيد بن معاوية وإيقاعه بأهل الحرّة وسَفْكه دم الحسين مع موقعه من رسول الله صلى الله عليه وسلم ومكانه منه ومنزلته من الدين والفضل ، اجتراءً على الله وكفراً بدينه، وعداوة لرسوله ومجاهدة لعترته واستهانة بحرمته . ويذكر ما كان من

بني مروان من تعطيل كتاب الله وأحكامه ونَصْبهم المجانيقَ على بيته ورميهم له بالنيران استباحه وانتهاكاً ، ويختمها بقوله :

« أيها الناس بينَّا هداكم الله ، ونحن المستحفَظون فيكم أمر الله ، ونحن ورثة رسول الله والقائمون بدين الله ، فقفوا عند ما نقفكم عليه . وانفذوا لما نأمركم به ، فإنكم ما أطعتم خلفاء الله وأئمة الهدى على سبيل الإيمان والتقوى . وأمير المؤمنين يستعصم الله لكم ، ويسأله توفيقكم ، ويرغب إلى الله في هدايتكم لرشدكم وفي حفظ دينه عليكم ، حتى تلقوه به مُسْتحقين طاعته مُسْتحقبين (حاملين) لرحمته » .

وراجع المعتضد نفسه ، وخشى أن يجمع الكِتابُ قلوبَ العامة حول العلويين ، لما كان لجدِّهم على بن أبي طالب من بلاء عظيم في إعلاء كلمة الله وإلقاء كفار قريش له عن يدٍ وهم صاغرون . وفي الكتاب إطراء عظيم له ولأبنائه . فأمسك عما كان عزم عليه . وواضح من الفقرة الأخيرة أن عبيد الله كاتبه ، إن كان تخلص من السجع بعد تقديمه فإنه ظل يحتفل بصياغته ، ويبدو أنه كان يستخدم السجع في جوانب من كتابته في الحين بعد الحين . وخاصة في توقيعاته ، فقد كتب إليه أبو العيناء يذكِّره بأمره وأنه من زرعه وغَرْس يده ، فوقَّع في رقعته[1] :

« أنا — أسعدك الله — على الحال التي عهدتَ ، ومَيْلي إليك كما علمتَ ، وليس من أنسيناه أهملناه . ولا من أخَّرناه تركناه ، مع اقتطاع الشغل لنا ، واقتسامه زماننا ، وكان من حقك علينا أن تذكِّرنا بنفسك ، وتُعْلِمَنا أمرك ، وقد وقَّعت لك برزق (راتب) شهرين لتُزيح علتك وتعرِّفني مبلغ استحقاقك ، لأطلق لك باقيَ أرزاقك ، إن شاء الله ، والسلام » .

والتوقيع — كما هو واضح — سجع خالص . وسنرى عما قليل أن سريان السجع في الرسائل الشخصية طوال القرن الثالث الهجرى كان أقوى منه في الرسائل الديوانية ، حتى إذا كان عصر المقتدر (٢٩٥ — ٣٢٠ ﻫ) أخذ السجع يعم في جميع ما يصدر من الرسائل الديوانية ، فليس هناك وزير ولا كاتب في الدواوين إلا وهو يتأنق في كتابته ويبالغ في تأنقه حتى يجعل كتابته سجعاً خالصاً . وبذلك

---

(١) زهر الآداب ١ / ٢٩١ .

أخذ كل ما يصدر عن الخليفة منذ سنة ٣٠٠ للهجرة يوشَّى بالسجع[١]، وبالمثل ما يصدر عن وزرائه وفى مقدمتهم ابن الفرات. وكان على بن عيسى الوزير لا يقل عناية عنه بالسجع، وقد ذكر له الهلال مجموعة كبيرة من رسائله كلها مسجوعة. ومثله وزير المقتدر الثالث الخاقانى، فقد كان شغوفًا بالسجع شغفًا شديداً، وتُرْوَى له فى ذلك نوادر كثيرة، منها أن عامل النيل أحد فروع الأنهار فى العراق تأخر فى حمل غَلَّة إليه، فكتب إليه هذه العبارات: «احمل الغلَّة، وأزِح العِلَّة، ولا تجلس متودِّعًا فى الكِلَّة (الستر)» ولاحظ أنه قد حشر الكلة فى الكلام لاستكمال السجع، فالتفت إلى الكاتب وقال له: أفى النيل بَقّ يحتاج إلى كلل؟ فقال له الكاتب مداجيًا مرائيًا: إى والله وأى بَقّ، ومن أجله يلزم الناس الكِلل ليلا ونهاراً[٢]. ووقَّع فى رسالة وجَّه بها إلى بعض عمَّاله: «الزمْ — وفَّقك الله المنهاج، واحذر عواقب الاعوجاج، واحمل ما أمكن من الدَّجاج، إن شاء الله»، وكان أن حمل العامل إليه دجاجًا كثيراً، فقال: هذا دجاج وفَّرته بركة السجع[٣]. وكان الولاة يقلدون الوزراء فى هذا البدع الجديد فقد ذكر الرواة أن الوالى على كُوَر الأهواز كتب إلى على بن عيسى كتابًا سجع فيه، فكتب إليه وقد صمَّم على عزله: «عوَّلتَ بنا على كلام ألَّفته، وخطاب سجَّعته أوجب صرْفلك عما توليته[٤]».

وكان كتَّاب الدواوين على شاكلة الوزراء يَسْجعون فى كتاباتهم، وفى مقدمتهم محمد بن جعفر بن ثوابة القائم على ديوان الرسائل لعهد المقتدر والمتوفى سنة ٣١٢، وكان فى باكورة حياته يكتب بين يدى عبيد الله بن سليمان بن وهب، وكلَّفه أن يجيب على كتاب خمارويه حين أنفذ ابنته إلى المعتضد، فقال فى الفصل الذى احتاج فيه إلى ذكرها:

«وأما الوديعة فهى بمنزلة شىء انتقل من يمينك إلى شمالك، عنايةً بها، وحياطةً عليها، ورعايةً لمودتك فيها»، ورآه عبيد الله يعجب بهذه العبارات،

(١) تاريخ الوزراء للهلال بن المحسن ص ٣٣٧ وما بعدها.

(٢) تاريخ الوزراء ص ٢٧٧.

(٣) نفس المصدر والصفحة.

(٤) تاريخ الوزراء ص ٣٣٥.

فأخذ ينقدها له قائلا : « تفاءلتَ لامرأة زُفَّت إلى زوجها بالوديعة ، والوديعة مستردَّة . وقولك من يمينك إلى شمالك أقبح ، لأنك جعلت أباها اليمين وأمير المؤمنين الشمال ، ولو قلت : بمنزلة شيء انتقل من حال إلى حال لكان أحسن . وكان خيراً من ذلك كله أن تقول :

« وأما الهدية فقد حَسُنَ موقعها منا ، وجلَّ خطرها عندنا . وهى وإن بعدت عنك بمنزلة ما قرب منك لتفقُّدنا لها ، وأُنْسنا بها ، واسرورها بما وردت عليه واغتباطها بما صارت إليه » لكان أحسن »[1] .

وواضح ما حمل نقد عبيد الله بن سليمان إلى الشاب فى مطالع عمله بالدواوين من لفت قوى إلى العناية بصياغته ومعانيه وكأنه هو الذى حمله على أن يأخذ نفسه بتكلف شديد . ومعروف أن عبيد الله توفى سنة ٢٧٨ ، ولا نصل مع محمد بن جعفر إلى عصر المقتدر ، حتى يصبح أكبر كاتب فى دواوينه ، وحتى يُعْهَد إليه بتولى ديوان الرسائل ، ويأخذ حينئذ نفسه بالحرص على السجع فى كل ما يَصْدر عنه ، على نحو ما يصوِّر ذلك منشورٌ وجَّهة باسم الخليفة المقتدر إلى العمَّال فى البلدان المختلفة ينوِّه فيه بابن الفرات فى وزارته الثانية لسنة ٣٠٤ ، وفيه يقول[2] :

« لما لم يجد أمير المؤمنين غِنًى عنه ، ولا للملك بُدًّا منه . وكان كتَّاب الدواوين على اختلاف أقدارهم ، وتفاوت ما بين أخطارهم مقرِّين برياسته ، معترفين بكفايته ، متحاكمين إليه إذا اختلفوا واقفين عند غايته إذا استبقوا ، مذعنين بأنه الحُوَّل القُلَّب ، المحنَّك المجرَّب ، العالم بِدِرَّة المال كيف تُحْلَب ، ووجوهه كيف تُطْلب ، انتضاه[3] من غِمده ، فعاود ما عُرِف من حَدِّه ، فنفَّذ الأعمال كأن لم يغب عنها ، ودَبَّر الأمور كأن لم يَخْلُ منها » .

فالسجع أصبح ظاهرة عامة فى الرسائل الديوانية ، ويبدو أن ابن مُقْلة وزير المقتدر والخلفاء من بعده كان يستخدمه ، إن لم يكن دائمًا فى الحين بعد الحين ، وكان كاتبًا بليغًا ، وفيه يقول الصولى : « ما رأيت وزيراً منذ توفِّى القاسم بن عبيد الله

---

(١) معجم الأدباء ١٨ / ٩٨ وزهر الآداب ٢ / ٢٨٩ .

(٢) معجم الأدباء ١٨/ ٩٧ وانظر رسالة أخرى له مسجوعة فى الهمدانى ص ٢٠ .

(٣) انتضاه : سله .

ابن سليمان بن وهب (وزير المكتفى) أحسن حركة ، ولا أظرف إشارة ، ولا أملح خطًّا ، ولا أكثر حفظًا ، ولا أسلط قلمًا ، ولا أقصد بلاغة ولا آخذ بقلوب الخلفاء من ابن مُقْلة »[١] وهو صاحب الخطِّ الذى تضرب به الأمثال ، وهو أول من نقله من الوضع الكوفى إلى الوضع الذى شاع فى العالم العربى ، وكان أول من رفع من قدره أبو الحسن بن الفرات ، وخاصة فى وزارته الثانية آنفة الذكر ، حتى علت حاله وعَرُض جاهه ، ولكنه عاد فاستوحش منه ونكبه . ثم خلص من المحنة ، واستوزره المقتدر ومن جاءوا بعده ، واحتفظ له كتاب النجوم الزاهرة برسالة أنفذ بها إلى ابن الفرات وقد طالت به المحنة، تجرى على هذا النمط[٢] :

« أمسكتُ ـــ أطال الله بقاء الوزير ـــ عن الشكوى ، حتى تناهت البَلْوَى ، فى النفس والمال ، والجسم والحال، إلى ما فيه شفاء للمنتقم ، وتقويم للمجترم ، حتى أفضيت إلى الحَيْرة والتبلّد ، وعيالى إلى الهُتْكة والتشرد . وما أبداه الوزير ـــ أيَّده الله ـــ فى أمرى إلا بحقٍّ واجب ،وظنٍّ غير كاذب . وعلى كل حال فلى ذِمامٌ وحُرْمَةٌ ، وصحبة وخدمة إن كانت الإساءة أضاعتها فرعايةَ الوزير ، أيَّده الله تعالى بحفظه ، ولا مفزع إلا إلى الله بلطفه ، وكنف الوزير وعطفه ، فإن رأى ـــ أطال الله بقاءه ـــ أن يلحظ عبده بعين رأفته ، ويُنْعم بإحياء مهجته ، وتخليصها من العذاب الشديد ، والجَهْد الجهيد ، ويجعل له من معروفه نصيبًا ، ومن البلوى فرجا قريبًا » .

وكأن السجع أصبح لغة جميع الرسائل منذ أوائل القرن الرابع للهجرة ، بل مع أواخر القرن الثالث ، فليس هناك كاتب إلا ويسجع ، وإن فاته السجع فى مكان من رسالته عاد إليه فى الأمكنة الأخرى . وقد خلف محمد بن جعفر بن ثوابة ابنه أحمد منذ سنة ٣١٢ ، وظل على ديوان الرسائل من بعده إلى أن توفى سنة ٣٤٩ ، فخلفه عليه أبو إسحق الصابى . ولا ريب فى أن أحمد مضى فى إثر أبيه يسجع فى رسائله وكل ما يصدر عنه من كتابات ديوانية ، وقد بقيت منها بقايا قليلة تصور سجعه وإغراقه فيه من مثل قوله فى وصف فتح[٣] :

---

(١) النجوم الزاهرة ٣ / ٢٦٨ .
(٢) النجوم الزاهرة ٣/ ٢٦٨ .
(٣) الهمدانى : تكملة تاريخ الطبرى ص ١٥٨ .

« فلم يُسْفر العَجاج[١] إلا عن قتيل مرسل ، أو غريق معجَّل ، أو جريح معطَّل ، أو أسير مكبَّل ، أو مستأمَنٍ محصَّل ، أو حقيبة ملأها الله بلا تعب ، أو غنيمة أفاءها الله بلا نَصَب » .

وواضح من كل ما قدمنا أن السجع أصبح منذ خلافة المقتدر اللغة العامة للدواوين ، فالرسائل تمتلئ بزخارفه ولآلئه . إذ غدا المثلَ الأعلى للجمال الفنى فى الكتابة الديوانية ، فلا بد فيها من قوافيه وفواصله ، ولا بد من تساوق أنغامه وألحانه فى الكلام .

٥

الرسائل الإخوانية والأدبية

رأينا فى كتاب العصر العباسى الأول كيف أن الرسائل الإخوانية ازدهرت حينذاك ، إذ اتخذها الأدباء لتصوير عواطفهم ومشاعرهم فى الخوف والرجاء والرهبة والرغبة والمديح والهجاء والتهانى والعتاب والاعتذار والاستعطاف والتعزية والاستمناح . وبذلك نافس النثر الشعر فى مجالاته الخاصة : مجالات الوجدان ، وأظهر الكتَّاب فى ذلك براعة فائقة ، إذ كان كثير منهم بلغ الذروة فى الفن الكتابى ، وأيضًا فإن الشعراء أنفسهم أدْلَوْا بِدِلائهم فى تلك الرسائل حين وجدوها شديدة التأثير فى نفوس من تُوَجَّه إليهم . وبذلك توفَّر للرسائل الإخوانية كثيرون من الكتَّاب والشعراء النابهين ، الذين استطاعوا أن يبثوا فى النثر طاقات جديدة من طرافة التفكير ودقة التعبير ، حتى لنرى قومًا إذا سُئلوا عن الكلام أو الوصف هل يكون شعراً أو نثراً فضَّلوا أن يكون نثراً ، فقد روى المسعودى عن أبى العباس المكى نديم محمد بن عبد الله بن طاهر أنه كان ينادمه ذات ليلة فى سنة ٢٥٠ للهجرة ، فسأله أن يصف له الطعام والشراب والطيب والنساء والخيل ، فقال له : أيكون ذلك منثوراً أو منظومًا ؟ قال : لا ، بل منثوراً[٢] . فالنثر أصبح له القِدْح المعلَّى على

---

(١) العجاج : غبار الحرب .

(٢) مروج الذهب للمسعودى ٤/ ٧٠ .

الشعر ، لا لأن أصحابه كانوا يرقون إلى الوظائف العليا فى الدولة ودواوينها فحسب ولا لأنه كان يُختار منهم الوزراء فحسب ، بل أيضاً لأنه أصبح يضارع الشعر فى التأثير فى وجدان القارىء ، بما وفَّر له كتَّابه العظام من جزالة الألفاظ ورصانتها ومن حسن تلاؤمها فى الجرْس . فالكاتب ما يزال يلائم بين لفظة ولفظة ، بل أحياناً بين حرْف وحرف ، حتى يأسِر العقول والألباب . وكان أكثرَ من الشعر طواعية لحمل الأفكار بحكم يُسْرِ تعابيره وما يجرى فيها من مرونة ، مما جعل الشعراء أنفسهم يتخذونه فى بعض الأحوال أداة لتصوير خواطرهم ومشاعرهم وأفكارهم ، كما ذكرنا آنفاً . وتحمل كتب الأدب كثيراً من الرسائل الإخوانية لكتَّاب بارعين ، ونحن نعرض طائفة منها تصوّر مدى ما كانوا يحققونه لها من إجادة وإتقان ، فمن ذلك رسالة للحسن بن وهب كتب بها إلى المتوكل فى عيد نيروز ، يهنئه بالعيد ، وكلها دعاء وابتهال ، يقول[1] :

« أسعدك الله — يا أمير المؤمنين — بكرِّ الدهور ، وتكامل السرور ، وبارك لك فى إقبال الزمان ، وبسَط بيُمْن خلافتك الآمال ، وخصَّك بالمزيد ، وأبهجك بكل عيد ، وشدَّ بك أزْرَ التوحيد ، ووصل لك بشاشة أزهار الربيع المونق ، بطيب أيام الخريف المُغْدِق (كثير المياه) وبمواقع تمكين لا يجاوزه الأمل ، وغبطة إليها نهايةُ ضارب المثل ، وعمَّر ببلائك الإسلام ، وفسح لك فى القدرة والمدة ، وأمتع برأفتك وعدلك الأمة ، وسَرْبلك (ألبسك) العافية ، وردَّاك السلامة ، ودرَّعك العزَّ والكرامة ، وجعل الشهور لك بالإقبال متصدِّية ، والأزمنة إليك راغبة متشوقة ، والقلوب نحوك سامية ، تلاحظك عشقاً ، وترفرف نحوك طرباً وشوقاً » .

وكانت قد أخذت تشيع التهنئات بالأعياد الفارسية والإسلامية شعراً فجعلها الحسن بن وهب نثراً ، وفى رأينا أنه لم يعش طويلا فى عصر المتوكل . وكانوا قد اعتادوا كثيراً فى العصر العباسى الأول أن يتهادوا التحف والطرف ، وعادة كانوا يرسلون مع الهدية بعض الأشعار ، وأخذ النثر يزاحم الشعر فى هذا الموضوع ، فمن ذلك أن نرى الكندى الفيلسوف المتوفى سنة ٢٦٠ كما مرَّ بنا يهدى إلى بعض إخوانه سيفاً ويكتب معه[2] :

---

(١) المحاسن والأضداد ص ٢٨٥ .

(٢) غرر الخصائص الواضحة ص ٤٤٧ .

« الحمد لله الذى خصَّك بمنافع ما أهْدِىَ إليك ، فجعلك تهتزُّ للمكارم ، اهتزاز الصارم (السيف) ، وتمضى فى الأمور ، مضاء السيف المأثور (المتألق اللامع) وتصون عِرْضَك بالإرْفاد (الإعطاء) كما تُصان السيوف فى الأغماد ، ويظهر دم الحياء فى صفحة خدّك المَشُوف (المجلو) كما يَشِفّ الرونق فى صفحات السيوف ، وتَصْقل شرفك بالعطيَّات ، كما تُصْقَل مُتون المَشْرَفيَّات (السيوف) » .

والرسالة تتقدم فى السجع خُطْوَةً عن سابقتها ، فإن الحسن بن وهب كان يترك السجع أحياناً أما الكندى فإنه فى رسالته يتشبث بالسجع ، وكأنما لحق عصرا كانت عنايته به أقوى وأشد من عصر الحسن بن وهب . ومرَّ بنا أبو على البصير بين الشعراء ، ويقول ابن المعتز كان كاتبًا رِسالياًّ (صاحب رسائل) ليس له فى زمانه ثان . . . وقد قلنا فى أخبار العتَّابى (وكان شاعراً كاتبا) : إن هذا قلما يتفق للرجل الواحد ، لأن الشعر الذى للكتَّاب ضعيف جدًّا ، فإذا اجتمعا فى الواحد فهو المنقطع القرين »[1] . وقد أُثرت عن أبى على البصير رسائل كثيرة ، فمن ذلك رسالة كتب بها إلى عبيد الله بن يحيى بن خاقان وزير المتوكل مادحًا له معدّدا فضائله ، وفيها يقول[2] :

« إن أمير المؤمنين لما استخلصك لنفسه ، وائْتَمَنَكَ على رعيَّته ، فنطق بلسانك ، وأخذ وأعطى بيدك ، وأورد وأصْدَر عن رأيك . . . ولم يزد ــ أكرمك الله ــ رفعة وتشريفًا إلا ازددتَ له هيبةً وتعظيمًا ، ولا تسليطًا وتمكينًا إلا زِدْت نفسك عن الدنيا عزُوفًا وتنزيها ، ولا تقريبًا واختصاصاً إلا ازددت بالعامة رأفةً وعليها حَدَبًا ، لا يُخرجك فرْطُ النصح له عن النظر لرعيته ، ولا إيثار حقه عن الأخذ بحقها عنده . . . ولا يشغلك معاناةُ كبار الأمور عن تفقد صغارها . . تمضى ما كان الرشد فى إمضائه ، وتُرْجِئُ ما كان الحزم فى إرجائه . . . وتلين فى غير تكبر ، وتعمُّ فى غير تصنع ، لا يشقى بك المحقُّ وإن كان عدوًّا ، ولا يسعد بك المبطل وإن كان وليًّا . . . وكافَّة الرعية ــ إلا من غمط (بَطِر) منهم النعمة ــ مُثْنون عليك بحسن السيرة ، ويُمْن النقيبة » .

---

(١) طبقات الشعراء لابن المعتز ص ٣٩٨ . (٢) زهر الآداب ١ / ٢٤١ .

وقدرة أبى على البصير على اختيار الألفاظ بارعة ، فقدكان يعرف كيف يختار مفرداته وكيف يؤلف بينها تأليفاً حسناً ، يجرى فيه التقابل والتوازن ، وإن لم يَجْرِ فى هذه الرسالة السجع ، ولكن يجرى فيها ماء ورونق . وهو لم يسق فى مديح عبيد الله عبارات طنانة فحسب ، بل ساق معانى سياسية جيدة ، فهو رءوف بالشعب حَدِبٌ عليه ، وحقُّ كل فَرْدٍ فوق حق الخليفة نفسه، مدبر حازم . مترفع عن الصغائر ، فى تواضع لا يسفُّ به إلى الدنيات دون تكلف . لا يؤذى محقا وإن كان عدواً ، ولا يَسُرُّ مبطلا وإن كان صديقاً . والرعية جميعها تحبه وتُثْنى عليه لسيرته وفضائله الطيبة . وله رسالة مسجوعة تدخل فى العتاب أو بعبارة أدق فى الهجاء كتب بها إلى أبى العيناء منافسه فى منادمة الخلفاء والوزراء ، وفيها يقول[1] :

« من أبى على البصير ، ذى البرهان المنير ، المبلغ فى التحذير ، المُعْذِرِ فى النكير ، إلى أبى العَيْناء الضَّرير ، ذى الرأى القصير ، والخَطَل الكثير ، والإقدام بالتعيير ، سلامٌ على المخصوصين بالسلام ، من أجل حقيقة الإسلام ، المؤمنين بالحلال والحرام ، والفرائض والأحكام ، فإنى أحمد الله إلى نفسه وأوليائه من خَلْقه ، على ما هدانى من دينه ، وعرَّفنى من حقه، وامتنَّ علىَّ به من تصديق رسله . . . أما بعد فإنك الرجل الدقيق حَسَبُه ، الرَّدِىء مذهبه ، الدَّنِىءُ مكسبه ، الخسيس مطلبه ، البذىء لسانه ، المُبْتَلَى به إخوانه . . . قد صَيَّرْتَ القِحة (الوقاحة) جُنَّةً (وقاية) وشَتْم الأعراض سُنَّة . . . صديقُك على وَجَلٍ منك إن شاهدته عافك ، وإن غبت عنه خافك ، تسأله فوق الطاقة ، وتُرْهقه عند الفاقة (الفقر) فإن اعتذر إليك لم تُعْذره ، وإن استنظرك لم تُنْظره (تمهله) وإن أنعم عليك لم تشكره ، لا تزيدك السنُّ إلا نقصاً ، ولا يفيدك الغنى إلا حرصاً . . . وتعرض للناس بالسؤال ، غير محتشم من الإملال . . . من أطاعك فى ماله حَرَبْتَه (سلبته) ، ومن منعك بعذر واضح سَبَبْتَهُ . . . ومن أكرمك أهنته وتطاولت عليه ، ومن أهانك استكنت له ولِنْتَ فى يديه . . . إرثُك عن أبيك السعاية ، ونقلُ الأخبار والوشاية » .

---

(١) جمهرة رسائل العرب ١٥٩/٤ .

والرسالة كلها — على هذا النحو — هجاء وإقذاع فى الهجاء ، وقد استهلها لمحًا إلى أن أبا العيناء لا يؤمن بحلال ولاحرام ولا بفرائض ولاأحكام مخرجًا له من الملة جامداً لنفسه هداه وتصديق الرسل الذين يكفر بهم أبو العيناء. ثم يسبه فى حسبه وفى مذهبه ومكسبه واصفًا له بالخسة والدناءة ، وأنه لا يحترم صديقًا مهما أكرمه، مع الشح والتعرض للناس بالسؤال والإلحاف فيه . ويقول له فى نهاية رسالته : « قد مِلْتُ إلى السجع على علمى بخساسة حظه وركاكة معانيه ولفظه ، إذ كنت تَلْوى به لسانك ، وتَثْنى إليه عِنانك ، قطعًا لحجتك ، وإزاحة لعلتك ». وكان أبو العيناء على شاكلة أبي على البصير يملأ رسائله بالسجع على نحو ما نجد فى رسالة كتب بها إلى عبيد الله بن يحيى بن خاقان يشكو له ابنه محمداً إذ أهداه فرسًا غير فاره ، وفيها يقول[1] :

« أعلم الوزير — أيده الله — أن أبا على محمداً أراد أن يبرّنى فعقّنى ، وأن يُركبنى فأرجلنى ، أمر لى بفرس كالقضيب اليابس عَجَفًا (هزالا) وكالعاشق المهجور دَنَفًا (سقمًا). قد أذكر الرواةَ عُرْوة العُذْرِىّ، والمجنون العامرى ... قد حفظ الأشعار ، وروى الأخبار ، ولحق العلماء فى الأمصار . . . وإنما أُتيت من كاتبه الأعور ، الذى إذا اختار لنفسه أطاب وأكثر ، وإن اختار لغيره أخبثَ وأنزر (قلَّلَ)» .

والرسالة سجع خالص ، وكأن من الكتّاب من أخذ يصطنعه منذ أوائل هذا العصر فى بعض الرسائل، فإن لأبى العيناء نفسه رسائل أخرى فى الاستمناح[2] وطلب النوال وفى الشكر[3] ، يكتفى فيها بالعبارة المصقولة والألفاظ المنتخبة المختارة دون أن يعنى بالسجع وترصيفه وتنميقه . ومن الكتاب البلغاء المعاصرين لأبى العيناء وأبى على البصير محمد بن مكرم ، وفيه يقول صاحب الفهرست : «كاتب بليغ مترسل ، وله كتاب رسائل »[4] ، وتدور له فى الكتب مجموعة من الرسائل ، منها رسالة فى الاعتذار لبعض الرؤساء على هذه الشاكلة[5] :

---

(١) زهر الآداب ٢ / ١٦٥ .
(٢) زهر الآداب ١ / ٢٩١ .
(٣) زهر الآداب ٣ / ٩٥ .
(٤) الفهرست ص ١٨٥ .
(٥) عيون الأخبار ٣ / ١٠٥ وزهر الآداب ٣ / ٣٨٢ .

« نَبَتْ بى عنك غِرَّة (غفلة) الحَداثة ، فردَّتنى إليك التجربة ، وباعدتْنى عنك الثقة بالأيام ، فأدنتنى إليك الضرورة ثقةً بإسراعك إلىَّ ، وإن أبطأتُ عنك ، وبقبولك لعذرى وإن قصَّرتُ عن واجبك . وإن كانت ذنوبى قد سَدَّت مسالك الصَّفح عنى ، فراجع فىَّ مجدك وسؤددك . وإنى لا أعرف موقفًا أذلَّ من موقفى ، لولا أن المخاطبة فيه لك ، ولا خُطَّةً أدْنى من خُطَّتى ، لولا أنها فى طلب رضاك » .

والرسالة محكمة ، وكل عبارة كأنما حاكتها أو قل صَبَّتها فى قالبها يَدٌ صَناع وحقًّا لم يُحَلِّ الرسالة بالسجع ، ولكن العبارات كلها كأنها حلى مختارة ، سواء فى اصطفاء الألفاظ ، أو فى توشيتها بألوان البديع ، فالغرة أمام التجربة ، والبعد أمام الدنو ، والسرعة أمام البطء . ثم تتعاقب الاستعارات والصور ، فالذنوب قد سَدَّت بحجاب غليظ دروبَ الصفح ومسالكه ، وهو يتوسل أن يراجع فيه مجده وسؤدده . ثم يأتى التلطف وقبول الذل وكأنه يقبله من حبيب . وله رسالة جيدة فى تعزية سليمان بن وهب عن أخيه الحسن حين لبَّى نداء ربه ، ونكتفى منها بهذه الفقرة[1] :

« إن الرَّمَضَ (حرقة الغيظ) والهلع إنما يكونان للمصيبة الخاصة التى لا تَعْدُو صاحبها ، ولا يجد مُسْعِداً (معينًا) عليها ، ولا شريكًا فيها ، وقد أعانك الله على مصيبتك بالواشِج (المشتبك) رَحِمًا بك والبعيد نسبًا منك ، وجمع فى ثِقْلِ مَحْملها وألم فَجْعها صديقَك وعدوَّك ، وكلٌّ مُكْتَسٍ منها سِرْبال وحشة ، ومنطوٍ على دخيل حزن ، وناظرٌ من أعقابها فى منظر وَعْر ، فجميعهم فيها مشترك ، وأنت بالتعزى حقيقٌ قَمِينٌ » .

والقطعة كالرسالة السابقة ، ألفاظها محكمة ، ويجرى فيها الطباق والتقابل والاستعارات والصور والرَّصْف الدقيق للعبارات ، فالنسج متين ، وعليه ألوان وصور تلفت الأذهان . ومن الكتَّاب البلغاء أحمد بن سليمان بن وهب ، وهو من بيت كتابة ، كان أبوه وعمه الحسن من البلغاء المفوهين ، وله فى الصداقة رسالة كتب بها إلى بعض أصدقائه ، وفيها يقول[2] :

---

(١) جمهرة رسائل العرب ٤ / ٢٤٨ .

(٢) معجم الأدباء ٣ / ٦٢ .

« ليس عن الصديق المخلص والأخ المشارك فى الأحوال كلها مذهب ، ولا وراءه للواثق به مطلب ، والشاعر يقول :

وإذا يُصيبك والحوادث جَمَّةٌ حَدَثٌ حَداك إلى أخيك الأَوْثَقِ

وأنت الأخ الأوثق ، والولىّ المُشْفق ، والصديق الوَصول ، والمشارك فى المكروه والمحبوب ، قد عرَّفنى الله من صدق صَفائك وكرم وفائك ، على الأحوال المتصرّفة ، والأزمنة المتقلبة ، ما يستغرق الشكر ، ويستعبد الحر ، وما من يومٍ يأتى علىّ إلا وثقتى بك تزداد استحكامًا ، واعتمادى عليك يزداد تأكداً والتئامًا ... وأعيذك بالله من العيون الطامحة ، والألسنة القادحة ، وأسأله أن يجعلك فى حِرْزه الذى لا يُرام ، وكَنَفه الذى لا يُضَام ، وأن يحرسك بعينه التى لا تنام ، إنه ذو المَنّ والإنعام » .

واستخدامه للسجع واضح ، وليس سجعًا متكلفًا ، مما يدل على أنه حذق صناعته ، حتى أصبح السجع ينحدر عن لسانه انحداراً سهلا طبيعيًّا ، لاعوج فيه ولا التواء ، ولا تكلف ولا عثرات هنا أو هناك ، بل أسلوب مستو ومتناسق . ومن الشعراء الكتاب الذين نبغوا فى كتابة النثر والشعر أحمد بن أبى طاهر طيفور ، ومرّت بنا ترجمة له بين الشعراء ، ويحتفظ كتابه : « اختيار المنظوم والمنثور » بطائفة من رسائله ، منها رسالة فى شكر على بن يحيى المنجم على بِرٍّ واسع أغدقه عليه ، تمضى على هذا النحو[1] :

« إن أحقّ معروف بأن يُشْكَر ، ويَد بارَّة بأن لا تُكْفَر ، وأحق واجب بأن يؤدَّى ، وإحسان وبِرٌّ بأن يُجَازَى معروفك — أعزَّك الله — عندى ، ويدك قِبَلى ، وحقك علىّ ، وإحسانك إلىّ ، لأن المعروف يحسن عند الأحرار موقعُه ، ويجب عليهم شكره ونَشْره والإشادة بذكره . تتطوَّع مبتدئًا ، وتشفع ما تقدّم معقبًا ، وتُحْسن رَبَّ ما أسْديته متفضلا ، لا أخلاك الله من بِرّ وإحسان ، ولا أخلانا منك فى حال » .

والرسالة فيها سجع قليل ، ولكن له رسائل أخرى يكثر فيها السجع ، وكان

(١) جمهرة رسائل العرب ٤/٣٤٤ .

كثير الهجاء للكُتَّاب ، ويبدو أنه قلما كان أحد يسلم من لسانه ، وممن هجاهم وأقذع فى هجائهم ابن ثوابة وابن مكرم ، ومن قوله فى رسالة كتب بها إلى أبى على البصير يذم له الأخير ويعدد مثالبه[1] :

« المَقْلِيّ المذمَّم ، المهين ابن مكرَّم . . . العاكف على ذنبه ، الصادف عن ربه ، الوضيع فى خلائقه ، العاتى على خالقه . . . عدوُّه آمنٌ من غائلته ، وصديقه خائف من بائقته . . . مَن استخفَّ به أكرمه . ومَنْ وصله صَرَمه (قطعه) . . . يحلف ليحنث ، ويعهد لينكث ، إسناده عن المذمومين ، وبلاغته فى ذم الصالحين ، وطُرَفُهُ قَذْفُ المُحْصَنات ، وسَعْيه فى كسب السيئات » .

ولابن المعتز رسائل إخوانية كثيرة فى التهانى والتعازى والاعتذار والشوق والفراق وفى السؤال عن بعض المرضى والدعاء لهم بالشفاء ، وبكل ذلك احتفظ كتاب الأوراق للصولى فى ترجمته ، كما احتفظ بكثير منه كتاب زهر الآداب ، ويقلُّ السجع فى رسائله الإخوانية ، ولكنه يُعْنَى أشد العناية بصياغة كلامه ، على نحو ما نرى فى الرسالة التالية ، وهى فى تهنئة صديقه عبيد الله بن وهب وزير المعتمد فى يوم عيد[2] :

« أخرتْنى العلة عن الوزير — أعزَّه الله — فحضرتُ بالدعاء فى كتابى لينوب عنى ، ويَعْمُرَ ما أخلته العوائق منى ، وأنا أسأل الله تعالى أن يجعل هذا العيد أعظم الأعياد السالفة بركةً على الوزير ، ودون الأعياد المستقبلة فيما يُحِبُّ ويُحَبُّ له ، ويقبل ما توسَّل به إلى مَرْضاته ، ويضاعف الإحسان إليه على الإحسان منه ، ويمتعه بصحبة النعمة ولباس العافية ، ولا يُريه فى مسرَّة نَقْصًا ، ولا يقطع عنه مَزِيداً ، ويجعلنى من كل سوءٍ فداءه ، ويصرف عيون الغِيَرَ (حوادث الدهر) عنه وعن حَظِّى منه » .

والرسالة أدْعية للوزير الصديق ، وهو يُعْنَى فيها أشد العناية بجزالة العبارة ونصاعتها ، ولكن دون أن يلجأ إلى سجع . ويحتفظ له كتاب الأوراق بفصول كثيرة من بعض رسائله ، فمن ذلك فصل فى الشوق يقول فيه : « إنى لآسف على كل يوم فارغ منك ، وكلِّ لحظة لا تؤنسها رؤيتك ، وسَقْيًا لدهر كان موسِمًا

(١) جمهرة رسائل العرب ٤/٣٥٠ .
(٢) زهر الآداب ١ / ٢٠٧ .

بالاجتماع معك ، معموراً بلقائك ، جمع الله شمل سروري بك ، وعسَّر بقائي بالنظر إليك »[١] . ومن ذلك فصل فى شفاعة : « موصل كتابى فلان ، وقد جعلت الثقة به مطيته إليك ، فلا تُنْضِها (تهزلها) بِمَطْلِكَ ، وأسْرِعْ ردَّها بسابق إنجازك ، وتصديق الأمل فيك والظن بك »[٢] . ولا ريب فى أنه كان يسجع أحيانًا فى بعض فصوله : « قد ملت إليك فما أعتدل ، ونزلتُ بك فما أرتحل ، ووقفت عليك فما أنتقل »[٣] وفى فصل آخر : « تولَّى الله عنى مكافأتك ، وأعان على فعل الخير نيتك ، وأصحب بقاءك عزًّا يبسط يدك لوليك وعلى أعدائك ، وكلاءة (حراسة) تذبُّ عن ودائع مِنَنه عندك ، وزاد فى نعمك وإن عظمتْ ، وبلَّغك آمالك وإن انفسحتْ »[٤] . وله فى وصف الكتاب والقلم[٥] :

« الكتاب والج الأبواب ، جرىء على الحجَّاب ، مُفْهِم لايفهم ، وناطق لا يتكلم ، به يَشْخَصُ (يحضر) المشتاق ، ومنه يُدَاوَى الفراق . والقلم مجهزٌ لجيوش الكلام يخدم الإرادة ، ولا يملّ الاستزادة ، يسكت واقفًا ، وينطق سائراً ، على أرض بياضها مظلم ، وسوادها مضىء ، وكأنه يقبِّل بساط سلطان ، أو يفتح نُوَّار بُسْتان » .

والوصف يكثر فيه السجع ، كما يكثر التصوير ، فقد شخَّص الكتاب وجسَّمه فى صور كثيرة ، وبالمثل صنع بالقلم ، وأخرجه مع الصحف التى يكتبها فى صور بديعة :

وكان الكتَّاب يكثرون من الدعوة للزيارة واقضاء بعض الوقت فى اللهو واسماع الغناء أو للسمر والطعام . وأكثروا من التهانى فى كل مناسبة فى الأعياد وفى الزواج وفى إنجاب الأولاد وفى ختانهم ، وفى الحج وقضاء مناسكه ، وفى وصف الطبيعة شتاء وفى الربيع . . . وقد تعقبنا انتشار السجع فى الرسائل الإخوانية طوال العصر ، لندل على أن ذوقًا عامًّا أخذ يُعْنَى به ، وهى عناية جعلته يعمُّ فى تلك الرسائل مع أواخر القرن الثالث ، بل لقد أخذ يعمُّ — منذ أواسطه — عند أبى على

(١) أشعار أولاد الخلفاء للصولى ص ٢٩٢ .
(٢) الصولى ص ٢٩٠ .
(٣) الصولى ص ٢٩١ .
(٤) الصولى ص ٢٩٤ .
(٥) الصولى ص ٢٩٢ وزهر الآداب ٣٢/٢ .

البصير وأبى العيناء فى بعض رسائلهما . وقد أخذت تنتشر مع ذلك عناية باصطناع الصور البيانية وبعض ألوان البديع على نحو ما لاحظنا فى بعض رسائل ابن مكرم ، وكأن الكاتب لا يريد أن يؤلف كلاماً فحسب ، بل يريد أن يصوغ درراً ، مما هيَّأ لسيادة السجع وسيطرته على جميع الرسائل سياسية وإخوانية منذ عصر المقتدر، بل لقد هيأ ذلك لظهور كتاب الألفاظ الكتابية التى ألف فيها عبدالرحمن ابن عيسى الهمذانى المتوفى سنة ٣٢٠ كتابه الذى وقفنا عنده فى موضع آخر ، وهو يدل بوضوح على أنه أخذت تسود فكرة النموذج فى الكتابة : فى التهانى والتعازى والبشارة والإنذار والاعتذار ، وأيضاً فى كتابة الرسائل الديوانية ، ففى كل ذلك درر من السجع والصور تُحفَظ وتصبح مادة للكتَّاب ، تُعينهم فى كتابة الرسائل ، وكأنما كان صنيع الهمذانى نذيراً بجمود النثر العربى وأن يصبح صيغاً برَّاقة ، تخلب بما فيها من أسجاع قبل أن تخلب بما فيها من معان .

ولم يقف انتشار السجع وشيوعه عند الرسائل الإخوانية والديوانية ، فقد أخذ يشيع فى الرسائل الأدبية الخالصة ، وكان الجاحظ قد أشاع فى تلك الرسائل أسلوب الازدواج المعروف به ، غير أن من تلَوْه فى القرن الثالث الهجرى أخذوا يدخلون عليها السجع ويكثرون منه ، على نحو ما تصوّر ذلك رسالة لابن المعتز كتب بها إلى بعض أصدقائه يصف سامرَّاء ويأسى لخرابها ويذم بغداد وأهلها ، وهى أشبه بمناظرة بين البلدتين : العاصمة القديمة سامرَّاء ، والعاصمة الجديدة بغداد ، وكان قد انتقل إليها المعتمد منذ سنة ٢٧٦ وانتقل معه ابن المعتز . ولعل من الخير أن نسوق أكثر هذه الرسالة الطريفة ، وهى تمضى على هذه الصورة[١] :

« كتبت إليك من بلدة قد أنهض[٢] الدهر سُكَّانها ، فشاهدُ البأس فيها ينطق وحبْل الرَّجاء فيها يقْصر ، فكأن عُمْرانها يُطوَى وكأن خرابها يُنْشَرُ ، وقد وُكلَتْ إلى الهجر نواحيها ، واستُحثَّ باقيها إلى فانيها ، وقد تمزَّقتْ بأهلها الديار ، فما يجب فيها حقٌ جوار ، فالظَّاعن منها ممحوٌ الأثر ، والمقيم بها على طرْف سفر ، نهاره إرجاف ، وسروره أحلام . . . فحالُها تصف

(١) زهر الآداب ١ / ٢٠٧ وجمهرة رسائل العرب ٤ / ٤٠٣ .

(٢) أنهض هنا : بعث على الرحيل .

للعيون الشكوى ، وتشير إلى ذم الدنيا ، بعد ما كانت بالمرأى القريب جنّة الأرض ، وقرار الملك ، تفيض بالجنود أقطارُها ، عليهم أرْديةُ السيوف وغلائل الحديد ، كأن رماحهم قرون الوعول ، ودروعهم زَبد السيول ، على خيل تأكل الأرض بحوافرها ، وتمدّ بالنَّقْع (الغبار) سُرَادقها ، قد نُشِرَتْ فى وجوهها غُرَر كأنها صحائف البرق ، وأمسكها تَحْجيل كأنه أسورة اللجيْن ، وقُرِّطَتْ عُذُراً[1] كالشنوف ، فى جيش يتلقف الأعداء أوائله ، ولم تنهض أواخره ، قد صُبَّ عليه وقار الصبر ، وهبَّت له روائح النصر ، يصرِّفه ملك يملأ العيون جمالا ، والقلوب جلالا ... قبل أن تَخُبَّ (تعدو) مطايا الغِيَر ، وتُسْفِر وجوهُ الحذر ، وما زال الدهر مليئاً بالنوائب ، طارقاً بالعجائب ، يُؤْمِنُ يومه ، ويَغْدُر غَدُه . على أنها — وإن جُفِيَتْ — معشوقة السكنى ، حبيبة المَثْوَى (المنزل) كوكبها يقظان ، وجَوُّها عُرْيان (صحو) وحَصْباؤها جَوْهر ، ونسيمها معطَّر ، وترابها مِسْكٌ أذْفر (ذكيّ) ويومها غداةٌ (لطيف الطقس) وليلها سَحَرٌ ، وطعامها هَنِيءٌ ، وشرابها مَرِيءٌ ، وتاجرها مالك ، وفقيرها فانك (غير محتاج) لا كبغدادكم الوسِخَة السماء ، الوَمِدة (الراكدة) الهواء ، جوها نار ، وأرضها خَبَار (لينة) وحيطانها نزوز (تنز بالماء) وتشرينها (أكتوبر) تَمُّوز (يولية) فكم فى شمسها من محترق ، وفى ظِلها من غَرِق ، ضيقة الدار ، قاسية الجوار ، ساطعة الدخان ، قليلة الضيفان ، أهلها ذئاب ، وكلامهم سِباب ، وسائلهم محروم ، ومالهم مكتوم ، لا يجوز إنفاقه ، ولا يُحَلّ خِناقه (كيسه) وحيطانهم خِصاص (أكواخ) وبيوتهم أقفاص (ضيقة) ولكل مكروه أجل ، وللبقاع دُول ، والدهر يسير بالمقيم ، ويمزج البؤس بالنعيم » .

والسجع زاخر فى الرسالة كما يرى القارئ ، وكأن ابن المعتز أراد أن يجعلها رسالة أدبية خالصة ، فهو يختار لها الأسلوب الذى أخذ يشيع فى عصره أسلوب دُرَر السجع ولآلئه التى أصبحت موضع إعجاب الكتّاب والتى كانت تروقهم إلى أقصى حد ، مما هيأ الأذواق لأن ترفع اللفظ فوق المعنى ، فالمدار على جمال

---

(١) العذر : جمع عذار وهو من اللجام ما سال على خد الفرس. الشنوف : جمع شنف وهو القرط .

الجسد لا جمال الروح ، والعبرة بالشكل لا بالجوهر ، وبالقالب لا بما يحتويه ، وبالبريق الخارجي للمعانى لا بالبريق الداخلى . وعمّ ذلك حتى طغى فى كتابة بعض الأخبار ، وحتى نجد الخليفة القاهر (٣٢٠ — ٣٢٢ هـ) يطلب من بعض أصحاب التاريخ وَصْفَ الخلفاء العباسيين الذين سبقوه ، ويقول له : « لا تغيّب عنى شيئاً ، ولا تحسِّن القصة ولا تسجع فيها »[1] ، فهو لا يريد فى وصفهم إدخال زينة السجع ، حتى لا يجور اللفظ على المعنى . وكأنما أصبح السجع أسلوب الكتابة العامة واطّرد ذلك فى العصر التالى ، وظل آماداً متطاولة .

وابن المعتز لا يكتفى فى هذه الرسالة الأدبية بالسجع ، بل يضيف إلى ذلك ألواناً من البديع ، إذ تطالعنا فيها تَـوًّا الطباقات . فالنهوض أو الرحيل يقابل القعود ، واليأس يقابل الرجاء ، والخراب يقابل العمران ، والنشر يقابل الطىّ ، والباقى يقابل الفانى ، والظاعن يقابل المقيم . وبجانب الطباقات ما اشتهر به فى شعره من كثرة التشبيهات وإيراد الصور الطريفة ، فالخيل تأكل الأرض بحوافرها وتمد من الغبار سرادقاً ضخماً يظل الجيش ، والغرر فى وجوهها كأنها صحائف البرق ، والتَّحْجيل فى سيقانها كأنه الأساور من فضة تحيط بها ، وما سال على خدودها من اللجم كأنه أقراط فى آذانها ، والحصباء جوهر ، والتراب مسك أذفر . وتتوالى الصور والتشبيهات وابن المعتز دائماً يستمد من مخازن لا تنفد ، مخازن تعطيه كل ما يريد من زخارف السجع وزخارف الصور والأخيلة ، وكأنه لم يلبث أن انضم بقوة إلى الرَّكْب ، ركب العناية بالوشى . ويُطِلّ القرن الرابع ، وإذا هذه العناية تصبح هى الذوق العام فى الكتابة الأدبية ، فليس هناك كاتب نابه إلا ويتخذ هذا الأسلوب الفنى الجديد أسلوب السجع وما يُطْوَى فيه من زخارف البديع .

---

(١) مروج الذهب ٤ / ٢٢٢ .

الفصل التاسع

أعلام الكتاب

١

إبراهيم[1] بن العباس بن محمد الصولى

كان جده صول حاكمًا لجُرجان مع أخيه فَيْرُوز ، وكانا تركيين يدينان بالمجوسية ويتشبَّهان بالفرس ، ودخل صُول الإسلام على يد يزيد بن المهلب والى خراسان للحجاج ، وأصبح من خاصَّته ، حتى إذا ثار يزيد على بنى أمية فى مطالع القرن الثانى الهجرى حارب تحت لوائه حتى قُتل معه فى موقعة العَقْر بالقرب من الكوفة . وكان ابنه محمد من رجال الدولة العباسية ودُعاتها ، ونشأ له ابنه العباس فى ظلال تلك الدولة ، ورُزق ولدين : عبد الله وإبراهيم ، وكان عبد الله أكبر سنًّا من أخيه. وقد وُلد إبراهيم سنة ١٧٦ للهجرة ، وقيل بل سنة ١٦٧ ويقول مترجموه إن أمه كانت أخت العباس بن الأحنف الشاعر المشهور ، وكأنه هو وأخاه تأدَّبا عليه فى باكورة حياتهما ، كما تأدبا على ابن عمهما عمرو بن مسعدة الكاتب المشهور فى عصر المأمون. ومن المؤكد أن إبراهيم لزم — على عادة لِداته — حلقات العلماء والشعراء حتى أصبح يُتقن العربية ، وتفتحت موهبته الشعرية مبكرة . وكان أخوه عبد الله سبقه إلى العمل مع ابن عمه عمرو بن مسعدة فى دواوين الفضل بن سهل الملقب بذى الرياستين وزير المأمون ، حين كانا لا يزالان فى مَرْو وقبل تحول المأمون

(١) انظر فى ترجمة إبراهيم بن العباس ورسائله وشعره وأخباره الأغانى (طبع دار الكتب) ١٠ / ٤٣ والفهرست لابن النديم ص ١٨٢ وتاريخ بغداد ٦ / ١١٧ ومعجم الأدباء لياقوت ١ / ١٦٤ ومروج الذهب ٤ / ٢٣ وكتاب الورقة لابن الجراح (طبع دار المعارف) ص ١٣٦ وابن خلكان فى إبراهيم وتاريخ الطبرى فى ترجمة المتوكل وجمهرة رسائل العرب لأحمد زكى صفوت ، وديوانه بتحقيق عبد العزيز الميمنى فى كتاب الطرائف الأدبية طبع لجنة التأليف والترجمة والنشر .

إلى بغداد . ويبدو أن إبراهيم أراد الالتحاق بأخيه وابن عمه وعملهما ، فرحل إليهما ، وتصادف حين وصوله أن كان المأمون قد عهد بالخلافة من بعده إلى على بن موسى الرِّضا . ويمدح إبراهيم ولى العهد الجديد ، ويهبه عشرة آلاف درهم من دراهم كانت ضُربت باسمه ، ويقال إنه احتفظ بها وجعل منها مهور نسائه ، وأبقى بعضها لكفنه فيما بَعْدُ وجهازه إلى قبره[1] . وألحقه الفضل بن سهل بدواوينه ، ومن حينئذ ظلّ يعمل فى الدواوين إلى أن توفى سنة ٢٤٣ وهو على ديوان النفقات والضياع للمتوكل ، ويقول صاحب الفهرست : «كان إليه ديوان الرسائل فى مدة جماعة من الخلفاء»[2] .

وقد ترك الدواوين مدة قصيرة لعهد الواثق جرَّت عليه بلاء عظيما ، ذلك أن ابن الزيات الوزير — وكان صديقًا له — ولاَّه على معونة الأهواز وخراجها ، ثم تنكَّر له ، فوجَّه إليه بمحاسب كبير يسمى أبا الجهم ليكشفه ، فتحامل عليه تحاملا شديداً ، وقال إن أموالا كثيرة لم تُؤَدّ إلى بيت الخراج ، وغضب ابن الزيات ، وأمر بعزله واعتقاله فى ولايته . وكانت محنة كبيرة لإبراهيم لم يَبْلُ فيها صديقه ابن الزيات وحده ، بل بَلاَ فيها كثيراً من الأصدقاء ومن كانوا يظهرون له المودة ، إذ قَلَبَتْ له منهم جماعة ظهر المِجَنّ مثل أحمد بن المدبر ، الذى كان يُوغِر صدر ابن الزيات عليه ويحثه على محاسبة عمَّاله واستخراج الأموال منهم ، مما جعله يزهد فيما بعد فى صحبة الإخوان والرفقاء وكان إذا سُئل فى ذلك قال : « ما مَثَلُ الإخوان إلا كمثل النار قليلُها مقنعٌ وكثيرها محرقٌ أو قليلها متاعٌ وكثيرها بَوَارٌ » . ولعل ذلك ما جعله ينظم أشعاراً كثيرة فى الصداقة والصديق ، كأنما يريد أن يرسم واجباتها ومسئولياتها . ولم يعدم بعض الإخوان الذين كانوا يشفعون له عند ابن الزيات وهوماض فى النكاية به ، وقد كتب إليه شعراً ونثراً كثيراً يستعطفه ، ومن أطرف ما كتب له هذه الرسالة[3] :

« كتبتُ إليك وقد بلغت المُدْية المَحَزّ ، وعَدَت الأيام بك علىّ بعد عَدْوِى بك عليها ، وكان أسوأُ ظنى وأكثرُ خوفى أن تسكن فى وقت حركتها ،

---

(١) الأغانى ١٠ / ٥٢ .

(٢) الفهرست ص ١٨٢ .

(٣) الأغانى ١٠/٥٦ ومعجم الأدباء ١/١٧٠ :

وتكفُّ عند أذاها ، فصرتَ عليّ أضرَّ منها ، وكفَّ الصديق عن نصرتى وبادر إلىّ العدوُّ تقرُّبًا إليك . وكتب تحت ذلك :

أخٌ بينى وبين الدَّهـ ـرِ صاحبَ أيَّنا غَلَبا
صديقى ما استقام فإنْ نَبَا دَهْرٌ علىَّ نَبَا
وَثَبْتُ على الزمان بهِ فعاد به وقد وَثَبَـا
ولو عاد الزمانُ لنـا لعـاد بهِ أخاً حَـدِبَا »

والرسالة توضّح شخصيته الأدبية فهو كاتب شاعر ، ويقول المسعودى : «كان كاتبًا بليغًا وشاعراً مجيداً ، لا يُعلَم فيمن تقدم وتأخر من الكتَّاب أشعر منه»[1]. ويقول ابن الجرَّاح فى كتابه الورقة : « أشعر نظرائه الكتَّاب وأرقهم لساناً ، وأشعاره قصار ثلاثة أبيات ونحوها إلى العشرة ، وهو أنعتُ الناس للزمان وأهله غير مدافع »[2] ويقول أبو الفرج الأصبهانى : «كان يقول الشعر ثم يختاره ، ويُسْقط رَذْله ، ثم يسقط الوسط ، ثم يسقط ما سُبِق إليه ، فلا يدع من القصيدة إلا اليسير ، وربما لم يَدَعْ منها إلا بيتًا أو بيتين »[3]. وشعرُه مقطوعاتٌ حقًّا ، ولكنها مقطوعات تَرْقَى إلى مرتبة رفيعة فى البلاغة ، مَثَلُها مَثَلُ هذه الرسالة القصيرة التى كتب بها لابن الزيات راجيًا أن يخلصه من محنته ، فكل كلمة فيها قد اختارها ذوق أدبى مصفًّى ، وكل عبارة قد أحْكمت ، أحكمتها يد صَناع ، فالمدية قد بلغت المحز كناية عن بلوغ المحنة الحد الأقصى ، والأيام تعدو بابن الزيات عليه بعد أن كان يعدو به عليها ، لقد كان ينتصر به عليها ، فإذا هى تقهره به ، وما أدق قوله له فى رسالة أخرى[4] :

وكنت أعدُّك للنائبات فها أنا أَطلب منك الأَمانا

فناصره أصبح قاهره . ويتوالى الطباق فى الرسالة ، فالسكون يقابل الحركة والكف يقابل المبادرة والصديق يقابل العدو . وظل ابن الزيات لا يعفو عنه ، حتى بلغ منه كل مكروه ، ثم عرف الواثق تحامله عليه وأنه مظلوم فيما نسبه إليه

(١) مروج الذهب ٤ / ٢٣ .
(٢) كتاب الورقة ص ١٣٦ .
(٣) الأغانى ١٠ / ٤٣ .
(٤) الأغانى ١٠/ ٥٧ ومعجم الأدباء ١/ ١٧١ .

أبو الجهم ، فأمر ابن الزيات برد حربته إليه وانتظامه فى حاشيته وبلاطه مصونًا ، فبسط لسانه فى غريمه ونظم فيه أشعاراً كثيرة ذامًّا هاجيًا . وقد يكون ما حدث بينه وبين ابن الزيات هو الذى جعل المتوكل يقرّبه منه منذ أول عهده بالخلافة ، فقد كان بدوره ينقم على ابن الزيات أشياء كثيرة ، فلم يكد يتقلّد الخلافة حتى صادر أمواله ، وعذبه فى تنّور ملىء بمسامير من الحديد حتى مات .

وأصبح إبراهيم بن العباس حظيًّا عند المتوكل ، فقلّده ديوان رسائله ودواوين مختلفة ، وظل حتى وفاته يكتب عن المتوكل كل الكتب التى تصدر عنه ، سواء أكانت منشورات أم عهوداً لأولياء العهد أم فتوحًا أم تهنئات بالأعياد أم تعازىَ باسم الخليفة ، وأحيانًا ينصّ الطبرى أن هذا الكتاب أو ذاك من إنشائه ، وأحيانًا لا ينصّ . ومن أوائل ما كتب له المنشورُ الموجَّه إلى عُمَّاله فى الآفاق بشأن النصارى وأهل الذمة وأخذهم بلبس الطَّيَالِسَةِ والزّنانير ، مما عرضنا له فى غير هذا الموضع ، وهو يستهله على هذه الشاكلة[1] :

« بسم الله الرحمن الرحيم ، أما بعد فإن الله تبارك وتعالى بعزّته التى لا تحاوَل وقدرته على ما يريد ، اصطفى الإسلام ، فرَضِيه لنفسه ، وأكرم به ملائكته ، وبعث به رسُلَه ، وأيّد به أولياءه ، وكنفه بالبِرّ ، وحاطه بالنصر ، وحرسه من العاهة ، وأظهره على الأديان ، مبرَّأ من الشبهات ، معصومًا من الآفات ، محبوًّا بمناقب الخير ، مخصوصًا من الشرائع بأطهرها وأفضلها ، ومن الفرائض بأزكاها وأشرفها ، ومن الأحكام بأعدلها ، ومن الأعمال بأحسنها وأقصدها ، وأكرمَ أهله بما أحلّ لهم مِن حلاله ، وحرّم عليهم من حرامه ، وبيَّن لهم من شرائعه وأحكامه ، وحدّ لهم من حدوده ومناهجه ، وأعدّ لهم من سَعَة جزائه وثوابه ، فقال فى كتابه فيما أمر به ونَهَى عنه ، وفيما حضّ عليه فيه ووعظ : (إن الله يأمرُ بالعدل والإحسان وإيتاء ذى القُرْبَى ويَنْهَى عن الفحشاء والمنكر والبَغْى يعظكم لعلكم تذكّرون) » .

وواضح من هذا الاستهلال للمنشور مدى ما كان يأخذ به إبراهيم بن العباس نفسه من الاحتفال بصناعة الكلام . فهو لا يكتب ما يَرِدُ على ذهنه عَفْواً ،

---

(١) طبرى ٩ / ١٧٢ .

بل هو يفكر فيما يكتب ، ويختار له الألفاظ الجزلة الناصعة مُحدثا بينها ضروبًا من التلاؤم بحيث يبدو كلامه مقطّعًا ، وإن لم يتخذ شكل تقطيع السجع ، وهو بذلك أقرب إلى ذوق أسلوب الازدواج الذى يوازن بين العبارات دون أن يُحيلها سجعًا وتنميقًا خالصين . وكان من أحداث خلافة المتوكل ثورة إسحق بن إسماعيل فى شمالىّ أرمينية وإحراقه لمدينة تفليس سنة ٢٣٨ وقد نازلته جيوش المتوكل ، وهزمته هزيمة ساحقة ، وأُخِذَ أسيراً ، فضُربت عنقه وصُلبت جثته وحُمل رأسه إلى سامرّاء . ولإبراهيم بن العباس رسالة فى هذا الفتح نوّه بها القدماء ، وفيها يقول [1] :

« قسّم الله عدوّه أقسامًا ثلاثة : روحًا معجّلة إلى عذاب الله ، وجُثّة منصوبة لأولياء الله ، ورأسا منقولا إلى دار خلافة الله ، استنزلوه من مَعْقل إلى عقال (أغلال) وبدّلوه آجالا من آمال ، وقديمًا غذّت المعصية أبناءها ، فحلبتْ عليهم من درّها (لبنها) مُرْضعة ، وبسطت لهم من أمانيها مطمعة ، وركبت بهم مخاطرها مُوضِعَةً (مسرعة) حتى إذا وثقوا فأمنوا، وركبوا فاطمأنوا ، وانقضى رَضاع وآن فِطام ، سقتهم سُمًّا ، ففُجِّرت مجارى ألبانها منها دمًا ، وأعقبتهم من حُلْو غذائها مُرًّا ، ونقلتهم من عز إلى ذل ، ومن فرحة إلى تَرْحة ، ومن مسرّة إلى حَسْرَة ، قَتْلاً وأسْراً ، وغلبة وقَسْراً ، وقَلّ مَنْ أوْضع (أسرع) فى الفتنة مُرْهِجًا (مثيراً) واقتحم لهبَها مؤجّجًا ، إلا استَلْحَمَته (تبعته) آخذة بمخنّقه (بحلقه) وموهنةً بالحق كيده حتى جعلته لعاجله جَزَراً ، ولآجله حطبًا ، وللحق موعظة ، وعن الباطل مزجرة ، أولئك لهم خِزْىٌ فى الدنيا ، ولعذابُ الآخرة أكبر ، وما ربك بظلاّم للعبيد » .

وبلاغة الصولى التى اشتهر بها واضحة فى هذه الرسالة ، فهو يُعْنَى بكلامه محمِّلا له معانى غزيرة ، ومُطْرِفًا فيه بكل ما يستطيع من تقسيم على نحو ما صنع أول هذه الفقرة . وهو يضيف إلى ذلك مقابلة بين المعانى تنتهى إلى الطباق ، فقد كان إسحق بن إسماعيل فى معقل فأصبح فى عقال ، وكان فى آمال وحياة رغدة فأصبح فى آجالٍ وموت رهيب . ويضيف إلى ذلك الصور ، فقد أرضعتهم

---

(١) مروج الذهب ٤ / ٢٥ .

المعصية من لبنها وأطمعتهم باسطة لهم فى الأمانى العذاب ، وأسرعت بهم مخاطرها . وكل تلك صور متلاصقة . ثم يسوق عبارة كأنها مثل من الأمثال ، إذ يقول . انقضى رضاع وآن فطام . والكناية واضحة . وعاد إلى التصوير ، وكأنما يريد أن يرسم لوحة ذات خطوط وظلال وأضواء . ويعود إلى الطباق ، فيضع الرضاع مع الفطام والمر مع الحلو والذل مع العز والترحة مع الفرحة والحسرة مع المسرة . ثم يعود ثالثة إلى التصوير ، وكأنما الفتنة جحيم يتأجج باللهب ، وتعمّ حتى لتأخذ بمخنَّق كل شخص ، وحتى تجعله فى دنياه جَزَراً وقطعًا من اللحم تنوشها السباع ، أما فى الآخرة فتجعله حطبًا ووقوداً للنار . ويختم الفقرة بآى من القرآن . والطباق اللون البديعى العقلى الذى كان يروع العباسيين يكثر فيها، كما يكثر التصوير ، وكأن إبراهيم بن العباس يريد أن يثبت إبداعه باستخدام فنون البديع التى كانت تخلب معاصريه ، فهو يبدؤها بالتقسيم ، وهو يشيع فيها الجناس كما يشيع الطباق على نحو ما يتضح فى مثل : معقل وعقال وآجال وآمال ، وفرحة وترحة وأسراً وقسراً وعاجل وآجل . ومضى يوغل فى الموازنة بين عباراته ، وإذا هو لا يكتفى بما قد يحدث فيها من تقطيعات صوتية ، إذ يطلب ازدياداً فى التلاؤم وفى الجرس ، فليس يكفى أن تتقابل العبارات وتتوازن ، بل يحسن أن تلتحم نغماتها وإرناناتها ، فإذا هو يكثر من السجع وترصيفه . واحتفظت كتب الأدب بتحميده لهذه الرسالة ، وهو يمضى فيه على هذا النحو[1] :

« الحمد لله معزّ الحق ومُديله (ناصره) وقامع الباطل ومُزيله ، الطالب فلا يفوته مَن طلب ، والغالب فلا يعجزه مَنْ غلب ، مؤيدِ خليفته وعبده ، وناصرِ أوليائه وحِزْبه ، الذين أقام بهم دعوته ، وأعلى بهم كلمته ، وأظهر بهم دينه ، وأدال بهم حقّه ، وجاهد بهم أعداءه ، وأنار بهم سبيله ، حمداً يتقبّله ويرضاه ، ويوجب أفضل عواقبِ نَصْرِه ، وسوابغ نعمائه » .

والتحميد يحمل نفس الخصائص المبثوثة فى الرسالة ، وفيه اتجاه واضح نحو السجع وأن الكاتب يريد أن يَلَذّ كلامه الأسماع والآذان ، كما يَلَذّ العقول والأذهان ، بملاءماته بين الكلمة والكلمة فى الجرس ، وبما يستخدم من طباقات

---

(١) جمهرة رسائل العرب ٤ / ١٧٤ .

وجناسات وتصويرات مختلفة . ولم تصلنا رسالة الخميس التي كتب بها إلى الولايات المختلفة بتولي المتوكل الخلافة ، ولكن وصلنا التحميد الذي وضعه في صَدْرها على هذا النحو[1] :

« أما بعد فالحمد لله الذي جَلَّت نعمه ، وتظاهرت مِنَنُه ، وتتابعت أياديه ، وعمّ إحسانه ، إله كل شيء وخالقه ، وبارئه ومصوّره ، والكائن قبله ، والباقي بعده ، كما قال في كتابه : (كلُّ شيء هالكٌ إلا وَجْهَه له الحكمُ وإليه تُرْجَعون) العالي في مشيئته والقاهر فوق عباده المتعالي عن شبه خَلْقه : (ليس كمثله شيء وهو السميع البصير) خلق العباد بقدرته ، وهداهم برحمته ، وأوضح لهم السبيلَ إلى معرفته ، بما نَصَب لهم من دلائله ، وأراهم من عِبَره ، وصرّفهم فيه من صنعه ، كما قال جَلّ جلاله : (الذي أحسن كلَّ شيء خَلَقه وبدأ خَلْقَ الإنسان من طين ، ثم جعل نَسْله من سُلالةٍ من ماءٍ مهين ، ثم سَوّاه ونفخ فيه من روحه وجعل لكم السَّمْعَ والأبصارَ والأفئدةَ قليلا ما تشكرون) . وذلك كله مِنْ خلقه إياهم بتمثيله ما مثّل لهم من الدلائل التي نصبها لهم والأعلامِ التي جعلها إزاء قلوبهم وأسماعهم وأبصارهم ، ويسّر لهم خواطرهم وفِكَرَهم ، والهيئة التي هَيَّأها لهم ، ليقع الأمر والنّهي عليهم ، فلا يكلفهم فوق طاقتهم ، ولا يجشمهم ما يَقْصُر عنه وُسْعهم ، نظراً منه تبارك وتعالى إليهم ، ورحمةً بهم ، ليؤمنوا به ويعبدوه ، فيستحقّوا به رحمته ورضوانه والخلودَ في النعيم المقيم والظلِّ المديد والعيش الدائم ، كما قال تعالى ذكره : (إلاَّ مَنْ رَحِمَ رَبُّكَ ولذلك خلقهم). وكان من نَظَره ورأفته بهم أن بعث فيهم أنبياءه ورسله ، يدعونهم إلى طاعته ، ويبينون لهم هُداه ، ويوضّحون لهم سبيله ، ويَهْدونهم إلى رحمته ، ويَعدونهم ثوابه ، وينذرونهم عقابه ، ويَبْسُطون لهم توبته ، ويحذّرونهم سخطه ، ويبينون لهم سُنَنه وشرائعه ، ويكشفون لهم مواعظه ، ويعلّمونهم كتابه وحكمته ، كما قال تبارك وتعالى : (ليَهْلِكَ مَنْ هَلَكَ عَنْ بَيِّنَة ويَحْيا مَنْ حَيَّ عن بيِّنة وإن الله لسميعٌ عليم) وكان من رأفته بهم ونظره لهم أن بعثهم إليهم بالحجج الظاهرة ، والأعلام البَيِّنَة ، والشواهد الناطقة التي أظهر بها صدقهم ، وأقام بها

---

(١) جمهرة رسائل العرب ٤ / ١٧٢ .

برهانهم ، وأوضح بها دليلهم ، وأثابهم عملَ سواهم ليكون أدْعَى لهم إلى تصديقهم والقبول عنهم ، وأوكد للحجة على مَنْ أبى ذلك منهم » .

والتحميد يدور على موضوعين أساسيين هما : نعم الله وآلاؤه على الناس إذ بسط لهم الأسباب فى الهدى والرشاد ، ونعمه أيضاً وآلاؤه إذ أرسل لهم الرسل مبشرين ومنذرين . ونراه فى مستهل تحميده يشير إلى تنزيه الله عن شبه خلقه ، وهو أصل من الأصول الأساسية عند المعتزلة ، فهو منزه عن التحيز فى جوهر وعرض ، لا يدركه حِسٌّ ولا يحيط به خيال ، منزه عن كل شبه بالآدميين فى خَلْقهم وصفاتهم . وليس من الضرورى أن يكون من المعتزلة ، فيكفى أن يكون على صلة بمباحثهم ، وهو ما نريد إثباته ، فالتحميد كله كأنما كتبه اعتزالى كبير إذ كانوا يتكلمون كثيراً عن تنزيه الله فى صفاته وذاته وإبداعه للكون والإنسان بما يشهد بعظمته وقدرته . وكانوا يستمدون ذلك كله من القرآن وما دعا إليه من التأمل فى النظام الكونى وما بثَّ الله فيه من آيات تدل على وحدانيته وقدرته الباهرة . ويصوّر القرآن كما فى آيات خلق الإنسان التى اقتبسها الصولى كيف أنشأ الله الخلق إنشاء بديعاً وكيف أودع فيهم من ملكات السمع والبصر والأفئدة ما يحقق لهم جميع حاجاتهم وكمالاتهم ، وإنه لحرى بهم أن يستغلوا هذه الملكات ليستقر فى نفوسهم الإيمان بالكائن الأعلى . ويبثّ الصولى هذه الفكرة فى الشطر الأول من تحميده . ويخرج منها إلى الفكرة التى طالما كررها المعتزلة فكرة أنه كان من رحمة الله بالناس أن أرسل إليهم الرسل ليهدوهم إلى طريق الحق والخير ، إذ لم يخلقهم عبثاً ولا دون غاية سامية ، فقد خلقهم ليتّبعوا هداه ، وليقع الأمر والنهى عليهم ، فكان لا بد لهم من رسل يوضحون لهم سبل الهُدى ، حتى يعرفوا العمل الصالح وما ينتظرهم فى الآخرة من ثواب وعقاب ، مبينين لهم السنن والشرائع التى تكفل لهم السعادة فى الدارين ، وكيف أن من يجور عن الطريق يحق عليه العذاب إلا من تاب وأناب فإن الله غفور رحيم . وقد صاغ إبراهيم بن العباس هذه المعانى فى ألفاظ جزلة رصينة ، يجرى فيها التقطيع الصوتى الذى ذكرناه آنفاً ، وإن لم يبلغ مداه فى الرسالة السابقة ، إذ لم يتحول به إلى إرنانات السجع التى شاعت فيها ، وكأنما كان مشغولا هنا عن السجع بالمعانى التى أثارها فى تحميده والتى جعلته يتمثل ببعض

آى الذكر الحكيم. وبالمثل كان مشغولاً عن الجناسات والطباقات والصور إلا ماجاء فى النادر وعفو الخاطر . ومن تحميداته فى أحد الفتوح [(١)] :

« الحمد لله الغالب ذى القدرة ، والقاهر ذى العِزَّة ، الذى لم يقابل بالحق باطلاً فى موطن من مواطن التحاكم بين عباده إلا جعل أولياء الحق منهم حِزْبه وجُنْده ، وجعل الباطل بهم فَلاًّ (هزيمًا) منكوبًا ، ودَحِيضًا (باطلا) زَهوقًا إن نهض به أولياؤه كانت مراصد عواقبه مفرِّقةً ماجُمِعَ ، ومبتِّرةً (مستأصلة) ما أُعِدَّ ، وقائدة بأشياعه إلى مَصْرَع الظالمين ، حتى يكون الحق الطالبَ الأعزَّ والباطلُ المطلوبَ الأذلَّ ، وأولياء الحق الأعْلَيْن يَداً وأيْداً (قوة) وأشياعُ الضلال الأخْسَرين أعمالاً وكيداً ، قضاءُ الله وسنته ، وعادة الله وإرادته ، فى الفئة المنصورة أن تَعِزَّ فلا تُرَام ، وأن يمكِّن لها فى الأرض كما مكَّن للذين من قبلها ، وفى الفِئَةِ الناكبة عنه أن تذلَّ ، فتكونَ كلمتُها السفلى وكلمةُ الله هى العليا والله عزيز حكيم » .

ونحسُّ قدرته على اصطفاء الكلمات فى هذا التحميد ، ولا نصل إلى قوله : « وجعل الباطل بهم فَلاًّ منكوبا ودَحيضا زهوقا » ، حتى يتجسَّد لنا هذا الاصطفاء وأن الكاتب يُعْنَى بالموازنة الدقيقة بين العبارات. ويتضح لنا ذلك أكثر حين نصل إلى قوله : « يكون الحقُّ الطالبَ الأعزَّ ، والباطلُ المطلوبَ الأذلَّ ، وأولياءُ الحق الأعْلَيْن يداً وأيْداً ، وأشياع الضلال الأخْسَرين أعمالا وكيداً » وكأن العبارات توضع فى صفوف لا فى سطور ، لتأخذ كل كلمة بيد أختها ، وكأننا فى مرقص للكلمات تتشابك فيه أيديها ، فكل كلمة توشك أن تُمْسك بيد أختها فى العبارة التالية لعبارتها . فكلمة الحق تتلاقى مع كلمة الباطل ، وتتلاقى كلمة الطالب مع كلمة المطلوب وكلمة الأعز مع كلمة الأذل . وبالمثل تتلاقى فى العبارتين التاليتين كلمة الحق وكلمة الضلال وكلمة الأعلين يداً وكلمة الأخسرين أعمالا . فالكلمات فى العبارات تتجاذب تجاذبًا شديداً ، فى الصوت والجرس والأداء وفى المعانى المتقابلة المتناقضة ، فقد عمّ فيها الطباق وكأنما أحدث بكثرته بينها نوعًا من صلة القُرْبى ووشائج الرحم . وانظر كيف وضع إبراهيم بن العباس كلمة « يداً »

(١) جمهرة رسائل العرب ٤ / ١٧٦ .

بجانب كلمة «أيْداً» طلباً للتلاؤم فى الجرس الذى قد يخفى أحيانًا، وأحيانًا يتضح وضوح الشمس فى كبد السماء. وفى ذلك ما يدل بوضوح على مدى إحكامه لصنعة الكتابة وقدرته على اختيار اللفظ وانتخابه بحيث يروق اللسان والجنان. ويُنَشِّى الرسالة باقتباس من القرآن الكريم، ويكثر عنده اصطناعه لبعض ألفاظه المونقة كقوله فى هذا التحميد: «الأخسرين أعمالا». ودائمًا نحس عنده القدرة على استخدام العبارة المُطْنبة والأخرى المجملة الموجزة، حتى لكأنما يصوغ أمثالا كما أشرنا إلى ذلك آنفًا. ومن خير ما يصوّر ذلك عنده رسالة كتب بها لسنة ٢٤٠ عن المتوكل إلى أهل حمص حين ثاروا على عامل المعونة وقتلوا جماعة من أصحابه وأخرجوا صاحب الخراج من مدينتهم، والرسالة تمضى على هذا النمط [1]:

«أما بعد فإن أمير المؤمنين يرى من حق الله عليه، مما قوَّم به من أَوَدٍ (عِوَجٍ) وعَدَّل به من زَيْغٍ، ولمّ به من منتشر، استعمالَ ثلاثٍ، يقدّمُ بعضهن على بعض، أولاهنَّ ما يتقدّم به من تنبيه وتوقيف، ثم ما يستظهر به من تحذير وتخويف، ثم التى لا يقع حَسْمُ الداء بغيرها:

أناةٌ فإنْ لم تُغْنِ عَقّبَ بعدها   وعيدًا فإنْ لم يُغْنِ أغْنَتْ عَزائِمهُ»

وقرأ إبراهيم بن العباس الرسالة على المتوكل فملأت نفسه إعجابًا، وأوأ إلى وزيره عبيد الله بن يحيى بن خاقان — وكان حاضراً — أما تسمع؟ فقال: يا أمير المؤمنين إن إبراهيم فضيلةٌ خبأها الله لك، وذخيرة ذَخَرها على دولتك. ويقال إن البيت فى هذه الرسالة أول شعر نفذ فى كتاب عن الخلفاء العباسيين. والمتوكل إنما أُعجب بالرسالة لأن إبراهيم أدّى الغرض الذى كانت تُكْتَبُ فيه الرسائل الطويلة بأوجز عبارة دون أى تقصير ودون أى إخلال، بل مع الوفاء به إلى أبعد حد. وكأننا لا نقرأ صيغًا متعاقبة فى رسالة، وإنما نقرأ حكمًا وأمثالا، لدقة المعانى ودقة أدائها وصياغتها، وقد أجرى فيها ضروبًا من التقطيعات الصوتية، وإذ لم تأخذ الصورة النهائية على نحو ما يتضح فى أوائلها، ولم يلبث أن أضاف فيها سجعة طريفة، كما أضاف صورة بديعة إذ عبّر عن الحرب بحسم الداء. والكتاب بحق

(١) معجم الأدباء ١ / ١٨٧.

يصور مراناً طويلا على استخدام الكلام ووَضْعه فى مواضعه ، بل قل إنه يصوِّر خبرة طويلة امتدت عشرات السنين . ومن طراز هذه الرسالة رسالة أكثر منها قِصَراً كتب بها فى شفاعة إلى أحد أصدقائه يزكِّى رجلا يستحق العناية به[1] :

« فلانٌ ممن يزكو (ينمو) شكره ، ويحسن ذكره ، ويَعْنينى أمره ، والصنيعة عنده واقعةٌ موقعها ، وسالكةٌ طريقها :

وأَفضلُ ما يأْتيه ذو الدِّين والحِجَى إصابَةُ شكرٍ لم يَضِعْ معه أَجْرُ »

والرسالة موجزة ولكنها تؤدِّى الغرض منها أداء واضحًا ، وقد استخدم فيها إبراهيم بن العباس السجع ، وبلغ من شدة تدقيقه فى المعنى أن أخرج البيت الذى ضَمَّنه الرسالة مخرج الأمثال . وكان كُتَّاب الرسائل يكتبون فى عيدى الفطر والأضحى رسائل إلى الرعية يبشرونهم فيها بسلامة الخلفاء ، وقد يوجهونها إلى حكام الولايات ليحمدوا الله على سلامة الخليفة ويذكِّروهم واجبهم ، من ذلك قوله فى رسالة[2] :

« أما بعد فإن لكل فرعٍ أصلا ، عنه مَوْردُه ومُسْتَنْبَطُه ، وإليه مَرْجعه ومَوْئِلُه ، ومتى رُجع من أُصول الأمور إلى تأثلها (تأصُّلها) وتمكُّنها ، رُجِعَ من فروعها إلى استتبابها واستقامتها . وأفضل ماتدبِّره أمورُ دين الله وخلافته ، وحقوقُ الله وعباده . فكان الأصلُ وزكاؤه (نماؤه) ما جمع بإذن الله سكون الدَّهْماء (العامة) وصلاح البَيْضَة (الولاية) وأَمْن السِّرْب (الجماعة) وتظاهُرَ النِّعم فيما قَرُبَ وبَعُدَ ، ودنا ونأى ... فافْعَلْ ذاك مُعانًا على أمرك » .

والترادف والازدواج واضحان فى السطور الأولى من الرسالة ، فمورده يليها مستنبطه بنفس المعنى ، وبالمثل مرجعه تليها موئله ، وتأثلها يليها تمكنها ، واستتبابها يليها استقامتها . وفى ذلك حرص واضح على إرضاء الأذن ، وفى كلامه عن الأصول والفروع ما قد يشير إلى أنه كان مثقفًا ثقافة فقهية ، وقد جمع الأصول الدالة على حسن الحكم وتدبيره فى أربعة : سكون الناس دون إحداث أى فتن أو ثغرات مما يدل على رضاهم عن حاكمهم ، وصلاح الولاية فى شئونها السياسية والاقتصادية

(١) الأغانى ١٠ / ٥٣ ومعجم الأدباء ١ /١٧٨ .	(٢) جمهرة رسائل العرب ٤ / ١٨٩ .

والإدارية ، وأمن الناس على نفوسهم ، وظهور النعم عليهم وأنهم لا يُعانون البؤس والضنك فى الحياة . ويكتب باسم المتوكل وأبنائه تعزيات مختلفة، من ذلك تعزية باسمه إلى طاهر بن عبدالله واليه على خراسان ، وفيها يقول[1] :

« أما بعد فإن أحقَّ مَنْ أرضى الله فى نعمته بشكره وفى مصائبه بالتسليم له ، مَنْ فَهِمَ ما فى شكر النعم من استدعاء تمامها ، وما فى التذلل للمقادير من استحقاق رضوانه ، وقد جعل الله محلَّك من الحالتين جميعًا محل المتقدم بنيَّته ومعرفته . والله يُمتِّع أمير المؤمنين فيك بصالح قَسْمه فيمن مضى ، والجارىَ على من بَقِىَ ويبقى ، حتى يؤدِّىَ الفناءُ الذى لا بقاء معه إلى البقاء الذى لا فناء بعده . وأمير المؤمنين يعظك بالله ، وهو أحق مَن وعظ به ، ويُرْشدك من إيثار الله لما نَدَبك له منه . . . فقدِّمْ حق الله عليك بطاعتك له فيما أمرك به ، واتَّقِ الله فى مواقع أقداره بك ، تَقْتَضِ بذلك من ثواب الله أفضلَ عِوَض الصالحين » .

والرسالة تحمل طائفة من دقائق المعانى ، فواجب الإنسان إزاء ربه شكره على نعمه واستسلامه لما يُنزل به قضاؤه فإنه بذلك يستحق رضوانه. والله يمتع أمير المؤمنين به حتى يطوف به طائف الفناء الذى لا بقاء معه ، والذى ينتقل به إلى البقاء الذى لا فناء بعده . ويقول له : قدِّم حق الله عليك بالطاعة له والرضا بقدره ، وبذلك تستحق ثوابه، هو خير عوض للراضين المقرَّبين . وفى كتب الأدب قطع مختارة لإبراهيم ابن العباس تزخر بالسجع ، ويبدو أنه كان يستخدمه أحيانًا فى جوانب من رسائله مُسْهبًا فيه ، على نحو ما نرى فى القطعة التالية التى احتفظ بها ياقوت فى معجم الأدباء إذ يقول[2] :

« ووجَد أعداءُ الله زُخْرُفَ باطلهم ، وتمويهَ كذبهم سَرَابًا بِقِيعَة (يحسبه الظمآن ماء حتى إذا جاءه لم يجده شيئًا) وكوَميض بَرْقٍ عَرَض فأسرع ، ولمع فأطمع ، حتى إذا انحسرت (انكشفت) مغاربه ، وتشعَّبت مولِّيةً مذاهبه ، وأيقن راجيه وطالبه ، أنْ لا مَلاذ ولا وَزَر ، ولا مَوْرِدَ ولا صَدَر (صدور) ولا من الحرب مفرّ ، هنالك ظهرت عواقبُ الحق منجيةً ، وخواتم الباطل مُرْدِيةً ،

(١) جمهرة رسائل العرب ص ١٨٢ .
(٢) معجم الأدباء ١/ ١٩٠ .

سنَّةُ الله فيما أزاله وأداله (هزمه) (ولن تجد لسنَّة الله تبديلا) ولا عن قضائه تحويلا».

والقطعة سجع خالص، وتحمل اقتباسات من آى القرآن، وكلماتها منتخبة انتخبها ذوق مرهف، وتجرى فيها الخصائص التى ذكرنا لإبراهيم بن العباس، ففيها الازدواج والتكرار فى مثل: «زخرف باطلهم وتمويه كذبهم»، ومثل «أزاله وأداله»، وفى الكلمة الأخيرة جناس ناقص. وتلقانا بعض طباقات مثل: «ولا مورد ولا صدر» ومثل «عواقب الحق وخواتم الباطل» ونعثر على بعض صور مثل زخرف الباطل وتمويه الكذب ومثل تشبيه زخرف الباطل بالسراب. وكأنه كان فى نثره مثل شعره وما وصفه به أبو الفرج، كما مر بنا، يكتب ثم يختار، وما يزال يُصْلح ويُسْقِط حتى تخرج الرسالة نخبة من الصياغات الأدبية الطريفة. وله توقيعات بديعة تدور فى الكتب الأدبية، فمن ذلك أن بعض الكتاب كتب إليه يذم شخصاً ويمدح آخر، فوقَّع فى الرسالة[1]:

«إذا كان للمحسن من الجزاء ما يُقْنعه، وللمسىء من النكال ما يَقْمعه، بذل المحسن الواجبَ على رَغْبة، وانقاد المسىءُ للحق رهبة».

والسجع واضح فى التوقيع، ولكن المهم طرافة التقسيم. ويقول المسعودى: «ولإبراهيم بن العباس مكاتبات قد دونت، وفصول حسان من كلامه قد جمعت». ويَرْوى عنه أنه كان يقول: «مثل أصحاب السلطان مثل قوم علوا جبلا ثم وقعوا منه، فكان أقربهم إلى التلف أبعدهم فى الارتقاء»[2]. ويذكر ياقوت له ديوان شعر وديوان رسائل، وفى الحق أنه كان كاتباً بليغاً بلاغة رائعة.

(١) جمهرة رسائل العرب ٤ / ٤٦١.

(٢) مروج الذهب ٤ / ٢٦.

٢

الجاحظ (١)

اشتهر بلقبه الدال على نتوء حدقتيه وجحوظهما ، واسمه أبو عثمان عمرو بن بحر . وقيل إنه من كنانة ، وقيل بل هو كنانى ولاء وإن جده فزارة كان عبداً أسود جمالا لعمرو بن قلع الكنانى . واختلف فى السنة التى وُلد فيها ، على حين اتفق الرواة على أنه توفى سنة ٢٥٥ للهجرة ، والمظنون أنه وُلد فى العقد السادس من القرن الثانى للهجرة ، وكأنه عاش ما يقرب من مائة سنة ، ويروى عنه أنه قال فى أواخر حياته يشكو من الفالج (الشلل) والنقرس (الروماتزم) : « أنا فى هذه العلل المتناقضة التى يتخوف من بعضها التلف ، وأعظمها ست وتسعون سنة »(٢) . وليس بين أيدينا شىء واضح عن نشأته إلا أنه نشأ بالبصرة مسقط رأسه ، وفى مطالع الجزء الثانى من كتابه « الحيوان » ما يشير إلى أنه كان يختلف إلى بعض الكتاتيب مع لِداته من الصِّبْيَة ، وكانوا يتعلمون فيها القراءة وشيئاً من النحو والفقه والحساب ، ويحفظون بعض القرآن وبعض الأشعار ، حتى إذا شبَّ عن الطوق مضى إلى المساجد يستمع إلى محاضرات العلماء فيها ، وكانوا يحاضرون فى كل فن ، وكانت أشبه بجامعات مفتوحة الأبواب لكل من أراد الدرس . وقد أخذ يلتهم كل ما يسمعه فيها من فقه وعلوم شريعة ومن نحو وعلوم لغة ومن مناقشات ومحاورات بين المتكلمين من كل الفرق . وكان يختلف إلى المِرْبد يأخذ عن فصحاء العرب اللغة وبعض ما ينشدونه من الأشعار ، وكان المِرْبَدُ سوقاً تجارية وأدبية كبيرة منذ

---

(١) انظر فى الجاحظ وحياته وأخباره وثقافته الفهرست ص ١٧٥ وتاريخ بغداد ١٢ / ٢١٢ ومروج الذهب ٤/ ١٠٩ ومعجم الأدباء ١٦ / ٧٤ ونزهة الألباء لابن الأنبارى وابن خلكان فى عمرو ومرآة الجنان لليافعى ٢ / ١٥٦ وأمالى المرتضى ١ / ١٩٤ ولسان الميزان ٤/ ٣٥٥ والأنساب الورقة ١١٨ وميزان الاعتدال ٣/ ٢٤٧ وضحى الإسلام لأحمد أمين ١/ ٣٨٦ وكتابنا الفن ومذاهبه فى النثر العربى ص ١٥٤ والجاحظ لطه الحاجرى (طبع دار المعارف) والجاحظ لشارل بلات (طبع دار اليقظة العربية للتأليف والترجمة والنشر) .

(٢) تاريخ بغداد ١٢ /٢١٩ ومعجم الأدباء ١٦/ ١١٣ .

العصر الأموى . وفى أخباره أنه كان يبيع الخبز والسمك بسيحان[١] أحد نهيرات البصرة ، وقد يشير ذلك إلى أن نشأته كانت بسيطة ، وأنه كان فى حاجة إلى أن يكتسب معاشه . ويُرْوَى أن أمه ضاقت بانهماكه فى الدرس والقراءة ، فطلب منها يوماً طعاماً ، فجاءته بطبق ملىء بكراريس أوْدَعها البيت ، وقالت له : ليس عندى من طعام سوى هذه الكراريس ، تريد أن تنبهه إلى التكسب . فذهب إلى الجامع مغتماً ، ولقيه مُوَيْس بن عمران أحد رفاقه الأثرياء فى الدرس ، فسأله ما شأنك ؟ فحدَّثه بحديث أمه ، فأخذه إلى منزله وأعطاه خمسين ديناراً ، فأخذها فرحاً ، ودخل السوق ، واشترى الدقيق وحمله الحمَّالون إلى داره ، وسألته أمه من أين لك هذا ؟ فقال لها من الكراريس التى قَدَّمْتِها إلىَّ[٢] . وكأن مُوَيْس بن عمران كان رمزاً مبكراً لما سيصيبه من أموال وعطايا من الخلفاء والوزراء .

ولم تقف ساحات تثقفه عند المسجد والمِرْبَد وما كان يأخذه عن جِلَّة العلماء أمثال الأصمعى وأبى زيد والأخفش وأبى عبيدة أصحاب اللغة والأخبار ولا عند أبى الهذيل العلاف وبشر بن المعتمر وثمامة بن أشرس والنظَّام من المعتزلة ، ولا عند كبار الفقهاء والمحدِّثين فى عصره ، بل امتدت إلى كل فروع الثقافة ، عن طريق المكتبات ، وكان الكتاب بمجرد أن يؤلَّف أو يترجم فى البصرة أو فى بغداد تتكاثر نسخه فى أيدى الورَّاقين أصحاب المكتبات ودكاكين الكتب . ومعروف أن البصرة كانت دار الترجمة قبل نشوء بغداد وفيها ترجم ابن المقفع كليلة ودمنة وكتب الآداب الفارسية ومنطق أرسطاليس ، وبهذه الثقافة العلمية التى حققتها لنفسها مبكرة استطاعت أن تضع علم النحو وقوانينه النهائية ، كما استطاعت أن تظفر بالمعتزلة أصحاب الفكر الحر فى الدراسات الدينية ، وصلة المعتزلة بالفلسفة مقرَّرة معروفة ، ولذلك يكون من الخطأ أن يزعم زاعم أن الجاحظ لم يقرأ الترجمات اليونانية إلا فى بغداد[٣] بعد أن تجاوز الأربعين من عمره ، حين دخلها وأقام فيها لعهد المأمون ، فقد كانت تحت بصره فى دكاكين

---

(١) معجم الأدباء ١٦ / ٧٤ .

(٢) المعتزلة لابن المرتضى ص ٣٨٠ .

(٣) الجاحظ لشارل بلات ص ١١٥ وفى مواضع متفرقة .

الوراقين ، ولم يكن يكتفى بقراءة كتاب أو كتب فى اليوم الواحد ، إذ يذكر صاحب الفهرست أنه كان يكترى دكاكين الورّاقين ويبيت فيها للقراءة والنظر[1]. ويقول أبو هِفَّان : « لم أرقط ولا سمعت من أحبّ الكتب والعلوم أكثر من الجاحظ ، فإنه لم يقع بيده كتاب قط إلا استوفى قراءته كائنا ما كان »[2]. وكان أشبه بآلة مصورة فليس هناك شىء يقرؤه إلا ويرتسم فى ذهنه ، ويظل فى ذاكرته آماداً متطاولة . ومن أكبر الدلالة على شغفه بالقراءة والكتب المقدّمة الطويلة التى وضعها بين يدى كتابه الحيوان ، وهى نحو مائة صفحة فى تمجيد الكتب ، وقد ضمنها فهرست كتبه الكثيرة التى صنَّفها قبل الحيوان .

وكان من أهم ما شُغف به الاعتزال ، وقد مضى يلزم أساتذته فى عصره ، ويستوعب كل ما كان عندهم ، بادئًا بأبى الهذيل العلاّف ، وكلما اشتهر معتزلى لزم حلقته ، وكان من أهم من لزمهم النظام[3] ، وكان لا يبارَى فى المناظرة وإفحام الخصوم بالبراهين والأدلة القاطعة ، فتلقَّن ذلك عنه ، وسنراه يطبقه فى كل جانب من جوانب كتاباته الكثيرة ، وفيه يقول : « لولا مكان المتكلمين لهلكت العوام من جميع الأمم ، ولولا مكان المعتزلة لهلكت العوام من جميع النِّحَل ، وأقول لولا أصحاب إبراهيم ، وإبراهيم (النظام) لهلكت العوام من المعتزلة فإنى أقول إنه قد أنهج لهم سُبُلاً وفتق لهم أموراً واختصر لهم أبوابًا ظهرت فيها المنفعة وشملتهم بها النعمة »[4] وكان النظام يمزج بقوة بين الاعتزال والفلسفة ، وكأنه هو الذى دفع الجاحظ دفعًا للتزود من جداولها بكل ما استطاع . ويبدو أنه هو الذى غرس فى نفسه فكرة الثقافة الموسوعية فإن ما رواه عنه فى كتابه « الحيوان » يدل على أنه كان مستوعبًا لكل الثقافات فى عصره من فارسية وهندية وعربية وإسلامية . وهداه طول تفكيره فى آراء أستاذه الاعتزالية وغيره من المعتزلة إلى أن يعتنق مجموعة من الآراء كوّنت له فرقة سميت بالجاحظية نسبة إليه ، ويعرض الخياط المعتزلى فى كتابه الانتصار طائفة من هذه الآراء ، ويشيد بكتابه فضيلة المعتزلة طويلا[5]. ولا نعرف متى بدأ الجاحظ كتاباته

(١) الفهرست ص ١٧٥ .

(٢) معجم الأدباء ١٦ / ٧٥ .

(٣) معجم الأدباء ١٦ / ٧٥ .

(٤) الحيوان ٤ / ٢٠٦ .

(٥) الانتصار ص ١٠٣ وانظر فى آراء الجاحظ فهرس هذا الكتاب والفرق بين الفرق للبغدادى ص ١٧٥ .

ويبدو أنه كان يَلْقَى كثيراً من الإهمال فى أول أمره ، حتى كان يُضْطر حين يؤلف كتاباً أو رسالة أن ينسب عمله إلى بعض الكتاب القدماء النابهين أمثال ابن المقفع أو الخليل أو العَتَّابِىّ أو سَلْم صاحب بيت الحكمة ، حينئذ كان الكتاب يروج ، ويأتى الناس لروايته[1] عنه . وكان زملاؤه وأساتذته من المعتزلة يعرفون فضله ، وفى مقدمتهم بشر بن المعتمر وثُمامة بن أشرس ، حتى إذا شُغل المأمون بعقيدة الإمامة ومستحقيها من العباسيين أو الشيعة بعد رجوعه من مَرْو إلى بغداد أشار عليه ثُمامة بأن يطلب إلى الجاحظ الكتابة فى هذا الموضوع ، وكتب الجاحظ وأعجب المأمون إعجاباً لا حَدّ له بما كتب[2] ، وكان ذلك فاتحة عهد جديد للجاحظ ، لا لأنه تحول من البصرة إلى بغداد ، ولكن لأنه أصبح كاتباً رسمياً للدولة ، ونظن ظنًّا أنه أصبح له راتب منذ هذا التاريخ ، ويقال إن المأمون حاول أن يقلده ديوان الرسائل ، ولكنه لم يستطع المقام به سوى ثلاثة أيام[3] ، عاد بعدها إلى صناعته من التأليف والكتابة الأدبية ، مكتفيا — فيما يبدو — براتبه . وربما كان قبحه الذى عُرف به هو السبب الحقيقى فى أنه وجد وظيفة ديوان الرسائل لاتلائمه . وفى بغداد طاب له المقام وأخذ يتعرف على بيئاتها الأدبية والعلمية فى النوادى والمساجد وحلقات الدرس والمناظرة . وتتحول الخلافة إلى سامرَّاء فى عهد المعتصم ، ويتحوَّل معها الجاحظ ، ويتخذ سامرَّاء دار مُقام له وتتوثق الصلة بينه وبين وزير المعتصم ابن الزيات الكاتب الشاعر المشهور ، وفيها يتعرَّف على كثير من الأدباء ، وخاصة أصحاب الفكاهات والنوادر من أمثال أبى العَيْناء والجَمَّاز وغيرهما من المضحكين ندماء الخلفاء ، وجعلته صلته بابن الزيات يقف فى صفه ضد خصمه أحمد بن أبى دؤاد قاضى القضاة ، ولا يلبث المعتصم أن يتوفَّى ويتبعه ابنه الواثق وتصير الخلافة إلى المتوكل ، وكان يَضْطَغِنُ على ابن الزيات أموراً كثيرة مما جعله يقبض عليه ويعذّبه فى تَنُّور محمىّ بالنار حتى يموت. ويقرّب المتوكل فى هذه الأثناء ابن أبى دؤاد، ويُرْسل فى طلب الجاحظ ، ويأتونه به مقيَّداً ، ويأخذ فى تعنيفه ، ويقول له الجاحظ :

---

(١) مجموعة رسائل الجاحظ (طبع لجنة التأليف والترجمة والنشر) ص ١٠٨.

(٢) البيان والتبيين ٣ / ٢٢٣ .

(٣) معجم الأدباء ١٦ / ٧٨ .

« خفِّض عليك — أيدك الله — فوالله لأن يكون لك الأمر علىَّ خيرٌ من أن يكون لى عليك ، ولأن أسىءَ وتحسن أحسَنُ من أن أحسن فتسىءَ ، وأن تعفو عنى فى حال قدرتك أجملُ من الانتقام منى » . وعفا عنه ابن أبى دؤاد[1] . ولا نلبث أن نرى الفتح بن خاقان وزير المتوكل شغوفاً به وبمجالسته ونراه يكتب إليه بأمر من المتوكل أن يصنف رسالة فى الرد على النصارى[2] ، ويغلب أن يكون هذا التكليف فى سنة ٢٣٥ ، وهى السنة التى أخذ فيها المتوكل النصارى وأهل الذمة بلبس الطيالس كما مرَّ بنا فى غير هذا الموضع . وكأن مهمته كاتباً رسمياً للدولة ظلت قائمة منذ مطالع القرن الثالث الهجرى حتى هذا العام . ولا بد أن الدولة كانت تكفيه عيشه كما كانت تكفى كثيرين من العلماء والشعراء ، وكان حين يُهْدى الوزراء والقُوَّاد وكبار الكتَّاب بعض كتبه يُهْدونه بعض أموالهم ، فقد أهداه ابن الزيات خمسة آلاف دينار على كتابه الحيوان حين قدَّمه إليه ، وبالمثل صنع ابن أبى دؤاد حين أهدى إليه كتاب البيان والتبيين وإبراهيم بن العباس الصولى حين أهدى إليه كتاب الزرع والنخيل . وكان قليل من المال يسدُّ حاجته ، إذ لم يتزوج ولم يرزق الأولاد ، إنما هو وجاريتان ، وهذا كل ماهناك . ويظهر أن مرض الفالج (الشلل) ألمَّ به مبكراً ولكنه لم يُقْعده عن الحركة ولا عن الكتابة ، فقد ألَّف كتاب الحيوان الذى قدَّمه لابن الزيات المتوفى سنة ٢٣٣ للهجرة وهو مفلوج[3] ، وبالمثل البيان والتبيين والزرع والنخيل وكثير من رسائله الأدبية . وأصابه النقْرس وطال به العُمر ، وإذا صح أنه صحب الفتح بن خاقان فى زيارته لدمشق سنة ٢٤٣ فإنه يكون قد ظل محتفظاً بقواه على الأقل حتى هذا التاريخ . وحين اشتد به المرض عاد إلى البصرة وأمضى بها بقية حياته . ويقول المبرد : « دخلت على الجاحظ فى آخر أيامه . فقلت له : كيف أنت ؟ فقال : كيف يكون مَنْ نصفه مفلوج لو حُزَّ بالمناشير ما شعَر به ، ونصفه الآخر منقرسٌ لو طار الذباب بقربه لآلمه » . ووجَّه إليه المتوكل فى سنة ٢٤٧ شخصاً يحمله إليه ، فقال : « وما يصنع أمير المؤمنين بامرئٍ ليس بطائل ، ذى شِقٍّ مائل ، ولُعاب سائل ، وعَقل حائل[4] ؟ ! » .

---

(١) معجم الأدباء ١٦ / ٧٩

(٢) معجم الأدباء ١٦ / ٩٩ وما بعدها وتراه فى كتابه إليه يشير إلى راتب شهرى معلوم كان يجرى على الجاحظ .

(٣) ذيل زهر الآداب للحصرى ص ١٦٥ .

(٤) انظر فى الخبرين السابقين معجم الأدباء ١٦ / ١١٣ .

ويُعَدّ الجاحظ أكبر كاتب ظهر فى العصر العباسى ، وهو فى الحق الثمرة الناضجة لكل الجهود العقلية الخصبة التى نهض بها المعتزلة ، سواء من حيث وضوح المنطق أو من حيث قوة الاستدلال أو من حيث القدرة على التوليد للمعانى ، وكأنه يستمد من مخازن عقلية لا تنفد ، ولاحظ ذلك ابن المعتز وغيره من القدماء عنده ، فقالوا إنه يستخدم المذهب الكلامى فى كتاباته[1] ، ويريدون به قوة الحجة المنطقية والقدرة على التسبيب والتعليل ، وكأنما يأخذ من نهر لا ينضب ، نهر لايزال يجلب منه الحجة ونقيضها ، تُسْعِفه فى ذلك قدرة على الجدل والحوار لا تتوقف عند حد ، ومن أجل ذلك قال ابن العميد عنه عبارته المأثورة : « إن كتب الجاحظ تعلم العقل أولا والأدب ثانيًا » بما يستنبطه من خفيات المعانى وما يثيره من دقائق الفكر فى الروح والجسم والحواس والخير والشر والجوهر والعرض ، بل أيضًا من خفايا المجتمع الذى عاشه وظواهره وما فيه من أخلاق وغير أخلاق مما يتصل بطبقاته الشعبية من لصوص ومُكدِين ورقيق وغير رقيق وقيان وغير قيان وما يتصل بطبقاته الوسطى من تجار وموظفين فى الدواوين وعلماء وشعراء وما يتصل بطبقاته العليا الحاكمة وغير الحاكمة من خلفاء ووزراء ورؤساء دواوين وقضاة وقواد وما يتصل بأهـــل الذمة من المجوس والنصارى واليهود ، وما يتصل بالحيوان وبالنبات وبالعرب والعجم وفضائل الشعوب ، وكأنك تدور فى كتاباته بمتحف لاتزال تفجؤك فيه الطرف والصور . وتارة يعرض عليك مسألة كلامية معقدة ، وتارة يعرض حادثة من حوادث الحياة اليومية فى البصرة أو فى بغداد أو فى سامراء ، ومرة يطوف بك فى ردهات الفكر العميق أو فى بعض آى القرآن ، ومرة يطوف بك فى شارعات المدن السابقة وأزقتها وحوانيتها الصغيرة والكبيرة ودور النخاسة ومن فيها من الجوارى ، وهو فى هذا كله لا تفوته قسمة وجه ولا إشارة يد ولا دخيلة نفس .

وبجانب هذا الفكر المنطلق فى البحث وفى الوصف وفى الرواية الذى ينقل لك الواقع بكل شياته وسماته ، وكأنك بإزاء أشرطة سينمائية تعرض عليك كل ما فى مدن العراق الكبيرة من صور الحياة فى أشدها ترفًا ونعيمًا وأشدها بؤسًا وضنكًا ، حتى لكأنما كتبه دائرة معارف لكل ما كان هناك من أزياء وعادات ومستوى معيشة وأخلاق . ويبلغ من نقله لواقع مجتمعه أنه كان لا يتحرج من ذكر أى شىء حتى

---

(١) كتاب البديع لابن المعتز (طبعة كراتشقوفسكى) ص ٥٣ .

العورات أحيانًا ، ويعلن ذلك فى صراحة صريحة دون أى مواربة إذ يقول : «وبعض الناس إذا انتهى إلى ذكر (العورات) ارتدع وأظهر التقزز واستعمل باب التورع ، وأكثر من تجده كذلك فإنما هو رجل ليس معه من العفاف والكرم والنبل والوقار إلا بقدر هذا الشكل من التصنع ،ولم يكشف قط صاحب رياء ونفاق إلا عن لؤم مستفحل ونذالة متمكنة .[1]»

وبجانب ذلك لا يزال الجاحظ يحاول إطرافك بالنوادر المضحكة ، وكان القدماء يلاحظون ذلك بوضوح ، حتى ليقول المسعودى: «كتبُ الجاحظ مع انحرافه المشهور (يريد خصومته للشيعة ، وكان المسعودى متشيعًا) تجلو صدأ الأذهان وتكشف واضح البرهان ، لأنه نظمها أحسن نظم ، ورصفها أحسن رصف ، وكساها من كلامه أجزل لفظ ، وكان إذا تخوف ملل القارئ وسآمة السامع خرج من جِدّ إلى هزل ، ومن حكمة بليغة إلى نادرة ظريفة»[2] ويصوّر ذلك الجاحظ نفسه فيقول : « وليس ينبغى لكتب الآداب والرياضات أن يُحمَل أصحابها على الجد الصرْف وعلى العقل المحض وعلى الحق المرّ وعلى المعانى الصعبة التى تستكدّ النفوس وتستفرغ المجهود ، وللصبر غاية وللاحتمال نهاية ، ولا بأس أن يكون الكتاب موشّحاً ببعض الهزل »[3]. وخصّ الهزل والنوادر بكتابه المشهور « البخلاء » وهو مجموعة كبيرة من الأقاصيص الفكهة عن الأشحاء البخلاء فى عصره . وبنَى رسالة له فى هجاء أحد الكتاب المسمى بأحمد بن عبد الوهاب ، وهى رسالة التربيع والتدوير ، على الضحك به والتندر عليه إذ كان قصيراً مليئًا ، فجعل يصفه فى رسالته وصفا مضحكًا ، ثم حوّله إلى دراسة واسعة فى الجمال ، وهل يكون فى القصر أو يكون فى الطول أو يكون فى النحافة أو يكون فى الامتلاء أو يكون فى التربيع والتدوير ، وهى تمتد إلى عشرات الصفحات وتمتلئ بالدعابة تارة وبالسخرية تارة أخرى ، وفيها يقول مدافعًا عن المزاح : « ولو استعمل الناس الرصانة فى كل حال والجد فى كل مقال . . . لكان السفه الصُّراح خيراً لهم ، والباطل محضًا أردّ عليهم . . . ولكن لكل شيء قدر ولكل حال شكل ، فالضحك فى موضعه كالبكاء فى موضعه »[4] .

---

(١) الحيوان ٣ / ٤٥ .
(٢) مروج الذهب ٤ / ١٠٩ .
(٣) رسالة فى النساء مجموعة رسائل الجاحظ. نشر السندوبى ص ٢٦٦ .
(٤) رسالة التربيع والتدوير (طبعة شارل بلات بدمشق) ص ٥٣ .

وجَرَّتْ رغبةُ الجاحظ فى أن يتخلّل كتاباته بالنوادر وما يُطْرِف القارئْ رغبةٌ مماثلة فى أن يورد فى تضاعيف كتاباته بعض آى القرآن وبعض الآثار والأخبار وبعض الأشعار والحكم ، مما أشاع فى رسائله وكتبه كثْرة الاستطراد ، وكان يقصد إليه قصداً ويتخذه مذهباً فى كتابته ، حتى لا يملّ القارئ ، وحتى يظل له نشاطه وإقباله على ما يكتبه ، وهو يعلن ذلك مراراً فى كتبه ، كقوله فى كتاب الحيوان : « قد عزمتُ — والله الموفِّق — أنى أوشِّح هذا الكتاب وأفصّل أبوابه بنوادر من ضروب الشعر وضروب الأحاديث ليخرج قارئْ هذا الكتاب من باب إلى باب ومن شكل إلى شكل فإنى رأيت الأسماع تملّ الأصوات المطربة والأغانى الحسنة والأوتار الفصيحة إذا طال ذلك عليها ، وما ذلك إلا فى طريق الراحة التى إذا طالت أو رثت الغفلة »(١) . ويقول فى موضع آخر : « ومتى خرج (القارئْ) من آى القرآن صار إلى الأثر ، ومتى خرج من أثر صار إلى خبر ثم يخرج من الخبر إلى شعر ، ومن الشعر إلى نوادر ، ومن النوادر إلى حكم عقلية ومقاييس سِداد ... حتى يُفْضى إلى مَزْح وفكاهة ، وإلى سُخْف وخرافة »(٢) .

ودائمًا يُعْنَى الجاحظ بصياغته ، بادئًا بموادّها من الألفاظ ، فهى تارة ألفاظ جزلة رصينة ، وتارة ألفاظ عذبة رشيقة ، ولكل لفظة موضعها من الكلام ومن المعنى الذى تؤدّيه ، وهو يصيح فى البيان والتبيين وغيره من كتاباته : التلاؤمَ التلاؤمَ ومطابقةَ الكلام لمقتضى الحال ، أو بعبارة أخرى لسامعيه ، يقول : « وكما لا ينبغى أن يكون اللفظ عاميًا وساقطًا سوقيًّا فكذلك لا ينبغى أن يكون غريبًا وَحشيًا إلا أن يكون المتكلم بدويًّا أعرابيًّا ، فإن الوَحْشِيَّ من الكلام يفهمه الوحشىُّ من الناس ، كما يفهم السوقىُّ رطانة السُّوقىِّ »(٣) . ودائمًا يُبْدِئُ ويُعِيد فى أن الأسلوب ينبغى أن يكون وسطًا بين لغة العامة ولغة الخاصة ، وأن تشفّ الألفاظ عن المعانى حتى تَلَذّ الأسماع والقلوب ، يقول : « أحسن الكلام ما كان قليله يُغْنيك عن كثيره ومعناه فى ظاهر لفظه . . . وإذا كان المعنى شريفًا واللفظ بليغًا . . . صَنَعَ فى القلوب صنيع الغيث فى التربة الكريمة »(٤) . وأكثر من

---

(١) الحيوان (طبعة الحلبى) ٣ / ٧ .
(٢) الحيوان ١ / ٩٣ .
(٣) البيان والتبيين ١ / ١٤٤ .
(٤) البيان والتبيين ١ / ٨٣ .

الحديث فى البيان والتبيين عن حسن الصياغة وجمال العبارات ، وهو بحق الذى أعدّ فى قوة لشيوع أسلوب جديد فى الكتابة، هو أسلوب الازدواج، وهو أسلوب يقوم على التوازن الدقيق بين العبارات بحيث تتلاحق فى صفوف متقابلة ، دون أن تتّحد نهاياتها على نحو ما هو معروف فى السجع . هى تتقابل وتتعادل صوتيًّا، ولكن دون أن تحقق التوازن الصوتى المألوف فى السجع ، ومع ذلك تحقق ضروبًا من الإيقاع ، فالكلمات تتوازن وتتعادل ، وكأن كل كلمة فى عبارة تقابلها كلمة فى العبارة التالية على شاكلة قوله : « لا أعلم قرينًا أحسن موافاة ، ولا أعجل مكافأة ولا أحضر معونة ، ولا أخفّ مئونة ، ولا شجرة أطول عمراً ، ولا أجمع أمراً ، ولا أطيب ثمرةً ، ولا أقرب مُجْتَنَى، ولا أسرع إدْراكًا ، ولا أوْجَدَ فى كل إبّان من كتاب ، ولا أعلم نِتاجًا فى حداثة سِنه ، وقرب ميلاده ، ورخَص ثمنه وإمكان وجوده ، يجمع من التدابير العجيبة ، والعلوم الغريبة ، ومن آثار العقول الصحيحة ، ومحمود الأذهان اللطيفة ، ومن الحكم الرفيعة ، والمذاهب القويمة ، والتجارب الحكيمة ، ومن الإخبار عن القرون الماضية ، والبلاد المتنازحة ، والأمثال السائرة ، والأمم البائدة ، ما يجمع لك الكتاب »[1] . وبمثل هذا الأسلوب المتدفق الذى يُنفّ به جمال الصوت من كل جانب دون أن يخرج به الجاحظ إلى تكلف السجع كان يؤلف ويصنّف الكتبَ الطوال والرسائل المتنوعة الموضوعات ، دون أن تتأبّى عليه كلمة أو صيغة ، فقد أصبحت اللغة مرنة فى لسانه وعلى قلمه إلى أقصى حد ، لغة شفّافة يَشِيع فيها الوضوح وهذا الأسلوب المصفّى الذى يروق الآذان والأسماع بأصواته كما يروق القلوب والعقول بمعانيه وأفكاره .

ودائمًا تلقانا هذه الخصائص العامة لكتابات الجاحظ، إذ يُعْنَى دائمًا بأسلوبه وسريان الازدواج فيه وبألفاظه وصياغاته وملاءمتها لمعانيها وموضوعاتها وقرّائها ، كما يُعْنَى بِسَرَيان روح الدّعابة والاستطراد من شعر إلى خبر إلى فكرة كلامية إلى نادرة إلى بيان سِمَة لشخص من معاصريه إلى قرآن أو حديث إلى فكرة عن علم من علوم عصره كالفلك إلى عقيدة للمجوس إلى ما لا يُحْصَى من المعارف

---

(١) الحيوان ١ / ٤٢ .

وأحوال مجتمعه . وبذلك ينفرد عن أدباء عصره إذ جعل أدبه أدبًا واقعيًا يصوّر مجتمعه وكل ما فيه من أخلاق وعادات تتصل بالرجال أو بالنساء والقيان وكيدهن . ودائمًا تلقاك طوابعه العقلية من القدرة على الجدل واستنباط البراهين والأدلة ودقائق المعانى والأفكار خائضًا بك فى أعمق المباحث الكلامية من تنزيه الله عن الشبه بالمخلوقات أو الكلام عن صفاته أو فى المعرفة أو فى الاستطاعة ، مع ذكر أطراف مما يجرى فيه الناس ويخوضون فيه ، ومع التنقل فى كل الموضوعات من الإنسان أو الحيوان أو النبات .

ولسنا بصدد البحث العام فى الجاحظ ، إنما نريد أن نقف قليلا عند عرضه لبعض المناظرات وما كتبه من رسائل إخوانية وأدبية ونثر قصصى ونوادر ، ومرّ بنا أنه طبَع كثيراً من رسائله بطابع المناظرة والحوار فى مدح الشىء وذمه ، ولعل أكبر مناظرة ساقها مناظرة النظام ومَعْبد فى الكلب والديك أيهما أفضل ، إذ شغلت نحو مجلّد ونصف من كتاب الحيوان ، ويذكر أن الغرض منها بيان حكمة الله وتدبيره فى الكلب والديك ، يقول : « إنما نتنظّر (نجادل) فيما وضع الله عز وجل فيهما من الدلالة عليه وعلى إتقان صُنْعه وعلى عجيب تدبيره وعلى لطيف حكمته ، وفيما استخزنهما من عجائب المعارف وأودعهما من غوامض الإحساس وسخّر لهما من عظام المنافع والمرافق ، ودلّ بهما على أن الذى ألبسهما ذلك التدبير وأودعهما تلك الحكم يحب أن يفكّر فيهما ويُعْتَبر بهما ويسبّح الله عز وجل عندهما » . وهو يردّد ذلك فى جوانب من المناظرة ليبين الغاية منها والغرض . وقد بدأ فيها بالحديث عن الكلب وما قاله معبد فى ذمّه وما قاله النظام فى مدْحه ، ولخّص ذلك يقول[1] :

« باب ما ذكر صاحب الديك من ذمّ الكلاب وتعداد أصنافها ومعايبها ومثالبها من لؤمها وجُبْنها ، وضعفها وشرَهها ، وغَدْرها وبَذَائها ، وجهلها وتسرعها ، ونَتْنها وقَذَرها ، وما جاء فى الآثار من النَّهْى عن اتخاذها وإمساكها ومن الأمر بقتلها وطَرْدها ، ومن كثْرة جناياتها وقلة ودّها ، ومن ضرب المثل بلؤمها ونذالتها ، وقبحها وقبح ملازمتها ، ومن سماجة نُباحها وكثْرة أذاها ، وتقذُّر المسلمين

---

(١) الحيوان ١ / ٢٢٢ .

من دنوّها وأنها تأكل لحوم الناس، وأنها كالخَلْق المركب ، والحيوان الملفق : كالبغل فى الدوابّ وكالراعبىّ فى الحمام ، وأنها لا سبع ولا بهيمة ، ولا إنسية ولا جنّية ، وأنها من الجِنّ دون الجِنّ ، وأنها مطايا الجِنّ ونوع من المسْخ وأنها تنبش القبور وتأكل الموتى ، وأنها يعتريها الكَلَب من أكل لحوم الناس . فإذا حكينا ذلك حكينا قول مَنْ عَدَّد محاسنها ، وصنّف مناقبها ، وأخذنا فى ذكر أسمائها وأنسابها وأعراقها ، وتفدية الرجال إيّاها ، واستهتارهم بها ، وذكر كَسْبها وحراستها ، ووفائها وإلفها وجميع منافعها ، والمرافق التى فيها ، وما أودِعتْ من المعرفة الصحيحة ، والفِطَن العجيبة ، والحِسّ اللطيف ، والأدب المحمود . وذلك سوى صدق الاسترواح وجودة الشم ، وذكر حفظها ونفاذها واهتدائها ، وإثباتها لصور أربابها وجيرانها وصَبْرها ، ومعرفتها بحقوق الكرام ، وإهانتها اللئام ، وذكر صبرها على الجَفَاء ، واحتمالها للجوع ، وذكر ذمامها وشدة مَنْعها معاقد الذّمار منها ، وذكر يقظتها وقلة غفلتها ، وبُعْد أصواتها ، وكثرة نسلها وسرعة قبولها . . . مع اختلاف طبائع ذكورها . . . وتردّدها فى أصناف السباع ، وسلامتها من أعراق البهائم ، وذكر لقَنها وحكايتها ، وجودة ثقافتها ومَهْنها وخِدْمتها ، وجِدّها ولِعْبها فى جميع أمورها ، بالأشعار المشهورة والأحاديث المأثورة ، وبالكتب المنزلة ، والأمثال السائرة ، وعن تجربة الناس لها وفِراستهم فيها ، وما عاينوا منها ، وكيف قال أصحاب الفأل فيها وأخبار المتطيرين عنها ، وعن أسنانها ومنتهى أعمارها ، وعدد جِرائها ، ومدة حملها وعن سِماتها وشِياتها ، وعن دوائها وأدوائها وسياستها ، وعن اللاتى لا تَلْقَنُ منها ، وعن أعراقها والخارجىّ منها ، وعن أصول مواليدها ومخارج بُلْدانها » .

وعلى هذا النحو يستقصى الجاحظ جميع الوجوه التى تُذَمّ بها الكلاب ، فيذكرها على لسان مَعْبد وينقضها على لسان النظام ، ثم يأتى بمحاسنها ومحاولات معبد فى نقضها ، وفى أثناء ذلك يستعين بالأشعار وبآى القرآن والحديث ومعارف العرب ، كما يستعين بمعارف غيرهم وبنوادرهم ونوادر اليونان. مع الرجوع دائمًا إلى التجربة . وهو فى تضاعيف ذلك يستطرد إلى كثير من المباحث الكلامية وإلى

كثير أيضاً من عادات العرب . والمناظرة فى رأينا مناظرة بين الشعوبية والعرب ، أما الشعوبية فرمزهم الديك الذى يُرَبّى فى قراهم ومدنهم ، وأما العرب فرمزهم الكلب الذى لا يفارقهم فى منازلهم ومراعيهم ، وكأن معبداً والنظام المعتزليين اسمان اختارهما الجاحظ ليقيم مناظرته ، أما فى حقيقة الأمر فليس هناك معبد ولا النظام ، وإنما هناك الجاحظ بلسنه وقدرته الرائعة على دراسة الموضوعات سواء اتصلت بالحيوان أو لم تتصل ، وهناك العرب والشعوبية التى تستقذر الكلب وحيوانات الصحراء ، مما جعل الجاحظ يعقد فى حيوانه مناظرة أخرى بين البعير والفيل[1] ، فدائماً الشعوبية تتحرش بالعرب وتهجّن حياتها وكل ما اتصل بها ، وكأن الجاحظ أقام نفسه رصداً لهم ، ومن الممكن أن يكون من هذا الباب كتابه الزرع والنخيل الذى أهداه إلى إبراهيم بن العباس الصولى، فالزرع رمز الحضارة والشعوبية، والنخيل رمز العرب والبادية ، وقد هاجم الجاحظ الشعوبية مراراً ، فى كتابه البيان والتبيين إذ أفرد لها فصلاً طويلا وفى كتابات أخرى له متعددة عن العرب والعجم . ونسوق فقرة من ذم صاحب الديك للكلب وبعض صفاته ورَدِّ صاحب الكلب عليه ، وهى تجرى على هذه الصورة[2] :

« قال صاحب الديك : إن أطعمه اللصُّ بالنهار كِسْرةَ خُبْزٍ خلّاه ، ودار حوله ليلا ، فهو فى هذا الوجه مُرْتَشٍ وآكلُ سُحْتٍ ، وهو مع ذلك أسمجُ الخلق صَوْتًا ، وأحمق الخلق يقظة ونومًا ، ينام النهار كلَّه على نفس الجادّة (الطريق) وعلى مَدَقِّ الحوافر ، وفى كل سُوق وملتقى طريق . . . وقد سَهِرَ الليل كله بالصياح والصخَب ، والنَّصَب والتعب ، والغيظ والغضب ، وبالمجىء والذهاب ، فيركبه من حب النوم على حسب حاجته إليه ، فإن وَطِئتْه دابة فأسوأ الخلق جزَعًا ، وألأمه لؤمًا ، وأكثره نُباحًا وعُواءً ، فإن سلم ولم تطأه دابة ولا وَطِئه إنسان فليست تتم له السلامة ، لأنه فى حالِ متوقعٍ للبليّة ، ومتوقعُ البليّة فى بليّة ، فإن سلم فليس على ظهرها مبتلًى أسوأ حالا منه ، لأنه أسْوَأهم جزعًا وأقلهم صبراً ، لأنه الجانى ذلك على نفسه ، وقد كانت الطرق الخالية له معرَّضة ، وأصول الحيطان مباحة ، وبعد فإن كلَّ خُلُق فارق أخلاق الناس فإنه

---

(١) الحيوان ٧ / ١٩٣ .

(٢) الحيوان ١ /٢٨٢ وما بعدها .

مذموم ، والناس ينامون بالليل الذى جعله الله تعالى سَكَنًا ، وينتشرون بالنهار الذى جعله الله تعالى لحاجات الناس مسرحًا . قال صاحب الكلب : لو شئنا أن نقول إن سهره بالليل ونومه بالنهار خَصْلة ملوكية لقلنا . ولو كان خلاف ذلك ألذّ لكانت الملوك بذلك أولى . وأما الذى أشرتم إليه من النوم فى الطرق الخالية ، وعِبْتموه به من نومه على شارعات الطرق والسكك العامرة ، وفى الأسواق الجامعة فكل امرئ أعلمُ بشأنه ، ولولا أن الكلب يعلم ما يلقى من الأحداث والسفهاء وصبيان الكُتّاب من رَضّ عظامه بألواحهم إذا وجدوه نائماً فى طريق خال ليس بحضرته رجالٌ يُهابون ، ولا مشيخة يرحمون ويزجرون السفهاء ، وأن ذلك لا يعتريه فى مجامع الأسواق لقَلّ خلافه عليك ولما رَقَدَ فى الأسواق . وعلى أن هذا الخلق إنما يعترى كلاب الحُرّاس ، وهى التى فى الأسواق مأواها ومنازلها ، وبَعْدُ فمن أخطأ وأظلم ممن يكلف السباعَ أخلاقَ الناس وعاداتِ البهائم ؟ وقد علمنا أن سباع الأرض عن آخرها إنما تهيج وتَسْرَحُ وتلتمس المعيشة ليلا ، لأنها تبصر بالليل . . . أما تركه الاعتراض على اللصّ الذى أطعمه أياماً ، وأحسن إليه مراراً ، فإنما وجب عليه حفظ أهله لإحسانهم إليه وتعاهدهم له . فإذا كان عهده ببرّ اللصّ أحدث من عهده ببِرّ أهله لم يكلَّف الكلب النظر فى العواقب وموازنة الأمور . والذى أضمر اللص من البَيَات غَيبٌ قد سُتِر عنه ، وهو لا يدرى أجاء ليأخذ أم جاء ليعطىَ . . . ولعل أهله أيضًا أن يكون قد استحقوا ذلك منه بالضَّرْب والإجاعة ، وبالسبّ والإهانة . وأما سماجة الصوت فالبغل أسمجُ صوتاً منه ، وكذلك الطاووس على أنهم يتشاءمون به . وليس الصوت الحسن إلا لأصناف الحمام من القمارىّ والدّباسِىّ وأصناف الشفانين (ضرب من العصافير) فأما الأسد والذئب وابن آوى والخنزير وجميع الطير والسباع والبهائم ، فكذلك ، وإنما لك أن تذم الكلب فى الشىء الذى لا يعمّ . . . وربما كان من الناس — بل كثيراً ما تجده — مَنْ صوته أقبح من صوت الكلب ، فلِمَ تَخُصُّون الكلب بشىءٍ عامةُ الخلق فيه أسوأ حالا من الكلب . وأما عُواؤه من وَطْءِ الدابة وسوء جزَعه من ضرب الصبيان فجزع الفرس من وقع عَذَبة (طرف) السوط أسوأ من جزعه » .

وواضح كيف أن صاحب الديك ثلبَ الكلب مثالب مختلفة فى وفائه لأصحابه وفى غلظ صوته وفى نومه بالنهار على الطرق وفى الأسواق ، وفى كثرة نباحه وعُوائه حين تطؤه َدابّة . ويَنْقُضُ صاحب الكلب كل تلك المثالب فهو ينام بالنهار مثل الملوك والسلاطين ، وفى الأماكن الجامعة لما يلقى من السفهاء والصبيان ، حتى يزجرهم الناس ، ومع ذلك ليست كل الكلاب ترقد فى الأسواق إنما تلك كلاب الحراسة ، وهذا طبيعى لأن الأسواق دورها ومنازلها . أما أنه لا يفى لأصحابه حين يُلْقى له لِصٌ بكسرة خبز ، فإن محاسبته على ذلك لإحسانهم إليه ، وإحسان اللص أحدث من إحسانهم، ثم هو كلب لا يعرف نية اللص وما أضمر من سرقة أهله ، ولا يدرى أجاء ليأخذ أوجاء ليعطى ، وربما كان أهله يعاملونه معاملة سيئة . وسماجة صوته ليست مثلبة، فالبغل أسمج صوتاً منه، وكذلك الطاووس الجميل المنظر، والصوت الحسن إنما يكون لأصناف الحمام دون جميع الطير والسباع والبهائم . وحتى الناس منهم من تهبط منزلة صوته فى القبح درجات عن صوت الكلب، وذلك لا يعيبهم . أما جزعه من وطء والدوابِّ ضرب الصبيان له فربما كان جزع الفرس من ضرب السياط أسوأ من جزعه . وهكذا تسقط جميع المثالب التى وصف بها صاحب الديك الكلب ولا يبقى منها فى يده شىء . وهى براعة فائقة فى الحوار وفى الاستدلال والتلطف للبرهان والاحتيال له بالعقل الثاقب ، مع التأنى والتمكين للحجج ، وهى توضع فى صورة أدبية بديعة، هى صورة الأسلوب المزدوج الذى تتوازن فيه العبارات والصيغ وتتعادل إيقاعاتها تعادلا محكماً . وتمتد المناظرة فى الكلب ومحاسنه ومساوئه من صفحة ١٩٠ فى الجزء الأول من الحيوان إلى صفحة ٢٣٣ من الجزء الثانى فتشغل بذلك مجلداً ضخماً ، ثم تبدأ المناظرة فى مساوئ الديك ومحاسنه وتستمر إلى صفحة ٣٧٥ من هذا الجزء الثانى . ومما احتج به صاحب الديك من محاسنه صياحه الدال على معرفته لساعات الليل فى الفجر وغير الفجر ، حتى كأنه فوق الإسطرلاب الذى يرصد الفلك ومنازل القمر ، ويردُّ عليه صاحب الكلب هذه المحمدة ، لأن الحمار يشرك الديك فيها بنهيقه فى الأسحار ، يقول[1] :

---

(١) الحيوان ٢ / ٢٥٥ وما بعدها .

« لولا أن وجدنا الحمار المضروب به المثل فى الجهل يقوم فى الصباح وفى ساعات الليل مقام الديكة لقد كان ذلك قولا ومذهبًا غير مردود ، ولو أن متفقداً تفقد ذلك من الحمار لوجده منظومًا يتبع بعضه بعضًا على عدد معلوم ، ولوجد ذلك مقسومًا على ساعات الليل ، ولكان لقائل أن يقول فى نهيق الحمار فى ذلك الوقت : ليس تجاوباً إنما ذلك شيء يتَـوافق معًا ، لاستواء العلة ، فلم تكن للديك الموصوف بأنه فوق الإسطرلاب فضيلة ليست للحمار . . . والحمار أجهل الخلق ، فليس ينبغى للديك أن يُقْضَى له بالمعرفة ، والحمار قد ساواه فى يسير علمه » .

وعلى هذا النحو لا يُدْلى صاحب الديك بمحمدة إلا وينقضها عليه النظّام نقضا ، وبالمثل ينقض مَعْبد محامد الكلب. ويشتد الحوار بين المتناظرَيْن ، ونُصْبح وكأننا بإزاء بانيين لحصون من الأدلة والبراهين لا تلبث حين تقوم أن تنقضّ . وكما قلنا ليس البانيان والناقضان سوى الجاحظ نفسه ، فهو الذى أقام تلك المناظرة التى ظاهرُها كلب وديك وباطنها عرب وشعوبية ، وكان يتعصب للعروبة فى أعماقه ، مما جعله ينفض عن الكلب كل مذامّه ومثالبه ويُضْفِى عليه كثيراً من المحامد والمحاسن فى حماسة بالغة .

وهذا لون من ألوان أدبه . ولون ثان هو رسائله الإخوانية ، وهى تموج بطُرف فكره وبلاغته ، فمن ذلك أن صديقه ابن الزيات تلوّن له وتنكّر فترةً إذ أحسّ انشغاله عنه ، فكتب إليه الجاحظ يستعطفه بالرسالة التالية [١] :

« أعاذك الله من سوء الغضب ، وعصمك من سَرَف الهوى ، وصرف ما أعارك من القوة إلى حب الإنصاف ، ورجّح فى قلبك إيثار الأناة (الحلم) فقد خفتُ — أيّدك الله — أن أكون عندك من المنسوبين إلى نَزَق السفهاء ، ومجانبة سبل الحكماء ، وبعد فقد قال عبد الرحمن بن حسان بن ثابت :

وإنَّ امْرَأً أَمْسَى وأَصبح سالماً ... من الناسِ إلا ماجَنَى لَسَعيدُ

وقال الآخر :

ومَنْ دَعَا الناسَ إلى ذَمِّهِ ... ذَمّـوه بالحق وبالباطلِ

(١) زهر الآداب ١٠٨/٢ .

فإن كنتُ اجترأت عليك – أصلحك الله – فلم أجترئ إلا لأن دوام تغافلك عني شبيه بالإهمال الذي يورث الإغفال ، والعَفْوُ المتتابع يُؤْمن من المكافأة (المجازاة) ولذلك قال عيينة بن حصن بن حذيفة لعثمان رحمه الله : عمر كان خيراً لي منك : أرهبني فأتقاني ، وأعطاني فأغناني . فإن كنت لا تهب عقابي – أيدك الله – لحُرْمة ، فهَبْه لأياديك عندي ، فإن النعمة تشفع في النقمة ، وإلاَّ تفعلْ ذلك لذلك فعُدْ لحسن العادة ، وإلا فافعل ذلك لحسن الأحدوثة ، وإلا فأْتِ ما أنت أهله من العفو ، دون ما أنا أهله من استحقاق العقوبة . فسبحان مَنْ جعلك تعفو عن المتعمد ، وتتجافى عن عقاب المُصِرّ ، حتى إذا صرتَ إلى مَنْ هفوته بِكْرٌ (أولى) وذنبه نسيان ، ومن لا يعرف الشكر إلا لك ، ولا الإنعام إلا منك هجمتَ عليه بالعقوبة . واعلم – أيدك الله – أن شَيْن غضبك عليَّ كزَيْن صَفْحك عني ، وأن موت ذكرى مع انقطاع سَبَبي منك ، كحياة ذكرى مع اتصالي سببي بك ، واعلم أن لك فطنة عليم ، وغفلة كريم ، والسلام » .

والرسالة على قصرها تحمل خصائص الجاحظ الأدبية ، ففيها شعر وخبر ، وفيها المهارة العقلية على التدليل واستنباط الأفكار ، فابن الزيات هو الذي طال تغافله عن الجاحظ ويشبِّه التغافل بالإهمال ضرباً من القياس ليصل إلى إغفاله له ، ويسوق دليلا ملزماً ، فهو دائماً يعفو عنه والعفو المتتابع يجعل المعفوَّ عنه آمناً من المجازاة وأن يصاب بسوء . ثم مضى يُلْزمه الرضا عنه ، بمنازل متعددة منه ، إما لمنزلة حرمته منه ، وإما لما تتابع عليه من أياديه ، والنعمة تشفع في النقمة ، برهاناً ساطعاً ، وإما لحسن العادة ، وإما لحسن الأحدوثة ، وإما لأنه أهل للعفو عن المستحقين للعقوبة من أمثاله . ويتلطَّف له قائلا إنه أول ذنب لي وليس ذنبي إلا النسيان ، وهل عرفت الشكر إلا لك ولا الإنعام إلا منك . فماذا يملك ابن الزيات إزاء هذا البيان الرائع إلا أن يعود إلى الرضا التام ؟ وتتقابل عبارات الرسالة في صفوف ، وكأن كل كلمة في عبارة سابقة تجذب قرينتها في العبارة اللاحقة ، دون محاولة لسجع أو نغم متماثل في نهايات الجمل المتلاحقة ، وهكذا الجاحظ دائماً يكتفي بجمال التوازن العام في أسلوبه المزدوج. وانظر إلى التوازن الدقيق في العبارات الأخيرة من الرسالة ، « فشين غضبك » توازن « زين صفحك » ، و« موت ذكرى

مع انقطاع سببى » توازن «حياة ذكرى مع اتصال سببى ». وتكاملُ مثل هذا التوازن فى أسلوبه يتيح له وفرة فى النغم ، مع ما يتّسم به أسلوبه عامة من رصانة وجزالة ونصاعة .

ولون ثالث من كتاباته هو الرسائل الأدبية ، وهى تُعَدُّ بالعشرات ، ويكفى أن نرجع لعنوانات المطبوع منها لنرى مدى تنوعها وأنها تناولت جوانب كثيرة من المجتمع ومن المسائل الكلامية ومن الأخلاق ومن الطوائف كالترك والمعلمين والقيان والمغنين غير ماله من رسائل فى حجج النبوة واستحقاق الإمامة وخَلْق القرآن. وكثير منها مكتوب بأسلوب الجدل والمناظرة ، إن لم نقل إنها جميعها كتبت بهذا الأسلوب ونكتفى بعرض رسالة منها ولتكن رسالته[1] فى فخر السودان على البيضان ، وقد عرض فيها مناقب السودان ممثلة فى شخصيات بارزة مثل لقمان الحكيم وسعيد بن جبير العبد الصالح الذى قتله الحجاج وبلال الحبشى والمقداد الصحابى الجليل أول مَنْ عَدَا به فرسه فى الإسلام ، ومثل مكحول الفقيه والحَيْقطان الشاعر الذى يفتخر بقومه ، ويذكر قصيدة له تحتج بها العجم والحبش على العرب ، ويشرح أبياتها ، ومثل سُنَيْح بن رباح المعاصر لجرير ويَرْوِى قصيدته فى الفخر بالزنج ، ويذكر أبناء الزنجيات من العرب مثل العباس بن مرداس وعنترة الفوارس . ويذكر من احتجاجهم أنهم ملكوا ذات يوم بلاد العرب من لدن الحبشة إلى مكة وقتلوا ذا نواس وأقيال (تبابعة) حمير ، ويذكر مشاركتهم فى بعض الأحداث والحركات السياسية فى العصرين الأموى والعباسى ، ثم يقول :

« الناس مجمعون على أنه ليس فى الأرض أمة السخاءُ فيها أعم وعليها أغلب من الزنج ... وهم أطبع الخلق على الرقص الموزون من غير تأديب ولا تعليم . وليس فى الأرض أحسن حُلُوقاً منهم ، وليس فى الأرض أخف على اللسان من لغتهم ، ولا فى الأرض قوم أذرب (أفصح) ألسنة ، ولا أقل تمطيطاً منهم . . . والرجل منهم يخطب عند الملك بالزنج من لدن طلوع الشمس إلى غروبها ، فلا يستعين بلَفْتة ولا بسَكْتة حتى يفرغ من كلامه . وليس فى الأرض أمة فى شدة الأبدان وقوة الأسْر أعم منهم فيهما ، وإن الرجل ليرفع الحجر الثقيل الذى تعجز عنه

---

(١) انظر الرسالة فى مجموعة رسائل الجاحظ .
(نشر مكتبة الخانجى) ١ / ١٧٧ - ٢٢٦ .

الجماعة من الأعراب وغيرهم ، وهم شجعان أشداء الأبدان أسخياء . وهذه هي خصال الشرف . والزنجي مع حسن الخُلق وقلة الأذى لا تراه أبداً إلا طيب النفس ضحوك السنّ حسن الظنّ ، وهذا هو الشرف » .

ويرد على أناس قالوا إنهم صاروا أسخياء لضعف عقولهم ، ويقول لو كان البخل بمقدار قوة العقل ، لكان الصقالبة أعقل من الروم لأنهم أبخل منهم والروم أشد عقولا . ويقول لخصومهم إنكم أقررتم لهم بالسخاء وادعيتم عليهم ما لا يُعْرَفُ من ضعف العقل ، ولوكان هذا القياس صحيحاً لكان الجبان أعقل من الشجاع . ويذكر فخر الزنج بملوكهم . ثم يعود إلى ذكر طائفة من شعرائهم وافتخارهم بالنجاشي الذي أكرم المهاجرين إليه من الصحابة ، ثم يقول بلسانهم :

« ونحن أهولُ في الصدور وأملأ للعيون ... كما أن الليل أهولُ من النهار ... . ودُهْمَ الخيل أبهى وأقوى ، والبقر السودَ أحسن وأبهى ، وجلودها أثمن وأنفع وأبقى ، والحُمُرَ (ج حمار) السودَ أثمن وأحسن وأقوى ، وسودَ الشّاءِ أدْسَمُ ألباناً وأكثر زبداً . . . وكل جبل وكل حجر إذا كان أسود كان أصلب صلابة ، وأشد يبوسة ، والأسد الأسود لا يقوم له شيء ، وليس من التمر شيء أحلى حلاوة من الأسود ولا أعم منفعة ولا أبقى على الدهر ، والنخيل أقوى ما تكون إذا كانت سُودَ الجذوع ... وأحسن الخضرة ما ضارع السواد ، قال الله عز وجل : (ومن دونهما جنّتان) ثم قال لما وصفهما وشوّق إليهما : (مُدْهامّتان) قال ابن عباس : خضراوان من الريّ سوداوان ، وليس في الأرض عودٌ أحسن خشباً ولا أغلى ثمناً ولا أثقل وزناً . . . ولا أجدر أن ينشب فيه الخطّ من الآبنوس . . . والإنسان أحسن ما يكون في العين ما دام أسود الشعر ، وكذلك شعورهم في الجنة ، وأكرم ما في الإنسان حدقتاه وهما سوداوان ، وأكرم الكحل الإثْمِد ، وهو أسود . . . وأنفع ما في الإنسان له كبده » .

ونحس كأن الكلام سيول تتدافع ، وهي سيول تحيط بفكرة السواد وترفع منها محصية إحصاء دقيقاً مواقعه في الطبيعة وفي الحيوان وفي الجماد وفي الثمار والأشجار وفي الزروع والأعواد والأخشاب وفي الإنسان وفي الجنة ونعيمها الخالد . وكل ذلك

يسوِّى فى أسلوب الازدواج وما يحمل من متاع موسيقى للآذان والأسماع .
ويتحدث الجاحظ عن اقتران السواد بالشدة والصلابة والصرامة ، وأنه لا يوجد لون أرسخ فى جوهره من السواد ، ويذكر أن العرب تفخر بسواد اللون وأنه كان كثيرون من سادتهم سوداً دهماً . ويتحدث عن كثرة عدد الزنج ، وكيف أن كثيرين من العرب مثل الفرزدق كانوا يفضلون زوجاتهم السودانيات . ويجعل سكان الجزر الهندية وكذلك القبط جنساً من السودان ويذكر أن إبراهيم الخليل تزوج منهم امرأة ولدت له إسماعيل عليه السلام . ويقول إن الله تعالى لم يجعلهم سوداً تَشْويهاً لخلقهم ، وإنما فعلت بهم ذلك البيئة ، ويسلك فيهم من العرب بنى سُليم بن منصور وكل من نزل الحرَّة لسريان السواد فيهم ، ويقول إنه بلغ من أمر تلك الحرَّة (حرَّة بنى سليم) أن ظباءها ونعامها ، وهوامَّها وذبابها ، وثعالبها وشاءها ، وحميرها وخيلها ، وطيرها ، كلها سود .

ونحس فى حرارةِ دفاعه عن السودان كأنه يدافع عن أصوله إذا صَحَّ أن جده كان عبداً أسود . وأكبر الظن أنه أول من أشاد بالسودان فى عصره ، وكأنما أصبح لهم شىء من الخطر فى الحياة الاجتماعية العباسية ، ولم تمض على وفاته سوى عشر سنوات حتى شبت ثورة الزنج التى تحدثنا عنها فى غير هذا الموضع .
ولون رابع من كتاباته هو النثر القصصى ، إذ كان بارعاً فى تصوير الشخصيات والنفوس ، ولو أنه عرف الأدب التمثيلى لأسعفته ملكته فى المناظرة والحوار بقصص تمثيلية كثيرة ، وهو بحق لا يبارَى فى وصف الحركات الجسدية والمشاعر النفسية ، ومن خير ما يصوِّر هذه النزعةَ القصصية عنده أقصوصته فى كتابه الحيوان عن « القاضى والذباب » وهى تجرى على هذه الصورة الرائعة [١] :

« كان لنا بالبصرة قاض يقال له عبد الله بن سَوَّار ، لم ير الناس حاكماً قط ولازِمِّيتاً [٢] ولا ركيناً [٣] ، ولا وقوراً حليماً ضبط من نفسه ، وملك من حركته ، مثل الذى ضبط وملك . كان يصلِّى الغَداة [٤] فى منزله ، وهو قريب

(١) الحيوان ٣ / ٣٤٣ .
(٢) زميتا : وقوراً .
(٣) ركينا : رزينا .
(٤) الغداة : صلاة الضحى النافلة .

الدار من مسجده ، فيأتى مجلسه ، فيَحتَبى ، ولا يتكئ ، فلا يزال مُنتَصِباً ، لا يتحرَّك له عضو ولا يلتفت ولا يحلّ حُبْوته(١) ، ولا يحوِّل رجلا عن رجل ، ولا يعتمد على أحد شِقَّيه ، حتى كأنه بناء مبنيٌّ أو صَخْرة منصوبة فلا يزال كذلك حتى يقوم إلى صلاة الظهر ، ثم يعود إلى مجلسه . فلا يزال كذلك حتى يقوم إلى صلاة المغرب . . . كذلك كان شأنه فى طِوال الأيام وفى قِصارها ، وفى صيفها وفى شتائها ، وكان مع ذلك لا يحرِّك يده ولا يشير برأسه ، وليس إلا أن يتكلم فيوجز ويبلغ بالكلام اليسير المعانى الكثيرة . فبينما هو كذلك ذات يوم وأصحابه حواليه وفى السماطين(٢) بين يديه ، إذ سقط على أنفه ذباب ، فأطال المُكْثَ ، ثم تحول إلى مُؤْق(٣) عينه ، فرام الصبر فى سقوطه على المؤق وعلى عَضِّه ونفاذ خُرْطومه ، كما رام الصبر على سقوطه على أنفه من غير أن يحرك أرْنَبته(٤) أو يغضِّن وجهه أو يذبَّ بإصبعه . فلما طال ذلك عليه من الذباب وشغله وأوجعه وأحرقه ، وقصد إلى مكان لا يحتمل التغافل أطبق جَفْنه الأعلى على جَفْنه الأسفل ، فلم ينهض (الذباب) فدعاه ذلك إلى أن والَى بين الإطباق والفتح ، فتنحىَّ ريثما سَكَنَ جفنه ، ثم عاد إلى مُؤْقه بأشد من مَرَّته الأولى ، فغَمس خُرْطومه فى مكان كان قد أوهاه قبل ذلك ، فكان احتماله له أضعف وعجزه عن الصبر فى الثانية أقوى . فحرَّك أجفانه وزاد فى شدة الحركة وفى فتح العين وفى تتابع الفتح والإطباق ، فتنحَّى عنه بقدر ما سكنت حركته ، ثم عاد إلى موضعه ، فما زال يُلِحّ عليه حتى استفرغ صبره وبلغ مجهوده . فلم يجد بُدًّا من أن يذبَّ عن عينيه بيده ، ففعل ، وعيونُ القوم إليه ترمقه . فتنحَّى عنه بقدر ما ردَّ يده وسكنت حركته ، ثم عاد إلى موضعه ، ثم ألجأه إلى أن ذبَّ عن وجهه بطَرَف كُمِّه ، ثم ألجأه ، إلى أن تابع بين ذلك . وعلم أن فعله كله بعين مَنْ حَضره من أُمَنائه وجلسائه . فلما نظروا إليه قال : أشهد أن الذباب ألَجّ من الخُنْفُساء وأزهى من الغراب ، وأستغفر الله ، فما أكثر من أعجبته نفسُه ، فأراد الله عزَّ وجَلَّ أن يعرِّفه من ضعفه ما كان عنه مستوراً . وقد علمت أنى عند الناس من أزمت

---

(١) يحتبى : من الحبوة ، وهى أن يجمع الرجل بين ظهره وساقيه بعمامة ونحوها .

(٢) السماطين : مثنى سماط وهو الصف .

(٣) المؤق : طرف العين مايلى الأنف .

(٤) أرنبته : طرف أنفه .

الناس ، فقد غلبنى وفضحنى أضعفُ خلقه ، ثم تلا قوله تعالى : (وإنْ يَسْلُبْهُم الذُّبابُ شيئًا لا يَسْتَنقذوه منه ضَعُفَ الطالبُ والمطلوبُ) .

والأقصوصة تتألف من ثلاثة أجزاء واضحة ، أما الجزء الأول فيصف فيه الجاحظ وقار القاضى عبد الله بن سَوَّار وتزمته وما بلغه من سيطرته الشديدة — التى لم يبلغها أحد — على نفسه وحركته . وهى سيطرة كانت تظل تلازمه طوال اليوم من الغداة حتى صلاة المغرب ، بل لكأنما أصبحت له فطرةً ثابتة ، فإذا هو يجلس مُحْتَبِيًا غير متكئٍ فى المسجد ، منتصبًا كأنه سارية أو عمود من أعمدته ، لا يتحرك له عضو ولا يلتفت يمنة ولا يَسْرة ، ولا يغيِّر وضعًا له فى جلسته ، حتى لكأنه بناء مبنى أو صخرة منصوبة . ويقول إنه يتخذ هذا الوضع لا فى يوم من أيام السنة ، بل فى جميع أيامها طوالها وقصارها ، وشىء منه لا يتحرك ، لا رجل ولا يد ولا رأس ، حتى إذا اجتمع الناس له فى سماطين وعظهم وعظًا بليغاً . وهذا هو الجزء الأول فى القصة أو الأقصوصة ، ويليه جزء ثان يصور فيه الجاحظ إلحاح الذباب الضعيف على هذا البناء الضخم من الوقار والتزمت والرزانة وهو يسترسل فى العظة ، ويصمد البناء لهذا الإلحاح فترة ، ثم تأخذ قواه فى الوهن شيئاً فشيئاً ، والجاحظ يلاحظ ويسجل ملاحظاته مصوراً أدق الدقائق من حركة الذباب وكيف تحول من أنف القاضى إلى مؤقه ، والقاضى يستشعر وقاره صابراً صبراً عظيمًا على عَضِّ الذباب لمؤقه ونفاذ خرطومه فيه دون أن يُغمض طرفه أو يغضّن وجهه أو يذبّه . ويظل على وقاره صابراً يوجعه الذباب ويحرقه ، حتى إذا نفد صبره أطبق جفنه الأعلى على جفنه الأسفل ، فلم يتنحّ الذباب وظل فى إحراقه وإيجاعه ، فوالى بين الإطباق والفتح وهو لا يفقد وقاره . وتنحّى الذباب قليلا ثم عاد بأشد مما كان ، لأن المكان كان قد وهى ، فكان احتماله له أضعف ، فحرّك أجفانه وزاد فى شدة الحركة وفى تتابع الفتح والإطباق . فتنحى الذباب عن المؤق ولم يلبث أن عاد إلى موضعه ، وما زال يلحّ على القاضى حتى نفد صبره ، فذبّ عن عينيه بيده وعيون الجالسين أمامه ترمقه . وتنحى عنه بقدر ماردّ يده وسكنت حركته ، ثم عاد إلى موضعه. حينئذ خرج عن وقاره المألوف إذ لم يجد بدّاً أن يذبّ عن عينيه بطرف كمه . وعاوده مراراً ، وهو يتابع ذبّه بطرف الكم . وننتقل مع الجاحظ إلى الجزء الثالث من الأقصوصة وفيه يصوّر تعلق أعين السامعين ،

الذين شهدوا المنظر بالقاضي ، ناظرين إليه وكأنهم يريدون منه تعليقاً أو عظة . ويبدأ ببيان إلحاح الذباب ، ويعترف بضعفه أمام أضعف مخلوقات الله ، ويصرّح بأن الذباب غلبه وقهره وفضحه ، وأنه لا يختلف فى ذلك عن بنى جنسه بشهادة الآية القرآنية الكريمة . والأقصوصة محبوكة حبكاً دقيقاً بما أودعها الجاحظ من دقائق التصوير والتفاصيل ، وكأنها مشهد نراه بأعيننا إذ نقله لنا بحذافيره نقلا واعياً ، أو قل نقل عين بصيرة لا يفوتها شيء فى الرؤية الحسية ولا فى الرؤية النفسية .

ولون خامس فى كتابات الجاحظ الأدبية هو كثرة ما أذاع فيها من نوادر ترويحاً عن نفس القارئ وتنشيطاً له ، على نحو ما صوّر ذلك بنفسه فيما أسلفنا من الحديث عن خصائصه ، وقد وضع لها قاعدة لغوية عامة ألا تغيَّر ولا تبدَّل صورتها اللفظية ، سواء جرت على ألسنة البدو أو ألسنة العامَّة ، يقول[1] :

« ومتى سمعتَ — حفظك الله — بنادرة من كلام الأعراب ، فإياك أن تحكيها إلا مع إعرابها ومخارج ألفاظها ، فإنك إن غيَّرتها بأن تلحن فى إعرابها وأخرجتها مخارج كلام المولَّدين والبلديين خرجتَ من تلك الحكاية وعليك فضل كبير . وكذلك إذا سمعت بنادرة من نوادر العوامّ ومُلْحة من مُلَح الحُشْوة والطغام فإياك أن تستعمل فيها الإعراب ، أو تتخيَّر لها لفظاً حسناً أو تجعل لها من فيك مخرجاً سَرِيًّا ، فإن ذلك يُفْسد الإمتاع بها ، ويخرجها من صورتها ومن الذى أريدتْ له ، ويُذْهب استطابتهم إياها واستملاحَهم لها » .

وطبَّق هذه القاعدة على نفسه تطبيقاً شديداً ، فالنادرة تُرْوَى بألفاظها كما نَدَّت من ألسنة أصحابها ، وإذا كان لفظها عاميًّا أو أعرابيًّا مسرفاً فى البداوة ظلت كما اجتُلبت دون أى تعديل ، فإنها إن عُدّلت مُسخت وأصبحت مشوَّهة الخلق ، وفارقتها طبيعتها ، ولم تعد مضحكة . وتكثر النوادر فى البخلاء بل كل الكتاب نوادر إن صح هذا التعبير ، وهو يعرض فيه شخصيات المجتمع الفذة الفلسفية والكلامية ومحركاته من شعوبية وغير شعوبية وكثيراً من تقاليده ومطاعمه وملابسه ، فكل مافى المجتمع البصرى من صور حياة يعرض عرضاً دقيقا بكل شياته وسماته . وله فى المعلمين كتاب ملأه بنوادرهم ، ونسوق له هذه النادرة التى صوَّر فيها حمق المعلمين وضعف عقولهم لملازمتهم الصِّبْية ، قال :

---

(١) البيان والتبيين ١/١٤٥ .

« كنت ألفت كتاباً فى نوادر المعلمين وما هم عليه من الغفلة ، ثم رجعت عن ذلك وعزمتُ على تقطيع الكتاب ، فدخلت يوماً قرية ، فوجدت فيها معلماً فى هيئة حسنة ، فسلمت عليه فردّ علىّ أحسن ردّ ، ورحّب بى ، فجلست عنده ، وباحثته فى القرآن ، فإذا هو ماهر ، ثم فاتحته فى الفقه والنحو وعلم المعقول وأشعار العرب ، فإذا هو كامل الأدوات ، فقلت : هذا والله مما يقوّى عزمى على تقطيع الكتاب . وكنت أختلف إليه وأزوره ، فجئت يوماً لزيارته وطرقت الباب ، فخرجت إلىّ جارية وقالت : ما تريد ؟ قلت : سيّدك . فدخلتْ وخرجتْ ، وقالت : باسم الله ! . فدخلتُ إليه ، وإذا به جالس كئيباً ، فقلت : عظّم الله أجرك (لقد كان لكم فى رسول الله أُسْوة حسنة) ، (كلُّ نفسٍ ذائقةُ الموت) ، فعليك بالصبر ، ثم قلت له : هذا الذى توفى والدك ؟ قال : لا ، قلت : فوالدك ؟ قال : لا ، قلت : فأخوك ؟ قال : لا ، قلت : فزوجتك ؟ قال : لا . فقلت : وما هو منك ؟ قال : حبيبتى . فقلت فى نفسى : هذه أول المناحس ، فقلت : سبحان الله ! النساء كثير ، وستجد غيرها ، فقال : أتظن أنى رأيتها ؟ قلت : هذه منحسة ثانية ، ثم قلت : وكيف عشقت مَنْ لم تَرَ ؟ فقال : اعلمْ أنى كنت جالساً فى هذا المكان ، وأنا أنظر من الطاق (النافذة) إذ رأيت رجلا عليه بُرْدٌ (ثوب) وهو يقول :

يا أمَّ عمرٍو جزاكِ اللهُ مكرُمــةً ردِّى علىَّ فؤادى أينما كانا
لا تأْخذين فؤادى تَلْعبين به فكيف يَلْعَبُ بالإنسان إنسانا

فقلتُ فى نفسى : لولا أن أم عمرو هذه ما فى الدنيا أحسن منها ماقيل فيهاهذا الشعر ، فعشقتها ، فلما كان منذ يومين مرّ ذلك الرجل بعينه ، وهو يقول :

لقد ذهب الحمارُ بأمِّ عمرٍو فلا رجَعتْ ولا رَجع الحمارُ

فعلمت أنها ماتت ، فحزنتُ عليها ، وأغلقت المكتب ، وجلست فى الدار ، فقلت : يا هذا : إنى كنت ألفت كتاباً فى نوادركم معشر المعلمين ، وكنت حين صاحبتك عزمت على تقطيعه ، والآن قد قوّيتَ عزمى على إبقائه ، وأول ما أبدأ فيه بك إن شاء الله » .

والنادرة طريفة منتهى الطرافة ، والمعلم فيها يأخذ سمتاً جاداً ، يزينه فى أول الأمر علمه الواسع بالقرآن وتفسيره وبالفقه والنحو وبأشعار العرب وما شدا من علوم الأوائل أو علم المعقول كما يقول الجاحظ ، حتى ظن أنه كامل الأدوات وعزم على تقطيع كتاب كان ألفه فى نوادر المعلمين وغفلتهم وحمقهم. ويصحبه فترة ، ويلاحظ أنه أغلق كتابه فيزوره فى داره ، وإذا هو جالس جلسة حزين مكتئب ، فظن أنه فقد عزيزاً لديه ، وأخذ يسأله عنه ، وهو يجيب جاداً ، حتى عرف أنه فقد معشوقته . وكأنما أطل حمقه على الجاحظ ، وإذا هو يقول له إنه لم يرها ، وتتوالى غفلته فى هذا الحب الأحمق الذى تهوى فيه كل قواعد المنطق ، وكأننا فى مسرح هزلى نفضى فيه إلى الضحك ، وكلما مضينا فى النادرة أغربنا فيه ، لا نتوقف ، وكأنما اختل توازننا ، أو كأنما نندفع فى انحدار بقوة ولا نملك الوقوف أو السيطرة على أنفسنا من هذا السيل الجارف للغفلة المجسمة وما يطوى فيها من حمق فظيع ، حمق يدفعنا إلى الضحك العريض . ولعل من الطريف أن الجاحظ كان يتندر على كل شىء حتى على نفسه وشكله القبيح ، ويروى عنه أنه قال : « ما أخجلنى إلا امرأة مرت بى إلى صائغ فقالت له : اعمل مثل هذا ، فبقيت مبهوتاً ، ثم سألت الصائغ فقال : هذه امرأة أرادت أن أعمل لها صورة شيطان ، فقلت : لا أدرى كيف أصوره ، فأتت بك لأصوره على صورتك » .

ولعل فى كل ما قدمنا ما يصور شخصية الجاحظ الأدبية وخصائصه الفنية فى كتاباته . ومن المؤكد أن العربية لم تعرف كاتباً فرض نفسه على عصره والعصور التالية كما عرفت فى الجاحظ الذى ملأ الدنيا وشغل الناس بملكاته النادرة ، وما وصلها به من ذخائر الثقافات الأجنبية ، وما جسدها فيه من طوابع عقلية ومن جد وهزل ومن نقل لكل صور الحياة فى مجتمعه ومن استطرادات تحمل كثيراً من الطرف والنوادر ومن أسلوب ملىء بالنغم ، يجرى فيه دائماً الازدواج الذى يروع القارئ بجرسه ، إذ يمتع الألسنة حين تنطق به والآذان حين تصغى إليه ، كما يمتع بمضامينه العقول والأفئدة .

٣

ابن قتيبة [١]

هو أبو محمد عبد الله بن مسلم بن قتيبة الدينورى ، ولد سنة **٢١٣** للهجرة ببغداد وقيل بالكوفة ، أصله فارسى أو تركى من مرو بخراسان ، ومن ثم نُسب إليها ، فقيل المروزى ، اختلف فى صباه إلى الكتّاب ، فحفظ شيئًا من القرآن الكريم والحديث النبوى والأشعار وشدا شيئًا من الفقه والنحو والحساب ، ولم يكد يشبّ عن الطوق حتى أخذ يختلف إلى المساجد الجامعة بموطنه بغداد يأخذ عن علمائها كل ما عندهم من علوم اللغة والشريعة والحديث ، وعكف على المترجمات يقرأ فيها ويستوعب ، وخاصة ما تُرْجم عن الفارسية ، ولمع اسمه فى بيئة الفقهاء ، فتولّى القضاء بدِينَوَر ، ولذلك يقال له الدّينورى . وعاد إلى بغداد مؤثراً الاشتغال بالتدريس والتعليم حتى توفى سنة ٢٧٦ للهجرة . وقد أكبّ على كتب الجاحظ يدرسها ويتمثلها ، مع أنهما كانا على طرفى نقيض ، فقد كان الجاحظ معتزليًّا كما مرَّ بنا ، وكان ابن قتيبة سُنِّيًّا ، وله كتابان : مشكل القرآن وتأويل مختلف الحديث ، وفيهما وخاصة فى الثانى يحمل على الجاحظ والمعتزلة حملات شعواء ، وهما منشوران . وله بجانبهما كتب كثيرة منها كتاب فى الفقه وكتاب فى دلائل النبوة وغريب القرآن وكتب غيرهما كثيرة فى مختلف الميادين سقطت من يد الزمن. ومن كتبه المنشورة المعارف وفيه يتحدث عن مبدأ الخلق وقصة الطوفان نقلا عن ترجمة للتوراة ، ويُعقّب ذلك بتاريخ الأنبياء والرسل والعرب الجاهليين وسيرة الرسول عليه السلام ، ثم أخبار موجزة عن العلماء فى كل فن وعن الفرس قبل الإسلام . وله كتاب الأشربة وهو منشور بدمشق وكتاب المَيْسر والقِداح وهو منشور بالقاهرة وكتاب الاختلاف فى اللفظ والرد على الجَهْمية والمشبِّهة وهو منشور أيضًا بالقاهرة ونُشر

---

(١) انظر فى ابن قتيبة الفهرست ص ١٢١ والأنساب للسمعانى الورقة ٤٤٣ وتاريخ بغداد ١٠/١٧٠ وإنباه الرواة للقفطى ٢/١٤٣ ونزهة الألباء (نشر دار نهضة مصر) ص ٢٠٩ وابن خلكان والنجوم الزاهرة ٣ / ٧٥ والديباج لابن فرحون طبع القاهرة ص ٣٥ وشذرات الذهب ٢ / ١٦٩ ومرآة الجنان لليافعى ٢ / ١٩١ .

باسمه كتاب الإمامة والسياسة وهو منحول عليه . ومن أهم كتبه كتاب الشعر والشعراء وهو تراجم قصيرة لشعراء العرب حتى عصره ، وهو منشور مراراً . وله كتاب معانى الشعر الكبير . وألف طائفة من الكتب لتثقيف الكتّاب الناشئين ؛ منها كتابه « أدب الكاتب » ، الذى عرضنا له فى غير هذا الموضع ، وهو يمدّ الكاتب فيه بثقافة لغوية واسعة ، وأهم منه كتابه « عيون الأخبار » وهو يمد الكاتب فيه بكنوز الثقافات التى تُسْعفه فى مادة عمله .

وابن قتيبة يُعَدّ أكبر مؤلف أدبى ظهر فى العصر بعد الجاحظ ، وهو سنى محافظ ولذلك يكون من المنطقى أن تتضح محافظته فى آرائه النقدية ، غير أنه كان فيما يبدو يوازن بين النزعة المحافظة لعصره والنزعات المجدّدة المعتدلة عند الجاحظ وأمثاله من المعتزلة . ويتضح ذلك فى مقدمته الطويلة لكتابه « الشعر والشعراء » إذ نراه يعلن أنه لن ينظر إلى المتقدم من الشعراء بعين الجلالة لتقدمه ولا إلى المتأخر بعين الاحتقار لتأخره ، فإن الله لم يقصر البلاغة على زمن دون زمن ولا خصّ بها قوماً دون قوم . وهى نظرة مُنْصِفة ، ولكنه يعود فيقول : « ليس لمتأخر الشعراء أن يخرج عن مذهب المتقدمين . . . فيقف على منزل عامر أو يبكى عند مشيَّد البنيان لأن المتقدمين وقفوا على المنزل الداثر والرسم العافى ، أو يرحل على حمار أو بغل ويصفهما لأن المتقدمين رحلوا على الناقة والبعير ، أو يَرِدَ على المياه العِذاب الجوارى لأن المتقدمين وردوا الأواجن والطوامى ، أو يقطع إلى الممدوح منابت النرجس والآس والورد لأن المتقدمين جروا على ذكر منابت الشِّيح والحَنْوة[1] والعَرَارة » وهى لا شك نظرة محافظة تستمد من الجو السُّنِّى فى العصر الذى حل محل جَوِّ الاعتزال منذ فاتحة عهد المتوكل . وكانت هذه النظرة تلتقى مع النظرة السابقة التى لا تضع فى موازين القيمة الشعرية قدم الشعر وحداثته ، حتى لا يكون محافظاً جامد العقل ، بل هو محافظ أميل إلى روح التجديد والمعاصرة . ومرّ بنا فى غير هذا الموضع أنه كان أحد خصوم الشعوبية ، بل كان ثانى اثنين خاضا معركة حامية مع أصحاب هذه النزعة ، وعرضنا هناك لمصنَّفه : « كتاب العرب أو الرد على الشعوبية » وكانت له وراء ذلك فى نفس الموضوع كتب مختلفة .

---

(١) الحنوة والعرارة : من أزهار البادية .

وأهم من هذا الموقف له ضد الشعوبية أن نجده يُدخل بقوة الثقافات الأجنبية: اليونانية والفارسية والهندية على الثقافة العربية الإسلامية، ويعمل على تكوين مزيج موحَّد منها جميعًا، بحيث لا يُشْغَلُ أصحاب كل ثقافة بالدعوة والترويج لها، مما أحدث هذا الصراع العنيف بين الشعوبيين والعرب الذى طال عليه الأمد منذ عهد المهدى حتى عصره. وحقًّا حاول ذلك الجاحظ من قبله، ولكن غلبة النزعتين الكلامية والأدبية عليه حالت دون النفوذ إلى نهاية الغاية، وكانت الثقافة اليونانية أكثر شيء يشغله، حتى ليقول: «لا يكون المتكلم جامعًا لأقطار الكلام متمكنًا فى الصناعة، يصلح للرياسة، حتى يكون الذى يحسن من كلام الدين فى وزن الذى يحسن من كلام الفلسفة»[1] وأشار غير مرة إلى أن كتابه «أخذ من طُرَفِ الفلسفة». ولم يكن اليونانيون أصحاب النزعة الشعوبية فى العصر، فقد كان الفرس هم الذين يحملون علَمها ويبذلون قصارى جهدهم فى الدعوة لها مشيرين دائمًا إلى كتب الآداب الفارسية. فكان لا بد كى يُقْضَى على هذه النزعة الحادَّة من أن تلتقى — على يد كاتب عظيم — ثقافتها وكذلك الثقافة اليونانية والهندية بالثقافة العربية الإسلامية، وتدخل جميعها فى مجرى النهر العربى الإسلامى بحيث تتلاشى فيه نهائيًّا، ولا يصبح لها وجود مستقل، فوجودها جزء لا يتجزأ من وجود الثقافة العربية الإسلامية العامة.

وهو ما نهض به ابن قتيبة فى أروع صورة، إذ مضى ينسِّق مختارات ومقتطفات من الآداب الفارسية، مع مقتطفات ومختارات من الآداب العربية الخالصة ومع مقتطفات ومختارات من الثقافتين الهندية واليونانية، وكانت ثمرة ذلك أربعة مجلدات ضخمة ألَّفت كتابه «عيون الأخبار»، وقد وزعه على عشرة كتب، أولها كتاب السلطان، وفيه يتحدث عن سيرته وسياسته وصُحْبته واختياره للعمال والقضاة والحجَّاب والكتَّاب، ويبدؤه بأحاديث نبوية، ثم يذكر بعض وصايا لشخصيات عربية فى الحكم وسياسة السلطان، ولا يلبث أن يقول: وقرأت فى كتاب من كتب الهند: «شر المال ما لا يُنْفَقُ منه، وشَرُّ الإخوان الخاذل، وشَرُّ السلطان من خافَه البرىء، وشَرُّ البلاد ما ليس فيه خِصْب ولا أمن... وخير سلطان مَنْ أشبه النَّسْر

(١) الحيوان ٢ / ١٤٣.

(٢) الحيوان ١ / ١١.

حوله الجِيفُ لا مَنْ أشبه الجيفة حولها النسُورُ » ويذكر أقوالا لابن مسعود وعمر بن الخطاب ، ثم ينقل فصلاً طويلا من كتاب اليتيمة لابن المقفع وما يصوّر من الأدب الأخلاقى فى عهد ملوك الفرس الساسانيين ، ثم يقول : « وقرأت فى التاج (وهو فى سيرة أنوشروان) لبعض الملوك : همُوم الناس صغار وهموم الملوك كبار ، وألباب الملوك مشغولة بكل شىء يَجِلّ ، وألباب السُّوقِ مشغولة بأيسر الشىء » . ويعود إلى النقل عن بعض النابهين من العرب ، ثم يقول : « وقرأتُ فى بعض كتب العجم كتابًا لأرْدَشير بن بابك إلى الرعية ، وينقل الكتاب جميعه ، ويعقب عليه بكتاب من أرسطاليس إلى الإسكندر وفيه : « املك الرعيةَ بالإحسان إليها تظفر بالمحبة منها ، فإن طلبك ذلك منها بإحسانك، هو أدوم بقاءً منه باعتسافك ، واعلم أنك إنما تملك الأبدان، فتخطَّها إلى القلوب بالمعروف ، واعلم أن الرعية إذا قدرتْ أن تقول قدرتْ على أن تفعل ، فاجْهَدْ ألا تقول تسلم من أن تفعل » . ويَتْلو ذلك بقوله : « وقرأت فى كتاب الآيين (فى أنظمة الملك والدولة الساسانية) أن بعض ملوك العجم قال فى خطبة له : « إنى إنما أملك الأجساد لا النيات ، وأحكم بالعدل لا بالرضا ، وأفحص عن الأعمال لا عن السرائر » ويذكر أخباراً عن أنوشروان ومعاوية وعبد الملك بن مروان وعمر الفاروق وعن سياسة الحجاج فى رعيته ، ثم يقول : « وقرأت فى كتاب التاج : قال أبرْوَيز لابنه شِيرويه وهو فى حبسه : « لا توسعنّ على جندك فيستغنوا عنك ، ولا تضيِّقنّ عليهم فيضجّوا منك ، أعْطِهِم عطاء قَصْدا ، وامنعْهم منعًا جميلا ، ووسِّعْ عليهم فى الرجاء ، ولا توسِّع عليهم فى العطاء » . ويَرْوِى عن عمر بن الخطاب « إن للناس نَفْرَةً عن سلطانهم ، فأعوذ بالله أن تدركنى وإياك عمياء مجهولة وضغائن محمولة ، أقِمِ الحدود ولو ساعةً من نهار ، وإذا عرض لك أمران : أحدهما لله والآخر للدنيا فآثِرْ نصيبك من الله ، فإن الدنيا تنفد والآخرة تبقى . . . وإياك يا عبد الله أن تكون بمنزلة بهيمة مرّت بواد خِصْب فلم يكن لها همٌّ إلا السِّمن ، وإنما حتفها فى السِّمن » . ثم أخبار عن عبد الله بن الزبير فى الرعية ، ولا يلبث أن يقول : وفى كتاب من كتب العجم أن أرْدَشير قال لابنه : « يا بُنَيَّ إن الملك والدين أخوان لا غنى بأحدهما عن الآخر ، فالدين أسٌّ والملك حارس ، وما لم يكن له أسٌّ فمهدوم ، وما لم يكن له حارس فضائع » ثم يذكر صفات ذميمة لا يصح

أن تكون فى السلطان . ويتحدث عن اختيار العمال ويختم حديثه بقوله : قرأت فى كتاب للهند « السلطان الحازم ربما أحبَّ الرجل فأقصاه واطَّرحه مخافة ضرِّه ، فِعْلَ الذى تلسع الحية إصبعه ، فيقطعها لئلا ينتشر سُمُّها فى جسده ، وربما أبغض الرجل فأكره نفسه على توليته وتقريبه لغَناء يجده عنده كتكاره المرء على الدواء البشع لنفعه» . ويعرض لصحبة السلطان وآدابها وتغير السلطان وتلونه ، ويقول : « قرأت فى كتاب للهند : صحبة السلطان على ما فيها من العز والثروة عظيمة الخِطار ، وإنما تُشَبَّه بالجبل الوَعْر فيه الثمار الطيبة والسباع العادية ، فالارتقاءُ إليه شديد ، والمقام فيه أشد . . . ولا خير فى الشىء الذى فى سلامته مال وجاه ، وفى نكبته الجائحةُ والتلف» . وينقل عن بعض العرب ورجالاتهم وعن آداب ابن المقفع وعن بعض النساك والمعتزلة والوعَّاظ وعن بعض كتبه التى كتب بها إلى الحكام والوزراء وعن بعض الكتاب وعن أبْرويز فى بعض ما كتب به إلى ابنه شيرويه وعن بعض رجال الحكم من العرب ، ويستشهد ببعض الأشعار للقطامى وبشار وغيرهما ، ويعرض لخيانات العُمَّال ، وينقل من كتاب التاج : أن أبْرويز قال لصاحب بيت المال : « إنى لا أحتملك على خيانة درهم ، ولا أحمدك على حفظ ألف ألف درهم ، لأنك إنما تحقن بذلك دمك وتَعْمُرُ به أمانتك ، فإنك إن خُنْتَ قليلا خنت كثيراً » . ويُكثر فى فصل القضاء المعقود فى هذا الكتاب من النقل عن العرب وأحكام الإسلام ، ويروى كتاب عمر بن الخطاب إلى أبى موسى الأشعرى فى القضاء ، وهو دستور عظيم فى عدالة القضاء ونزاهته . وتتوالى فصول عن الأحكام والشهادات والظلم ، وفيها يُكثر من النقل عن العرب نثراً وشعراً ، ويعود فى الفصول التالية إلى النقل عن كتب الهند والفرس .

والكتاب الثانى كتاب الحرب ، وفيه يتكلم عن آدابها ومكايدها وأوقاتها وحِيَلها وعُدَدها وسلاحها ، ويبدؤه بحديث عن الرسول عليه السلام وببعض وصايا أبى بكر وعمر للجيوش وقُوَّادها عند عقد الألوية ، ويَذكُر بعض ما قرأ فى كتب العجم والهند ، ومما قرأه فى الأخيرة : « الحازم يحذر عدوه فى كل حال ، يحذر المواثبة إن قرب ، والغارة إن بَعُد ، والكمين إن انكشف ، والاستطراد إن ولَّى ، والمكر إن رآه وحيداً ، ويكره القتال ما وجد بُدًّا ، لأن النفقة فيه من الأنفس ، والنفقة فى

غيره من المال ». ويذكر بعض حِيَلِ الفرس والعرب فى الحرب ، ويتحدث عن آداب الفروسية عند الأمتين ، ويُفيض فى الحديث عن الشجعان وإنشاد الشعر الحماسى .

والكتاب الثالث كتاب السؤدد ، ويتكلم فيه عن مخايله وأسبابه ، ويعرض لجوانب كثيرة من الشرف والأخلاق الرفيعة ، ويفتح فيه فصلاً للمزاح والرخصة فيه ، ويدعو إلى التوسط فى الدين والحلم والعقل والغنى والإنفاق، وكأنه يتأثر بنظرية الأوساط المعروفة عند أرسطاليس . ويُفْرِد الكتاب الرابع للطبائع والأخلاق المذمومة من مثل الحسد والغيبة والسعاية ، وفيها يقول : وقرأت فى كتاب للهند : « قلما يُمْنَع القلب من القول إذا تردّد عليه ، فإن الماء ألين من القول ، والحجر أصلب من القلب ، وإذا انحدر عليه وطال ذلك أثَّر فيه ، وقد تُقْطَعُ الشجرة بالفئوس فتَنْبُتُ ، ويُقْطَعُ اللحم بالسيوف فيندمل ، واللسان لا يندمل جرحه والنصول تغيب فى الجوف فتُنْزَعُ ، والقول إذا وصل إلى القلب لم يُنْزَع ، ولكل حريق مطفئ : للنار الماءُ ، وللسم الدواءُ ، وللحزن الصبر ، وللعشق الفُرْقة ، ونار الحِقْد لا تخبو » . ويذكر أن واشياً وَشَى برجل إلى الإسكندر فقال له : « أتحب أن أقبل منك ما قلتَ فيه على أن أقبل منه ما قال فيك ؟ قال : لا ، قال فكُفَّ عن الشرِّ يكفّ عنك الشر » ، وينقل فى هذا الكتاب عن كثيرين من العرب شعراً ونثراً ، ويستطرد إلى الحيوانات وطبائعها متأثراً بالجاحظ ، ويعرض للحشرات وينقل فيها عن أطباء العصر ، كما يعرض للنبات . ويعقد الكتاب الخامس للعلم والبيان ، ويستهله بحديث عن الرسول ويقول : فى كتاب للهند : العالم إذا اغترب فمعه من علمه كاف كالأسد معه قوته التى يعيش بها حيث توجّه ، ويذكر عن بُزُرْجِمْهر أنه قيل له : بِمَ أدركتَ ما أدركتَ من العلم ؟ فقال ببكور كبكور الغراب ، وحرص كحرص الخنزير ، وصبر كصبر الحمار » ويذكر عن أفلاطون أنه قال : « لولا أن فى قول لا أعلم سبباً لأنى أعلم لقلت إنى أعلم » . ويَرْوى بعض كلمات للمسيح عليه السلام ، ويفتح فصولا للقرآن الكريم والحديث الشريف والفِرَق والأهواء فى الدين ، ويعرض لبعض صور الكلام والشعر ، كما يعرض طائفة كبيرة من الخطب منذ الرسول عليه السلام إلى المأمون .

والكتاب السادس كتاب الزهد ، وفيه تبرز بجانب مواعظ كبار النسَّاك والوعَّاظ والزهاد المسلمين ثقافة ابن قتيبة الدينية لا الإسلامية وحدها ، بل أيضاً ثقافته بالكتب السماوية وكيف أنه عكف عليها وعلى كل ما يتصل بها يقرأ وينقل ، تارة مما كتبه أمثال وهب بن منبه عما أوحى الله عزَّ وجلَّ إلى أنبيائه . وينقل من التوراة ومن الإنجيل ، من ذلك قوله : « قرأت فى الإنجيل : لا تجعلوا كنوزكم فى الأرض حيث يُفسِدُها السوسُ والدود وحيث ينْقب السرَّاق ولكن اجعلوا كنوزكم فى السماء ، فإنه حيث تكون كنوزكم تكون قلوبكم » ويذكر أن رجلا من الحواريين قال للمسيح : أتأذن لى أن أدفن أبى ؟ فقال له : دع الموتى يدفنون موتاهم . ويذكر له دعاء طويلا حين أخذه اليهود ليصلبوه بزعمهم فرفعه الله إليه ، كما يذكر دعاءً لداود وتحميداً طويلا ودعاء ليوسف ، ويَرْوى عن المسيح أنه قال : حبُّ الدنيا أصلُ كلِّ خطيئة ، والمال فيها داء ؛ قيل : ما داؤه ؟ قال : لا يسلم صاحبه من الفخر والكبر ، قيل وإن سلم ؟ قال : يشغله إصلاحه عن ذكر الله . وبذلك يكون ابن قتيبة قد أضاف إلى الثقافة الإسلامية ثقافة عامة بالكتب السماوية وأقوال أنبيائها المرسلين . والصلة بين هذا الكتاب وكتاب الزهد فى البيان والتبيين للجاحظ واضحة .

والكتاب السابع كتاب الإخوان ، وفيه يتحدث عن اختيارهم وما ينبغى أن يكون بينهم من الوشائج والصلات والاشتراك فى السرَّاء والضرَّاء . ، وتلقانا من حين إلى حين نقول عن بعض كتب الهند أو بعض ملوك العجم ، كما تلقانا أحاديث نبوية وأشعار وأخبار ونصائح ووصايا على ألسنة كثيرين من رجال العرب النابهين . والكتاب الثامن كتاب الحوائج واستنجاحها والمواعيد وتنجزها ، ويظل فيه ينقل عن كتب العجم مثل قول بُزُرْجمِهْر : « إذا أقبلتْ عليك الدنيا فأنفق ، فإنها لا تَفْنَى ، وإذا أدبرتْ عنك فأنفق فإنها لا تبقى » . والكتاب التاسع كتاب الطعام وفيه يعرض صنوفه وأخبار العرب فى مآكلهم وآداب الطعام والضيافة وأخبار البخلاء وأوانى الأكل والحِمْية وشرب الدواء والتُّخَمَة والمياه والأشربة ومنافع بعض النباتات والبقول . وتلقانا نفس الثقافات العربية والفارسية واليونانية ، ويصرِّح بأنه ينقل فى هذا الكتاب عن الجاحظ وأثر كتابه البخلاء واضح فيه ، ويذكر فى الحِمْية عن الطبيب اليونانى جالينوس أنه قيل له : إنك تُقِلُّ من الطعام ؟ قال : غرضى من

الطعام أن آكل لأحيَا وغرض غيرى من الطعام أن يَحيَا ليأكل. وبالمثل ينْقل عن أبقراط اليونانى نقولا ، كما ينقل عن أطباء العصر العباسى مثل ابن ماسويه وعن كتاب الآيين الأعجمى . والكتاب العاشر كتاب النساء ،وفيه يتكلم عن أخلاقهن وما يُقْبَل منهن وما يُكْرَه والجمال والقبح والمهور والزواج وسياسة معاشرتهن والجوارى والقيان ومساوئ النساء، ويحكى هنا قصة حصار أرْدشير لمدينة الحَضْر الأسطورية التى يقال إنها كانت قائمة فى الزمن القديم بين دجلة والفرات ، وكيف أن فتاة ملك الحضر رأته فعشقته ، وسرعان ما أرسلت إليه أن تدله على موضع يفتتح منه المدينة إن هو وعدها الاقتران بها ، ووعدها ، فدلته على الموضع ، ودخل المدينة هو وجنوده .

ولعل فيما قدمنا ما يصور بوضوح كيف مزج ابن قتيبة بين الثقافات العربية والإسلامية والفارسية والهندية واليونانية ، وكذلك ثقافة أهل الكتاب ، فكل الثقافات الأجنبية والعربية من مدنية ودينية استحالت عنده إلى هذه الصورة الجديدة التى نقرؤها فى عيون الأخبار . وبلغت هذه الصورة من النجاح أنه خَفَتَ صوت الشعوبية ، فإن الكنوز التى كانت تباهى بها تحولتْ إلى عالم العروبة على يد ابن قتيبة وأصبحت من لُبِّه ، بحيث لم يعد هناك مجال للفخر بها ، إذ لم تعد مستقلة ولم تعد تشقُّ لنفسها جداول تجرى فيها وحدها ، فقد صُبَّت فى نهر العروبة الكبير وذابت فيه ، أذابها ابن قتيبة ببصيرته النافذة وقلمه الباهر ، وأكبر الدلالة على ذلك لا تضاؤل صوت الشعوبية تضاؤلا شديداً مع السنين فقط ، بل أيضاً أنا لا نعود نسمع عن ترجمات لكتابات الفرس الأدبية والتاريخية ، فقد أصبحت غير ذات موضوع بعد أن تداولت الأيدى كتاب عيون الأخبار ، وبعد أن أصبح المصدر الأساسى لكل من يريد التعرف على الآداب الفارسية وما يمكن أن يفيده الأدب العربى منها ومن الثقافتين الهندية واليونانية وثقافة أهل الكتب السماوية . فكل ذلك قد أصبح تحت أيدى العرب وأبصارهم ، ولم يعودوا فى حاجة إلى مزيد منه ، ولذلك لم يهتموا فيما بعد بما دوَّن الفردوسى فى الشاهنامة من شعر قصصى ولا بما كتب حافظ الشيرازى وغيره من شعر صوفى . وكان من آثار ذلك أن أعداء العرب لم يعودوا يوصفون بوصف الشعوبية والزندقة معًا ، فقد أصبحوا غالباً يوصفون بالزندقة والإلحاد

فحسب ، وشاع ذلك على ألسن العرب وعلمائهم منذ أواخر القرن الثالث الهجرى ، مصوِّرين بذلك بواعثهم وحقائقهم النفسية .

ولا نغلو إذا قلنا إن من أهم الأسباب فى أن كتاب عيون الأخبار أخذ هذه المكانة الممتازة أسلوبَ ابن قتيبة فيه ، فإن كل هذه المواد الثقافية التى نسَّقها سبكها فى أسلوب أدبى رائع ، أسلوب يمتاز بوضوحه واصطفاء ألفاظه والمزاوجة بينها على طريقة الجاحظ أحياناً ، وأحياناً يسترسل دون محاولة الازدواج ، ولكن مع العناية باختيار الكلمات والملاءمة بينها بحيث لا تجد فيها أى نشاز ولا أى اضطراب أو انحراف ، فقد كانت اللغة مرنة فى يده ، وكان لا يتأبَّى عليه أى لفظ ، ولا تستعصى عليه أى كلمة . وبهذا الأسلوب المتناسق وما يجرى فيه من استواء صنَّف كتابه عيون الأخبار جميعه ، بحيث غدا كأنه مصبوب فى قوالب متماثلة ، قوالب تستريح لها الأذن ، وتجد فيها القلوب والعقول متاعاً لا ينفد ، واقرأ سطوره الأولى فى المقدمة ، فإنها تطرد على هذا المنوال :

« الحمد لله الذى يُعجز بلاؤه صفةَ الواصفين ، وتفوت آلاؤه عددَ العادِّين ، وتسع رحمته ذنوبَ المسرفين ، والحمد لله الذى لا تُحْجب عنه دعوة ، ولا تخيب لديه طِلْبة ، ولا يضل عنده سَعْى ، الذى رضى عن عظيم النعم بقليل الشكر ، وغفر بِعَقْد الندم كبير الذنوب ، ومحا بتوبة الساعة خطايا السنين . والحمد لله الذى ابتعث فينا البشير النذير ، السراج المنير ، هادياً إلى رضاه وداعياً إلى محبَّته ، ودالاًّ على سبيل جنَّته ، ففتح لنا باب رحمته ، وأغلق عنا باب سخطه ... أما بعد فإن لله فى كل نعمة أنْعَمَ بها حقاً ، وعلى كل بلاء أبلاه زكاة ، نزكاة المال الصدقة ، وزكاة الشرف التواضع ، وزكاة الجاه بَذْله ، وزكاة العلم نَشْرُه ، وخير العلوم أنفعها ، وأنفعها أحمدها مَغَبَّةً ، وأحمدها مَغَبَّةً ما تُعلِّم وعُلِّم لله وأريد به وجه الله تعالى » .

وهذه القطعة فى مستهلّ الكتاب تصور ضرباً من العناية بالألفاظ فيه يشبه عناية الجاحظ ، فالجاحظ يعمد إلى الازدواج أو العبارات المتقابلة ، وقد يجرى السجع على لسانه فى غير تكلف بالضبط كما نرى الآن عند ابن قتيبة . والعبارات الأخيرة التى ردَّد فيها ابن قتيبة كلمة الزكاة ، وتعقَّبَ فيها الكلمة الأخيرة وردَّدها

كما فى كلمة « أنفعها » و « أحمدها » هذا الأسلوب بعينه نجده عند الجاحظ ، وكأن ابن قتيبة تمثَّل أسلوبه بجميع خصائصه ونمضى معه فى المقدمة ، فنراه يقول :

« وهذه عيون الأخبار نظمتها لمغْفِل التأدُّب تبصرةً ، ولأهل العلم تذكرةً ، ولسائس الناس ومَسوسهم مؤدِّبًا ، وللملوك مُسْتَرَاحًا ، وصنَّفْتها أبوابًا ، وقرنت الباب بشكله ، والخبر بمثله ، والكلمة بأختها ، ليسهل على المتعلم علمها ، وعلى الدارس حفظُها ، وعلى الناشد طَلَبُها ، وهى لِقاح عقول العلماء ، ونَتاج أفكار الحكماء ، وزُبْدة المَخْض ، وحِلْيَةُ الأدب ، وثمار طول النظر ، والمتخيَّر من كلام البلغاء ، وفِطن الشعراء ، وسِيَرُ الملوك ، وآثار السلف » .

ولو أننا لم نعرف أن ابن قتيبة هو الذى كتب هذا الكلام ، وسُئلنا عن صاحبه لأجبنا توًّا الجاحظ ، إذ نشعر كأنما فَصَلَ من أسلوبه بخواصه من الموازنات والمعادلات بين العبارات ، بحيث تتقابل الكلمات فى صفوف ، وكل كلمة كأنما تمسك بمثيلتها فى العبارة التالية ، وكل عبارة كأنما تصافح أختها السابقة ، فهى على وتيرتها ومن نفس جنسها ونوعها ، وكان هذا يُحْدث تماسكًا شديداً فى أسلوب الجاحظ ، لولا ما يداخله أحيانًا من استطراد . أما عند ابن قتيبة فلا استطراد ولا خروج من دائرة الفكرة التى يعالجها ، وكتابته من هذه الناحية مرتَّبة مبوَّبة فى أدقِّ نَسَق . ويكفى أن ننظر فى فهرس عيون الأخبار فسنرى الكتاب من كتبه العشرة يُفْتَتَحُ ، ولكل كتاب فصوله المترابطة معه ، وكأنها حلقات فى سلسلة متتابعة وليس فى داخلها ما يوهن العلاقات المنطقية بين الكلام ، بل لكأنما الكتاب خيط ممتَدٌّ أحكمت فصوله ونُسِّقت مواده تنسيقًا دقيقًا . وابن قتيبة يخطو بالتأليف الأدبى من هذه الناحية بعد الجاحظ خطوات واسعة ، إذ لا يسمح لأى فصل داخلى فى كتاب فضلا عن الكتاب نفسه بأى استطراد يُخلْخل الكلام أو يُفْقده سياقه . ولكن إذا كان قد تفوَّق على الجاحظ من حيث نَسَق التأليف فإن الجاحظ يتفوق عليه فى وَصْله الأدب بمجتمعه ، على نحو ما صوَّرنا من صنيعه فى هذا الجانب . وحقًّا نجد عند ابن قتيبة أشعاراً معاصرة له ، ولكنه لم يَحْكِ أخبار الخلفاء والوزراء الذين عاصرهم على نحو ما حكى الجاحظ ، ولا حكى أخبار

طبقات المجتمع وخاصة الطبقة العامة . وهو لذلك لا يُعَدُّ كاتبًا واقعيًّا على نحو ما يُعَدُّ الجاحظ ، وإن كان قد حاول أحيانًا أن يقتفى أثره . ومَرَّ بنا أنه بلغ من واقعية الجاحظ أنه لم يكن يجد أى حرج فى أى شىء يخجل منه المتزمتون ، حتى العَوْرات كان لا يرى فى ذكرها أى بأس ما دام الكلام يستلزم ذكرها ، ويتابعه ابن قتيبة فى تقديمه لعيون الأخبار قائلا : « إنما مثلُ هذا الكتاب مثل المائدة تختلف فيها مَذاقات الطعوم لاختلاف شهوات الآكلين ، وإذا مَرَّ بك حديثٌ فيه إفصاح بذكر عَوْرة أو وصف فاحشة فلا يحملنَّك الخشوع أو التخاشع على أن تصعِّر خَدَّك ، وتُعْرِض بوجهك ، فإن أسماء الأعضاء لا تُؤْثِم ، وإنما المَأْثَمُ فى شَتْم الأعراض وقول الزور والكذب وأكْل لحوم الناس بالغَيْب » . ومع ذلك فإنه لم يبلغ مبلغ الجاحظ فى صراحته ، إذ كان فى حقيقته محافظاً متزمتاً لا يستطيع أن يترك لنفسه — مثل الجاحظ — العنان فى الصراحة دون أى مواربة .

ومرَّ بنا أن الجاحظ كان يجعل خلط الجد بالهزل خاصة قوية من خصائص كتابته ، ومع أن ابن قتيبة كان من أهل السنَّة المحافظين الذين يأخذون أنفسهم بالجد والوقار نراه فى مقدمته لعيون الأخبار يعلن أنه سيأخذ بهذا المنهج فى كتابته ، يقول :

« ولم أُخْلِه من نادرة طريفة ، وفطنة لطيفة ، وكلمة معجبة ، وأخرى مضحكة .. لأروِّح بذلك عن القارئ من كَدِّ الجِدِّ وإتعاب الحق ، فإن الأذن مَجَّاجَةٌ ، وللنفس حَمْضة ، والمَزْح إذا كان حقًّا أو مقاربًا ، ولأحايينه وأوقاته ، وأسباب أوجبته مُشاكلا ، ليس من القبيح ولا من المنكر ولا من الكبائر ولا من الصغائر إن شاء الله . وسينتهى بك كتابنا هذا إلى باب المزاح والفكاهة وما رُوِىَ عن الأشراف والأئمة فيهما ، فإذا مرَّ بك أيها المتزمت حديث تستخفه أو تستحسنه أو تعجب منه أو تضحك له فاعرف المذهب فيه وما أردنا به » .

وإذا انتهينا — كما يقول ابن قتيبة — إلى باب المزاح والفكاهة وهو من أبواب كتاب السؤدد لاحظنا توًّا أن فكاهاته ونوادره من طراز آخر غير طراز الجاحظ ، فمنها كثير لا يثير ابتسامًا ، وما يثير الابتسام قليل جدًّا ، ويكفى أن يقول إنها مما رُوِىَ عن الأشراف والأئمة لنعرف مقدَّمًا أنها نوادر وفكاهات يمسح عليها الوقار وأنه يَنْدر أن ترتسم معها ابتسامة على الشفاه . ونسوق منها هذه النوادر عن الشَّعْبِىِّ (من علماء الكوفة) لتُعْرَفَ طوابعها ومدى ما فيها من المزاح :

« دخل رجل على الشعبي ومعه فى البيت امرأة ، فقال لهما : أيكما الشعبى ، فأجابه الشعبي : هذه . وسأل سائل الشعبى عن لحم الشيطان هل يجوز أكله ؟ فأجابه : نحن نرضى منه بالكفاف . ودخل على الأعمش زميله يعوده فى مرض ، ونظر من حواله إلى المنزل وما فيه من أثاث بسيط ، ثم قال له : أما أنت فتُعْرَف فى منزلك أنك لست من أهل القَرْيتين (مكة والطائف) عظيما » .

وأين هذه النوادر ، من نادرة المعلم الأحمق التى رويناها آنفًا ، والتى مثَّل فيها الجاحظ حُمْقه تمثيلا هزليًّا مضحكًا ؟ . ولا ريب فى أن هذا يرجع إلى اختلاف مزاج الشخصيتين ، فالجاحظ أديب فكه بطبعه متحرر من كل قيد ، يُضْحك وتستغرق فى الضحك ولا تستطيع أن تعود منه وتستردّ نفسك إلا بعد ضحك عريض ، وابن قتيبة أديب وقور تغلب عليه المحافظة وإن حاول التحرر ، ويغلب عليه استشعار الجد ، وكأنه إذا هَزَلَ أو تندَّر خرج عن طبعه ، أو قل كأنه إنما كان يريد أن يتشبه بالجاحظ . ومن بقية هذا التشبُّه عنده فى باب النوادر والمزاح أن نراه يزعم فى تقديمه لكتاب العيون أنه سيحكى النوادر العامية بلفظها وبما فيها من لحن ، ومرَّ بنا كلام الجاحظ فى هذا الموضوع وأنه ينبغى أن تظل النادرة العامية بصيغتها ولحْنها وإلا ضاع ما فيها من فكاهة إذا انقلبت ألفاظها من العامية إلى الفصحى وتبدَّلتْ صورتها الفكهة ، ويقول ابن قتيبة محتجًّا لذلك : « اللَّحْنُ إن مَرَّ بك فى حديث من النوادر فلا يذهبنَّ عليك أنا تعمدناه وأردنا منك أن تتعمده ، لأن الإعراب ربما سَلَب بعض الحديث حسنه ، وشاطر النادرة حلاوتها ، وسأمثل لك مثالا ، قيل لمُزَبِّد المدينى (المضحك) — وقد أكل طعامًا كظَّه (أتخمه) — قِى (قِيءْ) فقال : ما أقى ، أقى نَقَا (مخًّا) ولحم جَدْى ! مَرَتى طالق لو وجدت هذا قيًّا لأكلته . ألا ترى أن هذه الألفاظ لو وفيت بالإعراب والهمز حقوقها لذهبت طلاوتها ، ولاستبشعها سامعها » . والنادرة نفسها التى تمثَّل بها ابن قتيبة ثقيلة وتدلُّ — هى وما سبقها بوضوح — على أنه من مزاج آخر غير مزاج الجاحظ .

والجاحظ فى الواقع قمة بعيدة المنال فى الأدب العربى كله ، ومن الظلم لابن قتيبة أن نزنه به ونقيسه إليه ، فقد كان فريداً فى عصره والعصور السابقة جميعها ، ويكفى ابن قتيبة مجداً أدبيا أسلوبه الواضح الناصع الذى وصفناه وأنه أخرس إلى الأبد

أصحاب الشعوبية بما سوّى للعربية فى عيون الأخبار من هذا الأدب العربى الرفيع الذى وَسِعَ مختلف الثقافات ومزج بينها بحيث أصبح له طوابع جديدة مميزة .

٤

سعيد بن حميد (١)

أبوه حُمَيْد بن سعيد فارسى الأصل ، كان من أهل النباهة فى بغداد ووَجْهًا من وجوه المعتزلة وكان يُحْسن نظم الشعر ، ولا نعرف متى وُلد له سعيد ، ويبدو أنه عُنى به عناية شديدة منذ نعومة أظفاره ، فألحقه بكُتَّاب حفظ فيه شيئاً من القرآن والفقه والحديث والنحو واللغة والأشعار والحساب ، حتى إذا خطا خطوات فى العقد الثانى من عمره دفعه إلى حلقات الدرس فى المساجد، ويُرْوى أنه عُنى خاصة بأن يلحقه بحلقة ابن الأعرابى المتوفَّى سنة ٢٣١ وأنه سمع منه أرجوزة فى نحو عشرين بيتًا وحفظها بمجرد سماعها ، مما يدل على ذكائه وقوة ذاكرته . ولم يكتف سعيد بحلقة هذا العالم اللغوى الكبير ، فقد مضى يختلف إلى حلقات العلماء من كل صنف ، مُكِبًّا عليها ناهلا منها متمثلا لما يقدَّم فيها من غذاء أدبى وفكرى ، مما جعل المسعودى يقول عنه : «كان سعيد حافظًا لما يُسْتَحسن من الأخبار ويستجاد من الأشعار متصرفًا فى فنون العلم ، مُمْتِعًا إذا حدَّث ، مُفيداً إذا جولس» . ولعل ذلك ما جعل فضلا الشاعرة تُعْجَبُ به ، وتعقد بينها وبينه مودة ظلت فترة طويلة، وظلا يتبادلان فيها الرسائل الشعرية، على نحو ما مرَّ بنا فى حديثنا عن فضل . وكان قد ملأه الطموح بالنجاح فى سامراء عاصمة الخلافة فتحول من بغداد إليها . ولا ريب فى أن حلاوة محضره وعذوبة أحاديثه جعلتا كثيرين من أدباء عصره تشرئب أعناقهم إلى صحبته، وكانت فيه دُعابة تجعل مجلسه خفيف الروح ، مما جعل أبا على البصير وأبا العَيْناء نديمى المتوكل يألفانه ويختلفان إلى مجالسه ، وتدور بينهما وبينه مداعبات ومعاتبات ومكاتبات ، كما قال الرواة . ويبدو

(١) انظر فى ترجمة سعيد ورسائله الفهرست ص ١٨٥ والأغانى (طبعة الساسى) ١٧ / ٢ ومروج الذهب ٤ / ٦١ وابن خلكان وكتاب رسائل سعيد بن حميد وأشعاره ليونس أحمد السامرائى (طبع بغداد) وجمهرة رسائل العرب لأحمد زكى صفوت.

أنه كان ينتظم بين كُتَّاب الدواوين لعهد المتوكل ، إن لم يكن قد انتظم فيها قبل ذلك ، وإنما يدفعنا إلى هذا الرأى ما اشتهر به من تعصبه على آل على بن أبى طالب تعصباً شديداً حتى ليقول ابن المعتز : « كان سعيد من أشد الناس نَصْباً (عداء) لعلى وانحرافاً عن آل الرسول عليه السلام »[1] ويقول المسعودى : «كان يتنصَّب ويظهر التسنن والانحراف عن أمير المؤمنين على بن أبى طالب رضى الله عنه وعن الطاهرين من ولده » . ومرَّ بنا فى غير هذا الموضع موقف المتوكل من العلويين وأمره بهدم قبر الحسين فى كربلاء وانحرافه عن على وآله ، وكأن سعيداً اعتنق أفكاره إما حقيقة وإما رياء للخليفة الموظف بدواوينه . على كل حال نظن فى هذا الانحراف عند المتوكل وسعيد معاً أنه كان يعمل فى ظله ، وأنه استحال بوقاً من أبواقه . ويقول صاحب الفهرست إن له كتاب انتصاف العجم من العرب ويُعْرَفُ بالتَّسْوِيَة ، والكتاب لم يصلنا ، ولا ندرى هل كان ينحرف عن العرب بدورهم انحرافاً شديداً أو انحرافاً خفيفاً ، على أن فى كلمة ابن النديم أن الكتاب يُعْرَفُ بالتسوية ما قد يشير إلى أنه لم يكن شديد العصبية فيه على العرب وأنه إنما كان يطالب بالتسوية بينهم وبين الأعاجم ، والتسوية كما مرَّ بنا فى هذا الكتاب وكتاب العصر العباسى الأول لا تدخل فى العصبية المنحرفة لدى بعض الأعاجم والمعروفة باسم الشعوبية . وفى أشعاره ما يدل على أنه كان معتزليًّا مثل أبيه على نحو ما نرى فى قوله[2] :

قد قلتُ بالعدل ولكننى ... عدلتُ فى الحبِّ عن العَدْلِ

فقلتُ بالإجبار مستغفرًا ... لله من قولى ومن فعـلى

فهو يؤمن بنظرية العدل على الله المعروفة عند المعتزلة ، والتى تتيح للإنسان حرية الإرادة والاستطاعة ، حتى يكون ثوابه وعقابه جزاء لما قدمت يداه ، بينما يذهب أصحاب الجبر إلى أن كل شىء بقضاء وقدر وأنه لا مفر من الاستسلام للمقادير .

ولعل فى ذلك كله ما يصور شخصية سعيد وأنه كان مثقفاً ثقافة واسعة ، ثقافة بالعربية وبمواد المعرفة الأجنبية ، وهيأ له ذلك أن يصبح من كتَّاب الدواوين

(١) طبقات الشعراء لابن المعتز ص ٤٢٦ .

(٢) كتاب رسائل سعيد بن حميد وأشعاره ص ١٤١ .

مبكراً . وما يزال يرقى فيها وأعين رؤسائها تَرْمُقه وتلاحظه ، إذ كان شاعراً بارعاً وكاتباً نابغاً .

وكانت أولُ حادثة لمع فيها اسمه البيعةَ للمنتصر بعد مقتل أبيه المتوكل سنة ٢٤٧ ، فقد ذكر أن أحمد بن الخصيب وزير المنتصر قال له : ويلك يا سعيد ! أمعك كلمتان أو ثلاث تأخذ بها البيعة ؟ قلت : نعم وكلمات ، وعملتُ كتابَ البَيْعة . وهو كتاب طويل استهلَّه بقوله[1] :

« بسم الله الرحمن الرحيم . تبايعون عبد الله المنتصر بالله أمير المؤمنين بيعة طَوْع واعتقاد ورضًا ، ورغبة بإخلاص من سرائركم ، وانشراح من صدوركم ، وصدق من نِيَّاتكم لا مُكْرَهين ولا مُجْبَرين ، بل مقرّين عالمين بما فى هذه البيعة وتأكيدها من طاعة الله وتقواه ، وإعزاز دين الله وحقه ، ومن عموم صلاح عباد الله واجتماع الكلمة ، ولَمِّ الشَّعَث ، وسكون الدَّهماء ، وأَمْن العواقب ، وعزِّ الأولياء ، وقَمْع الملحدين . . . لا تشكّون ولا تُدْهنون (تمالئون) ولا تميلون ، ولا ترتابون ، وعلى السمع له ، والطاعة والمسالمة ، والنصْرة والوفاء والاستقامة والنصيحة فى السر والعلانية ، والخُفوف والوقوف عند كل ما يأمر به » .

وأكبر الظن أن صوت سعيد اتضح فى هذه السطور القليلة ، فهو يُعْنَى أشد العناية باختيار لفظه ، وهو لا يطيل عباراته ، بل يجعلها قصيرة ، حتى لتصبح كلمة مثل : « طوع واعتقاد ورضًا » ، ومثل « اجتماع الكلمة ، ولَمِّ الشعث ، وسكون الدهماء ، وأمن العواقب ، وعز الأولياء ، وقمع الملحدين » فالكلمات تتعاقب ، جزلة حقا ، ولكنها خفيفة على الأفواه والشفاه ، إذ لا تلبث أن تحملها حتى ترسلها . ويظل كاتباً لأحمد بن الخصيب طوال خلافة المنتصر ، حتى إذا ولى الخلافة بعده المستعينُ لسنة ٢٤٨ عزل ابنَ الخصيب من الوزارة ، واستوزر مكانه أبا صالح عبد الله بن محمد بن يزداد وسرعان ما عزله واستوزر محمد بن الفضل الجرجرائى ، فجعل رياسة ديوان الرسائل لسعيد بن حميد[2] ، وبذلك أصبح الكاتبَ الأول فى الدولة الذى تَصْدر عنه جميع رسائلها الديوانية ، ومما كتبه حينئذ رسالةٌ خطيرة عن محمد بن عبد الله بن طاهر إلى أهل بغداد ، وكان المستعين قد

(١) انظر الطبرى ٩ / ٢٣٥ وما بعدها . (٢) طبرى ٩ / ٢٦٤ .

نزلها سنة ٢٥١ بُعْداً عن سامرّاء مدينة الترك وبَغْيهم ، فبايعوا المعتز ، ونازلوا ابن طاهر ببغداد فهزمهم ، حينئذ نراه يأمر سعيد بن حميد بكتابة رسالة تذكر الوقعة حتى تُقرَأ على أهل بغداد فى مسجد جامعها ، وهى رسالة طويلة طولا شديداً نقتطف منها بعض الفقر التالية :

« ساروا نحو مدينة السلام (بغداد) معلنين للبَغْى والاقتدار ، مظهرين للغَىِّ والإصرار ، فتأنّاهم أمير المؤمنين (المستعين) وفسح لهم فى النَّظِرة ، وأمر بالكتاب إليهم بما فيه تبصيرهم الرشد . . . وأن يبيّن لهم ما سلف من بلائه عندهم من أسْنَى المواهب ، وأرفع الرَّغائب ، والاختصاص بِسَنِىِّ المراتب ، والتقدم فى المحافل ، فأبوا إلا تماديًا ونفاراً ، وتمسكًا بالغَىِّ وإصراراً . . . وقابلوا الموعظة بالإصرار على الذنب ، وعارضوا التبصير بالاستبصار فى الباطل . . . وصَدَقَتهُمْ أولياء الله (جنود المستعين وابن طاهر) فى لقائهم بقلوب مستجمعة لهم ، وعلمٍ بأن الله لا يُخْلف وعده فيهم ، فجالت الخيل بهم جولةً ، وعاودتْ كرَّةً بعد كرَّة ، طعنًا بالرماح ، وضربًا بالسيوف ، ورَشْقًا بالسهام ، فلما مسّهم ألم جراحها وكَلَمَتْهم (جرحتهم) الحرب بأنيابها ، ودارتْ عليهم رَحاها ، وصمد لهم أبناؤها ظَمَأً إلى دمائهم ، ولّوا أدبارهم ، ومنح الله أكتافهم ، وأوقع بأسَه بهم ، فقُتلت منهم جماعة لم يحترسوا من عذاب الله بتوبة ، ولم يتحصّنوا من عقابه بإنابة . . . فمن قتيلٍ غُودرتْ جثته بمصرعه ، ونُقلت هامته إلى مصيرٍ فيه معتبَرٌ لغيره ، ومن لاجئ من السيف إلى الغَرَق لم يجرْه الله من حذاره ، ومن أسير مصفود (موثق بالأغلال) يقاد إلى دار أولياء الله وحزبه ، ومن هارب بِحُشاشة نفسه . . . فِرَقًا أربعًا تجمعها النار ، ويشملها عاجل النكال عِظةً ومعتبراً لأولى الأبصار » .

وواضحٌ تقطيع العبارات وتقابل الكلم فى الرسالة ، وكأننا بإزاء حائك ، يقيس ثيابًا متماثلة مقدَّرة على معانيها . وقد يتكامل التقطيع ، فيظهر السجع ، ولكنه ليس سجعًا متكلّفًا ، فليس مردّه إلى محاولة صَنْعة ، وإنما مرده إلى دقة التقطيع ، حتى لتأخذ العبارات شكل سجعات متوالية . وما نزال نتنقل بين تقاطيع طريفة ، حتى نصل مع سعيد إلى تقسيم الجيش الذى دارت عليه الدوائر أقسامًا أربعة :

فهم بين قتيل وغريق وأسير وفار على وجهه لا يلوى .

ولسعيد تحميدات طريفة كان يضعها بين يدى رسائله الديوانية ، فمن ذلك تحميد كتب به فى فتح نهض به القائد التركى وصيف ، يستهله بقوله [(١)] :

« أما بعد فالحمد لله الحميد المجيد ، الفعّال لما يريد ، الذى خلق الخلق بقدرته وأمضاه على مشيئته ، ودبّره بعلمه وأظهر فيه آثار حكمته ، التى تدعو العقول إلى معرفته ، وتشهد لذوى الألباب بربوبيته ، وتدلّ على وحدانيته ، لم يكن له شريك فى ملكه فينازعه ، ولا مُعين على ما خلق فتلزمه الحاجة إليه ، فليس يتصرّف عباده فى حال إلا كانت دليلا عليه ، ولا تقع الأبصار على شىء إلا كان شاهداً له بما رسم فيه من آثار صُنْعه ، وأبان فيه من دلائل تدبيره ، إعذاراً بحجّته ، وتطولا بنعمته ، وهداية إلى حقّه ، وإرشاداً إلى سبيل طاعته . . . والحمد لله العزيز القهّار ، الملك الجبّار ، الذى اصطفى الإسلام واختاره ، وارتضاه وطهّره ، وأعلاه وأظهره ، فجعله حُجّة أهله على مَنْ شاقّهم (خالفهم) ووسيلتهم إلى النصر على مَنْ عَنَدَ (مال) فى حقهم ، وابتغى غير سبيلهم » .

والسجع كثير فى هذا التحميد ، وهو دليل على أنه ظهر ثمرة لكثرة التقاطيع فى العبارات ، وإحساس الكتاب بأنه لا بأس من استكمال هذه التقاطيع ، ولكن لا على أساس الجور على المعانى ، وإنما على أساس الوفاء بها . وسعيد يستوفى فى أول تحميده صفات الله جلّ شأنه من خلق وتقدير وعلم وحكمة فى تدبير الكون ، مما يشهد بوحدانيته . ونحس أثر قراءته لمباحث المتكلمين حين يلمُّ بالوحدانية إذ يقول : لو كان هناك إلهان أو آلهة لتنازعت فيما بينها على السلطان ، وأيضًا فإن هذا يؤول إلى أن يكون هناك آلهة تُعينه فى الخَلق وتساعده ، ولو صحّ ذلك لأصبح الله محتاجًا إليها وانتفت عنه ألوهيته ، إذ يمسه الضعف والعجز من بعض الوجوه ، ويعرض حجة على ربوبيته التأمل فى خلق الإنسان وفى نظام الكون مما يهدى إلى طريق الرّشاد .

ولسعيد بجانب الرسائل الديوانية التى كان يكتبها فى أثناء عمله بالدواوين رسائل إخوانية كثيرة ، منها تهنئات بعيد النّيْروز وشوق وعزاء واعتذار ودعوة إلى

(١) جمهرة رسائل العرب ٤ / ٢٩٥ .

مجالس الأنس وشكر وهجاء واستمناح لبعض الأشخاص وتوصيات ، ونعم طائفة منها بادئين بتهنئاته فى عيد النيروز ، فمن ذلك رسالة إلى أبى صالح يزداد وزير المستعين[1] :

« النفسُ لك ، والمالُ منك ، والرجاءُ موقوفٌ عليك ، والأمرُ مصروفٌ إليك ، فما عسانا أن نُهْدى لك فى هذا اليوم ، وهو يوم سَهَّلت فيه العادة ، سبيل الهدايا للسادة ، وكرهتُ أن نخليه من سُنَّته فنكون من المقصّرين، أو نَدَّعى أن فى وسعنا ما يَفِى بحقك علينا فنكون من الكاذبين ، فاقتصرنا على هدية تقضى بعض الحق ، وتقوم عندك مقام أجمل البِرّ ، وهى الثناء الجميل ، والدعاء الحسن ، لا زلتَ أيها الأمير دائم السرور والغبطة فى أتم أحوال العافية ، وأعلى منازل الكرامة ، تمر بك الأعياد الصالحة ، والأيام المفرحة ، فتُخْلِقها وأنت جديد ، وتستقبل أمثالها ، فتلقاك ببهائها وجمالها . وقد بعث الرسول بالسكَّر لطيبه وحلاوته ، والسَّفرجل لفأله وبركته ، والدرهم لبقائه عند كل من ملكه ، ولا زلت حُلْوَ المذاق على أوليائك، مُرًّا على أعدائك ، متقدِّمًا عند خلفاء الله الذين تليق بهم خدمتك وتحسن أفنيتهم (ساحاتهم) بمثلك » .

والرسالة تحمل أسلوبَ سعيد وما يميزه من التقطيعات المتوالية والمعانى المتقابلة ، فالنفس يقابلها المال ، والرجاء يقابله الأمر . ويسقط السجع سقوطًا طبيعيًّا ، كأنه ثمر يسقط من شجرة مورقة . ويمسح على ذلك لطف الحضارة ، وما يمتاز به أهلها من دقة الحِسّ ورهافة الذوق ، على نحو ما يتضح فى المعانى التى تحملها الهدية ، فالسكر رمز للحلاوة والسفرجل رمز للبركة والدرهم رمز لبقاء الوزير فى عزّه .
ويكتب برسالة مماثلة إلى الحسن بن مخلد وزير المعتمد على هذا المنوال[2] :

« أيها السيد الشريف ! عشتَ أطول الأعمار بزيادة من العمر ، موصولة بقرائنها من الشكر ، لا ينقضى حق نعمة ، حتى تجدّد لك أخرى ، ولا يمر بك يوم إلا كان مقصرًا عما بعده ، موفيًا على ما قبله . إنى تصفحت أحوال الأتباع الذين تجب عليهم الهدايا إلى السادة ، فالتمست التأسى بهم فى الإهداء ، وإنى إن

---

(١) العقد الفريد ٦ / ٢٨٢ وديوان المعانى ١ / ٩٥ .

(٢) عيون الأخبار ٣ / ٣٩ ، والعقد الفريد ٦ / ٢٨١ وديوان المعانى ١ / ٩٤ .

أهديت نفسى فهى ملك لك، لا حظّ فيها لغيرك ، وإن رميتُ بطرفى إلى كرائم مالى وجدتها منك . . . وفزعتُ إلى مودتى فوجدتها خالصة لك قديمة غير مستحدثة فرأيت إن أنا جعلتها هديتى لم أجدّد لهذا اليوم الجديد بِرًّا ولا لَطَفًا (هدية) ولم أقِس منزلةَ من شكرى بمنزلة من نعمتك إلا كان الشكر مقصراً عن الحق ، والنعمة زائدةً على ما تبلغه الطاقة ، فجعلت الاعتراف بالتقصير عن حقك هدية إليك ، والإقرار بما يجب لك بِرًّا أتوصَّل به » .

والرسالة تحمل فى جوهرها معانى الرسالة السابقة ، وفيها نفس التلطف ، وإن كان قد ازداد رقة فى الدعاء وفى التعبير عن الاعتذار بالتقصير ، فليس هناك ما يستطيع تقديمه حتى نفسه ومودته قدَّمهما من قبل ، ولم يبق فى طاقته سوى الحمد والثناء والشكر الذى لا يماثله شكر ، وتتوافر التقطيعات فى الرسالة ويظهر السجع أحيانًا فى خفة وبدون أى تكلف لجهد أو عناء . ويكتب لصديق عُزِل عن عمله ، مسليًا له[1] :

« حفظك الله بحفظه ، وأسبغ عليك كرامته ، وأدام إليك إحسانه ، إن سرورى بِصَرْفك أكثرُ من سرور أهل عملك بما خُصُّوا به من ولايتك . وقد كنت ـــ أعزَّك الله ـــ فيما يُرْبَأ بك عنه بما أنت عليه فى قدرك واستئهالك ، ولكنا رجونا أن يكون سببًا لك إلى ما تستحق ، فطِبْنا نَفْسًا بالذى رجونا . فالحمد لله الذى سلَّمك منه ، ونسأله تمام نعمه عليك وعلينا فيك ، بتبليغك أملك وآمالنا فيك وشَفْع (قَرْن) ما كان من ولايتك بأعظم الدرجات ، وأشرف المراتب ، ثم خصَّك الله بجميل الصُّنْع ، وبلَّغك غاية المؤملين . إن من سعادة الوالى ـــ حفظك الله ـــ وأعظم ما يُخَصّ به فى عمله وولايته السلامةَ من بوائِق (دواهى) الإثم ، ونوائب الدنيا وشرها ، والعاقبة مما يخاف منها ، وقد خصَّك الله منها ـــ بِمَنِّه وطَوْله (إنعامه) ما نرجو أن يكون سببًا لك إلى نيل ما تستحق من المراتب ، والله نسأل إيزاعك (إلهامك) شكر ما مَنّ به عليك ، وتبليغك غاية أملك فى جميع أمورك ، برحمته وفضله » .

والرسالة طريفة غاية الطرافة إذا عكس سعيدٌ العزاءَ عن العمل ، وجعله تهنئة

(١) جمهرة رسائل العرب ٤ / ٢٨٧ .

خليقةٌ بأن تُنْصب لها أعلام السرور . ومضى يصوّر سروره وأنه يزيد على سرور أهل عمله حين جاءهم نبأ تولية هذا العامل عليهم . ويؤكد سروره بقوله إنه طاب نفسًا ، وقد أحسن اختيار هذه الكلمة . ثم أخذ يحمد له السلامة من هذا العمل ويعدُّ ذلك نعمة ليس فوقها نعمة ، ويدعو له بأن يبلغ أعظم الدرجات وأشرف المراتب ، كما يدعو له بأن يعرف حق هذه النعمة ويشكر الله عليها أصدق الشكر ، ويتمنى له أن يبلغ غاية آماله . وكأنما الرسالة ضرب من الحيل العقلية التي كانت تدور فى المجالس ، والتى كانت تعرض محاسن الشيء ومساوئه . فقد يكون حسنًا وينقلب سيئًا ، وقد يكون سيئًا وينقلب حسنًا ، ولا يرى فيه إلا الحسن ، بفضل الذخائر العقلية التى حازها لنفسه العصر العباسى . وله من رسالة تعزية[1] :

« إذا استوى المعزَّى والمعزِّى فى النائبة استُغنى عن الإكثار فى الوصف لموقع الرزيَّة . . . وأنا أقول إنا لله وإنا إليه راجعون ، إقراراً له بالهلكة ، واعترافًا بالمرجع إليه ، وتسليما لقضائه ، ورضًا بمواضع أقداره ، وأسأل الله أن يُصَلِّيَ على محمد صلاة متصلة بركاتُها ، وأن يُوَفقك لما يُرْضيه عنك قولا وفعلا ، حتى يُكمل لك ثواب الصابر المحتسب وجزاءَ المطيع المتنجِّزِ للوعد ، ويَرْحم فلاناً ويُحِله أعلى منازل أوليائه الذين رضى سَعْيهم ، وتطول بفضله عليهم ، إنه ولىٌّ قدير » .

والحيلة أيضًا فى هذه الرسالة واضحة ، فقد جعل وفاة الشخص شركة بينه وبين المعزَّى ، فهو أيضًا حرى بأن يُعَزَّى فيه ، وكأن المصيبة فيه مصيبة عامة ، والحزن عليه لا يقف عند من أرسل له هذه الرسالة ، بل يشمل كثيرين هو أحدهم . وقد أخذ يحتال على أن يَسْلُوَ عنه صاحبه ، تسليمًا للقضاء ، واعترافًا بأن كل من عليها فان ، ورضا بالمقادير ، وإنه ليدعو الله أن يوفق صاحبه للصبر على المصيبة ، حتى يحوز ثواب المحتسب الصابر ، ويدعو للمتوفى أن يرحمه الله وينزله مع أوليائه وأصفيائه فى الدرجات العلية . وله يهنئ بعض إخوانه بولاية[2] :

« أنا أهنئ بك العمل الذى وَليته ، ولا أهنئك به ، لأن الله أصاره إلى من يورده موارد الصواب ، ويُصدره مصادر الحجَّة ويصونه من كل خلل وتقصير ، ويمضيه بالرأى الأصيل ، والمعرفة الكاملة . قَرَنَ الله لك كل نعمة بشكرها ،

---

(١) جمهرة رسائل العرب ٤ / ٢٩٢ .

(٢) جمهرة رسائل العرب ٤ / ٢٨٩ .

وأوجب لك بِطَوْله المزيد منها، وأوْزَعَكَ (ألهمك) من المعرفة بها مايصونها من الفتن ويحوطها من النقص ».

والرسالة مع إيجازها تبدأ بحيلة من حيل الفكر العباسى الخصب الحافل بما يلفت السامع ويروعه ، وهى أن العمل هو الذى يهنَّأ بهذا الوالى ، لا أن الوالى هو الذى يهنَّأ به ، إمعانًا فى المدح والإطراء ، فقد كان من حسن حظ هذا العمل أن صار بيد من يدبره على خير وجه ممكن فى الإيراد والإصدار ، ومن يصونه ويحفظه من أى خلل أو تقصير ، مع الفكر الحصيف والمعرفة التامة . ويدعو له بالأمن فى عمله والسلامة من الفتن والثورات ، وهو خطاب مقتضب ، ولكنه جامع شامل ، مع اللفظ المنتقى والأسلوب المصفَّى . وله من رسالة فى ذم بعض الأشخاص وهجائه[1] :

« رجلٌ يَعْنُفُ بالنعم عُنْفَ من قد ساءته بمجاورتها ، ويستخفُّ بحقها استخفافَ من لا يخفّ عليه محملها ، ويقصِّر فى الشكر تقصير من لا يعلم أن الشكر يرتبطها . . فكيف يتسع الصدر للصبر عليه ؟ إن الله لا يخاف الفوت فهو يُمْهله ، وإنه إن مات لم يخرج من سلطان الله جَلَّ وعَزَّ إلى سلطان غيره فيعاجله » .

وهذه الكلمات على قصرها من ألذع الهجاء ، وهل هناك شخص تسوؤه النعم سوى هذا الشخص الذى لا يعرف قدرها ، بل إنه يعنف بها عنف عدوّ غاشم ، وإنه ليستخفُّ بحقوقها استخفافَ مَنْ ثقل عليه النهوض بها وحملها ، وهو لذلك كله يطَّرح الشكر عليها اطراح الجاهل بأن الشكر هو الذى يكفل لها البقاء ، وهو لا يدرى أنه مع طغيانه وبَغيه على نعمة ربه سيلقى جزاءه ، إنه يُمْهله ، لأنه لا يعرف أنه لن يخرج حين يموت عن دائرة سلطانه . والكلمات والعبارات مختارة بدقة . وله فى الدعوة إلى يوم أُنْس من رسالة[2] :

« لا عُذْر فى التخلف عنك ، وإن حال الاشتغال بيننا وبينك ، فإن كنت سامحت على العُذر قبل الاعتذار ، وسبقت إلى فضيلة الاغتفار ، فلا زلت على كل خير دليلا ، وإليه داعيًا ، وبه آمراً ، وقد التقينا قبل وصول كتابك لقاء أحدث قَطْراً (دموعاً منهمرة) وهاج شوقًا ، وأرجو أن تتسع لنا الجمعة بما بخلت به الأيام ، فننال حظًّا من محادثتك والأنس بك ».

---

(١) صبح الأعشى للقلقشندى ٩ / ٢١٩ .

(٢) زهر الآداب ٣ / ٣٦١ .

وهو يعترف بأنه مقصر وخليق بالاعتذار لتخلفه عن زيارة صديقه ، ويعتذر بكثرة أعماله ، ويتلطف معه ، فيجعله قَبِل عذره قبل تقديمه وغفر له تقصيره . وانظر كيف عبَّر عن مدى تأثرهما عند اللقاء بقوله إنه لقاء أحدث قَطْراً . ودائماً لاتفوته الكلمة الموجزة المعبِّرة أدق تعبير وأقواه. ومن رسالاته عن فضل محبوبته وقد ظن بها الظنون وأنها تعثَّرتْ فى حِبال غيره[1] :

« أصبحتُ — والله — من أمر فضل فى غرور ، أخادع نفسى بتكذيب العِيان ، وأمنِّيها ما قد حِيل دونه . والله إن إرسالى إليها — بعد ماقد لاح من تغيُّرها — لذلٌّ ، وإن عدولى عنها — وفى أمرها شُبْهة — لعجز ، وإن تصبُّرى عنها لمن دواعى التلف » .

والقطعة محبوكة العبارات ، وقد عمد فيها إلى بيان حالته النفسية إزاء تغيُّر فضل عليه ، متصوراً ثلاثة مواقف ، فهو إن راسلها كان ذلك ذلاً له وهواناً ما بعده هوان ، وهو إن انصرف عنها ولا يزال مشتبهاً فى أمرها لم يتبين بالضبط قطيعتها له كان ذلك عجزاً منه وتقصيراً ، وهو إن أخذ نفسه بالصبر عنها كان ذلك فوق طاقته وأدَّى به إلى التلف والهلاك . ودائماً نحسُّ عنده دقة التعبير ، وكأن الكلمات سهام تصيب مرماها . وله فصول بديعة تدور فى كتب الأدب من مثل قوله فى رسالة لصديق مصوِّراً مودته[2] :

« إنى أهديت مودتى إليك رغبةً ، ورضيت بالقبول منك مثوبةً ، فصرتَ بقبولها قاضياً لحق ، ومالكاً لرقٍّ ، وصرتُ — بالتسرع إلى الهدية والتخير للمثوبة — مُرْتَهَنَ اللسان بالرضا ، واليدين بالوفا » .

وانظرْ تصويره لمودته بأنها هدية أهداها لصاحبه ، ودائماً تُرَدُّ الهدايا ، وهو لا يريد لها ردًّا ولا جزاءً سوى قبول الصديق لها ، ويقول إنك إن قبلتها أصبحت ناهضاً بحق ومالكاً لعبد ، جعل رِقَّهُ فى يديك وحريته طوع مشيئتك ، وكل ذلك كناية عن مدى إخلاصه فى أخوته وصداقته . وهو يصوِّر نفسه، وقد قدَّم الهدية وتخيَّر جزاءها مودة صديقه بل قبوله لها ، قد أصبح لسانه مرتهناً بحرمتها ويداه مقيدتين بالوفاء لها ونفسه مستعبدة له . ولا تُعْرَف بالضبط السنة التى توفى فيها سعيد، وأكبر

(١) الأغانى (طبعة الساسى) ٢١ / ١١٩ . (٢) جمهرة رسائل العرب ٤ / ٢٩٧ .

الظن أنه عاش إلى أواسط عصر المعتمد (٢٥٦ــ ٢٧٨ هـ) . ولعل فى كل ما قدمنا ما يصور مهارته البيانية فى الرسائل الإخوانية والديوانية ، فقد كان يُعْنَى أشد العناية باختيار ألفاظه وتقطيع عباراته حتى لينتهى التقطيع أحياناً إلى السجع ، كما كان يُعْنَى بمعانيه وجَلْب ما يروق منها بدقته وطرافته .

٥

أبو العباس بن ثوابة [1]

هو أبو العباس أحمد بن محمد بن ثوابة المتوفى عام ٢٧٧ للهجرة ، وهو من أسرة أصلها مسيحى ، عملتْ فى دواوين الخلافة ، منذ أواسط القرن الثالث للهجرة إلى منتصف القرن الرابع . وأول من لمع اسمه منهم محمد بن ثوابة وكان يعمل فى دواوين الدولة ، وهو من ممدوحى البحترى ، وكان ابنه جعفر يتولّى ديوان الرسائل فى أيام عبيد الله بن سليمان بن وهب الوزير بأخرة من عصر المعتمد ، وقد توفى سنة ٢٨٤ للهجرة ، وخلفه على رياسة هذا الديوان ابنه أحمد بن محمد بن جعفر بن ثوابة ، وسبق أن عرضنا له فى الفصل الماضى وقلنا إنه كان يسجع فى رسائله الديوانية ، وقد توفى سنة ٣١٢ فخلفه على رياسة الديوان ابنه أحمد حتى سنة ٣٤٩ للهجرة . ويبدو أن السجع نما على أيدى هذه الأسرة وكانت عاملاً من عوامل انتشاره فى الكتابتين الديوانية والإخوانية .

وليست بين أيدينا معلومات واضحة عن نشأة أبى العباس بن ثوابة ، ولكن لابد أن أباه وكان يشتغل فى الدواوين أخذه مبكراً بالدرس والتحصيل ، بادئاً معه من الكتّاب ، ومنتهياً به إلى حلقات العلماء فى المساجد ، حتى إذا غزرت ثقافته تحول به إلى الدواوين الرسمية ونراه متألقاً فيها منذ عصر المهتدى [2] (٢٥٥ــ٢٥٦هـ) ، وما زال نجمه فى صعود حتى اختير لرياسة ديوان الرسائل لأوائل عصر المعتمد . وكانت لاتُعْقَدُ إلا لمن أثبت كفاءته وعُرفت بلاغته . وكان طبيعياً أن تكثر الصلات والمودات بينه وبين سعيد

---

(١) انظر فى أبى العباس بن ثوابة الفهرست ص ١٩٣ ومعجم الأدباء ٤ / ١٤٤ وجمهرة رسائل العرب ٤/٣٢٣ وما بعدها .

(٢) الأغانى (طبعة الساسى) ٢٠ / ٦٩.

ابن حميد وغيره من كتّاب عصره وشعرائه، ولابن الرومى فيه مدائح مختلفة ، وكذلك للبحترى ويُرْوَى له توقيع وقّع به فى قصيدة له ، استمنحه فيها قضاء حاجة على هذا النحو : « مقضيّة ولو أتلفت المال ، وأذهبت الحال ، فقل — رعاك الله — ما شئتَ منبسطًا ، وثِق بما أنا عليه لك مغتبطًا ، إن شاء الله تعالى » . ويبدو أنه ظلّ على ديوان الرسائل حتى تولى إسماعيل بن بلبل الوزارة للمعتمد سنة ٢٦٥ ، وكانت بينهما وحشة شديدة . ودخل عليه أبو العباس ووقف بين يديه ، ثم قال أيها الوزير : (لقد آثرك الله علينا وإن كنا لخاطئين) ، فقال له ابن بلبل : (لا تثريب عليكم) يا أبا العباس ، ورفع مجلسه ، غير أنه صرفه عن الديوان وولاه نواحى بابل وسواد بغداد الغربى ، فضاعف — وزاد — فى الدعاء له ، ويقال إنه ظل على تلك النواحى حتى وفاته .

وأبو العباس أحد كتاب العصر وبلغائه ، وفى أخباره أنه كان شديد العناية بأناقته وبكل ما يتصل بحياته شديد التكلف ، ويضرب الرواة لذلك مثلا بعبارات له شديدة الغرابة ، وأنه قال يومًا وقد استمع إلى حاجم : علىّ بماء الورد أغتسل فى من كلام الحاجم . وأُثِرَ له عهد طويل إلى أحد الولاة من الموفق ولى عهد المعتمد ، ومرّ بنا أنه كان الخليفة الحقيقى طوال عصر أخيه ، ولذلك كانت العهود إلى الولاة تصدر عنه ، والعهد يبتدئ على هذا النمط[1] :

« هذا ما عهد به أبو أحمد الموفّق بالله ولىّ عهد المسلمين إلى فلان حين ولاّه الصلاة بأهل كورة الرّىّ ودُنْباوَنْد ونواحيها ، والحربَ والأحداثَ فيهما . أمره بتقوى الله وطاعته ، وخشيته ومراقبته ، فى سرّه وعلانيته ، وظاهر أمره وباطنه والعمل بما أمر الله به ، والانتهاء عما نَهَى عنه فيما وافقه وخالفه ، وأرضاه وأسخطه فإنه من يتّق الله يَقِهِ ، ومَن يعتصم به يَهْدِه ، ومَنْ يُطِعْه يتولّه ويكْفه (إن الله مع الذين اتقوا والذين هم محسنون) . وأمره أن يملأ قلبه خيفة الله وهيبته والتفويضَ إليه ، والاعتماد عليه ، وأن يجعل كتاب الله عزّ وجلّ له إمامًا ، وسُنّةَ نبيه صلى الله عليه وسلم مثالا ، فإن فيهما دلالةً وتبيانًا ، وضياءً ونورًا وشفاءً لما فى الصدور وهُدًى ورحمةً للمؤمنين . وأمره أن يكون أولُ

(١) جمهرة رسائل العرب ٣٣٤/٤ .

ما يُعْنَى به ويقدّمه، ويراعيه ويؤثره، إقامةَ الصلاة لمواقيتها بإتمام ركوعها وسجودها وأداءِ فَرْض الله فيها ، إذ كانت عماد الدين ، وأفضلَ ما تقرَّب به المؤمنون ، وكان مَنْ أضاعها وقصَّر فى واجبها ، أشدَّ تضييعًا لما سواها من حقوق الله عزَّ وجلَّ وفرائضه ودينه وشرائعه (وإنها لكبيرةٌ إلا على الخاشعين) . وأمره أن يُلْهم نفسه فى كل حال من حالاته وصغير وكبير من أمره ، ذكرَ الله جل ثناؤه ، وألا يُمْضِىَ أمراً إلا بعد استخارة الله عزَّ وجلَّ فيه، واستقصائه فى ذلك بالذى هو له أرضى ، وعنده أزكى ، فإن العاقبة للتقوى، وإن أفضل الأمور خَيْرُها عاقبةً ، وأحمدها مَغَبَّةً ، وما التوفيق إلا بالله ، عليه يتوكل المتوكلون » .

وقد استهلَّ أبو العباس بن ثوابة العهد — كما يلاحظ القارئ — بالسجع ، ثم رآه سيطول إذ يمتد نحو ثمانى صفحات ، فانصرف عنه مكتفيًا بتقطيع العبارات وباصطفائها واصطفاء الألفاظ التى تتألف منها . وقد حاول أن يُنْهى كل أمر بآية أو كلمة من القرآن تناسبه . وهو يمضى فى العهد ، فيأمر الوالى بحسن سياسته لأهل عمله وأخْذه لهم بالعدل والنَّصَفة وإحقاق الحقوق ، وأن يتخذ مساعديه فى إدارة الحكم من أهل العفاف والكفاية ، وأن يقدّم أهل الفضل والصلاح والمشايعين للدولة ويتخذ منهم مستشاريه ، وأن يقيم الحدود متبعًا لما جاء فى محكم التنزيل والسنة النبوية وما نصَّ عليه الفقهاء، وأن يجعل دَبْرَ أذنه ما قد يكون بينه وبين بعض الرعية من حقد وضغينة ، وأن يقمع أهل الدعارة والفساد بإقامة الحدود عليهم دون إفراط ، فإن لكل شىء قدراً، وأن يصرف عنايته إلى أطراف ولايته ، وخاصة التى تقابل الأعداء فيسدَّ خللها ويرتق فَتْقها ، ويعاجل أى متسرع للفتنة أو الثورة بها . ويطلب إليه أن يراقب التجار ولا يدعهم ينقلون زَاداً ولا عَتَاداً من الأسلحة إلى ديار العدو ، وينزل العقاب بمن يخالف منهم هذا الأمر ، وهو يدلّ على يقظة الدولة . ويأمره أن يحسن التعاون مع صاحب الخراج وأن يقدم له ما يريد من المساعدين ، حتى يَدِرَّ الخراج ويكثر حلابه ، كما يأمره أن يتفقّد مَنْ فى السجون ، ويُكثر عَرْضهم والنظر فى أمورهم والأسباب التى حُبسوا بها ، آخذاً بمشاورة أهل الفقه فيهم . ومن أطرف ما فى العهد أن نراه يأمر الوالى بالأمانة فى

ولايته ، وألا يأخذ أى ضرائب استثنائية من الرعية ، لا بحجة الضيافة ولا بأى حجة أخرى . ومرَّ بنا فى الفصل الأول كيف أن الولاة تحولوا لصوصًا وقُطّاع طرق يختلسون الأموال من الناس دون أى رحمة أو شفقة ، وكأن أبا العباس بن ثوابة يشير إلى ذلك على لسان الموفق إذ يقول للوالى إنه :

« أمره ألا يَتَقسم على أهل عمله قسمةً بسبب نُزُل (ضيافة) ولا غيره ، مما كان شرار العمال يُوظّفونه ويقسمونه على أهل أعمالهم ، ويتجنّب الطُّعَمَ (وجوه المكاسب) الشائنة ، والمكاسب الرديئة . ويحذر أن يعرض لشىء منها ، أو يطلقه لأحد من كُفاته (معاونيه) فيَرِد عليه من النكير ما هو حرىٌّ بتوقيه والتصوُّن عنه » .

ويعرض فى العهد لوظيفة الحِسْبة . وكان المحتسب يراقب الأسعار فى الأسواق ، ويقوم فيها مقام رجل الشرطة والقاضى معاً ولذلك كان يُختار من رجال الفقه والشريعة . فهو يحقق ويحكم ويدين ويردّ عن المظلوم الظلم ، ويراجع المكاييل والموازين ، ويعاقب الغاشّ المخادع ، وفى ذلك يقول عن لسان الموفق لواليه :

« وأمره أن يتخيَّر للحِسْبة على أهل الأسواق وسائر أصحاب الصناعات والبياعات (السلع) فى عمله مَنْ يُعْرَف بالقصد فى مذهبه ، والسِّتْر فى نفسه ، والعفاف فى طُعمته (وجه مكسبه) واستيفاء الحق فيما يقلّده ويُستكفَى القيامَ به ، ويتقدَّم إليه فى أخذ كل طبقة من أهل الطبقات التى يقع عمله فى الحسبة فيها بتصحيح المعاملة ورَفْع الغِشِّ ، وتجنب كل ما عاد بمضرّة على المسلمين أو تحيُّف (تنقص) لهم ، وتعيير (قياس) المكاييل والموازين فى سائر عمله ، وإقامتها على الوفاء والعدل ، وختْمها بالرصاص ، وحَمْل المبتاعين فيها وغيرهم عليها ، والإشراف على ما يرسُمه ، ويتقدم بامتثاله فى سائر وجوه الحسبة ، حتى لا يخالَفَ شىء منه إلى غيره ، ومعاقبة مَنْ عَسَى أن يُقدم على مخالفته فيه ، بما يَرْدَعه ، ويعظ مَن سواه ، فإن الله عزَّ وجلَّ يقول : (أوْفُوا الكَيْلَ ولا تكونوا من المُخْسِرين وَزِنوا بالقِسْطاسِ المستقيم ولا تبخسوا الناس أشياءهم ولا تَعْثَوْا فى الأرض مفسدين) » .

وهى قطعة طريفة فى العهد ، إذ تصوِّر أعمال رجال ،

يُشْتَرَطُ فيهم من معرفة بالشريعة وحدودها وأن يكونوا من التقاة أهل السَّتْر والعفاف حتى لا يتحولوا إلى ذئاب فى الأسواق فارضين على التجار وأصحاب الصناعات هدايا ورشاوى ، من شأنها أن تفسد الذمم فساداً لا حَدَّ له ، وبالتالى تفسد الأسعار والبيع والشراء . ويصوّر مهمة المحتسب بأنها تصحيح المعاملات بين الناس ورفع الغش والخداع والمراجعة الدائمة لعيار المكاييل والموازين وختم الدقيق منها ختماً يدل على صلاحه ، بحيث لا يستعمل سوى الموازين والمكاييل المختومة التى أقرّها المحتسب ، وكلٌّ من حدثته نفسه بمخالفة ذلك ينبغى أن يُنْزل به المحتسب عقاباً رادعاً . وقد كُتب العهد بدون سجع ، وكان ابن ثوابة يفزع إلى السجع كثيراً ، ولعله لاحظ أنه موجّه للرعية كما جاء فى نهايته ، وأنه ينبغى لذلك أن يكون فى لغة واضحة لا يحْجُبُ السجعُ بعضَ معانيها ، ولا يحول بين العوام وتبين ما فيها .

وأثِرت له رسائل إخوانية كتب ببعضها إلى نفر من الوزراء ، وهو فيها تارة يُكْثِر من السجع وتارة يتخفّف منه بل قد يُهْمله تماماً على نحو ما نجد فى الرسالة التالية التى كتب بها إلى الوزير إسماعيل بن بُلْبل يهنئه بمصاهرة الموفق ولىّ عهد المعتمد وفيها يقول[1] :

« بلغنى للوزير – أيّده الله – نعمةٌ زاد شكرُها على مقادير الشكر ، كما أربَى مقدارُها على مقادير النعمة ، فكان مَثَلُها قولَ إبراهيم بن العباس الصولى :

بنوك – غَدًا – آلُ النبىِّ ووارثو الـ خلافـة والحاوون كِسْرَى وهاشما

وأنا أسأل الله تعالى أن يجعلها موهبة ترتبط ما قبلها ، وتنتظم ما بعدها ، وتصل جلالَ الشرف ، حتى يكون الوزير – أعزّه الله – على سادة الوزراء موفياً ، وبجميل العادة مستحقاً ، ولمحمود العاقبة مُسْتوجباً ، وأن يُلْبس أولياءه من هذه الحُلَل الغالية ما يكون لهم ذكراً باقياً وشرفاً مخلّداً » .

والرسالة تخلو من السجع ، ولكنها تحوى الكثير من المهارة الفنية ، وخاصة فى تقطيع الجمل وتقابلها واستيفاء معانيها ، على نحو ما ينضح فى العبارتين الأوليين

---

(١) معجم الأدباء ٤ / ١٥٧ .

منها ، واقتبس فيها بيتاً لإبراهيم بن العباس الصولى شديد الصلة بما تريد الرسالة أن تؤدّيه من معان . ويُعقبه بعبارات مقطّعة متقابلة ، وكأنما الكلمات تتشابك بالأيدى ، فقد كان يعرف كيف يضمُّ اللفق إلى اللفق والنظير إلى النظير ، بحيث تتماسك الكلمات وكأنها فى بناء متراص . وأشرنا فى الفصل السابق إلى إنكار إبراهيم بن المدبر فى رسالته العذراء التى وجّه بها إلى الكتّاب أن يقولوا فى رسائلهم : « جُعلْتُ فداك » وإنما أنكر العبارة لاشتراك معناها كما يقول واحتمالها أن تكون فداء من الخير أو فداء من الشر ، ويقول إن كتّاب العسكر (الجيش) وعوامّهم أولعوا بهذه اللفظة ، حتى استعملوها فى جميع محاوراتهم وجعلوها دأبهم فى مخاطبة الشريف والوضيع والكبير والصغير . وكأنما صدر أبو العباس بن ثوابة عن روح هذا النقد ، إذ كتب إلى الوزير عبيد الله بن سليمان رسالة خالية من قولهم : « جُعِلْتُ فداك » فعاتبه عبيد الله ، ولم يكد يسمع عتابه ، حتى كتب إليه برسالة ثانية ، يصوّر فيها نقد إبراهيم بن المدبر السالف ، وفيها يقول[1] :

« الله يعلم — وكفى به عليماً — لقد أردت مُكاتبتك بالتفدية ، فرأيت عَيْباً أن أفْديَك بنفسٍ لابد لها من الفناء ، ولا سبيل لها إلى البقاء ، ومَنْ أظهر لك شيئاً يُضْمر خلافه فقد غَشّ ، والأمرُ إذا كانت الضرورة توجبه ، وتحقق أنه ملكٌ لا يتحقّق ، وعطاء لا يتحصّل ، لم يجز أن يخاطَب به مثلك ، وإن كان عند قوم نهايةً من نهايات التعظيم ، ودليلا من دلالات الاجتهاد ، وطريقاً من طرق التقرب » .

وقد التمس أبو العباس بن ثوابة لإنكار التفدية علة أخرى غير علة ابن المدبر ، لعلها أكثر منها تعبيراً عما أصاب الذوق الأدبى فى العصر من رقة بالغة عند بعض الكتاب ، حتى لتؤذيه الكتابة بالتفدية بنفس فانية غير باقية ، وهو إفراط فى الحسِّ والشعور والرقّة والدمائة . وبذلك نفهم عبارة أبى العباس السابقة حين استمع إلى كلام حاجم ، فقال : علىَّ بماء الورد أغسل فمى من كلام الحاجم ، وكأن سماع الكلام الذى لا يعجبه لا يؤذى أذنه فحسب ، بل يؤذى فمه ، وإنه لإيذاء غريب ، ولكن لا غرابة أن يصدر من أبى العباس ، فقد كان يتكلف

(١) زهر الآداب ٣ / ١٦ وجمهرة رسائل العرب ٤ / ٣٣٢ .

الدماثة والحسّ المفرط والشعور الحاد . وله من فَصْل فى رسالة كتب بها إلى نفس الوزير عبيد الله بن سليمان ، يقول فيه[١] :

« لم يُؤْتَ الوزير من عدم فضيلة ، ولم أوتَ من عدم وسيلة ، وغُلّةُ (حرارة) الصّادى (العطشان) تأبى له انتظار الوارد ، وتُعْجل عن تأمل ما بين الغَدِير والوادى ، ولم أزل أترقّب أن يُخْطِرنى بباله ، ترقب الصائم لفطره ، وأنتظره انتظار السارى لفجره ، إلى أن بَرِح (انكشف) الخفاء وكُشف الغطاء ، وشَمِتَ الأعداء ، وإن فى تخلفى وتقدّم المقصّرين لآيةً للمتوسّمين ، والحمد لله رب العالمين » .

والفصلُ مكتوبٌ بكل دقة ، فالوزير لم ينسه نقصًا فيه إذ اكتملت فضائله وأوفت على الغاية ، وهو لم يُؤْتَ من نقص ، فبلاغته ذائعة معروفة يعرفها القصىّ والدانى ، وإذن فليبحث عن علة ، ويقول إن الحرارة المشتعلة فى صدر العطشان تدفعه إلى عدم الانتظار لما قد يرد عليه ، وتُعْجله عن النظر فيما بين الغدير والوادى من خيرات ومياه وطيبات . ويمضى فيقول إنه كان يترقب إقباله ترقب الصائم الجائع لفطره والسارى بالليل الداجى لفجره ، غير أن أضواء الصباح العابس تفَلّتت من الأفق ، فاتضح الخفاء وانكشف الغطاء وأن الوزير لن يشمله برعايته ، وشمت الأعداء . وكأنما يعاتب عبيد الله بكل ذلك عتابًا رفيقًا وهو يختمه بقوله إنه أصبح فى عداد المتخلفين ، بينما تقدّمت فى رحاب الوزير كثرةٌ من المقصّرين الذين لا يبلغون شأوه ، ويقول إن فى ذلك لآية للناظرين ، ولا ينسى حمد الله رب العالمين الذى لا يُحْمَدُ فى مكروه سواه . والعبارات فى الفصل متسقة اتساقًا وثيقًا ، إذ لاءم أبو العباس بينها بقسطاس دقيق ، ونحسُّ انسجامًا بين الكلمات منذ العبارتين الأوليين ، وهو انسجام انتهى بهما إلى أن تصبحا سجعتين . ويضيف إلى ذلك فى العبارتين التاليتين مادة تصويرية طريفة ، حتى إذا سوّاهما تلاهما بعبارات يلتحم فيها السجع والتصوير معًا . وبذلك يَبْلغ أبو العباس بن ثوابة صاحب الدماثة المفرطة والرقة المتناهية كل ما كان ينتظر له من تأنق فى التعبير الأدبى ، إذ يتحول عنده إلى زخرف خالص ، زخرف يحمل كل ما يريد من وَشْىِ السجع ووشى الصور النادرة . وله من جواب عن تعزية[٢] :

---

(١) معجم الأدباء ١٤٧/٤ .

(٢) جمهرة رسائل العرب ص ٣٣٣ .

« وصل كتابك بالتعزية عن أخى ، وقد جَلَّتْ مصيبتى به وعظمت ، فنَكأت (جرحت) القلب ، وهَدَّت الركن ، وأذهبت القوة ، ونغَّصت العيش ، وأزْرَتْ بالأمل . فعند الله أحتسبه ، وإياه أسأل تفضلا عليه ، وصفحًا عنه ، وتغمداً (غفرانًا) لذنوبه ، وصَبْراً على حادث قضائه فيه ، واستعداداً للموت وتأهبًا له ، فإنه مَصْرَعٌ لا بُدَّ منه ، وموردٌ لا مَحِيصَ عنه » .

والانسجام واضح بين الكلمات والعبارات ، فقد صوَّر حزنه على أخيه بجمل متناسقة ، ولا شك فى أنه بذل جهداً عنيفًا فى اجتلابها ووضْعها متلاحقة ، وكل جملة تضيف خَطًّا إلى لوحة الحزن السوداء ، فعبارةٌ تحمل جرح القلب ، وثانية تحمل انهداد الركن ، وثالثة تحمل ذهاب القوة ، ورابعة تحمل تَنغص العيش ، وخامسة تحمل الإزراء بالأمل . ويتجه إلى الله بجمل مماثلة يدعو فيها لأخيه ولنفسه أما أخوه فيدعو له بالتفضل عليه والصفح عنه ، والغفران لذنوبه ، ثلاث دعوات ويقابلها لنفسه ثلاث أيضًا : الصبر على حادث القضاء، والاستعداد للموت بالعمل الصالح ، والتأهب له . وهكذا كل عبارة وكل كلمة كأنما توضع بميزان دقيق يزنها فى عبارتها ، ويزن عبارتها بالقياس إلى قرينتها أو قرائنها . ويذكر صاحب معجم الأدباء أن البحترى هجا بنى ثوابة فى قصيدة له فبعث إليه أبو العباس يترضَّاه بهدية نفيسة فردَّها وقال لحاملها قُلْ لأبى العباس : قد أسلفتكم إساءة فلا يجوز معها قبول صلتكم ، فكتب إليه :

« أما الإساءة فمغفورة ، والمعذرة مشكورة ، والحسنات يُذْهِبْن السيئات ، وما يأسُو (يداوى) جراحك مثلُ يدك ، وقد رددتُ إليك ما رددته علىّ ، وأضعفته ، فإن تلافَيت ما فَرَط منك أثبْنا وشكرنا ، وإن لم تفعل احْتَمَلْنا وصبرنا » .

فتَقبلَ البحترىُ ما بعث به ووعد أبا العباس أن يأتيه ثناؤه ومديحه. والكلمات التى كتب بها إلى البحترى تحمل نفس خصائصه من وزن الكلام بقسطاس ، وجَعله القسطاس هذه المرة يلائم أشد الملاءمة بين العبارات ، فإذا هى تأخذ صورة سجع خالص ، وهو سجع حافل بالعذوبة . ولا نبالغ إذا قلنا إن أبا العباس كان أحد من أعدوا بقوة فى القرن الثالث الهجرى لشيوع السجع وانتشاره .

خاتمة

هذا الجزء خاص بتاريخ الأدب العربي في العصر العباسي الثاني ، وقد بدأته بالحديث عن الحياة السياسية وما حدث فيها من تحول خطير ؛ إذ غرب نجم الفرس ولم يعد لهم شيء من السلطان والنفوذ ، فقد أصبح النفوذ كله والسلطان كله بيد الجند الأتراك وقوادهم ، وكانوا بدواً رُحَّلاً ، لا علم لهم بصناعة ولا بزراعة ولا بتجارة ، ولا بفنون ولا بآداب ، ولا بنظم ملك وسياسة ، وكانوا قد قبضوا على زمام الحكم في أواخر العصر السابق ، وظلُّوا مسيطرين عليه طوال هذا العصر . وعبثاً حاول المتوكل التخلص منهم ، ولكنهم ظفروا به وقتلوه ، وولوا مكانه المنتصر ، ومضوا يولّون ويعزلون ويقتلون في الخلفاء ، وزادوا عنفهم بهم بأخرة من العصر ، فكانوا يسملون أعينهم . وطبيعي أن تتدهور الخلافة ، وزاد في تدهورها انغماس الخلفاء في اللهو والترف واشتداد سفههم ، إذ مضوا يبنون القصور بالأموال الطائلة ، غير مفكرين في خزائن الدولة ولا فيما ينبغي أن تُنْفَقَ فيه الضرائب من مرافق الشعب ومصالحه وإعداد الجيوش بالعتاد المادي والحربي . وفسد الحكم فساداً لا حدَّ له فقد تحول الوزراء إلى لصوص ينهبون أموال الدولة ، وتؤخذ منهم الملايين ويصادَرُون ولا رادع ولا زاجر ، والشعب يقاسي كل صنوف البؤس والشقاء . وتشبّ ثورة الزنج في البصرة وتظل أربعة عشر عاماً ، وتشبّ ثورات القرامطة وتظل سنوات متطاولة ويُقْضَى عليها في العراق والشام ، ولكن تظل منها شعبة في البحرين ، تهدّد الدولة وتكلفها كثيراً من الأموال والرجال حتى نهاية العصر . وتكاثرت الأحداث ، وكان من أهمها إعلاء الدولة لأهل السنة على المعتزلة ووقف القول بخلق القرآن وامتحان الفقهاء فيه . وكانت الغزوات الصيفية للروم البيزنطيين لا تزال ذاهبة آيبة ، وتكاثرت ثورات العلويين في الكوفة وطبرستان ، وثار الصفاريون في سجستان وكرمان وفارس ، واستسلموا آخر الأمر . ولا نصل إلى أواخر العصر ، حتى يتغلب كثير من الحكام على ولاياتهم ، وكأن ذلك كان إيذاناً بانتهاء هذا العصر وانتهاء

الحكم التركى معه ، إذ استولى بنو بويه الفرس على بغداد ، وصار لهم السلطان فيها والصولجان .

وكان المجتمع العباسى يتألف من ثلاث طبقات : طبقة تنعم بكل أسباب الترف والنعيم ، وهى طبقة الخلفاء والوزراء والأمراء وكبار موظفى الدولة وأصحاب الإقطاعات ورءوس التجار . وطبقة وسطى ، معيشتها بين الترف والشظف وهى طبقة رجال الجيش وصغار الموظفين ومتوسطى الدخل من التجار والصناع . وطبقة دنيا ، معيشتها بؤس وضنك وإعسار ، وهى الطبقة العامة من الزراع وأصحاب الحرف الصغيرة والرقيق . ومن يطلع على ما كان يُنْفَقُ حينئذ فى قصور الخلفاء والوزراء يُخَيَّلُ إليه أنه يقرأ فى أقاصيص ألف ليلة وليلة ، إذ يبلغ ما كان يُنْفَقُ على المطابخ أحياناً ثلاثين ألف دينار شهريًّا . أما القصر فكان يبلغ ما ينفق عليه أحيانًا مليونين ونصفًا ، والقصور الباذخة تشيَّد ، والشعب يكدح ويتصبَّب من جبينه العرق ليصبح ما يملكه وزير أكثر من عشرة ملايين دينار ، ولكل وزير حرسه الذى يزيد عن المئات على حين يزيد حرس الخليفة عن الآلاف . وكان كثير من أهل الطبقة الوسطى تسيل إليهم من هذا الترف وأمواله سيول ، وخاصة الأطباء والمغنين والمترجمين والشعراء ، أما الطبقة الدنيا فكانت مع بؤسها تُبْتَزُّ منها الأموال بكل الطرق ، واضْطُرَّ كثيرون منها إلى أن يصبحوا قَرَّادين وحوَّائين ومتسوِّلين بطرق شتى . وكان أهل الذمة يعامَلُون معاملة سمحة ، وكان كثير من النصارى يعملون فى البيمارستانات أطباء وفى الدواوين كُتَّاباً . وكان قصر الخلافة كثيراً ما يتحول إلى مقصف كبير للهو والغناء ، ولم يتوقف فيه البذخ والترف طوال العصر . وكان الرجال والنساء جميعًا يبالغون فى الأناقة : الأناقة فى الملبس وكل ما يتصل به من طيب وعطر . وتفننوا فى المطاعم إلى غير حد كما تفننوا فى الحلواء وفى الشراب . وعُنوا بالسمر والمنادمة وضروب كثيرة من الملاهى . وكان الرقيق — وخاصة رقيق الجوارى — يملأ الدور والقصور ، وكانت النخاسة قائمة على ساق ، وكانت دورها فى الكرخ وغير الكرخ تكتظُّ بالقيان . ولم يُعْنَ المجتمع العباسى بفن كما عُنى بالغناء والموسيقى وكانت فيهما مدرستان : محافظة ومجددة ، وكانت المدرسة المحافظة أكثر أنصاراً . وأثَّر الجوارى حينئذ آثاراً كبيرة فى شيوع الظرف والرقة واللطف . وظلت موجة المجون

والشعوبية والزندقة حادّة فى العصر ، وكانت ضاحية الكرخ والبساتين والأديرة تمتلىء بحانات الخمر ، وكان الناس يقصفون ويمرحون فى أعياد الإسلام والمسيحية والمجوس . وكانت نار الشعوبية لا تزال متّقدة ، وصبّ عليها الجاحظ وابن قتيبة مياهاً كادت تطفئها إلا قليلا ، ولذلك قلما نسمع بها بعد هذا العصر إنما نسمع عن الإلحاد والزندقة ، ومن رءوس الزنادقة الملحدين فى العصر ابن الرّاوندىّ ومحمد بن زكريا الرازى . ولم يكن هذا كله الصوت القوىّ فى الأمة ، إنما كان الصوت القوى هو الانصراف عن المجون وكل ما يتبعه من إثم والعكوف على الدين الحنيف والاستماع لوعّاظه والالتفاف حول عبّاده ونسّاكه . وهيأ ذلك لاتساع حركة التصوف ، وكانت قد بدأت مع أواخر القرن الثانى الهجرى ولكنها تأخذ حقّاً فى الازدهار بهذا العصر ، إذ أتيح لها أعلامٌ أرسوها ، بحيث أصبحت لها قواعد وأصول ثابتة .

ونشطت الحياة العقلية نشاطاً واسعاً ، وكانت المساجد أشبه بجامعات حرة ، والطلاب يفدون عليها من كل صوب متحولين من حلقة إلى حلقة ناهلين ما يشاءون من العلوم اللغوية والشرعية والكلامية . وقامت بجوار المساجد دكاكين الوراقين التى كانت تحفل بكتب العلماء من كل صنف وبما تُرجم من علوم الأوائل وثقافات اليونان والفرس والهند . وتأسست مكتبات كثيرة منها ما كان عامّاً مثل خزانة الحكمة ، ومنها ما كان خاصّاً لبعض الأفراد . وتُرْوَى أقاصيص كثيرة عن شغف الناس بالعلم ورحلتهم فى سبيله وانقضاضهم — حتى العامة منهم — عليه انقضاض الأسد على فريسته ، ولعل ذلك ما جعل الجاحظ وابن قتيبة يحاولان تقريب الثقافة إلى الشعب ، حتى يتزوّد منها بطرق يسيرة سهلة . ويظل نقل الثقافات الأجنبية وخاصة الثقافة اليونانية محتدماً ، ويتطور النقل من النقل الحرفى إلى نقل معانى الفِقَر بحيث تصبح صياغة الكتب المترجمة ناصعة شديدة النصوع . ونهضت العلوم الطبيعية والطبية حينئذ نهضة واسعة ، وليس ذلك فحسب ، فقد أصبح للعرب بدورهم فلاسفة نابهون مثل الكندى فى أوائل العصر والفارابى فى أواخره . وتزدهر العلوم اللغوية والنحوية ، فتُشْرَحُ النصوص القديمة شروحاً موسّعة ، وتوضَعُ بعض المعاجم ، وينشط تلامذة المدرستين البصرية والكوفية فى النحو ، وتنشأ المدرسة البغدادية . وتكثر حينئذ المباحث البلاغية

فى بيئات اللغويين المحافظين والمترجمين والمتفلسفة المجددين والمعتزلة المعتدلين ، ويتم الغلب للأخيرين ، ويكتب ابن المعتز كتابه الطريف « البديع » ويخطو النقد خطوات نحو تقنين مبادئه ، ويشاطر فيه الجاحظ مشاطرة قوية يتأثره فيها ابن قتيبة ، ويُصْدر قدامة كتابه « نقد الشعر » . وتنشط الكتابة التاريخية فى السيرة النبوية وفى تاريخ الأمم والدول وتاريخ المدن وسير الرجال وتراجم الشعراء . وينهض علم القراءات ويفرض ابن مجاهد القرَّاءَ السبعة المشهورين على العالم العربى الذى ارتضى ما أدَّى فى ذلك من جهد علمى خصب . ونهض التفسير بدوره على يد أهل السنة والمعتزلة والصوفية ، وبالمثل نهض تدوين الحديث ، ووُضعت فيه كتب الصحاح الستة . وظلت الدراسات الفقهية مزدهرة ، وظهرت فيها مذاهب صغرى أهمها مذهب داود الظاهرى الذى كُتب له الذيوع فى الأندلس والمغرب وخاصة فى عصر دولة الموحدين . وعلى الرغم من إعلاء الدولة لأهل السنة على المعتزلة ظل لهم نشاطهم ، وظهر بينهم أئمة مرموقون على رأسهم أبو على الجُبَّائى وابنه أبو هاشم ، وتفرَّع حينئذ من الاعتزال المذهب الأشعرى الذى يتوسط بين آراء المعتزلة وآراء أهل السنة ، والذى كُتب له الانتشار فى العالم الإسلامى .

ويظل للشعر نشاطه وازدهاره ، ويظل اللغويون يقدِّمون للشعراء دراسات تمكنهم من إتقان العربية على خير وجه والوقوف على كثير من أسرارها التركيبية والموسيقية ، ودعَّمَ هذا الوقوف مباحثُ النقاد والبلاغيين وملاحظاتهم على الخصائص الجمالية للبيان العربى . وأخذت تنشأ عربية مولَّدة ولكنها لم تَجُرْ على ألسنة الشعراء ولا أدخلت على أساليبهم شيئًا من الضَّيْم ، إذ كانوا يتمثَّلون العربية بخصائصها الجمالية والموسيقية تمثلا تامًّا . وتعمق الشعراء الثقافات الأجنبية والمباحث الفلسفية ، مما جعل عقولهم تحفل بذخائر خصبة من الأفكار الدقيقة والتقسيمات الطريفة والبعد فى الخيال إلى درجة الوهم وكثرة التوليدات العقلية ، وحتى البحترى الذى اشتهر بمحافظته على أصول الصياغة الموروثة للشعر العربى يمسُّه حظ من الثقافات المعاصرة . وكان حظ ابن الرومى وافراً ، ولذلك كثرت عنده العلل والأقيسة والأخيلة المبتكرة والقدرة على مدح الشىء وذمه . وظل الشعراء يبالغون فى مديح الخلفاء حتى ليسبغون عليهم صفات قدسية ، وسجَّلوا فى مدائحهم البطولات الحربية ،

واحتفظوا فيها أحيانـًا بوصف الأطلال نافذين إلى خواطر بديعة . وظلوا يستطردون إلى وصف الصحراء ، واتسعوا فى وصف الربيع والطبيعة الحضرية والأعياد وملاهيها . ونشط الهجاء ، وكانوا يعمدون فيه إلى التهوين والتحقير ، ونفذ فيه ابن الرومى إلى نوع جديد من الهجاء الساخر . وظل الفخر نشطـًا ، واحتدم الرثاء ، وتفجّعوا على أبنائهم تفجعـًا مريراً ، كما تفجعوا على البصرة حين هوت تحت أقدام الزنج . ولابن العَلاّف مرثية فى هِرّ تُعَدّ من عيون الرثاء ودُرَره . وصوّروا فى عتابهم واعتذاراتهم رقة أهل الحضر ودماثتهم . وظل للغزل ازدهاره سواء الغزل العفيف الطاهر أو الغزل المادىّ الماجن ، ونفذوا فيه إلى كثير من دقائق المعانى والأخيلة ، ولكثيرين منهم خمريات تطفح بالمتاع الآثم . ونشط شعر الزهد نشاطـًا واسعـًا . وأكثروا من التهانى والتراسل بالأشعار مع الهدايا ، وللبحترى وصف رائع لإيوان كسرى . ولهم أشعار كثيرة فى وصف قصور الخلفاء وبذخهم فى البناء ؛ وأكثروا من وصف الطبيعة والورود والرياحين ، كما أكثروا من وصف الوحش والصيد وكلابه والأطعمة على اختلاف ألوانها والملاهى ، وفسحوا للشكوى من الزمن ولوصف الأخلاق ولشعر التصوف وللشعر التعليمى على نحو ما يلاحَظ عند ابن الجهم وابن المعتز فى نظمهما للتاريخ ، وعند ابن دُرَيد فى نظمه للمعارف اللغوية .

وأعلامُ الشعراء فى العصر على بن الجَهْم والبُحْتُرى وابن الرومى وابن المعتز والصَّنَوْبَرِىّ ، فأما ابن الجهم فقرشى الأصل وُلد ونشأ ببغداد ، وتفتحت موهبته الشعرية مبكرة ، فمدح المعتصم والواثق ويتخذه المتوكل جليسـًا ونديمـًا بينما يدبّج فيه المدائح والأشعار وقد اندفع وراء المتوكل فى الهجوم على المعتزلة والعلويين والنصارى ، فتكاثر خصومه ، وسعوا به عند المتوكل فأمر بحبسه عامـًا ، ثم نفاه إلى خراسان . وعاد منها إلى بغداد ثم رأى الاشتراك فى نضال البيزنطيين ، ولكنه قُتل دون غايته . وأروع أشعاره ما نظمه فى الاستعطاف وليالى الأنس بالكَرْخ ، وأكثرها توهجـًا تصويره لصلابة نفسه حين سُجِنَ وصَلِىَ نار النَّفْى ، وكأنما كان صخرة عاتية لا تستطيع الكوارث والمحن أنّ تمسّ نفسه .

وكان البحترى عربيـًّا شاميـًّا من طيىء ، سال الشعر على لسانه مبكراً ، وفى حلب تعرّف بفتاة تسمّى عَلْوة ، ظلت لا تَبْرَحُ ذاكرته ، ولقى فى حمص أبا تمام حامل لواء الشعر فى عصره غير مدافَعٍ ، واستمع إلى شعر الفتى الناشئ ،

فشجّعه ، وأهداه بعض نصائح كان لها أثر بعيد فى شعره . وقد عكف البحترى على شعر هذا الشاعر الكبير يدرسه ويتمثله . وقدّمه أبو تمام إلى ممدوحيه ، ونزل سامرّاء وأصبح شاعر البلاط الرسمى من عهد المتوكل إلى عهد المعتمد . ولم يكد يترك وزيراً ولا موظفاً كبيراً ولا أميراً ولا والياً إلا صاغ فيه مديحه . وهو ممن يمثلون النزعة المحافظة فى عصره ، ويعدُّ بحق أستاذ الفن الموسيقى فى الشعر العربى ، وكأنما وقف على جميع أسراره ودقائقه ، وأكثر شعره فى المديح ، ومن روائع مدائحه مدحته لأحمد بن دينار وفيها صوّر معركة بحرية بقيادته دُمِّر فيها الأسطول البيزنطى . ولم يكن بارعاً فى الهجاء ، وله فخر ضعيف . ومراثيه قوية ، وله غزل يترقرق فيه الوجد كما يترقرق الماء فى الغصن ، وكان ماهراً فى وصف مظاهر العمران والحضارة والطبيعة .

وكان ابن الرومى يونانى الأصل وُلد ونشأ ببغـداد ، وكانت ملكاته خصبة أروع ما يكون الخصب ، وكان شديد الحساسية إلى درجة التطير ، وتُروَى عنه فيه أقاصيص كثيرة . وكان يتشيَّع ، ولعل ذلك ما جعل كثيرين يزورُّون عنه ، كما جعل أبواب الخلفاء والوزراء تُغْلَقُ دونه ، وويلٌ لمن كان يهجوه . وتتردَّد فى ديوانه أسماء ممدوحين كثيرين وكذلك أسماء كثيرات من الجوارى والقيان ، واستطاع بملكاته الخصبة أن ينفذ إلى لون ساخر جديد فى الهجاء كما أسلفنا ، وله مراث تفيض بالحسرات واللوعات ، وعتابه لأبى القاسم التَّوَّزِىّ وحواره مع هنّاته من أطرف ما نظمه شعراء العربية ، وله فى الغزل معان وأخيلة نادرة وكان يُشْغَفُ بالطبيعة وله فيها أشعار رائعة ، وهو يُكْثِر من وصف مجالس الأنس وألوان الطعام ، وله أشعار بديعة فى الزهد .

وكلٌ الشعراء السالفين من أبنـاء الشعب ، أما عبد الله بن المعتز فكان أبوه ابن الخليفة المتوكل وظل فى الخلافة نحو ثلاثة أعوام ، وقتله الترك ونفوا أمه قبيحة وابنه عبد الله إلى مكة ، وأعادهما المعتمد إلى سامرّاء وفيها مضى عبد الله ينهل من كل الثقافات ، وله مصنفات مختلفة أهمها كتابه البديع ، وكان يحسن الضرب على الآلات الموسيقية ، وله أصوات حملتها العصور بعده ، وله مدائح مختلفة فى عميه المعتمد والموفق وفى المعتضد وابنه المكتفى . وكانت مأساته فى أبيه وجدّه تصرفه عن التفكير فى الخلافة ، ولكن حدث أن تولاها المقتدر وهو

غلام ، وتُجْمع طائفة كبيرة من رجال الدولة على خَلْعه والبيعة لابن المعتز ، ويكون في ذلك حَتْفه . وآثار بيئته المترفة واضحة فى أشعاره ، وخير مدائحه ومراثيه ما نظمه فى ابن عمه وصديقه المعتضد ، وله فخر كثير وفيه يلوِّح من حين إلى حين فى وجوه العلويين ، بأن أسرته أحق منهم بميراث الخلافة . وله أشعار كثيرة فى الغزل واللهو والخمر وذم الصَّبوح ، وتكثر فى شعره التشبيهات والاستعارات كما يكثر وصف الصيد وكلابه وآلاته .

وكان الصَّنَوْبرى من أهل أنطاكية ، ولكنه نشأ وتربَّى فى حلب ، وعاش حياته بها إلا فترات كان يتردَّد فيها على الموصل . وأكثر من المديح ، وكان شيعيًّا ، وهو لا يَغْلو فى تشيعه ، وانعقدت صداقة بينه وبين كشاجم مواطنه الذى ينزل منه منزلة التلميذ من أستاذه . وفى أشعاره عناية واضحة بصناعتها ونثر فنون البديع فيها ، وله مدائح كثيرة ، وأروع مراثيه بكاؤه على آل البيت وتفجعه على ابنته ليلى ، وله غزل فى فتاة مسيحية . ويكثر من وصف الخمر ، وله أشعار فى الزهد ، وأهم موضوع شغله واشتهر به وصف الطبيعة حتى ضُرب المثل بروضياته ، وله غناء كثير بالثلجيات ، ويُعَدُّ فاتح هذا الباب فى العربية ، وله أشعار بديعة فى وصف الديك والصيد والهِرِّ والجُرْذان ، مما يشهد بملكته التصويرية الدقيقة .

وتكاثر شعراء السياسة والمديح والهجاء فى العصر ، وفى مقدمتهم شعراء الخلفاء العباسيين ، إذ كانت أموال الدولة بأيديهم ، فكثر مدَّاحهم حتى بين الشيعة ، ولكل خليفة شعراؤه الذين أشادوا به وبأحقية بيته فى ميراث الخلافة ، ومن أهمهم مروان بن أبى الجنوب وعلى بن يحيى المنجم وأبو بكر الصولى ، أما مروان فكان يسير سيرة جَدِّه مروان بن أبى حفصة فى الطعن على البيت العلوى ، مما جعل المتوكل يغمره بعطاياه ، وكان يُعْنَى مثل جَدِّه بصقل أشعاره . وكان على بن يحيى المنجم من أصل فارسى ، وهو مثال للنديم المثقَّف ثقافة واسعة ، وله شعر كثير فى مديح الخلفاء والوزراء وفى تصوير سمو نفسه . وكان أبو بكر الصولى التركى الأصل من بيت علم وكتابة ، وفتحت له ثقافته الواسعة ومهارته فى لُعْبة الشَّطرنج أبواب القصور العباسية منذ خلافة المعتضد ، وخير مدائحه ما نظمه فى الخليفة الراضى ، وله غزل رقيق كثير . وكان شعراء البيت العلوى يقفون مدافعين منافحين عنه ، وأهمهم

فى العصر محمد بن صالح العلوى والحِمّانى والمفجّع البصرى، وكان محمد بن صالح قد ثار بالحجاز، وزَجَّ به المتوكل فى غياهب السجون، ثم عفا عنه وعاش فى سامرّاء يمدحه، وله أشعار طريفة فى زوجه وفى بعض أصدقائه. وكان الحِمّانى نقيب العلويين فى الكوفة وله مراث كثيرة ليحيى بن عمر العلوى يبكيه فيها بكاء حارًّا. وكان المفجّع شيعيًّا إماميًّا، وكان يُكثر من مديح على وأبنائه. وكثرت الثورات السياسية فى العصر، وكان بعض الثوار شاعراً مثل صاحب الزنج فله أشعار تدور فى كتب التاريخ والأدب، ومثله يحيى بن زَكْرَوَيْه القرمطى الثائر بالشام وأبو طاهر الجنّابى صاحب الأحساء والبحرين. وأهم شعراء الثورات محمد بن البعيث وبكر بن عبد العزيز بن أبى دُلف، أما ابن البعيث فثار بأذربيجان، واستطاع حين أُتى به أسيراً إلى المتوكل أن يستلّ غضبه بشعره فيعفو عنه. وأما حفيد أبى دلف فثار بأعمال الجبل بين همذان وأصفهان، وله أشعار مختلفة يتهدّد بها قواد المعتضد وينذرهم — إن هاجموه — إنذارات خطيرة. ويَكْثُر كثرة مفرطة شعراءُ الوزراء والولاة والقواد، وفى مقدمتهم أبو على البصير وابن أبى طاهر وابن دريد، ولأولهم مدائح كثيرة فى الفتح بن خاقان وله مداعبات ومعان طريفة فى الغزل وفقد بصره وشيخوخته. ولابن أبى طاهر مدائح كثيرة فى الوزراء، وله أهاج لاذعة. واشتهر ابن دريد بمدائحه لابن ميكال والى الأهواز، وخاصة بمقصورته فيه وقد شُرحت مراراً وتكراراً. وخمد فى العصر الهجاء القبلى، وظل الهجاء الشخصى محتدمًا، ومن أكبر الهجّائين فى العصر الصَّيْمرى، وخبره مع المتوكل والبحترى مشهور. وأشد إيلامًا ووَخْزاً منه فى الهجاء الحمدونى، وقد دارت على كل لسان فى عصره أهاجيه فى طيلسان ابن حرب وشاة سعيد بن أحمد. وهَجّاء العصر غير منازَع ابن بَسّام، وله فى أبيه أهاج كثيرة، ولم يكد يترك خليفة ولا وزيراً ولا أميراً ولا كبيراً فى عصره دون أن يَكْوِيَه بميسم هجائه.

ويكثر شعراء الغزل وشاعراته، ويظل الغزل العفيف حَيًّا حياة خصبة بجوار الغزل المادى الصريح، ويكثر الناظمون للغزل من كل الأوساط، وكثيرات من الجوارى فى العصر كن يَنْظِمْنَهُ ويتقنّ نظمه، وأشهر شعراء الغزل حينئذ خالد ابن يزيد الكاتب ومحمد بن داود الظاهرى وفضل الشاعرة وكان خالد كاتبًا فى الدواوين، وله رقائق غزلية كثيرة يصوّر فيها حبًّا ظامئًا لا يَرْوَى أبداً، أما

محمد بن داود فكان فقيهاً ظاهرياً وغزله أفلاطونى نقى طاهر ، وكانت فضل من مولَّدات البصرة ، وهى أشعر الجوارى فى عصرها ، ولها معاتبات ومراسلات كثيرة مع سعيد بن حميد . وكان كثير من الشعراء ينغمس فى اللهو والمجون ، وكانوا يترافقون فى الديارات وفى الحانات وفى دور النخَّاسين ومن أكثرهم خلاعة ومجوناً الحسين بن الضحاك وأبو الشِّبْل البُرْجمِىّ وعبد الله بن العباس بن الفضل ابن الربيع . ونادم الحسين غير خليفة ، وهو فارسى الأصل ، وتَشيعُ فى غزلياته وخمرياته عذوبة مفرطة ، ولا يلحقه أبو الشبْل فى تلك العذوبة ولا فى خفة روحه . وكان عبد الله بن العباس بن الفضل بن الربيع يُسرْف فى الخلاعة والمجون ، وله أشعار فى نصرانية هام بها هياماً شديداً ، وشعره مثل شعر الحسين بن الضحاك وافر الموسيقى . وكان يقابل شعراء الخمر والمجون شعراءُ الزهد والتصوف ، وكانوا أقرب منهم إلى قلوب العامة التى كانت تعيش على شظف العيش وتعرف ربَّها وتتقيه فى السر والعلن ، ويتغنَّى كثيرون بأشعار زاهدة ، ويتكاثر المتصوفة ويتكاثر شعرهم فى المحبة الإلهية والفناء فى الذات العلية . ويظهر الحلاج الذى تمثل فى نفسه الحقيقة الإلهية ، مع إيمانه بتنزيه الله واتحاد الناسوت وهو الروح الإنسانى فى اللاهوت وهو الروح الإلهى على نحو ما يصوّر ذلك كتابه الطواسين وما فيه من حديث عن هذا الاتحاد ، وهو أول من أعدّ لفكرة الحقيقة المحمدية وأن الأديان جميعاً تؤدّى إلى الله جلّ جلاله . وكان الشبْلىّ الصوفى لا يغلو غلوه ، إذ كان تصوفه سُنياً ، مما جعله ينحىّ عن نفسه أفكار الاتحاد والشهود ، ومع ذلك كان يكثر من الحديث عن الأحوال والمقامات ، وكان يؤمن بفكرة الفناء فى الذات الإلهية . ويلقانا فى العصر شعراء كثيرون ينظمون فى الطرد والصيد ، وكان لهواً ومتاعاً للخلفاء والوزراء وعلية القوم ، وكانوا يخرجون إليه فى مواكب ومعهم الشعراء وكادوا لا يتركون ضارياً من ضوارى الصيد ولا جارحاً من جوارحه إلا نعتوه ، كما نعتوا الصيد من حُمُر الوحش وأتنه وثيرانه وبقره وظبائه ونعامه وأرانبه والطير والإوز ، وبالمثل نعتوا آلاته من النَّبْل والسهام والفِخاخ والشباك والبندق . ومن أهم الشعراء الذين شغفوا بوصف الصيد والقَنَصِ أبو العباس الناشئ ، وكان من المعتزلة ، وكان عالماً وناقداً كما كان شاعراً بارعاً ، وقد اعتمد كشاجم على أشعاره فى صنع كتابه المصايد والمطارد مما يدل بوضوح على كثرة نظمه فى الطَّرَدِ والصيد ، وله أشعار

بديعة فى وصف الكلاب والبزاة والشاهين والطير وأيضًا فى وصف الأسد وكانوا يفتخرون طويلا بصيده. ويكثر فى العصر شعراء النزعات الشعبية، وخاصة شعراء البؤس المكدين وغيرهم ممن صوَّروا ضيق الحياة وما يجرى فيها من ضَنْك شديد، وصوَّر كثيرون التحامق فى صور هزلية. ولا يبارَى جَحْظة البرمكى — الضارب على الطُّنْبور — فى تصوير تعاسة الطبقة العامة، وكثيراً ما صَبَّ سياطه على الحكام الفاسدين. ويمثل الخُبْز أرْزِىّ هذه الطبقة فقد كان أميًّا لا يقرأ ولا يكتب، ولغته حلوة خفيفة، وكان مواطنوه فى البصرة يشغفون بأشعاره شغفًا شديداً.

وازدهر فى العصر النثر ازدهاراً عظيمًا، وقد ظلت حركة الترجمة ناشطة، وشاع الاستواء والتناسق فيما تُرْجِم من آثار، وظهر الكندى أول فيلسوف للعرب بالمعنى الدقيق لكلمة فلسفة، وكان شاعراً وناثراً ممتازاً إذ كان يتمثَّل العربية ودقائقها وخصائصها تمثلا بارعًا. وأخذت بيئات مختلفة تتجادل فى معايير البلاغة العربية، فكانت هناك بيئة محافظة مثَّلها اللغويون، وبيئة تفرط فى التجديد مثَّلها المترجمون، وبيئة معتدلة مثَّلها المتكلمون، وهى التى كُتب لها السَّداد والنجاح ويمثلها الجاحظ وما وَضَع للبلاغة والبيان العربى من مقاييس فنية. وأبلى اللغويون بلاء حسنًا فى تثقيف الناشئة والأدباء باللغة والشعر ويتأثر بهم ابن قتيبة فى كتابه «أدب الكاتب» الذى وضعه نبراسًا للكتَّاب يهتدون به. ويصنِّف إبراهيم بن المدبر رسالة بديعة فى موازين البلاغة وأدوات الكتابة. وتحاول بيئة المترجمين والمتفلسفة أن تضع تشريعًا لمقاييس البلاغة العربية فى النثر على ضوء المقاييس اليونانية، ويكتب فى ذلك ابن وهب كتابه: «البرهان فى وجوه البيان» ولا يقف عند الاحتكام إلى كتاب الخطابة لأرسطو، بل يحتكم أيضًا إلى كتابيه فى المنطق والجدل. غير أن الأدباء فى عصره وبعد عصره ازورُّوا عن كتابه ومنهجه، وسادَ بينهم منهج المدرسة الكلامية وذوقها الأدبى العام الذى مثَّله الجاحظ فى كتاباته خير تمثيل. وضعفت الخطابة فى العصر، ولكن المواعظ لم تضعف، بل ازدادت اضطرامًا على أيدى المتصوفة، وأخذت تنتشر لهم حكايات وأقاصيص كثيرة تصور جهادهم فى قمع شهوات النفس ومطالبها من لذات الحياة، وتداولها الناس بحيث أصبحت ضربًا من ضروب الأدب الشعبى حينئذ، كما تداولوا عنهم حكايات كثيرة عن كراماتهم وأخبارهم. وليس ذلك فحسب، فإن

بعض المتصوفة كتب فى تصوفه مقالات نثرية بجانب ما كتب من أشعار على نحو ما يلاحَظُ فى كتاب الطواسين للحلاج . وكثرت المناظرات فى العصر بين المتكلمين وكذلك بين الفقهـــاء ، ومناظرةُ الحسن بن عبد الله السيرافى ومتى بن يونس فى النحو والمنطق مشهورة ، وبالمثل مناظرات اللغويين . وكأنما أصبحت المناظرات لغة العصر الفكرية حتى ليُعَنْوَنُ كثير من الكتب باسم الردّ أو النَّقْض ، وشاعت هذه الروح فى قصص وأخبار جُمعت ونُسِّقت فى كتابى المحاسن والأضداد والمحاسن والمساوى ، وهما كتابان نفيسان، تلتقى فيهما الثقافات العربية والإسلامية والأجنبية ومأثورات قصصية كثيرة عن الفرس والهند واليونان . وطبيعى أن تظل الرسائل الديوانية ناشطة فى العصر فقد كانت الدواوين تجذب إليها كتَّاب العصر البارعين من أمثال عبيد الله بن يحيى بن خاقان وزير المتوكل وأحمد بن الخصيب وزير المنتصر . ونبغ بعض الولاة فى كتابة تلك الرسائل مثل محمد بن عبد الله بن طاهر ، ومن كتابها النابهين لعهد المهتدى سعيد بن عبد الملك . وارتقى كاتب من كتابها المرموقين إلى مرتبة الوزارة فى عصر هذا الخليفة هو سليمان بن وهب، وكان ابنه عبيد الله وحفيده القاسم من كبار الوزراء ونابهى الكتَّاب . ويشيع السجع فى الرسائل الديوانية لعصر المقتدر ، ويصبح منذ هذا التاريخ ظاهرة عامة لا تخلو رسالة من وَشْيه وزخارفه . ويظل للرسائل الإخوانية نشاطها بدورها ، ولا تترك موضوعًا للشعر إلا وتشاركه فيه ، ويشيع فيها السجع مبكراً ، وتلقانا بعض رسائل مسجوعة سجعًا خالصًا ، منها رسالة طويلة لأبى على البصير كلها هجاء مرير . وكان أبو العَيْناء يسجع فى رسائله الشخصية . وكان ابن مكرم لا يُشيع السجع فى رسائله ،ولكن ألفاظه كأنها درر مختارة سواء فى اصطفاء اللفظ أو فيما يوشِّيها به من زخرف البديع . وكان أحمد بن سليمان بن وهب يسجع فى رسائله بينما كان يتخفف منه ابن أبى طاهر ، ومثله ابن المعتز. وتنشط كتابة الرسائل الأدبية ، وكان الجاحظ يشيع فيها أسلوب الازدواج ، على حين نجد ابن المعتز فى رسالة طريفة يمدح فيها سامرَّاء ويذم بغداد يملؤها بالسجع وألوان البديع وزخارفه . وكأن ذلك كله كان إرهاصًا بأن السجع سيعمّ مع أواخر القرن فى جميع الرسائل سواء أكانت أدبية أو إخوانية أو ديوانية .

وأعلامُ الكتّاب فى العصر إبراهيم بن العباس الصولى والجاحظ وابن قتيبة وسعيد ابن حُمَيْد وأبو العباس بن ثوابة . وقد ولد إبراهيم بن العباس ونشأ ببغداد، وظهرت فيه مخايل الأدب مبكرة ، فالتحق بدواوين الفضل بن سهل ، وظل يعمل فى دواوين الدولة وولاياتها حتى نكبه ابن الزيات وزير المعتصم والواثق وسجنه ، وعفا عنه الواثق، حتى إذا كان عهد المتوكل ابتسمت له الدنيا، فقلّده ديوان الرسائل ودواوين مختلفة ، وظل يكتب كل ما يصدر عن المتوكل من منشورات وفتوح وعهود لأولياء العهد وتهنئات بالأعياد . وكثير من ذلك كله احتفظ به الطبرى ، وهو يضوّر عنايته بتقطيع العبارات واصطفاء الألفاظ واستخدام بعض ألوان البديع دون إفراط ، وقد يضيف إلى ذلك أحيانًا اجتلاب بعض الأسجاع . وفى تحميداته ما يدل على ثقافة اعتزالية واضحة . وكان يوازن بين عباراته موازنات دقيقة فى الصوت والجرس والأداء، كما كان يعنى أشد العناية بمعانيه ،حتى تروق كتاباته اللسان والجنان،وقد تصبح بعض القطع عنده سجعًا خالصًا .

والجاحظ أكبر كتّاب العصر ، بل أكبر كتّاب العربيه قاطبة ، وقد نشأ بالبصرة وتمثّل كل ما كان فيها من معارف ، وهومعتزلى كبير بل صاحب مذهب اعتزالى قائم بنفسه سُمِّى الجاحظية نسبة إليه . وهو لا يبارَى فى وضوح كتاباته وقدرته على التوليد فى المعانى ،واستنباط خفياتها ودقائقها . وقد صوّر فى أعماله مجتمعه بجميع طبقاته العليا والوسطى والدنيا . وكان يُعْنَى بصياغته عناية كاملة ، واستطاع أن يفرض على العربية أسلوبه الذى ابتكره ، ونقصد أسلوب الازدواج، وحقًّا نجد له مقدمات عند غيره ، ولكنه هو الذى استمسك به وأشاعه فى جميع آثاره ، مع روح الدعابة التى يتميز بها ومع الاستطرادات الكثيرة حتى لا يمله القارئ . وقد عرضت خمسة ألوان من كتاباته : اللون الأول المناظرات واخترت مناظرة معبد والنظام التى وضعها فى أوائل كتابه الحيوان واحتلت فيه نحو مجلد ونصف ،وهى لا شك من عمله إذ جميعها بصياغته وأسلوبه. واللون الثانى رسائله الشخصية وهى حافلة بمهارته فى استنباط الأفكار وجمال أسلوبه . ومثلها اللون الثالث وهو رسائله الأدبية الباهرة . واللونان الرابع والخامس هما القصص والنوادر ، إذ كان قصّاصًا ممتازاً كما كان بارعًا فى سرد النوادر .

وأكبر مؤلِّف أدبى ظهر فى العصر بعد الجاحظ ابن قتيبة ، وهو بحكم

ثقافته الدينية يبدو محافظًا فى بعض آرائه النقدية ويشتهر بسياطه التى ألهب بها ظهور الشعوبيين، وأهم أسلحته الحربية التى اتخذها ضدهم فى رأينا أنه حاول فى كتابه «عيون الأخبار» المزج بين الثقافات الإسلامية والعربية والفارسية واليونانية والهندية مزجًا أسقط به الصراع العنيف بين الشعوبيين والعرب ، فليس هناك ما يسمى فارسيًّا مستقلا أو هنديًّا أو يونانيًّا أو إسلاميًّا أوعربيًّا ، بل هى ثقافة واحدة ، وهى ثقافة تشمل أيضًا ما عند أهل الكتاب ، فكل الثقافات دينية ومدنية تستحيل إلى هذه الصورة الجديدة التى صاغها ابن قتيبة ، بحيث خَفَتَ صوت الشعوبية ، فكل ما كانت تفتخر به على العرب أصبح من صميم العربية . وصاغ ابن قتيبة ذلك فى أسلوب أدبى ناصع يمتاز بالوضوح وانتخاب الألفاظ الرصينة واستخدام الازدواج محاكاة للجاحظ أحيانًا والاسترسال أحيانًا أخرى . وقد يجرى السجع على لسانه ، ولكن دون أى تكلف ، ويتشبه بالجاحظ أحيانًا فى نقل الواقع وفى خلط الجد بالهزل وإيراد بعض النوادر .

وسعيدبن حميد من أصل فارسى ، عُنى أبوه بتثقيفه والتحق بالدواوين وتألق نجمه فيها حتى أصبح رئيسًا لديوان الرسائل فى عصر المستعين ، وينص الطبرى على بعض ما كتبه من رسائل ديوانية ، وكان يُعْنَى أشد العناية بانتخاب ألفاظه وتقطيعها وتقابل الكلمات ، وقد يتكامل التقابل والتقطيع حتى يصبح الكلام سجعًا ، وله بجانب رسائله الديوانية رسائل إخوانية بنفس الأسلوب الذى وصفناه ، ونحس عنده دائمًا رغبة قوية فى النفوذ إلى أفكار مبتكرة ، حتى لتصبح الرسالة ضربًا من الحيل العقلية يروع بطرافته ، مع دقة التعبير وجماله .

وأبو العباس بن ثوابة من أسرة أصلها مسيحى ، عملت فى دواوين الدولة العباسية ، وتميَّز هو من بين أفرادها فى منتصف القرن الثالث الهجرى إذ التحق بدواوين الدولة ، وما زال يصعد فى مراتبها حتى اختير لرياسة ديوان الرسائل ، وله عهد طريف إلى أحد الولاة كتبه عن الموفق ، وهو يصور فساد الحكم حينئذ ، كما يصور عمل صاحب الحسبة ، وله رسائل إخوانية مختلفة ، يتضح فيها الحس المفرط والشعور الحاد كما يتضح السجع مضيفًا إليه مادة تصويرية بديعة .

فهرس الموضوعات

صفحة

صفحة

كتب للمؤلف مطبوعة بالدار

فى الدراسات القرآنية

- سورة الرحمن وسور قصار : عرض ودراسة
الطبعة الأولى ٤٠٤ صفحات

فى تاريخ الأدب العربى

- العصر الجاهلى
الطبعة السادسة ٤٣٦ صفحة
- العصر الإسلامى
الطبعة السادسة ٤٦١ صفحة
- العصر العباسى الأول
الطبعة الخامسة ٥٧٦ صفحة

فى مكتبة الدراسات الأدبية

- الفن ومذاهبه فى الشعر العربى
الطبعة الثامنة ٥٢٤ صفحة
- الفن ومذاهبه فى النثر العربى
الطبعة السابعة ٤٠٠ صفحة
- التطور والتجديد فى الشعر الأموى
الطبعة الخامسة ٣٤٠ صفحة
- دراسات فى الشعر العربى المعاصر
الطبعة الرابعة ٢٩٢ صفحة
- شوقى شاعر العصر الحديث
الطبعة السادسة ٢٨٦ صفحة
- الأدب العربى المعاصر فى مصر
الطبعة الخامسة ٣٠٨ صفحات
- البارودى رائد الشعر الحديث
الطبعة الثانية ٢٣٢ صفحة
- البحث الأدبى : طبيعته ، مناهجه ، أصوله ، مصادره
الطبعة الأولى ٢٧٨ صفحة

فى الدراسات النقدية

- فى النقد الأدبى
الطبعة الثالثة ٢٥٠ صفحة

- فصول فى الشعر ونقده
الطبعة الأولى ٣٦٨ صفحة

فى الدراسات البلاغية واللغوية

- البلاغة : تطور وتاريخ
الطبعة الثانية ٣٨٠ صفحة
- المدارس النحوية
الطبعة الثانية ٣٧٦ صفحة

فى مجموعة نوابغ الفكر العربى

- ابن زيدون
الطبعة السابعة ١٢٠ صفحة

فى مجموعة فنون الأدب العربى

- الرثاء
الطبعة الثانية ١٠٨ صفحات
- المقامة
الطبعة الثانية ١١٢ صفحة
- النقد
الطبعة الثالثة ١١٢ صفحة
- الترجمة الشخصية
الطبعة الثانية ١٢٨ صفحة
- الرحلات
الطبعة الثانية ١٢٨ صفحة

فى التراث المحقق

- المغرب فى حلى المغرب لابن سعيد
الجزء الأول – الطبعة الثانية ٤٦٨ صفحة
الجزء الثانى – الطبعة الثانية ٥٧٢ صفحة
- كتاب السبعة فى القراءات لابن مجاهد
الطبعة الأولى ٧٨٨ صفحة

فى سلسلة اقرأ

- العقاد
- البطولة فى الشعر العربى